الحوليات الأثرية العربية السورية

مجلة تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه

عدد خاص

بوقائع الندوة الدولية

حلب وطريق الحرير

٢٦ - ٣٠ ايلول ١٩٩٤



تصدرها وزارة الثقافة

المديرية العامة للآثار والمتاحف

في الجمهورية العربية السورية

المجلد الثالث والأربعون

١٩٩٩

برعاية السيد رئيس الجمهورية العربية السورية
السيد الرئيس حافظ الأسد

الندوة الدولية
حلب وطريق الحرير



حلب ٢٦ ـ ٣٠ ايلول ١٩٩٤

دمشق
١٩٩٩



السيد الرئيس حافظ الأسد

رئيس الجمهورية العربية السورية

الحوليات الأثرية العربية السورية

عدد خاص
بوقائع الندوة الدولية
حلب وطريق الحرير

حلب ٢٦ ـ ٣٠ ايلول ١٩٩٤

الحوليات الأثرية العربية السورية

مجلة أثرية وتاريخية تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، غايتها نشر الدراسات والأبحاث والمكتشفات المتعلقة بالآثار والتاريخ والتعريف بالأعمال التي تقوم بها المديرية العامة للآثار والمتاحف وإسهامها في النشاط العلمي العالمي وتعميم الثقافة الأثرية في سورية والوطن العربي والعالم.

تنشر المجلة أبحاثها باللغة العربية ويجوز للعلماء العرب والأجانب نشر مقالاتهم باللغات الفرنسية والانكليزية والألمانية، على أن ترفق خلاصة كافية عنها باللغة العربية.

باب الكتابة مفتوح للباحثين على أن تكون الأبحاث متفقة وأهداف المجلة.

لجنة تحرير المجلة

❁ ❁ ❁

تُرسل جميع المراسلات المتعلقة بالتحرير، والاشتراك أو التبادل إلى العنوان التالي:

مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية

المديرية العامة للآثار والمتاحف

دمشق ـ سورية

E-mail: antiquities@syriatel.net

كلمة ممثل راعي الندوة السيد الرئيس حافظ الأسد
السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة

درّةُ الشمال وسياجُه

السادة العلماء،

أيها الأخوة،

أيها الأصدقاء

إذا كان عز الشرق، كما عند أمير الشعراء أحمد شوقي، أوله دمشق، فان عز دمشق، في القرن الرابع للهجرة، كان أوله حلب. هنا، في هذه المدينة التاريخية العريقة، كان اثنان: سيف وقلم، أو كان رمزان، جَنان ولسان، ففي مقارعة الروم وصدهم، أو الوثوب عليهم، كان ثمة سيف الدولة، وفي تخليد مآثر هذا البطل العربي المقدام، واستعراضه الأسرى من الروم، الذين كانت أفواجهم تمر أمامه كلمى هزيمة، كان المتنبي، وقد أعطى، كلاهما حلب الشهباء، أمجد ما يعطى للمدن، كونها حصن تخوم، تترامى على قوس الشمال السوري، ومنبر شعر، ضجّ به الشمال والجنوب، قُلْ الجهات الأربع، من الفيحاء الى قاهرة المعز.

قبل ذلك، أو بما هو مثله، في الزمن الذي هو نهر الحياة، يسيل بنا، ولنا، دون توقف، قال أحد الرحالة القدماء: «في حلب تسمع ما يجري في أقطار العالم» فلماذا؟ لأن حلب كانت تستقطر الواحات، قوافل طرق، وتستنبت القطر، مسارات خطا، تبدأ من الفجاج، أبعدها الصين، وتنتهي في حلب، أقربها الى ثغور المتوسط، حيث يناخ الركب، ومعه أخبار العالم، منقولة، كالتبر، فوح حكايات تروى، على ألسنة التجار، ومجمع أعلام، الى حلب منتهاها ومنتشرها على السواء. وعلى هذا النحو، غدت الشهباء، في تأريخية التاريخ، ملتقى حزمة الضوء، ومفترقه في آن، لأن التبادل التجاري، في محطات طريق الحرير، وتوزعه بين أقطار شرق وغرب، كانا يتمان فيها، ويعطيانها من الشهرة ما هو بوسع الكون، صدىً وجوىً في آن.

لندع، اذن، حلب، التي كانت القصد، وكان الروض اليها السبيل عند المتنبي، ولننظر، من منطلق التقدير والاحترام، لمدينة أثرية، تجارية، عمرانية، دوّى اسمها، بمعنى الكلمة تماماً، في أسماع الدنى، بسبب من أنها اشتهرت، لا بكونها ملتقى قوافل فقط، ولا مستراح أحمال فحسب، بل بأنها مصدر صناعات أيضاً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وبها نعتز ونفاخر على الدوام.

إن دفاتر الأيام حفظت، في طياتها، صفحات غُرّاً لهذه المدينة التي اشتهرت بالبأس، والشعر، والعطاء اليدوي، فكانت مصدراً للمنسوجات الحريرية، والصناعات اليدوية، وبعدما كانت الأسواق مؤقتة فيها حول المعابد، ظهرت الأسواق الدائمة فيها في كل الجوانب، وبعد ذلك تخصصت، فكان فيها سوق الحرير، وخان خاير بك، وخان القصابية، وخان الصابون، وخان القاضي، وخان الجمرك، وخان الوزير، وكانت هذه الخانات كلها، تتميز بفعالياتها الاقتصادية، وأهمها فعالية الحرير التي يقترن اسم طريقها باسم حلب، كما يقترن باسم تدمر، واسم حمص، وعندما نتكلم على هذا الطريق، نتكلم على الأعجوبة، وعلى الانسان مجترحها.

ذلك أنه، كما العين ترى، فان القلب يرى، تلك تحاول، في مجال الرؤية، أن تتجاوز الرؤية، وهذا، القلب، في تلفته، يقوم بالمحاولة نفسها، على شكل ارتداد، الى ما لايحد. لكن الذي لا يحد، ليس دائماً بغير حد، فللذكرى، حتى في مداها البعيد، نقطة وقوف، ومحطة توقف، بعدها جدار يحتجز، لا الرؤية وحدها، بل مشارف الذكرى معها.

إن لعبة الخيال والتخييل، في سباق التجاوز بين العين والقلب، وصولاً الى الأبعد الأبعد في المسافات، ستظل مباراة مفتوحة، ما بقي الانسان على هذه الأرض، والانسان في ذراريه باق، والمباراة، في مدى الظن، باقية، والتاريخ، في استرجاعه الأحداث، يحرض مدى الظن هذا، فتشرئب المخيلة، عنقاء في جمالها والبهاء، لتدرك مدى الظن الذي لا يدرك، فيكون علينا، في حال كهذه، أن نتصور نقطتي البداية والنهاية، في القياس الجغرافي، تصوراً، لا في زمن الطائرة هذا الذي نحن فيه، بل في زمن القافلة التي، في الماضي السحيق، كانت تجلياً لقدرة الكائن البشري الخارقة، في اجتيازه الفيافي والجبال، في طِلاَبِ بغية تتحقق أو يموت دونها، لكن هذا الكائن، بقوة الارادة، حقق بغيته في الوصول، عبر أطول طريق، هي طريق الحرير التي ننتدي اليوم على اسمها، وفي مدينة حلب الشهباء، العزيزة، التي كانت محط رحالها.

في الأسطورة أن الانسان قرر، في ومضة العزم، أن يصل الى الملكة «ست البدور» التي وراء سبعة بحور، شريطة ألا ينظر الى وراء، كيلا يتصنم. كثرت التجارب، ومعها الضحايا، فالذين غامروا، هالهم البعد، فتلفتوا الى وراء، وتصنموا، لكن واحداً منهم نجح، لأنه في إرادة الغلاب، تغلَّب على الخوف، ولم ينظر الى وراء، ففاز بالبغية الكبرى، وكانت الملكة ست البدور له.

حسنا! هذه الأسطورة، في طريق الحرير، كانت أسطورة للغلاب بين الشجاعة والخوف، وقد غلب إنسانها الخوف فوصل، بين نقطتين، إحداهما في الصين، والأخرى هنا، في سورية، وفي حلب تحديداً، فكم من صعوبات واجه، وكم من مسافات قطع، نزولاً في الوديان، وصعوداً في الجبال، وتخويضاً في المياه، وتغريزاً في الثلوج، وارتعاداً في القر، والتهاباً في الحر، واحتمالاً للأجواء، في تقلبات طقس قَمْطَرير تارة، ساطع طوراً، وفي مواجهة رياح، تصده حيناً، ويسوقها أمامه، في خَطْوِهِ الى أمام، أحياناً أخرى!

إن الذهب هو أندر المعادن في وقتنا هذا، والحرير كان ذهباً في وقته ذاك، وكانت تجارته من أشق التجارات وأربحها، ما أن اكتشفت في حوالي العام ٢٦٤٠ق.م الامبراطورة الصينية «سي لينغ تشي»، في لحظة مصادفة،

سر الشرنقة التي تنحل الى خيوط حريرية في الماء المغلي، فعلمت شعبها كيف يصنع هذه الخيوط التي منها ينسج الحرير، ليكون حلية في الثياب لا تضاهيها حلية.

لقد ابتكرت الثياب الحريرية في الصين، وازدان بها من بعدُ الأباطرة في روما، حين اجتازت بها القوافل، راجلة أو راكبة، أطول الطرق وأصعبها وكانت لطريق الحرير في سورية القديمة محطتان، أولاهما في تدمر، وثانيتهما في حلب، ومنها، عبر البحر المتوسط، الى العالم في معظمه ثم في كله، إلى أن تسرب سر صناعة الحرير، إلى ما هو خارج الصين، ومن هذا الخارج، على بُعْد الشقة، سورية القديمة، التي اكتشفت السر، وعرفت بتربية دود الحرير، وحل شرانقه، وغزل خيوطه، ونسجها قماشاً وبُرُداً، وصيرورتها تجارة تدر ربحاً وفيراً جداً، إلى أن ابتكر الحرير الاصطناعي، فكان أقل كلفة، وأرخص سعراً، فقضى، مفروضاً علينا تجارياً من قبل الاحتلال الأجنبي، على صناعة الحرير الطبيعي تدريجياً، فكانت الكارثة الصناعية الأولى، في هذا الوطن الذي نجتمع في مدينته التاريخية الأثرية، الحضارية، حلب، وتبعت تلك الكارثة الصناعية الحريرية الهجرة البشرية، من الريف الى المدينة، على نحو ما نعرف تاريخياً.

لقد انتدينا، قبل نحو من عامين، في تدمر، مملكة زنوبيا الشهيرة، حول تدمر وطريق الحرير، وتحدثت في تلك الندوة عن أهمية تدمر، كعقدة مواصلات، وملتقى قوافل، وها نحن ننتدي الآن، في حلب، حول حلب وطريق الحرير أيضاً، لا لنعيد القول فيما فرغنا منه، بل لنأتي بالجديد، في أبحاث السادة الإخصائيين، من ضيوف أجانب وأشقاء عرب، وفق دراسات عديدة، غزيرة، متنوعة، متشعبة، جمعت خلاصاتها في كتاب هو بين أيديكم، وتتناول هذه الدراسات، في طليعة ما تتناول، أهمية حلب، حضارياً وتجارياً وآثارياً وعمرانياً، جغرافياً وتاريخياً، وهذا كله يسعدنا كل السعادة، ويؤكد، كرة أخرى، مدى اهتمامنا، في هذا العهد العربي السوري النهضوي، بكل ما يتعلق بالآثار، تنقيباً وترميماً، تجميعاً وعرضاً، في متاحف تتكاثر، عاماً بعد عام، في كل المدن السورية، وتنتشر معارض، في أربع جهات العالم، صادرين في ذلك عن وعي بقيمة الحضارة، عارفين مدى ما تنطوي عليه الأرض العربية السورية من كنوز الحضارات القديمة، وما يتوجب علينا من عمل لتظهيرها، وإخراجها من ظلمة التراب الى نور الواقع، كشاهد على عراقتنا، وكعامل على إغناء المعارف الانسانية، بكل ما يفيد من الناحيتين الحضارية والتاريخية، وسيكون لحلب، في هذه الندوة، كما كان لتدمر، في الندوة السابقة، حظ كبير من الأبحاث التي تتناول قيمتها الآثارية والتجارية، وشأنها الجغرافي والتاريخي، من قبل العلماء المختصين الذين لهم حق الكلام، وعلينا واجب الاصغاء.

إن هذا النشاط المعرفي، الذي تتكامل به جوانب نهضتنا الحديثة، وهذا الغليان، وأحسب أن الكلمة في موضعها تماماً، في العمل الثقافي الخلاق، انتاجاً ونشراً، ليس فورة أبداً. واذا كنت لا أزعم أن ثمة برنامجاً دقيقاً وشاملاً له، منذ ربع قرن تقريباً، أي منذ قيام الحركة التصحيحية، فاني أؤكد أن هناك تصوراً لكل منطلقاته وأبعاده، وفي هذا التصور من التخطيط الثقافي، كما التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والسياسي، ما يكفي كي نقول، بموضوعية: إنه الأساس في النهضة التي تشهدها سورية، بقيادة الرئيس حافظ الأسد، وهو من تعرفون وقدة ذكاء، وحدة بصيرة، وشجاعة جَنان، وحذق حوار، وطاقة على العمل،

في الحرب والسلم، هي مثار إعجاب العالم، على مدى عقود من الزمن، وبشهادة أجهزة الإعلام العالمية، في كل فروعها وأشكالها. بكلمة واحدة: حافظ الأسد رجل دولة، وفي العظام من رجال الدول، وإذ نقول ذلك لا نقول جديداً، إنما نذكر، كي نضع الأشياء في مواضعها، لأنه هو، الذي حقق هذه النهضة، قد رسّخ ركائزها، وهو، الذي يرعى هذه النهضة، يملك الطموح المؤسَّس على مقومات فعلية لإنمائها وتطويرها، وبصورة متكاملة، يتوزع فيها الاهتمام بقوتنا الضاربة، بمثل ما هو الاهتمام باقتصادنا الذي يسند هذه القوة، وكذلك الشأن في التربية، وفي الثقافة، هذه التي أدرك، بحكم معارفه الواسعة، وممارسته الطويلة، أنها هي التي تصوغ وجدان من يحمل البندقية، ومن يحمل المعول، ومن يعمل في التنمية، ومن يعمل في الإدارة، ومن يأخذ بيد المرأة، نصف المجتمع، كي تتبوأ أرفع المناصب، ليكون تحليقنا، حتى في الزمن الصعب هذا، تحليقاً بجناحين اثنين، حسب منطق العلم، الذي هو المنطق المطلوب، والمعوَّل عليه أكثر فأكثر، من قبله، وفي ضوء توجيهاته لنا جميعاً.

ولئن عرفت سورية، بقيادته، كيف تذلل العقبات، اجتماعية وسياسية واقتصادية، فقد عرفت، بارشاداته، كيف تبني اقتصاداً متيناً، متنامياً، متطوراً، بشهادة كل الدراسات العربية والأجنبية. نستطيع، اذن، أن نؤكد ازدهار اقتصادنا، وفي الازدهار الاقتصادي تكمن الازدهارية الدفاعية، لذلك نحن على ثقة لا من عدالة حقنا فقط، بل من القوة التي تدعم هذا الحق العادل أيضاً، وفي التوازن المؤسس على قاعدة وطيدة، بين الحق والقوة، تتبدّى نهضتنا الحديثة، ويتقدم بلدنا العصري، ليكون له الشأن، وكذلك المكانة، اللذان هو جدير بهما.

إنما لا مغالاة، انطلاقاً من هذه النهضة، ولا جنوح الى أيما تبسيط بسببها، فسياستنا الداخلية ترتكز على التعددية الاقتصادية والسياسية، وفي هذا كان لنا سبق، ودليلنا عليه جبهتنا الوطنية التقدمية، التي قامت بقيام الحركة التصحيحية، قبل خمسة وعشرين من الأعوام، وسياستنا الخارجية ترتكز الى مبدئية ثابتة: تحرير الأرض واسترداد الحقوق، ولم تفاجئنا، في هذه السياسة، المتغيرات الدولية من حولنا، لأننا استراتيجيون في طلب السلام العادل والشامل، وكذلك في العمل الجاد لهذا السلام. اننا نكره الحرب ونعرف مآسيها، لكننا لا نرهب تهديدات العدو، أو الغير، في أمرها. هنا صمود لا يتزعزع. السلام الشامل مقابل الانسحاب الكامل، وفي خطاب الرئيس الأسد، في افتتاح الدور البرلماني السوري السادس، وضع النقاط على الحروف.. اننا، كما قال الرئيس الأسد، مستعدون لمتطلبات السلام، على ألا تفهم هذه المتطلبات بشكل خاطىء من قبل أي جهة. متطلباتنا أن تبحث، في المفاوضات الجارية، كلُّ الأمور في كل جزئياتها، وعلى أساس قرارات الشرعية الدولية، ومرجعية مؤتمر مدريد، حتى لا نضع الحصان وراء العربة، ولا نتفق على كل، ثم نأتي، بعد ذلك، لندخل في متاهات التفاوض على الجزء، كما حصل مع غيرنا، وحتى لا يكون هناك إقحام لعملية السلام فيما هو خارج إطارها.

أيها السادة المنتدون

الأخوة الحضور

أعترف، كان علي، وقد شرفني السيد الرئيس حافظ الأسد، راعي هذه الندوة، أن أفتتحها نيابة عنه، أن أنقل، بدءاً، ترحيبه، وتكريمه، وتحياته وتمنياته لكم جميعاً، لكن ما كان بدءاً قد صار ختاماً، وليس هذا عن

سهو، بل عن عمد، كي نقول أولاً: من هو هذا القائد العظيم، عظمة القادة التاريخيين، وكي تطلعوا، من خلال ما أوردته، على بعض ما قد ترغبون في الاطلاع عليه، من شأن سياساتنا، داخلياً وعربياً ودولياً، ومن أمر مواقفنا، ومبادئنا، وثوابتنا، ومن شأو ما بلغناه في بنائنا، اقتصاداً وعمراناً، ثقافة وحضارة، قوة دفاعية، واستراتيجية تاريخية، قوامها نشدان السلام العادل، من خلال العمل الدائب، والصراحة الكاملة، ووضع الأوراق فوق الطاولة، وليس تحتها، كما يفعل الآخرون، الذين يتخذون من الكلام على السلام خدعة لفظية، فيقولون ما لا يضمرون، ويعلنون غير الذي يخفون، وبذلك يعطلون مسار العملية السلمية، تعطيلاً قصدياً وكيدياً، ثم لا يبلغون ما يشتهون، من تضليل الرأي العام العالمي، الذي أصبح يعرف الأشياء في حقائقها، لا في تلفيقاتها.

مرة أخرى، وباسم السيد رئيس الجمهورية، أرحب بكم ترحيباً حاراً، متمنية أن تنزلوا، في رحاب هذه المدينة الكريمة، المنزلة اللائقة، وتنعموا بدفء المودات، وتروا الى ما عندنا، بعد أن تتحدثوا بما عندكم ولديكم، في جو من الحرية التي هي أثمن من الحرير، بسطناها لشعبنا، ووفرناها لوطننا، وضمناها لأمتنا، وفي مراحها أقمنا علاقاتنا العربية والدولية على السواء.

الشكر الخالص للسادة العلماء المشاركين بأبحاثهم ومناقشاتهم، ولأبناء حلب ومسئوليها، ولمنظمة اليونيسكو والمديرية العامة للآثار، ولكل من عمل، بمثابرة، على تنظيم هذه الندوة العربية الدولية، وضمن بعمله لها النجاح الذي نأمل، والثمرة المعرفية التي نجتني ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾.

كلمة السيد محافظ حلب
الأستاذ مصطفى ميرو

السيدة وزيرة الثقافة ممثلة راعي الندوة رئيس الجمهورية العربية السورية الرئيس المناضل حافظ الأسد
السيدات والسادة
أيها الإخوة الضيوف المشاركون في الندوة

نرحب بكم في مدينة حلب، باحثين وزائرين عائدين إلى الماضي السحيق تفتشون في طيات التراث عن أثر القوافل التي عبرت الفيافي والقفار، حاملة عطور الشرق وتوابله وحريره لتحط رحالها في محطة هامة في حلب الشهباء، التي استقبلت مع البخور والحرير والتوابل ثقافة شعوب الشرق وعاداتهم، وحمَّلت القوافل من منتجاتها وثقافتها وحضارتها. فهي من أهم مواقع الاستيطان الإنساني المبكر، وهي منتصف الطريق ما بين شمال بلاد الرافدين شرقاً والساحل السوري غرباً والأناضول شمالاً وأرض كنعان جنوباً. حيث كانت ملتقى القوافل التجارية المتجهة من هذه الأماكن وإليها. وقد هيأت حلب نفسها لتقوم بهذا الدور وتشهد على ذلك أسواقها وخاناتها ومبانيها، التي مازالت تستخدم للغاية التي أنشئت من أجلها حتى يومنا هذا.

في عمق التاريخ وفي الألف الثالث قبل الميلاد وما يليه تتحدث الوثائق عن تجار حلب وصناعها وعن الاستعانة بهم من قبل الممالك الأخرى، فهي التي أمدت شمشي حدد في الجزيرة بالتجار والصناع، وحافظت على دورها ومكانتها في العصور التالية، إنها عاصمة سيف الدولة والثغر الصامد في وجه الروم. ومنها حمل الأيوبيون المحراب ليزينوا به بيت المقدس يوم تحرير القدس من الغزو الصليبي. وهي قبلة أوروبا لإنشاء القنصليات في العصر الحديث. ففيها افتتحت القنصلية الأولى في خان النحاسين، ومن ثم كانت قنصلية البندقية، وتبعتها قنصليات لفرنسا وانكلترا وهولندا فهي من أهم المراكز التجارية في شرق البحر الأبيض المتوسط وهي اليوم في مركز الصدارة صناعياً وتجارياً وعمرانياً حيث كان للأمن والاستقرار اللذين يعيشهما قطرنا من خلال التعددية السياسية والاقتصادية التي شكلت نهجاً واضحاً ومبدئياً للنظام السياسي والاقتصادي الدور الأعظم في تحقيق هذا التطور. فالحرير مازال ينقل من حلب وإليها عبر المسالك المختلفة لتسهم بفاعلية بالتنمية الشاملة التي شهدتها وتشهدها بلادنا في ظل الحركة التصحيحية المجيدة التي قادها الرئيس المناضل حافظ الأسد.

أيها الأخوة الضيوف، أيها الأخوة الأعزاء

إن ما بذلتموه وماتبذلونه من جهد في هذه الندوة يستحق كل التقدير والاعجاب، وبلاشك ستكون بحوثكم ومناقشاتكم وآراؤكم مرجعاً هاماً يشتمل على خلاصة ما كتبه الباحثون وما كشفه المنتقبون ليشهد على الدور التاريخي الذي أسهمت به أمتنا في حياة الانسانية، والذي يؤكد الدور المعاصر بأبعاده الوطنية والقومية والانسانية الذي تؤديه سورية اليوم ويؤديه القائد العظيم الرئيس المناضل حافظ الأسد.

شكراً لكم على جهودكم، وكل التقدير للجهود التي بذلتها المديرية العامة للآثار في التحضير لهذه الندوة، وكل الشكر والتقدير للسيدة وزيرة الثقافة ممثلة راعي الاحتفال لجهودها المتميزة ومتابعاتها الدائمة، ولما أدته وتؤديه وزارة الثقافة من عمل وطني كبير.

تمنياتي للندوة بالنجاح، ومن جماهير محافظة حلب كل الحب والولاء والوفاء للقائد الملهم الرئيس المناضل حافظ الأسد.

كلمة السيد المدير العام للآثار والمتاحف
الدكتور سلطان محيسن

السيدة الدكتورة وزيرة الثقافة ممثلة السيد الرئيس حافظ الأسد ـ رئيس الجمهورية، راعي الندوة.
الرفيق أمين فرع حزب البعث العربي الاشتراكي في حلب.
السيد محافظ حلب.
السيد ممثل اليونسكو.
الزملاء والعلماء:
السيدات والسادة:

«طريق الحرير» تسمية أطلقها جغرافي ألماني لأول مرة في القرن التاسع عشر، للدلالة على انتقال تلك البضاعة السحرية، التي تباهى الأباطرة والملوك والحكام، والنساء، بامتلاكها، ثم سرعان ما غدت رمزاً لأكبر الأحداث أهميةً في التاريخ مجسدةً حوار الحضارات والتقاء شعوب الشرق والغرب.

إن مشروع اليونسكو، لدراسة طريق الحرير، يرمي، وبشكل أساسي، إلى رصد عملية إنتقال الإنسان والأفكار، ومالهذا من دور في إغناء الحضارة الإنسانية وإنتشارها. فالحضارة في معناها الشمولي عالمية، إنسانية، ولم تكن في يوم من الأيام عرقيةً ولامحليةً، بل هي عطاء والتقاء وإبداع مشترك. وبغض النظر عن الدوافع الظاهرة لهذا الإلتقاء، سلميةً كانت أم عسكرية، فإنه لايلبث أن يحدث انعكاساتٍ عميقةً تتجاوز حدود انطلاقته الأولى. فعلى طرق الحريرِ، أو على أجزاءٍ منها، سارت البعثات الدينية، التبشيرية، ورحلات الشتاء والصيف، وقوافل الحجاج والمتعبدين، ودعاة البوذية والغجر، وهي أيضاً الطرق التي سلكتها الجيوش الغازية للمغول والتتار.

إن التجارة أفضل معبرٍ عن الحضارة، لأن البضاعة تنتقل على عجلةٍ وتنتقل معها الأفكار على العجلة الأخرى وغنيٌ عن القول إن دور العرب، ومنذ القدم كان متميزاً في هذا الانتقال، وقد بلغ هذا الدور قمته مع نهوض دولتهم العربية والإسلامية، وإنطلاقهم فرادى وجماعات، وسطاء ومبشرين بتعاليم دينهم الحنيف، مستكشفين، دارسين، ناشرين المعرفة والنور من الصين وحتى الأندلس.

ليست مصادفةً أن تكون سورية مقراً لندوتين متتاليتين في هذا السياق. فبالأمس كانت تدمر، واليوم حلب، ذات المجد الغابر والماضي التليد، التي حباها الله بموقعٍ وخيراتٍ فريدةٍ جعلت منها جسراً للتاريخ

والحضارة. حلب التي كانت مأهولةً بجماعات البشر الأوائل منذ مئات الألوف من السنين، وفيها وجدنا أقدم عملية دفنٍ، وأكملها، في العالم، وعلى أرضِها قامت أولى عمليات البناء والاستقرار والزراعة، وتدجين الحيوانات، وماتلاها من تحولاتٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ قادت إلى نشوء الدول والممالك الأولى في التاريخ.

حلب، التي ورد اسمها، أرمان حليبيوم، في النصوص العائدة إلى الألف الثالث ق.م.، عندما تباهى حكام الأكاديين العظام من سارغون إلى نارام سين باخضاعها، ثم أصبحت في الألف الثاني مقراً لمملكةٍ عموريةٍ، نافست البابليين في الشرق والمصريين في الغرب، ولم ينقطعْ ذِكرها في وثائق الآشوريين والمصريين والحثيين والميتانيين. وعلى أرضها ازدهرت الممالك الآرامية، وبقيت حيةً ناشطةً في العصور الهلنستية والرومانية بكل ماحملته هذه العصور من تبدلاتٍ وتحولاتٍ، ليكون لها الدور المتميز في انتصار المسيحية الأولى في الشرق كله.

ومع دخول العرب المسلمين محررين فاتحين، تابعت حلب الشهباء تألقها بعد أن سكن فيها، أو في ضواحيها، خلفاء الأمويين لتبقى مركز اشعاعٍ دائمٍ، وتبلغ عصرها الذهبي عندما جعل منها سيف الدولة الحمداني، في القرن العاشر الميلادي، عاصمة المجدين العسكري والثقافي. فسجلت حلب صفحاتٍ ناصعةً في تاريخ البطولة والفداء وفي رعاية الأدباء والشعراء والعلماء.

وبالرغم من غروب الشمس الحمدانية، فإن شعلة الشهباء لم تنطفيء، وبقيت حلب على مر العصور الإسلامية، من سلجوقيةٍ وأيوبية ومملوكيةٍ وعثمانيةٍ، غرةً في جبين الدهر، تشهد لها عمارتها الرائعة، وجوامعها ومدارسها وخاناتها وقلعتها العظيمة التي ظلت صامدةً خالدةً، في وجه الكوارث والاجتياحات لتؤكد لنا وبحقٍ أن حلب أقدم مدينةٍ لازالتْ مأهولةً حتى الآن.

إن هذه الندوة حدث تاريخي سيترك آثاره الدائمة في المحافل العلمية والثقافية، المحلية والعالمية، ومما يزيد من أهمية هذا الحدث وقوعه في سورية، مخزن التاريخ وأم الحضارات، سورية التي تعيش عصر قائدها وحافظها حافظ الأسد، راعي الندوة، والذي لم تشغله كل أعبائه، في بناء الوطن وتحريره، عن الاهتمام بالآثار والتوجيه بحمايتها ورعايتِها.

أيها الحفل الكريم:

لقد أعددنا لهذه الندوة بإدارة ودعم مادي ومعنوي مطلقين من السيدة الدكتورة وزيرة الثقافة، فلها الشكر كلهُّ. كما حصلنا على مساعدةٍ فعالةٍ وتجاوب من السيد محافظ حلب وأشكر منظمة اليونسكو على الدعم والتشجيع، وقد تفانى بالعمل أعضاء لجان الندوة والعاملون في المديرية العامة للآثار والمتاحف وآخرون كثر، لايتسع المجال لذكر أسمائهم الآن، فلهم جميعاً شكرنا الجزيل.

والسلام عليكم.

كلمة ممثل المشاركين الأجانب
البروفسور جان شارل بالتي

السيدة وزيرة الثقافة، ممثلة سيادة الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.
السيد محافظ حلب
السيد ممثل اليونسكو
السيد المدير العام للآثار والمتاحف
زملائي الأعزاء، أصدقائي
السيدات والسادة

اجتمعنا قبل سنتين تقريباً، في تدمر، تحفنا الرعاية الكريمة ذاتها إحياء لذكرى تلك المدينة الشهيرة على طريق القوافل، واليوم نلتقي ثانية في حلب، هذه الحاضرة التجارية والثقافية الكبيرة في سورية الشمالية، بالحماس ذاته وبحفاوة الاستقبال، في محاولة لإبراز مكانة هذه المدينة الرئيسة ذات الدور الهام في التبادلات التجارية بين الشرق والغرب. ستتمحور الندوة حول المدينة القديمة التي احتفظت باسمها القديم حتى أيامنا هذه رغم فترة السيطرة الإغريقية الرومانية ورغم علاقاتها الدولية، وسنبحث في ماضيها منذ عصور ماقبل التاريخ وحتى المرحلة العثمانية دون أن ننسى الحرير والمنسوجات التي مرت عبرها وأثّرت في بعض الأحيان على الفن في كامل المنطقة.

اسمحوا لي في البداية أن أقدم باسم جميع المشاركين الأجانب أسمى آيات العرفان لمنظمي هذه الندوة العلمية، وعلى رأسهم السيدة وزيرة الثقافة، الدكتورة نجاح العطار، التي بهرتنا كعادتها بكلمتها الافتتاحية، وتركتنا تحت تأثير لغتها الموسيقية، ولتسمح لنا بأن تكون ممثلتنا في نقل فائق تقديرنا واحترامنا وامتناننا لسيادة الرئيس حافظ الأسد لتفضله برعاية هذه الأيام العلمية ذات الفائدة الثقافية، كما أتوجه بالشكر إلى محافظ حلب للاستقبال الحار الذي خصنا به منذ مساء الأمس والذي سيبقى في عداد أفضل ذكرياتنا، ونخص بالشكر ممثل اليونسكو لاهتمام هذه المنطقة العالمية الواضح بهذه الندوة ولتخصيصها سورية بمكانة هامة أثناء دراسة طريق الحرير.

أخيراً اسمحوا لي سيادة المدير العام للآثار والمتاحف، الأستاذ سلطان محيسن، الصديق الوفي لأغلب الزملاء الحضور الذين حالفهم الحظ وعملوا في هذا البلد منذ سنوات عديدة، أن نتقدم منكم بأحر تهانينا

القلبية لنجاحكم في تنظيم هذه الندوة ولمن ساعدكم من المديرية العامة للآثار والمتاحف على عملكم الدؤوب أشهراً والذي يتوج اليوم ضمن هذا اللقاء الأخوي.

لقد قال الرومان يوماً: «والآن لنعمل» فبرنامجنا مثقل ومشوق، فإلى العمل بعد سماعنا الأستاذ سلطان محيسن وافتتاح المعارض الخاصة بالندوة وحضور الغداء بدعوة من السيد الرئيس حافظ الأسد لجميع المشاركين الذين كنت بفضل التفاتتكم الكريمة، سيادة المدير العام، ممثلاً عنهم في الدقائق الماضية.

نقدم لكم جميعاً عرفاننا لكرمكم وصداقتكم الحميمة واستقبالكم الحار، وستتاح لنا الفرصة في هذه الأيام القادمة أن نقول لكم مرة أخرى ومن قلوبنا شكراً.

المحتوى

الأبحاث الأجنبية المعربة

تدقيق وتنقيح محمد قدور

الموقع الجغرافي لحلب وبيئتها الطبيعية

عادل عبد السلام

جامعة دمشق

تتمتع مدينة حلب بموقع جغرافي فريد من نوعه، تميزه بيئة جغرافية طبيعية ذات خصائص معينة جعلت من حلب أهم مدينة ومركز تجاري في شمالي سورية الطبيعية منذ آلاف السنين. إن أبرز خصائص الموقع الجغرافي وبيئته الطبيعية هي:

١ـ حلب في مكان وسط يبعد مسافات متقاربة عن الفرات وعن البحر المتوسط.

٢ـ تقع حلب في منخفض من الأرض شبيه بالصحن الواسع تتوسطه تلة تؤمن الحماية والدفاع.

٣ـ تقع حلب ومنخفضها في بيئة جغرافية سهلية ـ هضبية متموجة السطح مترامية الأطراف مما يسهل الحركة والعمل والانتقال وشق الطرقات إليها ومنها.

٤ـ تحيط الجبال والمرتفعات بالسهل ـ الهضبي من الشمال (طوروس) والغرب (الجبال الساحلية) والجنوب (الجبال الوسطى). في حين تنفتح الأرض باتجاه الشرق والفرات مما يربط حلب وبيسر مع الظهير الجغرافي الآسيوي القريب والبعيد بطرق مواصلات سهلة، منها طريق الحرير. وهي طرق مفروضة عملياً.

٥ـ تتصل حلب بالأصقاع الواقعة وراء الجبال المذكورة عن طريق ممرات ومغارات محددة. فكأن حلب وظهيرها القريب خزان يستقبل ما يأتيه من الشرق الآسيوي ليدفع به عبر الممرات إلى الشمال والغرب (آسيا الصغرى والبحر المتوسط) وباتجاه الجنوب السوري. وليستقبل ما يأتيه من الاتجاه المعاكس. فحلب موزع ومستقبل تجاري وحضاري قديم.

٦ـ ساعد توافر الماء من نهر قويق (العَوجَان) ومن عدد من الينابيع والآبار على قيام المدينة واستمرار إعمارها دون انقطاع.

نشأت مدينة حلب قبل نشوء طريق الحرير، الذي هو تسمية أُطلقت على واحد من الطرق التجارية القديمة المؤدية إلى حلب. فحلب ذات ماض تجاري وحضاري قديم وعريق، كان لموقعها الجغرافي أثر كبير في جذب التجار وطرق التجارة إليها. فانصبت فيها الطرق وخرجت منها في جميع الاتجاهات. ومنها طريق الحرير الذي ازدهرت التجارة على طوله لوجود حلب كواحدة من أبرز محطاته، كما نمت حلب وأثْرَت وتطورت اقتصادياً واجتماعياً لمرور خطوط تجارة طريق الحرير فيها.

يمكن تقسيم سورية الطبيعية إلى وحدتين جغرافيتين إقليميتين كبيرتين الأولى سورية الشمالية والثانية سورية الجنوبية. تفصل بينهما تضاريس هضبية ـ جبلية تنبثق من سلاسل بلاد الشام الغربية (سلسلة الجبال الساحلية السورية ولبنان الغربية وفلسطين، ثم سلسلة جبال شرق أغوار الانهدام السوري الإفريقي المؤلفة من كرداغ وحازم ـ الوسطاني والزاوية ولبنان الشرقية وشرقي الأردن)، وهي السلاسل التي تحجب عالم الداخل السوري عن عالم البحر المتوسط وتعيق الاتصال بينهما إلا عن طريق ممرات طبيعية ذات ماض تاريخي موغل في القدم تخترق السلاسل الجبلية الغربية في أماكن محددة.

تنحصر دراستنا في إطار (حلب وطريق الحرير) بالوحدة الجغرافية الشمالية من الداخل السوري التي كان لبيئتها وأوضاعها الجغرافية الطبيعية أكبر الأثر في استقرار الإنسان واستمرار استيطانه وقيام حلب ونشأتها الأولى ودوام إعمارها حتى أصبحت حاضرة الشمال السوري وقطب أحداثه وتطوره ونموه في أزمنة لم تكن فيها الحدود السياسية الراهنة تفصل بين الشمال السوري والعراق الشمالي، وبينهما وبين عالم جبال طوروس وكردستان وزاغروس في الشمال.

وانطلاقاً من أهمية دور الأرض والبيئة الطبيعية في رسم معالم الطرقات والدروب وتوافر العناصر والمقومات الطبيعية الأساسية لقيام التجمعات والمواقع السكانية نقسم دراستنا هذه إلى قسمين متكاملين، هما الوسط الجغرافي الطبيعي أولاً ثم الموقع الجغرافي لمدينة حلب ثانياً.

أ. الوسط الجغرافي الطبيعي لحلب:

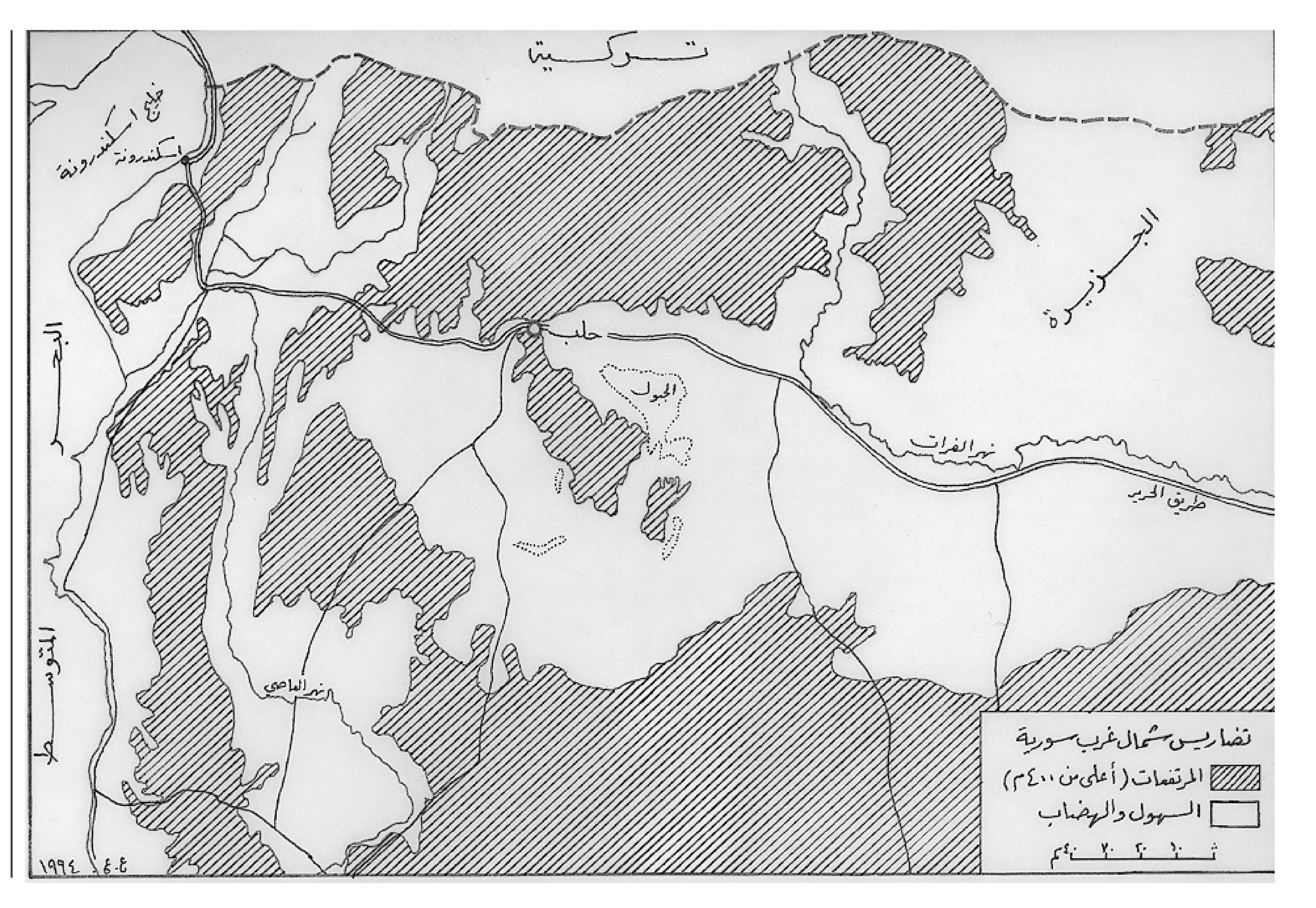
هو البيئة الجغرافية الطبيعية، وهو الظهير الجغرافي والحيز الإقليمي الطبيعي الواسع أيضاً. ويؤلف مركباً متشابكاً من الأرض والمناخ والمياه والنبات والعناصر الطبيعية الأخرى. ففي إقليم هضبة حلب و الشامية الشمالية[١]، تغلب أوضاع جغرافية طبيعية تميز العناصر المكونة للبيئة، تتمتع بخصائص معينة تفسّر جوانب كثيرة تسهل دراسة طريق الحرير وغيره من طرق أخرى، كما تفسّر دوافع قيام مدينة حلب في الموقع الراهن وأسبابه.

١. الأرض والسطح:

يشمل الوسط الجغرافي جميع البقاع التي تدخل في إقليم (هضبة حلب والشامية الشمالية) وهوامش الأقاليم الجغرافية المحيطة به. فصفات الوسط والإقليم وخصائصهما واحدة.

تتصف أرض الإقليم بأنها منبسط مترام شاسع ارتفاعاته المتوسطة تقع بين ٤٢٠ ـ ٥٥٠م فوق مستوى سطح البحر، لذا فإنها عبارة عن تضريس سهلي ـ هضبي، على الرغم من شيوع تسميتها بسهول حلب، إذ يؤكد واقع ارتفاعها فوق سطح البحر انتماءها إلى زمرة الهضاب الواطئة. وانبساط أرضها منحها صفة السهل الهضبي. لأن السهل هو ما يقع دون ارتفاع ٣٠٠م فوق سطح البحر من منبسطات. ويتميز السطح على الرغم من غلبة الاستواء والانبساط على تضاريسه، بالتموج الواسع ولاسيما في منطقة الشامية الشمالية وأراضي ما وراء الفرات في إقليم الجزيرة، التي تعد امتداداً طبيعياً للوسط الجغرافي لحلب وظهيرها. أما الأنحاء الغربية من إقليم (هضبة حلب والشامية الشمالية) فتتألف من منطقتين هما منطقة: هضبة حلب وسهولها في الشمال والغرب. ومنطقة: منخفض الجبول. وهنا وفي المنطقتين يتشوش انبساط السطح وتموجه بظهور تضاريس بارزة تعتوره. بعضها جبال واطئة (جبل أم فيال ـ الأقرع وارتفاعهما ٥٥٠ ـ ٦٥٠م)، وجبال مائدية (جبل الحص ٥٠٠ ـ ٥٥٠م وجبل شبيت ـ ٤٥٠م)، وبعضها الآخر منخفضات مغلقة تنتشر جنوب وجنوب شرقي حلب ولاسيما في منطقة منخفض الجبول وحوضه الغني بالمنخفضات السبخية ـ المَلِحة، أكبرها سبخة الجبول (على ارتفاع ٣٠٨ ـ ٣١٥م) وسبخة رسم الروام وسبخة شبيت ـ المراغة، وسبخة الخرايج. أما منخفض المطخ المغلق، منتهى مياه سيول قويق، نهر حلب الذي قطع الأتراك مياهه عن الجريان في سورية منذ عام ١٩٢٠[٢]، فهو منخفض مغلق ومستنقع كان يعرف بـ(المرج الأحمر) قديماً، وأرضه هي أوطأ منطقة في الإقليم كله (٢٦٨ ـ ٢٦٩م) فوق سطح البحر.

إن نظرة فاحصة على خريطة طبوغرافية ـ أوروغرافية للإقليم المدروس موضوعها الرئيسي هو توزيع التضاريس السهلية ـ الهضبية من جهة والهضبية ـ الجبلية من جهة أخرى. كما تظهر فيها العقبات الطبيعية الأخرى المعيقة


تركية
خليج اسكندرونة
اسكندرونة
البحر المتوسط
حلب
الجبول
نهر الفرات
طريق الحرير
الجزيرة
نهر العاصي
ع.ع ١٩٩٤
تضاريس شمال غرب سورية
المرتفعات (أعلى من ٤٠٠م)
السهول والهضاب
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠كم

للحركة والانتقال (مثل السبخات والمستنقعات)، تبين وبوضوح كبير أن الطريق الواصلة بين حوض الفرات والجزيرة وشمالي العراق في الشرق، وحلب وشمال غربي سورية في الغرب هي طريق مفروضة طبيعياً حددت مسارها المرتفعات والجبال والسبخات والأراضي الوعرة . مما يعكس أثر الوسط الجغرافي الطبيعي في رسم طرق المواصلات التاريخية مثل طريق الحرير . إذ أن أصلح المسالك هي طريق تبدأ من ثنية الفرات حيث ينتهي (طريق الفرات)، وتتجه غرباً إلى حلب، متفادية سبخة الجبول وأوعار جبل الحص (جنوباً) وعقبات أرض مرتفعات جبل أم ميال ـ الأقرع وجبل جال الجرن (شمالاً) .

٢ـ البنية الجيولوجية ـ الجيومورفولوجية:

الأوضاع الجيولوجية والتكتونية (البنائية) في إقليم حلب بسيطة خالية من التشويه والتعقيد . فأرضه تكونت على ما يعرف بـ(نهوض حلب) المحصور بين (وهدتي) إدلب ـ عفرين والغاب في الغرب، والفرات في الشرق، وبين حزمة الصدوع التدمرية وطياتها في الجنوب ونطاق الطيات الألبية (الطوروسية) وهوامش الركيزة العربية في الشمال، تقل فيها الصدوع والطيات المحلية باستثناء وهدتي الجبول والمطخ الصغيرتين .

تتألف صخور الإقليم من تكوينات رسوبية غالبة تنتسب إلى الحقب الثالث الجيولوجي، من الكلس والكلس الحواري والمارن والكلس الرملي، ويزيد عليها الجص والملح في الأحواض المغلقة، والبازلت في الجبال المائدية (الحص وشبيت) .

وتجلل الترسبات الرباعية أغلب سطح هذه الصخور وتغشّيها، وهي قارية المنشأ نهرية ـ سيْليّة، أو بحيرية مستنقعية . وفي جميع الأحوال والأنحاء تقريباً فإن التوضعات الصخرية والطبقات الرسوبية في الإقليم هادئة نسبياً وذات ميول ضعيفة جداً حتى أفقية، الأمر الذي يفسر الانحدارات اللطيفة والمساحات السهلية ـ الهضبية المنبسطة في طبوغرافية السطح وجيومورفولوجيته، إذ يندر أن تزيد الانحدارات على ٥ درجات، وعلى مسار طريق الحرير لا يزيد الانحدار على ٧٪ إلا ما ندر . لذا فهو مسار مريح سهل لا يعيق الحركة في الاتجاهين، والحديث هنا عن الجزء الواقع شرق حلب باتجاه الفرات والجزيرة والعراق، وفي عصور قديمة كانت فيها تقنيات شق الطرق متواضعة بالموازنة مع ما هي عليه اليوم . والسطح مغطّى في أغلب أجزائه بترب حمراء وحمراء بنية متوسطية تكونت في بيئة مناخها شبه جاف، تصلح لزراعات بعلية ومروية، الحبوب والقطن في مقدمتها .

وعلى العموم فإن جيومورفولوجية الإقليم هي انعكاس للأوضاع الجيولوجية والبنائية والطبوغرافية والمناخية المؤثرة في عمليات الحت والتعرية والنقل والترسيب . والغالب على تضاريس الإقليم الأشكال التضريسية البنيوية الحديثة نسبياً، دون غياب الأشكال التضريسية الحتية والترسيبية التي تشاهد في مساحات متفرقة من السطوح الحتية، وفي أودية نهري قويق والذهب وروافدهما وغيرها من أودية سيْليّة، وكذلك في الأحواض والمنخفضات المغلقة كما في الجبول وبقية السبخات وفي المطخ، والأراضي الواطئة الأخرى المملوءة بالرسوبات الرباعية .

٣ـ المناخ والمياه:

لم يطرأ تغير كبير على الأوضاع المناخية التي كانت غالبة على الإقليم منذ نحو ثلاثة آلاف عام أو أكثر . ويؤكد ذلك كثير من الظواهر التضريسية والبقايا النباتية وكذلك الوثائق التاريخية لعل أبرزها محفوظات ماري ولاسيما الرسائل الخاصة بزواج ملك حلبي ابنته من زمري ليم ملك ماري، والرسالة الخاصة بحالة الطقس بالذات . وعلى هذا الأساس فإن المناخ الغالب على الإقليم هو النموذج المتوسطي الشرقي شبه الجاف والمعروف بـ(النموذج السوري) أيضاً، الذي تراوحت متوسطات حرارته السنوية بين ١٦ ـ ١٨ درجة مئوية، ومتوسطات الشتاء البارد والمطر بين ٥ ـ ٧ درجات، ومتوسطات الصيف الحار والجاف بين ٢٧ ـ ٢٩ درجة مئوية . أما الأمطار السنوية فمعدلها يراوح بين ٢٥٠ ـ ٣٥٠مم . وقيم التبخر عالية تزيد على ٢٠٠٠مم سنوياً .

ويتفق الوضع المائي مع الوضع المناخي والتضريسي الجيولوجي، إذ يعد الإقليم فقيراً بالمياه السطحية التي لا تتعدى ما كان يجري من مياه في نهرين داخليين هما نهرا قويق والذهب (كلاهما جاف اليوم)، إضافة إلى مياه السيول المطرية في عدد من الأودية الجافة المنتهية في أحواض ومنخفضات مغلقة . أما نهر الفرات فهو أكبر مصدر مائي

عذب، لكنه يجري على الهامش الشرقي لإقليم حلب. وجاء في معجم البلدان (ياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) عن نهر قويق «وهو نهر مدينة حلب... يمر في رساتيق حلب ثمانية عشر ميلاً إلى حلب ثم يمتد إلى قنّسرين إثني عشر ميلاً ثم إلى المرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يفيض في أجمة هناك... وماؤه أعذب ماء وأصحّه إلا أنه في الصيف ينشف فلا يبقى إلا نزر قليلة». وهو نهر العَوَجان أيضاً.

ويذكر نهر الذهب أيضاً فيقول:

«يزعم أهل حلب أنه نهر وادي بُطنان الذي يمر ببزاعة، وهو الذي يقال له عجائب الدنيا ثلاثة: دير الكَلَب ونهر الذَهَب وقلعة حَلَب، والعجب فيه أن أوله يباع بالميزان وآخره بالكيل، وتفسير ذلك أن أوله يُزرع على الحصى كالقطن وسائر الحبوب، ثم ينصب إلى بطيحة عظيمة طولها نحو فرسخين في عرض مثل ذلك فيجمد فيصير ملحاً يختّار منه أكثر نواحي الشام ويباع بالكيل».

وفيما عدا ذلك يعتمد الإقليم على المياه الجوفية التي ترفع من الآبار قديماً وبوساطة المضخات الآلية في الوقت الراهن. وقنوات الري من الفرات وأنابيب جر المياه إلى مدينة حلب. أما القنوات الضمنية (الفجارات أو الأقنية الرومانية) القديمة فقد اندثرت. وترفع المياه الجوفية من حوض حلب الهيدروجيولوجي الذي يقدر مخزونه بنحو ٤٨٠ مليون متر مكعب.

٤ـ النبات (النبيت):

يقتصر نبيت إقليم حلب على مساحات محدودة تنمو فيها أنواع شتى من الأعشاب والنباتات الطبيعية المتقهقرة. ويمثل الغطاء النباتي اليوم مرحلة متدهورة جداً من غطاء نباتي سابق غني وكثيف مؤلف من النباتات العشبية، وأنواع من الأشجار المقاومة للظروف المناخية التي كانت سائدة بعد انحسار تأثير العصور المطيرة (المقابلة للعصور الجليدية في العروض الجغرافية العليا)، مثل البطم والبلوط، وتقدر نسبة كثافة الأشجار والشجيرات في الإقليم قبل ما يناهز ١٠٫٠٠٠ سنة بنحو ١٥ـ٣٠٪ من المساحة. ترتفع في وادي الفرات والأودية النهرية الأخرى لتصل إلى تغطية تامة (١٠٠٪) في أغلب أجزاء أشرطة الزور (السهل الفيضي) اللحقية ـ النهرية، ولاسيما في وادي الفرات على حدود الإقليم الشرقية، حيث مازالت بقايا أشجار الحور الفراتي (الغَرَب) تشهد على ذلك. (أطلس توبنغن للشرق الأوسط ـ اللوحة 12-5-A. (١٩٩٠).

ويرجع السبب في تدهور الغطاء النباتي السابق واضطراب أوضاع التوازن البيئي الذي ساد الإقليم.. إلى بدايات تحول الإنسان من جامع ولاقط للموارد الطبيعية وصياد للطرائد والحيوانات البرية إلى مُزارع مستقر يعمل في الأرض لإنتاج أنواع متعددة من المحصولات الزراعية ـ الغذائية ثم الزراعية ـ الصناعية فيما بعد، وكذلك إلى مربٍ للحيوانات التي دجّنها لتقدم له الغذاء وغيره ولاستخدامها في قضاء حاجاته (يرجع تدجين الغنم والماعز إلى نحو ٦٥٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق.م، والبقر إلى نحو ٦٥٠٠ ـ ٧٢٥٠ق.م والحمير إلى نحو ٣٠٠٠ق.م).

إن النتائج الحتمية لظهور الزراعة قبل نحو ٩٠٠٠ سنة ونيف، وتدجين الحيوانات وتربيتها في المراعي الطبيعية، ولانتشار الاستقرار وازدياد أعداد السكان.. واستمرار التطور في مضمار الحضارة الإنسانية وتطور تقنيات استغلال البيئة الطبيعية ومواردها... هي تراجع المساحات المغطاة بالنباتات الطبيعية وانقراض أنواع كثيرة منها وتدهورها، لصالح الحقول والمزارع والمنشآت الاقتصادية والعمرانية التي أقامها الإنسان، ولاسيما في المناطق السهلية والسهلية ـ الهضبية وأودية الأنهار في إقليم حلب وخارجه. ليس هذا فحسب. بل أخذت الفيافي المخصصة للرعي تتقلص مساحاتها وتتقهقر أمام التوسع في المساحات المزروعة وأمام الزحف العمراني الريفي والحضري (المديني)، منذ آلاف السنين التي عاشت عهود مد وجزر، محصلتها لصالح المد السكاني ـ العمراني.

٥ـ خصوصية الوسط الطبيعي لإقليم حلب:

يتمتع إقليم حلب بمجموعة من الميزات والخصائص الطبيعية التي منحته وضعاً جغرافياً وخصوصية بيئية مهمة في بلاد الشام. وتظهر هذه الخصوصية من نتاج تشابك العناصر الجغرافية الطبيعية التي مر الحديث عنها والتي تأتي الأرض وتضاريس سطحها وجيومورفولوجيتها في مقدمتها، في إطار التعريف بالأرضية البيئية الطبيعية لطريق الحرير وموقع مدينة حلب.

وكخلاصة لما تقدم فإن الخصوصية المميزة للإقليم هي أنه منبسط متموج من سهل ـ هضبي منخفض، حتى ضعيف الارتفاع، انحداراته لطيفة وسطوحه لينة، يتألف من شريط أرضي محوره شرقي ـ غربي، هو في الواقع امتداد طبيعي لسهول الجزيرة ووادي الفرات وبلاد الرافدين واستمرار لتضاريسها المنخفضة والمنبسطة ـ المتموجة. ويشكل هذا الشريط الأرضي النهاية الغربية للسهول والتضاريس المذكورة (الجزيرة والرافدين). حيث يتوغل لما بعد مدينة حلب باتجاه المرتفعات الغربية والجبال، مندساً بين جبال طوروس وأقدامها في الشمال. والجبال الوسطى في الجنوب. فهو لسان أرضي واطيء مفتوح شرقاً ومحاط بالجبال والمرتفعات من الشمال والغرب والجنوب، تقع في جزئه الغربي مدينة حلب في موقع لا يمكن أن تكون إلا فيه لما يمتلكه هذا الموقع من خصائص نتعرض لها فيما يلي من فقرات.

ب ـ الموقع الجغرافي لحلب:

تقع مدينة حلب على ارتفاع يراوح بين ٣٧٥ـ٣٩٠م فوق مستوى سطح البحر في منخفض مستو من الأرض أغلبه إلى الشرق من مجرى نهر قويق الذي تجاوزه العمران إلى غربه اليوم. ويشغل هذا الموقع من اللسان الأرضي المذكور في الفقرة السابقة، مكان العين والثغر الغربي المتقدم من ظهير جغرافي يتجاوز حدود إقليم حلب إلى الجزيرة وبلاد الرافدين حتى بغداد ومايليها. وهو موقع فريد لا نجد مثيلاً له في شمالي سورية، عند تقاطع خط العرض الشمالي ٣٦ درجة و١٢ دقيقة و١٣ ثانية مع خط الطول الشرقي ٣٧ درجة و٩ دقائق و٣٠ ثانية (مركز المدينة). ويتمتع هذا الموقع بكثير من الخصائص والميزات أبرزها أنه:

١ـ يبعد مسافات متقاربة عن مجرى نهر الفرات وواديه في الشرق، وعن البحر المتوسط في الغرب، وعن أقدام جبال طوروس في الشمال، وعن بدايات الجبال الوسطى في الجنوب، حيث يحوم معدل المسافات حول ٨٠ـ١٠٠كم.

٢ـ يحتل مكاناً استراتيجياً مهماً، إذ قامت المدينة في منخفض من الأرض يشبه وعاءً ترتفع حافاته تلالاً كلسية تعلو حتى ٤٢٠ ـ ٤٣٠م فوق سطح البحر ماعدا حافته الجنوبية المنخفضة التي يعبرها وادي نهر قويق الذي يشق أرض المنخفض قادماً من الشمال نحو الجنوب. ويراوح فرق الارتفاع العام بين أرض المنخفض والهضاب المطلة عليه والمحيطة به بين ٤٠ ـ ٤٥م تقريباً، لكن ذلك لا يعيق المواصلات من حلب وإليها لكثرة الممرات والمعابر بين أرض المنخفض والهضاب.

وتتوسط هذا المنخفض تلة كبيرة تعرف بـ(تلة القلعة) ارتفاعها ٤٣٧م فوق سطح البحر، وارتفاعها فوق أرض المنخفض ٤٥م تقريباً، وبغض النظر عن الآراء المعروفة عن موقع النواة الأولى لمدينة حلب، جنوبي المدينة ثم موقع تلة السوداء، ثم موقع العقبة فالتوسع المتأخر للمدينة الذي احتوى تلة القلعة وما حولها، فإن هذا الوضع الجغرافي خاصيته دفاعية طبيعية جعلت من حلب ملجأ للسكان يحميهم عبر عصور التاريخ. وقد أكد المؤرخون والباحثون في المدن على أهمية الطبيعة الدفاعية لموقع حلب، وقدموها على الأهمية التجارية والصناعية. فوجود حلب واستمرار هذا الوجود والبقاء نتيجة أساسية لأهمية الموقع ذي القيمة الاستراتيجية الكبيرة التي وفرت لحلب الحماية الطبيعية والدفاع السهل.

٣ـ يتميز الموقع الجغرافي لحلب بأنه ملتقى لكافة الطرقات الرئيسية القادمة من الشرق والداخل الآسيوي إلى شمالي سورية، والخارجة منها إليه. إذ تفرض محاور التضاريس وتوزعها الجغرافي في الشمال السوري والعراقي على القوافل التجارية والعابرين للإقليم مهما تنوعت أهدافهم، أن تسير على محاور الطرقات المريحة والسهلة، التي تتوفر على طولها الخدمات الضرورية على مسافات متباعدة كافية، كما تؤمن لمستخدمي تلك الطرقات الحماية والأمان. ولما كانت التضاريس المحيطة بالظهير الجغرافي لمدينة حلب المؤلف من لسان سهلي ـ هضبي منبسط شبه خال من العوائق الطبيعية، استخدمته الطرقات للوصول إلى حلب والانطلاق منها أيضاً بيسر، ولاسيما الطريق التي عرفت بطريق الحرير في عصور وُجدت الطريق قبلها. واستمر استخدامه في التجارة وغيرها بعدها، مما يؤكد على أهمية الوسط الجغرافي لإقليم حلب من جهة، وعلى أهمية الموقع الجغرافي للمدينة من جهة ثانية.

٤ـ فرض موقع المدينة على الطرقات المؤدية إلى الأصقاع الجبلية المحيطة بإقليم حلب، وإلى البلدان الواقعة وراء الجبال، أن

تنطلق من هذا الموقع بالذات وأن تنتهي إليه أيضاً. وذلك عبر ممرات جبلية ومغارات محددة أقرب من غيرها من موقع مدينة حلب، وأيسر استعمالاً من قبل الإنسان والحيوان.

٥ـ موقع حلب الجغرافي مكان نموذجي لاستقبال الواردات والقادمين إليها من الشرق الآسيوي، ولتصدير ما يردها باتجاه الشمال والغرب إلى آسيا الصغرى وعالم البحر المتوسط، وباتجاه الجنوب السوري. وبالعكس فحلب موزع ومستقبل تجاري وحضاري قديم تحميه طبيعة استراتيجية ومقومات دفاعية لا تتوفر في الشمال السوري إلا فيها.

٦ـ على الرغم من فقر إقليم حلب بالمياه، فإن الأهمية الاستراتيجية ـ الدفاعية في الأصل والأهمية التجارية للموقع الجغرافي للمدينة فيما بعد، جعلا حلب تقنع بالمصادر المائية القليلة المتوافرة فيها وحولها، حتى عندما قطع الأتراك عنها مياه نهر قويق.

إن جر مياه الفرات في خمسينيات القرن العشرين، وتزويد حلب بوفرة من المياه العذبة شاهد آخر على الإحساس بأهمية الموقع الجغرافي لعاصمة الشمال السوري وإدراك صحيح لدوره في النمو والتطور والتنمية، وذلك على الرغم من قطع شرايين اتصال حلب بأنحاء ظهيرها الجغرافي الشمالي والشمالي الغربي بعد رسم حدود سورية مع تركية واقتطاع لواء اسكندرونة، وإغلاق طريق اتصال حلب بثغرها على البحر المتوسط، وهو مدينة اسكندرونة وميناؤها، وقيام الحواجز السياسية ـ الحدودية بينها وبين مدن جنوب جبال طوروس والداخل الأناضولي وراءها.

٧ـ يحتل موقع حلب الجغرافي مكاناً متوسطاً بين مواطن الحضارات القديمة ولاسيما بين أقوام الجبال وحضاراتهم في الشمال، وأقوام السهول والهضاب وحضاراتهم في الجنوب والشرق، وكذلك أقوام البحر المتوسط وحوضه. الأمر الذي دعا إلى التقاء الأفكار والثقافات وتبادل المنجزات والمنتجات والسلع. وهذا الالتقاء والتبادل الحضاري والتجاري بحد ذاته كان عاملاً مؤثراً وفعالاً في تقوية دور الموقع الجغرافي وزيادة أهميته، فالسبب والنتيجة يتبادلان الأدوار بالنسبة لحلب.

خلاصة ونتيجة:

كان للوسط الجغرافي الطبيعي وميزاته، وللموقع الجغرافي وخصائصه الدور الأول والأساسي في قيام التجمع السكاني الذي تطور ونما واتسع ليصبح مدينة حلب. وهي مدينة قديمة جداً وجدت قبل ظهور الحرير وتجارته، كما وجدت قبل تسمية أحد الطرقات المؤدية إليها والخارجة منها بـ(طريق الحرير)، فوجود حلب على مفترق الطرق التجارية الرئيسية سابق لوجود طريق الحرير. فالطريق كانت معروفة، أُخذت هذه التسمية من سلعة الحرير التي نقلت على امتدادها في زمن وقرون ازدهرت فيها صناعته وتجارته وكثر الطلب عليه. وباختصار فإن طريق الحرير هي واحدة من شرايين التجارة القديمة المارة بحلب، وكان لحلب دور بارز في جذب تجار سلعة الحرير والقوافل الناقلة لها، مع سلع أخرى، كما كان لها دور المنشط لحركة التبادل على الطرق التجارية في شمالي سورية عامة وعلى طريق الحرير خاصة.

وفي الواقع فإن مدينة حلب في موقعها الجغرافي هذا كانت واحدة من أشهر المحطات التجارية وأكثرها نشاطاً على طريق الحرير، وعلى محور التجارة بين آسيا من جهة وأوربة وعالم البحر المتوسط من جهة ثانية، وحلب كانت وراء شهرة طريق الحرير وذيوع صيتها واسمها واكتسابها أهمية خاصة على امتداد قرابة ١٠٠٠ عام من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثامن الميلادي. لكنها، أي حلب، بالمقابل ازدهرت ونمت وأثْرَت اقتصادياً وتطورت اجتماعياً بمرور سلعة الحرير عبرها والتعامل بتجارتها، مما متن مركز حلب وقوّى من وظيفتها التجارية التي تعد من أهم وظائفها حتى اليوم.

الحواشي

(١) تقسم سورية إلى ثمانية أقاليم جغرافية رئيسية هي: إقليم الجزيرة والفرات، وإقليم هضبة حلب والشامية الشمالية، وإقليم حوض العاصي، وإقليم الساحل والجبال الساحلية، وإقليم الوسط السوري، وإقليم البادية (الصحراء السورية، وإقليم الجنوب الغربي، وإقليم الجبال الغربي، وإقليم الجبال العالية (عبد السلام ١٩٩٠ ـ الأقاليم الجغرافية السورية ص٨٧).

(٢) جفت مياه نهر قويق تماماً عام ١٩٣٣. فلا تجري فيه سوى السيول الشتوية المحلية.

تفسير بعض أسماء الأماكن الجغرافية

محمد بهجت قبيسي

لقد ثبت بالخبرة لا الخبر أن أسماء المدن والقرى والأماكن القديمة قبل دخول الإسكندر المقدوني للمنطقة في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كانت تمثل في معانيها ثلاث مداليل لا رابع لها .

١ ـ أسماء ذات (دلالات) طبيعية مثل : آلالاخ ـ حلب وإبلا ودمشق .

٢ ـ أسماء ذات (دلالات) عسكرية مثل حرستا وبقرحا وماري وتطل (توتول) وتدمر .

٣ ـ أسماء ذات دلالات دينية مثل بليّرمون وسرجلاّ وبابل وببيلا .

أما الأسماء ذات الدلالات الشخصية والأنانية مثل : أنطاكية وسلوقيا ولاودكيا وأفاميا والإسكندرية وهكذا، فهذه الأنواع من التسميات لم تعرف إلا بعد فترة الإحتلال الإغريقي للمنطقة، ولما دخل العرب العدنانيون إلى المنطقة فإن أصحاب البلاد أنفسهم أعادوا التسميات القديمة إلى سابق عهدها .

لا شك لو استطعنا تفسير معاني كافة أسماء هذه المدن والقرى والأماكن لحصلنا على قاموس عموري كنعاني آرامي ممتاز .

❋ ❋ ❋

المنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج التجريبي:

يقوم منهج البحث على مبدأ التكرار، والتواتر حيث يقول ابن حزم في المنهج التجريبي : [والتجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل أبداً، تكريراً موثوقاً بدوامة تضطر النفوس إلى الإقرار به][١] .

ويقول ابن البيطار الصيدلي المالقي في المنهج التجريبي أيضاً :

[فما صح عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لي بالخبرة لا الخبر إدّخرته كنزاً سرياً وعددت نفسي عن الإستعانة بغيري فيه، سوى الله غنياً (أي أنه بهذه الحالة لن يستعين بأحد سوى الله) .

وما كان مخالفاً في القوى والبيئية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق، وأن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق . نبذته ظهرياً، وهجرته ملياً وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئاً فريّاً][٢] .

ويعتمد المنهج التجريبي على التكرار كما أسلفنا كما يعتمد على الأدلة القاطعة في التفسير بعد اتساق هذه المعاني بجملة الأسماء (الطبيعية أو العسكرية أو الدينية) وأن تمثل الكلمة المفسرة أحد هذه المعاني .

الفوائد المتوخاة من تفسير الأسماء:

١ـ إن تفسير الإسم إن كان طبيعياً أو عسكرياً سيساعدنا في البحث عن أماكن بعض المدن المجهولة من الناحية الجغرافية . فعسى بهذه الحالة أن نجد مكان مدينة أكاد على سبيل المثال إن عرفنا ما تعني كلمة أكاد .

٢ـ سيعطينا مدرسة للّفظ الصحيح في قراءتنا للنقوش والكتابات القديمة الهجائية (وليس المقطعية) مستعيضين عن مدرسة اللّفظ العبري لهذه النقوش الخالية من الأحرف الصوتية والتي إعتمدتها أكثر جامعات العالم بغير وجه حق .

حيث المدرسة الماسورية قامت بإضافة الأحرف الصوتية وتشكيل وتنقيط التوراة في القرن العاشر الميلادي، فكيف لنا أن نعتمد على لفظها لكلمات نشأت قبل أربعة آلاف سنة من هذا التاريخ .

لنرى ما يقوله الماسوريون بعد تحقيقهم وتشكيلهم للفظ التوراة وإضافة الأحرف الصوتية وتنقيطه (التشكيل) في القرن العاشر الميلادي، فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس ـ ص٧٦٣ـ ما نصه :

[وقد دوّن الماسوريون الإصطلاحات التي إرتؤوها على النص وجعلوها في الحاشية، تاركين للعلماء الخيار في قبولها أو رفضها بعد البحث والتدقيق] .

إذ إن لفظ التوراة المحقق الآن يرجع إلى القرن العاشر الميلادي وهو لا يسمح لنا أن نلفظ الكلمات القديمة التي يرجع بعض نقوشها إلى أكثر من أربعة آلاف سنة قبل هذا التاريخ .

وعود على بدء فلفظ و(استمرارية لفظ) أسماء هذه المدن والأماكن منذ تسميتها حين إنشائها وحتى اليوم فيه تكرار وتواتر لفظي سليم، فلم يكن في يوم من الأيام إسم [دمشق] دامسك أو دمسك أو داماشق إنه دمشق وبَيْروت وحلب وحماه وحمص ودوما وحرستا وبقرحا وباريشا وبملكة الخ . . . . وبذلك فهو لفظ مكرر متواتر على مر القرون والسنين والأيام والساعات، فهو تواتر لفظي نقله جيل بعد جيل على صفة واحدة، تكريراً موثوق بدوامة تضطر النفوس إلى الإقرار به .

ومع ذلك فلا بد لنا من عرض بعض ملامح هذه العربيات من الأكادية والعمورية والكنعانية والآرامية .

وقبل البدء بتفسير هذه الأسماء لا بد لنا من التذكير بالقواعد التالية :

١ـ إن جذر الكلمة يجب أن يكون ثنائياً أو ثلاثياً . وإن كان رباعياً أو خماسياً فقطعاً تكون الكلمة مركبة، قد ننجح بمعرفتها أو لاننجح[٣] .

٢ـ من أشهر اللواحق الكنعانية الواو والنون (ون) مثل : صيد= صيدون، وخالد= خلدون، قاسي= قاسيون، حرم= حرمون، كفر = كفرون .

٣ـ من أشهر اللواحق الآرامية أداة التعريف الألف في آخر الكلمة مثل : البرد = بردا (بردى)، الحارسة = حرستا، الشقوق = شقوقا .

٤ـ اللاحقة الآرامية (ين) أداة جمع في حالة النكرة مثل : شمسين، جملين، جسرين، ماردين .

٥ـ اللاحقة الآرامية (يا) أداة جمع في حالة التعريف حيث الألف (تأكل) النون وتخفيها مثل : قدسي= قدسيين جمع تعريفها قدسيا أي القدسيين، وليست قدسينا .

٦ـ ومن اللواحق السومرية الشهيرة هي الألف الواقعة في آخر الكلمة فقد لفظت بابل بالسومرية بابيلا وكذلك أشنونا .

٧ـ السوابق : ذا ـ ذو ـ ذي ـ /دَ ـ دُ ـ دِ/زَ ـ زُ ـ زِ/ تا ـ تو ـ تي/ وشا وشو وشي .

٨ـ السابقة (الباء) وهي ترخيم لكلمة بيت مثل : بِمْلكة= بيت ملكة .

٩ـ عرفت بعض الأسماء بصيغة الفعل فأقول : زاد تزيد يزيد، غلب يغلب تغلب، دمر يدمر تدمر، وناخ ينوخ تنوخ .

التفسير:

ـ **دمشق** : جذرها رباعي [د م ش ق] إذن هي كلمة مركبة فإذا حذفنا السابقة د (من ذا وذو وذي /و دَ ـ ودُ ـ ودِ) نحصل على جذر الكلمة دمشق . نبحث بمعنى مشق فنجده

يحمل معنى أنتج / نما / أخصب / فهي أرض النمو والخصب والإنتاج و (دِ) واضحة المعنى (ذي) وأما مشق فهي مستعملة في العامية الزراعية بدمشق فتقول النسوة مشقت أغصان الملوخية أي أنتجت ما في الغصن من أوراق، ومع ذلك، هذا لايكفي فلدينا الآن دليل لغوي واحد أما الدليل الثاني فإن كلمة مِشِقْ في العبرية تعني مزرعة .

لكن إذا نظرنا إلى مياه دمشق الجوفية من الناحية الهيدروجيولوجية من خانق الربوة وحتى المصب في بحيرة العتيبة نجدها بين الـ ٨ أمتار والـ ١٨ متراً فقط . كذلك نجد أن [السابقة الدال (دِ)] مكررة في كل من الأسماء التالية : دمشق ـ دمياط ـ دِسوق (وليس دُسوق) هكذا يلفظها أهلها ودمشقين وهي قرية جانب الفيوم بمصر يصفها ياقوت الحموي أن فيها بصل كالبطيخ (من خصوبة الأرض) ودِمقش في دلتا النيل وهي قلب مكاني لدمشق و(دِ روما) و(د جرجا) (ياقوت الأولى من ٢١٥ والثانية من ٣١٨) .

سبع بدايات توافر فيها التكرار لهذه السابقة (د) أما إسم مشق كما ذكرنا فإننا نجده أيضاً في كل من : د مشق ـ د مشقين (وهي صيغة جمع آرامية لدمشق) ودمقش (مقش كما قلنا قلب مكاني لـ مشق) .

وأخيراً هناك قرية في محافظة اللاذقية ذات خصب ونمو وإنتاج إسمها مشقيتا جذرها أيضاً مشق ومعناها المشقية تصغير مشقة، وهناك شجر يسمى جر مشق وهو شجر ينتج من مائه السكر[٤] . وهنا حسب المنهج التجريبي نجد التكرار في جذر مشق ٥مرات فإسم دمشق ذا مدلول طبيعي أيضاً .

ـ **جسرين** : إسم قرية بغوطة دمشق جذرها جسر والياء والنون صيغة جمع النكرة في الآرامية فيصبح معناها جسور وفعلاً نجد في هذه القرية خمسة جسور لنهر بردى وأفرعه وهي : من الجنوب إلى الشمال : جسر بردى ـ جسر الملك ـ جسر الزابون ـ جسر جعيطة ـ جسر الداعياني .

ـ **كفرون** : الواو والنون لاحقة كنعانية : كفر ـ كفرون، كفر في اللغة تعني غطى ولها مدلول ديني بمعنى غطى الحقيقة، والكفر هو المنطقة الجرداء التي زرعت بالأشجار فغطتها ومنها الكفّار بمعنى الزراع جاء في القرآن الكريم سورة الحديد [٢٠] : ﴿ **كمثل غيث يعجب الكفّار نباته** ﴾ أي كمطر يعجب الزارع نباته كما جاء في سورة آل عمران [١٩٣] : ﴿ **ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا** ﴾ (أي غطي عنا سيئاتنا) .

وإن إنتشرت الأسماء والكفور في مصر فلا ننسى إمبراطورية اللهجة العربية الآرامية في القرن السادس ق.م على أدنى حد والتأثير العربي العموري الـ هيك سوسي[٥] في القرن ١٨ق.م .

وأخيراً أصبح إسم كفر ذا مدلول جديد يعني (القرية) حيث تشمل القرية ومزروعاتها .

وفي عملية اللفظ في كفر فلدينا الألفاظ التالية : كفر العواميد ـ كفير الزيت ـ كفر بطنا (بطما) وجميعها قرى حول دمشق . والكفرة في ليبية . أي أسماء كفرون ذات مداليل طبيعية أيضاً . وفي منطقة حلب وتخومها نجد كفر بطرة، كفر زبد، كفر شبل، كفر صفرا، كفر دلي، وكفير كرمين (أي كفر الكروم) . كفر نوران .

ـ **بابل** : كلمة مركبة من باب، بالإضافة إلى ئيل (رب الأرباب) فهي تعني باب الله . ئيل في القواميس العدنانية هو الله . كذلك لفظت بالسومرية بابيلا أي بلاحقة سومرية وهي الألف بآخر الكلمة .

ـ **ببيلا** : كلمة مركبة من باب بالإضافة إلى الله وبالإدغام أصبحت ببيلا وهي قرية جنوب دمشق . وفي عاميتنا نقول بابلاّ .

ـ **سرجلاّ** : قرية في محافظة إدلب مركبة من سراج الله بالإضافة إلى الله فهي سراج . ذات مدلول ديني . ومن نافلة القول أن لفظ الجلالة الله (اللا) معروف في الآرامية مثل أسماء ببيلا وسرجلا ورام الله كل ذلك قبل الإسلام .

ـ **بليرمون** : جذرها [ب ل ر م ن] خماسية إذن هي كلمة مركبة، يذهب العلاّمة محمد محفل ليفك هذا التركيب فيجد أنها مؤلفة من : بـئيل رم ون أربع مقاطع فالباء ترخيم بيت كما في بقرحا، وئيل هو الله، ورم بمعنى العالي، والواو والنون لاحقة كنعانية فيصبح المعنى بيت الله العالي [بـ ئيل رمون] ثم أصبحت بالإدغام بليرمون وهي قرية أصبحت متصلة بحلب .

ولنأتي الآن إلى الأسماء ذات الدلالات العسكرية :

ـ **حرستا** : بمعنى الحارسة وهي إسم عسكري وحرستا الموجودة في محافظة حلب فيها حصن عظيم ومياه غزيرة فإسم حرستا ذو مدلول عسكري وينحو هذا المنحى

محمود محفوض في كتابه عن حرستا التي بجوار دمشق، فهي حارسة لدمشق [٦].

ـ بقرحا: بمعنى بيت القرح أي بيت الذبح وهي قرية من قرى محافظة إدلب شمال سورية في جبل باريشا فهي قرية مبنية داخل أضراس صخرية ترتفع بين ٣٠ ـ ٧٠م وهي موانع عسكرية طبيعية ضد الأفراد والفرسان. وقد زرناها مع الكثير من الموجودين أثناء ندوة إدلب عام ١٩٩٠.

ـ ماري: جذرها (مر) ومعنى المر القوة جاء في القرآن الكريم [ذو مرة فاستوى] أي ذو قوة فاستوى ومعنى ماري هنا بمعنى القوي ـ الماري. وقد سمي المرّ مرّاً لقوة طعمه، وسمي الممر ممراً للقوة التي عملت به ليصبح ممراً، وسمي السيد بالسريانية مار لأن من صفات السيد القوة. أي الماري بمعنى القوي اسم ذا مدلول عسكري. ولاننسى أن في الإمارات العربية بلد اسمها ماري.

ـ تدمر: جذرها دمر ومعنى دَمَر في لسان العرب دمّر حيث التشديد (التكرار) يفيد التأكيد. وقلنا أن العربيات عرفت الأسماء بصيغة الفعل: فأقوال زاد تزيد يزيد الخ .... وهنا (دمر يدمر تدمر) فهي المدينة التي تدمّر. لم لا، حيث لايصلها لوعورة طرقها وانقطاع الماء بطرقها الشرقية والشمالية والغربية والجنوبية إلى جانب طول المسافة لأقرب مدينة منها ينوف عن الـ ٢٠٠كم فهي المدينة التي تدمر عدوها وقد بقيت عاصمة البادية بعد دمار إبلا لفترة كبيرة وقد ذهب إلى هذا المعنى المتبني.

أما آلالاخ: قلنا أن للأسماء ثلاثة مداليل لا رابع لها فما هو مدلول ومعنى ألالاخ الموجودة الآن في وادي العمق.

وجدنا في لسان العرب في مادة لوخ ما يلي:

وادٍ لاخٍ: واد عميق وأوديةٌ لاخةٌ: [أودية فيها العمق والسعة والأعوجاج] [٧] ولكن بعد هذا بقي علينا الجزء الأول من الكلمة [ألا].

نجد في لسان العرب في باب الهمزة ما يلي:

الألاء بوزن العلاء: شجر ورقه وحمله دباغ، يمد ويقصر وهو حسن المنظر مر الطعم، ولا يزال أخضر شتاء وصيفاً واحدته ألاءه بوزن ألاعه، وتأليفه لام بين همزتين

ويقول أبو زيد: هي شجرة تشبه الآس لا تغير في القيظ، ولها ثمرة تشبه سنبل الذرة ومنبتها الرمل والأودية، قال: والسلامان نحو الألأ، غير أنها أصغر منها يتخذ منها المساويك، وثمرتها مثل ثمرتها ومنبتها الأودية والصحارى، قال ابن عنمة:

فخر على الآلاءة لم يوسد
كأن جبينه سيف صقيل

بذلك يصبح الأسم آلاء لاخ وبعملية الإدغام تصبح آلالاخ.

نخلص من ذلك أن معنى آلالاخ هو شجر وادي العمق، ونحن نعرف أن آلالاخ هي في واد عميق يسمى وادي العمق اليوم. إذن هي اسم ذو مدلول طبيعي.

أما حلب: فهي من الأسماء التي تنتابها الحيرة والقلق لكن لن يكون ضاراً إذا أدلينا ببعض ما وجدناه، فهل حلب هي إسم بصيغة الفعل حلب يحلب تحلب كما في دمر يدمر تدمر ـ وزاد يزيد تزيد، وغلب يغلب تغلب، لا نظن ذلك، لأنها لا تعطينا أياً من المعاني الطبيعية أو الدينية أو العسكرية إذا أخذنا هذا المنحى.

إذن: هل حلب في صيغتها العمورية القديمة هي صيغة جمع لكلمة (حلبة) أي (التلة) (أقول: حلبة المصارعة) وكذلك حلبون شمال دمشق وحلبا شمال لبنان وحلب شمال اليمن. أم هي صيغة مذكر لكلمة حلبة، إن سرنا في مسار الظن ليس إلا، فسنجد ما يلي: أن ذلك يتطابق مع وصف حلب حسب ما جاء عن مؤرخ حلب خير الدين الأسدي في كتاب أحياء حلب وأسواقها والذي أدلى به الأستاذ عبد الفتاح رواس قلعة جي دلوه في تحقيقه وإضافاته (ص١٩+٢٢=١٢٨=١٦٦) [٨] فنجد في هذا الكتاب أن حلب قائمة على عدة تلال منها: تل العقبة (التي يرجع سوفاجيه أنه التل الأول للتجمع السكني بحلب) ثم تلة السوداء والتي تقع إلى الغرب من قلعة الشريف وباب قنسرين (قن نسرين)، ثم تلة القلعة (المعروفة) ثم تل الجبيلة، فتل النيرب، وتل الحلوم وكذلك منطقة الكلاسة. سبعة حلبات (تلال)، هذا في حلب القديمة أما ما جاور حلب وعلى امتداد توسعها الجديد فالملاحظ يجد أن جمال

البناء بحلب جاء في إطلالاتها التي وفرتها لها حلبات حلب في منطقة التوسع المعروفة بحلب الجديدة ولا ننسى جبل جوشن (الحلبة المقام عليها عمود التلفزيون) . هذه الطبيعة من الحلبات المتعددة غير المتوفرة في كل من دمشق وحمص وأكثر المدن والمناطق في بلاد الشام .

ولاننسى أن حلب قد سميت قديماً بأحد مناطقها في رقم ماري فقد سميت كلاسو من الكلس وهو إسم طبيعي لمنطقة الكلاسة لا سيما وأن تل العقبة (أساس حلب) كما يقال هو أحد هذه التلال .

ما ينقض ما ذهبنا إليه أن حلب إن كانت (صيغة المفرد المذكر من حلبة تنافيه طبيعة حلب الجغرافية حيث حلب مؤلفة من عدة تلال حلبات وليس من تلة واحدة وأما الأمر الذي قد يؤيد ذلك أن حلب هي صيغة جمع عمورية لحلبة وهذا أمر لم نستطع البت به لغوياً .

ويبقى هذا التفسير من الناحية المنهجية من باب الظن ليس إلا . والله أعلم .

إبــلا : لقد عرفت المنطقة أسماء طبيعية على أسماء الحيوانات لشهرتها بها مثل : عجل، عجلون، عجلة، عجلتون ـ نمر، نمرين (جبلٌ في الأردن بمعنى النمور) ـ العقرب، عقربا على حوافي غوطة دمشق . وقن نسرين أي قن النسور . وتل بيسه بمحافظة حمص وكفر بيسين بمحافظة إدلب على طريق حلب .

والآن إذا قلنا أن إسم إبلا من الإبل (الجمال) تواجهنا الإعتراضات والمؤيدات التالية :

الإعتراضات :

آـ إن الجمل عرف بالألف الأولى قبل الميلاد وإبلا قبل ذلك .
ب ـ اللاحقة الألف في كلمة إبلا هي أداة تعريف آرامية وإبلا قبل التاريخ الآرامي وبالتالي فإن هذه الألف الإبلائية هي خلاف الألف الارامية .

وفي الرد على هذه الإعتراضات نجد :

١ـ إن الدراسات الحديثة أثبتت أن الجمل معروف منذ الألف الثالثة ق.م في هذه المنطقة وهذا ما ذهب إليه WALTER DOSTAL وولتر دوستال[٩] .

٢ـ إن هذه الألف اللاحقة بكلمة إبلا معروفة بالسومرية كأداة إضافة كما أعلمنا الدكتور فاروق إسماعيل ونحن نعرف أن أحسن أساليب التعريف اللغوي هو التعريف بالإضافة وهو أوضحها إضافة إلى ذلك فقد سميت بابل بالسومرية بابيلا وكذلك أشنونا .

(لنلاحظ ذلك بابل كانت في السومرية بابيلا)، والسومرية هي أقدم الكتابات المتوفرة لدينا .

إذن في هذه الحالة أصبحت تلك الإعتراضات من المؤيدات بعد الإجابة عليها .

وأما أن تكون إبلا بمعنى الإبل، فهذا أمر يقبله المنطق حيث إبلا عاصمة البادية الشامية قبل تدمر . يبقى أمامنا إعتراض أخير حول هذا التفسير بسؤال مطروح : هل وجدت بين نصوص إبلا كلمة جمل أو إبل : حسب معرفتنا لا يوجد ذلك حتى الآن إلا إذا اعتبرنا أن كلمة [جمالوم] هي بمعنى جمل وليس جمال من جميل . ولا ننسى أيضاً أنه إلى الآن لم نأت على مدرسة سليمة لقراءة نصوص إبلا ولا سيما من جانب (نحو الجملة) .

إذن فمعنى إبلا بمعنى الإبل هو من باب الترجيح حسب المنهجية المتبعة في هذا البحث فهي تفوق الظن لوجود ثلاثة أدلة لغوية وهي :

١ـ عرفت المنطقة تسمية المدن بأسماء الحيوانات .
٢ـ معنى إبل أي الجمال .
٣ـ الألف هي أداة إضافة سومرية .

والدليل الأنثروبولوجي هو وجود الجمل منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ومما يضعف القرار إلى الترجيح كما أسلفنا هو عدم التأكد من وجود إسم الجمل في نقوش إبلا وعدم وجوده لا يعني إنتفاءه لحقيقة أن الجمل موجود بالألف الثالثة ق.م في المنطقة .

وإن صح ذلك فإننا نكون قد عرفنا التطور التاريخي (إيتومولوجيا) لوجود أداة التعريف الآرامية ونستطيع أن نقول أن أصلها التاريخي سومري ولا ننسى أن إسم إبل حسب المنهج التجريبي لا نجده عدنانياً لأنه لا يتصرف وليس له مفرد .

توتول:

نحن نعرف أن المقطع المسماري للتاء أو [تو] : يمكن قراءته [طو] بالطاء، لكن الأخوة المستشرقين ولو عرفوا ذلك وكتبوه إنما سيبقى نطقهم لهذا المقطع بالتاء. تماماً كما في كلمة خباطوم (جذرها خبط أي ضرب) فينطقوها جباتوم.

فتصبح الكلمة تطل : بمعنى تطل وهي لمراقبة عسكرية جمركية على نهر الفرات تحمل معنى الإطلالة وهو إسم بصيغة الفعل ولا تزال بعض القرى تحمل هذا المدلول وهذا الجذرمثل : طل وهي من قرى غزه ووردت عند ياقوت[١٠] وهناك المطلة أيضاً.

وأخيراً كلمة معرة : بعد ثبات نظرية مداليل الأسماء القديمة طبيعية ـ عسكرية أو دينية فقد وضعنا شرطاً لهذه التفاسير وهو الزيارة الميدانية للمنطقة للتأكد من هذه المعاني ومن خلال زيارة الباحث لأكثر المناطق المسماة معرة مثل : معرة النعمان ومعرة مصرين ومعرة صيدنايا. لم نجد معنى طبيعياً لتفسير كلمة معرة بمعنى (مغارة) كما هو سائد.

ولعل أوضحها معرة صيدنايا والتي هي عبارة عن سهل كبير للرعي ولا يتخلله أي منطقة صخرية صغيرة أم كبيرة.

وبحثنا في القواميس فلم نجد تفسيراً مقنعاً وحيث أن الكلام العامي المنتشر على إمتداد الوطن العربي هو ليس تطوراً للعربية العدنانية فقط بل فيه الكثير الكثير من بقايا السومرية والأكادية والكنعانية والآرامية فقد وجدنا أن كلمة عرّ تعني الأكل الكثير فنقول (عم يعرّ عرّ) أي أنه يأكل أكلاً كثيراً.

فإذا ذهبنا إلى تفسير [المعر] إلى المرعى وهو منطقة الرعي نكون أصبنا الحقيقة ولا سيما أن في كلمتي مرعى ومعرة وجذرهما على التوالي [رع] و[عر] فيهما القلب المكاني الوارد في اللهجات العربية فأقول : مرسح وأقول مسرح، ودن بمعنى ند وجبذ بمعنى جذب، وهنا (رع) و(عر).

وبذلك تكون كلمة معرة بمعنى المرعى ذات أصول تاريخية أعمق من مرعى. وما يزيد في التأكيد على ذلك هو وجود إسم وادي المغار إلى جانب معرة موخس ومعرة مصرين مما يدل أن إسم معرة مختلف في مدلوله عن إسم مغارة من الناحية الطبيعية والتاريخية.

أيها الأخوة لقد درسنا أكثر جذور هذه الكلمات بكافة القواميس، الكنعانية والآرامية التي وضعها المستشرقون لكننا لم نجد بغيتنا لأكثرها إلا في القواميس العربية العدنانية، وإن استغرابنا يزول إذا عرفنا الثابتين التاليين :

الثابت الأول : ما يذكره دوبون سومير عالم الآراميات الفرنسي ورأيه بالآراميات فيقول :

رغم أن الآرامية تتميز بخصائص كثيرة (مثل أداة التعريف) فإنها قريبة الصلة باللغتين (اللهجتين) الكنعانية والعبرية وتشترك معهما بمصطلحات إلى حد ما ولكنها أقرب إلى اللغة العربية (أي العدنانية) من غيرها ولهما مصطلحات لغوية وألفاظ مشتركة[١١].

أي أن الآرامية قريبة الصلة بالعبرية لكنها وثيقة الصلة بالعربية العدنانية ولها ألفاظ مشتركة معها.

والثابت الثاني : والهام أيضاً ما جاء في قاموس لسان العرب لإبن منظور في مادة كنع عن اللهجة الكنعانية.

كان الكنعانيون يتكلمون بلغة تضارع العربية[١٢].

الحواشي

(١) د. محمد السوسي، العلوم العربية بالأندلس ونقلها إلى أوربا ودورها في تطور العلوم، محاضرة في الندوة الدولية للثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ، محاضر من تونس، دمشق ١٩٩٠، ص٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢.

(٣) د. عبد المنعم عبد العال، معجم الألفاظ العامية، مصر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ص٩٧.

(٤) بطرس البستاني ـ كتاب دائرة المعارف ـ مجلد ٦ . دار المعرفة بيروت ص٤٣٩ ويقول : ونوع من شجر الجرشق : شبهها يسمر إذا خت الشجرة هذين النوع سريع جداً.

(٥) ورد الاسبات القديمة (هيك) ولة عن (سوس) المرجع ومحمود عبد الحميد أحمد دراسات في تاريخ الفرعونية . جامعة دمشق ١٩٩٥ـ١٩٩٦ ص١٢٣

(٦) محمود محفوض، تاريخ حرستا، دمشق ١٩٨٨ ص١٠ .

(٧) ابن منظور، قاموس لسان العرب مادة لوخ .

(٨) عبد الفتاح رواس قلعة جي . تحقيق كتاب أحياء حلب وأسواقها لـ خير الدين الأسدي، حلب ص١٩+٢٢+١٢٨+١٦٦ .

(٩) وولتر دوستال، مصادر تاريخ الجزيرة العربية . ج١ ص١٢٥ـ ١٤٥ وملحقاتها .

(١٠) ياقوت / فلسطين إسم طل .

(١١) دوبون سومير، الآراميون، طرطوس ١٩٨٨ ، دار الأماني، ص١٣١ .

(١٢) ابن منظور، معجم لسان العرب مادة كنع .

حلب في مذكرات ابن بطوطة

عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

خلال المؤتمر العالمي لتنميط الأعلام الجغرافية الذي انعقد في مبنى الأمم المتحدة بنيويورك شهر يونيه ١٩٩٤ اختير الرحالة العربي ابن بطوطة الطنجي لتكريمه بصفته أحد العلماء الذين أسهموا في الحفاظ على العلم الجغرافي صيانة وانقاذاً من التحريف والتزييف.

فكان من الأوائل الذين حرصوا على أن يَشْكُلوا العَلَم الجغرافي بالحركات والسكنات المنطوقة، فمثلاً يقول في ضبط اسم مدينة قنجنفو الصينية: وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء والواو.

وبما أن الصين هي المركز المقصود للباحثين عن الحرير فإن أهمية الحديث عن رحلة ابن بطوطة تأخذ أهمية كبرى لاسيما وأن ابن بطوطة قد تحدث عن الحرير في الصين. وذكر من عجيب أخباره أن الحرير عندهم كثير، وهو لباس الفقراء والمساكين، ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير وذلك لأن دود القز يتعلق بالثمار ويأكل منها ولا يحتاج للكثير من المؤونة.

ومن هنا يصح القول بأن الحديث عن طريق الحرير لا يمكنه أن يكون حديثاً ثرياً إلا إذا اقترن بالحديث عن رحلة ابن بطوطة بما ضمته من أعلام وما احتوت عليه من معلومات.

وإذا ما عرفنا كذلك أن البلاد التي زارها الرحالة المغربي تكون، تقريباً، نصف عدد الدول التي تحتضنها اليوم الأمم المتحدة، عرفنا إذن أهمية الحديث عن الرحلة وعن المعلومات الجغرافية والتاريخية التي قدمها ابن بطوطة في مذكراته. كذلك يجب أن نعلم أن الفضاء الذي قطعه الرحالة المغربي كان يفوق كثيراً وكثيراً ما وصل إليه ماركو بولو البندقي، ومع أن ماركو بولو قد وصل إلى الصين كما وصل إليها ابن بطوطة، إلا أن هذا قد وصل إلى عدد كبير من البلاد التي لم يستطع ماركو بولو أن يصل إليها.. وفي آخرها أفريقية السوداء.

❁ ❁ ❁

■ لم يرسل ملخص باللغة الأجنبية.

لقد كفانا ابن بطوطة أمر التعريف بنفسه من خلال ما حكاه هو عن سيرته الذاتية، وهكذا فإننا لا نجد عنه شيئاً سوى ما ورد عن لسان الدين ابن الخطيب (ت٧٧٦ = ١٣٧٥ ـ ١٣٧٤) في (الإحاطة) من معلومات جد محدودة، وفي كتابه أيضاً في (نفاضة الجراب) من أنه أي ابن بطوطة كان قاضياً بإقليم تامسنا (١) . . . وسوى ما ورد عن ابن خلدون (ت ٨٠٨ ـ ١٤٠٥ ـ ٠٦) في مقدمته، ثم ما ورد عن ابن حجر (ت ٨٥٢ ـ ١٤٤٨) في الدرر الكامنة من معلومات أضافت بعض العناصر المفيدة على نحو ما قرأناه عن التمجروتي عام ٩٩٧ ـ ١٥٨٩ في « النفحة المسكية »، والمقري (ت١٠٤١ ـ ١٦٣٢) في « نفح الطيب . . . »

لكن ما دونه ابن بطوطة في رحلته كان كافياً وحده ليعطي فكرة مدققة عن الرجل : من نشأته بطنجة إلى أن استقبله بفأس السلطان أبو عنان، وإلى أن صحب ركبه وهو عائد من مراكش يحتمل شلو أبيه . . . فكرة مدققة عن صفاته، عن شخصيته، عن إبائه، عن حالته الاجتماعية، وتبقى بعد هذا نحو ثلاث عشر سنة من حياة الرجل ظلت تفاصيلها غائبة عنا لم نعرف شيئاً، عن أهله وعن ذريته سوى أنه يزاول القضاء في إقليم تامسنا الذي يعتبر من أوسع وأغنى الأقاليم المغربية في مملكة فاس . . . لقد خفت صوته باختفاء ولي نعمته السلطان أبي عنان !

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي الملقب في المشرق بشمس الدين، والمكنى عندي بأبي أحمد، لوجود ولد له يحمل هذا الإسم[٢] . . . ومعلوم أن (لواتة) قبيلة واسعة الانتشار في مصر وبلاد المغرب يؤكد المقريزي أنها عربية[٣] .

ولد بطنجة يوم الاثنين ١٧ رجب ٧٠٣ ـ ٢٤ شباط ١٣٠٤، ويبدو أن الأسرة تنسب إلى سيدة كانت تحمل اسم فاطمة : عادة معروفة من قديم، تنسب الناس إلى أمهاتهم، وتتحول فاطمة في المشرق ـ تدللا ـ إلى بطة، ونحن نعرف عن ابن بطة العكبري (ت٣٨٧)، وتمسي بطة في المغرب بطوطة كسفودة علي ما في تاج العروس للزبيدي (فصل الباء من باب الطاء) .

وبيت ابن بطوطة معروف على أنه بيت علم وقضاء . . . ونعرف أن طنجة نفسها كانت مرفأً دولياً هاماً يتوفر على كل مقومات الحضارة . وقد عرفنا عن استقبالها للشعراء أمثال أبي الحسن الحصري صاحب القصيدة التي مطلعها : « يا ليل الصب متى غده »، كما عرفنا عن ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي رحل إلى المشرق وعاد لطنجة ومات بها، وقد وقفنا في البرتغال على نص ملكية لبعض مخطوطات (قضاة قرطبة للخشني) : وهو هكذا « ملكه محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللواتي الشهير في طنجة بابن بطوطة » . وسنقرأ حديث ابن بطوطة، وهو في رندة، عن ابن عمه أبي القاسم محمد ابن يحيى قاضي المدينة . . . كما نعرف عن أسرة البطوطي التي وضع أحد أفرادها بفاس قطعة إسطرلاب فائقة الدقة[٤] .

وبعد عودة ابن بطوطة إلى المغرب، وبعد إفلاته من إشاعة « تناجي » بعض المعاصرين حوله على ما أشرنا أمسى من جلساء السلطان أبي عنان الذي أصدر أمراً لكاتبه ابن جزي بتدوين رحلة ابن بطوطة قبل أن يتقلد هذا الأخير منصب قاضي إقليم تامسنا .

وقد وجدنا في (نفاضة الجراب) للسان الدين ابن الخطيب على ما قلنا، رسالة موجهة من هذا إلى القاضي ابن بطوطة . وكان ابن الخطيب قرر عندما التجأ إلى المغرب عام ٧٦٠هـ ـ ١٣٥٩م أن يستثمر أمواله في منطقة نفوذ ابن بطوطة، وكانت تامسنا تابعة لمملكة فاس على ما يقوله الحسن ابن الوزان[٥] .

وإذا كان مترجموه أهملوا الحديث عن ظروف وفاته، فإن الحافظ ابن حجر، سالف الذكر، في « الدرر الكامنة (٤ ,١٠٠) يفيد أن ابن بطوطة بقي إلى سنة سبعين وأدركته وفاته وهو متول للقضاء يعني حتى عهد السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن أخي السلطان أبي عنان مما يعني أن أجله أدركه بتامسنا التي كانت عاصمتها آنذاك أنفاً وليس بفاس ولا بطنجة[٦] . . .

ولله در مولانا جلال الدين الرومي (٦٧٢ ـ ١٢٧٣) عندما يقول : « حينما نموت لا تبحثوا عن قبورنا في التراب ولكن ابحثوا عنا في قلوب الناس ! ! »

وتعتبر رحلة ابن بطوطة بحق تاريخاً لما أهمله التاريخ ولذلك تعد من المصادر الهامة في كتابة تاريخ أية بقعة من بقاع العالم التي شملتها الرحلة . . .

ولقد حبب إلي أن تكون تحيتي لحلب هي أن أورد ما ذكره رحالتنا عن هذه المدينة التي نالت من إعجابه فصاغ على شرفها هذه الفقرات[٧].

ثم سرنا (بعد سرمين) إلى مدينة حلب المدينة الكبرى، والقاعدة العظمى. قال أبو الحسين ابن جبير في وصفها: قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسل عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، باينة الارتفاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواص والعوام، أين أمراؤها الحمدانيون، وشعراؤها[٨] ؟ فني جميعهم ولم يبق إلا بناؤها ! فيا عجبا للبلاد تبقى ويذهب أملاكها ! ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر إملاكها، وترام فيتيسر بأهون شيء إدراكها!

هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت الزمان بالمكان ! أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان، ودانت بالعذر فيمن دان، وتجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان، هيهات هيهات سيهرم شبابها، ويعدم خطابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها ! وقلعة حلب تسمى الشهباء[٩]، وبداخلها جبان ينبع منهما الماء، فلا تخاف الظمأ، ويطيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متداني الأبراج، وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان، وكل برج منها مسكون، والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد[١٠].

وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال: إن الخليل عليه السلام كان يتعبد به، وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على الفرات بين الشام والعراق[١١]، ولما قصد قازان[١٢] طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياماً ونكص عنها خائباً. قال ابن جزي: وفي هذه القلعة يقول الخالدي[١٣] شاعر سيف الدولة:

وخرقاء قد تاهت على من يرومها
بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامة
يلبسها عقداً بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله
كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة
وذي سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً وهو من بديع النظم:

وقلعة عانق العيون سافلها
وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها
أرضاً توطأ قطريه مواشيها
إذا الغمامة راحت غاض ساكنها
ياضها قبل أن تهمي عواليها
يعد من أنجم الأفلاك مرقبها
لو أنه كان يجري في مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها
ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين علي بن أبي منصور:

كادت لبَوْن سموها وعلوها
تستوقف الفلك المحيط الدايرا
وردت قواطنها *المجرة منهلاً*
ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويضل صرف الدهر منها خائفاً
وجلا، فما يمسي لديها حاضرا!

ويقال في مدينة حلب: حلب إبراهيم[١٤]، لأن الخليل صلوات الله على نبينا وعليه وسلامه، كان يسكنها، وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقي الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب إبراهيم فسميت بذلك. وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع وإتقان الترتيب واتساع الأسواق وانتظام بعضها ببعض، وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائماً في ظل ممدود، وقيساريتها[١٥] لا تماثل حسناً وكبرا وهي تحيط بمسجدها، وكل سماط منها محاذي لباب من أبواب المسجد، ومسجدها الجامع من أجمل المساجد[١٦]، في صحنه بركة ماء، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبنوس.

وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع وإتقان الصنعة تنسب لأمراء حمدان، وبالبلد سواها ثلاث مدارس، وبها مارستان[١٧].

وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض، به المزارع العظيمة وشجرات الأعناب منتظمة به، والبساتين على شاطئ نهرها، وهو النهر الذي يمر بحماة، ويسمى العاصي[١٨] وقيل إنه سمي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو، والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطاً لا يكون في سواها، وهي من المدن التي تصلح للخلافة.

قال ابن جزي: أطنبت الشعراء في وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري[١٩]:

يا برق أسفر عن قويق مطالبي
حلب، فأعلى القصر من بطياس[٢٠]
عن منبت الورد المعصفر صبغه
في كل ضاحية ومجنى الآس!
أرض إذا استوحشت ثم أتيتها
حشدت علي فأكثرت إيناسي

وقال فيها الشاعر المجيد أبو الصنوبري[٢١]:

سقى حلب المزن مغنى حلب
فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ
بها إذ بها العيش لم يستطب
إذ نشر الزهر أعلامه
بها ومطارفه والعذب
إذا وحواشيه من فضة
تروق وأوساطه من ذهب

وقال أبو العلاء المعري[٢٢]:

حلب للوارد جنة عدن
وهي للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر في عيـ
ـنيه منها القدر الصغير الصغير
فقويق في أنفس القوم بحر
وحصاة منه مكان ثبير!

وقال فيها أبو الفتيان ابن حيوس[٢٣]:

يا صاحبي إذا أعياكما سقمي
فلقياني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكنا
فيها، وكان الهوى العذري من أربي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم[٢٤]:

وما أمتعت جارها بلدة
كما أمتعت حلب جارها
بها قد تجمع ما تشتهي
فزرها فطوبى لمن زارها

وقال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي:

حادي العيس، كم تنيخ المطايا
سق بروحي من بعدهم في سياق
حلب إنها مقر غرامي
ومرامي وقبلة الأشواق!
لا خلا جوشن وبطياس والـ
ـعبد من كل وابل غيداق[٢٥]
كم بها مرتع لطرف وقلب
فيه سقي المنى بكأس دهاق
وتغني طيوره لارتياح
وتثني غصونه للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت
أنجم الأفق حولها كالنطاق

رجع، وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر[٢٦]، وهو من الفقهاء، موصوف بالعدل لكنه بخيل، والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة، فمنهم القاضي كمال الدين ابن الزملكاني[٢٧] شافعي المذهب، عاليّ الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الأخلاق متفنن بالعلوم، وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاء بحضرة ملكه فلم يمض له ذلك، وتوفي ببلبيس وهو متوجه إليها، ولما ولي قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر ومحمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الأموي الفارقي[٢٨]، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة، أولها:

أسفت لفقدك جلّق[٢٩] الفيحاء
وتباشرت لقدومك الشهباء

وعلا دمشق وقد رحلت كآبة
علا ربا حلب سنا وسناد
قد أشرقت دار سكنت فناءها
حتى غدت ولنورها لألاء
يا سائرا يبغي المكارم والعلى
ممن يبخل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه
تنعم فثم الفضل والنعماء
قاضي القضاة أجل من أيامه
تغنى بها الأيتام والفقراء
قاض زكا أصلا وفرعا فاعتلى
شرفت به الآباء والأبناء!
من الإلاه على بني حلب به
لله وضع الفضل حيث يشاء
كشف المعمى فهمه وبيانه
فكأنما ذاك الذكاء ذكاء
يا حاكم الحكام قدرك سابق
عن أن تسرك رتبة شماء
إن المناصب دون همتك التي
في الفضل دون محلها الجوزاء
لك في العلوم فضايل مشهورة
كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدو بفضلها
والفضل ما شهدت به الأعداء!

وهي أزيد من خمسين بيتاً، وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت.

قال ابن جزي: وليس كلامه في هذه القصيدة بذلك، وهو في المقطعات أجود منه في القصايد، وإليه انتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة منشئ الخطب الشهيرة، ومن بديع مقطعاته في التورية قوله:

علقتها غيداء حالية العلى
تجني على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم
فغدت مطوقة بما بخلت به!

رجع، ومن قضاة حلب، قاضي قضاة الحنفية الإمام المدرس ناصر الدين ابن العديم[٣٠] حسن الصورة والسيرة، أصيل بمدينة حلب.

تراه إذا ما جئته متهللا
أنك تعطيه الذي أنت سائله[٣١]!

ومنهم قاضي القضاة المالكية، لا أذكره، كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق، ومنهم قاضي قضاة الحنابلة، لا أذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق. ونقيب الأشراف بحَلَب بدر الدين ابن الزهراء[٣٢]. ومن فقهائها شرف الدين ابن العجمي[٣٣]، وأقاربه هم كبراء مدينة حلب».

وبعد أن يأتي ابن بطوطة بهذا الكلام الجميل عن حَلَب يذكر أنه ـ وهو في وجهته من الشام إلى المدينة الشريفة ـ كان يصحبه رجل من أهلها أي الشام فاضل يعرف بمنصور بن شكل الذي يذكر الرحالة المغربي أنه أضافه، وأنهما اجتمعا معاً بحَلَب وبخارى...

وقد حاولتُ عبثاً أثناء زيارتي لسورية ولحلب بالخصوص أن أجد شيئاً عن منصور بن شكل الذي يبدو أنه ابن شكر بالراء وربما كانت له صلة بالسيدة زينب بنت شكر[٣٤].

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأستنجد مرة أخرى بزملائنا وأساتذتنا ـ بالديار السورية ـ للوقوف على ترجمةٍ لمنصور بن شكل.

وعندما ذكر ابن بطوطة مدينة ماردين قاعدة الدولة الأرتقية التي استمرت متماسكة من عام ٤٩٧ إلى ٨١٠هـ (١١٠٤ ـ ١٤٠٧م) أي أكثر من ثلاثة قرون، أقول عندما ذكر ابن بطوطة زيارته لها عقب ابن جزي على ذلك بأن قلعتها تحمل اسم الشهباء منبهاً إلى شبه الاسم مع قلعة حلب!

وعند عودة ابن بطوطة من رحلته الطويلة في اتجاه بلاده المغرب الأقصى مرَّ بحلب التي ظلت قاعدة هامة من قواعد البلاد، وقد أفاد أن أميرها في تلك الظروف كان هو الحاج رغطى الذي يسميه ابن تغري بردي الحاج سيف أورقطاي ولعل النطق الصحيح للاسم هو كما يبدو أورروغطاي[٣٥].

ويضيف ابن بطوطة إلى هذه المعلومة أنه في أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين وسبعمائة (٣٠ ـ ٣١

ماية بأنه أول يونية ١٣٤٨) بلغنا الخبر في حلب يقول ابن بطوطة ـ بأن الوباء وقع بغزة وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف في يوم واحد .

ومن المعلوم أن الأمر يتعلق بالطاعون الأسود الذي ضرب دول حوض البحر المتوسط والذي ترك وراءه آلاف الضحايا، وإذا كان ابن بطوطة ـ كما نرى ـ قد ردد صدى آثار هذا الوباء في رحلته، فإن ابن خلدون الذي أتى الطاعون على والديه قد خصص فقرات باكيةً في مقدمته لما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في المائة الثامنة بسبب هذا الطاعون الجارف الذي طوى كثيراً من محاسن العمران[٣٦] .

وبعد، فقد قصدت أن آتي بنصوص رحلة ابن بطوطة حول حلب للتأكيد على أن الرحلة تعتبر أساسية في التاريخ لهذه المدينة العظيمة التي تظل بالرغم مما كتب عنها ـ بحاجة إلى استكشاف معالمها الأثرية وشواهد حضارتها الباقية وإن في فنادقها المائلة إلى الآن والتي كانت مراكز للبعثات الدبلوماسية والقنصليات الأجنبية ما يشير لذلك الماضي الذي يضرب في جذور التاريخ .

الحواشي:

(١) تحقيق د . أحمد مختار العبادي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ص١٣٧ .

(٢) بعض المخطوطات لقبته ببدر الدين اعتماداً على ما لقب به ذات مرة في الهند، وبعضهم نعته بشرف الدين، ومن المخطوطات من سمته أحمد أو نعتته بالشريف أو حرفت اسمه إلى بوطوطة .

(٣) المقريزي : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، هذا ويستفاد من مذكرات السفير المغربي محمد ابن عثمان (مخطوطة) حول مهمته بمالطة أن اللواتيين الطرابلسيين هم أخوة للواتيين أصحاب مالطة! وأن سبب افتراق الأخوة يرجع لاعتناق الدين النصراني . . . ويوجد موقع جغرافي على مقربة من مدينة صفرو (إقليم فاس) يحمل اسم (لواتة) كان معتقلا سياسياً لنا عام ١٩٤٤ في أعقاب المطالبة بالاستقلال .

(٤) ياقوت : المشترك وضعاً ص٢٩٥ ـ د . التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج٧ ص٥٢ .

(٥) لقد أسمى لسان الدين ابن الخطيب قليل الثقة بالمستقبل السياسي للأندلس، ولذلك وجدناه إلى جانب قراره بالالتجاء إلى المغرب يوصي أبناءه في تلك الظروف العصيبة بقوله : « من رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده في الافتضاح والانتهار ومعوقا عن الانتقال . . . » أحمد مختار العبادي : النزعات الاقتصادية لابن الخطيب مجلة كلية الآداب، الإسكندرية ١٩٥٨ .

(٦) يؤكد الشيخ سكيرج في (رياض البهجة في أخبار طنجة) (الخزانة الصبيحية ـ سلا) أن القول بوجود القبر بحومة أجزناية بطنجة يبقى أضغاث أحلام ! ويقتدى به في هذا الأستاذ عبد الله كنون في سلسلته « مشاهير المغرب » الحلقة AQALAY: TANGER, Porte du Maroc. A 25 _ 57-1956

(٧) رحلة ابن بطوطة، تقديم وتحقيق د . عبد الهادي التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية، ج١، 148-146، II، 143، III، 318، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط . ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

(٨) إلى أسرة حمدان العربية ينتمي سيف الدولة الذي احتل حلب عام ٣٣٢-٩٤٤ واشتهر أمره بالحملات المتوالية ضد البيزنطيين على ما نجده في أشعار المتنبي الذي يقول في شعره عن حلب :

نفيت عنك العلا والمجد والأدباء

وإن خلقت لها، إن لم تزر حلبا !!

(٩) لا أعرف وجهاً لتمسيتها بالشهباء إلا ما قيل عن بياض أحجارها وتربتها، هذا ولا يعرف أثر اليوم للبئرين المتحدث عنهما، وربما كان القصد إلى قنوات كانت تتحكم في الماء . . .

(١٠) فسرت لنا هذه الظاهرة ونحن نقوم بزيارة الموقع عام ١٩٩٣ بأن الذين صمموا للبناء فكروا في جعله على شكل يضمن تكييف هوائه وحمايته من الرطوبة، وقد سمعنا مثل هذا عن مبنى البيمارستان في حلب .

(١١) تقع رحبة مالك على الفرات في سوريا وقد شيدت من لدن مالك ابن طوق حوالي ١٩٩ـ٨١٥ على عهد الخليفة العباسي المأمون .

(١٢) قازان خان، ملك مغولي إيلخان العراق وفارس، نظم حملتين ضد حلب ٦٩٩ـ٧٠٠ ، ١٢٩٠ـ١٣٠٠ ولكن بدون نجاح أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تأليف محمد راغب الطباخ الحلبي، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي بحلب .

(١٣) يتعلق الأمر في الواقع بأخوين شاعرين : أبي بكر محمد بن هاشم بن وعلة وأبي عثمان بن وعلة وأبي عثمان سعيد المعروفين بالخالديين نسبة إلى قرية « الخالدية » على مقربة من الموصل، توفي سعيد عام ٣٦١ ـ ٩٨١ ، وتوفي أبي بكر عام ٣٨٠ـ٩٩٠ ، كانا يشتركان في نظم الأبيات أو القصيدة فتنسب إليهما معا، كانا من خواص سيف الدولة ابن حمدان . ابن خلكان : الوفيات ٣, ٤٠٤ ـ٤, ٤٠٤ ـ ٥ ـ ٣٨٠ .

(١٤) رواية « حلب إبراهيم » ترددت أيضاً حتى فيما كتبه بعض الصليبيين، وينتقد ياقوت هذه المعلومة قائلاً : وهذا فيه نظر لأن إبراهيم عليه السلام وأهل الشلام في أيامه لم يكونوا عربا، إنما العربية في ولد ابنه إسماعيل عليه السلام وقحطان . . . فإن كان لهذه اللفظة أعني (حلب) أصل في العبرانية أو السريانية لجاز ذلك لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارق إلا بعجمة يسيرة مثل كهنم في جهنم . . .

(١٥) قيسارية حلب، هكذا سميت بالسين في سائر النسخ التي بين أيدينا وهي تعني المركز التجاري، وقد ترسم هكذا قيصرية بالصاد . . . ويوحي اللفظ بأنه من أصل روماني، وقد رأينا أن ابن الوزان (ليون الإفريقي) يؤكد في كتابه « وصف أفريقية » أن كلمة « القيصرية » آت من القيصر الذي يعني (CESAR) . . . ولا نعرف كيف وفي أي مرحلة من التاريخ تسرب هذا اللفظ إلى دارجتنا . وقيسارية حلب ما تزال على سحرها ومفاتنها إلى اليوم على ما نرى! راجع حول هذه الكلمة : « القيصرية » : ابن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، دائرة المعرف الإسلامية، وانظر على الخصوص كتاب : 387 Bel: inscriptions Arabes de Fès, Paris, 1919 P .

(١٦) تعرض هذا المسجد للإحراق من لدن بعض متطرفة الأرمن عام ٦٥٨ـ١٢٦٠ ، لكنه أعيد بناؤه أولا من قبل قرسنقر ثم من قبل الملك الناصر عام ١٣٢٦ . وقد زرناه أكثر من مرة . . .

(١٧) تفترض بعض التعاليق أن المدرسة شيدت مكان كاتدرائية مسيحية، تحولت في البدء إلى مسجد عام ٥١٨ ـ ١١٢٤ قبل أن تسمى مدرسة أيام نور الدين زنكي عام ٥٤٥ ـ ١١٥٠ . . . نسبتها لبني حمدان خطأ . . . لأن أول مدرسة أنشئت في حلب كانت بين ٥١١ ـ ١١١٧ وسنة ٥١٨ ـ ١١٢٤ أي بعد نهاية الحمدانيين وقد زرنا صحبة المشاركين في (ندوة ابن البيطار عام ١٩٩٣) هذا المارستان الذي يعتبر أعجوبة في تصميمه . . . راجع التعليق ٨٩ .

(١٨) النهر الذي يمر في حلب اسمه (القويق) وليس العاصي ! . . . وهذا من الهفوات التي يمكن أن يوقع فيها طول العهد بزيارة المكان ـ انظر تحقيقنا لرحلة ابن بطوطة، نشر أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٨ ـ ١٩٩٧ .

(١٩) الوليد بن عيسى البحتري أبو عبادة، شاعر كبير يقال لشعره : سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم : المتنبي وأبو تمام، والبحتري، أدركه أجله عام ٢٨٤ ـ ٨٩٨ ابن خلكان : الوفيات ٦, ٢١-٢٢ وما بعدهما .

(٢٠) قويق : نهر حلب، وبطياس موضوع من حلب على بعد خمسة كيلومترات شرقيها حيث يوجد قصر لأحد الأمراء العرب، ويلاحظ أن القصر والقرية كانا معا قد خربا حوالي سنة ٦٢٢ ـ ١٢٢٥ . هذا ويذكر (هاميلتون كيب) إنه قرأ في ديوان البحتري : (طرتي) مثنى طرة : ساحل النهر (Bonds) عرض (مطالبي)، وكل المخطوطات التي بين أيدينا على : مطالبي أو فمطلبي أو فمطيتي . . . ولا يوجد فيها أثر لحرف الراء . . .

(٢١) أحمد بن محمد بن الحسن أصله من أنطاكية، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار، وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة، أدركه أجله عام ٣٣٤ ـ ٩٤٦ . فوات الوفيات ١-٦١ . الأعلام ج١, ١٩٨ .

(٢٢) الأبيات مقتبسة من قصيدة حول زفاف أحد أمراء حلب . . . سقط الزند طبعة بولاق ١٨٦٩ ج١ ص ٥٦ .

(٢٣) ابن حيوس (وليس ابن جبوس) كما عند الناشرين الفرنسيين الأولين : ديفريميري وسانكينيتي، وتبعهما سائر من قلدهما !! وهو محمد بن سلطان أبو الفتيان مصطفى الدولة، ولد ونشأ بدمشق، يلقب بالأمير ، وكان أبوه فعلا من أمراء العرب . . . له ديوان شعر في مجلدين صدره الزميل الراحل خليل مردم بمقدمة جامعة، وقد أدركه أجله بحلب عام ٤٧٣ ـ ١٠٨١ تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق : سامي الدهان، دمشق، ج٢ ص٤٠ ، عام ١٩٥٤ .

(٢٤) محمود بن الحسين المعروف بكشاجم، شاعر متقن أديب من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، وكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله والد سيف الدولة بن حمدان، ثم ابنه، له عدة مؤلفات منها كتابه « الطبيخ » ومن هنا قيل : إنه كان في أوليته طباخاً لسيف الدولة، وقيل إن (كشاجم) تختصر حروف : كاتب شاعر منشئ مجادل منطقي، أدركه أجله سنة ٣٦٠ ـ ٩٧٠ الزركلي : الأعلام ٨, ٤٣ .

(٢٥) جوشن: اسم جبل يشرف على حلب، وبطياس قرية على مقربة منها ... هذا ونلاحظ أن بعض المخطوطات (كايانكوس) أثبتت عوض البيت الثالث بيتاً آخر يقول:

لأحـــل فـــيـــهـــا مـــحـــل الـــســـنـــاد

وأذوق مـــن كـــل حـــلـــو الـــمـــذاق

بينما استغنت مخطوطة أخرى (الحبيب اللمسي) عن هذا البيت ... والمثبت في النسخ الباقية يحتاج إلى تصحيح فيكون على هذا النحو:

لا خلو جوشن وبطياس ... والمعنى سقى الله دائماً أراضي حلب ... ولم يكن التراجمة هنا ـ في نظري ـ ملتزمين بالنص ..

(٢٦) أرغون سمى في هذا المنصب في محرم ٧٢٧ دجنبر ١٣٢٦ عندما كان ابن بطوطة في الجزيرة العربية، وكانت وفاته بحلب في ربيع الأول سنة ٧٣١ يناير ١٣٣١ ابن حجر: الدرر الكامنة ١, ٣٧٤.

(٢٧) محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري بن عبد الكريم الدمشقي ابن الزملكاني كمال الدين، أبو المعالي انتهت إليه رياسة الشافعية في عصره ولد وتعلم بدمشق وتصدر للتدريس والإفتاء ونظر وكالة بيت المال وديوان الإنشاء ولى القضاء في حلب وطلب لقضاء مصر فقصدها وأدركه أجله في القاهرة عام ٧٢٧ ـ ١٣٢٧، الدرر ٤، ص١٩٢-١٩٣.

(٢٨) محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الفارقي أبو بكر، جمال الدين، ابن نباته وهو من ذرية الخطيب عبد الرحيم ابن محمد بن نباته المتوفى سنة ٣٧٦ـ٩٨٤ ... أصله من ميافارقين جنوب شرقي تركيا لقبه كما قلنا جمال الدين وليس شهاب الدين، كما عند ابن بطوطة اعتبر أميراً للشعراء في عصره أدركه أجله عام ٧٦٨ـ١٣٨٦ ابن خلكان: وفيات ٣, ١٥٦ الدرر الكامنة ٤, ٣٣٩ـ٣٤٠.

(٢٩) جلّق: اسم شاعري لدمشق على نحو الشهباء بالنسبة لحلب والزوراء لبغداد.

(٣٠) أبو عبد الله محمد بن كمال الدين ابن العديم، هذا توفي سنة ٧٥٢ـ١٣٥١ وقد خلف والده في هذا المنصب منذ عام ٧٢١ـ١٣٢١ بينما خلفه ابنه بعد وفاته، ويظهر أن له صلةً بابن العديم صاحب زبدة الحلب من تاريخ حلب التي حققها سامي الدهان دمشق ١٩٥٤. وينعته ابن بطوطة بحسن الصورة وهي صفة من مرجحات الإمامة بالناس على نحو جمال الثياب كما يقول الشيخ خليل في مختصره في الفقه المالكي (ثم بخلق ثم بخلق ثم بلباس)!

(٣١) هذا البيت مأخوذ من قصيدة لزهير بن أبي سلمى ...

(٣٢) توفي بدر الدين حسن بن محمد بن علي بن زهرة الحسني الحلبي بحلب في المحرم ٧٣٢ـ١٣٣١ وكان ناظر المراستان بها قتل غيلة ... الدرر الكامنة ٢, ١٢٣.

(٣٣) بيت ابن العجمي من بيت العلم والرياسة والوجاهة أنجب جملةً صالحة من العلماء والفقهاء وكان رئيسها على هذا العهد عز الدين إبراهيم بن صالح المتوفى عام ٧٣١ـ١٣٣١، قد يكون ولداً لشرف الدين الذي ذكره ابن بطوطة.

(٣٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ٢١٠,٢ ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق: د. التازي.

(٣٥) انظر المنهل الصافي ج١١, ٣٣٨ـ تعليق ٣٧٨.

(٣٦) ابن خلدون: المقدمة، طبعة بيروت ٥٦ ص ٥١.

حلب في العصور الحجرية

سلطان محيسن

المديرية العامة للآثار والمتاحف، جامعة دمشق

يتناول البحث منطقة حلب في العصور الحجرية من خلال نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في هذه المنطقة، وبخاصة بدءاً من السبعينات، ودلت على استيطان المنطقة المشار إليها منذ عصور ماقبل التاريخ، وهو استيطان تؤكده الأدوات الحجرية العائدة لمختلف مراحل تلك العصور والتي أتت من العديد من المواقع المنتشرة في المنطقة المشار إليها وأهمها:

- *حوض نهر قويق، حيث عثر على آثار استيطان من العصر الحجري القديم الأدنى والقديم الأوسط ومن العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (بخاصة موقع القرامل) ومن نهاية العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب، ثم العصر الحجري الحديث الفخاري والعصر الحجري النحاسي.*

- *في حوض وادي الساجور، حيث وجدت آثار استيطان من العصر الآشولي الأعلى وعلى إمتداد العصر الحجري القديم الأوسط (اللقلوازي ـ الموستيري) ومن العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب والعصر الحجري النحاسي (موقع ملا أسعد وقره ديره).*

- *ويتعرض البحث للنتائج الأولية التي أتت من منخفض حوض الجبول والتي أظهرت دلائل استيطان من مختلف العصور ولكن أهمها كانت من العصر الكباري (موقع عين بير الزرقا والمكمن).*

وأخيراً نستعرض المكتشفات المتميزة التي أتت من منطقة عفرين وأهمها اكتشافات مغارة الديدرية / ٢ / حيث عثر على بقايا هياكل نياندرتالية ذات أهمية خاصة منها هيكل عظمي، كامل تقريباً، لطفل عمره حوالي السنتين إضافة الى معطيات أثرية ومستحاثية مختلفة.

❁ ❁ ❁

سيتناول الجزء الأول من بحثنا مناطق هضبة حلب وسهولها، ومنخفض الجبول والمنطقة الشامية الشمالية.

جغرافياً: تبلغ مساحة هذه المنطقة حوالي ٢٠,٠٠٠كم٢ وتقع بين الحدود التركية شمالاً وإقليم الجزيرة والفرات شرقاً وإقليم حوض العاصي غرباً وإقليم الوسط السوري جنوباً. وهي، عموماً، منطقة منبسطة يتراوح ارتفاعها بين ٣٠٠ ـ ٤٥٠م، من أبرز تضاريسها وادي الساجور وجبل أم ميال وجبل جال الجرن في الشمال ووادي قويق مع شبكة أوديته ومجموعة سبخات الجبول ونهر الذهب إضافة إلى جبل الحص (الأحص) وجبل شبيت في الوسط، بينما تحتل البادية قسمها الجنوبي.

جيولوجياً: تسود في تلك المنطقة صخور رسوبية عائدة إلى الكريتاسي / Crétacé / إضافة إلى صخور الحقب الثالث (الباليوجين Paléogène والنيوجين Néogène). أما الترسبات الرباعية (Quaternaire) فإنها تقوم بشكل خاص في أحواض نهري الساجور وقويق وفي سبخة الجبول والسبخات المجاورة والوديان الفرعية الصغيرة والكبيرة. كما تظهر في الأقاليم الصخور البازلتية وخاصة في مناطق جبل الحص وشبيت وأبو ظهور وتل خريب وهي بخاصة من عصر النيوجين (عبد السلام ١٩٨٩ / ١٩٩٠).

أبحاث ماقبل التاريخ:

١ـ هضبة حلب وسهولها:

وتركزت دراسات ماقبل التاريخ بخاصة في مناطق حوض الساجور (Besançon et *alii*, 1980; Sanlaville, 1985) ومسح منطقة حوض قويق والمطخ (Matthers,1981).

٢ـ منطقة منخفض الجبول:

وهي منطقة لم تكن قد درست بعد أثناء إنعقاد ندوة حلب وطريق الحرير، إذ بدأت فيها الأبحاث منذ عام ١٩٩٥م، وتتابعت في أعوام ١٩٩٦و ١٩٩٧م، ومن المتوقع استمرارها في عامي ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩م، ونرى من المفيد التعرض إلى النتائج الأولية لهذه الأبحاث، بالرغم من أنها لم تنشر بعد.

٣ـ المنطقة الشامية الشمالية:

ليست لدينا معطيات عنها إذ لم تجر فيها حتى الآن أية أبحاث.

٤ـ كما أننا سوف نتناول في الجزء الثاني من بحثنا منطقة حوض نهر عفرين نظراً للأهمية الخاصة للمكتشفات التي أتت منها بالرغم من أنها، جغرافياً، تشكل جزءاً من إقليم حوض العاصي لكنها تابعة إدارياً لمحافظة حلب.

والآن سوف نستعرض نتائج أبحاث ماقبل التاريخ التي جرت في تلك المناطق المشار إليها حسب تتابع حصولها (الشكل: ١).

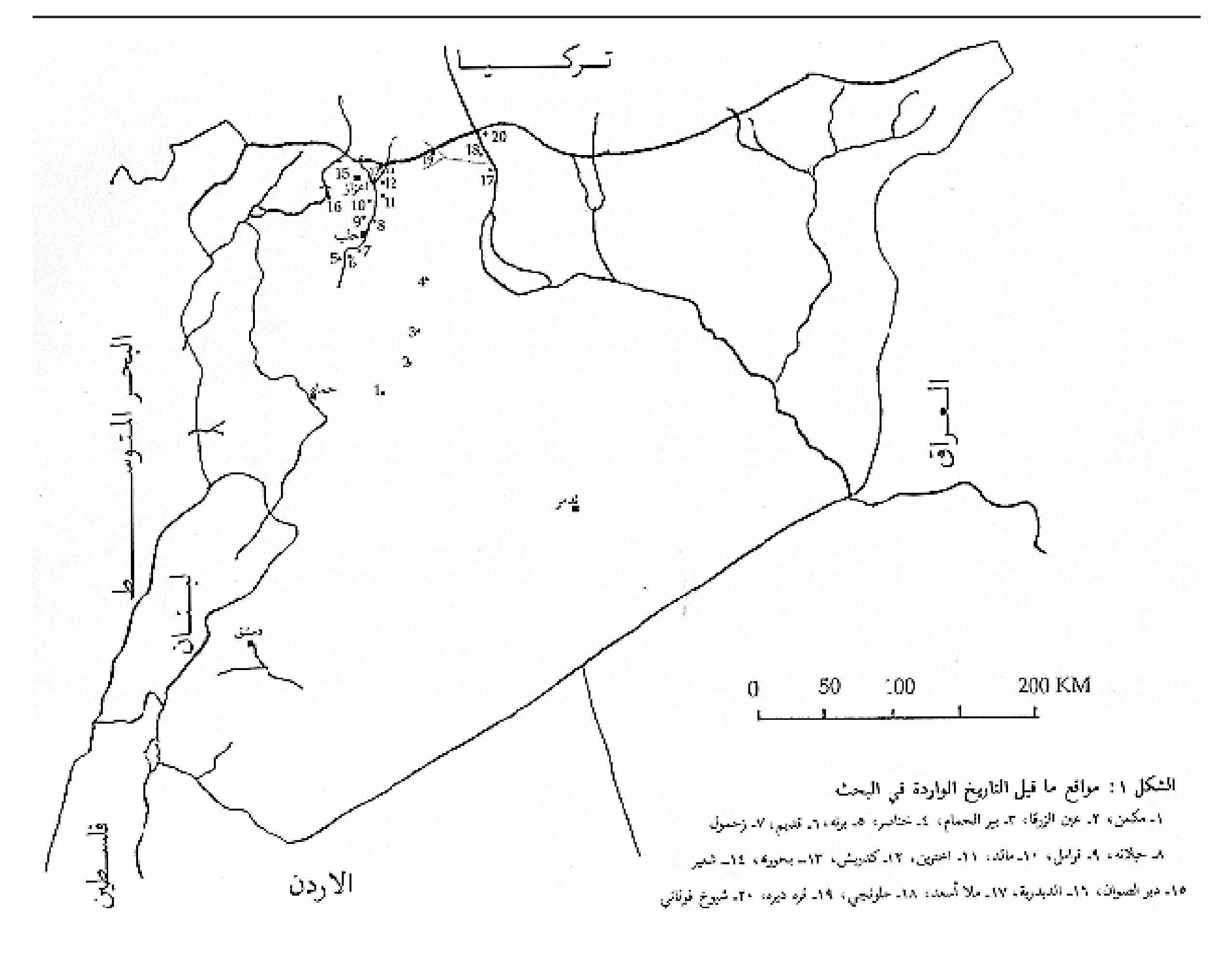
١. حوض نهر قويق والمطخ:

يمتد حوض نهر قويق على مسافة حوالي ١٠٠كم ويروي منطقة يترواح عرضها بين ٤٠ ـ ٥٠ كم شمال حلب وحتى حوالي ٢٥كم في منطقة حلب نفسها. ولهذا النهر روافد هامة، شرقية وغربية، في جزئه الأعلى بخاصة. عملت في هذه المنطقة، كما أشرنا، بعثة من معهد الآثار التابع لجامعة لندن، Institute of Archaeology of London University، وذلك لثلاث مواسم متتالية ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩. حيث قامت بمسح شامل، حددت إثره الاستيطان البشري والمواقع الأثرية العائدة لمختلف المراحل التاريخية. ولكننا هنا سنتناول، فقط، المواقع العائدة لعصور ماقبل التاريخ.

وقد إلتقطت آثار عصور ماقبل التاريخ من أكثر من ٤٠ موقعاً، كلها تقريباً تلال أثرية. حيث درست لورين كوبلاند L.Copeland الأدوات الصوانية، بينما درس جيمس ميلارت J.Mellaart الأواني الفخارية.

آ. العصر الحجري القديم الأدنى:

يمثل هذا العصر المرحلة الأولى والأقدم من العصر الحجري القديم، الباليوليت الأدنى (Paléolithique Inférieur). وقد عاش فيه إنسان الهوموأركتوس (Homo-Erectus) الذي صنع، بشكل عام، الفؤوس الحجرية (Bifaces) العائدة لما يسمى بالحضارة الآشولية (Acheuléen). ظهر هذا الإنسان في أفريقية منذ حوالي ١,٥ مليون سنة خلت ثم انتشر فيما بعد إلى بقية القارات (Chavaillon,1996). وجدت الآثار العائدة لهذا العصر على سطوح المصاطب النهرية الرباعية لنهر قويق وبخاصة تل شعير وتل بحورته. (الشكل: ٢ و٣) وكانت تلك الآثار عبارة عن أدوات حجرية، ليست في مكانها الأصلي إنما قد جرفتها عوامل

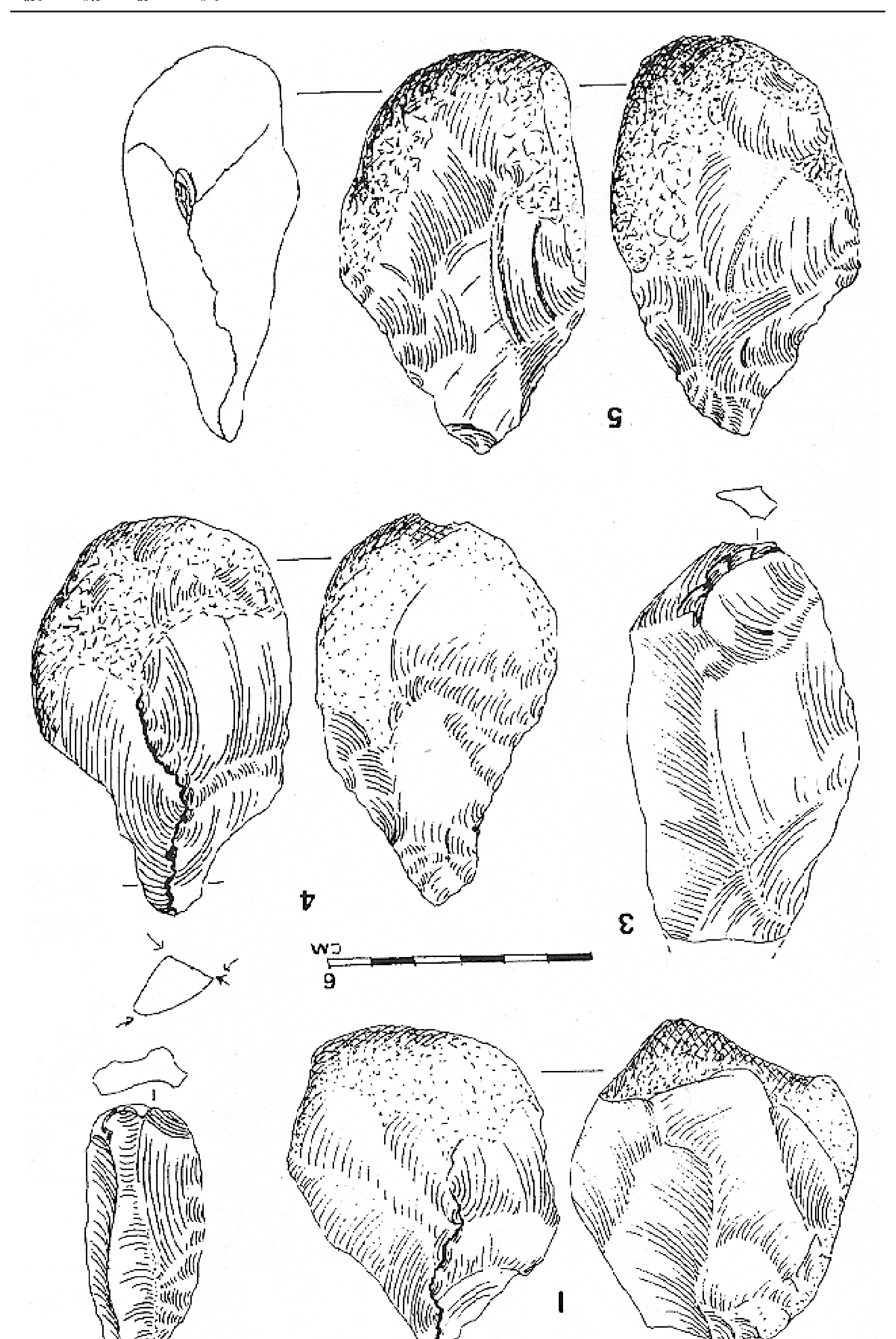


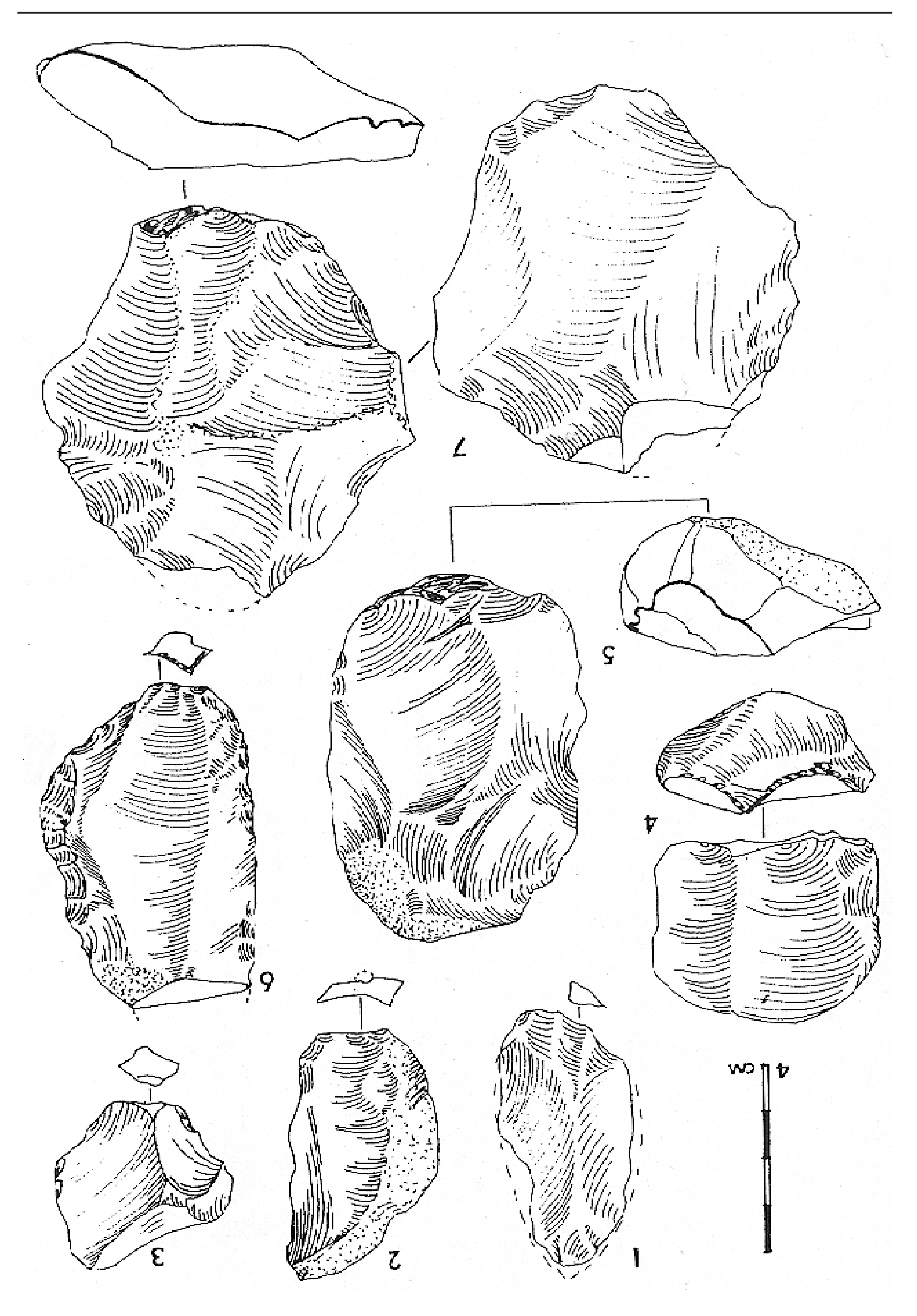
الشكل ١: مواقع ما قبل التاريخ الواردة في البحث
١- مكمن، ٢- عين الزرقا، ٣- بير الحمام، ٤- خناصر، ٥- برنة، ٦- قديم، ٧- زحمول
٨- جبلانة، ٩- ترامل، ١٠- ماثد، ١١- اخترين، ١٢- كنويش، ١٣- بحورة، ١٤- شير
١٥- دير الصوان، ١٦- الديدرية، ١٧- ملا أسعد، ١٨- حلونجي، ١٩- قره ديره، ٢٠- شيوخ فوقاني

الطبيعة من مواقعها الأولية. حملت تلك الأدوات كمخة عسلية اللون عموماً وكانت ملساء وحوافها متآكلة بفعل مرور الزمن. وقد ضمت مجموعة صغيرة من الفؤوس والمعاول العائدة إلى العصر الآشولي الأخير (Acheuléen Final)، كما رافقها شظايا غليظة ونوى. وهي تشبه الأدوات التي وجدت في مواقع الآشولي الأعلى (Acheuléen Supérieur) والآشولي الأخير في مختلف مناطق سورية مثل حوض العاصي والنهر الكبير الشمالي ومنطقة الكوم وتدمر (Muhesen, 1992) ومنطقة عينتاب في تركية (Hours, 1987). إضافة إلى هذين الموقعين فقد عثر على شظايا مختلفة في مناطق أخرى يمكن اعتبارها من عصر الباليوليت الأدنى، دون أن تتوفر لدينا معطيات كافية عن حقيقة تلك المواقع وأهميتها العلمية. وبشكل عام يمكن أن نعتبر الأدوات المشار إليها الدليل الأول، والأقدم، على ظهور الإنسان في منطقة حلب، ولكنها تبقى دلائل فقيرة مقارنة مع مناطق أخرى من سورية والمشرق. ويمكن أن نؤرخها إلى زمن يعود إلى حوالي ٤٠٠ ألف سنة خلت، وهو تاريخ متأخر إذا ماقيس بدلائل الاستيطان التي وجدت في مناطق الساحل السوري ونهر العاصي العائدة إلى حوالي مليون سنة خلت (Muhesen, 1988). ومن غير المستبعد أن تفضي الأبحاث المستقبلية إلى نتائج جديدة تشير إلى استيطان بشري أقدم مما نعرفه الآن.

ب- العصر الحجري القديم الأوسط:

لقد بدأ العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط Paléolithique Moyen) منذ حوالي ٢٠٠ ألف سنة خلت، وهو عصر عاش فيه إنسان النياندرتال (Néanderthal) الذي أتى، على مايبدو، متطوراً عن الهومواركتوس وإنما كان متميزاً عنه بقدراته الحضارية والفيزيولوجية الأكبر. ومعلوم أنه تنسب إلى النياندرتال الحضارة اللفلوازية-الموستيرية الواسعة الإنتشار في مختلف الأرجاء (Levalloiso - Moustérien). لقد وجدت آثار


5
4
3
1
cm


1
2
3
4
5
6
7
4 cm

الباليوليت الأوسط في حوالي عشرين موقعاً، بينها بحورته وتل شعير، وكانت تلك الآثار عبارة عن أدوات حجرية، نصال ومقاحف ونوى، من النوع اللڤلوازي ـ الموستيري المعروف في المشرق، والتي يمكن أن نعطيها عمراً تقريبياً يتراوح بين حوالي ١٠٠ إلى ٥٠ ألف سنة خلت (الشكل: ٤ و ٥).

إن آثار هذا العصر هي أيضاً قليلة إذا قيست ببقية المناطق السورية (مثل الساحل السوري وحوض العاصي والفرات والبادية، التي كشف فيها عن مئات المواقع والمغاور والملاجىء ... الخ). والتي تميزت بكثافة كبيرة جداً للأدوات الحجرية العائدة للعصر المشار إليه، ومهما يكن فإن منطقة حلب كانت مستوطنة، بشكل واضح من قبل إنسان النياندرتال، وإن كان هذا الاستيطان ليس بنفس درجة غنى وكثافة المناطق الأخرى من سورية.

ج ـ العصر الحجري القديم الأعلى:

إن قلة، أو غياب، الدلائل العائدة للعصر الحجري القديم الأعلى (الباليوليت الأعلى Paléolithique Supérieur) هي من أهم المشاكل التي تواجه الباحثين في عصور ماقبل التاريخ في المشرق. بدأ هذا العصر منذ حوالي ٤٠ ألف سنة خلت واستمر حتى حوالي ١٢ ألف سنة ق.م وفيه ظهر نوع الإنسان العاقل (Homo-Sapiens) السلف المباشر للإنسان الحالي. ويلاحظ أن هذه المرحلة تتميز بندرة آثارها واقتصار معطياتها على الأدوات الحجرية، إذ لا وجود لمواقع غنية ومتنوعة كما هو الحال في بعض المناطق العالمية وبخاصة في أوربة الغربية. إن البحث قائم لتحديد الأسباب الحقيقية الكامنة خلف هذا الواقع وفيما إذا كانت أسباباً مناخية أم حضارية أم اجتماعية أم غير ذلك. وفي كل الأحوال فإن منطقة حلب لاتخرج عن ماهو معروف من بقية المناطق في المشرق العربي القديم إذ لم يتم العثور فيها، حتى الآن، على آثار واضحة وكافية لهذا العصر. ولا بد من استمرار الأبحاث المستقبلية وتطويرها، سواء على مستوى المشرق أو سورية، وذلك للوقوف على حقيقة هذا الأمر.

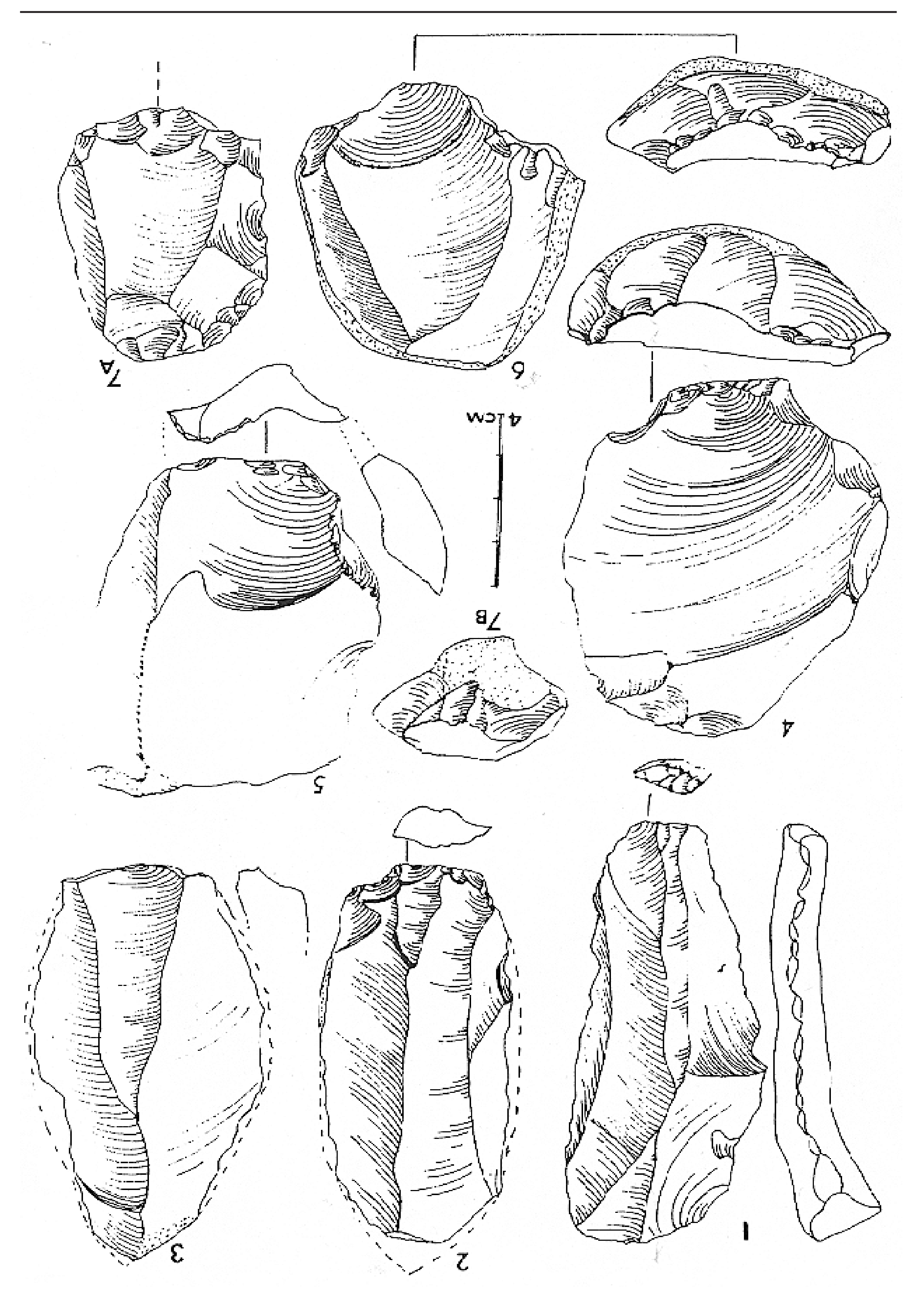
د ـ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (P.P.N.A)

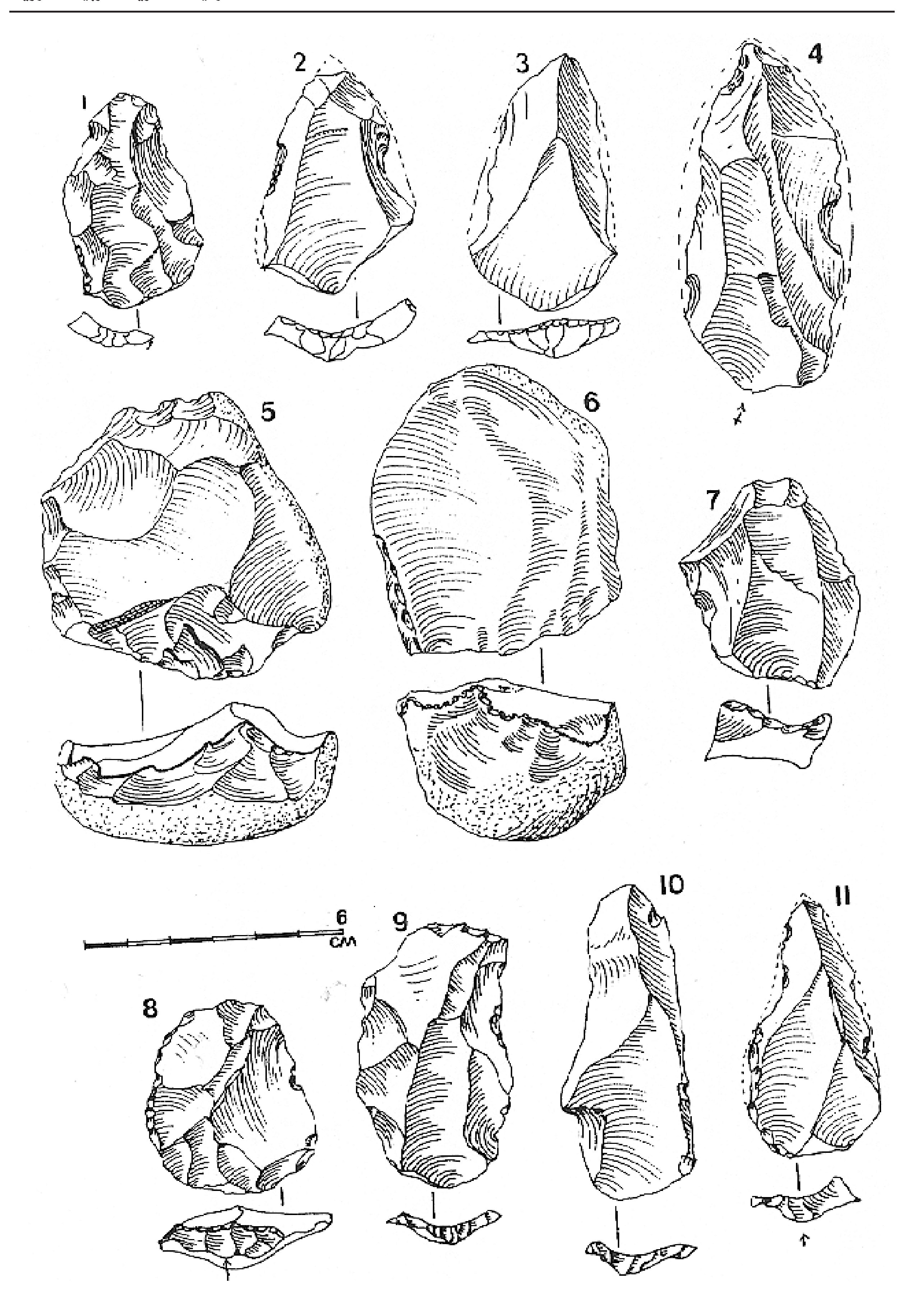
بدأ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (Pre-Pottery Neolithic A) في حوالي الألف العاشر ق.م، وهو عصر تحول جذري في حياة إنسان ماقبل التاريخ الذي ترك حياة التنقل والصيد والإلتقاط للحيوانات والنباتات البرية، إلى البناء والاستقرار وتدجين الحيوانات وزراعة الحبوب، وهذا مايسميه الباحثون الثورة النيوليتية Révolution Néolithique (Cauvin, 1978).

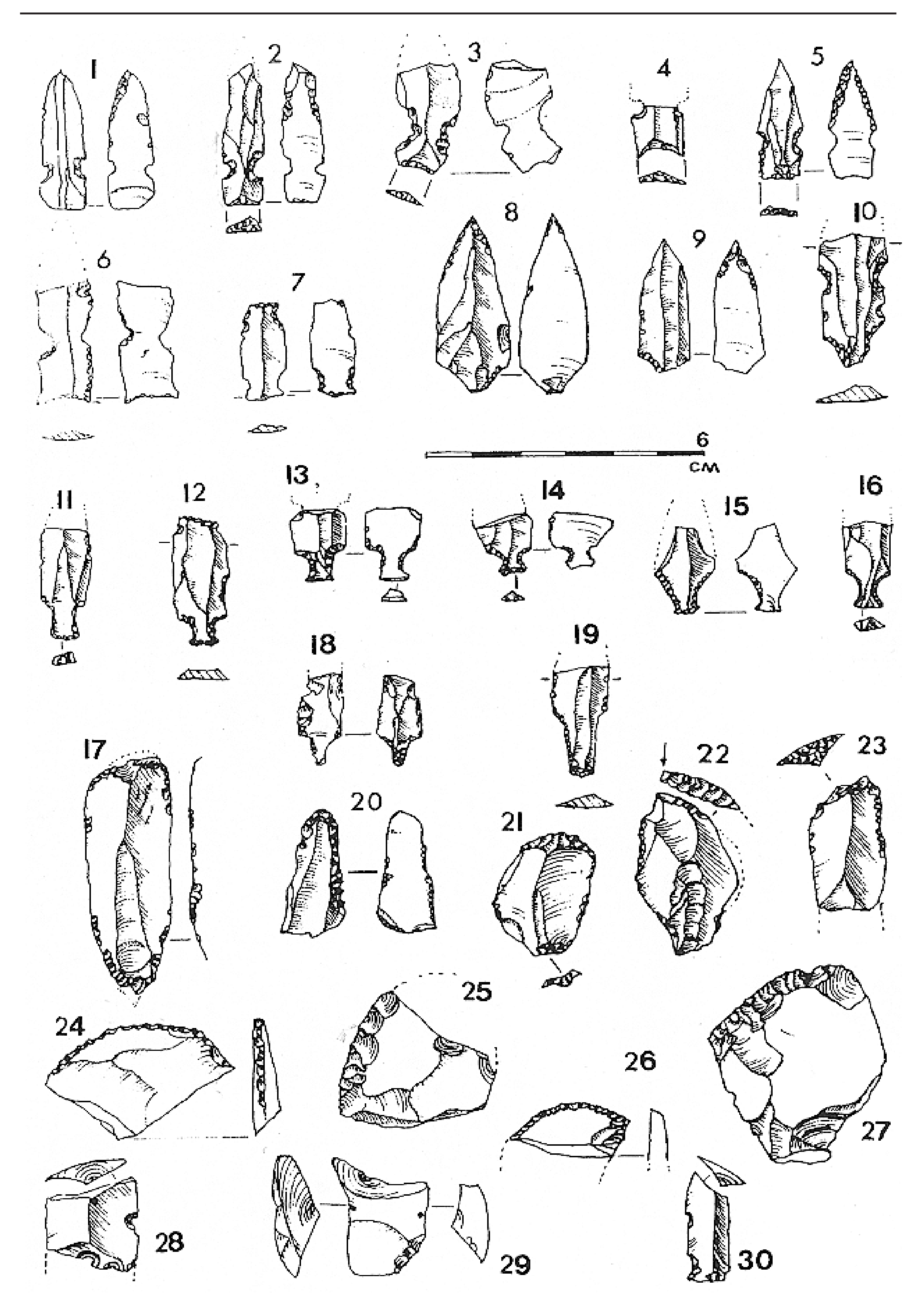
ظهرت آثار هذا العصر، بخاصة، في تل قرامل في حوض قويق إلى الشمال من حلب. إن هذا التل هو أحد أهم مواقع هذه المرحلة الهامة من سورية. فقد التقط منه حوالي ٥٠٠ أداة حجرية احتوت على النوى والشظايا ورؤوس نبال، وبخاصة من النوع المسمى « نبال الخيام » نسبة الى موقع الخيام في فلسطين. وهي نبال مفرضه عند القاعدة، إضافة إلى المناجل والقطع المشذبة والفخار والمكاشط والأزاميل والأدوات المسننة والأدوات المركبة (مكشط / مخرز ... إلخ). ونظراً للأهمية الخاصة لهذا العصر ولندرة المواقع نأمل تنقيب تل قرامل في المستقبل القريب للوقوف على حقيقته التاريخية وتحديد مكانته الحضارية بين مواقع هذا العصر، المعروف منها بخاصة المريبط في الفرات الأوسط وموقع الجرف الأحمر في الفرات الأعلى (الشكل: ٦).

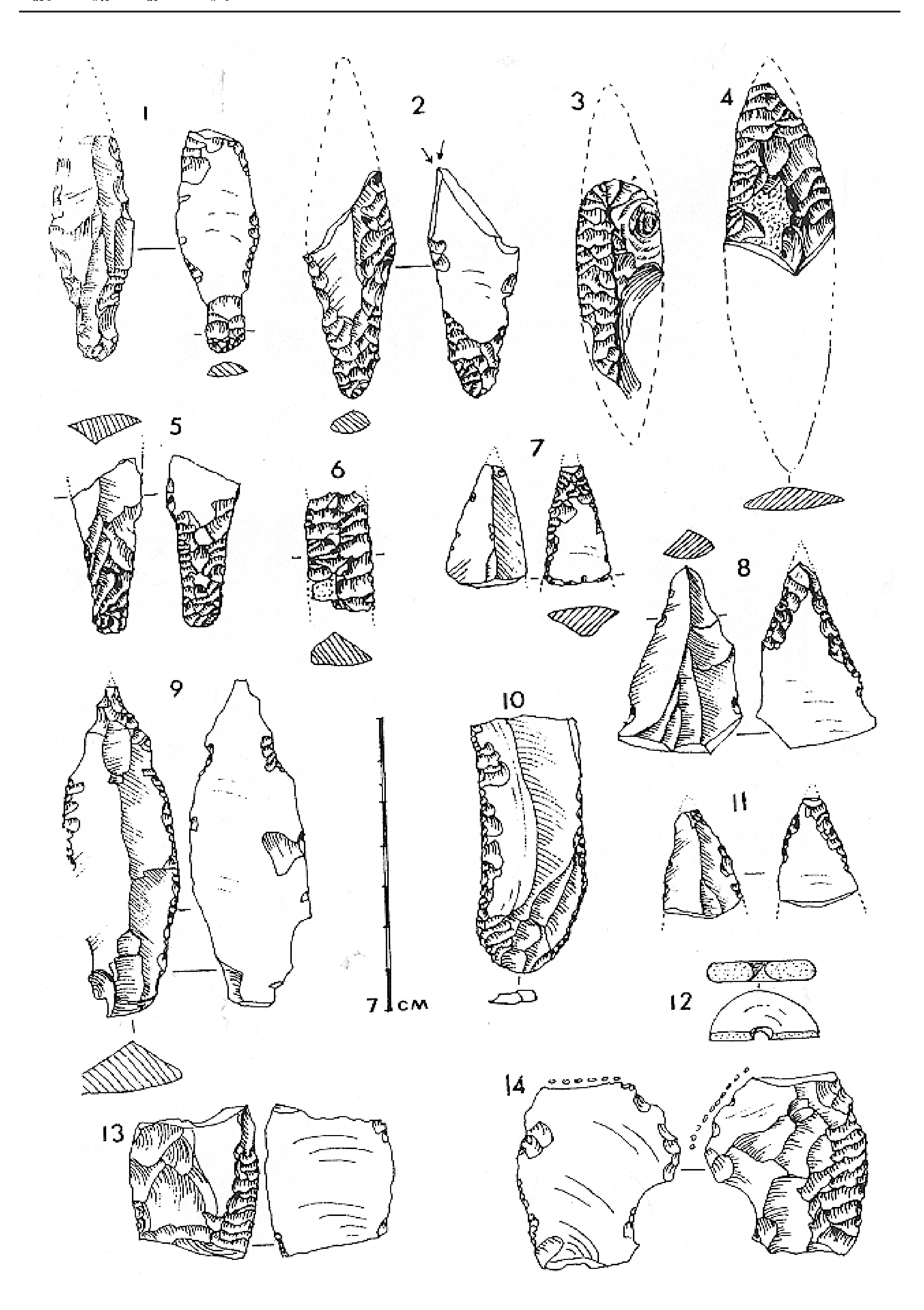
إن السؤال الهام يبقى هو غياب مواقع العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب (PPNB) الذي تلا مباشرة العصر السابق، حوالي منتصف الألف الثامن ق.م، وربما أن المزيد من البحث في المنطقة سوف يقدم معلومات جديدة عن هذا العصرالذي لازال غامضاً.

في نهاية عصر النيوليت ماقبل الفخار ب، حوالي منتصف الألف السابع ق.م، عاد الاستيطان البشري إلى حوض نهر قويق كثيفاً وتجذرت عملية استقرار وتطور القرى النيوليتية الباكرة التي عرف سكانها، مع نهاية الألف السابع ق.م، صنع واستخدام الآواني الفخارية على نطاق واسع وهي الآواني المنسوبة إلى مايسمى بالعمق آ (Amouq A) والعمق ب (Amouq B)، التي وجدت في العديد من المواقع أهمها، تل برنه وتل قديم وبحورته وتل قرامل واعزاز (الشكل:٧). وعموماً فإن مواقع النيوليت الفخاري قد استخدمت نفس تقنيات العصر السابق قبل الفخار، وهي من النوع المعروف أيضاً في رأس الشمرة في السويات VB-VA.


1
2
3
4
5
6
7A
7B
4 cm


1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
6
CM


1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
6
CM
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30


1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
7 CM
11
12
13
14

العصر الحجري النحاسي:

بدأ العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت Chalcolithique) في حوالي منتصف الألف السادس ق.م واستمر حتى حوالي نهاية الألف الرابع ق.م وقد سادت خلاله حضارات جديدة تمثل تطوراً طبيعياً لحضارات العصر السابق. ولكن أهم مايميزها هو الفخار الملون العائد إلى حضارة حلف التي انتشرت بخاصة حتى الألف الخامس ق.م. والتي تلتها حضارة العبيد، حتى الألف الرابع ق.م. وقد تبين بأن معظم المواقع التي احتوت فخار العمق آ والعمق ب قد أعطت أيضاً فخار العصر الحجري النحاسي المنسوبة إلى مراحل العمق س (Amouq C) و العمق ي (Amouq E)، والعائد إلى حضارتي حلف وعبيد حيث وجدت آثارهما في العديد من المواقع مثل كدريش ومالد واخترين وبحورته (الشكل: ٨). وقد استمر الاستيطان، في المنطقة المشار إليها، حتى مرحلة العمق ج (Amouq G) و العمق ف (Amouq F) أي حتى حوالي مطلع الألف الثالث ق.م، وعلى امتداد العصور التاريخية اللاحقة.

هكذا نلاحظ بأن استيطان البشر في منطقة حلب قد بدأ منذ العصر الحجري القديم الأدنى واستمر في العصر الحجري القديم الأوسط مع انقطاع بدأ في العصر الحجري القديم الأعلى واستمر على امتداد العصر الحجري الوسيط (الميزوليت Mésolithique). ثم أصبح هذا الاستيطان أكثر كثافة وأهمية في العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار آ (PPNA) الذي تلته فترة انقطاع في القسم الأول من العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب (PPNB) ليعود الاستيطان هاماً في نهاية هذا العصر. إن السمات الحضارية لمواقع منطقة حلب تجعلها، عموماً، أقرب إلى منطقة العمق منها إلى منطقة الفرات إذ يتواجد فيها، وبخاصة، الفخار المطبّع والمحزز (Incised/Impressed). كما استمر الاستيطان على امتداد الألفين السادس والخامس والرابع بل ازداد كثافة مع مطلع الألف الثالث ق.م وعلى امتداد العصور التاريخية.

حوض الساجور:

لدينا بعض المعلومات السابقة التي تدل على أن منطقة الساجور قد استوطنت منذ العصر الحجري القديم. لكن أول مسح نظامي جرى في المنطقة المذكورة كان في عام ١٩٧٨م، بإدارة بول سانلاڤيل (P. Sanlaville) وبمشاركة جاك بيزانسون (J. Besançon) ولورين كوبلاند (L. Copeland) وهنري دوكونتسون (H. de Contenson). وسلطان محيسن. وقد هدف المسح الذي جرى في ذلك الحين إلى دراسة الواقع الجيومورفولوجي وتحديد مواقع عصور ماقبل التاريخ فيها (Besançon et *alii*, 1980). لقد تمَّ مسح منطقة بطول حوالي ٦٠كم غرب/شرق و٢٠ ـ ٣٠كم شمال/ جنوب في حوض نهر الساجور الرافد الأعلى لنهر الفرات. هدف البحث إلى تحديد إمكانيات البيئة وتغيرها عبر الزمن وقدرتها على تأمين متطلبات حياة إنسان ماقبل التاريخ، من مياه وثروة حيوانية ونباتية ومواد أولية استخدمت في تصنيع الأدوات وإمكانيات الزراعة...إلخ. وقد تبين أن مواقع عصور ماقبل التاريخ قد انتشرت على السهول المرتفعة لنهر الساجور وفي أسرّة النهرالعائدة إلى عصر البليستوسن (Pleistocène) والتي أمكن تحديدها كالتالي:

١ـ السرير الأعلى: (QFIII) الذي بدا متآكلاً وعارياً من الترسبات.

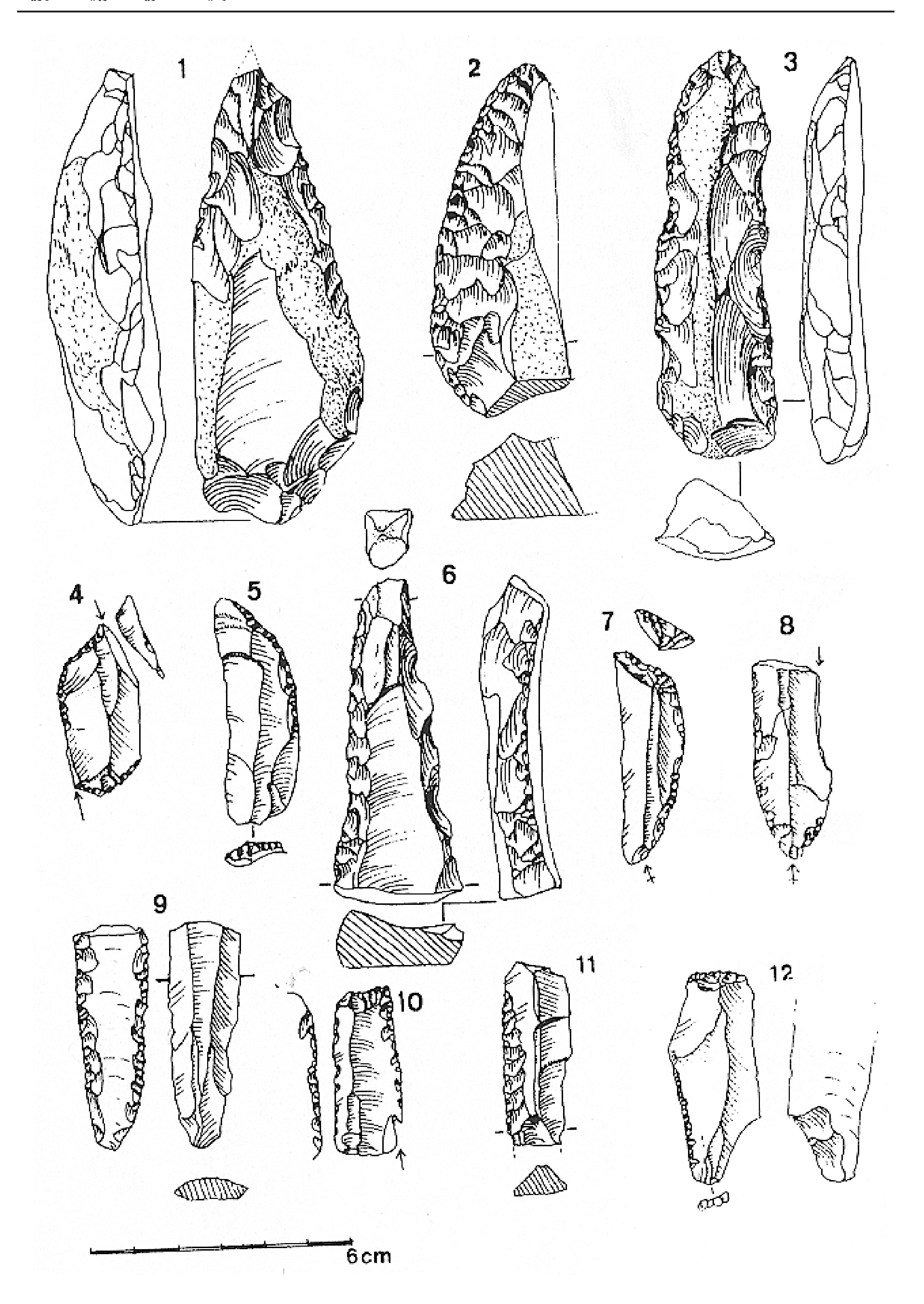
٢ـ السرير الأوسط: (QFII) ظهر ضيقاً ومتدرجاً واحتوى على ترسبات من الحصى والرمل (الكونغلوميرا). وهو سرير غني بالأدوات الصوانية، ذات الكمخة القاتمة، العائدة بخاصة إلى العصر الحجري القديم الأدنى (العصر الآشولي الأعلى).

٣ـ السرير الأدنى: (QFI) لم يظهر إلا في بعض أجزاء النهر وغالباً ماكانت ترسباته من الطمي، وهي تشبه ترسبات السرير الأوسط مما يخلق إمكانية الخلط بين السريرين. وجدت فيه بخاصة الأدوات العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط (اللڤلوازي ـ الموستيري).

أما سرير عصر الهولوسن (Holocène) فهو منتشر في كل مكان من حوض الساجور والأودية الفرعية له.

العصر الحجري القديم

لقد بدأت إقامة الإنسان في هذه المنطقة بشكل مبكر ودلت على ذلك الأدوات الحجرية التي انتشرت في أماكن عديدة. لقد احتوى وادي الساجور على الحصى الصوانية


1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
6 cm

التي كانت مواد أولية لابد منها لتصنيع الأدوات الحجرية التي انتشرت في حوض النهر وعلى السطوح العالية بكثافة كبيرة ومثلت دلائل استيطان من مختلف مراحل العصر الحجري القديم. بعض تلك الأدوات بدا قديماً جداً ولكن لم يتم العثور على آثار لصناعات حجرية واضحة يمكن مقارنتها مع ما وجد في حوض العاصي أو في منطقة النهر الكبير الشمالي.

إن أقدم صناعة حجرية في حوض الساجور تمثلها الأدوات الحجرية التي وجدت في السرير الأوسط للنهر والتي تنسب إلى مرحلة الآشولي الأعلى.

لقد تمَّ الكشف عن حوالي خمسين موقعاً، تعود لمختلف مراحل العصر الحجري القديم الأدنى، انتشرت على المرتفعات والسطوح أو ضمن ترسبات الأسرة النهرية وبخاصة السرير الأوسط (QFII) والسرير الأدنى (QFI). وقد تبين بأن لاوجود لآثار العصر الآشولي الأدنى ولا لآثار العصر الآشولي الأوسط، مع أنه عثر على عدة أدوات صوانية يمكن أن تكون من العصرين المشار إليهما دون أن نستطيع الجزم في هذه النقطة.

إن أقدم آثار استيطان بشري واضح في حوض الساجور تنسب ،كما أشرنا، إلى العصر الآشولي الأعلى، حيث عثر على مجموعات من الأدوات الحجرية في بعض المواقع وبخاصة في موقع شيوخ فوقاني وحلونجي (الشكل: ٩). وقد سادت في تلك المواقع الفؤوس اليدوية ذات الأشكال المختلفة، على شكل لوزة أو قلب أو شكل مدبب أو متطاول أو بيضوي، وهي تشبه الأدوات التي وجدت في أحواض الفرات والعاصي ونهر الكبير الشمالي والمنسوبة إلى نفس المرحلة الآشولية العليا. وقد رافقت تلك الفؤوس القواطع وبعض الأدوات الخفيفة كالمكاشط والسكاكين.

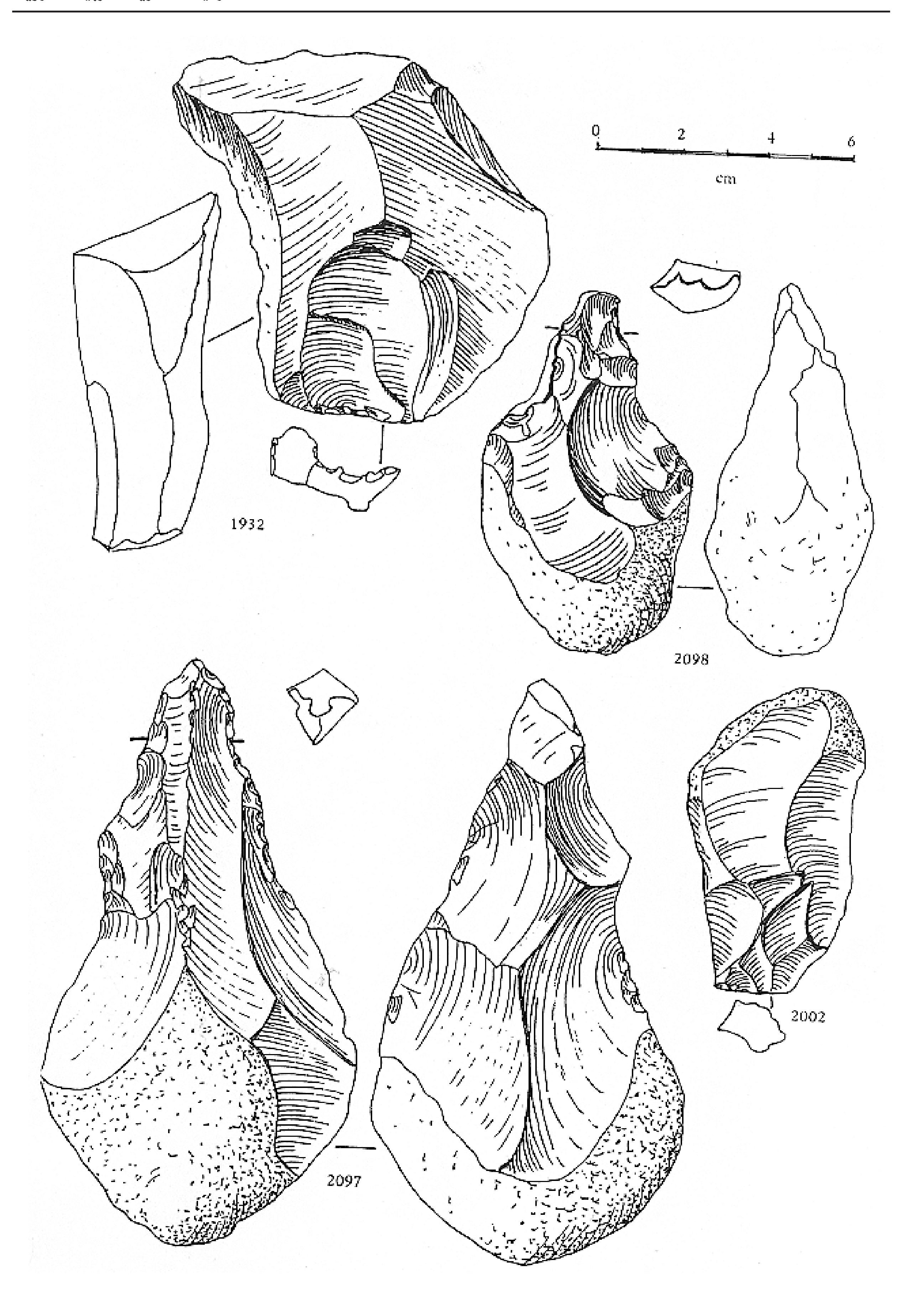
ومن جهة أخرى فقد وجدت في السرير الأدنى للنهر (QFI) الأدوات الحجرية العائدة إلى العصر الحجري القديم الأوسط، الباليوليت الأوسط، وقد ظهرت تلك الأدوات في مكانها الأصلي ضمن التشكلات الجيولوجية لذلك السرير النهري. لقد تميزت الأدوات الحجرية، بخاصة، بوجود الحراب العريضة، المنسوبة إلى النمط اللفلوازي / الموستيري، والمقاحف والسكاكين التي ترافقت أحياناً مع الفؤوس العائدة للعصر الآشولي الحديث (الشكل: ١٠).

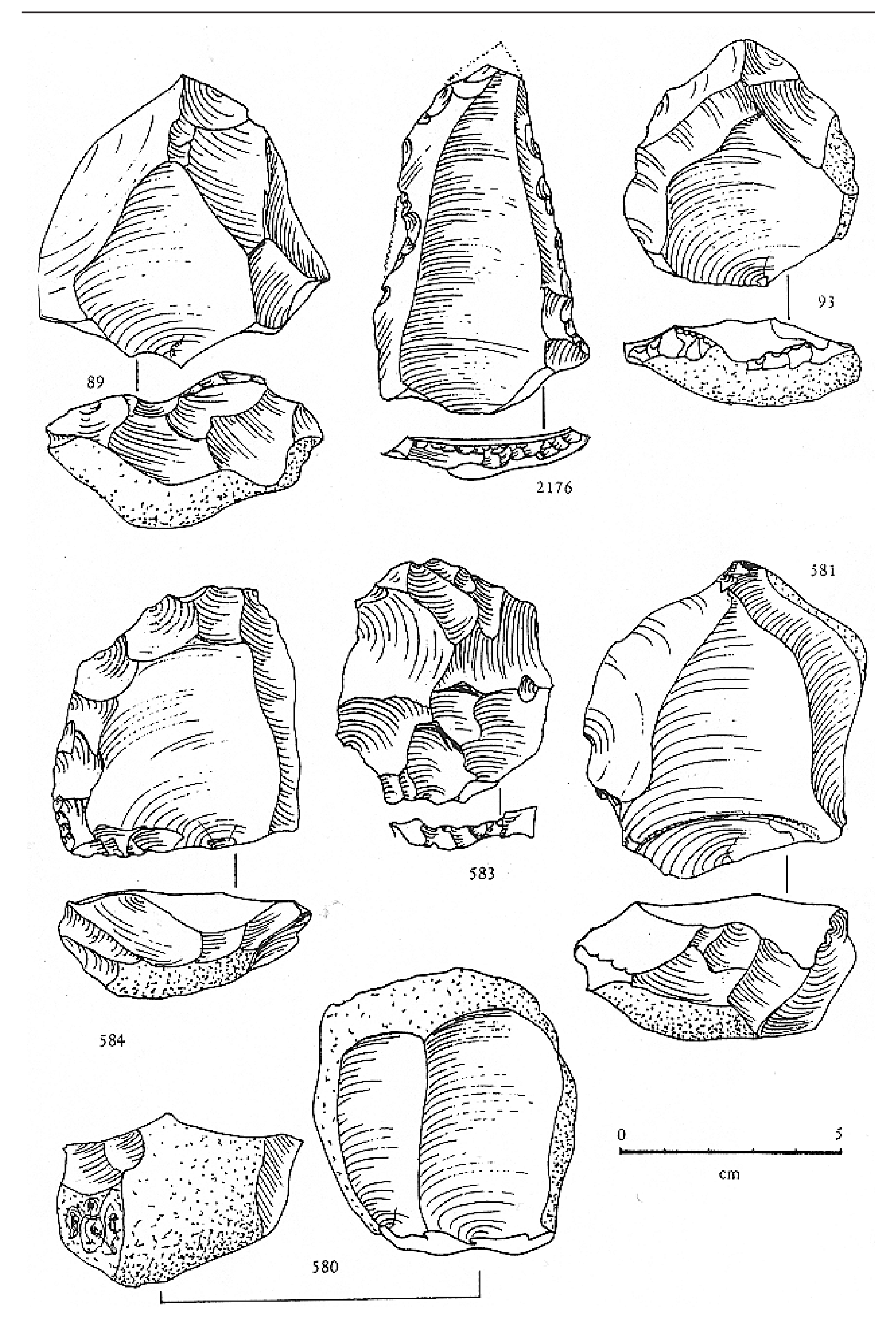
ومن الاكتشافات الهامة في هذه المنطقة كانت الكميات الضخمة من الشظايا وبقايا التصنيع التي تدل على مشاغل تصنيع، للأدوات الحجرية، انتشرت في أكثر من مكان على السطوح المجاورة لوادي النهر.

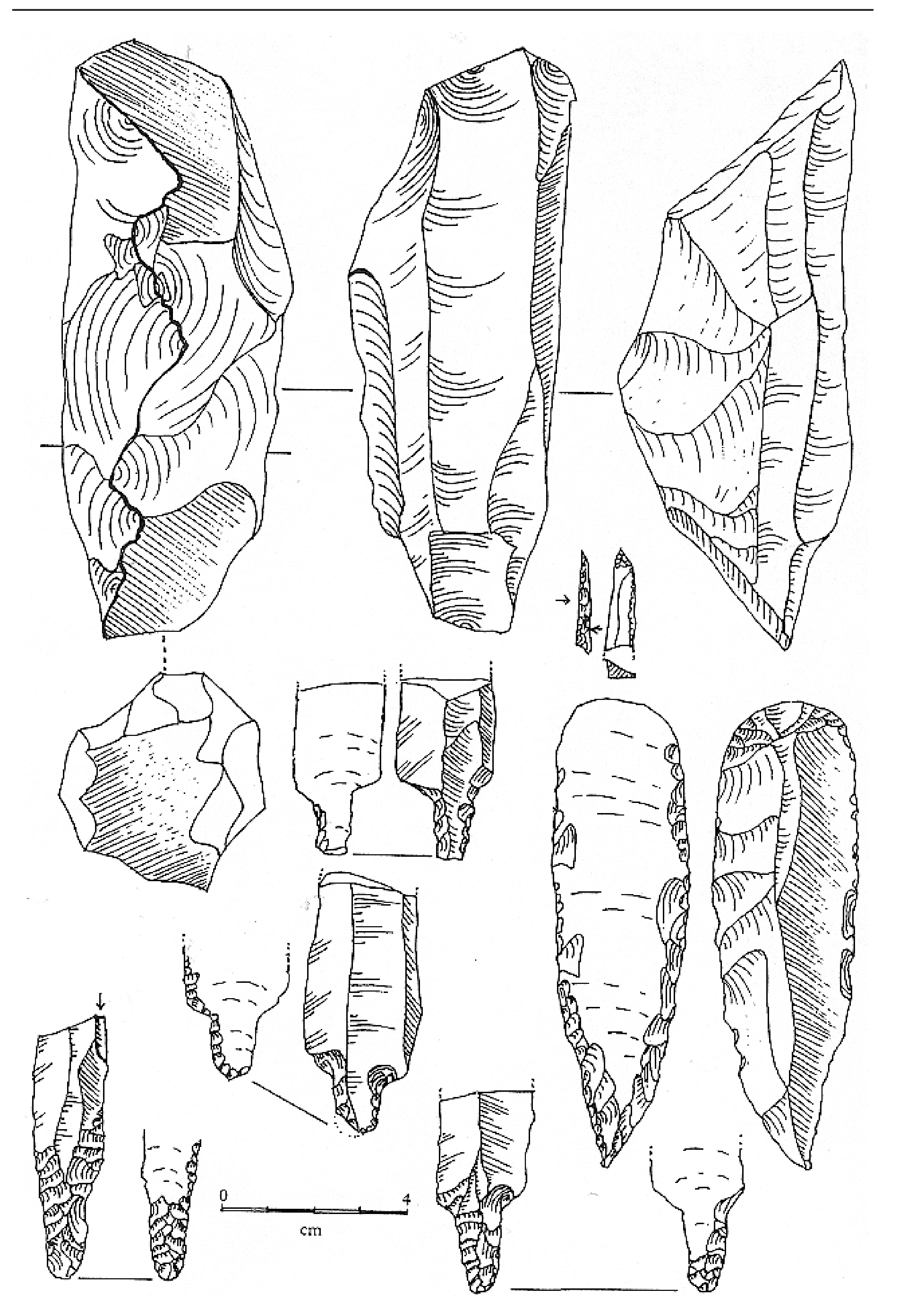
كما أن بعض المواقع أعطت خليطاً ضخماً من الأدوات الحجرية العائدة لمختلف العصور، وبخاصة للعصر الآشولي الأعلى والأعلى المتطور والأخير، وللعصر الحجري القديم الأوسط وربما لنهاية العصر الحجري القديم. علماً بأن طبيعة الكمخة، التي حملتها تلك الأدوات، كانت أحد أهم الأسس التي اعتمدت في تحديد عصر الأدوات المشار إليها. وبشكل عام فإن الصناعات الحجرية العائدة لهذا العصر تعتبر نموذجية، من الناحية التقنية، وهي تحمل الميزات والصفات المعروفة من مناطق أخرى في سورية، سواء من حوض العاصي أو نهر الكبير الشمالي. ولقد بقي الاستيطان ضعيفاً بين نهاية العصر الحجري القديم وحتى عصر النيوليت. وقد وجدت آثار عصر النيوليت ماقبل الفخار ب (PPNB) في مواقع تل ملاّ أسعد في منطقة وادي منبج وتل قره ديره في حوض الساجور (الشكل: ١١). كما أن آثار العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) ظهر في بعض تلال المنطقة المذكورة (عرب عزة وقره ديره ... إلخ).

منطقة الجبول:

تعمل في هذه المنطقة بعثة سورية ـ فرنسية مشتركة يشارك فيها جيومورفولوجيون وآثاريون، وهي تهدف إلى دراسة الواقع البيئي والتاريخي، للمنطقة على امتداد العصور. وفيما يخص العصور الحجرية، عصور ماقبل التاريخ، فقد تبين أن هذه المنطقة قد عرفت استيطاناً إنسانياً بسيطاً بدأ منذ نهاية العصر الحجري القديم الأدنى، حيث وجدت بضعة أدوات حجرية، عبارة عن فؤوس يدوية من النوع الآشولي الحديث والآشولي الأخير. ثم تلى ذلك، في العصر الحجري القديم الأوسط، استيطان بسيط أيضاً وغير نموذجي إذ كانت معظم المواقع فقيرة، عكس ماهو معروف من مناطق أخرى من سورية باستثناء منطقة خناصر حيث عثر على أدوات حجرية نموذجية ومن النوع اللفلوازي ـالموستيري. كما أن الاستيطان كان غائباً في العصر اللاحق، أي في العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك كما هو الحال


0
2
4
6
cm
1932
2098
2097
2002


89
2176
93
581
583
584
580
0
5
cm



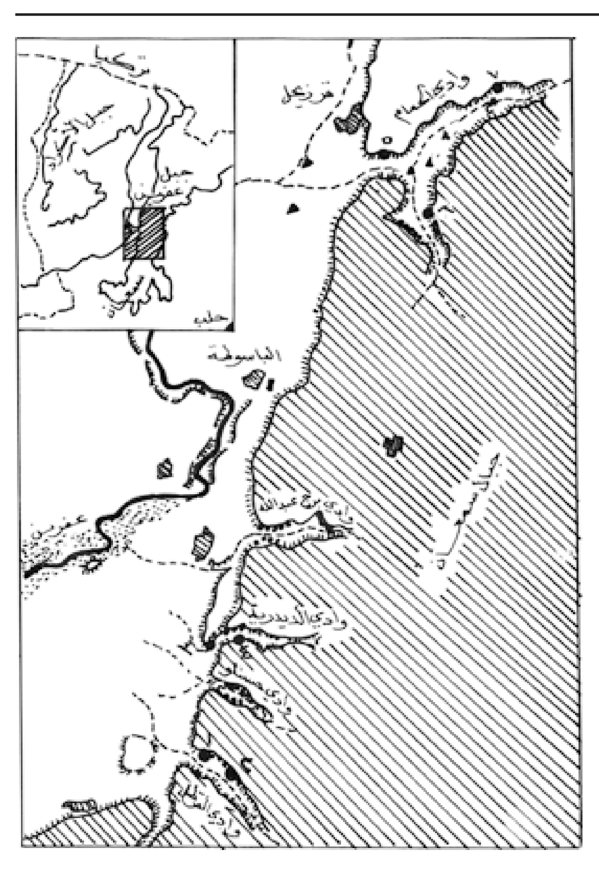
0
4
cm

في معظم مناطق سورية والمشرق. إن مرحلة الاستيطان الواضحة والأهم هي العائدة لنهاية العصر الحجري القديم ومطلع العصر الحجري الوسيط أي المرحلة المسماة بالكباري غير الهندسي حيث عثر على العديد من المواقع مثل عين الزرقا والمكمن، المتوضعة بخاصة بجوار ينابيع المياه القديمة. ثم نلاحظ فقراً، أو غياباً، في الإستيطان في العصر اللاحق المسمى العصر الكباري الهندسي والعصر النطوفي القديم. ولكن المنطقة تعود لتسكن بشكل واضح في العصر النطوفي الحديث منذحوالي ١٠,٠٠٠ سنة ق.م. ثم ماتلبث المنطقة أن تهجر في المرحلة اللاحقة المسماة العصر الحجري الحديث قبل الفخار آ (PPNA) ثم يعاد استيطانها من جديد في العصر الحجري الحديث قبل الفخار ب (PPNB) حوالي الألف الثامن ق.م الذي يمثله هنا موقع بير الحمام، وليست لدينا، بعد ذلك، مؤشرات هامة على استيطان بشري حتى نهاية عصور ماقبل التاريخ.

منطقة عفرين:

نتناول في الجزء الثاني من هذا البحث منطقة عفرين إذ يشكل وادي عفرين النهاية الشمالية القصوى للإنهدام السوري الأفريقي في الجزء الشمالي الغربي من سورية، يجري نهر عفرين في هذا الوادي على مسافة ٦٠ كم شمال شرق حلب، مخترقاً منطقة جبلية تتراوح ارتفاعاتها بين ٤٥٠ ـ ٢٧٥م. فوق سطح البحر، وتحاذي منطقة جبل سمعان الحوض الأوسط للوادي حيث جبل ليلون، الذي تقوم فيه عدة وديان فرعية تخترقه بإتجاه وادي عفرين وهي: وادي قرطل، وادي حسنلو، وادي الديدرية، وادي عبد الله ووادي الحمام. في هذه الوديان الفرعية تتوضع الملاجىء والمغاور الأثرية التي أعطت دلائل استيطان من عصور ماقبل التاريخ (الشكل : ١٢).

درست المنطقة من قبل بعثة سورية/يابانية مشتركة يديرها عن الجانب الياباني تاكيرو اكازاوا، وعن الجانب السوري سلطان محيسن وعادل عبد السلام. وبدأ موسم المسح الأول في عام ١٩٨٧م، حيث تمَّ تحديد حوالي ٥٦ موقعاً أثرياً، بينها /١٦/ موقعاً رئيسياً احتوت على آثار واضحة لاستيطان إنسان ماقبل التاريخ. وهي مغاور أوملاجىء أومواقع سطحية، أهمها مغاور وادي



١، ٢ مغاور وادي القرطل (باليوليت أوسط)
٣ الديدرية /١/ (كبارى)
٤ الديدرية /٢/ (باليوليت أوسط، نطوفي)
٥ وادي حمام (باليوليت أخير)
٦ وادي حمام (باليوليت أوسط)
٧ وادي حمام (باليوليت أعلى ؟)
٨ مواقع سطحية باليوليت أوسط (في وادي الحمام)

الديدرية /١/ والديدرية /٢/، ووادي قرطل ووادي الحمام (Muhesen et *alii*, 1988) ، وقد تبين إثر هذا المسح أن مغارة الديدرية /٢/ هي الأكثر أهمية، حيث احتوت على آثار واضحة وغنية سنعرض لها لاحقاً. لقد توفرت مؤشرات هامة على أن وادي عفرين قد سكن منذ نهاية العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى) حيث وجدت الأدوات الدالة على هذا العصر في منطقة دير صوان في الحوض الأعلى لنهر عفرين. ولكن الدلائل الأهم لاستيطان البشر تعود إلى عصر النياندرتال، أي إلى العصر الحجري القديم الأوسط. إن مغارة الديدرية /٢/ هي الموقع الأهم، من العصر المشار إليه، وهي مغارة من

النوع الكارستي (Carstique) أبعادها حوالي ٥٠ × ١٥ × ١٠م ويوجد في عمق المغارة مدخل آخر، أبعاده حوالي ١٠م، وهو من أهم صفات هذه المغارة التي يعني اسمها، ديديرية، ذات البابين، باللغة الكردية. نقبت المغارة في أعوام ١٩٨٩ - ١٩٩٠م، ثم توقف العمل في أعوام ١٩٩١ - ١٩٩٢ ليستأنف منذ عام ١٩٩٣م، ولازال التنقيب مستمراً بشكل سنوي. وقد تم الحصول على نتائج بالغة الأهمية وبخاصة على المستويين الأثري والانثروبولوجي (الشكل: ١٣).

تركز التنقيب في الحيز الأعمق من المغارة، بمربعات ٢×٢م كما تمَّ تحديد /٥/ خمس سويات جيولوجية أساسية ضمت /١٢/ اثنتى عشرة طبقة أثرية.

السوية الأولى: وتضم الطبقات ١ - ٢، هي سوية مختلطة وليست في مكانها الأصلي، ترسباتها ناعمة ذات لون بني فاتح وفيها حصى صفراء. وجدت في هذه السوية آثار من العصور التاريخية، وبخاصة من العصر الآرامي، أتت من حفرة عمقها ٢,٥م اختلطت فيها الآثار من عصور مختلفة بما فيها فخار من القرنين السابع والسادس ق.م (الآرامي المتآخر).

أما بقية السويات الجيولوجية، من السوية الثانية إلى السوية الخامسة، فقد كانت في مكانها الأصلي وهي جميعها، تختلف بشكل واضح، فيما بينها في طبيعة ترسباتها التي تختلف أيضاً عن ترسبات السوية الأولى وكل هذه السويات تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط.

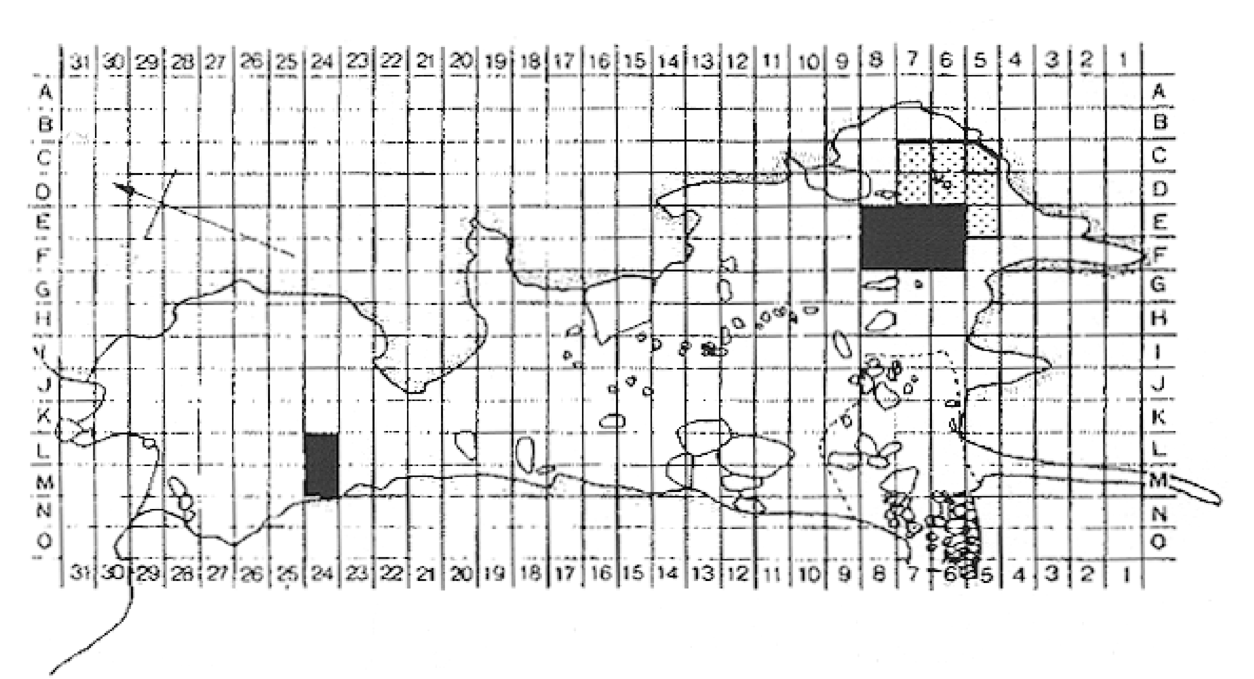
السوية الثانية: تضم الطبقات /٣ - ٦/ وتتألف من ترسبات متماسكة وتربة حمراء إلى بنية اللون تتخللها حصى كلسية بأشكال مختلفة.

السوية الثالثة: وتضم الطبقات /٧-٨/ وتتألف ترسباتها من تربة لونها أبيض أو رمادي، نتيجة الوجود الكثيف فيها للمواقد.

السوية الرابعة: تضم الطبقات /٩ - ١١/ وترسباتها متماسكة ذات لون بني غامق.

السوية الخامسة: تضم الطبقة ١٢، وتتألف من ترسبات لتربة بنية إلى صفراء وفيها كمية كبيرة من الأحجار الكلسية.

الشكل ١٣: مخطط مغارة الديدرية /٢/ وتظهر عليه مربعات التنقيب، بما فيها المربع D-06 الذي وجد فيه الهيكل العظمي في الطبقة الثامنة، عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٥.



الصناعات الصوانية:

لقد أعطت جميع الطبقات الأثرية للمغارة أدوات حجرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) ومع أن هذه الطبقات لم تكن غنية بنفس الدرجة، لكن يلاحظ أن الطبقات العليا كانت أكثر غنى من الطبقات السفلى . لقد سيطر نمط التصنيع اللفلوازي على جميع الصناعات الحجرية من مختلف الطبقات . فسادت بخاصة النوى المحضرة بالطريقة اللفلوازية المتلاقية (Convergent Levallois) ، وهي نوى استخدمت، بخاصة، لاستخراج الحراب ذات الرؤوس الحادة (Pointes) . وهناك نوى لفلوازية لاستخراج الشظايا (Éclats) وأخرى لاستخراج النصال (Lames) . معظم النوى ذات سطح طرق واحد وبعضها يحمل سطحين للطرق وهناك نوى متعددة السطوح . أهم الأدوات كانت الحراب ذات النهاية العريضة والرأس الحاد وهي قليلة السماكة، مثل الحراب الموستيرية (Pointe Moustérienne) . وهناك المقاحف المختلفة الأنواع (Racloirs) وبخاصة المقاحف ذات الحد القاطع، الواحد، المستقيم أو المحدب أو المقعر وهناك مقاحف ثنائية أي لها حدان قاطعان بأشكال مختلفة مستقيمة أو محدبة أو مقعرة . كما ظهرت الأدوات التي تميز العصر اللاحق، العصر الحجري القديم الأعلى، الباليوليت الأعلى، وبخاصة الكواشط (Grattoirs) والأزاميل (Burins) الأدوات المسننة (Denticulés).

من الصعب حالياً، مالم تتم الدراسة النهائية للمواد الحجرية، تحديد الصفات التقنية والنمطية للصناعات الحجرية لمغارة الديدرية / ٢ / ولكن الطابع العام لها يسمح باعتبارها ممثلة لمرحلة العصر الحجري القديم الأوسط وهي المرحلة المسماة الطابون ب (Tabun B)، والتي تمتاز، بخاصة، بسيادة الحراب القصيرة ذات القاعدة العريضة (الشكل : ١٤ و١٥) .

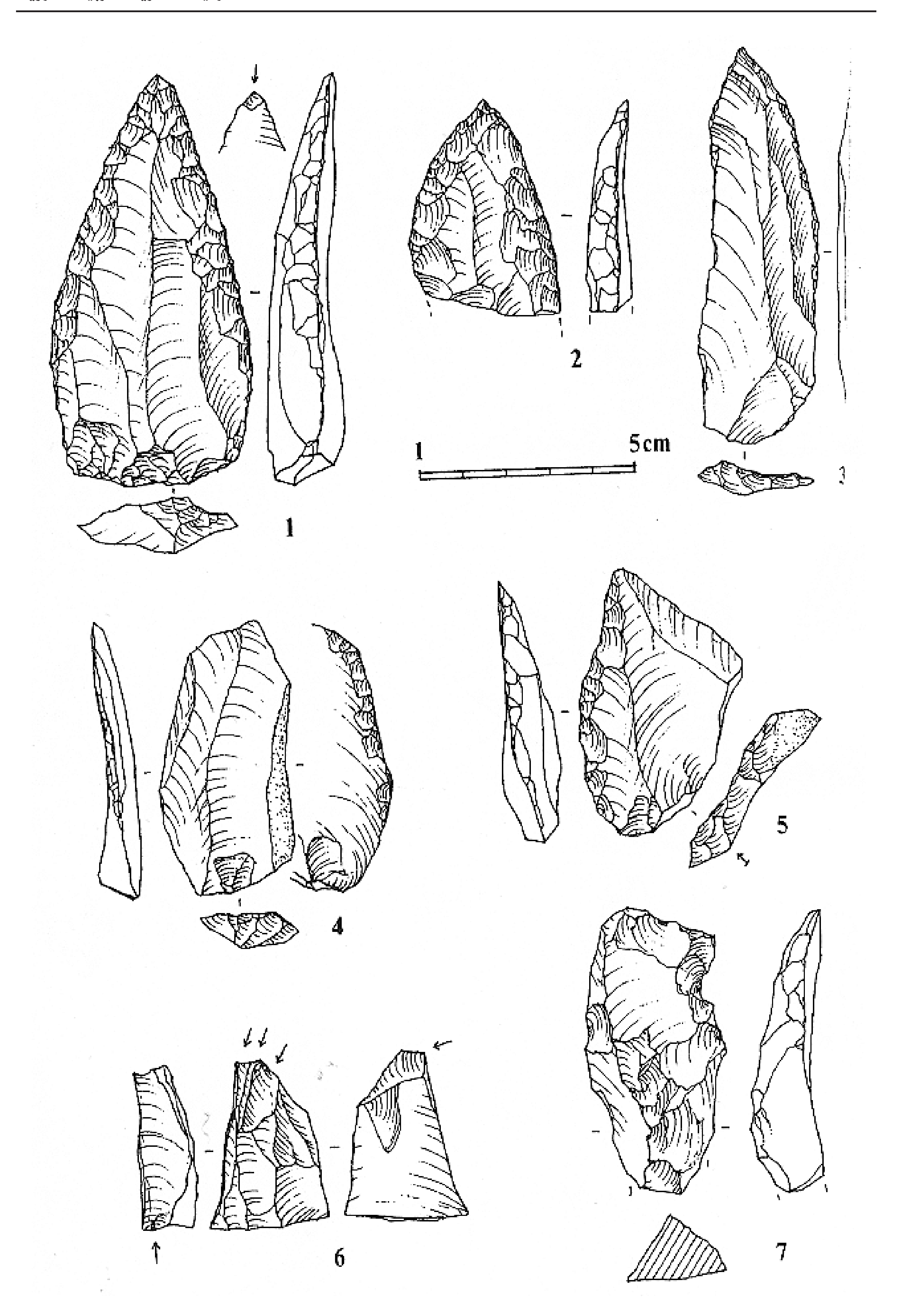
البقايا البشرية : تم في مواسم ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠م اكتشاف حوالي ٧٠ قطعة عظمية بشرية وكانت جميع هذه الأجزاء، عدا واحدة، في الطبقات المخرَّبة . وقد تبين أن الأجزاء التي تمَّ التعرف عليها تعود إلى هياكل مختلفة، كلها من نوع النياندرتال المعروف من مواقع الطابون والعامود في فلسطين (Tillier et *alii*, 1988) وشانيدار في العراق (Trinkaus, 1983) . أهم هذه الأجزاء هو عظم الساعد الأيسر، كاملة تقريباً، لطفل عمره بضعة أشهر ، وهي القطعة الوحيدة التي وجدت ضمن الطبقات الجيولوجية الأصلية (الشكل : ١٦)، ومن بين ماعثر عليه كان نهاية عظم الساعد الأيسر، وسلامية اليد اليمنى، وسلامية الرجل اليسرى، وجزء من عظم الكتف الأيمن، و السن القاطع الأمامي (Akazawa et *alii*, 1993) .

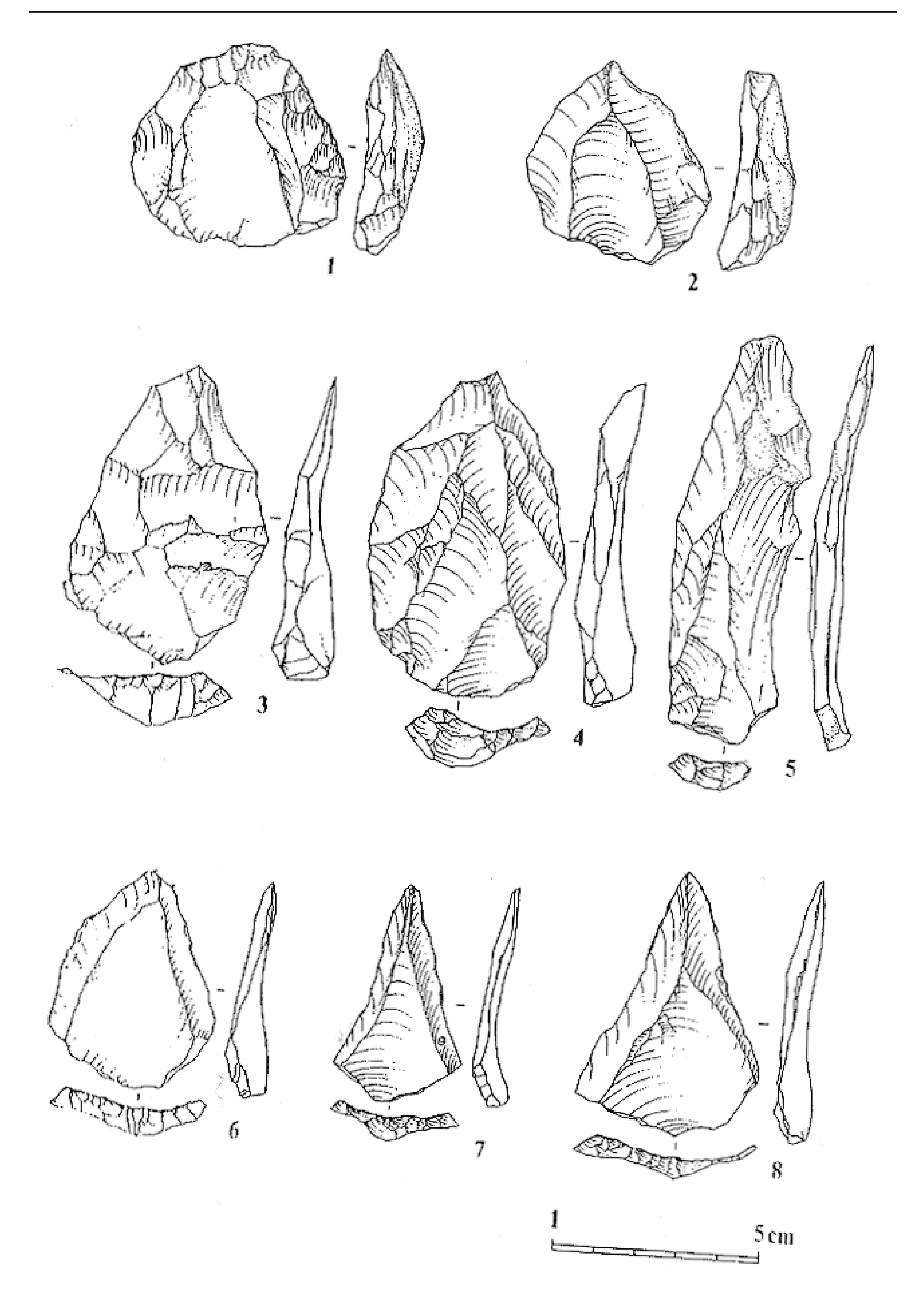
الهيكل العظمي:

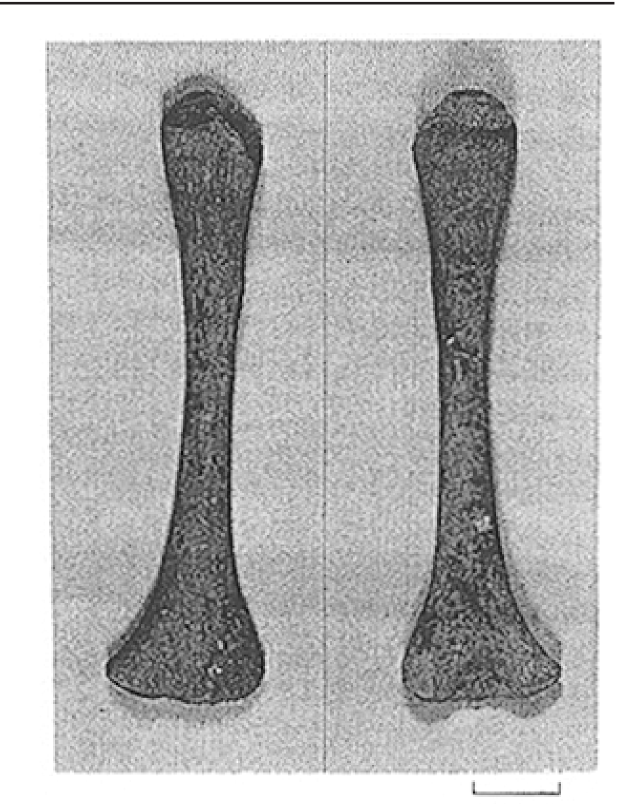
إن أهم كشف أنثروبولوجي حصل في السنوات الأخيرة، سواء في سورية أو في العالم، كان الهيكل العظمي، لطفل نياندرتالي، عثر عليه في الطبقة (8) من السوية الجيولوجية الثالثة على عمق حوالي ١,٥م في سطح الأرض في مغارة الديدرية / ٢ / (الشكل : ١٧) . لقد دفن هذا الطفل في حفرة، مستلقياً على ظهره، يداه ممدتان وقدماه مثنيتان، وتحت رأسه بلاطة حجرية وعلى صدره، فوق القلب، أداة حجرية . إن كل ذلك يشير إلى عملية دفن مقصود ومنظم تمثل إحدى أقدم عمليات دفن الموتى في التاريخ وتدل على معتقدات وشعائر آمن بها ومارسها إنسان النياندرتال . وقد تبين بأن عمر الطفل عند وفاته كان حوالي السنتين، وقدر طوله بحوالي ٨٣ سم . صفاته الهيكلية، المتعلقة سواء بالرأس أو الجسم، كلها نياندرتالية تقليدية معروفة (Akazawa et *alii*, 1995) .

أما فيما يتعلق بالأدوات الحجرية، من الطبقة /8/ التي وجد فيها الهيكل، فهي عموماً من نوع طابون ب التي تتألف بخاصة من الحراب القصيرة ذات القاعدة العريضة، وهذا يشكل دليلاً جديداً آخر على الارتباط بين النياندرتال (Néanderthal) وبين الصناعات الحجرية المنسوبة إلى مرحلة الطابون ب (Tabun B)، بينما نجد في مغارة السخول ومغارة قفزة في فلسطين أن الإنسان العاقل القديم (Homo-Sapiens Archaïque) . صنع الأدوات الحجرية المتنوعة مرحلة الطابون س (C) والتي تنتمي إليها الأدوات العريضة والبيضوية الأشكال (الشكل : ١٨) .

إن كشف طفل الديدرية سوف يساعد في الإجابة على أسئلة كثيرة تتعلق بظهور النياندرتال وعلاقته بالأنواع البشرية التي سبقته والأنواع التي تلته . إذ أن المكتشفات التي حصلت في المغاور الفلسطينية دلت على أنواع مختلفة


1
2
3
4
5
6
7
1
5cm


1
2
3
4
5
6
7
8
1
5 cm



الشكل ١٦: عظم الساعد الأيسر لطفل من مغارة الديدرية عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٣.

عن طفل الديدرية بعضها تقليدي (مغارة الكبارا) وبعضها أكثر تطوراً (مغارة قفزة) . وتزداد أهمية هيكل الديدرية إذا علمنا بتعدد النظريات حول ظهور الانسان وتطوره، والتي يمكن إيجازها بنظريات ثلاث :

١ـ النظرية الأولى : تقول بأن الإنسان العاقل عاش في مغارة قفزة وصنع النمط المعروف من الأدوات الحجرية المنسوبة إلى مرحلة الطابون (C) (أدوات بيضوية وعريضة) وذلك منذ حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة . وقد تعايش هذا الإنسان، في مرحلة ما، مع إنسان النياندرتال الذي وصل إلى المشرق في مرحلة لاحقة تسمى الطابون ب (Bar-Yosef, 1992) .

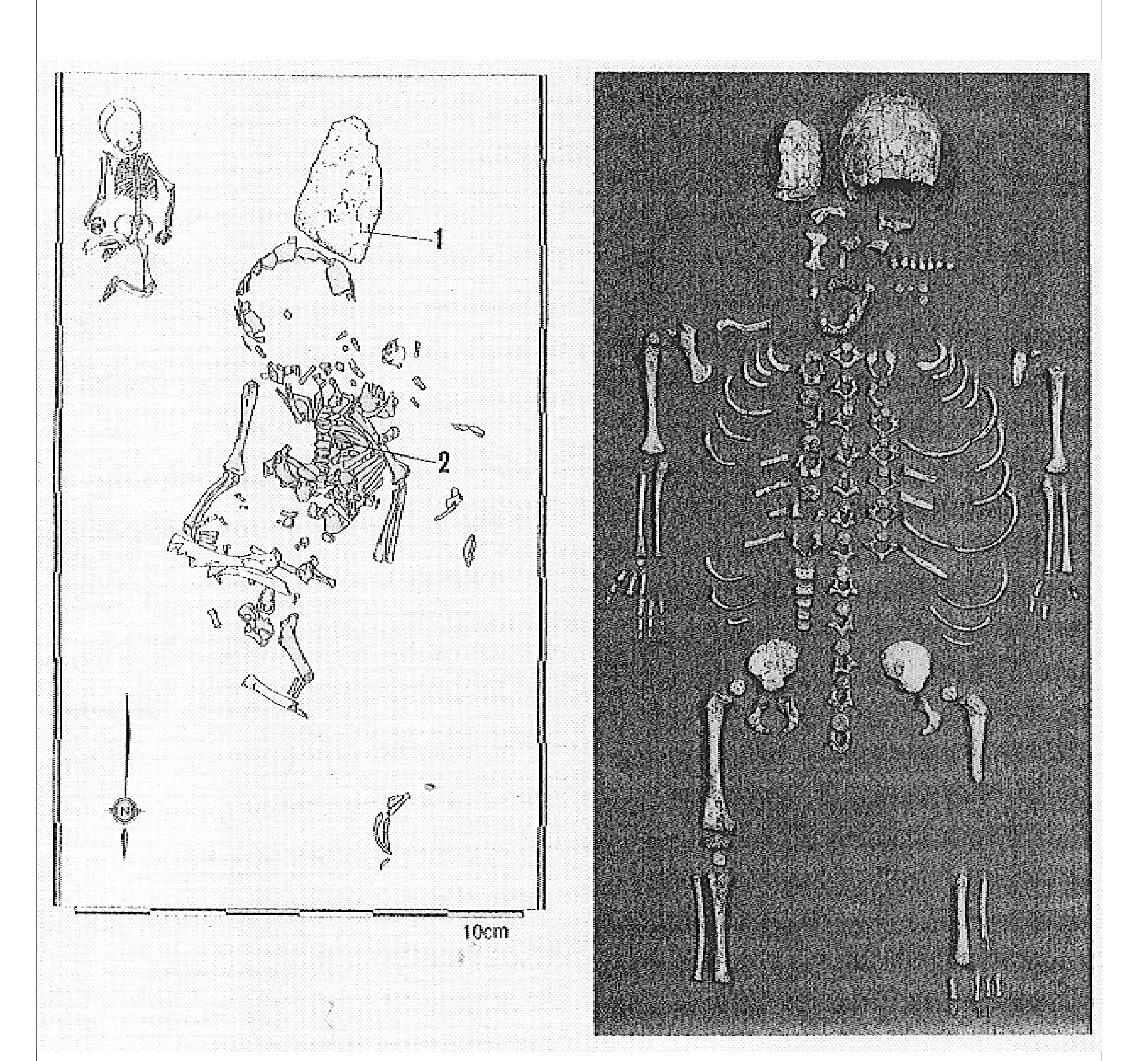
٢ـ النظرية الثانية : تقول بأن كلاً من الإنسان العاقل والنياندرتال هما شكلان مختلفان لنفس نوع الإنسان العاقل، الباكر، في الشرق (Wolpoff, 1991) .

٣ـ النظرية الثالثة : يعتقد أصحابها بأن المشرق كان نقطة التقاء بين الانسان العاقل، الذي ظهر في أفريقية وتحرك شمالاً، وبين النياندرتال، الذي ظهر في أوربة ثم تحرك جنوباً، ويقول هذا الرأي بأن هذين النوعين قد تواجدا وتعايشا في المشرق، مدة معينة من الزمن، ثم انقرض النياندرتال بينما تابع الانسان العاقل تطوره (Grun and Stringer، 1991) .

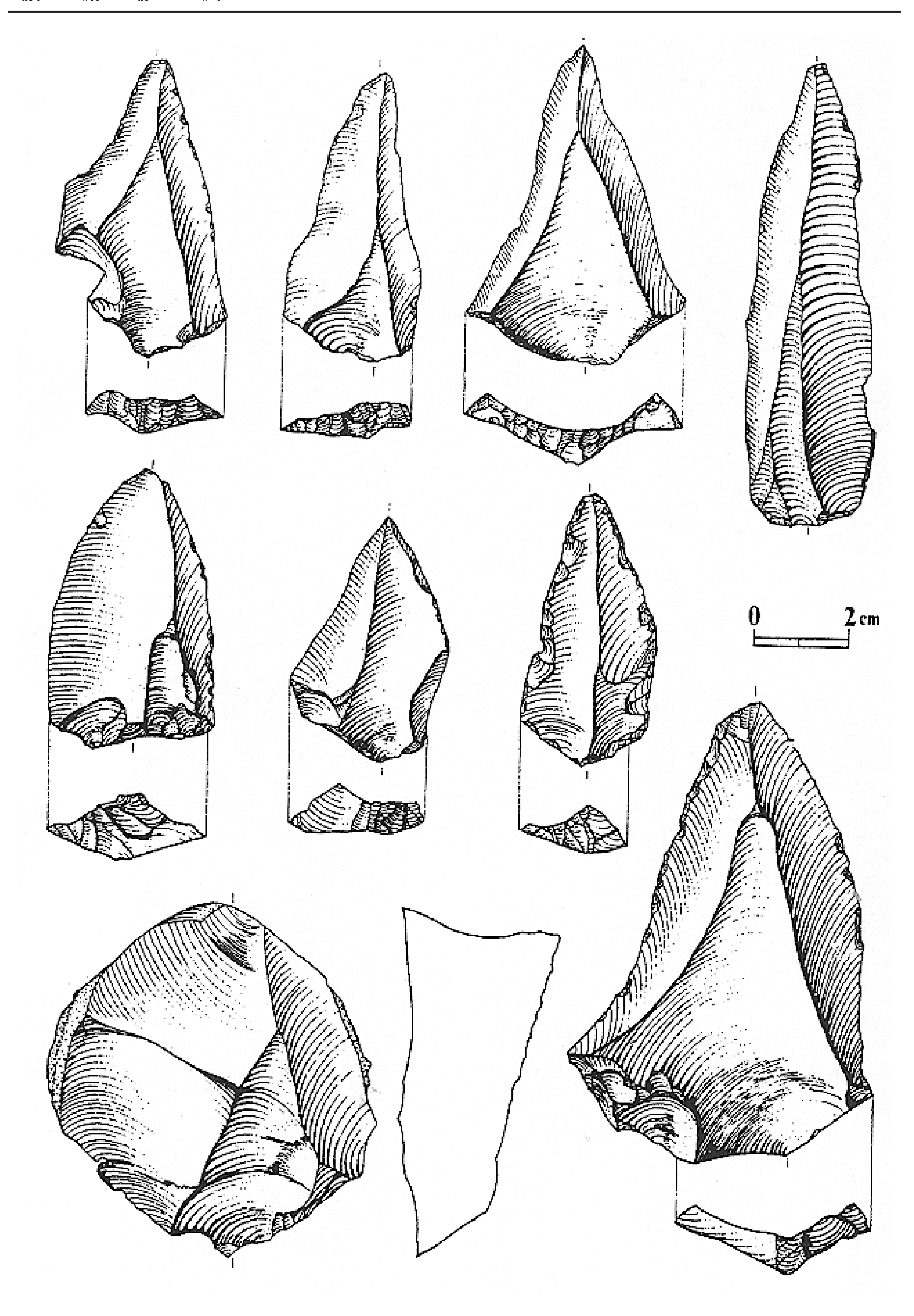
ومهما يكن فلا مجال هنا للخوض في تفاصيل تلك النظريات وتحديد درجة صحتها أو بطلانها، سيما وأن المكتشفات لازالت تتوالى وتأتي بمعطيات جديدة، سوف تؤدي بلا شك إلى تعديل أحكامنا الراهنة، و لابد أن مكتشفات مغارة الديدرية / ٢ / سوف تساهم بدرجة كبيرة في توضيح هذه المشكلة المعقدة.

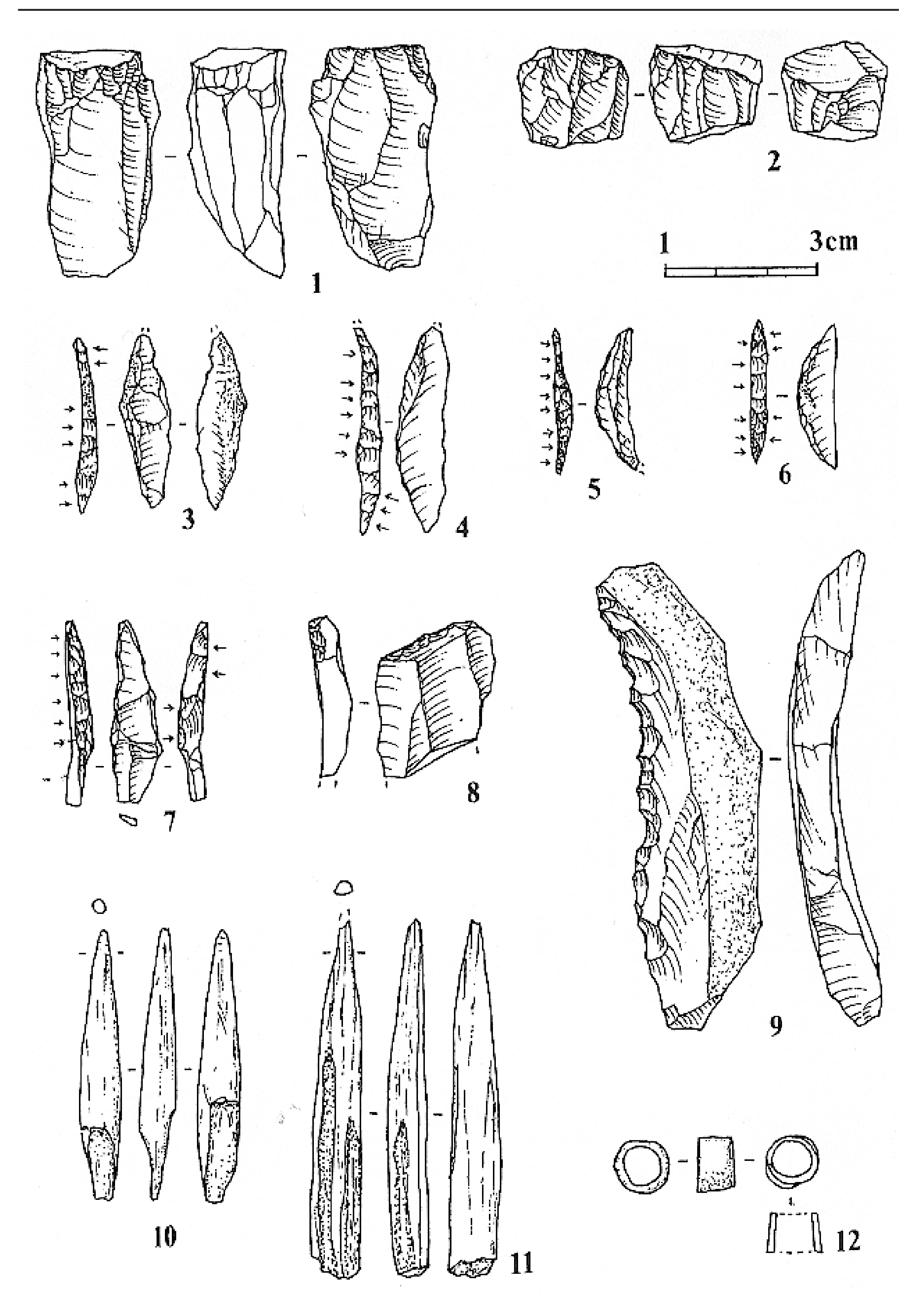
وفيما يخص المكتشفات البالنتولوجية (Paléontologie) فقد تبين من الدراسة الأولية التي قام بها السيد كريستوف غريغو (C.Griggot) للبقايا الحيوانية بأن هذه البقايا العظمية تعود، بخاصة، إلى أنواع مختلفة من الثدييات ومعظمها من الثدييات آكلة العشب وبخاصة فصيلة الغنم (Mouflons) والماعز البري (Chèvres) ، اذ أن الماعز والغنم قد تواجدا في جميع السويات تقريباً. كما تبين أن بقايا الغزال (Gazelle) ، كانت قليلة في الطبقات الدنيا، وتزداد نسبتها كلما اتجهنا نحو السويات الأعلى . كما تواجد الوعل (Cerf) أيضاً بنسبة قليلة في السويات الدنيا (١١ـ ٥) ثم ازداد بدءاً من الطبقة الخامسة حيث يرافقه الخنزير (Sanglier) والثور (Auroch) والآيل (Daim) . وعلى أساس تواجد هذه البقايا الحيوانية يمكن استنتاج قيام بيئة ذات مناخ جاف في القسم الأول (الأدنى) من المغارة أي في الطبقات (٥ ـ ١١) حيث تسود فيها فصيلة العنزيات (Caprinés) . وأما في الطبقات العليا (٣ ـ ٤) فيستمر تواجد الغزال والماعز ويرافقهما الوعل والثور والخنزير مما يدل على سيادة مناخ أكثر رطوبة وانتشار الغابات في السهول.

الطبقات (١ ـ ٢) لم تؤخذ بعين الاعتبار كونها مختلطة. كما أن البقايا الحيوانية المدروسة تميزت بغياب الأجزاء الكاملة من الجماجم والفقرات ونهايات العظام والأسنان مما يجعل من الصعب دراسة عمليات استخدام المكان والتصرف بالذبائح بما في ذلك عملية تقصيب تلك الحيوانات.



الشكل ١٧: الهيكل العظمي اليباندرتالي، لطفل الديديرية، من مغارة الديديرية /٢/ عن أكازاوا وآخرون ١٩٩٥.


0
2 cm


1
2
1
3cm
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12

وتجدر الإشارة إلى أنه تمَّ العثور في القسم الأمامي من المغارة من جهة الوادي، على بقايا استيطان من العصر النطوفي، إذ عثر على مواقد وأدوات حجرية وأدوات زينة بسيطة وكلها تدل على سكن المغارة في ذلك العصر (الشكل: ١٩). كما عثر على آثار من العصر الكباري في مغارة الديدرية /١/ في مدخل الوادي، ونأمل أن نتمكن من استكمال دراسة هذه الآثار الكبارية والنطوفية المتميزة والتي تشكل الامتداد الأقصى للكباريين وللنطوفيين نحو الشمال.

يبقى أن نشير بأن الأبحاث والتنقيبات في مغاور عفرين لازالت في مراحلها الأولى وهي سوف تستمر لسنوات طويلة وسوف تقدم بلاشك معطيات أثرية وأنثروبولوجية وبالنتولوجية غزيرة، مع الاشارة إلى أنه كشف أيضاً في موسم عام ١٩٩٧م، عن أجزاء هامة من هيكل عظمي لطفل صغير عمره حوالي السنتين، ولايزال هذا الكشف قيد الدراسة. وأخيراً فمن المؤكد بأن الأبحاث في هذه المنطقة سوف تساعد على فهم مجتمعات عصور ماقبل التاريخ، في إطارها البيئي المنوع، ليس فقط في سورية بل في المشرق وفي العالم.

المراجع

Akazawa T., Dodo Y., Muhesen S., Abdul-Salam A., Abe Y., Kondo O., Mizoguchi Y.
1993; The Neanderthal Remains from Dederiyeh Cave, Syria: Interim Report. Anthropo. Sci. 101 (4) 361-387.

Akazawa T., Muhesen S., Dodo Y., Kondo O., Mizoguchi Y., Abe Y., Nishiaki Y., Ohta S., Oguchi T., Haydel J.
1995; Neanderthal Infant Burial From The Dederiyeh Cave in Syria. *Paléorient* 21/2, p. 77-86.

Bar-Yosef O.
1992; The Role of Western Asia in Modern Human Origins. Philosophical Transactions of the Royal Society, Series B. 337: 193-200.

Besançon J., Contenson H. de, Copeland L., Hours F., Muhesen S., Sanlaville P.
1980; "Étude géographique et prospection archéologique des plateaux de la région de Menbij (Syrie du Nord)", Travaux R.C.P. 438, 11p. et AAAS 32, 1982, p. 211-232.

Cauvin J.
1978; Les premiers villages de Syrie-Palestine du IX[e] au VII[e] millénaire av. J.-C., Lyon, Maison de l'Orient.

Chavaillon J.
1996; L'Âge d'Or de l'Humanité, Chronique du Paléolithique, Odile Jacob, Paris.

Hours F.
1987; Les Civilisations du Paléolithique, Paris, PUF.

Grün R., Strinfer C. B.
1991; Electron spin resonance dating and the evolution of modern humans. Archaeometry 33: 153-199.

Matthers J.
1981; The River Qoueiq, Northern Syria, and its cathment, Oxford, BAR I.S. 98.

Muhesen S.
1988; Le Paléolithique Inférieur de la Syrie", l'Anthropologie 93 (3), Paris, p. 863-882.

Muhesen S. avec la contribution de *Akazawa T. et Abdul-Salam A.*
1988; Prospection Préhistoriques dans La Région d'Afrin (Syrie). Paléorient 14/2 p. 145-153.

Muhesen S.
1993; Bilan sur la Préhistoire de la Syrie, *Syria* T. LXIX 1992-Fascicules 3-4, p. 247-303.

Sanlaville P.
1985; (ed.) Holocene settlement in North Syria: Report on two archaeological surveys in the Euphrates and Sajour valley in 1977 and 1979, Oxford, BAR I.S. 238.

Tillier A.-M., Arensburg B., Rak Y., et Vandermersch B.
1989; Les Sépultures Néandertaliennes du Proche-Orient: état de la question. Paléorient 14/2, p. 130-136.

Wolpoff M. H.
1991; Levantines and Londoners. Science 255: 142.

مراكز الاستيطان الأولى في حوض الساجور

يسرى كجك

المديرية العامة للآثار والمتاحف

بدءاً من العصر الآشولي الأعلى في الباليوليت الأدنى، بدأت آثار الإستيطان تظهر بكثافة واضحة في منطقة الساجور، حيث استقر الإنسان في المناطق القريبة من السطوح الغنية بالصوان، والقريبة من المياه، كما تظهر مواقع عرب حسان I، شيوخ فوقاني II، III، IV. شيوخ تحتاني. دادات III، IV إلخ، وتميزت هذه المواقع بوجود المعاول الحجرية، فقط بالنسبة لبعض المواقع، نعثر على آثار الآشولي الأعلى المتطور التي تمتاز بالفؤوس اللوزية وعدم وجود المعاول.

تنتشر آثار العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليتي الأوسط) تنتشر في منطقة الساجور ضمن توضعاتها الستراتغرافية الأصلية للسرير القيري (QFI)، وبعضها أعطتنا مجموعاً حضارياً متبايناً، يجعل من الصعب إلحاقها بسوية محددة من حضارات المشرق العربي في هذه الفترة، كما أن بعضها مواقع لتصنيع الصوان.

بالنسبة للمرحلة الأخيرة من الباليوليت (الباليوليت الأعلى)، فأدواته قليلة في حوض الساجور ولا تقدم مدلولات حضارية كافية، فقطع المرحلة الأخيرة منه أي الكبارية، تظهر بشكل واضح في موقع قريب على الفرات هو وادي الحمر.

من المرحلة النيوليتية يوجد العديد من التلال، كملا أسعد الذي يرجع إلى النيوليتي ما قبل الفخار ب (PPNB)، أما من مرحلة النيوليتي الفخاري فلدينا موقع عرب عزه الذي يقدم الفخار النموذجي الحلفي العائد للألف الخامس ق.م. وكذلك لدينا من العصر العبيدي بعض المواقع التي توجد عند مصب الساجور، كحمام صغير، وتل أحمر وتل العبر وكلها مواقع تقدم نماذج من الفخار وحيد اللون.



من خلال المعطيات الأثرية، نلاحظ بأن الإنسان استوطن أرض سورية القديمة، منذ العصر الآشولي الأدنى (١٠٠٠,٠٠٠ـ٩٠٠,٠٠٠) عام ق.م.

وذلك على الشواطىء الساحلية كست مرخو وشيخ حمد (Muhesen, 1988)، لكنه لم يتعمق فيتوغل إلى الداخل بشكل كبير، قبل العصر الآشولي الوسيط، فترك آثاره في مناطق متعددة من حوض العاصي كاللطافته (Clark J. D., 1966). ويعتقد أنه لم يصل المنطقة الشمالية أيضاً قبل هذا التاريخ، أو بعده بقليل. فآثار استيطانه المنطقة نادرة سواء في حوض الفرات، أو حوض الساجور.

بدءاً من العصر الآشولي الأعلى في الباليوليت الأدنى بدأت آثار الإستيطان تظهر بكثافة واضحة في المنطقة. حيث استقر الإنسان في المناطق القريبة من السطوح الغنية بالصوان، والقريبة من المياه، فأقام بكثرة في منطقة منبج، وبخاصة على أطراف نهر الساجور كما تظهر مواقع (عرب حسان، شيوخ I، شيوخ الفوقاني II، III، IV، شيوخ تحتاني، دادات III، IV، I، III. حلونجي IV. حمام كبير II محسني II. غنمات. وادي رمية I، III. صابونجي II. تلك I، III (Hours, 1981) وقد تميزت كل هذه المواقع بوجود المعاول الحجرية، فقط بالنسبة لمواقع دادات III. حلونجي IV. دادات IV. محسنلي II، نعثر على آثار الآشولي الأعلى المتطور، التي تمتاز بالفؤوس اللوزية، وعدم وجود المعاول (Besançon et Sanlaville, 1981).

العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) : يبدأ هذا العصر مع بداية آخر عصر جليدي، أو بعده بقليل ، وهي فترة تتضح آثارها بشكل كبير في سورية لغنى مواقعها وتنوعها. (Muhesen, 1992). وتنتشر بعضها في منطقة وادي الساجور، ضمن توضعاتها الستراتغرافية الأصلية للسرير الثيرمي (QFI) وبعضها أعطتنا مجموعاً حضارياً متبايناً يجعل من الصعب معه إلحاقها بسوية محددة من حضارات المشرق العربي في هذه الفترة.

فبينما يمتاز مثلاً موقع دادات IV. بأدوات ذات تصنيع خشن ونصال عريضة، نجد في موقع آخر كحلونجي III. أشكالاً رقيقة متطاولة ذات تصنيع يبدو متطوراً عن دادات IV بشكل واضح (Hours, 1980). كما أننا نلاحظ اختلاطاً بين سويات هذه الفترة. في بعض المواقع من الآشولي الأعلى والآشولي الأخير، بخاصة في مواقع السطوح الحصوية العريضة المرتفعة عن سهل الساجور (مثال دادات I، III. مجرى كبير I. مجرى صغير I، جمقلقجي I وII. قرى يعقوب، كلها آثار تحمل كمخة متقاربة في نماذجها، وإن كانت تمثل عصوراً مختلفة، مما يجعل من الصعب إيجاد فاصل زمني أكيد بينها (Hours,1981).

بالنسبة إلى المواقع مجرى صغير II، وحلونجي I، II. غنمات V محسنلي III. فقد عثر فيها على نوى وأدوات لڤلوازية موستيرية مترافقة مع فؤوس يدوية لوزية مرفوعة إلى سويات أعلى.

من أفضل المواقع تجانساً وتمثيلاً للباليوليت الأوسط، في وادي الساجور شات الرافعة I، II. محسنلي I. زريق I. في كل هذه المواقع عثر على أدوات لڤلوازية موستيرية تقليدية، تميزت بالنصال التي ترجع بشكلها إلى اللڤلوازي الموستيري الحديث.

في مواقع جعدة I، II. مجرى صغير III. نلاحظ وجود النوى بكثرة واضحة، مما يدل على أنها كانت مواقع لتصنيع الصوان (Hours, 1981). ومما يجدر ذكره، بأن المعلومات التي أتتنا من هذه المنطقة، حول الباليوليت الأوسط، هي أكثر دقة من تلك التي حصلنا عليها من وادي العاصي، ووادي نهر الكبير الشمالي سابقاً (Besançon et *alii*, 1982).

بالنسبة إلى المرحلة الأخيرة من الباليوليت أي (الباليوليت الأعلى) فقد عثر على أدوات منتشرة بأعداد قليلة، في كل مكان من حوض الساجور تقريباً، ولكنها لا تقدم مدلولات حضارية كافية، فقط المرحلة الأخيرة من هذا العصر أي الكبارية، تظهر بشكل واضح في موقع قريب على الفرات هو نهر الحمر (Roodenberg, 1976).

بالرغم من الأهمية الكبيرة للعصر الحجري الوسيط (١٢٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ عام ق.م)، في حوض الفرات بخاصة في المرحلة النطوفية، كدبسي فرج (Wilkinson et 700re, 1978)، ونهر الحمر (Roodenberg, 1976)، وأبو هريرة والمريبط (Cauvin M.-C., 1980)، فهي لا تتضح في حوض الساجور.

أما مرحلة العصر الحجري الحديث (النيوليت)، فيوجد العديد من التلال التي تمثله في هذه المرحلة كملا أسعد، الذي تعود آثاره إلى النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB. خلال الألف الثامن، عثر فيه على أدوات حجرية وأواني بيضاء، ونصال مخصورة، وطويلة وعلى أدوات من حجر الأوبسيديان، وهي تشابه آثار المواقع المجاورة على الفرات كأبي هريرة والمريبط والشيخ حسن (Anderson-Gerfaud, 1983).

في معظم المواقع النيوليتية يظهر الفخار، ويزداد كلما إتجهنا نحو إلتقاء الساجور بالوادي الأسود، وكذلك الأوبسيديان، الذي يعتبر الدليل الأهم على نشاط التجارة الأولي في المنطقة مع بلاد الأناضول، وهو حتماً لم يكن مادة التبادل الوحيدة (Cauvin M.-C., 1991) فقد حمل أهل المنطقة القدماء إلى الأناضول سلالهم وفخارهم وملابسهم، وحملوا عوضاً عنها هذه المادة النادرة الفعالة، فصنعوا نصالاً وشرائح لها مفعول الزجاج.

من عصر حلف لدينا تل عرب عزه، وهو الموقع الوحيد في وادي الساجور، الذي يقدم لنا الفخار النموذجي الحلفي العائد للألف الخامس قبل الميلاد.

من عصر العبيد لدينا العديد من المواقع، عند مصب نهر الساجور، كحمام صغير، وتل أحمر وتل العبر، وفي الوادي الأسود قره ديره، وكلها تقدم نماذجاً من الفخار السميك وحيد اللون.

مما تقدم نلاحظ بأن منطقة منبج عموماً، وحوض الساجور خصوصاً، كانت منطقة زاخرة بالحياة، منذ أن قدم الإنسان المنتصب في العصرالحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى). وتوسع في هذا الإنتشار الإنسان النياندرتالي، ثم الإنسان العاقل الذي استمر في التحرك بينها وبين وادي الفرات الأوسط، والعمق وجبل سمعان، وبذلك نلاحظ بأن محافظة حلب الحالية، كانت عامرة منذ أقدم الأحقاب الإنسانية.

المراجع:

1- Anderson-Gerfaud (p). 1983 “A consideration of the use of certain backed and lustred stone tools form late mesolithic and natufian levels of Abu Hureyra and Mureybet (Syria)" in M.C. Cauvin (éd.) traces d’utilisation sur les outils néolithiques du Proche-Orient, Lyon. M.O. TMOS P.77-106.

2- Besançon (J.) et Sanlaville (P.). 1981 “Aperçu géomophologique sur la vallée de l’Euphrate syrien” paléorient 7 (2) p.s.18.

3- Cauvin, M.C. 1980 “Du Natoufien sur l’Euphrate”, dans J.C. Marguron (éd.) “le moyen Euphrate zone de contacts et d'échange, colloque, unv. de Strasbourg 1977.

4- 1991 “Lobsidienne au levant, oxford, 3 ARI.S. 379. p.247-266.

5- Clark (D) 1966. “The middle acheulean occupation site at latanné Northern Syria”. AAAS 16(2). p.31-74.

6- Hours (F) 1980 “Paléolithique et Épi-paléolithique de la Syrie et du Liban” Thèse de Doctorat d’Etat. univ. Paris I.

7- 1981 “Le paléolithique inférieur de Syrie et de Liban. Le point de la question en 1980". dans préhistoire du Levant. C.I. No 598 Lyon 1980 p.219-222.

8- Muhesen (S.) 1992 “Bilan sur la préhistoire de la Syria 1992. /3-4/ Paris p.247-274.

9- Roodenberg (J.J.) 1976 “Une industrie épipaléolithique sur Nahr el Homr (Syrie).”. AAAS 26. P.71-81.

10- Wilkinson (T.J.) et (Moore (A.M.T.) 1978 “A prehistoric site near Dibsi Faraj in Syria”. Levant. 10. P.26-36.

معبد من الألف الثالث
قبل الميلاد في موقع الأنصاري

انطوان سليمان
المديرية العامة للآثار والمتاحف

إن التنقيبات التي قمنا بها في مستوطنة الأنصاري بحلب تلقي الضوء على مدى التطور التاريخي والحضاري لمدينة حلب وتوضح علاقاتها الثقافية بالدول المجاورة.

لقد توصلنا عبر دراستنا للمواد الأثرية التي تم العثور عليها في هذا الموقع إلى إعطاء صورة واضحة عن المدى الذي تطورت فيه هذه المستوطنة في العصر البرونزي الرابع أ ـ ب وعصر البرونز الأوسط، وتبين لنا أن هذه المدينة قد عاصرت مملكة إيبلا وأرمان ويمحاض (حلب القديمة) والدولة الآكادية وسلالة أور الثالثة والملك حمورابي.

كما أعيد الإستيطان فيها خلال العصور الهلينسنية والرومانية والبيزنطية. تتوافق المراحل الحضارية التي مرت على هذه المستوطنة زمنياً مع مراحل ما قبل العصر السوري القديم المتوسط والمتأخر ومرحلة العصر السوري القديم أي مابين عام ٢٤٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م.

تظهر المادة الأثرية علاقة ثقافية بالحضارات المجاورة كأوغاريت وماري وتل براك وارتباطها المباشر بمملكة إبلا ـ تل مرديخ، وقد عثرنا على مقبرة تقع على مقربة من المستوطنة ومتزامنة معها. تشبه هذه المقبرة تشبه المقابر المنجمية (ذات المدخل الشاقولي) الفلسطينية والسورية (مقبرة مشرفة ـ قطنا ٤،١) والسلنكحية، تل برسيب (أحمر) وتل مرديخ (المقبرة الملكية) وذلك من الناحية المعمارية والمادة الأثرية.

أضف إلى ذلك حصولنا على بعض اللقى الأثرية الهامة جداً من أوانٍ فخارية وقطع برونزية وعدد من الدمى الفخارية. كذلك تم العثور على ختم إسطواني الشكل هام جداً يعود تاريخه إلى فترة بين ١٧٠٠ـ١٦٠٠ ق.م. يظهر الختم التأثير المصري والحثي وبلاد الرافدين بأسلوب الفن السوري.

تعتبر مستوطنة الأنصاري بحلب إحدى المواقع الأثرية العائدة لحضارة شمال سورية. إن العلاقات التجارية بين دول مصر وبلاد الرافدين والأناضول، لا يمكن أن تكون إلا عن طريق شمال سورية حيث كانت هناك في الأصل أي الألف الثاني ق.م طرقاً تجارية برية. والطرق الرئيسة كانت تمتد محاذية مجرى الفرات، وتتفرع بعد

وصولها إلى إيمار (مسكنة القديمة) إلى الساحل والجنوب والذي يقع على الطريق الجنوبية من مدينة حلب . وكان الآشوريون والبابليون بحاجة ماسة إلى أخشاب وحجارة جبال الأمانوس وطوروس وجبال لبنان منذ عهد سرغون الآكادي . مما يؤكد أهميتها بالنسبة لبلاد الرافدين.

وما يميز مستوطنة الأنصاري عن بقية المراكز الحضارية في الشرق هو كونها تقع في سهل مستو وبالقرب منها تقع هضبة الراموسة ومدينة الحمدانية الحديثة .

وينفرد هذا الموقع بصناعته الفخارية المحلية ذات الجودة العالية . وقد توصلنا إلى حقيقة مفادها أن مستوطنة الأنصاري وهي إحدى المراكز الحضارية المستقلة في شمال سورية ربما كانت هي مدينة حلب القديمة نفسها، والتي كانت تعرف بإسم أرمان أو يمحاض ولعل هذين الإسمين هما تسمية قديمة واحدة لمدينة حلب الحاضرة .

❀ ❀ ❀

لقد كشفت التنقيبات الأثرية مستوطنات العصر البرونزي الرابع (EB IV-A-B) في حوض نهر العاصي، نهر القويق، نهر الذهب . تنوعت أشكال المستوطنات منذ بداية العصر البرونزي الرابع، سواء كانت قرى زراعية أو مدن كبيرة وصغيرة مثل تل مرديخ وحماه والمشرفة وطعينات (سهل العمق) أم المرأة، الأنصاري (حلب) وجنديرس وعين دارا وقرة قوزاق وتل البنات وغيرها .

تصّنف مستوطنات بلاد مابين النهرين حسب أحجامها وهي كالتالي : (الشكل ١)

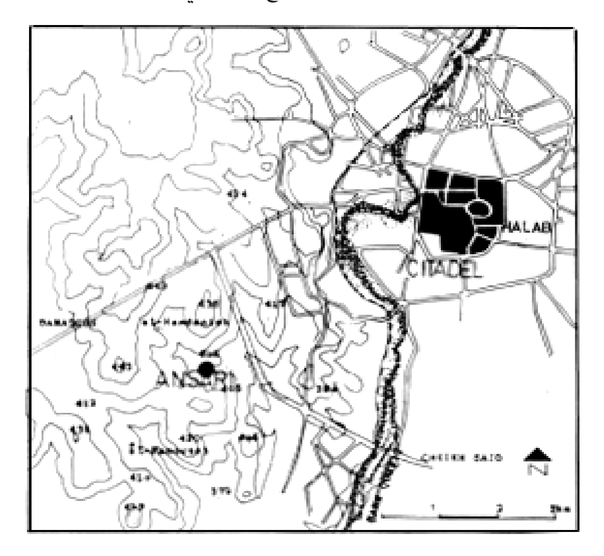
١ـ القرى الزراعية من ١ ـ ٦ هكتار
٢ـ المدن المتوسطة من ٦ ـ ٢٥ هكتار
٣ـ المدن الرئيسية من ٢٥ ـ ٥٠ هكتار

إلا أن هناك حالات لا تصل عندها كثافة سكان المدن إلى تلك الدرجة التي وصلت إليها مدن جنوب بلاد مابين النهرين، وذلك نتيجة عوامل طبيعية وجغرافية، عندئذ يمكن أن نعتبر تلك المستوطنات التي تصل مساحتها إلى ١٥ هكتار مدناً، وعادة هناك ثلاث قرائن لتطور المدنية في المدن وهي :

١ـ تجاوز عدد السكان خمسة آلاف نسمة
٢ـ وجود العمارة الضخمة، سواء كانت مخصصة لأهداف دينية أو ثقافية (المعابد ـ القصور)
٣ـ وجود الإنتاج الحرفي كعنصر مستقل قائم بذاته والتجارة الدولية .

إن مستوطنة الأنصاري (الشكل ٢) ما هي إلا تجمع مدني وزراعي، وإنطلاقاً من عدم وجود تل مرتفع عن سطح الأرض في الأنصاري (حلب) فقد حددنا أطراف المدينة بالإعتماد على إنتشار البقايا المعمارية المترافقة مع وجود المواد الأثرية كالفخار . ونتيجة لذلك تبين أن مساحة التجمع السكني يشكل أكثر من (٣) ثلاثة هكتارات و(٦) ستة هكتارات مع المساحة التي تضم المقبرة، التي تقع على بعد ١٢٠م شمال غرب، كما كشفنا عن أساسات حجرية لغرف مرحلة البرونز القديم الرابع، تلك الأساسات كانت تبنى

الشكل ٢ : مخطط لمدينة حلب يبين موقع الأنصاري



الشكل ١: خريطة لمواقع شمال سورية

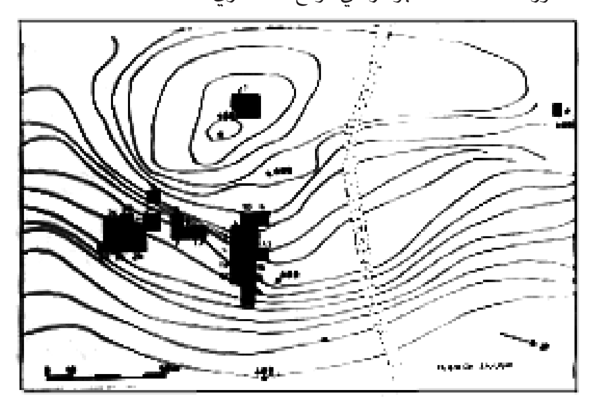
عادة من صفين عرضاً وصفين أو ثلاثة إرتفاعاً (الشكل ٢,٦)، بحيث وصل إرتفاع الجدران إلى حوالي متر أو أقل قليلاً، ثم تبدأ الكتل اللبنية تتوضع فوق الأساسات الحجرية (الشكل ٣ـ٤ـ٥) أمّا أحجام الغرف فيمكن استنتاجها من بقايا القاعدة الجدارية، وهي عادة غرف غير كبيرة، وتذكرنا بأبنية حماه J، حيث تبنى المنازل حسب الإتجاهات الأربعة (الشكل ٧ و٢٥).

لقد كشفنا بقايا جدران مقاييسها أكبر من مقاييس جدران البيوت أو الغرف، حيث يبلغ عرض كل جدار مترين

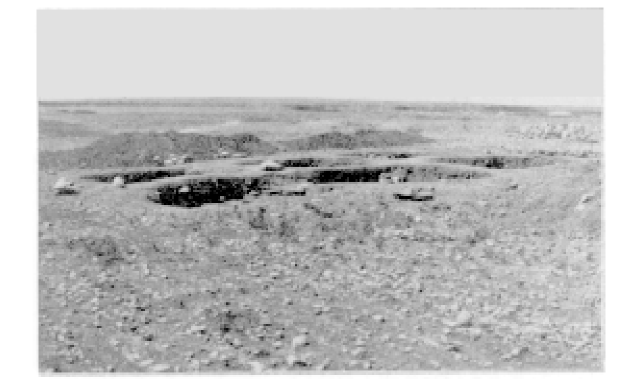
الصورة ٢/٦: تبين استخدام الحجارة كأساس لجدران.



الصورة ٣: مخطط طبوغرافي لموقع الأنصاري





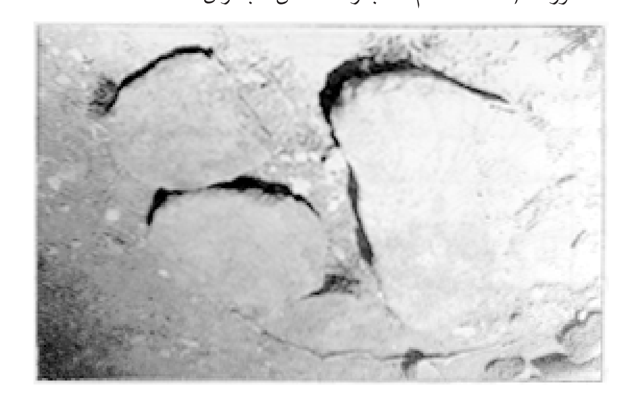


الصورة ٤: موقع الأنصاري والعمل في المربعات

(٢م) على مايبدو أن هذه الجدران هي بقايا تحصينات قديمة (الشكل A٧) . وإنطلاقاً من دراسة المواد الأثرية يمكن أن نعيد هذه الجدران الضخمة إلى عصر البرونز القديم الرابع (EB IV) (الشكل ٦) . حيث عثر على تحصينات مماثلة في تل مازن وهي كجدران الأنصاري التي تعود إلى الفترة الثانية من عصر البرونز القديم الرابع (EB IV B) . وقد عثرنا على نماذج فخارية في الطبقات السفلى الواقعة ضمن الغرف المحاطة بجدران حجرية، كما تم العثور على مساحق (الشكل ٦,٣) حبوب وبقايا تنانير وهيكل عظمي لحصان



الصورة ٦/٣: استخدام الحجارة كأساس للجدران.





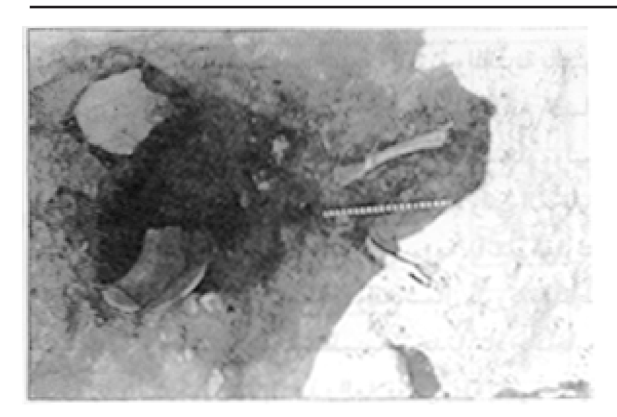


الصورة ٥: مخزن حبوب من الألف الثانية قبل الميلاد

الصورة ٦/١: استخدام الحجارة كأساس للجدران.



متمدد في قاع حفرة تحتوي على رماد مخلوط مع بقايا عضوية أخرى، هي بعض أصناف الحبوب على الأغلب، وكذلك عثرنا على كميات كبيرة من أجزاء أواني فخارية محطمة لحفظ المنتوجات الزراعية وعلى عظام حيوانات أليفة. (الشكل ٢٥ / ٢) إن وجود كل هذه الأشياء في مساحة غير كبيرة تكشف لنا الطابع الزراعي لهذه المستوطنة (المدينة).



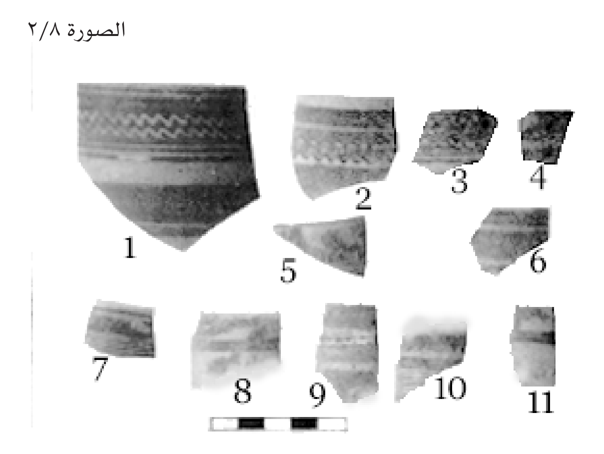
الصورة ١/٨



الصورة ٢/٢٥

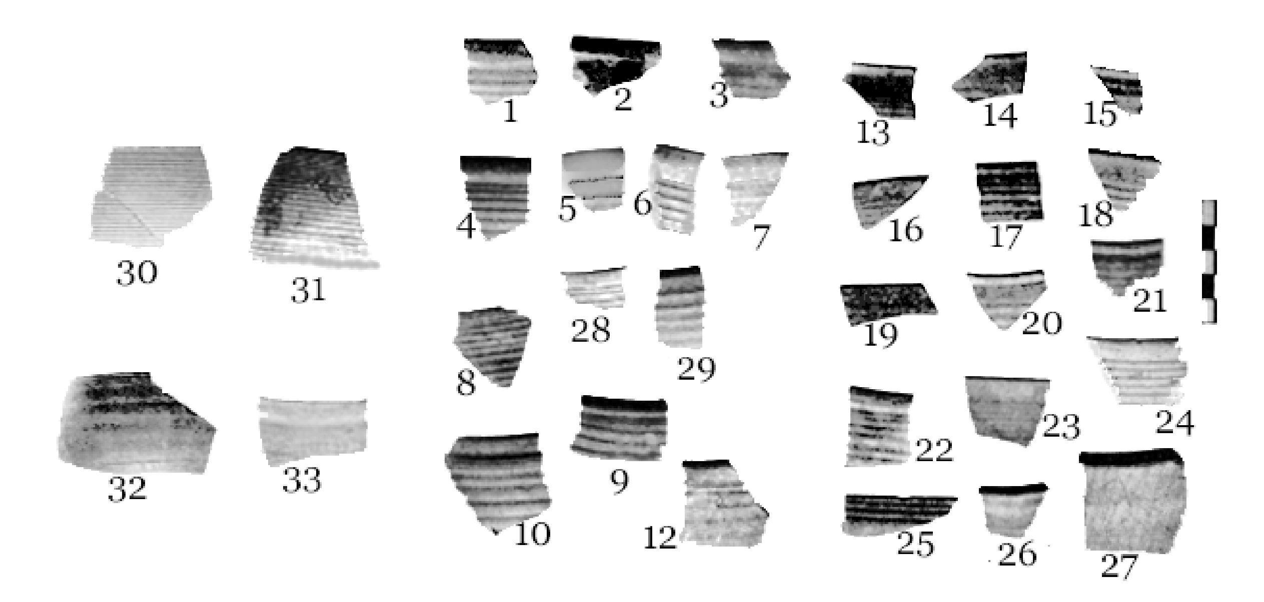
إلا أن الشيء الملفت للنظر هو أنه على مساحة غير واسعة من المستوطنة تم الحصول على كميات كبيرة جداً من الفخار ولاسيما الكؤوس المحززة والملونة التي تشكل القسم الأعظم من الفخار (الشكل ٧ب ـ ٨). إن مثل هذه

الصورة ٢/٨

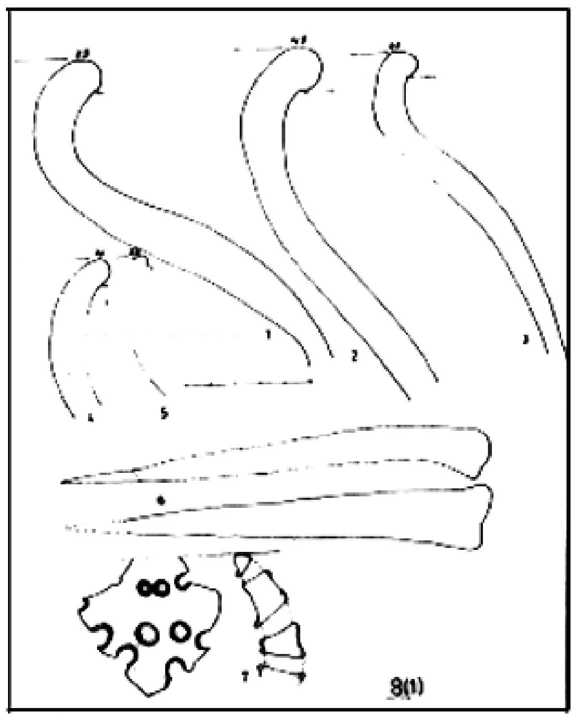


الصورة ٨: رسومات لفخار ملون يعود إلى ٢٢٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م

الصورة B/٧: رسومات لفخار محزز يعود إلى ٢٤٠٠ ـ ٢٢٠٠ ق.م



الكمية الكبيرة من الكؤوس المحززة والملونة والمقترنة بالتنوع الكبير، لم يعثر عليها في أمكنة أخرى خاصة بمواقع حضارة شمال سورية، مما يرجح وجود معمل لصناعة الفخار، وليس هناك تفسير آخر لوجود هذه الكمية من الأواني الفخارية المتنوعة والمهمة جداً لحضارة شمال سورية. أثناء مقارنتنا فخار مدينة الأنصاري مع جميع مواقع شمال سورية والمناطق الساحلية والجنوبية والفلسطينية وجدنا نماذج فخارية متشابهة (الشكل٩) . إن هذه العلاقة مرتبطة بنفوذ مدينة الأنصاري من خلال علاقاتها التجارية مع المدن المجاورة والمدن الواقعة خارج حدود الخريطة الجغرافية لحضارة شمال سورية، كما كشفت أعمال التنقيب المزيد من البقايا المعمارية ذات خصائص فنية كبيرة، تؤكد المعطيات الأثرية الفخارية منها والمعمارية على الدور الاقتصادي والسياسي والديني التي تتوافق مع ظهورالعصر الإبلوي أي حوالي ٢٤٠٠ق.م. تؤكد دراستنا على أن مدينة الأنصاري تقع ضمن الخريطة الجغرافية لمملكة إبلا. تبعد عنها مسافة ٦٠كم شمالاً، وتتمتع بسيادة مستقلة ذاتية الإنتاج. (الشكل ٧-٨-١٤) .

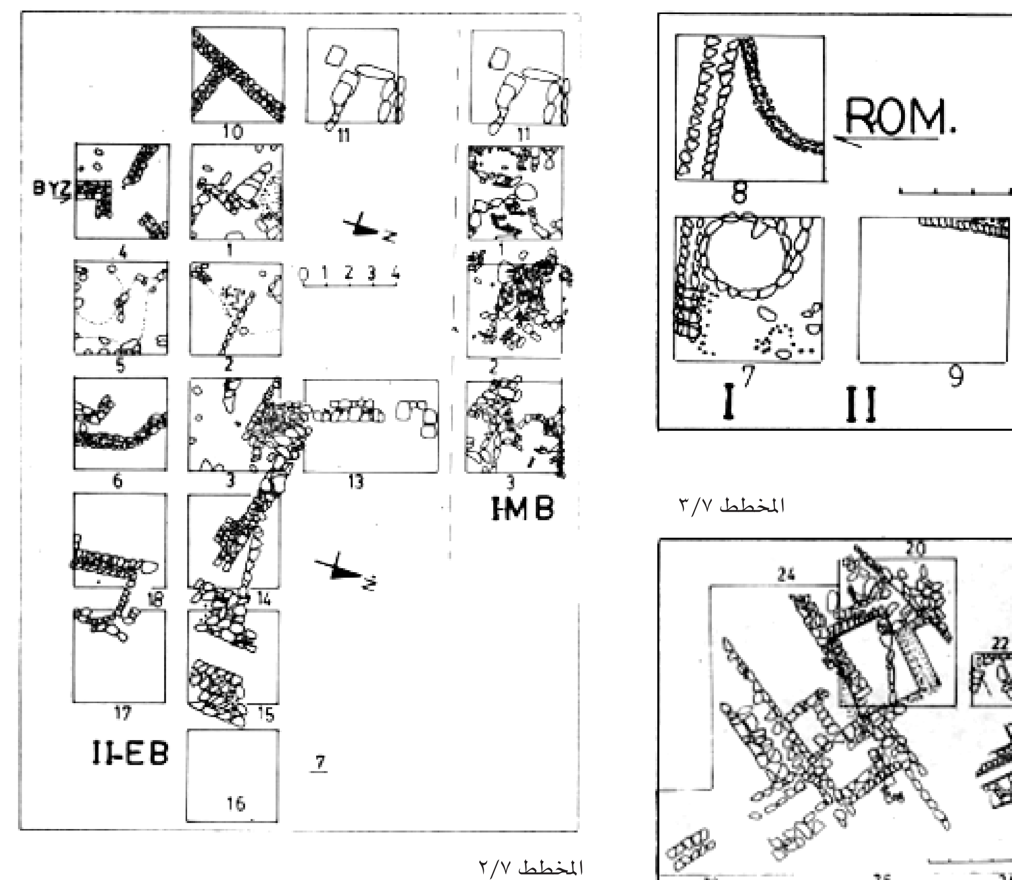


الصورة ١/٨

الشكل ٩ : فخار ممشط مستورد من مناطق فلسطينية وفخار ملون من صناعة حماة ودمى مستورد من أعالي الفرات، هذه المواد الأثرية عثر على في منازل الانصاري



٩ـ فخار ممشط مستورد من مناطق فلسطينية وفخا ر ملون
من صناعة حماة ودمى مستورد من اعالي الفرات
هذه المواد الاثرية عثر عليه في منازل الانصارى



المخطط ١/٧

المخطط ٣/٧

المخطط ٢/٧

المخطط ٧: مخطط عام لمناطق العمل.

الصورة ١٤: هيكل عظمي وكأس ومصفاه فخارية ورأس فخاري عليه تاج ملكي

١٤ـ هيكل عظمي وكأس ومصفه فخارية ورأس فخاري عليه تاج ملكي

تقع مدينة الأنصاري في حوض نهر القويق الأسفل، تفصل بحيرة المطخ مابين موقع مملكة إبلا وموقع الأنصاري. هناك تشابه بين الموقعين من حيث بعدهما عن مجرى النهر وثانياً يقومان على كتلة صخرية كلسية بيضاء (الشكل ١, ٢).

في المنحدر الشمالي الشرقي تم الكشف عن معبد مؤلف من إحدى عشرة غرفة (١١) ضمن المربعات (٢٠ ـ ٢٦)، يعود إلى العصر البرونزي القديم الرابع (الشكل ١٠) (EB IVB). بالرغم من أننا لا نملك الإمكانية الكافية التي تتيح لنا دراسة كاملة للخصائص الفنية للمعبد إلا أننا استطعنا جمع بعض الميزات المعمارية والفنية لهذا المعبد وتأتي في مقدمتها:

١ـ استخدام الأعمدة الدائرية الخشبية في تزيين واجهة الغرفة الأولى.
٢ـ استخدام الفجوة في الجدران (محراب).
٣ـ طلاء الجدران والأرضيات بطلاء كلسي بسماكة تتجاوّز (١٠سم). (الشكل ١١ ،١٢, ٢٥)



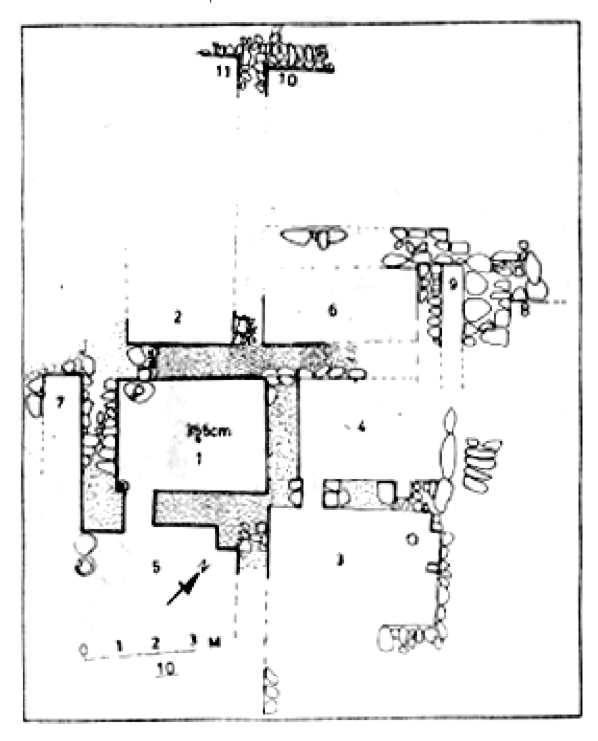
الصورة ١١: جرن في الغرفة الأولى من المعبد



الصورة ١٢: حفرة دائرية لعمود خشبي.

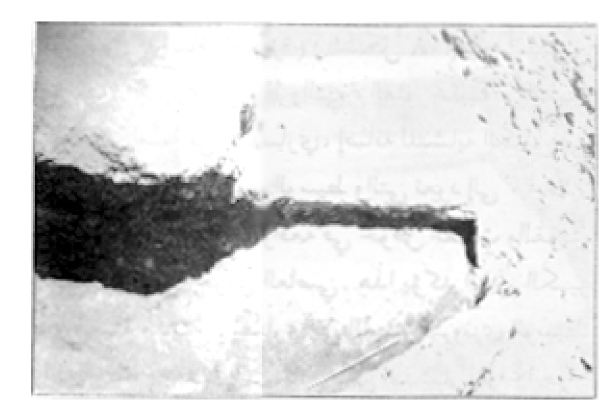


الصورة ١٠: مخطط المعبد يعود إلى ٢٢٠٠ ق.م



الحجرات هنا صغيرة الحجم عامة إذ لا يصل طولها أكثر من أربعة أمتار وعرضها لايزيد عن (٣,٥م)، وذات أبواب ضيقة يتراوح عرضها ما بين (٦٠ ـ ٨٠سم)، كل الحجرات كانت مشيدة على أساسات حجرية يصل ارتفاعها إلى متر أحياناً (الشكل ١١, ١٢).

تقع مداخل المعبد ذات الغرف المستطيلة والمربعة في نهايات الضلع الطويل وبعيداً عن وسط الجدار، أبوابها تتحرك على مزالج حجرية، احتوت الغرفة الأولى المستطيلة ذات الأبعاد ٣×٤م على جرن كبير من الحجر الصواني الأبيض، يتوضع مقابل المدخل مباشرة، كما تم العثور على مذبح بازلتي صغير الحجم بالقرب من الجرن (الشكل ١٠). بينما هناك قطع خشبية متفحمة تتوضع على أرضية الغرفة الثانية (الشكل ٢٥ / ١). بلغ قطر القطع الخشبية أكثر من ١٢سم من المحتمل أنها استخدمت لحمل سقف الغرفة. إن وجود محراب في الجدار الشرقي من الغرفة الثالثة دليل على أهمية خصوصية دينية، وكون الموقد المليء بالرماد بقرب



الصورة ١/٢٥

المحراب أيضاً يؤكد على قيام ممارسة طقوس دينية معينة، وفرشت الغرفة الخامسة بطبقة ملساء من الملاط مع وجود جرن (مزلاق) بالقرب من العمود.

تم العثور على هيكل عظمي لامرأة بيدها خاتم وسوار من البرونز بالقرب من الغرفة الرابعة (الشكل ١٤)، كما كان يتوضع كأس فخاري محزز بقرب رأسها، أخذت الجثة وضعية الإنثناء على الجنب مع اتجاه الوجه نحو الشمال (الشكل ١٥,٢)، حفظت الجثة داخل جرة كبيرة لها فوهتين عند الرأس والأخرى عند القدمين (الشكل ٨ / ١).

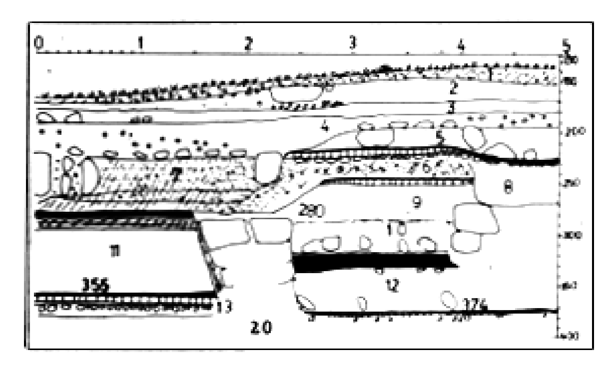
نعلم أن الصفة الملازمة لحضارة شمال سورية هي الغياب الكامل للدفن ضمن الجرار في الألف الثالث قبل الميلاد بشكل أساسي، وما يبرر الدفن ضمن الجرة وجود الكأس المحزز الذي نعتبره مشابهاً لصناعة الفخار في مدينة حماه (J). هذا يؤكد التبادل الثقافي والتجاري بين الشمال والجنوب.

ونظن بأن القبر يخص إنساناً من حماه، مقيم في مدينة الأنصاري، كما ساعدت الحفريات بالحصول على عينة من بذور الزيتون وكأس وصحن ملونين بأشرطة حمراء دائرية من النوع المعروف في العصر البرونزي القديم الرابع ب (EB IVB).

شيّدت جدران المعبد من اللبن البني والرمادي إلا أنه ضعيف التماسك بسبب قلة وجود التبن وكثرة وجود الحصى الصغيرة، وتتشابه تلك الصفة مع قصور إبلا وجنديرس وعين دارا في الألف الثالث قبل الميلاد، علماً بأن الجدران كانت مطلية بطلاء كلسي وخاصة الغرفة الأولى والثانية والثالثة، ومن الخصائص الأخرى الفنية المعمارية بأن الجدران في المعبد متعامدة إلا أننا نجدها على غير استقامة واحدة، هذه الميزة جديدة في فن عمارة الأنصاري. وهذا الكشف تم وضعه بعيداً عن مملكة إبلا وذلك بعد أن أحرقها ودمرها نارام سين الأكادي ويتوافق مع الفترة الزمنية الثانية من الألف الثالث قبل الميلاد (EB IV B).

إن الدراسة الموجزة لاحدى مقاطع مدينة الأنصاري ستزيد من فهمنا إلى التسلسل الزمني المتعلق، بمعبد الأنصاري خاصة (الشكل ١٥). يحتوي المقطع على ١٣ طبقة بعمق (٢٧٠سم) (الشكل ٢٤) تتوضع طبقة رمادية سوداء على عمق ٣٠سم من السطح، بينما بلغ سماكة الحريق مع الرماد ١٦سم.

الصورة ١٥: مقطع يبين التراكم الطيني

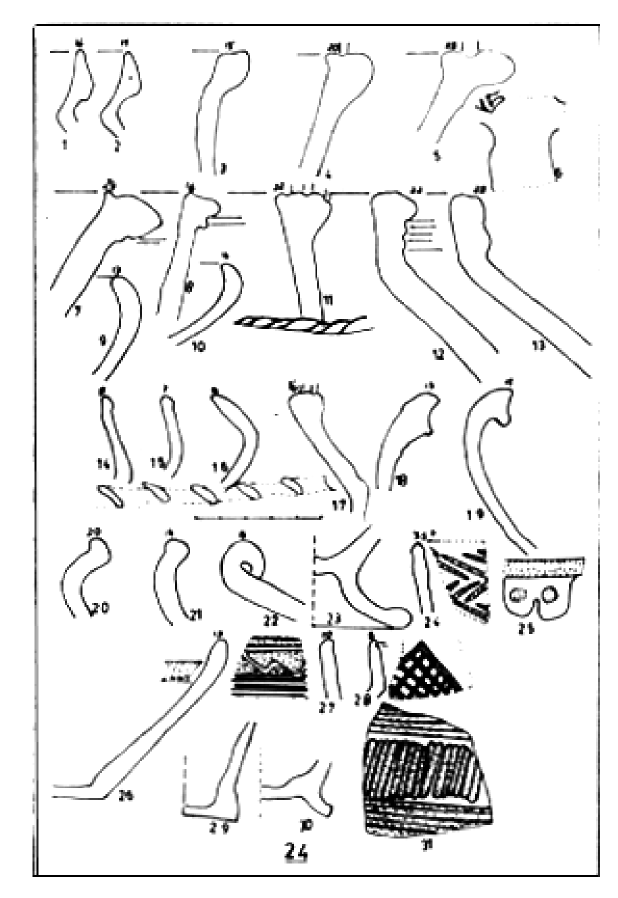


وعلى عمق ٦٠سم من السطح نجد طبقة ثانية من الرماد الأسود

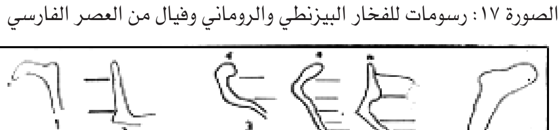
وعلى عمق ١٠٠سم من السطح نجد طبقة ثالثة من الرماد الأسود

وعلى عمق ١٣٠سم من السطح نجد طبقة رابعة من الرماد الأسود

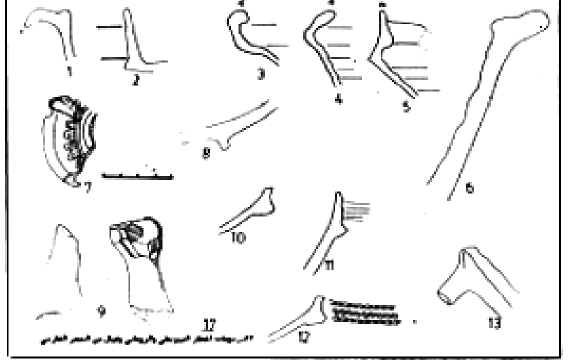
ينخفض سطح المربع عن أعلى نقطة ١٣٠سم، بينما تقع أرضية المعبد على عمق ٣٣٥سم وخاصة الغرفة الأولى والثانية. إن الطبقات العلوية من المقطع والمقاطع الأخرى تنتمي إلى العصور البيزنطية والرومانية والفارسية القرن (٤ ـ ٦) قبل الميلاد (الشكل ١٧) ويليها طبقات العصر البرونزي الوسيط الأول والثاني (I-11-MB) (الشكل ١٨, ٢١) ثم يليها طبقات العصر البرونزي القديم الرابع (EB IV)، حيث



الصورة ٢٤ : فخاريات من المقطع.

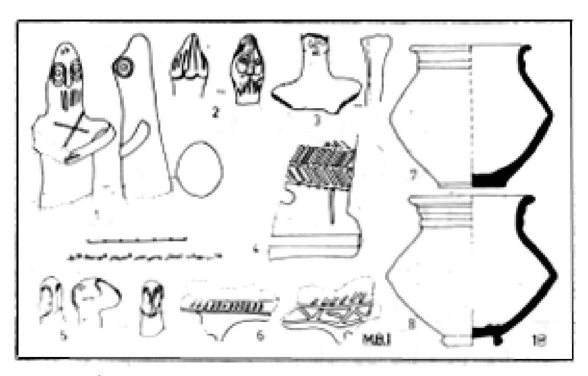


الصورة ١٧ : رسومات للفخار البيزنطي والروماني وفيال من العصر الفارسي



يقع المعبد ضمن هذه الطبقات (١٠-١٣) وهي تنتمي إلى عصر البرونز القديم الرابع ب (EB IVB) (الشكل ٢٢) .

كان القسم الأعظم من المواد الأثرية من الإنتاج المحلي لمدينة الأنصاري، بينما نجد مواد أثرية فخارية من إنتاج أمكنة أخرى، ومن بينها دمى ذات جسم اسطواني الشكل لها مثيلات في المنطقة الشمالية الشرقية من نهر الفرات (تل الجدل والحمام والخويرة) (الشكل ١٨)، وهي تنتمي إلى العصر البرونزي الوسيط والتي تم العثور عليها في الطبقة الرابعة والخامسة في الأنصاري، إضافة للتشابه الكامل في فخاريات العصر البرونزي الوسيط والتي تعود إلى ١٨٠٠ - ١٦٠٠ق.م في المواقع الواقعة في حوض الفرات والقويق والذهب وخاصة حوض العاصي. هذا يؤكد الدور الكبير الذي لعبته مدينة الأنصاري في العصر البرونزي الوسيط (MB-I-11) وذلك اعتماداً على انتشار أنواع الجرار والصحون والقوارير في جميع طبقات ذلك العصر، بينما ظهور مزاهر حادة البطن في مقبرة الأنصاري وأوغاريت وحماه ومرديخ ومشرفة (قطنة) وأريحا بفلسطين وتل

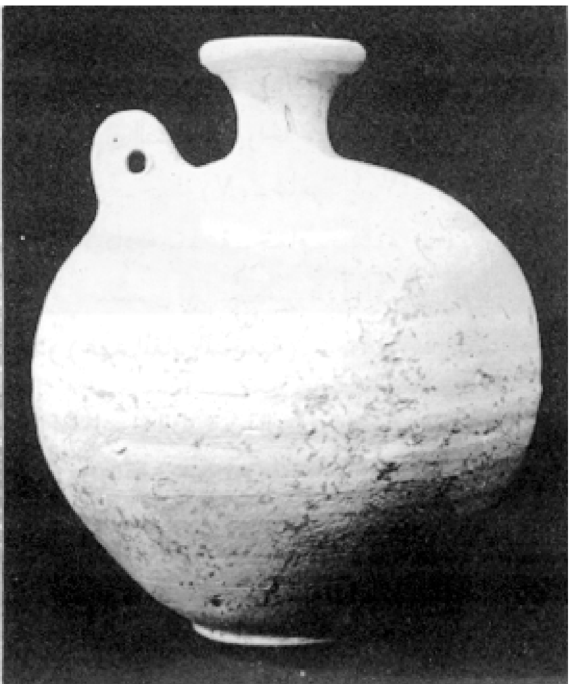


الصورة ١٨ : رسومات لفخار ودمى عصر البرونز الوسيط الأول

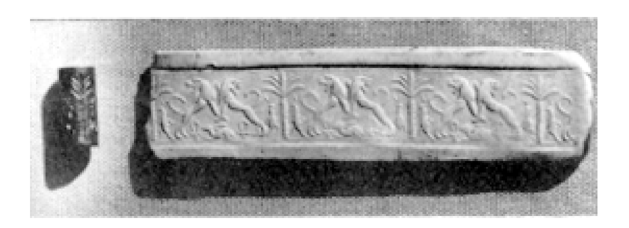
سوكاس وسيانو تؤكد تلك المزاهر على وجود علاقة وثيقة وكاملة فيما بينها (الشكل ١٩-٢٠) مترابطة إلى حد يمكن أن نتوقع بأن القصر العموري القديم المكتشف في جنديرس من قبل الدكتور أنطوان سليمان رئيس الجانب السوري، ولقد احتوت غرف القصر على الكثير من المزاهر حادة البطن، لا بد أن تكون جنديرس عاصمة العصر البرونزي الوسيط الأول (MBI) في شمال سورية، كما عثرنا أيضاً على أواني فخارية ملونة بأشرطة بنية هندسية كما رسمت حيوانات كالماعز الجالس بين الأشكال الهندسية المتشكلة على كتف الآنية، كما عثرنا على دمى وختم اسطواني بالقرب من مخزن الحبوب (الشكل ٢١).

إن تداخل المواد الأثرية في بعض الطبقات الناجم عن استخدام مواد البناء القديمة أدى إلى اختلاط فخاريات الطبقات فيما بينها إذ أن معظم الأواني الفخارية غير الملونة



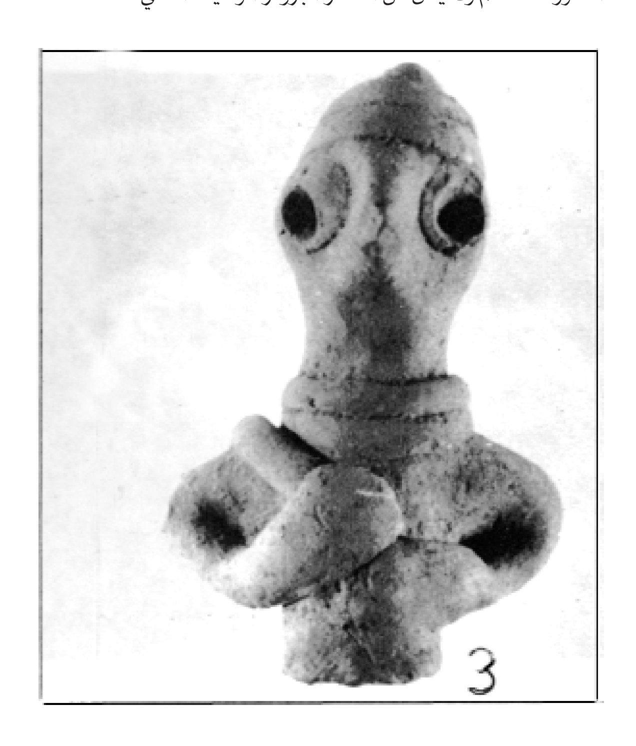


الصورة ١٩: فخار من العصر البرونزي الوسيط الأول من المقبرة





الصور ٢١: ختم ودميتان من العصر البرونز الوسيط الثاني ١٨٠٠ـ١٦٠٠



والمحززة وغير المحززة تواجدت في الطبقات السفلى بينما نجد الفخار الملون في الطبقات العلوية. إلا أننا وجدنا على أرضية المعبد في الغرفة الأولى الفخار المحزز والملون معاً، مما يجعلنا نعتقد بأن المعبد يعود إلى فترة ما بعد ٢٢٠٠ ق.م واستمرار الحياة بعد تدمير إبلا في عام ٢٢٢٥ق.م. (الشكل ٢٣)

فإننا نجد التشابه فيما بين سويات مواقع العصر البرونزي القديم الرابع، أثناء مقارنة الفخاريات المحززة والملونة فيما

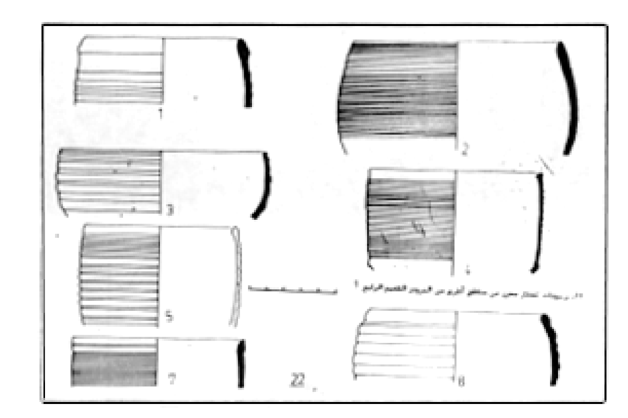
بينها، كما توضح المقارنة الخطوط العامة للتطور الحضاري ليس بالإنطلاق من طريقة صنع الفخار فحسب بل من العلاقة الكمية والنوعية لمختلف أنواع الفخار داخل المجموعات الأساسية.

ويمكن لنا الآن أن نحدد سويات المرحلة القديمة من العصر البرونزي القديم الرابع 1 (EB IVA) على المواقع التالية:

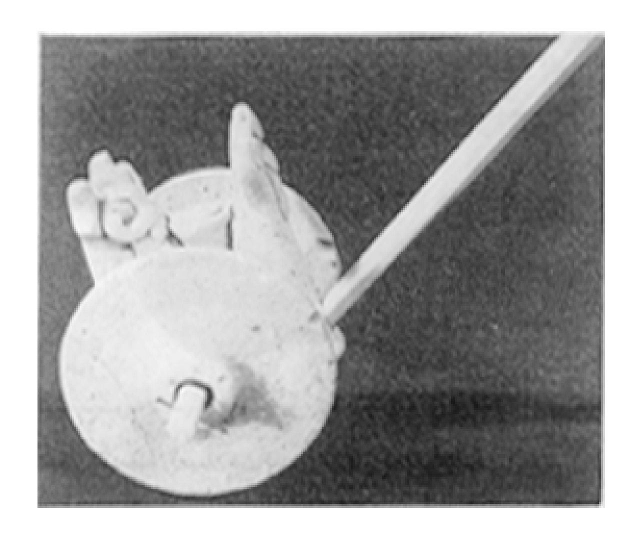
تل مرديخ IIB1 حماه 6-8 ، سهل العمق، تل رفعت III ١٧، أم المرأة ١٧، تل السلنكحية III تل أحمر المقبرة الفردية، تل قره قوزاق المقبرة وسوياتها، تل البنات المقبرة الملكية، الأنصاري VIII عين غسان المقابر، تل مازن A المشرفة (قطنة) المقبرة الرابعة، ممباقة، حلاوة تل الحديدي، والمسطومة.

في نطاق التشابه العام والخارجي تبة كفرا ٧ ـ ٦ كركميش ـ كره حسن ـ جدلة (V) ـ شاغر بازار IV ـ تل براك سوية سرغون الأكادية القديمة ـ حمام ـ بيبلوس B2 أوغاريت A3 وفي فلسطين تل بيت ميزريم I–H تل دوير ـ أريحا ـ مجدو (عهد المقابر المنجمية).

أما المرحلة الثانية من العصر البرونزي القديم الرابع ب (EB IV B) تل رفعت III الأنصاري VII تل عاصي المقبرة الرابعة، دنيسبي المقبرة الأولى والثانية ـ خان شيخون ـ تل مازن مشرفة B قطنة (طبقة تحت الكنيسة) تل سمريان II تل سوكاس ـ مقبرة سراقب ـ تل البيعة (المقبرة) تل مرديخ IIB2 حماه J4–1 أما حماه J5 فيجمع فخار المرحلة الأولى والثانية كما الحال في معبد الأنصاري 4 (الشكل ٢٤).

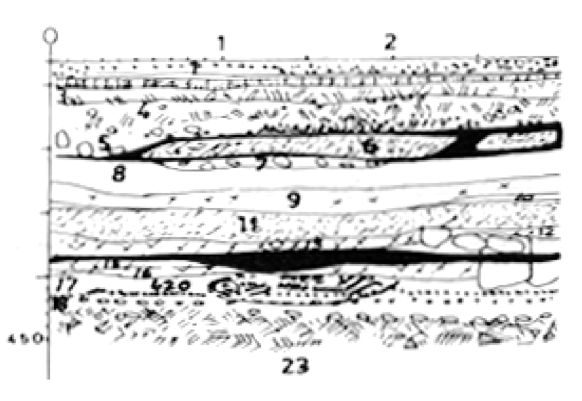


الصورة ٢٢ : رسومات لفخار محزز من مناطق أخرى من البرونز القديم الرابع أ

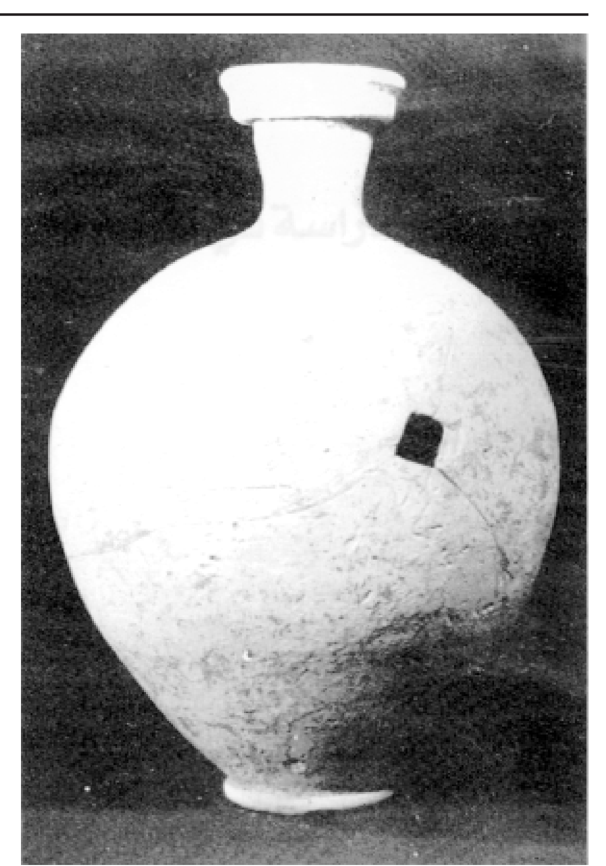


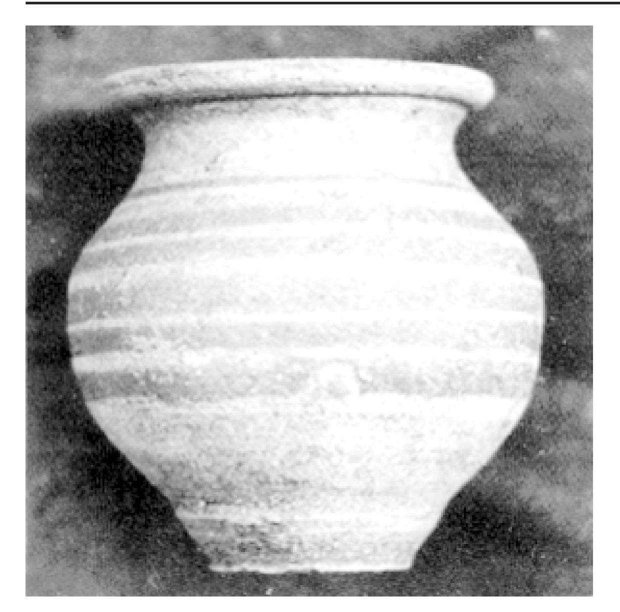


الصورتان ٢٠ آ،ب: ثور وعربة من العصر البرونزي الوسيط الثاني من المقبرة



الصورة ٢٣ : رسومات فخار ملون مع دمية من العصر البرونزي القديم الرابع ب





الصورتان ٢٠ ج، د

دراسة في تأريخ دمية من تل العمارنة في سورية

علي أبو عساف

المديرية العامة للآثار والمتاحف

على أثر البدء في بناء سد تشرين، قرب موقع يوسف باشا على نهر الفرات، شد الباحثون في آثار بلادنا الرحال، الى المنطقة الممتدة بين موقع يوسف باشا في الجنوب، وجرابلس في الشمال، وهي المنطقة التي ستغمر بمياه البحيرة، التي ستتجمع خلف السد . وغرضهم في ذلك معاينة المواقع الأثرية، والتعرف عليها، وتشخيص الحقب الزمنية المخبأة في طبقاتها، واختبار ما يناسب اختصاصهم، ويحقق رغباتهم، من المواقع للعمل بها، والكشف عن آثارها، قبل أن تضيع في الماء وتحته .

وكان قد وقع اختيار البعثة البلجيكية، برئاسة السيد اونهان تونكا (Ö.Tunca) على تل العمارنة، الواقع الى الجنوب من مدينة جرابلس، على ضفة الفرات اليمنى، وعلى بعد حوالي /٨/كم عنها، وعن أطلال مدينة جرجميش (كركميش) التاريخية، الواقعة الآن ضمن الأراضي التركية، على الجانب الآخر من الحدود . بدأت البعثة عملها في الموقع عام ١٩٩١ ، وماتزال تعمل هناك . وكان من ثمار عملها، أن عثرت في ٢٣ أيار من عام ١٩٩٥ على دمية (تمثال صغير) مشوهة، فريدة، دلت على أهمية الموقع، وأدخلت السرور الى نفوس أفراد البعثة، ودفعتهم الى المثابرة على العمل فيه، لأنه سوف يحقق آمالهم، ويكتشفو آثاراً أخرى، يستطيعون عبرها المساهمة في التعريف بآثار بلادنا .

وبغية التعريف بهذه الآثار، وإبراز التعاون بين سورية والاتحاد الاوربي في مجال الآثار، أقامت المديرية العامة للآثار والمتاحف وبعثة الاتحاد الأوربي في دمشق وبعثاته الأثرية العاملة في الجمهورية العربية السورية، معرض الآثار السوري الأوربي، كما سمي، وذلك في المتحف الوطني بدمشق، من / ٣٠ / أيار وحتى غاية / ١١ / تموز من عام ١٩٩٦ . ضم المعرض أهم المكتشفات الأثرية التي عثرت عليها بعثات الاتحاد الأوربي إبان تنقيباتها في مختلف المواقع التي تعمل بها . وأتاح فرصة ثمينة للجمهور، ليتعرف من خلاله على لقى أثرية جيدة وفريدة، تؤلف صورة واضحة زاهية الألوان عن تراث بلادنا . وكان من بين هذه اللقى الهامة، قطعة يتيمة متميزة، هي دمية رجل ـ هو بلا شك حاكم ـ صنعت من الحجر الكلسي، عاينتها وتفحصتها، فراقني نشر بحث عنها، لذا أعددت هذه الدراسة التي أقدمها هنا .

❁ ❁ ❁

أعد للمعرض دليل عام، عرض على صفحتيه /٦٩ و٧٠/ من النسخة العربية، و/٧١و٧٢/ من النسخة الانكليزية، تل العمارنة. ولكن بايجاز شديد، يتناسب وحجم الدليل، المعد باللغتين العربية والانكليزية. وجاء وصف الدمية أيضا، موجزاً. بينما عرضت صورة واحدة لها على اللوح /٦/، وذكر أنها تعود الى الألف الثالث ق.م.(١)

يبلغ ارتفاع الدمية /١٧,٨/ سم، وعرضها /٩,٤/ سم، وسماكتها /٧,٧٥/سم. فهي إذن منحوتة صغيرة، آثرت أن أسميها دمية، بدلاً من تمثال، لصغر حجمها.

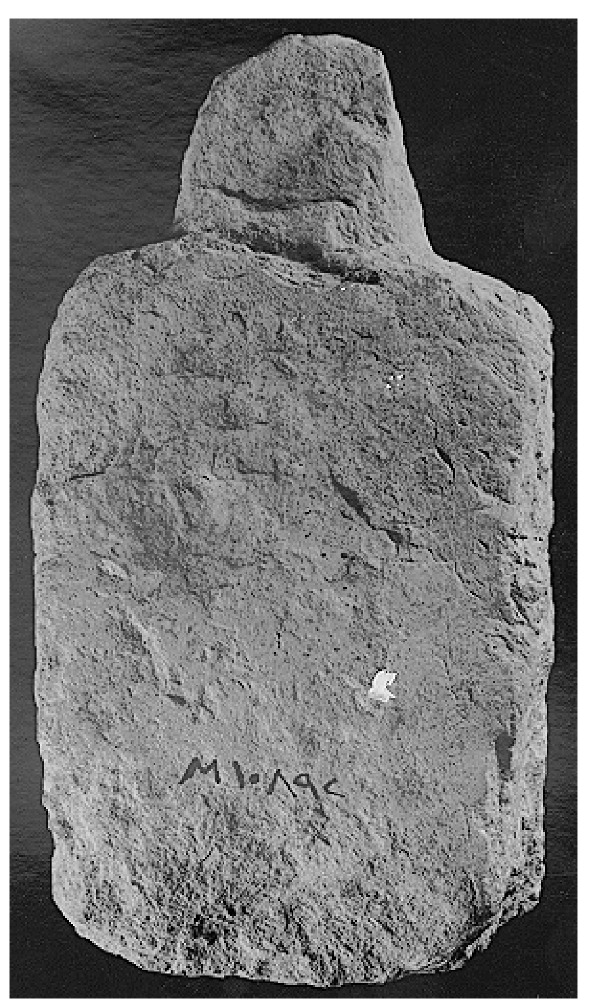
ونحن المختصين حينما نعاين مثل هذه القطعة الفنية المشوهة، لا تدهشنا أنها مشوهة، بل يؤسفنا. فقد تعودنا على معاينة القطع المشوهة. وهذه الدمية واحدة منها، ورغم أنها مشوهة، بقيت فيها ملامح بارزة، وخصائص واضحة، تجعلها جديرة بأن تدخل ساحة النقد والتمحيص، وتثبت أنها شيء جديد، تستحق الدراسة ـ ودراستي هذه ستتناول وصف الدمية، مقارنتها مع منحوتات معروفة، ووضعها في إطارها الفني والتاريخي الحقيقيين، ومن ثم تأريخها.

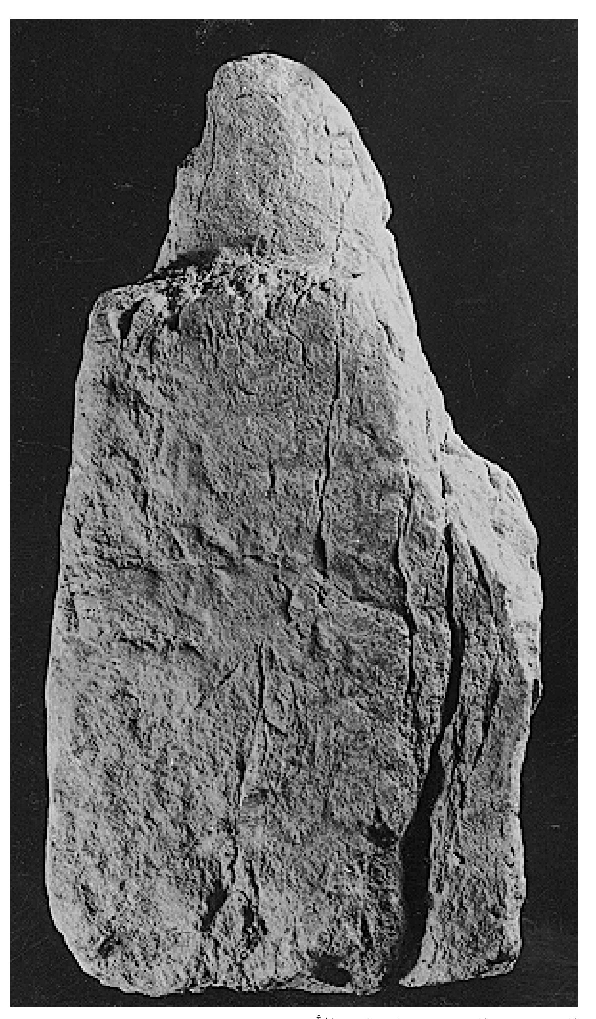
لقد قلت أن الدمية مشوهة. وحالتها على ما هي عليها، تجعل وصفها مختصرا. وسأصفها كما تبدو لي. قفا الرأس وأعلاه، حيث يكون غطاء الرأس، مشوهان ـ واذا نظرنا اليه من الجانب، تبين لنا أن شيئاً ما يرتفع فوق الرأس، لعله يشير الى غطاء أو إلى الشعر، الذي أرخيت خُصله على الكتفين، حيث تبدو لنا بارزة على جانبي العنق القصير. وهي قد أسدلت من أعلى الى أسفل، فحجبت الأذنين، والتوت فوق الكتفين. ومن هذه المعطيات، نفترض

الصورة ١: وجه الدمية

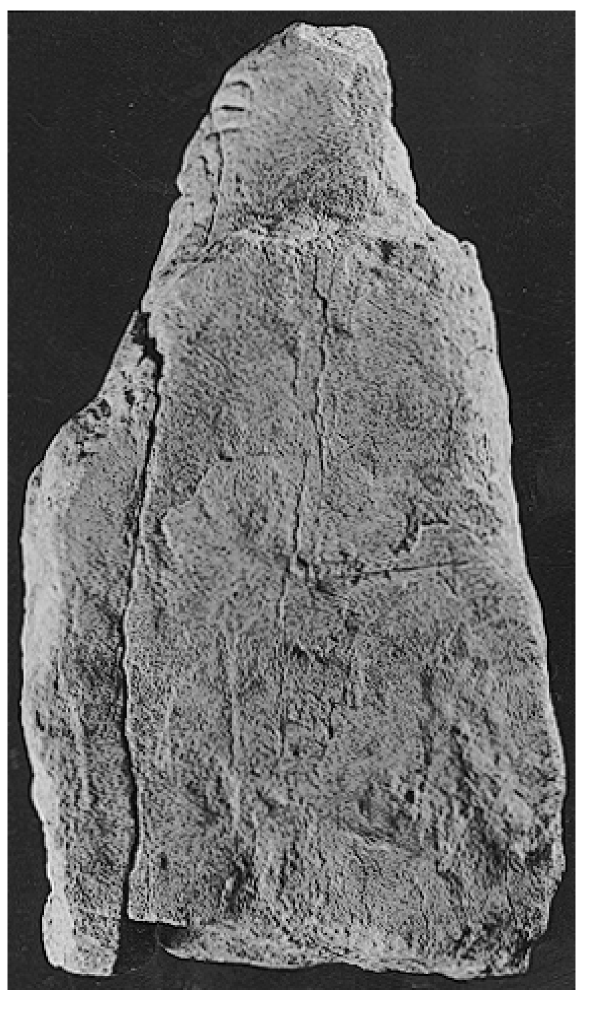


الصورة ٢: الدمية من الخلف





الصورة ٣: الدمية من الجانب الأيمن



الصورة ٤: الدمية من الجانب الأيسر

أن الشعر طويل، ارتدَّت خُصله الى الوراء، حتى الظهر، والكتفين. أما الجبهة، فهي عادية، يفصلها عن الحاجبين الغليظين ثلم مقوسة. وتحت الحاجبين القويتين، تمتد العينان المغمضتان، وكأنهما حبتا حنطة. اليسرى مشوهة، واليمنى سالمة، وينسجم مع شكل العينين المُحور شكل الأنف. فهو طويل وعريض، ومسطح، وغير عضوي، ليست فيه أرنبه أو فتحات، يفصله ثلم عميق عن الشفتين الغليظتين المطبقتين. الخدان ملساوان، والذقن طويلة، تمتد حتى النحر، فتغطي الجيد، وهي على شكل مثلث رأسه محدب. وقد فصل عن محيطه بثلم واضح. يرتدي الشخص الممثل، ثوبا طويلا فضفاضاً، يستر جسمه بأكمله، ولا يسمح حتى للطرفين العلويين بالظهور. ولا أيضا للكرسي فيبدو لنا جامداً. ومما يقوي من شعورنا بأن صفة الجمودية تلازم الدمية، عنق الشخص قصير، فلا عنق يفصل الرأس عن الكتفين، بل يتوضع فوقهما مباشرة. فتلتصق الذقن بالصدر، ويرتفع الكتفان قليلاً، وينغمس العنق بينهما.

وبعد أن نتأمل جذع الدمية، وندقق فيه، ونعاينه، نشاهد على الجانبين، محل الطرفين العلويين، انقعار، تكون ـ على الأرجح ـ بسبب انقعار الذراعين، اللذان ذهبا، وبقيت القعرتان محلهما.

وهذا يحملنا على تفسير أن العضدين قد التصقا بالجذع، والساعدين قد التصقا بالفخذين، وأن الكفين قد أسندتا الى الركبتين. وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فاننا نخالف ما ذهب اليه تونكا من أن اليدين قد شبكتا أمام الصدر، وتوضعتا على الحضن. ولو أن ما ذهب اليه

تونكا واقعياً، لبرز الكفان، ولو من تحت الرداء، وبقيا واضحين، فالدمية في هذا المحل، حيث يفترض وجود الكفين المتشابكين، شبه سالمة.

ومما يدعم وجهة نظرنا، ويقوي من صحة افتراضنا، الخط الواضح البارز، الممتد من الكتف الأيسر نحو الركبة والساق. والذي يمثل ثنية في الثوب، تشكلت من وضعية الطرف العلوي الأيسر، على النحو الذي وصفناه أعلاه.

وفي وسط الصفحة اليسرى للدمية، ثلم يعلوه خط، هو بلا شك، الحافة العليا للكرسي، الذي يجلس عليه الرجل الجالس، وهو بالتأكيد الحاكم.

هذا ما تمكنت من مشاهدته في الدمية، فجاء الوصف على قدر المشاهدة، وبقي أن نقول كلمة في الأسلوب وماهية العمل الذي نتج عنه.

لم يحاول الفنان القضاء على الشكل الهندسي للحجر، الذي نحت فيه دميته. بل زاده وضوحاً، تعبر عنه الحروف الحاده، التي تفصل بين صفحات الدمية الأربع. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الصفحات، أي الظهر والمقدمة والجانبان، قد عولجت منفردة، بناها النحات، كل واحدة مستقلة عن الأخرى، فبقيت الحدود بينهما واضحة قائمة. وكأنها لفرط وضوحها، قد عجز الفنان عن تخطيطها. فخاف من الولوج في عمق صفحات الحجر، لينحت جسماً بشرياً، ذا أعضاء واضحة طبيعية. وبما أنه لم يفعل، بقي في حدود المنظور التكعيبي للمادة. فأبدع دمية جامدة، لا تظهر فيها ملامح الحيوية والحركة. لقد اكتفى الفنان بأن يعبر عن شكل بشري، برمزية غير مفرطة، وباختزال.

وبهذا الذي قلناه في الأسلوب، نكون قد انتهينا من وصف هذا العمل الفني الجديد. ننتقل بعده الى الدراسة المقارنة. وفي بدايتها نعرض الى المقارنات التي أجراها تونكا، ونبين رأينا فيها.

ان تونكا لم يسهب في وصف الدمية، ولم يفصل في المقارنة. فهو مقيد بالحدود المسموح بها في دليل، ولكنه عبر عن رأيه بوضوح، فاعتقد أنه يمكن تصنيف الدمية، في مجموعات تماثيل العُباد، التي تعود الى عصور الممالك القديمة، التي حكمت في الألف الثالث ق.م وذلك بسبب صغر حجم الدمية، وهيئتها. ثم استدرك قائلاً، وإذا تعذر ذلك، نعتقد أن الدمية من العصر البرونزي القديم[٢] إن تماثيل العُباد التي قصدها تونكا، قد ظهرت في بلاد الرافدين، وعلى الأخص في تل أسمر بمنطقة الديالي في العراق، وفي مدينة ماري على الفرات، وفي تل خويرة بوسط الجزيرة[٣]. واذا ما واجهنا بين تماثيل العباد إياها، وعلى الأخص تلك التي وجدت في تل خويرة، وهو الموقع الأقرب إلى تل العمارنة، ودمية تل العمارنة، يتضح لنا من غير إبطاء، أن التشابه بينهما، غير واضح، والقواسم المشتركة بينهما، هامشية، وغير كافية لتصنيفها في مجموعة واحدة. ولم أجد فيها، سوى صفة مشتركة واحدة، هي اللاعضوية واللا شكل في تمثيل العيون والأنف. ومع ذلك نجد أن عيني دمية العمارنة، أصغر من عيون تماثيل العباد في تل خويرة التي هي كبيرة وغير عضوية، زد على ذلك، أن وضعية اليدين والجسم والأردية متباينة.

في الواقع، كان تونكا حذراً، عندما أراد وضع دمية العمارنة داخل الاطار، الذي يضم مجموعات تماثيل العباد من الألف الثالث ق.م. فقد أعلن شكه في صحة المقارنة، وافترض تعذر عقد مقارنة بينها، فكان محقاً[٤]. ونحن بدورنا، لا نرى، في تماثيل العباد، ملامح وخصائص، تقربها من دمية العمارنة. وتأسيساً على كل ذلك، نفتش عن أعمال نحتية فنية أخرى، تعود الى عصور أخرى أيضاً، علنا نجد فيها ما يسعفنا في تأريخ الدمية، ووضعها في إطارها الفني الصحيح.

اكتشف مالاوان (Mallowan) في تل براك قرب الحسكة، عدة رؤوس بشرية (منحوته في الحجر)، كانت تزين المعبد الأخضر، نقلت منه الى متحف حلب، والمتحف البريطاني في لندن[٥]. والفنان الذي صنعها، لم يمثل الأنف طبيعياً، تماماً كما فعل المعلم، الذي صنع دمية العمارنة. ومع ذلك نرى أن أنوف رؤوس تل براك أكثر واقعية من حيث أن جذر الأنف أدق قليلاً من جسمه. وفيما عدا ذلك، لا توجد ملامح مشتركة بينها. تخولنا الادعاء بأنها من عصر واحد.

وتنقلنا مجالات المقارنة، الى مواقع أخرى في الجزيرة والفرات. فشكل العين بدمية تل العمارنة، تماثلها أشكال عيون دمية رجل من الطين، ودمية امرأة من ذات المادة، عثر

عليهما في أطلال مدينة ماري، وتماثلها أيضا أشكال عيون دمى طينية غير تامة، عثر عليها في تل كشكشوك قرب الحسكة[٦]، وقد شبه شكل عيون هذه القطع الفنية، بشكل حبة القهوة. ففي حين نسبت قطع ماري إلى نهاية الألف الثالث، ومطلع الألف الثاني ق.م. أرخت دمية طينية من تل كشكشوك في عصر الطبقة الخامسة لمدينة نينوى (٢٦٠٠ق.م)، أي القرن السادس والعشرين. وكسرتان أخريتان في الألف الثالث ق.م[٧].

والمتتبع للمكتشفات الأثرية في بلادنا، يلاحظ أن تمثيل العين، على شكل حبة القهوة، أو حبة الحنطة، كما ذكرنا أعلاه لم يكن مألوفاً في الجزيرة والفرات، ولا أيضا في بلاد الشام الشمالية، حيث يقع تل العمارنة ومهما يكن من أمر، فإن الفنان قد عبر بهذا الشكل عن انغماض العين، وأن هذه الصفة المشتركة بين هذه القطع الفنية، ودمية العمارنة ليست كافية وحدها لتأريخ دمية العمارنة. فعلينا الاستمرار في إجراء مقارنات أخرى. ان الشكل التكعيبي، والجمود، والتصنم، والتصنع، هي من صفات دمية العمارنة، وتذكرنا بتماثيل الحاكم السومري جودية، حاكم لجش (٢١٤٤-٢١٢٤ق.م) في العراق، وبالعديد من تماثيل حكام الممالك الكنعانية الأمورية، التي تأسست في بلاد الهلال الخصيب، بعد زوال المملكة الأكدية. وبداعي الحذر من الخوض في دراسة مقارنة طويلة، نكتفي باجراء الدراسة على التماثيل التي اكتشفت في إبلا، والتمثال المحفوظ في متحف كلف لاند (Cleveland) بالولايات المتحدة الأمريكية، أي أننا نختار المواقع الأقرب الى تل العمارنة، المؤهلة أكثر من غيرها للتلاقح الفني.

ظهرت في تل مرديخ/إبلا، عدة منحوتات سالمة، شبه تامة، أو مشوهة، نختار منها القطع التالية:

آ - تمثال رجل جالس على كرسي يشبه المكعب، رأسه مفقود. ذقنه طويلة، تستريح خصلها فوق الصدر يرتدي ثوباً مزركشاً بخطوط منكسرة. يسند كف اليد اليمنى مقلوباً، فوق الركبة اليمنى، وكف اليد اليسرى فوق الركبة الأخرى رقمه TM.65. A 234 متحف إدلب ٢١٥٠ - ٢٠٠٠ ق.م[٨].

ب - تمثال رجل جالس على كرسي حوافه تنوف على أريكة الجلوس. رأسه مفقود. يرتدي ثوباً ذي أهداب متعرجة. يضع اليد اليمنى، فوق الركبة المقابلة، ويمسك بها على وعاء. بينما يلقي بكف اليد اليسرى فوق الركبة المماثلة. متحف إدلب (١٨٥٠ق.م).

ت - الجذع المشوه من تمثال ملك إبلا ابيت - ليم. يرتدي ثوباً تحيط ياقته ذات الجزفة العريضة بالذقن الطويلة الملتصقة بأعلى الصدر. الرقم TM.68. G.6. (٢٠٠٠ - ١٨٠٠ق.م). متحف دمشق.

ث - تمثال رجل جالس فوق كرسي ذي مسند خلفي يرتدي ثوباً أملساً، أهدابه طويلة. يحمل بيده اليمنى وعاء، وهو يضعهما فوق الركبة اليمنى، وفي يده اليسرى يتنكب عصاه عوجاء. الرقم TM.88. P. 267. متحف إدلب ١٨٠٠-١٧٥٠ق.م[٩].

جـ - تمثال رجل جالس فوق كرسي مكعب. رأسه مفقود. يرتدي مئزراً ذي أهداب طويلة، يضع شالاً ذا أهداب طويلة كالشراريف. يمسكه بيده فوق حضنه. تلتصق الذقن بالجيد. محفوظ بمتحف Cleveland Museum of Art[١٠]. وهو يعود الى عصر ممالك أسين ولرسا ٢٠٢٠-١٩٠٠ق.م. ولم يعثر عليه في إبلا.

أقبلت السيدة S. Mazzoni ماتزوني، على دراسة هذا الاخير وقارنته مع تمثالي إبلا المشار اليهما في الفقرتين آ وت بينما نشر السيد ماتييه P. Matthiae المعلومات عن باقي التماثيل في دليل معرض إبلا المشار إليه في الملاحظة الهامشية رقم(٩).

قلت إن دمية العمارنة مشوهة، ففقدت بضعاً من خصائصها، ميزاتها، ففرضت علينا المقارنة في مجالات قليلة، واضحة هامة، قد تكون عرضة للنقد من زملائنا، ومع ذلك نحاول.

ولما كان جذع تمثال ابيت ليم، ذا خصائص قليلة، نبدأ به، ونلاحظ أن ذقنه قد ألصقت بالنحر، وأن الرداء يخفي الطرفين العلويين، كما هي عليه الحال في دمية تل العمارنة. ومثلما ألصقت الذقن في هذين العملين الفنيين ألصقت في التماثيل المذكورة بالفقرات آ وجـ أيضاً، ليس هذا وحسب، بل تتشابه هذه التماثيل، في أن الحكام، يجلسون على كراسي عادية بسيطة، ليست لها مساند خلفية، وجانبية، باستثناء التمثال المذكور في الفقرة ب، والتمثال المذكور في الفقرة ث. وجميعهم يجلسون منتصبين خاشعين بوقار وهيبة.

من المؤكد، لو أن تمثال العمارنة، المصنوع من الحجر الكلسي، لم يتأثر بعوامل الحت والتفتت، أن رداءه كان يشابه أردية القطع التي أخذتها للمقارنة، مع فارق بسيط، يتمثل في وفرة الزركشة والزخرفة على ثياب تماثيل إبلا وكلف لاند، وقلتها في دمية العمارنة.

هذا من حيث المظهر الخارجي، أما من حيث الأسلوب، فانه يقرب بينها أيضاً. فالفنانون النحاتون، الذين أنجزوا هذه التماثيل، تقيدوا أيضاً بالشكل الهندسي المنتظم. فمثلوا الصدر والظهر والجانبين، كل مستقل عن الآخر، لكن بدرجات متفاوتة، من حيث أن مواضع التقاء الأعضاء والصفحات جاءت كحرف حاد كما في التمثال المذكور بالفقرة ث، أو محدب، كما في بقية الأعمال. ومع ذلك، يجب أن لا نحسبها نسخاً لموديل واحد، هي أعمال فنية متجانسة، على نمط واحد، ووفق نموذج واحد، تمايزت عن بعضها حين صنعها في أماكن بعيدة عن بعضها. فمرد الاختلاف في الجزيئات مكاني، وليس في الأسلوب. أي أن لكل فنان بواعثه النظرية والعملية من أسلوب العصر.

إذن التشابه بين هذه التماثيل، التي أتت من بلاد الشام الشمالية، ودمية العمارنة التي هي من هناك أيضاً، حقيقة قائمة، يراها الدارس والناقد. وإذا رجعنا الى الوراء قليلاً، الى العصر الأكدي، ندرك أن تمثال الحاكم الأكدي خاصة، والفن الأكدي عامة، ليس امتداداً لفنون العصور التي سبقته، وندرك أيضا أنه لا يشكل القاعدة التي اتبعها فنانوا العصورالتي تلته. إذن هذه الاستقلالية المتواترة، نراها أيضاً، في فنون الممالك الكنعانية الأمورية، وتعبر عنها المنحوتات المذكورة أعلاه أصدق تعبير.

والابتعاد، والاستقلال عن القواعد المألوفة، والنزوع الى إبداع جديد متميز عن المعتاد، يأتي أعمالاً تتصف بالبدائية. وأقصد بالبدائية هنا، العمل الخام البسيط العادي، الذي يفتقر إلى التفاصيل، لا تزويق فيه، ولا صناعة. وهذه الصفة نراها في دمية العمارنة، التي نعتبرها عملاً نحتياً أولياً، أي من أول الأعمال التي أنتجها فنانوا الممالك الكنعانية الأمورية الأولى في بلاد الشام، والانطلاقة في أسلوب تمثيل الحاكم، التي سار على منوالها فنانو إبلا ومن بعدهم فنانو اللالخ، وحاصور في فلسطين[١٠].

إن جميع هذه المنحوتات الفنية الهامة المتميزة تجسد التحول العميق عن الاتجاهات الفنية السابقة. وتوضح سمة هذا العصر، فما هو زمن نشوء دمية العمارنة؟

ولكي نجيب عن هذا السؤال، نفتش عن الحد الأعلى، والحد الأدنى، لنشوء التماثيل التي اخترناها للمقارنة. فنجد أن الحد الأعلى يقف عند عام ٢١٥٠ والحد الأدنى عند عام ١٧٥٠ق.م. أي أن هذه التماثيل نشأت في المدة الممتدة بين ٢١٥٠ ـ ١٧٥٠ق.م وهي المدة التي نشأت فيها دمية العمارنة. وبما أننا اعتبرنا دمية العمارنة، من الأعمال الأولية الفنية، لممالك الكنعانيين ـ الأموريين، فهي تنسب إذن الى الفترة الزمنية الأولى من هذه المدة التي تجاوزت الثلاثة قرون، أي الى القرن الواحد والعشرين (٢١٠٠ق.م).

وأخيراً، لعله من المفيد أن ألخص ما ذكرته أعلاه، في هذه الجمل. أن دمية العمارنة، لا تشترك مع تماثيل العباد من منطقة الديالي بالعراق، وماري وتل خويرة في سورية، بملامح وخصائص، تدفعنا الى تصنيفها في هذه المجموعة. فهي أقرب الى تماثيل الحكام الكنعانين التي أوردتها أعلاه، والقرابة بينها شبه أصيلة، تجعلنا ننسبها الى هذه المجموعة. بل نضعها على رأس الأعمال الفنية التي أنتجتها تلك الممالك، بسبب بساطتها، وابتعاد الفنان عن تمثيل زركشة الثياب وتفاعلها مع الجسم تحتها.

الحواشي

(١) معرض الآثار السوري الأوربي، مرآة التعاون، دمشق ١٩٩٦.

(٢) المصدر السابق ص٧٠.

(٣) علي ابو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، دمشق ١٩٨٨، الصور ٦٩-٧٢.

(٤) المصدر المذكور في رقم /١/ ص٧٠.

(٥) علي أبو عساف، فنون الممالك القديمة في سورية، دمشق ١٩٩٣، الصور ٢٩ ـ ٣٠.

(٦) L'Eufrate e il tempo. Le civiltà del medio e della Gezira Siriana. Electa Milano (1993) No.222, 223, 233, 242, 247.

(٧) المصدر السابق. راجع وصف القطع حسب الأرقام.

(٨) S. Mazzoni, Studi Eblaiti III 5-8 (1980) Fig. 19a-b

(٩) Ebla Alle orgini della civiltà urbana. Electa Milano (1995) P.189, 408, 411. S.Mazzoni

(١٠) المصدر السابق ص ٧٩ ـ ٩٨ ـ ٩٥ ـ ٩٨.

نقش كتابي من قلعة حلب

حميدو حمادة

المديرية العامة للآثار والمتاحف

١ ـ دراسة النقش من الناحية الشكلية

آ ـ نوع الحجر، مقاييس الحجر، وظيفة الحجر المنقوش، مصدر الحجر.

ب ـ نمط الخط المسماري المنقوش على هذا الحجر، هل هو أكادي قديم؟ أم بابلي؟ مع مقارنة للنقوش المعاصرة ونقش إدريمي ـ نقش يخدون ليم.

ج ـ محاولة لتأريخ هذا النقش اعتماداً على الناحية الشكلية.

٢ ـ دراسة النص من النواحي التالية:

آ ـ دراسة اللغة:

المفردات

القواعد

الأسلوب

ب ـ هل هو نقش ملكي أم نص من نصوص اللغات؟

٣ ـ التعليق على الآلهة التي ذكرت في النص وخاصة الآلهة التالية:

الإله داغان، الإلهة ايشخارا والإله نيرجال

٤ ـ النتيجة

هل هذا النقش من مدينة حلب أم أنه من مدينة أخرى استخدم في أبنية قلعة حلب.

❁ ❁ ❁

قامت بلدية حلب بإجراء سبر في قلعة حلب بإشراف بلوا دي روترو عام ١٩٣٢، وقد تم الكشف في حينه عن جدار ضخم تحت المنشآت الإسلامية التي تغطي معظم سطح القلعة وتكوّن معالمها الحالية، وبما أن هذه الحجارة مشابهة للحجارة المستخدمة في المنشآت الحثية، فقد اعتقد المنقب وجود معبد حثي في هذا الموقع، الذي لم يتابع التنقيب فيه لأسباب عديدة، أهمها سماكة الطبقات المتأخرة فوقه وصعوبة الكشف الأفقي بسبب مجاورة المسجد للموقع الذي يقع على يمين الطريق مقابل المسجد الصغير في القلعة.

وقد تم نشر معلومات أولية في مجلة عاديات حلب عام ١٩٣٣ عن هذا السبر، وتم نشر صورة فوتوغرافية لجزء من حجر بازلتي منقوش بخط مسماري، لكن السيد دي روترو لم يقدم أي معلومات عن مضمون هذا النقش.

وحينما تسلمت المجموعة الشرقية في متحف حلب، وجدت بأن هذا النقش غير منشور وهو يحمل الرقم ٧٧٢٥. أما قياساته فهي: ٢٠سم × ٢٠سم، وتتراوح سماكته ما بين ١٦-١٢سم وأعتقد بأنه جزء من منصة تقدمات.

وبما أن هذا النقش، لا يزال النقش الوحيد الذي تم العثور عليه في مدينة حلب فإن التعرف على مضمونه ورموزه الكتابية يعد أمراً في غاية الأهمية بالنسبة لتأريخ القلعة وتأريخ حلب.

وصف النقش وتأريخه:

دون النقش على حجر بازلتي مصقول ومربع وبأسلوب مشابه للنقوش التي تعود إلى العصر البابلي القديم، مما يجعلنا نعيده إلى عصر يمحاض أي إلى القرن الثامن عشر ق.م حيث حكمت حلب من قبل سلالة عمورية قوية بدأت بياريم ليم حليف ماري وممثل أكبر القوى في ذلك العصر.

النقش ناقص لم يبق منه إلا الجزء الأخير الذي يحتوي على اللعنة، ولذا فإننا لا يمكن معرفة محتوى النص، أو اسم الشخص الذي قدمه، أو العمل الذي قام به، ولو قارناه بالنقوش المعروفة مثل نقش يخدون ليم ملك مدينة ماري، أو نقش إدريمي ملك مدينة آلالاخ لوجدناه مشابهاً من حيث الشكل ولعرفنا أن شخصاً ما، ملك أو أمير قام بعمل ما، وأراد أن يخلد عمله بنص وأن كل من يتعرض لهذا النقش التذكاري بالأذى فإن الآلهة سوف تعاقبه وتلعنه، وكثيراً ما نجد في النقوش الملكية طلباً من صاحب النقش بأن يعاد نقشه إلى مكانه وبأن من يمحي اسم المقدم ويضع اسمه بدلاً عنه فإنه يضيع حقيقة يجب أن تعرفها الأجيال.

وفيما يلي الترجمة الحرفية لما تبقى من هذا النقش:

١- ليت الإله داغان أبي الآلهة يلعنه
٢- ليت الإله نيرغال يلعنه
٣- ليت الإله سين سيد الأجيال يقطع نسله
٤- واسمه
٥- ليت الإلهة ايشخارا...
٦- ليت الإله شمش يأخذ البصر من عينيه
٧- ليتهم يقطعون؟
٨- يتركون السموات
٩- يتركون الحقول
١٠- والعرَّافون و....
١١- ....

النص يبدأ بذكر الإله داغان والذي نجده هنا أباً للآلهة جميعها؟!

وهو مشابه في هذه الوظيفة للإله الكنعاني إيل، والد الإله بعل وعناه وموت وزوج عشيرة.

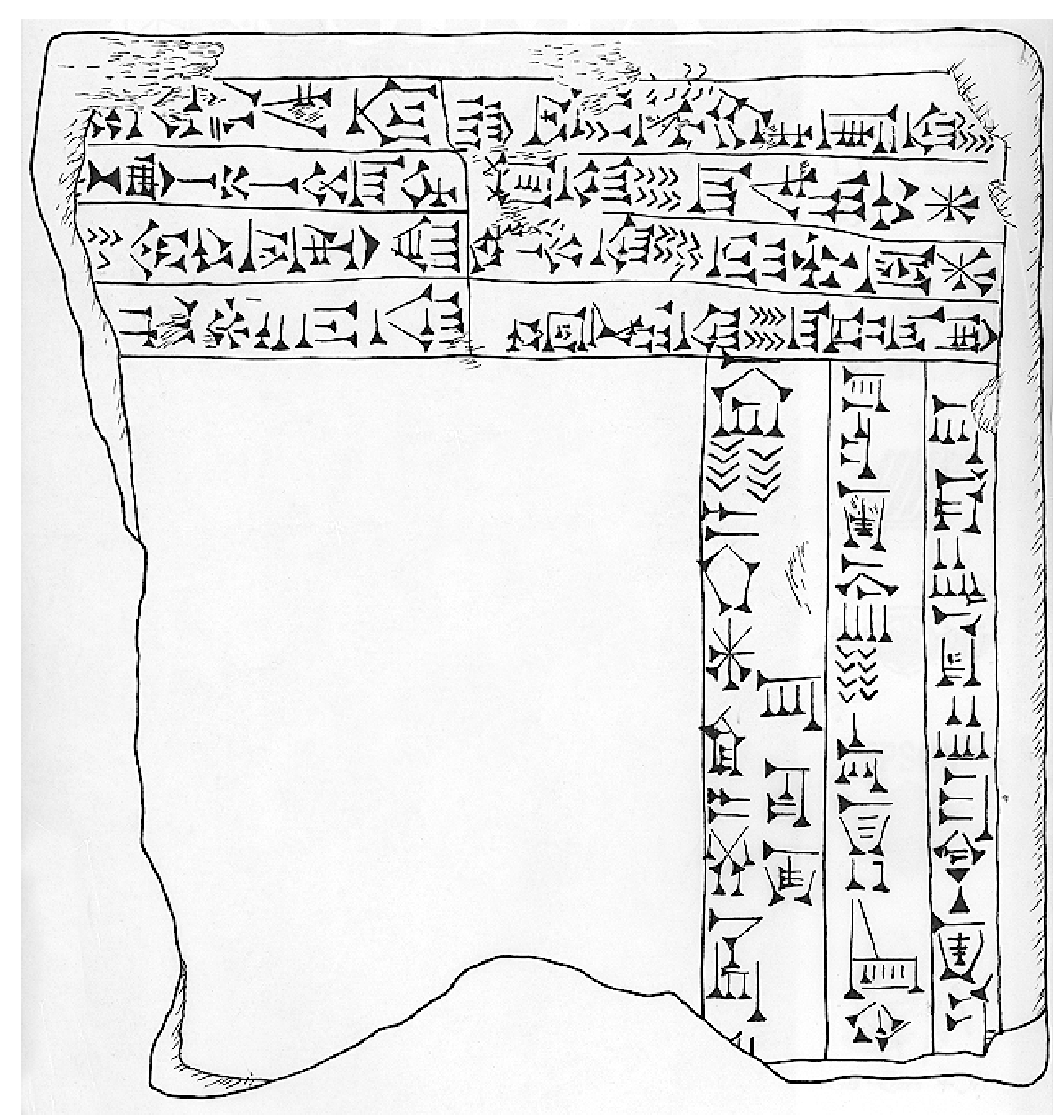
يبدو أن داغان كان يحتل مركز الصدارة في مناطق الفرات في ماري وتوتول وإيمار فهو الأب لجميع الآلهة وهو والد الإله هدد الذي كانت حلب أحد أهم مراكز عبادته.

أما نيرغال فهو إله العالم السفلي ومسبب الأوبئة والأمراض لذا فإن لعنته تمس من يطال النقش بأعظم الضرر.

أما سين الإله السامي المعروف لدى الأكاديين فهو الإله القمر الذي يأتي ذكره مع شمش وعشتار والذي كانت حران أهم مراكز عبادته، فإنه يبدو في هذا النص بأنه سيد الأجيال والنسل وهو المسؤول عن الكثرة، ولذا فإن من يتعرض للنقش بالأذى أو يخفيه فإن ذريته سوف تنقطع ويفقد قوته وهذا ما يؤكد عليه صاحب النقش في السطر الرابع:

« شومشو لِيْلقوط » Šumšu lilqut

كما يرد اسم الإلهة ايشخارا ولكن في سياق مكسور



الصورة ١

أما الإله شمش فإنه بأشعته المحرقة فإنه سيعمي عيون كل من يتعرض للنقش بالأذى

هؤلاء الآلهة الخمس ليتهم يقطعون . . . .

وليت السموات . . . .

تجعل . . . الحقول

الآلهة

إن خاتمة اللعنة تكاد تنتهي ولكن الشطر الحادي عشر يشير إلى بداية جديدة ربما تشير إليها عبارة شانيتام التي تعني الاستئناف وتقابل الكلمة العربية ثانية (أي أما من جهة ثانية . . .)

ملاحظات على الأسلوب والقواعد

تبدأ الجمل بذكر اسم الإله وتنتهي بالفعل الذي يسبق بالتمني الذي تدل عليه اللام المكسورة li

الفعل هو wazaru = وزارو = لَعن أما الضمير المتصل العائد على الشخص الثالث الغائب فهو u.

(lisur·u) . إن عبارة البَدْل Abi = أبي جاءَت بصيغة الجر على أنها مضاف .

إن اسم الإله سين جاءَت بصيغته الكلاسيكية -EN ZU وهي من صيغ الألف الثالث والثاني ق.م .

إن EN تعد السيد وهي تحتوي على قلب مكان -ZU EN تعني سين الإله القمر .

التكرار في كلمة IBILA - IBILA يدل على الجمع وهو صيغة سومرية متبوعة بالضمير الأكادي ـ u· ـ

كما وردت علامة الجمع في السطر الأول بأسلوب سومري : ḪI-IA بعد اسم داغان .

الأسلوب بشكل عام كلاسيكي وليس فيه خروج عن أسلوب النقوش الملكية مما يشير إلى أنه جزء من نقش ملكي علينا أن نعثر على بقيته في قلعة حلب .

ولكن السؤال المهم : هل هذا النقش من حلب بالذات أم أن ملكاً آخر من الفرات قد جلبه ووضعه في هذا المكان ؟!

المركز التجاري (كاروم Karum)
في الألف الثاني ق.م

فاروق اسماعيل
جامعة حلب

يعتمد البحث على استقراء الشواهد النصية المتوافرة عن المركز التجاري (كاروم) وذلك لتوضيح نشاطاته الداخلية والخارجية ودوره في الحياة الإجتماعية وطبيعة صلته بالقصر الملكي، مع الإشارة إلى أبرز نماذجه في المنطقة .

يستخلص البحث ملامح وظيفية متعددة للمركز التجاري؛ فقد كان في مطلع الألف الثاني ق .م مجرد منطقة مستقلة محددة على ضفاف الأنهار، مارس فيها التجار تجارتهم التبادلية . ثم غدا في أواخر القرن التاسع عشر وخلال الثامن عشر ق .م سوقاً متكاملة انبثقت عنها هيئة عليا للحكم في مسائل الخلاف التجارية .

بعد ذلك اتسعت وظائفه وتجاوزت الشؤون التجارية إلى مسائل قضائية مدنية وإدارية .

فقد المركز مكانته المتميزة ـ بعد العهد البابلي القديم، لأن التجارة صارت من مهام القصر الملكي يوجهها حسب مصالحه السياسية والعسكرية، وأضحى التجار « تجار الملك » .



كان للتجارة دور بارز في حياة الإنسان في منطقة الشرق الأدنى منذ بداية الإستيطان فيها . وقد بدأ الإنسان التفكير في ممارستها تعبيراً عن حاجته إلى مواد غير متوافرة في محيطه، إلى جانب وجود فائض لديه في إنتاج مواد أخرى . وهكذا بدأت التجارة التبادلية بأشكال بسيطة .

دفعت عمليات التبادل التجاري إلى نشوء علاقات إنسانية أسهمت في تحقيق التواصل والتفاعل البشريين وإلى تطور العلاقات الاجتماعية بين المدن، مما ساعد الإنسان على الخروج من عوالمه الصغيرة المحددة إلى آفاق واسعة رحبة تجاوزت الحدود الجغرافية والسياسية، وخلقت صلات مادية تجارية وروحية ثقافية بين سكان المنطقة، واختصرت بذلك المسافات بين أجزائها (إيران، بلاد الرافدين، الأناضول، سورية) .

ازداد النشاط التجاري مع تطور الإنتاج الزراعي والحرفي، وتجاوز الأطر المحلية، وتحرر من سيطرة المعبد الديني وكذلك القصر

الملكي في بعض المناطق، مما أدى إلى ظهور تجارة خارجية نشطة، دفعت ممارسيها إلى التفكيرفي إنشاء مراكز تجارية أساسية ثابتة ـ وأحياناً مسورة على أطراف المدن ولاسيما النهرية.

عرفت تلك المراكز التجارية في النصوص السومرية باسم (كار)، وفي الأكدية باسم (كاروم)، وهي صيغة مشتقة من الأصل السومري. كما ظهرت في الأكدية تسميات أخرى ذات دلالة مقاربة مثل:

مخيروم Maḫīrum وتدل على سوق تجارية محلية داخل المدينة، وتؤمن حاجات السكان اليومية.

سوقوم Sūqum وكانت تدل على سوق غير ثابتة محدودة الحجم مقامة في شارع ضيق، يجد فيها الإنسان بعض حاجاته. ليس من الضروري بالطبع اجتماع النماذج الثلاثة في مدينة واحدة، وأعتقد أننا يمكن أن نميز مشابهات لها في مجتمعاتنا المعاصرة (سوق الهال المركزي، الأسواق الفرعية، تجمعات بضائع معروضة على رصيف شارع).

ستقتصر دراستنا على استقراء سريع للشواهد النصية المتوافرة عن المركز التجاري (كاروم) وهي في معظمها من الألف الثاني ق.م، وذلك لاستخلاص معلومات تتعلق بطبيعة نشاطاته وحركته الداخلية ومهامه ووظائفه وعلاقاته مع القصر الملكي مركز السلطة والإدارة. وسنلاحظ تطوراً وتبدلاً في ذلك كله من عهد إلى آخر.

في بداية الألف الثاني ق.م استمر الدور المتميز لمدينة آشور كمركز ديني وتجاري أساسي في شمالي بلاد الرافدين. واستطاعت أسر منها أن توسع تجارتها الخارجية وأن تسيطر على أشهر المراكز التجارية في بلاد الأناضول (كاروم كانيش، كول تبه حالياً)، وذلك في بداية القرن التاسع عشر ق.م[١]، وأن تنظمه ليغدو سوقاً تجارية أساسية في المنطقة.

اكتشف في الطبقة الثانية من الموقع أكثر من عشرة آلاف رقيم مسماري تشكل أرشيفات مستقلة بأسماء أشخاص يزيد عددهم على العشرين، وتعود أغلبها إلى الفترة الواقعة بين حوالي (١٨٨٠ـ ١٨٢٠) ق.م، وبعضها إلى فترة لاحقة بقليل (١٨٠٠ـ ١٧٤٠) ق.م. وهي تصور نشاطاً مكثفاً للقوافل التجارية بين آشور وكانيش عبر الجزيرة السورية وسهول جبال طوروس؛ كما تروي لنا تفاصيل عن الحياة التجارية الداخلية.

كانت القوافل التجارية تنقل من آشور إلى كاركانيش المنسوجات والقصدير بشكل خاص ـ ولعل القصدير كان في الأصل قادماً من مناطق شرقية أبعد (السهل الإيراني وأفغانستان) إلى آشور ـ وفي العودة تعود محملة بكميات من الفضة والذهب إلى آشور.

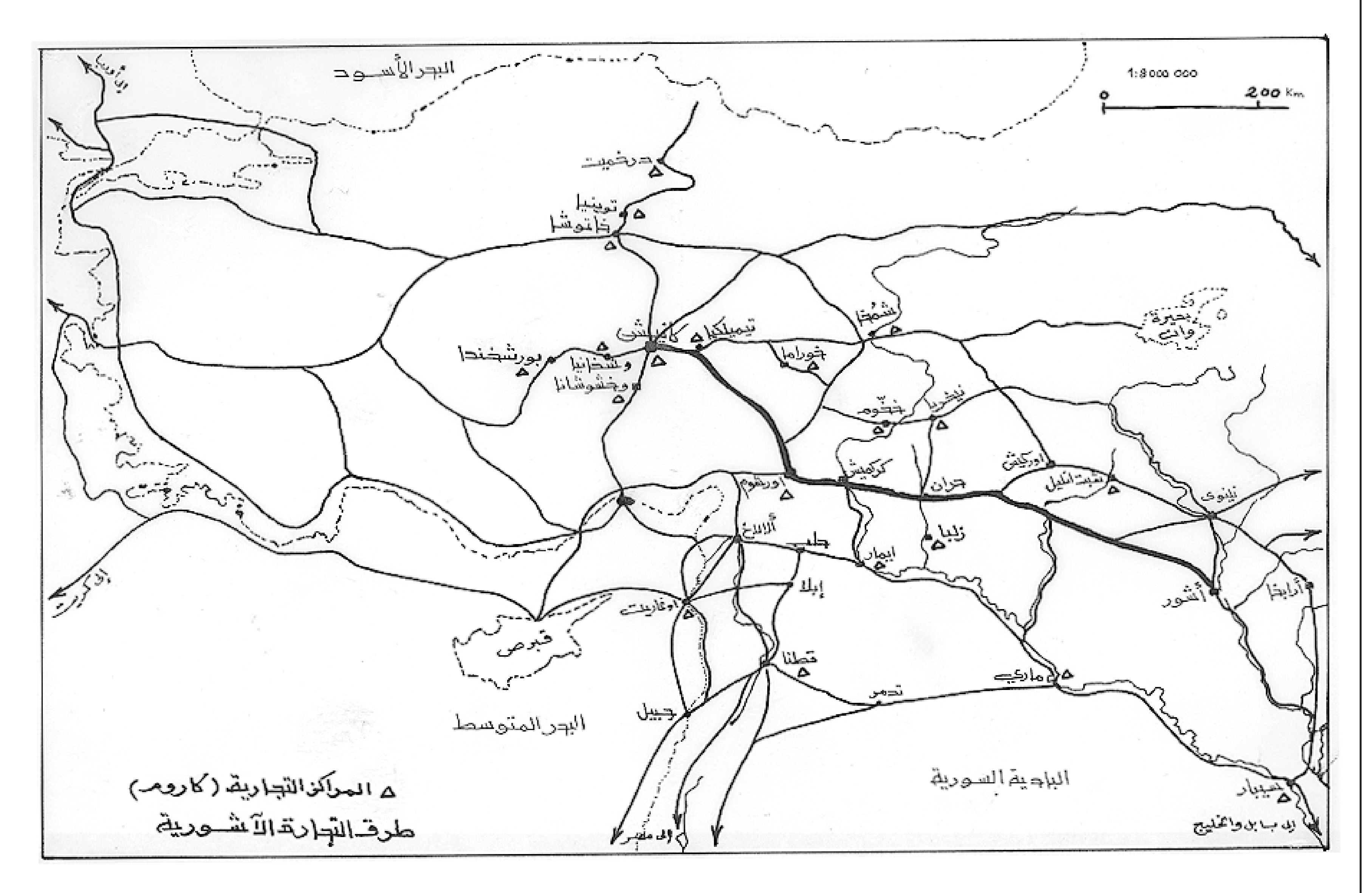
لقد بلغت الطريق التي سلكتها تلك القوافل حوالي ٨٠٠ كم. وكانت تخترق منطقة سنجار فالجزيرة السورية حيث تساير في جزء منها ضفاف الخابور ثم تنعطف غرباً نحو حران أو زلبا على البليخ فكركميش على الفرات ثم أور ـ شوم، وبعدها تسير جهة الشمال الغربي حتى كانيش. وكانت القوافل تستخدم الحمير في نقل البضائع.

لقد أدى نمو الفعاليات التجارية وتنوعها في كاروم إلى ظهور هيئة إدارية تنظيمية فيه تشرف على شؤونه الداخلية، وتحد من تحول التنافس التجاري إلى نزاعات وخصومات. وكانت هذه الهيئة تعقد الاجتماعات للتباحث، وتصدر القرارات، وتتدخل في مسائل تحديد أسعار البضائع، ولها خاتمها الرسمي Kunuk kārim فكانت بذلك شبيهة بـ « الدائرة النقابية » أو « غرفة التجارة ». وثمة نصوص كثيرة تعالج مسائل خلافات تبدأ بجملة: (لقد قرر كاروم كانيش، صغاره وكباره ـ أي بالإجماع ـ مايلي:). ويبدو أن قرارات الهيئة كانت نافذة، وأن دورها القضائي ـ نظراً لأهميته ـ تجاوز المجالات التجارية إلى المدنية الخاصة، وصار الناس يقصدونها لحل خلافاتهم المختلفة. ومن نماذج ذلك نذكر نصاً يعرض خلافاً بين مربية وزوجين، ثم نقرأ نص القرار: [٢]

لقد قرر كاروم كانيش صغاره وكباره مايلي:

لا يحق لـ « باديدا » ـ المربية ـ أن تطالب « أديمات » ـ الزوجة ـ بنفقات تربيتها، وعليها أن تعيد إلى « شو بيلوم » ـ الزوج ـ ستة شقلات من الفضة (أي حوالي ٥٠ غ).

كان كاروم كانيش مركزاً تجارياً متميزاً، ولكن كان هنالك في منطقة الأناضول تسعة أخرى في القرن التاسع عشر ق.م، وعلى الأقل أربعة في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م[٣]، من أشهرها مراكز المدن: زلبا (حمام التركمان)، أور ـ شوم، خخوم، نيخريا، خاتوشا (بوغاز كوي) بوروش خندا وغيرها.



البحر الأسود
1:8000 000
0
200 Km
دُرخميت
تومينا
خاتوشا
كانيش
تيميلكيا
بورشخندا
وشخانيا
وخشوشانا
شَمخا
خوراما
بحيرة وان
ختوم
نيخريا
كركميش
أورشوم
حران
أوركيش
نينوى
آشور
أرابخا
ألالاخ
حلب
إيمار
زلبا
إبلا
أوغاريت
قبرص
قطنا
تدمر
ماري
جبيل
البحر المتوسط
البادية السورية
سيبار
إلى مصر
▵ المراكز التجارية (كاروم)
طرق التجارة الآشورية

كذلك وجدت في بلاد الأناضول مراكز تجارية صغيرة قامت بدور مشابه لـ(كاروم) تجارياً وقضائياً عرفت باسم وبرتم Wabartum[٤]، وصيغته مؤنثة ذات دلالة مكانية مشتقة من الاسم وبرم Wabrum أي: غريب المكان، المقيم الغريب. وكان مصطلح بيت وبري Bīt wabré يطلق على المنزل أو الخان الذي يقيم فيه رجال القوافل لزمن قصير[٥]. أما في الوثائق البابلية القديمة التي وصلتنا من مواقع عدة في بلاد الرافدين فنلقى غزارة في الشواهد النصية التي تبين لنا تنوعاً في دلالات (كاروم) ووظائفه، وهي تتمايز قليلاً بين موقع وآخر.

يعد من أقدمها نصان من القرن التاسع عشر ق.م وصلنا أحدهما من موقع أشجالي (نيربتم القديمة الواقعة ضمن مملكة أشنونا في منطقة حوض ديالى)، ويعرض علينا قرار (كاروم) لفض نزاع بين تاجرين، ثم تذكر في نهايته مجموعة شهود من بينهم كار مدينة نيربتم[٦].

واكتشف الثاني في لارسا (تل السنكرة)، وفيه يعرض تاجر ـ بتوجيه من الملك ـ دعوى أمام هيئة كار المدينة تتعلق بمشكلة إرث بينه وبين ابن عم له[٧].

أما شواهد القرن الثامن عشر ق.م التي وصلتنا من مملكة بابل وجنوبي بلاد الرافدين فتعكس ازدياد دور كاروم كهيئة قضائية تعرض عليها أيضاً مسائل مدنية لغير التجار بشكل مباشر أو بتوجيه من الإدارة الملكية. وتبين موازاتها في هذا الدور للقضاء المدني أو الديني.

ومن الشواهد النصية على ذلك أذكر مايلي[٨]:

- دعوى بين رجلين في سيبار عالجها في البداية القضاة في معبد الإله شمش، ثم أحيلت إلى مدير المنطقة وهيئة المركز التجاري (كاروم) في المدينة.
- دعوى لأربعة أخوة على عمهم حول حقل بيع له سابقاً. عرضت أمام مدير المنطقة و(كاروم) مدينة سيبار.
- دعوى لأب وابنه على كاهنة في معبد الإله شمش حول أرض سكنية. أقيمت الدعوى في المعبد، وعرضت على مدير المنطقة والقضاة و(كاروم) مدينة سيبار
- دعوى كاهنة وأخيها وأمها على كاهنة أخرى في معبد الإله شمش. تعرض الدعوى ـ بتوجيه من الملك ـ في بوابة الإله شمش أمام القضاة و(كاروم) مدينة سيبار.
- دعوى رجل على أرملة مدينه أمام أحد الوجهاء و(كاروم) مدينة رخابم في مملكة لارسا.
- دعوى موضوعها خلاف بين تجار ماري وتجار سيبار. ونظراً لأهمية الأمر وطابعه الخارجي تعقد محكمة خاصة مؤلفة من هيئتين تجاريتين (كاروم بابل، كاروم ماري) للبت في الموضوع.
- دعوى رجل على ابنة مطلقته حول أَمَة، عرضت على مدير المنطقة و(كاروم) سيبار.
- دعوى أرمل على أبناء أخ زوجته المتوفية، عرضت على (كاروم) أور ولارسا وسكان الحي ومختاره وستة قضاة من لارسا.

يلاحظ في هذه النصوص جميعاً علو شأن المركز التجاري (كاروم) في المجال القضائي. وهي محررة بعفوية وخالية من مصطلحات قانونية دقيقة. ويلف الغموض بعضاً منها ولا سيما عند محاولة معرفة فيما إذا كان أحد طرفيها من العاملين في التجارة؟.

في نصوص أخرى من مملكة بابل[٩] يلاحظ أن للمركز التجاري طابع التنظيم المحلي العام الذي يؤدي دور الوسيط بين القصر الملكي منتجاً والشعب مستهلكاً. وأنه ـ ممثلاً بهيئته الإدارية ـ كان يخدم القصر، وأحياناً المعبد، في تصريف المنتجات الفائضة في مراكز أخرى داخل المملكة أو خارجها (مثل مراكز لارسا، لجش، كوتلاّ)، وكذلك في تأمين احتياجاته من المراكز الأخرى القريبة.

ويمكن أن نضيف ضمن هذا السياق الوظيفي شواهد وردت في الأرشيف الإداري لمدينة شخْنا ـ شُبَت إنليل (تل ليلان). فثمة نص يذكر ضمن النفقات الخاصة بشراء الصوف والبذار والعلف مدفوعات إلى مراكز تجارية (كاروم) لمدن قريبة منها هي شونا (ربما تل الحميدي أو تل محمد كبير؟)، كخت (تل بري) وأمورَسَكّوم القريبة منها[١٠].

ويوثق نص آخر إنفاق القصر لـ٣٥ شقلاً من الفضة (أي حوالي ٢٩٢غ) لشراء أربع قلادات مغزلية الشكل مرصعة بحجر نفيس. وقد قام بهذه المهمة شخص وصف بمراقب المراكز التجارية (كاروم).

ويؤكد وجود كاروم هام في تل ليلان العثور على نص معاهدة بين حاكمها تل أبنو ومدينة آشور[١٢]. وقد ورد فيها ذكر (كاروم) سبع مرات، وفيها يقسم الطرفان المتعاهدان أمام أشهر آلهة البلاد على احترام الشؤون المتبادلة ورعايتها. وتدفع المعطيات الطبوغرافية والأثرية إلى اقتراح وقوع منطقة المركز التجاري في الجهة الجنوبية الغربية من مركز التل[١٣] ونلحظ في نصوص عدة من مملكة بابل تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر والقرن السابع عشر ق.م أن الطابع الإداري للمركز التجاري تجاوز حدود الوساطة إلى الإسهام في تنظيم شؤون المدينة والبلاد، فقد كان يمثل القصر في مهام رسمية كاستلام البضائع أو تسليمها، وذلك بالاشتراك مع القضاة المدنيين. كما كان يشارك في صياغة الأوامر الملكية المتعلقة بالشؤون التجارية وغيرها كتكليف عمال بأعمال الحفر والإعمار وطلب القبض على عبيد هاربين وغيرها[١٤].

وقبل أن نتجاوز نصوص العهد البابلي القديم أشير إلى أنه لمن المستغرب حقاً عدم توافر شواهد نصية كثيرة عن (كاروم) في وثائق مملكة ماري، رغم وجود كاروم لها في مدينة ميشلان القريبة منها كما ذكر نص سيبار الذي أشرنا إليه. وهناك إشارة إليه في نص من ماري، نقرأ فيه قائمة بأسماء سبعة تجار وآخرين، ويوصفون جميعاً في نهاية النص بـ« رجال كاروم الواقع على ضفة النهر LU.ME∞kārum ša āḫ nārim « أي الفرات »[١٥].

وفي قطنا (تل المشرفة) كان هناك (كاروم) ذو هيئة قضائية. تخبرنا بذلك رسالة من ماري مرسلة من صِدْقُم لَناسي والي كركميش إلى الملك زيمري ليم[١٦].

تعرض الرسالة حالة خلاف حول دين قديم. يطالب نبي سين من كركميش بدين قديم لأبيه على شخص متوف على الأرجح. ويطلب أن يعيده له ابن أخ له مقيم في قطنا. يرسل والي كركميش معه رسالة إلى حاكم قطنا وهيئة المركز التجاري فيها لحل مشكلته. وهناك يطالب ابن أخ المدين بتسديده أو أن يقسم بأنه لايعرف شيئاً عن حكاية الدين ولم يسمع به، فيقسم، ولكن الدائن يبقى غير راض، ويعود إلى كركميش لضرورات عمله.

في النصوص البابلية والآشورية الوسيطة (النصف الثاني من الألف الثاني ق.م) تقل الشواهد، وتشح المعلومات عن المركز التجاري، ولاتفيد في معرفة بنيته ووظائفه. إذ تكتفي بذكر كلمة (كاروم) اسماً دالاً على المكان، نحو (كاروم السفلي، من كار إلى كار، مدخل الكار...) ولكننا نلحظ فيها ظاهرة جديدة هي تسمية مواقع جغرافية بأسماء مركبة من كلمة (كار) مضافة إلى اسم إله، نحو: كار شمش، كار إنكي، كار إيا، كار نابيوم. كما أضيفت فيما بعد ـ في الألف الأول ق.م ـ إلى اسم الملك الحاكم، نحو: كار توكولتي نينورتا (الأول)، كار شلمنصر (الثالث)، كار أشور ناصر أبلي (الثاني)، كار سرجون (الثاني)، كار سنحريب، كار أسرحدون[١٧].

ومن الشواهد البابلية الوسيطة النادرة ماورد في نص من ايمار (تل مسكنة) يمكن أن نستخلص منه وجود مركز تجاري وهيئة قضائية مشرفة فيها، حيث يوصف أحد الأشخاص بأنه « الرجل القاضي في الكار awīl šupiṭi kāri »[١٨]

في الوثائق الحثية يلاحظ ضعف النشاط التجاري، وأن التجار كانوا يمارسون أعمالهم لصالح القصر الملكي كموظفين يؤمنون احتياجاته، ولذلك يوصفون بـ« تجار الملك » وقد أطلقت هذه الصفة على تجار مدينة اورا على الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الأناضول والتي كانت ذات علاقات نشطة مع أوغاريت ومركزها التجاري (كاروم) المذكور في نصوص أوغاريت[١٩].

ويعزو هورست كلنغل هذا التحول في بلاد الأناضول إلى تبدل طبيعة المجتمع والنظام السياسي الحاكم. فقد غدا نظاماً عسكرياً ذا طابع ديمقراطي شكلي تجلى في حرص الملك على الموافقة الشعبية الشكلية على خليفته بعد أن يحدده. وقد أدى ذلك إلى خصومة بين الحاكم والطبقة الأرستقراطية المؤهلة لتنشيط التجارة، وكانت النتيجة جموداً في الحركة التجارية ولاسيما الخارجية[٢٠].

نستخلص من مجمل الشواهد النصية أن المركز التجاري (كاروم) خلال الألف الثاني ق.م كان مسرحاً وملتقى للنشاط التجاري ولاسيما الخارجي، يرتبط به التجار لما يحققه لهم من علاقات واسعة وبضائع متنوعة في إطار منظم. ولكن وجدت له وظائف أخرى مثل:

- ضبط العلاقات التجارية وتوجيه التنافس توجيهاً سليماً، وتحديد الأسعار بحيث نشأ فيه مصطلح « سعر السوق kurs ».

- انبثاق هيئة عنه تبت بشكل عادل في موضوعات الخلاف. وقد تجاوزت هذه الهيئة الإطار التجاري إلى المدني العام لعدالة أحكامها وقوتها التنفيذية.
- تحولت هذه الهيئة إلى قوة إدارية منفصلة ذات تأثير مما دفع السلطة الحاكمة إلى التنسيق معها، والاستفادة من دورها سياسياً واقتصادياً تحقيقاً للمنفعة المتبادلة.
- ضعف دورها ووجودها في الفترة الأخيرة، وذلك بسبب هيمنة القصر الملكي على النشاط التجاري وخصومته مع الطبقة الغنية.

وقد ارتبطت هذه التعددية الوظيفية مع التغيرات الاجتماعية والسياسية في المنطقة، ولم تكن موجودة في آنٍ واحد، وإنما كانت وليدة فترات مختلفة.

ويمكن أن نرسم خط تطور دلالي وظيفي زمني واضح لـ (كاروم) على النحو التالي:

مكان مستقل على ضفاف الأنهار لممارسة التجارة.

سوق حقيقية ذو هيئة قضائية دور تجاري إداري قضائي.

مكان للتجارة مرتبط بالملك والقصر. (للتجارة تجار الملك)

وقد ترافق ذلك مع تبدل في نمط التجارة أيضاً، فقد اعتمدت في البداية على توحد جهود فردية أثمرت المراكز التجارية المنظمة التي نافست القصر الملكي تجارياً، بل تفوقت عليه دون صراع، وامتلكت زمام الحياة التجارية، وأضحى لها دور اجتماعي متميز. فأدرك القصر ذلك وسعى إلى تحسين العلاقات معها تحقيقاً للمنفعة المتبادلة، وللاستفادة من دورها في خنق نقمة طبقات من الشعب.

ولكن المركز غدا بعد القرن السابع عشر ق.م مرتبطاً بشكل واضح مع القصر، فانتهى دوره، وصارت التجارة مراقبة يتحقق القصر من أرباحها، ويأخذ حصة منها، ويوجهها حسب مصالحه السياسية والعسكرية فضعفت، ومع الزمن انفض التجار عن المركز التجاري (كاروم).

وفي الألف الأول ق.م نجد أن أنظار التجار عادت متجهة نحو التجارة الخارجية البعيدة، فقد أسس الفينيقيون مراكز في المناطق البعيدة من حوض البحر المتوسط (قبرص، غرب آسيا الصغرى، سواحل اليونان وإسبانية وشمال أفريقية)، كما وصل التجار الآراميون إلى بلاد إيران وأفغانستان والهند.

الحواشي

(١) يرى عدد من الباحثين أن كاروم كانيش أسسس في عهد سلالة أور الثالثة، خلال عهد الملك أبي سين (حوالي ٢٠٤٠ ـ ٢٠١٦ق.م) من قبل السومريين. وثمة آراء مختلفة حول ذلك وحول تأريخ الطبقات الأثرية المكتشفة في الموقع. عن ذلك راجع:

L.L Orlin: Assyrian colonies in Cappadocia Mouton, The Hague .Paris 1970. pp. 199 - 215

(٢) V. Donbaz: Keilschrifttexte in den Antiken - Museen zu II FAOS Beihefte, Band 2. Stuttgart 1989. Nr.60

(٣) راجع مواقعها وأسماءها على المصور المأخوذ عن:

M.Roaf: Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East.Facts on File. New York, Oxford. 1990. P. 113

(٤) المرجع السابق.

(٥) انظر معجم. W.Von Soden: Allw 1454

(٦) S.Greengus: Old Babylonian tabletes from Ishchali and vicinity. 1979. Nr. 29 Studies in Ishchali Documents. BM 19, Malibu 1986. Nr .29 .

(٧) TCL 10. Nr. 34

(٨) عرض كراوس مختصراً لجميع هذه النصوص في دراسته التالية:

Kraus: “Korum“, ein Organ städtischer Selbstverwaltung der altbabylonischen.R.F Zeit. in: A. Finet (Hrsg.) Les pouvoirs Locaux en Mésopotamie et dans les régions adjacentes. Bruxelles 1982. pp. 33-35.

(٩) Ibid. pp 31-30

(١٠) F. Ismail: Altbabylonische Wirtschaftsurkunden aus Tall Leilan (Syrien) iss Uni. Tübingen 1991. Nr. 103

١١- C. Vincente: The 1987 Tell Leilan Tablets dated by the limmu of oabil- Kinu Diss.Yale Uni. 1991. Nr.65

(١٢) .J.Eidem: an Old Assyrian Treaty from Tell Leilan Festschhrift. P. Garelly. Paris 1991. pp. 185 - 207

(١٣) kermans, H. Weiss: Tell Leilan 1987 Operation 3: A preliminary Report on the Lower Town palace AAAS 38/ P. 39. 1989

H. Weiss et al: 1985 Excavation at Tell Leilan (Syria). AJA 529 (1990) 529-581

(١٤) راجع ملخصاً للنصوص المتعلقة بذلك في دراسة كراوس (الحاشية٨) ص ٣٥ـ ٣٨ .

(١٥) ARM 23, 82

(١٦) ARM 26/2, 530

(١٧) CAD,K, 233

(١٨) D. Arnaud: Emar VI.3, Nr 127,2.

(١٩) PRU 4, 119,8

(٢٠) H.Klengel: Kulturgeschichte des alten Vorderasien kademie-Veilag, Berlin 1989. s.240.

دور السلالة الحلبية الأولى في تجارة الشرق وشمال سورية في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م

فيصل عبد الله
جامعة دمشق

لقد اكتملت قائمة السلالة الحلبية بتأكيد نسب ياريم ليم إلى سومو إيبوخ الشخصية الملكية الحلبية التي كانت غامضة لبعض السنين، ومعاصرة للملك الشهير شمش أدو الآشوري، وصارت تؤلف تسعة ملوك تغطي حقبة تقارب من مئتي سنة تدخل في نطاق العهود المسماة زمن السلالة البابلية الأولى وإنها السلالة الحلبية التي حكمت في هذه المدينة التي يمكن أن يقال عنها إنها أقدم مدينة مأهولة على وجه المعمورة .

لقد ورد ذكر حلب للمرة الأول في نصوص ماري وشكر ـ بزر منذ بدايات القرن التاسع عشر ق .م . واستمرت في الورود في النصوص المسمارية في محفوظات ماري وآلالاخ بصورة خاصة ثم في محفوظات مجاورة ومتفرقة في شمال سورية والعراق .

لقد تميز دور حلب في هذه المرحلة بالقوة العسكرية والتجارية على حد سواء، وقد سجلت مئات النصوص الاقتصادية كميات كبيرة من المواد الأولية التي ترسل إلى ملوك حلب وتخزن في مستودعاتهم ويعاد تصديرها باتجاه البحر (بحر إيجه) أو الأناضول .

هذا البحث هو محاولة لتقصي وقائع ونتائج ازدهار حلب زمن سلالتها الأقدم والأولى .

وخاصة المرحلة المعاصرة لملك ماري زمري ليم وحمورابي البابلي القوي الطموح .

وقد اتجه رأي بعض المؤرخين والباحثين إلى أن طريق المواد الأولية تلك يبدأ من الصين وأفغانستان وينتهي في حلب وآلالاخ حيث يتابع إلى بحر إيجه والأناضول . وكان أهم تلك المواد على الإطلاق هو القصدير وكانت حلب مركزاً هاماً لتصدير القمح والنبيذ والزيت .

لقد لاحظ الجغرافي الفرنسي ج. سوفاجيه أهمية مدينة حلب ومنطقتها، متسائلاً عن أسباب غناها الاقتصادي والبشري أكثر من أي مدينة سورية أخرى ... راداً ذلك إلى الموقع والمناخ والتربة، تلك العناصر المميزة التي جعلتها، منذ ظهورها لأول مرة في الوثائق المسمارية في القرن التاسع عشر ق.م، مركزاً متميزاً في حضارة الشرق وتجارته، ونلاحظ أننا منذ أن تعرفنا على تاريخها المبكر، وإذا بنفوذها التجاري والسياسي يصل إلى أعالي الفرات وشرقه حتى بابل وعيلام وإلى ماوراء ذلك من حدود.

لقد أُعجب كل من زارها بعمارتها وصناعتها وأكثر ذلك الإعجاب دقة وعلمية هو ماعبر عنه سوفاجيه(١) الآنف الذكر عندما قال «لا اصطنبول، ولا القاهرة ولادمشق ولابغداد ولاأصفهان أكثُر إنشراحاً وشهرة وغنى بالماضي الغابر وذكرياته وعماراته العظيمة، ولاتمثل أيٌ منها ذلك القدر من الإتساع والجمال الخلاب، وذلك الحرص على الإتقان المعماري». هذه إنطباعات سوفاجيه عن حلب الحديثة نسبياً، إلا أن شواهدنا(٢) عن الفترة المبكرة في التاريخ الحلبي تقتصر على الكتابات والرسائل التي لم يعثر عليها في حلب أو يمحاض نفسها، وإنما في ماري ومناطق أخرى شمالاً، إلا أن آلالاخ(٣) ذلك الموقع القريب منها الذي اعتبر إستراحةً ومركزاً ثانياً لحكم ملوك حلب ونوابهم من أبنائهم، قد قدم لنا أمثلة وشواهد هامة على نمط العمارة الحلبية السورية، إضافة إلى أكثر من أربعمائة نص مسماري يقدم معلومات عن الوضع الإقتصادي والتجاري لمنطقة حلب ويمحاض، ومما يذكر بإقتضاب، عن نمط العمارة هذا مالاحظه وولى Sir Wooly المرجع السابق بعد تنقيباته الطويلة، أن التزينات المعمارية لقصر آلالاخ الحلبي، لابد وأنه الأصل الأقدم للتزينات المعمارية للقصر المسييني القديم! وهكذا نرى أن الدروس الحضارية التي تعلمها الإغريق من سواحل سورية تعود لأبعد بكثير من زمن تعلمهم الأبجدية والكتابة عن طريق الأوجاريتيين والصوريين والجبلاويين (الذين دعاهم الإغريق بالفينيقيين). وهذا يعني أن إنتقال الأفكار والتجارة والمواد النفيسة يعود إلى زمن مغرق في القدم، أبعدُ من أن نحدده بظهور السلالة الحلبية أو بدء الكتابة أو أي منعطف آخر.

إن ذكر السلالة الحلبية وترتيبها ومعرفة أصولها أمر يتعلق للوهلة الأولى، بالسيطرة السياسية والبشرية في شمال سورية ووسطها، ولكننا نعلم أن تسعين بالمئة من الوثائق المتعلقة بهذه السلالة هي وثائقٌ تجاريةٌ وإداريةٌ، وأن الملوك الحلبيين كغيرهم من ملوك الشرق القديم كانوا تجاراً كباراً، وهو أمر عادي، فالملوك وأنظمتهم وخبرتهم هي التي كانت محور اقتصاد وتجارة البلاد.

وعلى هذا فإن وثائق تبادل الهدايا والمواد، والوثائق المتعلقة بالزيارات والمراسلات الشخصية لملوك حلب وعائلاتهم هي التي سمحت بالتعرف على تلك السلالة وترتيب سلم زمني مقبول لها حتى وقتنا الحاضر(٤).

ولنعد قليلاً إلى الساحة الجغرافية الاقتصادية والبشرية لحلب وبلاد يمحاض قبل أن نتعرف على ملوكها كل بمفرده ومعرفة شيء عن دوره في تجارة ذلك العصر.

فقد ثبت أن الموقع الجغرافي والاقتصادي لحلب أكثرُ أهمية من ماري وبابل وأشور نفسها(٥). فهي المنطقة التي تمتلك سهول رعي طبيعية وزراعة بعلية، وهي المدينة الوحيدة التي عاصرت معظم المدن القديمة، ولكنها الوحيدة التي ماتزال قائمة ومسكونة حتى وقتنا الحاضر، وهو السبب الذي يمنعنا من الحفر فيها والتعرف على تل المدينة القديم. ولحسن حظنا أن الرافدين والأناضول وبعض المعلومات المصرية قد قدمت المستندات التي شكلت أساساً للتعرف على التاريخ السياسي والاقتصادي الأقدم لمدينة حلب.

ولقد ظهر دور حلب السياسي مباشرة عند أول ظهور للقوى السياسية الأمورية في سورية والعراق القديمين(٦).

إلا أن الاقتصاد والتجارة ظهرا أكثر وضوحاً وقوة، فقد كان الطلب المتزايد على الأخشاب والقصدير والمنتجات الزراعية الأخرى هو مركز التصارع الدولي آنذاك، كما هي الحال بالنسبة للطاقة البترولية اليوم(٧).

وقد مثلت يمحاض وحلب مركزاً اقتصادياً يعتبر الأهم والأعظم في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، إلى جانب وادي الفرات والخابور والبليخ، ومما يجدر ذكره هنا أن نصوص آلالاخ تقدم أسماء أكثر من مئتي تل حولها وعلى مسافة ثلاثين كيلو متر من حلب فقط، أضف إلى ذلك المواقع الكثيرة على مجرى نهر قويق.

كما أن محفوظات مدينة آلالاخ(٨) كشفت عن أسماء مواقع أخرى، قد تعرفنا على كثير منها مما أضاف أهمية

أخرى لمدينة حلب، ذلك أن إبلا على مقربة منها جنوباً (حوالي سبعين كيلو متراً، وهذا يؤيد ذكر المدينة أي إبلا في نصوص آلالاخ في وقت لاحق[٩].

يبدأ تاريخ حلب، ويمحاض بالظهور مترافقاً مع أسماء ملوكها وكان أقدم صاحب ليمحاض يدعى سوموا إيبوخ، تلك الشخصية التي لعبت دوراً أساسياً في بدايات الصراع على النفوذ السياسي والاقتصادي في شمال سورية بين آشوريين وماريين وبابليين[١٠].

١- سومو إيبوخ

لقد اعتبر حتى الآن سومو إيبوخ[١١] مؤسس السلالة الحلبية ووالد ملكها الشهير ياريم ليم، وقد خاض سلسلة من الصراعات ضد يخدون ليم ملك ماري وضد شمشي أدو ملك أشور من موقعه في شوبات أنليل / تل ليلان[١٢] في شمال سورية.

وهنالك مجموعة نصوص قدمت لنا معلومات حول هذه الشخصية وهي كتابات يخدون ليم التأسيسية والرسالتان الأولى والثانية من المجلد الأول لمحفوظات ماري، وبعض الإشارات الأخرى (MATI 7 P.55).

إن المعلومات المقدمة من تلك الوثائق تعكس صورة إقتصادية وسياسية هامة لسومو إيبوخ. إذ يبدو أن نفوذه قد إمتد إلى شرق الفرات في صراعه مع الأشوريين، ولكن لانملك مايكفي من الوثائق المتعلقة بالواقع الإقتصادي والتجاري زمن سومو إيبوخ، وبعد موته، فإن عرش حلب يؤول إلى ابنة ياريم ليم، حيث تغدو هذ المدينة عاصمة يمحاض في نصوص ماري، وتظهر لنا أهميتها الإقتصادية من خلال عدد لابأس به من النصوص.

٢- ياريم ليم[١٣]

يذكر ياريم نفسه أن سومو إيبوخ والده (MARI, P.55) إضافة إلى طبعة ختمه التي تؤكد ذلك، ويصعد إلى السلطة في زمن شخصيات كبرى في سورية والعراق من خلال نصوص ماري:

فهو قد ذكر مع حمورابي ملك بابل، وزمري ليم ملك ماري وريم سين ملك لارسا، وإبال بيل Ibal-pi-El II ملك أشنونا. وياشوب يخد Yashub-Yahad ملك دير.

وسين جميل Sin- Gamil ملك دينكتوم وأبلاخاندا ملك كركميش وأمود / ت بيل Amud-pi-El ملك قطنا[١٤].

ويمكن أن نوجز عهد ياريم ليم بمايلي:

فقد أقام علاقات طيبة مع صهره[١٥] زمري ملك ماري. ولكن هذا لم يمنعه من تطبيق سياسة المصلحة التجارية وأكتفي فيما يعرف بأزمة الحبوب بينه وبين هذا الأخير. حيث سيطر على تجارة الحبوب وحاول استخدام ذلك للضغط السياسي على صهره من مركزه التجاري الفراتي إيمار (مسكنة). لقد بدت حلب خلال عهد ياريم ليم وقد امتد نفوذها الاقتصادي والسياسي من قطنا جنوباً حتى كركميش ثم أورشو، و، خشو في الأناضول شمالاً وإلى إكالاتوم شرقاً على مقربة من آشور، أما الغرب فكان قريباً منها وكانت آلالاخ وميناؤها المينا (قرب أنطاكية) نافذة حلب على البحر، كما أن أوچاريت قد شكلت جزءاً هاماً من مساحة نفوذ حلب، وذلك من خلال معلومات خاصة وحديثة حول إتصالات وثيقة بين ياريم وزمري ليم من جهة وأوغاريت وجوارها من جهة أخرى، حيث قاما برحلة إلى تلك المناطق على مايبدو[١٦].

وقد ظهرت يمحاض في عصر ياريم ليم كقوة كبيرة قامت بمساعدة بابل نفسها في وقت من الأوقات، ودار في فلك قوتها عدد من الأمراء والملوك الصغار[١٧] الرافدين والسوريين خاصة بعد زوال دولة شمشي أدو الآشوري، وقد ظهر الطموح الاقتصادي الحلبي آنذاك في أعالي الجزيرة والفرات من خلال مجموعة وثائق هامة. كانت بابل الصاعدة قد ورثت ثقافة وإقتصاد سومر وأكاد ودخلت في عهد ملكها الشهير حمورابي في صراع قادها إلى إحتلال ماري، وربما لم يسعفها الحظ في الوصول إلى حلب القوية.

لقد تميز عهد ياريم ليم بنشاط اقتصادي واجتماعي مميز وقد قدمت لنا محفوظات ماري المجلدات (ARMT XXi; XXII; 1,2; XXIII; XXV) مجموعة نصوص مؤرخة في عهده تلقي الضوء على علاقات نشطة مع ماري

شرقاً ومع أوغاريت غرباً وكانت المواد المسجلة في هذه النصوص، هي: هدايا ذهبية وفضية وبرونزية والمواد التجارية هي مواد زراعية كالحبوب والزيوت والخمور، والمعادن وخاصة القصدير.

وإن أهم السجلات المتعلقة بالمجوهرات هي تلك التي قُدمت إلى شبتو ابنة ياريم ليم عندما طلب يدها ملك ماري زمري ليم، وقد سجلت جميعها في سجلات ملك ماري (ARM XXV) ووصلت إلينا بعد حوالي أربعة آلاف سنة وتألفت هذه التقدمات (ترخاتوم Te-er-ha-at-um) من الذهب والفضة وغير ذلك.

وهناك ذكر لهدية ذهبية وهي خاتم مقدم إلى السيدة نقمي لاناسي Nqini-Lanassi وهي مغنية ياريم ليم الموجودة في أوغاريت، وهذا أحد الدلائل الهامة على خصوصية العلاقة مع هذه المدينة (ARM 25, P. 74). وهناك عدد آخر من النصوص يعكس هذا الواقع.

وهناك نص (ARM 25, 645) يذكر إبريقاً أو مزهرية من جزيرة كريت، وهذا دليل مبكر على الإتصال التجاري مع جزر اليونان القديمة.

ويبدو لنا من خلال نصوص أخرى نشرت مؤخراً[١٨] أن ملك ماري زمري ليم قد قام بأكثر من رحلة إلى بلاد يمحاض ولابد وأنه زار مدينة حلب وأوغاريت استنتاجاً مما ورد من سجلات للهدايا التي وزعت أثناء رحلة بلاط ماري في بلاد الغرب أي يمحاض وأوغاريت.

وقد حرص ياريم ليم على إقامة علاقة اقتصادية وسياسية طيبة مع قطنا Qatna على عكس ما كان الحال عليه في عهد أبيه سومر إيبروخ[١٩].

وهكذا يمكن القول إن حلب قد كان لها علاقات وطيدة مع كل من ماري وبابل، وظهرت هاتان المدينتان مع حلب وكأنها تؤلف حلفاً سياسياً واقتصادية واحداً، وسيبدو هذا الواقع أكثر وضوحاً في عهد خليفة ياريم ليم بعد موته وهو حمورابي الذي يحمل اسم الملك البابلي الشهير ومعاصره، وأقام معه علاقات سياسية واقتصادية هامة.

إننا نستطيع القول إن عهد ياريم قد تميز بتجارة إمتدت ما بين الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط، وفلسطين، وربما الجزيرة العربية وبلاد يمحاض، فقد ورد ذكر مدينة فلسطينية هي حاصور Hasura (Syria 50.P. 105). والتي يعتقد أنها كانت على طريق التجارة مع الجزيرة العربية.

ومما هو معروف أن الألبسة اليمحاضية تديتوم Tadditumm (MU. DU) ذات مواصفات عالية ومرغوبة، وكانت تقدم هدايا من قبل ياريم ليم. (ARM XVIII)، إلى أصدقائه، كما ورد ذكر ألبسة جبلة (جبيل بيبلوس حالياً في لبنان)[٢٠] قدمت هدية من قبل الملك نفسه وفي ذلك إشارة إلى أقدم مملكة لبنانية أمورية وليست فينيقية، وهكذا يعكس لنا عهد يا ريم ليم الوضع البشري والاقتصادي في بلاد حلب ويمحاض في أوج إنتشار المجموعة البشرية الأمورية، حيث إمتد نفوذها في كامل المشرق العربي ووصل نفوذ حضارتها إلى الهضبة الإيرانية.

لقد توفي ياريم ليم في حياة زمري ليم ملك ماري وخلفه إبنه حمورابي الحلبي، سمي حمورابي البابلي، وكان ذلك حوالي منتصف القرن الثامن عشر ق.م، وقد قدمت الهدايا فيما بعد إلى مقامه إحتراماً وتقديراً[٢١].

وقد لاح في الأفق إبان موت هذا العاهل الكبير تحضيرات عسكرية وحربية كبيرة قامت العواصم الثلاث بتدبيرها هي بابل وحلب وماري للدفاع عن جبهة الشرق العيلامية. (R.Bi or 19, P.1695). ونعلم من خلال الهدايا المقدمة من قصر ماري إلى حمورابي ملك يمحاض (ana Hammrapi Shar YamHad) أن هذا الأخير قد خلف أبيه وصعد إلى عرشه.

حمورابي الحلبي:

إن حمورابي بن ياريم ليم هو والد الملك الحلبي التالي أبائيل Abba-El الذي لم نعرفه إلا من خلال وثائق آلالاخ (AT VII 456). فعاصر بذلك زمري ليم خلال مدة حكمه وكذلك سميه ملك بابل، وشهد سقوط مدينة ماري على يد هذا الأخير حتماً. ولانعلم لماذا لم يهرع إلى مساعدة صهره وزوج شقيقته زمري ليم[٢٢]. ولعل ذلك كان مقصوداً في سياسة ذلك الزمن، إذ أن الملك الحلبي الجديد ربما كان يهتم أكثر بمنطقة أعالي الجزيرة والفرات ولايعنيه خوض حرب قد تكون خاسرة مع بابل. فذهبت ماري ضحية هذه السياسة وانتهت على يد حمورابي البابلي.

فلاحظ أن قوة يمحاض وحلب السياسية قد بلغت أوجها وجنى ثمارها حمورابي بن ياريم ليم، وترافق هذا ولاشك بازدهار اقتصادي متميز عبرت عنه نصوص كثيرة[٢٣].

فقد كثر ذكر أسماء الزائرين والرسل وهداياهم في معظم مدن الرافدين وشمال سورية، وكان نصيب حلب في عصر حمورابي هاماً وأساسياً في معارفنا عن التجارة في ذلك الوقت.

فقد أرسل ملك حلب الهدايا وخاصة الثياب الحلبية إلى ماري حيث سجلت في السجلات الملكية، وقد دلت الوثائق على أن ماري كانت محطة تصدير القصدير القادم من عيلام وإيران باتجاه الغرب إلى حلب وكركميش وأوغاريت، ومن جهة أخرى فإن ماري كانت تستورد من بلاد الغرب وخاصة يمحاض الزيوت والخمور والعسل والصوف والأواني. وتُمثل الهدايا المتبادلة بين الأمراء والملوك رموزاً لتوطيد العلاقات السياسية والاقتصادية وهي دليل اليوم على مصادر الثروات ومواد التجارة آنذاك، وكان النبيذ من الهدايا الثمينة التي افتخر بها ملك ماري، وكانت زوجته الحلبية شبتو خبيرة بمذاقه وصنعه، ذلك أن المنطقة التي كانت تعيش فيها هي المنتج الأول للنبيذ في عالم ذلك الزمن (ARM XXIV P. 212)، وقدمت لنا نصوص آلالاخ أمثلة متأخرة عن أسماء أشخاص يمتلكون مخامر للنبيذ (Wiseman A. T. P. 14) وهناك أمثلة أخرى على إنتشار زراعة وصناعة العنب في أعالي الجزيرة والفرات التي كانت مجال صراع للسيطرة بين ماري وحلب، وحيث تمكنت هذه الأخيرة من إحتلال مكان الصدارة في الإنتاج والتصدير الزراعي وقامت بتصنيع مراكب خاصة لنقله على الفرات على مايبدو. فغدت المصدر الأول ليس لمنطقة ماري وبابل وحسب وإنما للساحل السوري اللبناني، وكانت جرار الأموريين الذين عرفهم الإغريق بالفينيقيين[٢٤] المتجولين في البحر المتوسط مليئة بالخمور اليمحاضية والكركميشية! (Finet AFO XXV 23 RAI). A.

إن ظهور أهمية صناعة وتصدير الخمور والزيوت من خلال نصوص تعود مبدئياً إلى عهد حمورابي وأواخر عهد أبيه يعني أن الزراعة قد واكبت ذلك التطور السياسي والتبادل التجاري بين أرجاء سورية والعراق ولبنان وفلسطين وبحر إيجه في المنظور القريب، وربما حتى أقاصي الشرق بالمنظور البعيد، وقد تكيفت ممالك ذلك الزمن مع واقع إزدهار التجارة، فقامت بفرض ضرائب العبور، وصار الملوك يكتبون رسائل لطلب العفو من تلك الضرائب، فكان ملك كركميش يكتب إلى يسمخ أدو، «هذا الوفد هو لي، فأرجو ألا يتعرض له أحد، أما فيما يتعلق بالضريبة فـ.!» (11 Finet, ibid, ARM V. A) فقد كانت المراكب الفراتية تتوقف على أبواب ترقا[٢٥] كي تدفع ضرائبها لحساب شامكارو Stamkaru، وبعض هؤلاء متخصص بنقل الخمور العائد لملك ماري، والضريبة تكون عادة إما من الفضة أو عيناً من المواد المتاجر بها، أي دفع بعض جرار من الخمر مثلاً، وقد بلغت نسبة ضريبة العبور حوالي ١٠٪ من قيمة البضاعة، وقد حاول كثير من التجار التهرب من دفع هذه القيمة كاملة (ARM 5,9) ويذكر أندريه فينة في دراسته المطولة عن الخمور وصناعتها أن أمراء وملوك الشمال، كانوا يفدون إلى ماري محملين بجرار الخمر والعسل، إلى جانب التجار المتهنين، مما كان يعود بأموال نقدية وعينية هامة على قصر ماري، وقد ورد في أحد النصوص (ARM 9,156-7,267) إن صدقي لاناسي Sidqi-Lanasi ممثل زمري ليم في بلاط كركميش قد استقرض الفضة من أجل أن يمول شراء ٥٠٠ جرة من الخمر، فكان ولا شك يحلم بربح هام إثر هذه العملية!

تبدو لنا طقوس إستهلاك الخمر بصنوفه الرفيعة ذات أهمية بالغة، فعلى المتذوق له أن يُطهر يديه قبل أن يلمس جراره، وليس سوى المراتب العالية الذين تشير إليهم النصوص كذواقين له مثل شيبتو زوجة الملك وصدقوم ماصي Sidqum-Masi الذي كلف بتذوق النبيذ الأحمر الذي أرسل من قبل حمورابي ملك حلب، وإختيار عشر جرار خاصة لإستهلاك ملك ماري (r ARM 10, 131, 15-19).

وإن النبيذ الطيب وبالأكادية يدعى طبوم Tabum[٢٦] هو أعلى الأصناف ويخصص للإستهلاك الشخصي للملك.

وهناك النبيذ العادي للإستهلاك اليومي، وقد طلب زمري ليم من زوجته ذات مرة (ARM 10,133) أن تتذوق له النبيذ الذي إختاره هدية إلى (ماري شبري) أي إلى رسل بابل كي يحملوه إلى ملكهم، فلابد أن زوجته الحلبية قد تدربت على تذوق النبيذ في منزل أبيها ياريم ليم وقد كان سعر النبيذ أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت، وهكذا يمكننا أن نتصور قيمة هذه المواد مقارنة مع وقتنا الحاضر.

لقد كان الزيت من المواد الهامة التي كثر تسجيلها في عهد حمورابي، وكان مصدره ألاختوم الواقعة في تخوم

حلب على مانظن[٢٧]، وكان نور سن ممثل زمري ليم في البلاط الحلبي مسؤولاً عن تأمين هذه المادة لملك ماري (ARM IXII P 268). إن واقع التطور الزراعي وتنوع الإنتاج قد دفع بممالك سورية وخاصة حلب وماري إلى البحث عن أراض جديدة في أعالي الفرات، مما دفع بعجلة التجارة ووسع نطاقها، وقد إنعكس هذا التوسع التجاري الحلبي في المجال الديني والثقافي، حيث أن إله مدينة حلب المعروف أدد إله الطقس والرعد والمطر والعطاء، قد أصبح ذائع الصيت في فترة الإزدهار هذه وصار يتدخل في شؤون الملوك ويقرر مصائرهم ولابد من استشارته واستشارة كهنته القابعين في ظل ملكهم الحلبي كي يفوزوا برضاه وبرضى إله الصاعقة والرعد.

ويشير ديوران Durand (MAEI 7,55 1993) في هذا الصدد إلى أن النظام العالمي آنذاك يتعلق بإله حلب أدد وحده! ومامن ملك يجرؤ على مخالفة رغباته، وقد أثبت ديوران في دراسة جديدة، ومطولة، مدعمة بنصوص ورسائل حلبية ومارية أن أصول ملحمة صراع إله الرعد والبرق أدد مع إله البحر يم Yammu تعود في أصولها إلى الأدب الأموري الشفوي الذي نرى بقايا ذكره في تلك الرسائل (MARI 714) وهذا يدعم فكرة أن حلب كانت مركزاً ثقافياً تجمع فيه التراث الشفوي الأموري القديم، ذلك التراث الذي انتشر في كل أرجاء المشرق، ومنه إلى اليونان القديم[٢٨].

أبائيل Abba-El

يعد هذا الملك ابناً لحمورابي الحلبي بشهادة طبعة ختمه الموجودة في محفوظات آلالاخ، وقد حكم حلب بعد سقوط ماري أي بعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر وعاصر الملك البابلي سمسو إيلونا بن حمورابي (١٧٤٩ ق.م) ولايوجد سوى شاهد واحد متواضع على علاقة هذين العاهلين (52 CT). من خارج محفوظات آلالاخ.

ويتوفر شاهدان آخران على مكانة الملك الحلبي الجديد وإتساع نفوذه من مدينة آلالاخ قرب المتوسط إلى شرقي الفرات كما كان الأمر في عهد جده سومو إيبوخ، وأثبت قدرة حلب على التدخل العسكري في بلاد الرافدين وتقديم العون للحلفاء. (11 AT) وللأسف إن وثائق آلالاخ لم تقدم المزيد عن عهد هذا الملك، كما أننا لانملك حتى هذا التاريخ وثائق من مصدر آخر[٢٩].

ياريم ليم الثاني:

وهو والد السابق أبائيل من خلال طبعة ختم ذات رسم ملحمي كما ذكر على طبعة ختم خليفته نقمي إيبوخ (AT+7e). وللأسف ليس لدينا أية معلومات إضافية حول دور هذه الشخصية، إلا أن وولي Woolley .L .C يعتقد أن قصر آلالاخ في الطبقة السابقة.

وقد شُيد في عصره، وأن آلالاخ قد عاشت فترة إزدهار مميزة.

نقمي إيبوخ Naqme Epuh

ينسب إلى هذا الملك عدد من الوثائق التي تعرّف به ملكاً على حلب ويؤرخ باسمه في آلالاخ (AT+7). ولكن لانملك وثائق عن علاقاته الخارجية.

أركبتوم Ir Kaptum

وهو ابن الأول ويظن أنه حكم حلب إعتباراً من ١٦٨٠ق.م وأقام علاقات طيبة مع أميتكوم أمير آلالاخ. كما كانت له علاقة مع مجموعة من الخبيرو الذين ذكروا في سنة من حكمه وعرفوا من خلال معلومات أخرى كبدو رحل في منطقة الرافدين وسورية.

وسيلي نقمي إيبوخ ملكان هما ياريم ليم الثالث وحمورابي الثالث لانمتلك عن علاقاتهم الخارجية معلومات واضحة سوى أن نهاية يمحاض وآلالاخ كانت في عهد آخرهما على يد الحثيين، حيث دخلت سورية في مرحلة جديدة وهي الهيمنة الحثية[٣٠] وهي المرة الأولى في التاريخ التي تصل فيها مجموعات لغوية هندية ـ أوربية إلى السلطة في بلاد الرافدين وسورية ولبنان وفلسطين، ويصل نفوذهم إلى مصر. ولكن هذا لم يكن إلا البداية لهذا الإختلاط الدولي حيث تلاه النفوذ والسيطرة الحورية الميتانية، ثم يأتي دور المصريين ـ وهكذا

ـ، يبدو لنا منتصف الألف الثاني ق.م وقد تعارف العالم على بعضهم بعضاً حرباً وسلماً وتحدى المشرق الناطق بالأكادية وفروعها مركز الثقافة والمعارف العالمية وتوافدت عليه القوى البشرية من أوربة وأسيا بحثاً عن الإستقرار والتحضر.

ومما يجدر ذكره أن الحثيين عندما بدأوا إحتكاكهم مع مملكة حلب وكانوا يصفونها من خلال وثائق بوجازكوي بالمملكة العظمى وملكها يحمل لقب الملك العظيم ورغم تضييق الحلقة العسكرية حول المدن السورية وحلب بصورة خاصة، إلا أن مستواها الثقافي والاقتصادي قد حول الغزاة إلى مقيمين دائميين يتبنون ديانة وكتابة مهزوميهم إذا صح التعبير، ويتحول الغزو العسكري إلى دفع بشري يهدف الإستقرار والإندماج في المجتمع الجديد المتطور.

خاتمة:

إننا نستطيع أن نقرر بأن الحاجات الاقتصادية لكبار الملوك بدءاً من شروكين الأول وصارجون وإنتهاءاً بـحاتوشيللي الأول هي التي كانت تلعب بمصير المناطق الخصبة في الشرق وسورية خاصة، وقد استطاعت حلب من خلال سلالتها الأمورية الأولى وخلال ماينوف على قرنين من الزمن إمتلاك النفوذ والسيطرة في منطقة واسعة من سورية والعراق القديمتين، واستطاعت أن تقاوم طويلاً النفوذين الحثي والحوري، إلى أن زال نفوذها السياسي على يد مورشيللي الحثي، وبقي لها كما لجميع بلاد الرافدين الهيمنة الروحية والمعرفية والكتابية خاصة، وبذلك فإن الطابع الحضاري الأكادي الذي تلون بألوان مدن ذلك العصر وعلى رأسها حلب وماري وبابل وجبيل. ومايزال هذا الطابع الحضاري قائماً وسائداً حتى يومنا هذا، وسيبقى لأنه عميق الجذور ومتين الأصول.

الحواشي

(١) Sauvaget J.: Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXe siècle; Paris, 1941. p.IX-X

(٢) Abdallah V.F.: Les relations internationales entre le royaume d'Alep/Yambad et les villes de Syrie du Nord "1800 à 1594 au. J-C."

حيث جمعت النصوص المسمارية المتعلقة بمدينة حلب. ومن ثم يجب مراجعة فهارس الأعداد السبعة من (MARI) وأول عدد من Ammuru1 من أجل الدراسات الجديدة حتى تاريخ كتابة هذه السطور الإضافية على موضوع الندوة الأصلي أي (١٩٩٧).

(٣) Wise man, Donald J. The Alalah Tablets, London 1953. P.1-2

إن نصوص مدينة آلالاخ التي عثر عليها من خلال حفريات وولي في تل عطشانة قد احتفظ بها في متحف أنطاكية، حيث وقعت المدينة «لواء اسكندرونة» تحت وطأة السيطرة التركية، بعد تواطؤ المحتلين الفرنسيين ضد سورية عام ١٩٣٩.

(٤) F. Abdallah, ibid p 8.

(٥) Francis JOANNÉS, l'itiniraire des Dix-Mille en Mésopotamie et l'apport des sources cunéiformes dans les pas des Dix-Mille (éd.Briant). PALLAS, 43,1995 pp.173-199

(٦) Clay, Albert Tobias, Amurru, the Home of the Northern Semietes, philadelphia, 1909

وهي أقدم دراسة ماتزال صالحة، إلا أن دراسة MARI 5 وكذلك ما ذكر من مراجع في اطروحتنا هو الأحدث.

(٧) H. Klengel, Handel und Händler in alten Orient, Leipzig 1979 P. H. 1-9

A. Archi: Chronologie relative des archives d'Ebla. Amurru I P P.11

وانظر الدراسات اللاحقة في هذا المجلد.

(٩) Wiseman. AT VII Ebla

(١٠) H.Kengel. Syria, 7000 to 300. B.C. Berlin, 1992, P.44

(١١) F.Abdallah: Les relations... P.47

(١٢) D.Charpin: Subat-Enlil et le pays d'Apum. MARI 5 P.129.

(١٣) Smith, S. Yariens.Lins of Yambad RSO, 32,1957, p.155-184.

(١٤) F.Abdallah: Les relations... P.65.

(١٥) D.Charpin Données nouvelles sur la poliorcétique à l'epoque paléo-babylonienne MARI 7 P.193.

(١٦) Villard P. "La place des années de "kahat" et d'"Adad d'Alep" dans la chronologie du règne de Zimri-Lins

(١٧) Durand J.M. MARI 7 P.41

(١٨) P.Villard, AAD, MARI

حول رحلة رمزي ليم إلى حلب، وأوغاريت انظر: P.453 XXIII

(١٩) F. Abdallah, les relations. z. 159

(٢٠) F.Abdallah *Ibid*.p273...

إن أقدم ممالك لبنان أو لبنون القديم هي جبيل وهي مملكة جبلاوية وعناصر سكانها أموريون فهي مملكة أمورية وليست فينيقية كما هو شائع.

(٢١) F.Abdallah, *ibid*, P.127

(٢٢) *ibid*...

(٢٣) Abdallah. *ibid*.

(٢٤) إن التسمية الحقيقية التي يجب أن ترافق تسمية الفينيقيين هي أمور وأموريين ذلك أن الشواهد المسمارية تثبت أن سكان العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن وشبه الجزيرة العربية هم من الأموريين البدو أو الحضر خلال الألف الثاني ق.م وأن هذه الحقيقة التاريخية يجب أن تحل محل المصطلح الضيق الفينيقي اليوناني المتأخر.

(٢٥) لا يوجد ما يدل على وجود ضرائب على تنقل الأفراد. ولا نعتقد بوجودها بل كان الأفراد يتجولون دونما قيود وكانت الضريبة تفرض على البضائع التجارية وحسب.

(٢٦) لاحظوا أصل كلمة «طيب» الأكادية، التي تستخدم في العربية نفس المعنى.

(٢٧) إن بعض تقاليد إنتاج الزيت الطيب وغيره التي تنسب اليوم إلى مناطق عفرين وغيرها في أيامنا هذه لاتعود إلى العنصر السكاني القائم حالياً وحسب بل إن هذا العنصر قد تعلم من التقاليد المحلية التي تعود إلى فترة ازدهار حلب الزراعي في القرن الثامن عشر ق.م.

(٢٨) سوف ننشر دراسة تتعلق بموضوع أصول الأساطير في عالم الأموريين. الذي سبق ظهوره لدى الإغريق.

(٢٩) إن وقوع آلالاخ ـ تل عطشانة في اسكندرون المحتل من قبل تركية منذ عام ١٩٣٩ بفضل التواطىء العسكري الفرنسي إبان الحرب العالمية الثانية، قد منع إقامة اتصالات في عالم التنقيب الأثري بين حلب ومصيفها الطبيعي آلالاخ وميناءها الطبيعي أنطاكية والمينا في العصور القديمة.

(٣٠) إن لغة الحثين من أصل هندي ـ أوربي ولا تمت بصلة إلى الأكادية المعاصرة لهم. وقد استخدموا الأكادية وكتابتها المسمارية في أدبهم وتجارتهم وهم يسجلون أوائل الاحتكاك العسكري مع العنصر هندو ـ أوربي والآري مع بلاد الشام والعراق القديمين. من أجل المزيد عن الحثيين والحوريين وخاصة الدراسات الحديثة انظر العدد الأخير من:

Amurru I p.7.

الآثار الآرامية ومميزاتها في متحف حلب

محمد وحيد خياطة

المديرية العامة للآثار والمتاحف

قبل التحدث عن الآثار الآرامية في شمالي سورية لا بد من التنويه إلى أن الاختلاط العرقي الجنسي للشعبين الآرامي والحثي في عصر واحد جعل من العسير على أي باحث التمييز الدقيق بين الفن الآرامي والفن الحثي الجديد .

وحتى الآن تبقى العلاقات التي كانت تربط دول المدن بعضها ببعض سواء أكانت حثية أم آرامية غير واضحة، وكذلك علاقتها بمن سبقتها من الشعوب .

فالآراميون استولوا على مدن حثية كانت قائمة فعلاً بوصفها دولاً مستقلة، وحافظوا على تقاليدها الحثية المستمدة من العصر الذهبي (مثل مملكة حماه)، إلا أن هذا لم يمنع الآراميين من أن يؤسسوا مدناً جديدة لم تكن موجودة أصلاً .

ومن هنا تأتي صعوبة التمييز بين الفن الحثي والفن الآرامي من خلال الشواهد الأثرية وخاصة المنحوتات والمجسمات لكلا الشعبين، ونرى الطابع الآرامي غالباً في بعض المدن مثل مملكة « بيت أغوشي » المحيطة بحلب، والتي كانت عاصمتها أرفاد (تل رفعت)، في حين يغلب الطابع الحثي في بعضها الآخر، كما هو الحال في تل عين دارا » الذي لا يبعد أكثر من ٤٠ كم جنوب غرب تل رفعت .

وقد دخل إلى جانب العناصر المؤثرة في الفن الآرامي من ميتانية وحثية وآشورية، عنصر جديد لا يقل أهمية عن غيره، ألا وهو العنصر القادم من أورارتو في أرمينية، الذي استطاع أن يهيمن سياسياً وعسكرياً على شمال سورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م، وأن يترك بصماته في المنحوتات والمجسمات إلى جانب التأثيرات الحثية والآشورية .

لم تجر أعمال تنقيب أثرية بما فيه الكفاية في موطن الآراميين كذلك فقد أهمل الدارسون « الفن الآرامي » وذلك بسبب قلة المكتشفات الأثرية .

ففي حلب نفسها الواقعة في مملكة « بيت أغوشي » لم يعثر فيها إلا على النذر اليسير من الآثار الآرامية، منها النقش المنحوت على كتلة ضخمة من حجر البازلت لجنيين مجنحين، واكتشف تمثال آخر من البازلت في موقع عين التل شمالي حلب، كما عثر على نصبين من حجر البازلت في صرين بالقرب من عين العرب،

مشابه لتمثال عين التل الذي مر ذكره، والتمثالان منحوتان بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الحثي الجديد منه إلى الأسلوب الآرامي المتأثر بالفن الآشوري.

وكل الآثار التي هي موضوع البحث جاءت من أماكن متفرقة في القطر العربي السوري، دون إجراء أعمال تنقيب منهجية فيها.

وتبقى الآثار الآرامية في سورية حصيلة فنون لحضارات شعوب متعددة، مضافاً إليها نكهة آرامية متميزة.

❁ ❁ ❁

مدخل:

قبل الخوض، في البحث عن الآثار الآرامية، ومميزاتها في سورية، لابد لنا من وقفة قصيرة، عند كلمة سورية، فسورية اليوم، ضمن حدود القطر السوري، هي غير سورية القديمة، بحدودها الحضارية المترامية الأطراف.

وبغض النظر عن مقاطعة لواء اسكندرون، التي اقتطعت حديثاً عن جسم القطر العربي السوري، خلال عهد الإنتداب الفرنسي لأسباب سياسية، فالقسم الأعظم من جنوب هضبة الأناضول، كان يشكل جزءاً هاماً من جسم سورية القديمة، ولم يزل هذا الجزء يوصف في معظم الدراسات الأثرية والتاريخية على أنه سوري، ناهيك عن لبنان وفلسطين وشرق الأردن.

صحيح أنها لم تشكل يوماً ما وحدة سياسية، ذات سلطة مركزية قوية، نظراً لطبيعتها الجغرافية المتباينة، وظروف سكانها الاجتماعية غير المستقرة، إلا أنها كانت تشكل وحدة حضارية متميزة، بكل خصائص الحضارة المتعارف عليها.

لقد وطئت أرض سورية أقدام غريبة جاءت من جهات عدة، فمن الشرق والشمال الشرقي قدم الشعب الهندو أوربي تحت اسم « حوري ـ ميتاني »، ومن الغرب شعوب البحر، وفي جعبة كل منهم زاده الحضاري المستقل، إضافة إلى شعوب الرافدين والأناضول ومصر، ليدلي كل بدلوه.

إلا أن سورية استوعبت كل الموجات البشرية التي حطت على أرضها، فصقلتها، وهذبتها، وأذابتها في بوتقة الحضارة الواحدة.

والآراميون هم شعب من شعوب العائلة السامية الذين ساهموا في وضع لبنات جديدة في صرح الحضارة في سورية وتركوا بصماتهم ظاهرة في لوحة الفسيفساء، ذات التكوين الرائع، التي تكونت عبر آلاف السنين، دون أن تشذ عن المتوارث المعروف، أو تصاب بخلل، يفسد وحدة انسجامها.

ومن هذا المنطلق سوف نتحدث عن الآثار الآرامية في سورية بعد أن اقتضى التنويه.

مصادر التاريخ الآرامي:

١ـ الكتابات المسمارية الآشورية.
٢ـ الكتابات الآرامية ومعظمها ذات صبغة دينية وشخصية وإدارية محلية.
٣ـ الكتاب المقدس (العهد القديم) ومقارنته بالنصوص الآشورية، لتحديد العصر بدقة حيث أن التدوين التوراتي، حدث في وقت متأخر من زمن الأحداث، التي يروي عنها، والتي غالباً لم تتحقق إلا في عصور لاحقة.

أصلهم:

ليس لدينا للأسف أية وثيقة تاريخية أو أسطورة شعبية، نستطيع من خلالها معرفة المنطقة التي انطلقوا منها بادىء ذي بدء، وإن أجمع معظم الباحثين على القول: أن منشأهم يجب أن يكون حيث انطلقت معظم الهجرات السامية التي سبقتهم، أي من الجزيرة العربية عبر البادية العربية السورية، والتي كان آخرها الفتح العربي تحت راية الاسلام.

يرد في نصوص ماري، من القرن الثامن عشر ق.م، وصف لقبائل شبه بدوية تدعى أحلامو، وتذكر النصوص الآشورية من القرن الرابع عشر ق.م معارك دامية خاضها الجيش الآشوري ضد الأحلامو، وبعد قرنين من الزمن، تتحدث النصوص الآشورية عن الـ(الأحلامو) مقترناً بالآراميين « أحلامو أراميا » أي أحلامو الآراميين، وتصفهم بقبائل نصف بدوية، تتمركز في البادية السورية، وفي جزيرة البحرين.

وغالباً ماكانت تحتدم المعارك بين الآشوريين والآراميين غرب الدولة الآشورية في جبل البشري وتدمر.

ولا يعرف حتى يومنا هذا، فيما إذا كان الآراميون والأحلامو شعباً واحداً، أم شعبين متحالفين تحت قيادة واحدة، ولكن الثابت، هو صلة القرابة التي تجمع بينهما، في الوقت الذي بدأ فيه الآراميون يتخلون عن بداوتهم ويستقرون في المدن، وقد استقر الآراميون غرب الرافدين في وادي الخابور، في المنطقة المسماة آرام نهاريم، والواقعة بين الفرات والخابور حول حران.

وكان يقطن هذه المنطقة شعوب سامية قريبة من الآراميين في الألف الثاني ق.م وربما في وقت أبكر (كما تشير اللقى الأثرية المكتشفة في تل خويره والتي تعود إلى الألف الثالث ق.م).

ثم أصبحت المنطقة نفسها جزءاً من دولة الميتانيين غير الساميين بين ١٥٠٠ـ ١٢٧٠ق.م، وما أن حل القرن الثاني عشر، حتى تغير وجه المنطقة كلياً، نتيجة أحداث ضخمة، أبرزها اكتشاف الحديد، واستخدامه في الصناعة والحرب، واجتياح شعوب البحر أسية الصغرى والقسم الغربي من الشرق العربي، فتداعت الدولة الميتانية، وانفرط عقد الدولة الحثية إلى دويلات وإمارات صغيرة، وتراجع النفوذ المصري عن سورية وكنعان، بدفع شعب الفلستر عن مصر نفسها وإجباره على الإقامة في كنعان، التي أصبح اسمها منذ الآن فلسطين المشتق من الفلستر.

وكان قد أزفت ساعة الآراميين، ليلعبوا دورهم على مسرح الأحداث في المنطقة، فتخطوا حدود الدول القائمة في بلاد الرافدين، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، من قبل الآشوريين، فانطلقوا من وادي الخابور غرباً، حيث استطاعوا أن يستقروا في الشمال ووسط وجنوب سورية.

واستغلوا فترة ضعف الحكم الآشوري، فاقتطعوا عدة مناطق من الدولة الآشورية، واستولو على طرق القوافل التجارية، شريان الحياة في الشرق القديم، ونجحوا في إيصال أحد قادتهم إلى عرش بابل (أدد ــ أفال ــ إدين) وإنتزاع اعتراف آشور به، وذلك بتزويج ابنته للملك الآشوري.

وهكذا ـ أصبح الآراميون قوة مرهوبة الجانب، يحسب حسابها في الموازنات الدولية، إلى جانب كونهم تجاراً مهرة سادوا العالم القديم.

عصر دول المدن الآرامية والحثية الجديدة:

عندما انهار صرح الإمبراطورية الحثية، حوالي عام ١٢٠٠ق.م، حدثت تطورات عرقية وسياسية وحضارية، أوجبت التغيير في أجزاء واسعة من البلاد، فعلى أنقاض الدولة المركزية القوية، قامت دول مدن كثيرة بعضها آرامي، وبعضها الآخر حاول أن يحافظ على تراث الحضارة الحثية ويجدد شبابها، ولم يكن في مقدور أي دولة من هذه الدول أو إمارة من هذه الإمارات التي قامت إلى جانب بعضها بعضاً، أن تملك القوة الكافية للهيمنة وتشييد دولة مركزية قوية، تخلف الدولة الحثية في إرثها السياسي والحضاري الضخم.

ومعظم هذه الدول نشأت في شمال سورية وجنوب الأناضول، في المنطقة التي لم تتأثر كثيراً بالهزات السياسية، التي عصفت بالشرق القديم.

وكان أشهر دول المدن الحثية مدينة كركميش، التي يدّعي مؤسسها من العائلة المالكة، أنهم ورثة الملوك الحثيين العظام، إلا أن الحقيقة، لم يتبع كركميش من دول المدن الحثية المشابهة أية دولة أخرى مثل: أونقي، وغور غوم، ومليد (ملاطيا)، وكمحي، وماراش، وحطي.

وقد عاش الآراميون جنباً إلى جنب مع الحثيين الجدد، وكانت أشهر ممالكهم في الشمال: مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل أحمر حالياً)، وتمتد شرقاً إلى نهر البليخ. ومملكة بيت بحياني وعاصمتها غوزانا (تل حلف حالياً).

وفي شرق الخابور الأعلى ثلاث إمارات أسستها القبيلة الآرامية تيمانيا وهذه الإمارات هي: (تنصيبين وحوريزانا وجيدرا)، وإلى الشرق منها احتلت قبائل سوهو الآرامية

ضفاف الفرات، من عانة إلى ريبقو، وفي نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن العاشر احتل الآراميون مدينة بيترو، الواقعة عند مصب الساجور تحت مدينة كركميش، ومدينة موتكينو على ضفة الفرات اليسرى.

وفي الغرب تمكنوا من تأسيس إمارة بيت أغوشي، التي تضم حلب وأرفاد (تل رفعت حالياً) المجاورة لبيت عديني؛ وبقيت كركميش حثية حتى سقطت بيد الآشوريين في عهد صرغون الثاني.

كما استطاع الآراميون أن يؤسسوا دولة يعودي، التي يطلق عليها أيضاً سمآل (الشمال) عند جبل الأمانوس « زنجرلي حالياً ».

وقد وصل الآراميون جنوباً حماة منذ نهاية القرن الحادي عشر، والحفريات الي أجريت هناك كشفت حضارة آرامية تلي مباشرة الطبقة الحثية.

أما بقية الممالك الآرامية في جنوب العاصي والليطاني، فنسمع عنها من خلال نصوص الكتاب المقدس مثل آرام صوبا، وآرام بيت رحوب، وآرام معكة، وجشور، وآرام دمشق، ويعتقد أن آرام صوبا تقع في البقاع، وبيت رحوب جنوبها عند منعطف الليطاني.

أما معكة فتشمل مقاطعة دان (تل القاضي) والفولانية، وتقع جشور في الشرق بين اليرموك ودمشق.

ويظهر أن الآراميين لم يتمكنوا من الوصول إلى الساحل، نظراً لوجود الفينيقيين الأقوياء هناك.

واقع الشواهد الحضارية من العصر الآرامي:

قبل بدء التحدث عن المخلفات الحضارية للشعب الآرامي في سورية، لابد من التنويه إلى أن الاختلاط العرقي الجنسي للشعبين، الآرامي والحثي، في عصر واحد، جعل من العسير على أي باحث، التمييز بشكل دقيق، بين الفن الآرامي والفن الحثي الجديد.

وحتى الآن تبقى العلاقات التي كانت تربط دول المدن بعضها ببعض سواء أكانت حثية أم آرامية غير واضحة، وكذلك علاقاتها بمن سبقها من الشعوب، وعلى كل حال، نحن لانعرف عن الآراميين قبل استقرارهم في المدن، إلا ماورد في الكتابات الآشورية.

ويزعم الأستاذ (لاند زبرجر) أن الآراميين استولوا على مدن حثية كانت قائمة فعلاً كدول مستقلة، وحافظوا على تقاليدها الحثية المستمدة من العصر الذهبي، إلا أن هذا لا يمنع من أن الآراميين أسسوا مدناً جديدة لم تكن موجودة في الأصل، ويخلص الأستاذ (لاند زبرجر) إلى نتيجة، وهي صعوبة التمييز بين الفن الحثي الجديد والآرامي من خلال المخلفات الحضارية، وخاصة المنحوتات والمجسمات لكلا الشعبين.

في حين يقترح آخرون تسمية عامة تشمل حضارة الشعبين باسم حثي آرامي، فقد وصل الحثيون إلى شمال ووسط سورية، من جنوب شرق آسيا الصغرى خلال اجتياح شعوب البحر للمنطقة، حاملين معهم أسماءهم الحثية ولغتهم وكتابتهم الهيروغليفية المصورة، ليشاطروا السكان المحليين حياتهم، الذين هم من أصل كنعاني وحوري ميتاني، إلى جانب الآراميين الطامحين إلى السلطة.

ولهذا نرى الطابع الآرامي غالباً في بعض المدن مثل مملكة بيت أغوشي المحيطة بحلب، والتي كانت عاصمتها أرفاد (تل رفعت)، في حين يغلب الطابع الحثي في بعضها الآخر، كما هو الحال في تل عين دارا الذي لايبعد أكثر من ٤٠ كم جنوب غرب تل رفعت.

وقد قسم الأستاذ أكرم أكوركال في كتابه (الشرق والغرب) تطور فن النحت في هذا العصر إلى ثلاث مراحل، أطلق عليها:

العصر الحثي الجديد الأقدم ويمتد من ١١٠٠ ــ ٨٥٠ق.م.
العصر الحثي الجديد ويمتد من ٨٥٠ ــ ٧٣٠ق.م.
العصر الحثي الجديد الأحدث ويمتد من ٧٣٠ ــ ٦٨٠ق.م.

واتبع الأستاذ أورتمان الأسلوب نفسه في تقسيم هذا العصر وفق تطور أسلوب النحت، وأطلق على كل مرحلة اسم:

العصر الحثي الجديد /١/
العصر الحثي الجديد /٢/
والعصر الحثي الجديد /٣/

وأعتبر أكوركال المرحلة الأخيرة، التي تميز فيها الفن الآرامي، بعد أن تخلص من رواسب تأثير الفن الحثي والفن الميتاني، الذي كان مهيمناً منذ القرن الخامس عشر ق.م. أي في الوقت، الذي انتشر فيه النفوذ الآشوري فنياً وعسكرياً وحضارياً، سواء في النحت أو العمارة أو المعدات العسكرية في كافة أنحاء منطقة الشرق العربي القديم.

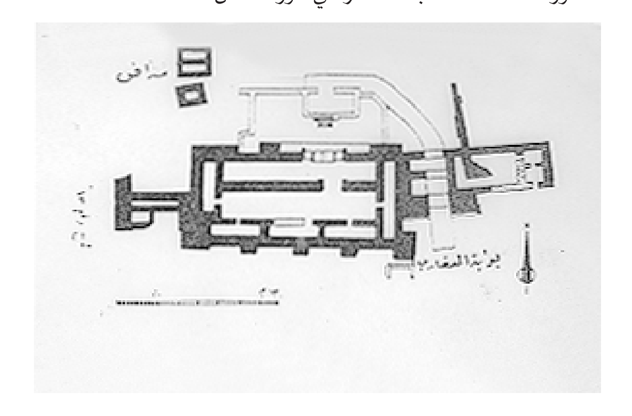
وقد دخل إلى جانب العناصر المؤثرة في الفن الآرامي من ميتانية وحثية وآشورية، عنصر جديد لايقل أهمية عن غيره، ألا وهو العنصر القادم من أورارتو في أرمينية، وقد كانت له صولات وجولات مع الآشوريين. واستطاع أن يهيمن سياسياً وعسكرياً في شمال سورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م، وأن يترك بصماته في المنحوتات والمجسمات إلى جانب التأثيرات الحثية والآشورية.

العمارة:

تأثر الآراميون بالإرث الحضاري الميتاني، عندما استوطنوا المدن وهجروا بداوتهم، ونرى هذا التأثير واضحاً في شكل البناء الذي ارتضوه لأنفسهم، إذ أنهم احتفظوا بما يسمى بـ (بيت حيلاني) المتميز بواجهته المنتصبة فوق أعمدة، تقع خلفها مباشرة القاعة الرئيسة على شكل مستطيل.

ومعبد القصر المكتشف في غوزانا (تل حلف) هو خير دليل لهذا النموذج البنائي، وهو يشابه في مخططه العام (انظر الصورة رقم١)، مخطط القصر في الطبقة الرابعة في تل العطشانة (أنطاكية) الذي يعود إلى القرن الخامس عشر ق.م.

الصورة ١: مخطط معبد القصر في غوزانا ـ تل حلف ـ



ويتميز معبد القصر في تل حلف بواجهته الفريدة، فقد قامت تماثيل آلهة سماوية عملاقة مقام الأعمدة، ويقف كل إله فوق حيوان خاص يرمز له، فعشتار تقف فوق الأسد، وهدد فوق الثور (انظر الصورة رقم ٢).



واجهة معبد القصر من تل حلف، نسخة من الأصل ـ حالياً واجهة متحف حلب ـ

وربما كانت واجهة المعبد، هي المقصودة في كتابة كابارا بن خاديانو، المنقوشة فوق جدران القصر حيث يقول بأنه: «صنع شيئاً لم يستطع أسلافه أن يصنعوا مثله» وبالفعل لم يعثر منقبوا الآثار على شبيه مماثل لهذه الواجهة في كل حواضر الممالك الآرامية، التي تعود إلى نفس العصر.

وقد شيد على جانبي الواجهة برج من كل طرف، ويمر العابد بقاعة عرضانية أخرى مشابهة للأولى قبل أن يصل إلى الحرم الرئيس، وتحيط بالقاعات الثلاث غرف صغيرة. وتكسو أسفل جدران معبد القصر مشاهد منحوتة فوق ألواح بازلتية، تمثل موضوعات دينية وأسطورية واحتفالات الأمراء الرسمية والخاصة، ولم تكن الغاية من إكساء الجدران دينية فقط، بل لحماية جدران القصر المبنية من الطين المشوي من الأمطار والعواصف، عدا عن كونها عناصر زخرفية تضفي نوعاً من الأبهة على البناء.

وقد عمد الآراميون إلى بناء معابدهم وقصورهم على شكل قلاع محصنة فوق أماكن مرتفعة ودعموها بأسوار دفاعية، زيادة في الحرص على أمنها. وأحاطوا مدنهم بتحصينات دائرية أو مضلعة.

لم تكشف أعمال التنقيب عن معابد وقصور كثيرة في مواقع أخرى من هذا العصر، تمكننا من دراسة فن البناء بشكل جيد .

فبالإضافة إلى معبد القصر في غوزانا، ليس لدينا سوى ثلاثة معابد أخرى معاصرة في كركميش وعين دارا وتل طعينات قرب (أنطاكية) وكلها مربعة الشكل تقريباً . ينهض معبد عين دارا فوق مصطبة كبيرة يحيط بها ألواح من حجر البازلت منحوتة على شكل أسود وأبي الهول، وهي إما متقابلة وجهاً لوجه أو خلف بعضها بعضاً، وتعطي انطباعاً، كأن كل مشهد قائم بذاته، وليس له ارتباط بما يليه .

ومدخل المعبد واسع، يصعد إليه بدرج ضخم، مزخرف بألواح من النقش على شكل ضفائر، ويظهر أن للمعبد طابقاً ثانياً، شيد فوق أعمدة بازلتية ضخمة . (أنظر الصورة رقم ٣ ومخطط المعبد صورة رقم ٤) .

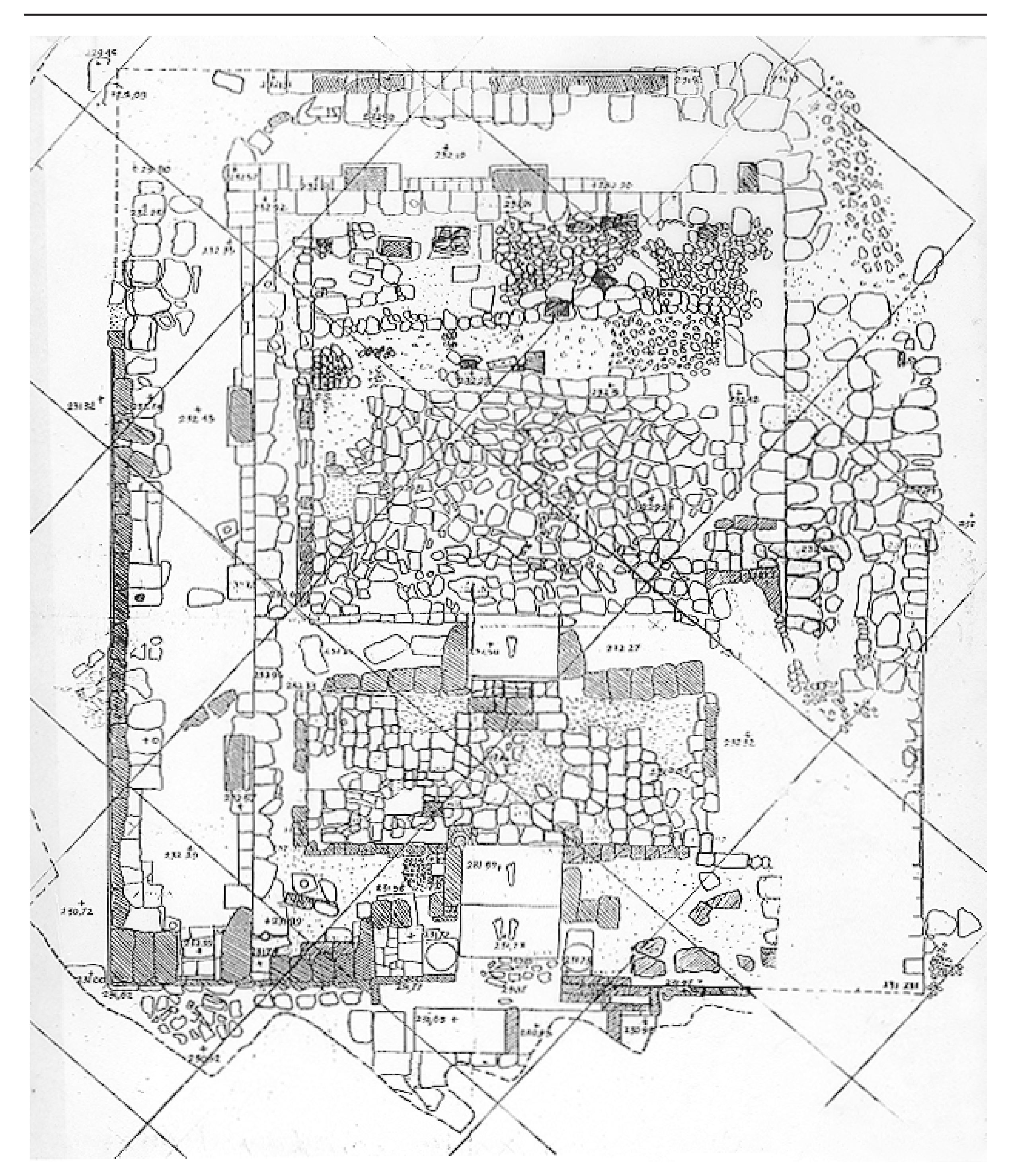
كما عثر على قواعد بازلتية داخل المعبد تنتصب فوقها تماثيل رب الجبل وعفاريت برأس طائر وكائنات خرافية، مكونة من جسم حيوان ورأس إنسان بشكل متناظر، ولم يبق للأسف من مشاهد الجدران الخارجية للمعبد . إلا أجزاء غير كاملة، لاتكفي لمعرفة الأصل .

وقد كشفت الحفريات في مدينة غوزانا معبداً صغيراً، مستطيل الشكل، كان يستخدم لعبادة الأسلاف، التي كان لها لدى الآراميين على مايبدو أهمية بالغة .

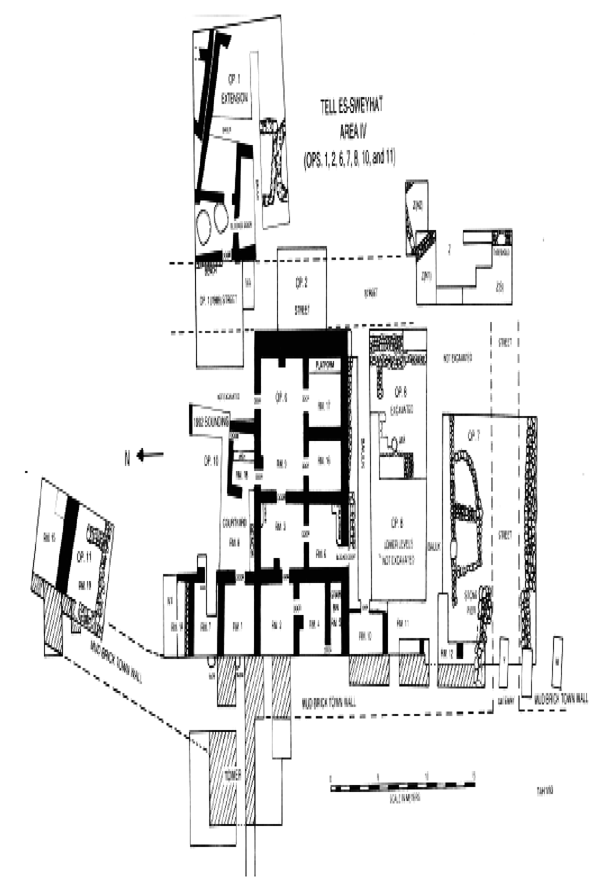
وكانوا يستخدمون في دفن موتاهم أسلوبين : الدفن العادي، وذلك بمواراة جثة المتوفى الثرى داخل قبور مبنية على شكل غرف، أو بطريقة الحرق . ويظهر أنهم اقتبسوا الأسلوب الثاني عن الشعب الحوري الميتاني، الذي لم يكن سامي الأصل . وكان تمثال الميت ينصب كشاهدة للقبر، فقد عثر على تمثالين لسيدتين من حاشية الأسرة الحاكمة فوق قبرين في تل حلف . وغالباً ما ترافق الجثة حلي الثياب، التي كان يرتديها المتوفى في حياته، ومعظمها من الذهب والأحجار الكريمة . (انظر الصورة رقم ٥) .


معبد عين دارا





مخطط معبد عين دارا



تمثال سيدة من تل حلف كشاهدة قبر ـ متحف حلب ـ

فن النحت:

كان النحاتون الآراميون ـ كغيرهم من فناني الشعوب التي سبقتهم ـ يقومون بأعمال النحت على نوعين:

١ـ النحت الكامل للموضوعات من آلهة وبشر وحيوانات ـ حيث كان يتحرر التمثال كلياً من المادة التي صنع منها ويمكن مشاهدته من كل الجهات.

٢ـ نحت نصف كامل على الألواح الحجرية حيث تبرز أجسام الموضوعات المراد تجسيدها فوق سطحٍ مستوٍ.

وقد يشترك النوعان معاً في موضوع واحد كما هو الحال في تماثيل واجهة معبد القصر في تل حلف. وطبيعي أن مادة الحجر البازلتي البركاني، ذي المسامات، لا تساعد كثيراً في نحت تفاصيل الجسم بدقة تامة، ولذا تصدمنا الغلظة والخشونة معاً، وهي تطالعنا في تماثيل الآلهة السماوية في واجهة معبد القصر.

وكان لكل دولة أسلوبها الخاص المميز في طرق التعبير عن فنها، فهناك مدرسة كركميش، ومدرسة سمآل ومدرسة عين دارا.

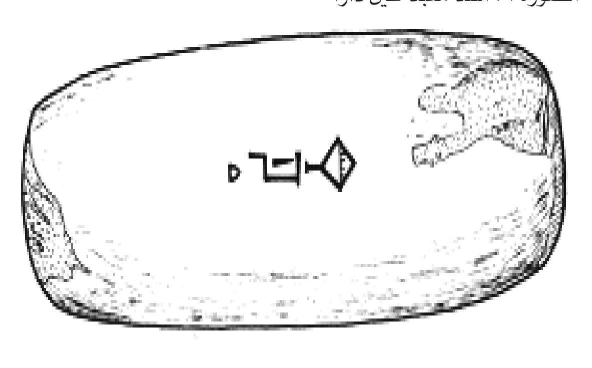
وتشابه تماثيل عين دارا بعض المنحوتات في كركميش، وتتميز بقساوة التعبير، وجمود الحركة، والإستغناء عن التفاصيل الجزئية، رغم النوعية الجيدة والدقة المتناهية في أسلوب النحت كما هو الحال في أسد عين دارا. ويبقى أسد عين دارا كتلة جامدة صامتة تذهل المشاهد بهدوئها. (انظر الصورة رقم ٦).

وتزول الخشونة تدريجياً خلال القرن الثامن ق.م بتأثير الفن الآشوري، وتصبح المنحوتات أكثر تألقاً وأكثر استجابة لأزميل الفنان. ولم تقتصر أعمال النحت على الآلهة المتجسدة بالبشر فقط بل بالحيوانات والطيور أيضاً، وكانت تنحت الطيور بأحجام غير واقعية، وتنصب فوق أعمدة داخل المعابد، مما يوحي بقدسيتها وقربها من نفوس العابدين.

كما كانت تماثيل الأسود المجنحة والمعروفة باسم (لاماسو) تأخذ مواقعها عند مداخل وأبواب المعابد والقصور، وبدراستها فنياً يمكن تتبع مسار تطورها الفني خلال عدة حقب زمنية.

أما مجسمات الألواح، فهي أصغر حجماً من مثيلاتها الآشورية، وكانت تغطي في بلاد آشور أسفل جدران المعابد والقصور فقط، أما في سورية وجنوب الأناضول، فقد انتشرت بشكل واسع حتى غدت تغطي مداخل المدن والقلاع. وقد قام الأستاذ أورتمان بدراسة وافية لهذا النوع من فن النحت في كتابه: دراسات في الفن الحثي الجديد.

الصورة ٦: أسد معبد عين دارا



شواهد القبور ابتكار آرامي:

اشتهر في العصر الآرامي نوع خاص من المنحوتات، لم يكن معروفاً من قبل، وهذه المنحوتات على شكل أنصاب، تحمل صورة إنسان واحد أو أكثر، يتناول الطعام المعد فوق مائدة.

وعرفت هذه الأنصاب في أوساط البحث الأثري على أنها شواهد قبور تحمل صورة الميت نفسه، وهو يتناول الطعام خلال مأتمه الجنائزي، ويستدل من هذه الشواهد على المكانة التي كان يتمتع بها السلف والتي تصل إلى درجة العبادة.

وقد عثر على مثل هذه الشواهد في قبور الموتى المدفونين بطريقة الحرق في حماه. وأودع في متحف حلب نصب من البازلت ضخم جداً طوله ٢,٨٥م، يمثل تقدمة مأتمية، ويعلو المشهد نسر ذو رأسين.

وحصل متحف حلب أيضاً على نصبين، من الحجر الكلسي عن طريق الشراء، ويعتقد أنهما من تل رفعت (أرفاد)، ويستدل من لباس أصحابهما وطريقة تصفيف قصة الشعر أنهما من صنع آرامي متأثر بالأسلوب الآشوري الحديث. (انظر الصورة رقم ٧).

شاهدة قبر من تل رفعت؟ ـ متحف حلب ـ



ولدينا نسختان من الجص في متحف حلب، أخذا عن نصبيين من البازلت، تم شراؤهما في النيرب حوالي عام ١٨٩١؟ وموجودان حالياً في متحف اللوفر بباريس، يمثل أحدهما الكاهن أجبار في وضعية من يؤدي التحية والسلام، ويمثل الآخر وليمة جنائزية. (الصورتان ٨ و٩).

وهذا الأخير مشابه لشاهدة قبر من سمآل، موجودة حالياً في متحف بركامون ببرلين (صورة رقم ١٠). وتمثل

الصورة ٨: الكاهن أجبار ـ نسخة في متحف حلب ـ





الصورة ٩: وليمة جنائزية ـ نسخة في متحف حلب ـ



شاهدة قبر من سمآل ـ متحف بركامون برلين ـ

أميرة جالسة على عرش، تحمل كأساً للشرب في يد، وزهرة في يدها الأخرى، وأمامهما تنتصب مائدة الطعام الجنائزية مع شخص يقوم على خدمتها. وفي الأعلى تسبح الشمس المجنحة. إلى جانب المنحوتات الحجرية الضخمة والعادية عثر منقبوا الآثار على عدد كبير من الأدوات المنزلية المعدنية والفخارية، بعضها مستورد من الشمال، وبعضها الآخر من البحر الإيجي، وهذا يوضح النشاط التجاري الذي امتاز به الآراميون.

ولا يفوتنا ذكر العاجيات الفينيقية المكتشفة في أرسلان طاش والتي كانت تزين سرير وأثاث بيت ملك دمشق الآرامي حزائيل.

وقد نهبها الآشوريون ونقلوها إلى أرسلان طاش (حداتو) بعد أن حولوا هذه المدينة إلى مقاطعة من مقاطعاتهم.

ويعتقد أن ملك دمشق حزائيل نفسه كلف أحد الفنانين الفينيقيين بصنع السرير العاجي له، كما يقول النص الآرامي: (صنع هذه (. . . . .) ابن أمّا لسيدنا حزائيل في . . . . . .).

مواقع الآثار الآرامية في سورية:

لم تجر أعمال تنقيب أثرية كافية في مواطن الآراميين كي نتعرف عليها بشكل علمي ومدروس، وقد ذكرنا الإختلاط العرقي الجنسي، الذي حدث في الفترة التي رافقت ظهور الآراميين مع دول الإمارات الحثية.

وقد أهمل الدارسون « الفن الآرامي » وكأنه لم يكن له وجود إلا عرضاً. فكتاب أورتمان « دراسات في الفن الحثي الجديد » وكتاب أكرم أكوركال (الشرق والغرب)، يتحدثان عن الفن الحثي الجديد.

وقد قسم المؤلفان العصر الى ثلاث مراحل، يشمل أحدهما الفن الآرامي المتأثر بالأسلوب الآشوري. وربما جاء إهمال الباحثين للفن الآرامي لقلة المواقع التي نقب فيها، فبغض النظر عن «تل حلف» و«سيكاغوزو» و«سمآل» لم تجر أعمال واسعة في مواقع أخرى، تدعم اكتشافات هذه الحواضر الآرامية الثلاث.

ففي دمشق، وهي أهم عاصمة من عواصم الدول الآرامية، كان الأثر الوحيد، الذي عثر عليه من العصر الآرامي، هو نقش بارز، يمثل كائناً خرافياً مجنحاً (سفنكس). وقد ضم هذا الأثر إلى حائط الجامع الأموي. (الصورة رقم ١١).



الصورة ١١: نصب من البازلت عثر عليه في الجامع الأموي بدمشق مضافاً إلى جداره، عليه مشهد «أبو الهول» المجنح «متحف دمشق الوطني» «سفنكس»

والجامع نفسه أقيم على أنقاض معبد الإله هدد الآرامي. ويتميز النقش بأسلوب النحت الفينيقي، مما يشير إلى أن ملوك دمشق، كانوا يستخدمون فنانين وعمالاً فينيقيين، كما شاهدنا ذلك في مجموعة القطع العاجية والمنقولة من دمشق إلى حداتو (أرسلان طاش) بواسطة الآشوريين. وقد عثر على مشابهات لها في كل من مجيدو، والسامرة، ونمرود. ويعتقد أن نصب الرب ملقارت (صورة رقم ١٢)، المكتشف في بريج قرب حلب، يعود أصلاً إلى دمشق، وقد أقامه ملك دمشق بن هدد الأول، وهو مشابه لمنحوتات سمآل ويحمل كتابة آرامية هذا نصها:



الرب ملقارت من بريج قرب حلب ـ حالياً في متحف حلب الوطني ـ

«النصب الذي أقامه بر هدد بن طبرمون بن حزيون، ملك آرام، إكراماً لربه ملقارت، وقد أقامه له، لأنه سمع صوته».

أما في حلب نفسها، الواقعة في مملكة بيت أغوشي، فلم يعثر فيها إلا على النذر اليسير من الآثار الآرامية، منها النقش المنحوت على كتلة ضخمة من حجر البازلت لجنيين مجنحين، وقد عثر عليه في قلعة حلب مضافاً إلى بناء

إسلامي من العصور الوسطى (صورة رقم ١٣)، وتمثال آخر من البازلت، اكتشف أثناء تشييد بناء حديث في موقع عين التل بالقرب من شمال مدينة حلب (صورة رقم ١٧)



الصورة ١٣ : جنيان مجنحان من قلعة حلب ـ حالياً في متحف حلب الوطني ـ

الصورة ١٤ : مشهد عربة يقودها رجلان ـ متحف حلب الوطني ـ





الصورة ١٧ : تمثال أمير من حجر البازلت ـ عين التل ـ حلب، متحف حلب القرن التاسع ق.م.

وهو مشابه لمنحوتات كركميش. وحديثاً عام ١٩٨٣ ورد إلى متحف حلب، نصبان من حجر البازلت، عثر عليهما صدفة أثناء الحرث في صرين بالقرب من عين العرب. على أحدهما مشهد عربة يقودها رجلان (صورة رقم ١٤)، ومن دراسة أسلوب النحت فيه، نرى أنه مشابه لمنحوتات الدولة الآشورية ويمكن ضمه إلى مجموعة المنحوتات المكتشفة في أرسلان طاش (حداتو) المعروضة في متحف حلب الوطني.

أما النصب الآخر، فهو بحجم الأول، وقد نقش عليه رمز إله القمر (سن) إله حران، وهو عبارة عن هلال يرتكز فوق رمز آخر للإله مردوخ . (صورة رقم ١٥) .



الصورة ١٥: مشهد عليه رمز إله القمر ورمز آخر للإله مردوخ ـ متحف حلب الوطني ـ



الصورة ١٦: تمثال أمير من حجر البازلت عثر عليه في صرين (عين العرب) متحف حلب الوطني ـ القرن التاسع ق.م.

ومن صرين أيضاً تمثال من حجر البازلت بطول ١,٩٤م وعرض ٤٧سم، لأمير يرتدي ثوباً طويلاً متنطقاً بزنار، ذي شرابة، يتدلى منه سيف، وهو عاري الرأس، يحمل في يده اليمنى عصا طويلة . انظر (الصورة رقم ١٦)

وتمثال الأمير هذا مشابه لتمثال عين التل الذي مر ذكره (صورة رقم ١٧) . وهما أقرب إلى الأسلوب الحثي الجديد المعروف في كركميش، منه إلى الأسلوب الآرامي المتأثر بالفن الآشوري.

وفي موقعي أرسلان طاش وتل حاجب (مدينة حداتو)، تشكلت بعثة فرنسية برئاسة الأستاذ تورو دانجان، للتنقيب فيها، إثر اكتشاف نصب محارب صدفة عام ١٩٠٠م، وهو موجود حالياً في متحف اصطنبول . إلا أن البعثة المذكورة، لم تعثر على آثار تعود إلى عصر أقدم من العصر الآشوري، وكل الآثار المكتشفة في هذين التلين، هي من صنع محلي خلال الحكم الآشوري، ويظهر ذلك من رداءة النحت، ومن العجز عن إبراز التفاصيل الدقيقة، التي اشتهر بها الفن الآشوري الحديث .

ولم تكن أعمال التنقيب التي جرت من عام ١٩٢٩ـ ١٩٣١ في تل أحمر (بارسيب) أوفر حظاً، إذ لم يعثر إلا على بقايا أبنية لا أهمية لها تعود إلى ما قبل الاحتلال الآشوري، ولا تحوي أية منحوتة من العصر الآرامي.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة آثار آرامية كثيرة بعد معاودة التنقيب في التل من قبل بعثة استرالية.

ومن تل فريج الذي يقع حوالي ٢٠كم شمال خان شيخون، حصل متحف حلب على نصب (شاهدة قبر) نقش على القسم العلوي منه مشهد وليمة، وعلى القسم السفلي حيوان يذبح. والتل غير منقب ولا يعرف عنه شيئاً.

وكان قد قام الأستاذ (مكوان) بأعمال التنقيب الأثري لعدة مواسم في تل طعينات (سهل أنطاكية) اكتشف خلالها عدداً من الأبنية، مشيدة بأسلوب « بيت حيلاني » المعروف في تل حلف وعين دارا.

كما قامت البعثة الإيطالية برئاسة الأستاذ باولو ماتييه (المنقب في تل مرديخ) بإجراء بعض الأسبار على سطح تل أفيس الضخم، والواقع على بعد ٤٠كم جنوب غرب حلب، وكان الدافع إلى إجراء هذه الأسبار العثور صدفة في أوائل العشرينات من هذا القرن على نصب من حجر البازلت، يحمل كتابة آرامية، منقوش عليه صورة شخص واقف، لم يبق منه سوى القسم السفلي، وهو موجود حالياً في متحف اللوڤر ومنشور في مجلة سيريا رقم ٣ عام ١٩٢٢.

ويذكر النص الآرامي اسم زكير ملك حماه ولغش، كما يلقي بعض الأضواء على العلاقات السياسية، التي كانت سائدة بين شتى دول الإمارات الآرامية في ذلك الحين.

وقد أختلط الأمر فيما يبدو على الأستاذ ماتييه بين هذا النصب والنصبين المنسوبين إلى النيرب (أنظر شواهد القبور).

فالنصبان المذكوران تم شراؤهما من النيرب، بين عامي ١٨٩١و ١٨٩٧ ونشرا في مجلة (Etudes d' Archeologie; Orientale II) ويعتقد أنهما في الأصل من المقبرة المكتشفة في النيرب، ويمثل أحدهما الكاهن إجبار في حالة الجلوس على مائدة الوليمة الجنائزية، يحمل في يده كأساً للشرب، وأمامه خادم يذب عنه بمذبه.

ويذكر نص الكتابة المحفورة تحت قوس النصب، أن صاحب الصورة، هو الكاهن إجبار، كاهن إله القمر في حران والنيرب، وترد في النص أسماء الآلهة شمش، ونرجال، ونوسكو، ثم ينتهي النص بالدعاء على كل من يشوه هذا النصب.

وطراز مائدة الوليمة مشابه لشاهدة قبر أميرة من سمآل موجودة حالياً في متحف بركامون ببرلين. وثوب الكاهن يشي بتأثيرات العصر الآشوري الحديث، ويؤرخ النصب بحوالي عام ٧٣٠ق.م.

أما النصب الثاني فتذكر كتابته اسم الكاهن (سن ـ زرـ ابني) الذي يقف رافعاً إحدى يديه للتحية وحاملاً في الأخرى منديلاً مطوياً.

وقد انتشرت الكتابة تحت قوس النصب، وعلى أسفل ثوب الكاهن حيث تقول: (سن ـ أزر ـ ابني)، كاهن سن، هو متوفي وهذه صورته وقبره. وينتهي النص كسابقه بلعن كل من يسيء إليه.

والمعروف أن تل النيرب يقع على بعد ٦كم فقط من الجنوب الشرقي لمدينة حلب، ولا ندري ما الأسباب التي دعت الأستاذ ماتييه إلى نسب النصبين السابقين إلى تل أفيس، رغم ورود اسم النيرب مقترناً بحران في نصب الكاهن إجبار؟

وقد تم اكتشاف مقبرة في قمة التل عام ١٩٢٦ من قبل بعثة فرنسية برئاسة الأستاذ آبل باروا، كما عثر على ٢٥ رقيم طيني في التل، يرد فيها ذكر مدينة النيرب أيضاً. ونعتقد أن العلبة المصنوعة من حجر الديوريت، والتي حصل عليها متحف حلب عن طريق الشراء، تعود أصلاً إلى تل رفعت (أرفاد)، وقد نقش عليها مشاهد صيد وقنص أسود وغزلان بواسطة القوس والنبال داخل عربة ملكية ـ ويظهر في المشهد طيور جارحة وكلب. (الصورة رقم ١٨).

وأسلوب النحت فيها يذكرنا بمنحوتات تل حلف (غوزانا) الآرامية. وفي شباط عام ١٩٧٩ عثر على تمثال ضخم من حجر البازلت صدفة جنوب شرق تل فخيرية الواقع جنوب رأس العين وهو موجود حالياً في متحف دمشق الوطني.



مشهد صيد وقنص أسود على علبة من حجر الديوريت يعتقد ـ أنها من تل رفعت

يحمل التمثال صورة الملك هدد يسعي، وقد نقش أسفله فوق الثوب الطويل باللغتين الآشورية والآرامية، ويستدل من النص على اسم مدينة سيكاني حاضرة مملكة جوزان الآرامية، وأسلوب النحت كما هو واضح متأثر بالأسلوب الآشوري الحديث.

نستدل من سياق ما تقدم أن نسبة أعمال التنقيب في مواقع الاستيطان الآرامي ضئيلة جداً، إذا ما قيست مع غيرها. ومعظم الآثار التي تحدثنا عنها، جاءت من أماكن متفرقة في القطر العربي السوري، دون إجراء أعمال تنقيب منهجية فيها. وتبقى الآثار الآرامية في سورية حصيلة فنون لحضارات شعوب متعددة، مضافاً إليها نكهة آرامية متميزة.

المراجع

١- W.Orthmann: Untersuchmgen zur spaethethitischen Kumst. Bomm, 1971.

٢- A.Akurgal, späthethitische Bildkunst.

٣- M.Von Oppenheim, der Tell Halaf.1931.

٤- A.Akurgal, Orient und Okzident,1966.

٥- P.Riis, Hama II,3,1948.

٦- F.Thureau- Dangin, Arslan Tash,1931.

٧- A.Akurgal, die Kumst der Hethiter, 1961,

٨- W. Orthmam, Kunstgeschichte, Berlin 1975.

٩ـ د. علي أبو عساف، الحوليات السورية لعدد ٣٢، عام ١٩٨٢.

١٠ـ دوبونت سومر، تعريب ألبيرا أبونا: الآراميون، مجلة سومر، المجلد ١٩، عام ١٩٦٣، بغداد.

١١ـ محمد وحيد خياطة، دليل الآثار السورية القديمة.
منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف عام ١٩٧٦.

توسع أورارتو نحو شمال سورية في القرنين التاسع والثامن ق.م

جباغ قابلو
جامعة دمشق

ليس من جديد القول أن منطقة شمال سورية كانت منذ أقدم العصور محطة للتنافس بين مختلف القوى الكبرى التي كانت فاعلة على المسرح السياسي للشرق القديم. وفي مطلع الألف الأول ق.م (خصوصاً القرنين التاسع والثامن ق.م) احتدم الصراع بين أورارتو وآشور للسيطرة على هذه المنطقة مع منطقة جنوب شرق الأناضول.

وكان لكل طرف أسبابه الخاصة للدخول في هذا الصراع. فبينما كانت هذه المنطقة تمثل مجالاً حيوياً لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لآشور لاستمرار حياتها ورخائها الاقتصادي. فإن أورارتو توسعت للسيطرة عليها لقطع طرق الإمداد عن أعدائها الآشوريين وبالتالي إحكام سيطرتهم على عالم الشرق القديم. ولا نستطيع أن نجزم بأن الأورارتيين كالآشوريين كانت دوافعهم اقتصادية بحتة في هذا المسعى. فكثير من الخامات التي كانوا سيحصلون عليها فيما لو سيطروا على منطقة الشمال السوري وجنوب شرق الأناضول وخاصة الحديد كانت متوفرة في بلادهم وكانوا يحصلون عليها من مناجمهم المحلية. وكانت صناعة التعدين بشكل عام متطورة إلى حدٍ كبير في أورارتو. الأمر الذي يرجح من وجهة نظرنا الدوافع السياسية لمحاولة أورارتو فرض سيطرتها على هذه المنطقة وذلك بغرض إضعاف منافسها الوحيد في عالم الشرق القديم آنذاك ونقصد بذلك آشور. ولما فشلت في تحقيق هذا الهدف انقلبت الأمور ضدها وبدأت آشور في فترة انتعاشها في عهد تغلات بلاصر الثالث تجعل من الأراضي الأورارتية هدفاً خاصاً لقواتها إلى أن جاءت حملة شاروكين الثاني ٧١٤ق.م التي شكلت حداً فاصلاً في تاريخ أورارتو. وقد اتخذنا من المصادر الأورارتية (مجموعة النقوش الأورارتية) وكذلك الكتابات الآشورية المتعلقة بشكل خاص بأورارتو منطلقاً لإعداد هذه الدراسة.

❁ ❁ ❁

ليس من جديد القول أن منطقة شمال سورية كانت منذ القدم محطة للتنافس بين الدول الكبرى، التي قامت في منطقة الشرق القديم. فالحثيون على سبيل المثال خاضوا في الألف الثاني ق.م صراعاً طويلاً في هذا السبيل مع كل القوى الكبرى، التي كانت متواجدة على الساحة الدولية آنذاك (بدءاً من مملكة يمحاض فالميتانيين والآشوريين وأخيراً المصريين في معركة قادش حوالي ١٢٨٠ق.م). وإن كانت المصادر الحثية لا تشير صراحة إلى الهدف الذي كان وراء محاولتهم فرض سيطرتهم على الشمال السوري وجعل مقر ولي عهدهم في مدينة كركميش، لمراقبة الأوضاع في هذه المنطقة فإنه ليس من الصعب ملاحظة أن وراء كل ذلك السعي لوضع هذه المنطقة الاستراتيجية تحت سيادتهم، وكذلك من المشكوك فيه أن المواد الأولية التي كانت منطقة شمال سورية غنية بها لم تكن محل اهتمام الحثيين[١].

وشهد مطلع الألف الأول ق.م، ظهور قوى وغياب قوى أخرى، كانت فاعلة فيما مضى على مسرح سياسة الشرق القديم. وقد حاولت القوى الجديدة، دأبها في ذلك دأب من سبقها من القوى التي كانت متواجدة في المنطقة في الألف الثاني ق.م، السيطرة على منطقة الشمال السوري. ونقصد بذلك أورارتو.

وعند طرحنا لمسألة محاولة التوسع الأورارتي في شمال سورية، لابد من أن تستوقفنا الأسباب التي كانت وراء محاولة التوسع هذه. وهل كانت نفس الأسباب التي دفعت بالآشوريين لمد نفوذهم، ومحاولتهم إخضاع هذه المنطقة مثلاً في نفس الوقت؟. أم كانت للأورارتيين أسبابهم ودوافعهم الخاصة بهم؟.

فمن المعروف أن مصير آشور واستقرارها ورخاءها الاقتصادي، كان يستند بشكل دائم على ما تقدمه لها منطقة شمال سورية، من منتجات ومواد أولية مختلفة[٢]. على اعتبار أن بلاد الرافدين، وخاصة بلاد آشور، كانت تفتقد ومنذ أقدم العصور للكثير من هذه المواد، التي كانت تعتبر أساسية ولاغنى عنها لحياة دول العالم القديم (وخاصة الأخشاب والمعادن، الأولى للبناء والثانية للأسلحة).

كما أن منطقة شمال سورية، كانت منطقة الوصل بين آشور وجنوب شرق آسيا الصغرى، التي كانت تقع فيها القاعدة الأساسية لتزويد الآشوريين، وكل الشرق القديم بالمعادن، وخصوصاً الحديد، الذي ازدادت الحاجة إليه، في مطلع الألف الأول ق.م مع بدء انتشاره على نطاق واسع واستخدامه في صنع الأسلحة. إضافة إلى ذلك، فإن الدول الواقعة في هذه المنطقة، سواءً تلك المنتمية إلى العالم الآرامي، أو ما سيسمى بالعالم الحثي الجديد، كانت تسيطر على الطرق التجارية وتفرض الضرائب على القوافل المارة بأراضيها لقاء السماح لها بالمرور الآمن مما أكسبها غنى وثروة لايستهان بهما جعلها محط أطماع القوى الكبرى المحيطة بها وخاصة الآشوريين.

ورغم أن سيطرة أورارتو على شمال سورية كان سيسمح لها بالوصول مباشرة إلى القاعدة الأساسية لتجارة الترانزيت الدولية، وكان سيعطيها أيضاً فرصة ذهبية لتوحد في يديها المصدرين الأساسيين للحصول على المعادن وخصوصاً الحديد في الشرق القديم. الأمر الذي كان سيجعل منها قوة عظمى بالمقارنة مع باقي الدول التي كانت قائمة في المنطقة وخصوصاً دول شمال سورية الغنية ولكن الصغيرة، وكان من الممكن أن يجعل من آشور نفسها دولة تابعة لها[٣]، رغم ذلك فإننا نعتقد بأن هذه الأسباب وحدها (ورغم أهميتها) لم تكن الدافع وراء سعي أورارتو في فترة صعود نجمها في عالم السياسة الدولية للشرق القديم، في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن الثامن ق.م، لفرض سيطرتها على شمال سورية، وإنما كانت لها أهداف سياسية من وراء هذه العملية، تمثلت بإبعاد الآشوريين عن المنطقة وحصرهم في بلادهم الفقيرة، مما كان سيؤدي إلى إضعاف مركزهم ودورهم في عالم الشرق القديم فاتحاً المجال أمام الأورارتيين لفرض هيمنتهم على هذا العالم. ولقد تعرض لهذه المسألة بعض الباحثين مثل (باتسيفا في بحثه حول الصراع الآشوري الأورارتي على شمال سورية)[٤]، وباراميدزه في بحثه حول أهمية شمال سورية بالنسبة لأورارتو)[٥] وسنحاول نحن هنا مناقشة هذه المسألة وذلك من خلال المصادر الأورارتية بشكل أساسي والعائدة لكل من أرغيشتي الأول وساردوري الثاني.

لقد بلغت صناعة التعدين مستواً متطوراً في أورارتو وهذا ماتؤكده المعطيات الآشورية ونتائج التنقيبات الأثرية التي تجري في مختلف المناطق الأورارتية إضافة إلى النصوص التي خلفها الملوك الأورارتيين.

فمن المعروف أن المعابد الأورارتية كانت مراكز مهمة لتصنيع المعادن المختلفة وخصوصاً معبد الإله خالدي في موصاصير المركز الديني الرئيسي لأورارتو، حيث وجدت هنا عنابر ضخمة لسكب المعادن. وغيرها من الورشات التي كانت تنتج فيها مصنوعات برونزية ونحاسية ومن معادن أخرى.

وإذا ما عدنا إلى النصوص الأورارتية، فإننا نلاحظ أن هذه النصوص تذكر مختلف أنواع المعادن ليس فقط أثناء ذكر مقاطعات جنوب شرق الأناضول التي كانت على تماس مباشر مع الأراضي الأورارتية، أو أثناء ذكر بلاد الكولخيد حيث استورد الأورارتيون من هناك بعض المعادن. ولكن أثناء ذكر المقاطعات والمناطق الأورارتية نفسها.

وأما الحديد الذي شكل المعدن الرئيسي في مطلع الألف الأول ق.م فقد شغلت عملية تعدينه مكانة خاصة في أورارتو. حيث استخرج الأورارتيون الحديد من مناجم محلية، وتوصل كويربنغ الذي أجرى دراسة كرسها للحديد في أورارتو إلى نتيجة مفادها أن أورارتو امتلكت مناجم للحديد تعتبر الأفضل والأنقى من بين مثيلاتها في كل الشرق القديم. كما وجدت كميات ضخمة من هذه الخامات الحمراء التي تحتوي على نسب عالية من الحديد تصل حتى ٦٥٪[٦].

وكثيرة هي مناجم الحديد المعروفة في وسط أورارتو، وخاصة في مناطق بحيرة ڤان وبيلسك وموشكي وكذلك في الجبال الواقعة إلى الغرب من بحيرة أورميا. ويفترض ماربتروسيان أن منطقة بحيرة ڤان كانت تمثل القاعدة الأساسية لصناعة التعدين الأورارتية[٧].

وهنا لايمكن أن نتجاهل كمية الحديد الكبيرة التي تم اكتشافها في موقع توبراك كاله (توشبا) في نهاية القرن الماضي والتي تتراوح كميتها ما بين ٥٠٠ ـ ٦٠٠ قطعة مختلفة والتي تثبت وجود صناعة تعدين متطورة في أورارتو في هذا الوقت.

أما المصادر الكتابية الأورارتية فتأتي على ذكر الحديد مرة واحدة وذلك أثناء سرد الملك ساروردي الثاني أخبار حملته إلى بلاد الكولخيد[٨] وذلك على الشكل التالي:

« ساروردي يقول: قمت أنا (بحملة) ضد بلاد كولخا، البلاد أنا .....، مدينة إيلداموشا، مدينة ملكية ..... ملك بلاد كولخالي، المحصنة، بالحرب أنا احتليت سكانها أنا أحرقت؛ lu irdi[٩] بلاد كولخا، الذي كان هناك. أنا أمته (قتلته). أختاماً حديدية أنا حضرت (صنعت). وضعت كتابة في مدينة إيلداموشا، القلاع، المدن أحرقت (و) دمرت، البلاد هدمت، الرجال والنساء أسرت[١٠].

ولكن عدم ذكر الحديد في المصادر الأورارتية إلا على هذا النحو يجب ألا يجعلنا نعتقد أن الأورارتيين لم يعرفوا هذا المعدن أو لم يكن موجوداً في بلادهم، وأنها سعت للتوسع في الشمال السوري وجنوب شرق الأناضول سعياً وراء هذا المعدن.

وهنا نستطيع أن نسترشد بالرأي الذي تطرحه يانكوفسكايا، والمتعلق بهذه الظاهرة فيما يتعلق بآشور (أي قلة ذكر الحديد في المصادر الأشورية، رغم أنه يذكر في هذه المصادر أكثر بكثير مما يذكر في المصادر الأورارتية).

هذا الرأي الذي يتلخص بأن الحديث هنا يدور عن مادة استراتيجية وثمينة، تصل في أهميتها إلى أهمية المعادن الثمينة، إن لم تكن تفوقها في هذه المرحلة التاريخية. وكان الحديد كالمعادن الثمينة يخزن في المعابد والقصور، ولذلك كان يفضل عدم ذكره كثيراً[١١]. وهناك أمر أخر نود الإشارة إليه هنا، وهو أن نقوش وحوليات الملوك الأورارتيين العائدة لهذه الفترة، وخصوصاً أرغيشتي الأول وساردوري الثاني نادراً ما تأتي على ذكر حصول هؤلاء الملوك على المعادن أثناء حملاتهم المختلفة وخصوصاً أثناء حملاتهم نحو شمال سورية.

فأرغيشتي حصل على جزية من ملك الدياأوخيين[١٢] شملت مايلي: ٤١ مينا ذهب خالص، ٣٧ مينا فضة، عشرة آلاف مينا نحاس[١٣]. في حين أن ساردوري الثاني يذكر أيضاً ولمرة واحدة حصوله على معادن من ملك كوموخ[١٤] في شمال سورية بعد حملة قام بها ضد هذه البلاد وشملت الجزية مايلي:

٤٠ مينا من الذهب الخالص، ٨٠ مينا من الفضة، ٣٠٠ قطعة قماش، ٢٠٠٠ ترس نحاسي و١٥٣٥ كأس نحاسي[١٥].

في حين أن كل الملوك الأورارتيين يذكرون وبالتفصيل أعداد الماشية التي استولوا عليها وساقوها إلى بلادهم إضافة إلى أعداد الأسرى من الرجال المحاربين ومن المدنيين نساءً ورجالاً

وفتياناً . فأرغيشتي يذكر أنه نتيجة حملة قام بها ضد بلاد بخاتي[١٦] والمناطق المجاورة قام بنقل ٨٦٩٨ رجل و١٨٠٤٧ امرأة أحياءً إلى بلاده[١٧] .

وإذا ماقارنا ذلك بما حصل عليه شلمنصر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ق .م) كجزية من شمال سورية لتبين لنا الفرق وبسهولة . فهذا الأخير حصل من المعادن من دول شمال سورية في إحدى حملاته ضدها على مايلي : من سانغار ملك كركميش ٣٠ تالانت ذهب، ٧٠ تالانت فضة، ٣٠ تالانت نحاس، ١٠٠ تالانت حديد، ومن حيان ملك سمأل حصل على ١٠ تالانت فضة، ٩٠ تالانت نحاس و٣٠ تالانت حديد، ، ومن خاطينا حصل على ٣ تالانت ذهب، ١٠٠ تالانت فضة، ٣٠٠ تالانت نحاس و٣٠٠ تالانت حديد[١٨] .

إن تحرك الآشوريين باتجاه شمال سورية وجنوب شرق الآناضول، بدأ قبل فترة طويلة من ظهور الأورارتيين على مسرح التاريخ كدولة موحدة . وكان ذلك على صلة مع سعيهم لوضع طرق تجارة الترانزيت الدولية، المارة بهذه المنطقة تحت سيطرتهم . إضافة إلى وضع يدهم على « طريق الحديد » هذا الطريق الذي كانت تسيطر عليه دول الشمال السوري وجنوب شرق الآناضول[١٩] .

إن التوسع الآشوري في القرن التاسع ق .م خصوصاً في عهد كل من آشورناصربال الثاني وشلمنصر الثالث بالنسبة لأورارتو يعني فصلها عملياً عن العالم السوري الحثي وقطع صلاتها الحضارية والاقتصادية مع هذا العالم، هذه الصلات التي كانت قد بدأت بإنشائها منذ بداية ظهورها كدول موحدة، ولذلك فإنها خاضت حرباً مصيرية لوقف هذا التوسع، معتمدة في ذلك إما على التوسع والتدخل المباشر، أو إثارة الدول القائمة في المنطقة ضد الآشوريين مادة لهم يد العون والمساعدة، وحتى المشاركة المباشرة في كافة الأحلاف التي جمعت دول الشمال السوري لمواجهة الخطر الآشوري . وإذا كانت أورارتو قد حصلت على المعادن من بلادها (كما أشرنا)، فإنها رغبت وبقوة بمنع الآشوريين من الحصول على هذه المعادن، خصوصاً أنّ بلادهم كما ذكرنا كانت تفتقد لمثل هذه الخامات . وبالمقابل فإن آشور كانت هذه الحرب بالنسبة لها مسألة حياة أو موت لما لهذه المنطقة من أهمية حيوية بالنسبة لها، لذلك قاومت بشدة وبكل الوسائل السياسية والعسكرية المتاحة أمامها، محاولة التوسع الأورارتي محاولة الإحتفاظ وبكل قوتها بمجالها الحيوي هذا في شمال سورية .

إن أول ذكر لأورارتو كدولة موحدة تلعب دوراً هاماً وأساسياً في منطقة المرتفعات الأرمينية يأتي في نقوش الملك الآشوري آشورناصربال الثاني (٨٨٣ ـ ٨٥٨ ق .م) . وبعد فترة من الإنقطاع يقوم خليفة هذا الملك وابنه شلمنصر الثالث في العام ٨٥٦ ق .م بحملة كبرى شملت بلاد الموشكيين (الزي) والتاوخيين، ومن هنا هاجم أورارتو من الخلف ـ من الشمال الغربي ـ وكانت نتيجة الهجوم هزيمة كبيرة لحقت بالأورارتيين، وقيام شلمنصر الثالث بغسل!أسلحته في مياه « بحر نايري » أي بحيرة ڤان « أنا خرجت من سوغوني، نزلت إلى بحر نايري، غسلت في البحر أسلحتي، وقدمت الأضاحي لآلهتي »[٢٠] .

بعد ذلك تضاءلت الصدامات المباشرة بين الجيشين الآشوري والأورارتي وأصبحت الحرب بينهما غير مباشرة وتستهدف بالدرجة الأولى، السيطرة على الدول الصغيرة الواقعة بينهما والتي كانت تشكل حاجزاً يفصل بينهما . وكان ذلك نتيجة الضعف الذي أصاب الدولة الآشورية، بعد وفاة شلمنصر الثالث نتيجة لعوامل داخلية كثيرة، مما منعها من التدخل المباشر والفعال ضد أورارتو أو غيرها من الدول التي كانت متواجدة على الساحة، وفي نفس الوقت فإن أورارتو لم تستشعر بنفسها القوة الكافية لمهاجمة آشور في عقر دارها .

ولكن الأمور تبدأ بالتحول لمصلحة أورارتو حوالي منتصف القرن التاسع ق .م، حيث يبدأ نجاح الملوك الأورارتيين بتنفيذ مخططاتهم الهادفة للوصول إلى الشمال السوري وإزاحة الآشوريين من هذه المنطقة، وذلك عن طريق ممارسة سياسية جديدة أساسها محاولة محاصرة آشور ضمن أراضيها تدريجياً، وذلك بهدف فرض السيادة الأورارتية على عالم الشرق القديم، هذه السيادة التي ما كان لها لتتحقق طالما وجدت آشور كدولة قوية مسيطرة على منابع المواد الخام وطرق التجارة والترانزيت . وقد اتبع هؤلاء الملوك في هذا السبيل سياسة تقوم على تطويق آشور من جهتين :

من الشرق حيث أخضعوا بنتيجة حملات مينوا ين ايشبويني وابنه أرغيشتي بشكل شبه تام بلاد المانيين إلى الجنوب

من بحيرة أورميا ووصلوا في توسعهم في هذا الإتجاه حتى مناطق نهر الديالي ففي نص يسرد أخبار حملات مينوا يرد ما يلي: « مينوا يقول أنا جعلت طعماً للنار بلاد ....[ ] المانيين »[٢١].

أما أرغيشتي فيذكر في كتابة له « ... في نفس العام أنا قمت (بحملة) إلى بالاد مانا ... بلاد بوشتو على نهر توران[٢٢] قلعة (؟) على الصخور (؟) محصنة، استوليت عليها حرباً، ورجالاً (و) نساءً، أخذت من هناك ... »[٢٣]. وفي نص آخر له يقول « أرغيشتي بن مينوا يقول: خالدي القوي، أسلحة الإله خالدي القوية. الإله خالدي العظيم قام (بحملة) إلى بلاد مانا، احتليت أنا بلاد ايركبوني، وصلت (؟) حتى جبال آشور »[٢٤].

أما في الغرب فقد حاول الأورارتيون إخضاع دول الشمال السوري الحثية خصوصاً، كميليد وكوموخ القريبة منهم وإيجاد صلات وعقد تحالفات مع باقي دول شمال سورية، وخاصة أرفاد متزعمة العالم الآرامي في هذه الفترة، محاولين ربما الوصول إلى البحر المتوسط. فالملك مينوا بن إيشبويني يذكر في كتابة له عثر عليها على ضفة نهر مراد ـ سو إلى الشرق من يريفان، يذكر مايلي: « الإله خالدي القوي قام (بحملة)، مينوا بن إيشبويني احتل هو مدن بلاد شيبتريا، احتل هو بلاد خوزانا، احتل هو مدن بلاد تسوباني، وصل حتى بلاد خاتي ... الإله خالدي هو وضع هذا النقش (؟). في مدينة شيبتريا هو بنى معبد (؟) الإله خالدي. مدينة شيبتريا ... ملك مدن ملاطيه هو سامحه بشرط (دفع) الجزية »[٢٥].

وتكررت هذه الحملات في عهد أرغيشتي بن مينوا، ففي حولياته وفي الجزء الذي يسرد فيه أخبار حملات العام الرابع من حكمه يرد مايلي:

« أرغيشتي بن مينوا يقول ... قمت أنا (بحملة) إلى بلاد خاتي، احتليت أنا وادي (؟) بلاد النيرب[٢٦]، بلاد ... مدن [ ] أورماني، المحصنة حرباً استوليت عليها. مدينة [ ] أداني، المدينة الملكية، أنا احتليت.

الإله خالدي العظيم قام (بحملة) إلى بلاد خاتي، مقاطعات (؟) بلاد (قبائل) توايتخي أنا أبقيت عليها (رحمتها)، Salmthi مدينة ملاطية. وصلت أنا إلى مدينة بيترا »[٢٧]. وفي نص آخر يصف أحداث نفس الحملة يذكر أرغيشتي « مدينة ايربوني[٢٨] أنا بنيت من أجل بلاد بيانيلي[٢٩] القوية، ومن أجل إخماد (؟) البلاد المعادية. الأرض كانت فارغة لم يكن هناك أي شيء مبني. قمت بعمل عظيم هناك ٦٦٠٠ جندي من بلاد خاتي (و) تسوباني أنا أسكنت هناك ...[٣٠] وفي مكان آخر من هذا النص يتابع بأن « الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر هو على الجيش الآشوري، انتصر على بلاد أرسيتاني، صرعهم أمام أرغيشتي.

وكما نلاحظ مما أوردناه سابقاً من نصوص فإن الضغط الأورارتي قد أصبح أكثر حدة على الآشوريين في عهد أرغيشتي ومن كل الجهات. ولكن رغم ذلك فإن الآشوريين حاولوا في بعض الأحيان الوقوف في وجه هذا الضغط الأورارتي ومقاومته، خصوصاً في عهد شلمنصر الرابع (٧٨١ ـ ٧٧٢ق.م) الذي تذكر حولياته قيامه بمهاجمة أورارتو أربع مرات كان هو شخصياً على رأس الجيش الآشوري في أحدها، وكان شمشي إيلو قائد الجيوش الآشورية على رأس حملة أخرى حيث يذكر في نقش له من تل برسيب أنه تمكن من إلحاق الهزيمة بأرغيشتي » الذي اسمه مرعب مثل عاصفة قوية والذي قوته واسعة »[٣١].

ولكن هذه الإنتصارات لم تكن كافية لوضع حد للتغلغل الأورارتي ومحاولة فرض النفوذ الأورارتي في الشمال السوري، حيث غابت آشور مرة أخرى عن مسرح الأحداث نتيجة لمشاكلها الداخلية، على عكس الأورارتيين الذين استمروا بتدعيم نفوذهم في عهد خليفة أرغيشتي، ساردوري الثاني (٧٦٠ ـ ٧٣٠ق.م) خاصة في النصف الأول من عهده الذي بلغت فيه أورارتو الذروة في قوتها وهيمنتها على مناطق الشمال السوري.

ففي كتابة تعود إلى السنوات الأولى من حكمه (ربما العام الأول) يذكر ساروردي مايلي: « ساروردي يقول: خرجت أنا وأمرت (؟) لتحتل مدينة ملاطية. ظهر خيلاروادا أمامي، انكب على وجهه، قبل أقدامي، أنا أظهرت (نحوه) الرحمة، نقلت أنا من هناك الذهب (و) الفضة، قطعان الماشية أنا نقلت إلى بلاد بياينيلي. هو (نفسه) أنا سامحت بشرط أن (يدفع) الجزية. تسعة حصون (مدن) أنا سلخت من هنا

(و) أتبعتها لبلادي : مدن خازاني، غاوراخي، توميشكي، أسين، خانينو، أروني، كولبيتاريني، تاشه، كوراتياشه، ميلوياني »[٣٢] .

وفي نص آخر يقص أحداث الأعوام بين ٧٤٦ـ ٧٤٤ق .م من حكمه يتعرض ساروردي لذكر بلاد كوموخ حيث يصفها بالبلاد التي لم يسبق لأحد أن وصل إليها من قبل « الاله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر هو على بلاد كوماخاخالي[٣٣] . هزمهم أمام ساروردي بن أرغيشتي . خالدي قوي، أسلحة الإله خالدي الأقوى . قمت (بحملة) أنا ساروردي بن أرغيشتي . ساروردي يقول : كوشتاشبيلي ملك بلاد كوماخالخي، كان مستقلاً (؟) ولا واحد من ملوك (أورارتو؟) لم يكن هناك (؟) ساروردي بن أرغيشتي يقول : تضرعت (أنا) إلى الإله خالدي سيدي إلى تيشبا، إلى شيفيني، إلى (كل) آلهة بلاد بياينيلي عما أريد (القيام) في البلاد المعادية . استمعوا (إلى سؤالي)، الآلهة فتحت الطريق أمامي . أنا توجهت، قمت أنا (بحملة) إلى بلاد كوماخالخي . مدينة أويتا، المدينة المحصنة أخذتها حرباً . مدينة حلبا[٣٤] المدينة الملكية (الواقعة) في منطقة بحيرات أنا احتليت مدينة بارالاني[٣٥] المدينة الملكية، أنا احتليت »[٣٦] .

وكان ذروة انتصارات ساروردي، على ما نعتقد، الحاقه الهزيمة بالملك الآشوري، آشور نيراري الخامس . وكان ذلك في العام ٧٥٣ أو ٧٥٢ق .م حيث يرد في نص له عثر عليه في كنيسة صورب ـ بوغوص أن « الإله خالدي قام (بحملة) مع أسلحته، انتصر على مورينو ملك بلاد أوليكوخي، انتصر على تسينالييي (من) قبيلة لويخو، ملك بلاد توليخو، انتصر هو على آشور نيراري ملك آشور، هزم بلاد آرم[٣٧] هزم مدينة نيهيريا المدينة الملكية لهذه البلاد »[٣٨] .

وكان لهذا النصر أصداؤه الواسعة في منطقة الشمال السوري، حيث سارع متع ايل ملك أرفاد بنقض قسمه بالولاء والخضوع وتقديم الدعم العسكري، الذي كان قد أداه آشور نيراري عام ٧٥٤ق .م بعد حملة وحيدة قام بها هذا العاهل باتجاه الشمال السوري ناقلاً تحالفه إلى الملك الأورارتي ساردوري الثاني .

إن تسابق العاهلين الآشوري والأورارتي لكسب أرفاد إلى جانبه يكشف ما لهذه المنطقة من أهمية وحساب في ميزان القوى على الصعيد الدولي في هذه المرحلة . ولكن مما يلفت الإنتباه أن دول شمال سورية، وقفت طوال فترة الصراع الآشوري الأورارتي إلى جانب الأورارتيين، معتبرين، على ما يبدو الأشوريين الطرف الأكثر خطورة على وجودها واستقلالها .

ولكن الأمور بدأت بالتغير بالنسبة لأورارتو مع صعود تغلات بلاصر الثالث عام ٧٤٥ق .م العرش الآشوري . وإعادة تنظيم الجيش والإدارة في الدولة الآشورية . وكان النصر الذي حققه على تحالف دول شمال سورية المدعوم من أورارتو عام ٧٤٣ق .م بداية لمرحلة جديدة في تاريخ محاولة أورارتو فرض سيادتها على الشمال السوري بشكل خاص والصراع الأورارتي الآشوري بشكل عام .

إن أول مواجهة جرت بين الطرفين كانت على ما يعتقد في العام الثالث من حكم تغلات بلاصر الثالث . وفي نص مشوه تقريباً نقرأ عن حلف قام بين دول شمال سورية بمشاركة أورارتو وعن حرب نشبت بين أطراف هذا الحلف وبين تغلات بلاصر الثالث : « . . .[في العام الثالث] لحكمي [ساردوري الأورارتي ثار ضدي وقام بالإتفاق مع] متع ايل [من بيت أغوشي . . . سولومال الميليدي]، تارخولار [الجورجو] مي و[كوشتابي الكو] موخى [اعتمدوا] على قوتهم مجتمعين . قوة وعظمة آشور، سيدي [أنا اشتبكت . . .] أنا أقمت لهم [مجزرة] »[٣٩] .

ولابد من أن يكون لترتيب أسماء الملوك في هذا النقش دلالته أيضاً حيث يرد في البداية الطرف الأقوى فالأضعف وهكذا .

وهناك نص آخر من العاصمة الآشورية الكلخ يقص أخبار حرب نشبت بين ساردوري الثاني وتغلات بلاصر الثالث، وقد تكون هي نفس المعركة التي تحدث عنها النص السابق إلا أن النص هنا لا يأتي على ذكر جميع حلفاء ساردوري من ملوك دول شمال سورية باستثناء متع إيل ملك أرفاد مما يدل على المكانة والأهمية التي كانت تشغلها هذه الدولة في شمال سورية في هذه الفترة . وفيما يلي نستعرض هذا النص : « ساردوري الأورارتي ثار ضدي، وقام بالإتفاق مع متع إيل في كيشتان وحلبا مناطق مدينة كوموخ، أنا ألحقت به الهزيمة وكل معسكره أنا انتزعت منه »[٤٠] .

لقد شهدت أعوام ٧٤٢ـ ٧٤٠ق .م حملات متتالية قام بها تغلات بلاصر الثالث ضد أرفاد وذلك بهدف القضاء على تحالف دول شمال سورية، وبالتالي إخراج أورارتو من هذه المنطقة . وفي عام ٧٣٨ق .م جرت المعركة التي قد تكون الفاصلة في تاريخ التدخل الأورارتي في الشمال السوري وهي التي جمعت ساردوري وحلفاؤه من دول شمال سورية هذه المعركة التي جرت في كوموخ أيضاً وانتهت بهزيمة أخرى لدول هذا التحالف . إن هذه الهزائم المتتالية التي لحقت بالعاهل الأورارتي ساردوري الثاني، وضم الأجزاء الجنوبية الغربية من مملكته إلى الدولة الآشورية، أدت إلى فقدان الصلة الطبيعية التي سعى كل ملوك أورارتو لإيجادها مع دول شمال سورية .

هذا عدا عن أن هذه الهزائم أعطت المجال لسكان البلاد التي كان الأورارتيون قد أخضعوها، للإنتفاض عليهم وطردهم منها وخصوصاً فيما يتعلق ببلاد مانا . كما سببت هذه الهزائم أيضاً الكثير من المشاكل الداخلية، حيث تمرد حكام المقاطعات على ساردوري الذي أطاح به انقلاب على الأغلب كانت الضربة القاصمة التي لحقت بأورارتو، تلك التي ألحقها بها شاروكين الثاني بنتيجة حملته المدمرة ضدها والتي قام بها في العام ٧١٤ق .م وجال خلالها كل الأراضي الأورارتية تقريباً[٤١] .

ويسمح لنا نقش يعود لروسا الثاني بن أرغيشتي الثاني (٦٨٥ـ ٦٤٥ق .م) بإمكانية الإفتراض، بأن الحاجز أو السد الذي حاول تغلات بلاصر الثالث أقامته في وجه تقدم الأورارتيين نحو الشمال السوري، لم يمنعهم أحياناً من التقدم والوصول إلى منطقة بيت زماني (آمد) وألزيو ومن المحتمل جرجوم أيضاً . غير أن هذا لا يعني أنه كانت هناك محاولات أورارتية منتظمة للعودة إلى هذه المنطقة في الوقت الذي كان فيه روسا يسعى جاهداً للإحتفاظ بعلاقات صداقة وسلام مع آشور هانيبال .

إن فشل أورارتو في إيجاد موطىء قدم ثابت لها في منطقة الشمال السوري أدى إلى خسارتها لمعركتها من أجل إبعاد آشور عن هذه المنطقة، ومحاصرتها في بلاد فقيرة بالمواد الخام وبعيدة عن طرق التجارة الدولية، وبالتالي أدت إلى خسارتها لمجمل الصراع مع الآشوريين لفرض الهيمنة على عالم الشرق القديم، هذه الهيمنة التي آلت إلى الآشوريين .

كما أن إهتمام أورارتو في هذه المرحلة يبدأ بالتحول إلى مناطق أخرى، ولاسيما فيما وراء القفقاس، حيث سعت للتعويض عن الأراضي التي خسرتها في الغرب .

الحواشي

(١) غيور غادزه غ .غ : صراع الحثيين للسيطرة على شمال سورية في عصر الدولة القديمة، مجلة « أخبار التاريخ القديم » العدد / ١ / عام ١٩٦٤ موسكو ص٤ .

(٢) فرزات حرب : عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم (حتى أواخر القرن الثامن ق .م)، مجلة دراسات تاريخية، العددان التاسع عشر والعشرون، نيسان ـ تموز ١٩٨٥ . دمشق ص ١٨٢ ومايليها .

(٣) باراميدزة .آ .آ . : حول أهمية سورية بالنسبة لأورارتو، مجلة أخبار متحف الدولة الجيورجي، العدد العشرون /ب / تبيليسي ١٩٥٩ص٢٩٩ .

(٤) باتسييفا س .م : الصراع الآشوري الأورارتي للسيطرة على شمال سورية، مجلة أخبار التاريخ القديم العدد /٢ / ١٩٥٣ موسكو .

(٥) باراميدزة آ .آ: المرجع السابق .

(٦) باراميدزة آ .آ: المرجع السابق ص٣٠٠ .

(٧) ماريتروسيان أ .أ . : تنقيبات غولوفينو . ص ١٠٣ ١٩٥٤ يرفان .

(٨) Qulha : بلاد الكولخيد ـ تقع هذه البلاد على شواطىء البحر الأسود وتشكل جزءً من جمهورية جورجية الحالية .

(٩) LU irdi : من المحتمل أنها تعني حاكم أو والي في المصادر الأورارتية .

(١٠) ميليكيشفيلي غ .آ: النقوش المسمارية الأورارتية موسكو ١٩٦٠ ص ٢٨٢ .

(١١) باراميدزة : المرجع السابق ص٣٠١+ يانكوفسكايا : بعض الأسئلة المعلقة باقتصاد الامبراطورية الآشورية، مجلة التاريخ القديم العدد / ١ / ١٩٥٦ص ٣٦ .

(١٢) ديأوخي (diau (e) hi) : تذكر أيضاً في المصادر الآشورية العائدة للفترة ما بين القرنين الثامن والتاسع ق .م بصيغة Daiani أو Daiaeni .والحدود الجنوبية لهذه المنطقة كانت تقع في منطقة أرضروم وأعالي الفرات الحالية وتمتد من هناك شمالاً .

(١٣) ميليكشفيلي : المرجع السابق ٢٣٥ .

(١٤) Qumaha : بلاد كوموخ (كوماجن الكلاسيكية) تقع إلى الغرب من نهر الفرات إلى الجنوب من ميليد وامتدت حدودها حتى أرفاد تقريباً .

(١٥) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٢٨٥ .

(١٦) بلاد خاتي حسب مفهوم النصوص الأورارتية كانت تعني أقصى جنوب شرق آسيا الصغرى .

(١٧) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص١٢٦ .

(١٨) باتسيفا : المرجع السابق ص٢١ .

(١٩) دياكونوف أي .م : أورارتو ـ فريجيا ـ ليديا في كتاب تاريخ العالم القديم موسكو ١٩٨٩ص٥٠ .

(٢٠) دياكانوف أي .م : المصادر الآشورية ـ البابلية المتعلقة بأورارتو، مجلة أخبار التاريخ القديم العدد / ٢ / ١٩٥١ ص٢٩٥ .

(٢١) ميليكيشفيلي : المرجع السابق ص١٥١ .

(٢٢) من المحتمل أن يكون نهر الديالي الحالي .

(٢٣) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٢٢٠ .

(٢٤) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٢٣٩ .

(٢٥) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص١٦١ .

(٢٦) Niriba : تقع هذه البلاد في جبال كاشياري (طور عابدين الحالية) .

(٢٧) Pitra : قد تكون نفسها التي ترد في النصوص الآشورية تحت اسم Pitru أو Pitura . وهي تقع عند مدينة دياربكر الحالية على الشاطىء الشرقي لنهر دجلة .

(٢٨) مدينة في جنوب القفقاس .

(٢٩) بياينيلي Bianili : الاسم الذي كان يطلقه الأورارتيون على بلادهم .

(٣٠) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٢١٦ .

(٣١) دياكونوف : المصادر الآشورية ص.٣٠٣ .

(٣٢) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٢٩٩ .

(٣٣) هكذا أوردت في النص تسمية بلاد كوموخ كما وردت بصيغة كوماخالخي .

(٣٤) Halpa : إحدى المدن الملكية (المقرات الملكية) لبلاد كوموخ . وترد في النصوص الآشورية بصيغة Halpa . وكما يعتقد ميليكشفيلي فإنها قد تكون خالفاني الحالية إلى الجنوب الشرقي من مدينة عينتاب الحالية عند منعطف نهر الفرات إلى الجنوب .

(٣٥) من مدن بلاد كوموخ .

(٣٦) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٣٠٣ .

(٣٧) بلاد Arm : يرد هذا الاسم في النصوص الآشورية بصيغة Airme . وهي على الأغلب اسم مقاطعة في شمال بلاد الرافدين . إلى الشمال الغربي من مدينة دياربكر الحالية .

(٣٨) ميليكشفيلي : المرجع السابق ص٣٠٠ .

(٣٩) دياكونوف : النصوص الآشورية ص٣١١ .

(٤٠) دياكونوف : النصوص الآشورية ص٣١٤ .

(٤١) حول حملة شاروكين الثاني ضد بلاد أورارتو انظر : ميدفيدسكايا أي .ن . حول تحديد مسار حملة شاروكين في عام ٧١٤ق .م مجلة أخبر التاريخ القديم العدد / ٢ / ١٩٨٩ ص١٠٠ ومابعدها .

النشاط التجاري في حلب خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة ـ العاشر والحادي عشر للميلاد

محمد زيود
جامعة دمشق

تناول هذا البحث الحديث عن حلب وحدودها وإلى أي مدى وصلت إليه في هذه الفترة، وتطرق تفصيلاً للعوامل المؤثرة في التجارة إيجاباً وسلباً، وكان أهمها الموقع المهم والإستراتيجي لحلب، ثم ما وفره الإسلام والحكام العرب المسلمون والعلماء من أمور أسهمت في التطور الحضاري بشكل عام، كما تطرق البحث لبعض معوقات التجارة التي كان على رأسها الإخلال بالأمن الناتج عن الحروب والأطماع والصراعات الكثيرة على المنطقة، ثم تناول الحديث التجارة الداخلية وخص الأسواق التجارية ونشأتها وتطورها ومواقعها وأنواعها والسلع التي كانت تباع فيها، أما الحديث عن التجارة الخارجية فقد ركز على السلع المصدرة من مواد أولية وصناعات نسيجية على مختلف أنواعها، ثم جرى التأكيد على أهم السلع المصدرة من زجاج وورق وغيرهما.

أما المحاصيل الزراعية فكانت كثيرة وأهمها الزيتون وما ينتج عنه ثم الفستق، ونظراً لكثرة نباتات حلب وبذورها وأزاهيرها ورياحينها فقد كثرت صناعة العطور ومشتقاتها وتصديرها إلى أماكن بعيدة.

أما السلع المستوردة فقد كانت قليلة، ويأتي على رأسها الكتان والمصنوعات الكتانية، والثياب الفاخرة والنفيسة وبخاصة ما كان يدخل من هذه الثياب في الطراز وأخيراً التمور ....

❊ ❊ ❊

هذا البحث طويل وشائك ومتعدد الطرق والمفارز، لهذا حرصت أن أحدد بعض النقاط المهمة كي يتم الافادة منه قدرالمستطاع، منها:

١ـ حلب وأقصى اتساعها.
٢ـ العوامل المؤثرة في التجارة.
٣ـ التجارة الداخلية (الأسواق التجارية).
٤ـ التجارة الخارجية (السلع المصدرة والمستوردة)

حلب وحدودها:

جاء في المصادر العربية الاسلامية أن الشام كانت مقسمة إلى كور أربعة قبل الفتح العربي الاسلامي، واستمر الحال كذلك، وسميت في عهد الخليفة عمر (١٣ ـ ٢٣هـ) (٦٣٤ ـ ٦٤٤م) أجناداً وهي جند دمشق، والأردن، وفلسطين وحمص، وهذا يعني أن حلب وقنسرين كانتا تابعتين لجند حمص[١]، وفي بداية العصر الأموي فصلت قنَّسرين وحلب عن حمص، وجعل منهما ومن أنطاكية ومنبج جنداً واحداً، وهكذا غدت الشام خمسة أجناد أو كور وهي دمشق، والأردن، وفلسطين، وحمص، وقنَّسرين[٢]، واستمر الحال كذلك الى خلافة هارون الرشيد (١٧٠ـ١٩٣هـ) (٧٨٦ ـ ٨٠٩م) الذي صير قنَّسرين بكورها جنداً، وأفرد عنها منبج ودلوك، ورعبان وقورس، ومعرة النعمان، وأنطاكية، وتيزين، وسماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها في الثغور، فتعتصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم، وجعل مدينة العواصم منبج، وجاء في بعض المصادر أن أجناد الشام خمسة، فأولها جند قنسَّرين ومدينته العظمى حلب[٣]، ومن ساحله أنطاكية، ومن ثغورها المصيصة وطرسوس، وهي أكبر أجناد الشام وأكثرها مدناً وحصوناً، ويذكر أن قنَّسرين كانت أكثر مدن هذا الجند حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ثم أخذت حلب تتدرج في العمارة وبالمقابل قنَّسرين في الخراب حتى صارت مضافة إلى حلب[٤] التي غدت مركز الجند، وعاصمة الدولة. وقد أضيفت الثغور والعواصم الى حلب أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣ ـ٣٥٦هـ) (٩٤٤ـ ٩٦٧م) لكن بعد وفاته ضعف أمر حلب ومزقتها الخلافات الداخلية والأطماع الخارجية، فأعاد البيزنطيون الكرة عليها، وأخذوا مناطق متعددة منها أنطاكية وما حولها وطرسوس والمصيصة وبقيت تحت سيطرتهم حتى استعادها السلاجقة (سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م). كما شهدت حلب نهضة كبيرة وتوسعت في عهد آق سنقر السلجوقي، حيث قاتل البيزنطيين وخلَّص منهم حصن برزوية من أعمال أنطاكية سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٩م، ووصلت إمارة حلب في عهده الى أقصى امتدادها واتساعها التي كانت عليه في عهد سيف الدولة. واستمرت كذلك الى الغزو الصليبي للمنطقة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م حيث أخذت بالتقلص فيما بعد على حساب هؤلاء الغزاة[٥]. وهكذا فإن حدود حلب تغيرت[٦]، ويذكر أن حدها من جهة الغرب البحر المتوسط ومن الشرق الفرات وبعض البادية الى منتهى المناظر، ومن الشمال درب الروم ومن الجنوب حدود حمص، وتنتهي الى قرية تعرف بالقرشية القريبة من اللاذقية وإلى حدود سلمية، وامتدت حلب في بعض الجهات، وتقلصت في أخرى، وأقصى امتدادها كان كما أشرنا في عهد أميرها العربي سيف الدولة ثم في نهاية القرن الخامس الهجري. وأوائل القرن السادس، وتغيرت من حين لآخر، فبعض المؤرخين اعتبر الرصافة، وصفين وبالس، وحصن كيفا مع الجزيرة الفراتية، وبعضهم الآخر ذكرها ضمن حدود حلب وإمارتها، وبعضهم جعل حماه وشيزر ومعرة النعمان تابعة لإمارة حلب، وغدت في بعض الأحيان مستقلة لوحدها أو لحقت بحمص.... واستمرت حلب بين مد وجزر وتبدلت واتسعت حدودها تبعاً لقوة حكامها، كما أن ضعفهم كان يؤثر في تبعية الثغور والعواصم لها من جهة، ومن ناحية أخرى كان يضعف من سيطرة حلب على المدن والقرى والثغور التابعة لها..

العوامل المؤثرة بالتجارة:

يأتي في مقدمة العوامل الإيجابية الموقع الهام والإستراتيجي لحلب، حيث كانت تشكل القلب النابض بالحياة بين مجموعة كبيرة من الممالك والمدن الهامة في التاريخ القديم والوسيط، وكانت قبلة أهالي المدن المجاورة كونها حلقة هامة بين أقاليم كثيرة ومفتوحة على معظم المنافذ البشرية، وهذه الخاصة جعلت من حلب أهم مدينة ولؤلؤة بلاد الشام الشمالية، وكانت السيطرة عليها تعني الإشراف على الطرق الواصلة ما بين ممرات طوروس شمالاً ومصر جنوباً، وما بين البحر غرباً ومخاضات الفرات شرقاً، ومما زاد في أهميتها أنه كان يتوافر فيها من المواد والسلع ما لايتوافر في غيرها من المدن العربية والإسلامية حتى قيل إن تجارتها فاقت القاهرة... وهذا الموقع الممتاز وهذه الأهمية لحلب جعلا الغرب يطلق عليها اسم تدمر الجديدة لأهميتها التجارية التي ورثت بها مكانة تدمر المشهورة حضارياً وتاريخياً...[٨] وبهرت حضارة حلب الروم الغزاة وغيرهم، وغدت أثناء النفوذ البيزنطي عليها منفذاً من المنافذ الرئيسية المهمة لتجارة بيزنطة

مع العالمين العربي والإسلامي في الشرق، وحلت بذلك محل أرمينية التي فقدت أهميتها في هذه الفترة.

إضافة لذلك هناك أماكن ومشاهد مقدسة ومزارات كثيرة في حلب دفعت بالكثيرين للتوجه إليها وهذا مما ساعد على التجارة ونشط عملياتها التجارية، وهذه الأماكن المقدسة كثيرة ومتعددة ذكرها مؤرخوا حلب كابن شداد وابن العديم في مؤلفاتهما المشهورة. حيث أشاروا الى أن حلب كانت قبل الإسلام وبعده من المدن المقدسة، فهي معقل الإله الحلبي الشهير «حدد»، وقد احتفظت بهذه المكانة الدينية خلال وجودها الطويل وبقيت بعد الإسلام مركزاً دينياً كبيراً وما تزال أغلب مساجدها وزواياها وتكاياها وتربها تضم قبوراً مقدسة ومزارات لمشاهير الأولياء والأتقياء والرسل وهي تدفع بجميع الناس من مختلف الطوائف لزيارة هذه الأضرحة والأماكن المقدسة[٩].

كما كان للإسلام وتعاليمه، ثم ما وفره الإسلام والمسلمون من مبادىء وتعاليم وقيم نبيلة حضت على العمل التجاري النزيه ورفعت من مكانة التجارة والتجار في نظر الناس، وباعتماد الصدق والأمانة والربح المشروع وإلى غير ذلك من نظم ومبادىء سمت بالتاجر وجعلته في مرتبة الصديقين والطيبين[١٠]، ومعلوم أنه كان للإسلام دوره الواضح على التجارة وتجاوز تأثيره ما كان سائداً من نظم وتعاليم في ذلك الوقت، ومن المناسب أن نعيد للأذهان بأن الإسلام انتقل إلى الشرق وبخاصة إلى بعض مناطق باكستان والهند والصين وغيرها بوساطة التجار، وهؤلاء كانوا رسل الإسلام الأوائل هناك، ولم ينتقل الإسلام لأول وهلة كما يعتقد بعضهم بوساطة السيف الذي استعمل لحماية الأقوام التي آمنت بالإسلام.

كما كان دور العلماء العرب والمسلمين وإسهاماتهم الفعالة في خدمة النهضة العلمية الحضارية بشكل عام والحركة التجارية بشكل خاص أكبر الأثر في التجارة ونشاطها، وذلك بما قدموه في هذا الإتجاه من كتب ومصورات وملاحظات قيمة في وصفهم الممالك والأقاليم وتوضيح الطرق والمسالك وبيان المسافات وأوضحت هذه الكتب والمعارف مناطق السلع والمنتوجات ولفتت الإنتباه بكل دقة للأهمية الاقتصادية لكل مدينة أو بلد ووضعوا خلاصة تجاربهم في كتب علمية قيمة، ويعد كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي خير مثال عنها[١١].

كما كان للعرب الدور الإيجابي في القضاء على الصراعات الدولية والحفاظ على المراكز التجارية وإزالة الحواجز الجمركية، وكل ذلك عمل على النشاط التجاري، كما عمل العرب على إقامة دولة عربية إسلامية كبيرة خدمت التجارة، ووثقت كل ذلك بالعناية والإهتمام بالطرق التجارية البرية منها والبحرية، وحمتها، وسعت لصيانتها وإبعاد المخاطر عنها، وكان الإهتمام بالطرق التجارية لهذه الفترة كبيراً، حيث حفرت الآبار لمياه الشرب، وأقيمت الأربطة والفنادق والخانات والأسواق الكبيرة ورفعت المنارات في الثغور وبنيت الأساطيل والجسور والقناطر، وكل ذلك عمل على تسهيل الحركة التجارية ... وكان من نتائج كل ذلك تضخم الأمور التجارية ووضوح الحاجة لظهور المؤسسات المصرفية والشركات التجارية، وعمليات السفتجه والصكوك والحوالات وظهور وكلاء للتجار لهذه المؤسسات المصرفية والشركات التجارية في المراكز التجارية المهمة، وهذا وذاك أدى لإنتشار الطمأنينة بين الناس وإلى نشاط الحركة التجارية في حلب وغيرها من المدن الشامية، وتورد المصادر القصص الكثيرة حول إستعمالها السفاتج الصكوك وغيرذلك[١٢] من النظم التي اتبعت في هذه الفترة، وهي تعطي الدليل الأكيد على النشاط التجاري ومارافقه من رقي وتقدم في النظم والأسس التي دعمت التجارة وخدمتها.

ومن العوامل التي ساعدت على النهوض الاقتصادي وبخاصة التجاري اعتماد معظم الحكام العرب المسلمين سياسة التسامح مع أهل الذمة واعفاؤهم من بعض القيود التي كانت تفرض عليهم في بعض الحالات الإستثنائية، وظهر ذلك في ظل الدولة الحمدانية وبخاصة في عهد سيف الدولة الحمداني[١٣].

كما بالغ الفاطميون بسياسة التسامح الكبيرة مع اليهود والنصارى واستخدموهم في أعلى المناصب الإدارية في الدولة لا في القاهرة إنما في الشام أيضاً، واقتفى آثار الخلفاء الفاطميين وتسامحهم الوزراء والولاة وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان وأدى ذلك لتمتع البلاد بمستوى عال من التقدم والرخاء على الرغم مما تعرضت له المنطقة من مشكلات داخلية وخارجية ....

العوامل المؤثرة سلباً في التجارة:

هناك أمور كثيرة كانت ولا تزال تعيق التجارة والعمل التجاري يأتي على رأسها الإخلال بالأمن الناتج عن الحروب والأطماع الدولية والعسكرية والصراعات على المنطقة والمشكلات الكثيرة التي كانت تؤدي إلى عدم الإطمئنان وإلى نهب الأموال والممتلكات وخوف التجار على بضائعهم وأموالهم وبالتالي تعطيل السير على بعض الخطوط التجارية والبحث عن طرق آمنة طويلة وأكثر كلفة، مما كان يؤدي إلى إضعاف النشاط التجاري وجموده[١٤].

كما كان لظاهرة الإحتكار والمصادرات التي كثرت في هذه الفترة الأثر الكبير في التجارة، وعملت على الحد من العمليات التجارية، وهناك إشارات عديدة تذكرها مصادر الفترة تؤكد هذا التوجه وتشير إلى بعض الحكام الأخشيديين والحمدانيين والفاطميين[١٥] وغيرهم، وتتهمهم بالطمع ومصادرة الأموال والممتلكات. وإحتكار بعض الموارد بغرض الإستفادة منها أثناء الأزمات الاقتصادية وغيرها من الملمات.

التجارة الداخلية:

كان النشاط التجاري الداخلي يتركز في الأسواق التجارية، ونشأت الأسواق التجارية في حلب كغيرها من المدن الشامية المهمة منذ القديم، وفي العصر الإسلامي أثر العرب تأثيراً كبيراً في الأسواق التجارية، ولم يكن للأسواق أسوار تحددها وإنما تركوها دون بناء وقد ذكر عمر بن الخطاب[١٦] «الأسواق على سنة المساجد» من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ من بيعه» ومع مرور الزمن أخذ العرب يهتمون بالأسواق، وباختيار الموقع الملائم لها. وبمواد بنائها، ومع بداية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بنيت الأسواق وسقفت الحوانيت بالآجر والجص، وأصبحت غالبية الأسواق فيما بعد مغطاة واستعمل في بناء الأسواق الحجارة تارة والخشب تارة أخرى، وكانت الأسواق في المدن الشامية تتجمع في مكان واحد أو ربما تمتد على جانبي الشوارع، وفيما بعد أصبح يخصص لكل صنف من أصناف التجارة موقع خاص، وقد سرى هذا النظام في معظم المدن الشامية[١٧]، وكانت كل طائفة من التجار تقيم في قسم معين من هذه الأسواق وكانت الأسواق تقام في أماكن مخصصة من المدينة، وليس بين المنازل، وكان التجار يمكثون في هذه الأسواق إلى مابعد الظهر، كانت الأسواق لاتخلو من جامع وفندق أو خان[١٨]، ومن حمام أيضاً وسبيل ماء وكان للأسواق كما كان للطرق في الشام أوقاف خاصة بها تقوم على إصلاحها ورصفها.

كان ريف حلب ومايزال يمد أسواق المدينة بما تحتاجه فهو يقدم القمح وغيره من الغلال والمحاصيل المختلفة، وكانت حلب تستقبل السلع الواردة إليها من الريف والمناطق وبخاصة المحاصيل الزراعية، بينما كانت المدينة تقدم الصناعات المعدنية والحلي والمجوهرات والصياغة والنحاس والمواد الأخرى المصنعة ولهذا كثيراً ما كان يوجد في حلب سوق ريفية لها خصائص معينة منها أنها أرض خلاء واسعة وسهلة الدخول والخروج للناس والدواب في ساعة الإزدحام وأنها مكان لايحس فيه إنسان أنه تحت[١٩] رحمة آخر، وأنها تستعمل فقط على نحو غير دوري فذلك يخفف من تكاليفها.

وكما أشرنا عرفت الأسواق المتخصصة في هذه الفترة وتجمع أصحاب الحرف في هذه الأسواق، وكانت الدوافع كثيرة منها رغبة الصناع والجماعات الحرفية والمهنية في كل مكان إلى التجمع في مكان واحد لما بينهم من روابط حرفية ومصالح مشتركة من أجل حماية أنفسهم وتنظيم أمورهم. وربما تكون ضرورة الإشراف الحكومي على المهن والحرف عن طريق المحتسب هي التي دفعت الحكومات إلى إيجاد أسواق متخصصة لتسهيل عملية الرقابة على الأسواق وهذه الرقابة ربما ساعدت على بروز ظاهرة التخصص، وكانت تسمية الأسواق وتخصصها متوقفاً على نوع من المواد التي تعرض فيها[٢٠].

لهذا فقد تجمع أصحاب كل حرفة في سوق واحد فرعية صغيرة داخل السوق الكبير، وغدا لكل تاجر وتجارة شارع معلوم لايختلط قوم بقوم ولاتجارة بتجارة ولايباع صنف من غير صنفه ولايختلط أصحاب المهن بغيرهم[٢١] .... وربما تكون ضرورة الفرز بين الحرف المختلفة قد أدت إلى إيجاد الأسواق المتخصصة حتى لاتختلط البضائع النفيسة بالبضائع[٢٢] الوضيعة والتخصص في الأسواق وتنظيماتها كان البدايات الأولى لانتظام ذوي الحرف في هيئات ومنظمات أطلق عليها اسم الأصناف.

وكما كان لظاهرة تخصص الأسواق مزاياها الحسنة، وكان لها مضارها، فمن مزاياها سهولة[٢٣] الإشراف الحكومي والتنافس الشريف بين التجار وتمكن الشاري من الحصول على السلع الجيدة والرخيصة بعيداً عن الإحتكار والغش والغلاء في الأسعار غير الطبيعية في أقصر الأوقات، أما عيوب التخصص في الأسواق فأهمها أن المشتري إذا مارغب في الحصول على بضائع متنوعة وسلع مختلفة عليه أن يجوب أسواقاً متعددة، وإذا ماأراد الحصول على كل مبتغاه، عليه أن يجوب أسواق المدينة كافة حتى يتمكن من جمع كل مايحتاجه.

كانت الأسواق محلية ودائمة ولها أيام معينة في الأسبوع أو أنها موسمية، وأهمها ما كان يعقد في مناسبات معينة كمواسم الحج، حيث كانت تجتمع فيها الأعداد الكبيرة من تجار الشرق والغرب مع الأقوام الغفيرة القادمة للزيارة والعبادة والحج إلى الأماكن المقدسة، وهذه التجمعات كانت تشكل عوامل هامة لقيام الأسواق التجارية النشيطة، كما كانت هناك أسواق موسمية تعقد في موسم ورود التوابل والمنتوجات الشرقية من بلاد الهند والصين لأسواق الشام والحجاز ومصر، وهي تخضع لمواعيد هبوب الرياح الموسمية[٢٤]، وتصل في مواعيد سنوية محددة قد لاتتغير وتنشط بذلك حركة البيع والشراء والمعاملات، وكانت الأسواق تسمى بأسماء من يشرف عليها أو بأسماء الأقوام التي ورّدتها، وكان يراعي في اختيار أسماء الأسواق أمور كثيرة منها تسميتها باسم يوم معين في الأسبوع كسوق الأحد وسوق الجمعة وسوق الخميس في حلب لكل من النصارى والمسلمين واليهود في حلب[٢٥].

ولا تزال بعض الأسواق في معظم بلاد الشام وغيرها تحتفظ بمثل هذه الأسماء حتى الآن، كما في مدينة حلب وغيرها. وكانت أسواق حلب تمتلىء وتعمر دكاكينها في يوم السوق[٢٦]. ولم يقتصر نشاطها على بيع منتجاتها المحلية الدائمة والتي كانت ترد من الريف والمدينة، بل نشطت التجارة ببيع السلع الأجنبية حيث كانت تصلها تجارة الشرق والغرب عن طريق البر والبحر.

وأشارت بعض المصادر إلى السويقات في حلب وغيرها، والسويقة هي تصغير السوق، وفي المعاجم أماكن عدة تسمى السويقة، وذكر منها سويقة حاتم، وهذه كانت تسمى بالسهلية وتقع بين سوق أصلان وسويقة علي ثم سويقة الحجارين، وكان فيها حمام يدعى بحمام سويقة الحجارين .. ثم سويقة علي وكان بها مسجد اسمه مسجد علي « وفيه قبر يسمونه علياً وفيها الزاوية الجوشنية، وعرفت بالجوشنية لقربها من صناع الجواشن والدروع وقد كان هذا السوق تحتله صناعة السيوف والجواشن قال الغزي عنها: وهي « من أعظم محلات حلب الداخلة في السور وأعظمها موقعاً وأكثرها أسواقاً وأروجها تجارة »، ولابد من الإشارة إلى أن الأسواق كانت مركزاً تعقد فيها الصفقات السياسية والمؤامرات أيضاً وكانت مجالاً للإتصال والإختلاط واقتراح الآراء وكانت تساعد على تقصي الأخبار والتجسس، ولهذا كانت الأسواق توضع تحت مراقبة دقيقة تغلق بعد الغروب ويمنع الناس من الدخول إليها والخروج منها.

باختصار كانت أسواق حلب عامرة وجميلة وغنية ومتنوعة السلع والمنتوجات، وكانت مقصد التجار من كل حدب وصوب ونشطت التجارة فيها على الرغم من عوادي الأيام والحروب. وظهر نشاطها ومكانتها في ظل كل من سيف الدولة الحمداني وآق سنقر السلجوقي، وقد تطورت هذه الأسواق والقيساريات التي غدت عريضة ورائعة وأصبحت حوانيتها من خزائن الخشب البديع الصنعة، وعلى هذا الأساس اتسعت التجارة ونشطت الحركة التجارية في حلب على الرغم من أن فترات الهدوء لم تكن طويلة، وظهر ذلك بازدياد الأسواق والسويقات التجارية وتطور بناء القيساريات وزاد عدد أسواق حلب التجارية على الأربعين سوقاً، ومن أهمها أسواق النطاعين في شرق الجامع وسوق الطير العتيق وسوق العطارين العتيق وسوق العطر وسوق الخشابين وسوق الأساكفة، والبز وسوق الماء وسوق البنائين، ثم سوق التين وسوق الغنم وسوق السلاح والزجاجين وسوق الأعلى وسوق الفرائين وسوق القطانيين وسوق التركمان ودار البطيخ، ودار كورة البرانية والعنب ودكة الرقيق وصبغ الحرير ... ومن عجائب حلب سوق الزجاج وكذلك سوق المزوقين فيهما آلات عجيبة مزوقة، وأيضاً كانت جميع المدن والضواحي والقرى المحيطة بمدينة حلب حافلة بالأسواق المتخصصة والتجارات الرابحة، وكان الكثير منها

يشكل مراكز هامة للقوافل التجارية القادمة[٢٨]. وهذه المكانة الهامة لحلب وهذه الثروة الهائلة تفسر اصرار نقفور فوكاس والإمبراطورية البيزنطية ومدى الإهتمام بحلب وإعادتها للسيطرة البيزنطية، وتجلى ذلك في سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، حيث فرضت بيزنطة معاهدة مشينة على قرعوية[٢٩] المستبد في حلب، ونصت صراحة في بنودها على التعاون التجاري مع الروم وتقديم مصالح بيزنطه على المصالح العربية الإسلامية، وإخراج حلب من الدائرة الاقتصادية العربية الإسلامية، وهكذا حصلت بيزنطة على ميزات تجارية وجعلت من حلب منطقة نفوذ فعلية ومن حاكم حلب المسلم مجرد تابع إقطاعي للإمبراطورية البيزنطية، وغدت حلب منفذاً من المنافذ الرئيسة لتجارة ببيزنطة مع العالمين العربي والإسلامي، وغدت أهم قواعد التبادل التجاري مع فارس والمناطق الشرقية بدلاً من طربيزون ولقيت معاملة خاصة من بيزنطة.

التجارة الخارجية لحلب:

من أهم السلع المصدرة المواد الأولية وأهمها الخشب الذي كان يصدر إلى مصر بكميات كبيرة، كما أشارت المصادر إلى وجود الحديد والنحاس في مناطق متعددة وأهمها في جبل جوشن[٣٠] القريب من حلب، وقد استخدمت هذه المعادن في الصناعات المعدنية التي امتازت بها حلب وغيرها من المدن الشامية، وكانت تصدر منتوجاتها إلى مناطق مختلفة. كما عد الملح المستخرج من الجبول من المواد الهامة المصدرة إلى بعض مناطق الجزيرة وغيرها[٣١].

الصناعات النسيجية:

كان للصناعات النسيجية الحريرية منها وغير الحريرية وتصديرها أهمية خاصة، وكانت حلب كغيرها من المدن الشامية من أهم المراكز، وكان لحلب شهرة خاصة بالصناعات النسيجية الحريرية، وبخاصة في العصر الحمداني، وكانت حلب من أهم المدن الشامية تصدر إلى العراق والمناطق الشرقية المنتوجات الحريرية والقطنية من ديباج وخز وميازر وغيرها، كما صدَّرت إلى مصر القطن مصنعاً ومواد خام، وكانت منطقة الثغور تعمل نوعاً من الثياب كان يسمى الشفايا وهي مثل رفيع الدبيقي، وكانت تحمل إلى كل بلد، كما كانت المصيصة تعمل نوعاً من الفراء يحمل إلى جميع الآفاق، وربما بلغ الفرو الواحد منها ما قيمته ثلاثون ديناراً[٣٢].

أما الزجاج:

فكان صناعة راقية وعريقة ومتطورة في حلب وغيرها من المدن الشامية، وكان الزجاج الشامي والحلبي موضع الطلب حتى في الأماكن البعيدة كالصين وأوربا وكان الزجاج والأدوات الزجاجية الجميلة من جملة المواد التي كان العراق يستوردها من الشام، كما صدر الزجاج الشامي إلى الشمال الأفريقي وبلاد الأندلس وبيزنطة ومناطق أوربة الغربية، وزاد ذلك في الفترة الصليبية، كما أن الزجاج الحلبي اشتهر في اليمن، ولهذا فقد كان مصدر طلب هناك، لشهرته وذاع صيت إنتاج الزجاج فيه وتصديره إلى مناطق مختلفة وبعيدة، وكانت السوق الزجاجية القديمة والعريقة مقصداً للتجار وقبلة للأثرياء والهواة، وكانت مصنوعات حلب الزجاجية تعد من أثمن الهدايا لميزاتها الفنية الراقية[٣٣].

أما الورق:

فقد كانت صناعته في حلب كثيرة ومشهورة بهذه الفترة امتازت حلب في إنتاجه وتصديره، ونظراً لذلك فقد دعي حي من أحيائها باسم الوراقة، حيث أقيمت معامل الورق هناك، واستمر الورق الحلبي المصقول المتين محافظاً على شهرته حتى العصر الحديث ... وصدر ورق الشام ومنها حلب إلى كل من مصر والعراق وبيزنطة[٣٤] ومن ثم إلى أوربة أيضاً، ويجب أن نتذكر أنه من المآثر الهامة لبلاد الشام ومنها حلب على الغرب الأوربي نقل الورق إليه، ومعلوم أن الأوربيين في القرون الوسطى كانوا يكتبون على رقوق من الجلود الغالية الثمن، ومع تقدم الزمن أصبحت الرقوق نادرة وقليلة مما أضطر الرهبان إلى حك المؤلفات المكتوبة والقيمة لعظماء الرومان والأغريق ليكتبوا مواعظهم الدينية عليها، ولولا العرب لفقدت أكثر المؤلفات الخالدة القديمة[٣٥] ويكفي أن نتذكر هذه المأساة ثم ننظر إلى فضل العرب في هذا الميدان لندرك القيمة الكبيرة للعرب في هذا المجال ومساهمتهم في تطوير ركب الحضارة البشرية والنهضة الأوربية بشكل خاص.

أما المحاصيل الزراعية:

كانت الحبوب وأهمها القمح والشعير من أهم صادرات حلب إلى الجزيرة العربية وإلى العراق، وكانت حبوب حلب تصدر أحياناً على شكل أكياس من الطحين تحملها المراكب التي تمخر نهر الفرات مخترقة قناة نهر عيسى إلى بغداد[٣٦] ومنها إلى بقية المدن العراقية.

وأما الزيتون:

فقد اشتهرت زراعته في بلاد الشام، وكانت منطقة حلب من المناطق المهمة بذلك، ولهذا كان الزيت من أكثر السلع الزراعية التي تصدرها حلب إلى مصر والجزيرة العربية وإلى العراق والأقطار الشرقية وغيرها من الأقطارالأخرى، كما كان يعمل من الزيت الصابون الذي كان يحمل إلى سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية وإلى غيرها من جزائر البحر المتوسط، وكان هذا الصابون من النوع الجيد ومن أنجح الصناعات، واشتهرت كل من حلب والرقة وبالس وسرمين في صناعة الصابون وتصديره إلى كل من ممالك الروم والعراق وديار بكر وغيرها[٣٧].

أما الفستق:

فتعد حلب من أشهر مناطق زراعة الفستق في العالم ولكثرة زراعته فيها فإنه نسب إليها حيث عرف بالفستق الحلبي، وأنتجت حلب أشهر الأصناف وأجودها ثمناً، وعدت الاقليم المثالي لزراعة هذه الشجرة، كما امتازت معرة النعمان بزراعته، وكانت تصدره إلى مصر ومناطق بلاد الشام كافة[٣٨] «كما قيل عن معرة مصرين إلى جبل السماق «بلد التين والزبيب والفستق والسماق يخرج عن الحد في الرخص ويحمل إلى مصر والعراق ويجهز إلى كل بلد».

وتذكر المصادر أن حلب كانت تصدر الفستق، وكان غالي الثمن خارج حلب لذلك كان الأغنياء فقط هم القادرون على شرائه، وكان ينقل على الجمال إلى مصر، أما الأوربيون فكانوا يشحنونه عن طريق البحر الى بلادهم حيث كان يباع بأسعار مرتفعة في أوربة.

العطور وصناعتها وتصديرها:

وهي من الصناعات التي اشتهرت حلب بصناعتها وتصديرها، وكان يصنع في حلب الورد واستخلاص الأدهان من النباتات والبذور والأزهار، وكانت حلب عامرة بأزاهيرها ورياحينها، وكان يستفاد من هذه العطور والدهون في الطب وفي التقطير وفي التطيب أيضاً ... وعرف عن حلب أنها كانت مختصة بماء الورد النصيبي الذي كان يستخرج من مدينة الباب وهي من أعمالها، وقيل عنه لا يوجد في الدنيا مثله وكان ينقل إلى مصر وغيرها وله بمصر شهرة خاصة، ويستخدم في التطيب ويعطى كذلك دواءً فعالاً للمرضى[٣٩].

وكان الثلج من المواد التي كانت الشام تقوم بتصديرها دون أن تذكر المصادر مكان التصدير، حيث كان ينقل إلى العراق ومصر والجزيرة[٤٠]، ولابد أنه صدر من حلب إلى العراق بطريق الفرات نظراً لسهولة ذلك.

كما اشتهرت الشام ومدنها كحلب وغيرها بتصدير الفواكه الطازجة والمجففة، ومن أهمها ما ينتج في حلب الأعناب والتين والمشمش والدراق والخوخ والجُمَّيز والرمان واللوز والجوز والبندق. وكانت هذه المواد تنمو في حلب ومناطقها كإنطاكية ومنبج ومعرة النعمان وشيزر وحماه والقرى التابعة لها[٤١]، كما كان الطلب على الفواكه المجففة الشامية كبيراً باستمرار، وذلك لأن أنواعاً قليلة من الفواكة كانت تنمو في المناطق المجاورة للشام كمصر والعراق والجزيرة العربية، إضافة إلى أن إنتاج هذه الأقاليم كان محدوداً ولايقارن بالإنتاج الصناعي الشامي، ولهذا كان مصدر طلب فيها .....

السلع المستوردة:

كان المستورد قليلاً إذا ما قيس بالمصدر، ويمكن أن نذكر منه الكتان[٤٢] والمصنوعات الكتانية التي كانت حلب تقوم بإستيرادها من مصر، كما كانت حلب تستورد الثياب الفاخرة والنفيسة والمعمولة في بعض مدن مصر التي امتازت بها وليس لها نظير، وتباع كل زنة درهم بدرهم فضة، ثم ما كان يدخل من هذه الثياب في الطراز فكان يباع بقيمة وزنه مرات عديدة من الفضة، ولوحظ أنه في العصر الفاطمي

ارتفعت صناعة دور الطراز في مصر وذاعت شهرة مصر بهذا النوع من المصنوعات[٤٣].

كما اشتهرت مصر بإنتاج الصناعات النسيجية الكتانية والحريرية أيضاً وقامت بتصديرها إلى مختلف البلاد ومنها حلب،وبخاصة الكتانية، كما صدر الكتان كمادة خام أيضاً إلى حلب وغيرها من المدن الشامية، وكانت مصر تصدر الصناعات الجلدية لتقدم صناعتها، لهذا فقد كانت الشام تستورد أنواع الأنطاع والكمرانات، وخرائط الجلد والسيور والقسي وغيرها من الصناعات الجلدية المختلفة.. أما العراق فكان تمرها أهم مادة مصدرة للشام.

والخلاصة يؤكد البحث على نقاط كثيرة منها:

١ـ أصالة أهالي حلب وقدرتهم على تجاوز المحن والخطوب، والخروج من الملمات بأقل زمن ممكن.

٢ـ موقع حلب المهم والاستراتيجي المميز، وهذا ما جعلها محط الأنظار وقبلة القاصدين وهدف التجار، ومحط رؤوس الأموال، وكانت من المراكز المهمة والبوابات الكبيرة العربية على طريق الحرير. الذي نحن بصدد التعرض له والتعرف على أهميته.

٣ـ كانت حلب متقدمة زراعياً ومتطورة صناعياً، ونشطة تجارياً، وفاقت غيرها من العواصم والحواضر العربية والإسلامية، وكان يباع في أسواقها وقيسارياتها أكثر بكثير مما كان يباع في غيرها من المدن الكبيرة والهامة، والتي كانت تفوقها عدداً في السكان وكبراً في المساحة.

٤ـ أكدت المصادر على زيادة صادرات حلب بالنسبة لوارداتها، وهذا يجعلنا نستنتج أن ميزانها التجاري كان رابحاً جداً، وكان ذلك مصدر غناها وتقدمها.

٥ـ ثبت من الوقائع والأحداث التاريخية والعسكرية أن حلب استمرت لفترة طويلة تتحمل وزر الدفاع عن الأمة العربية والدولة العربية الإسلامية كما انعقدت الأمال والأحلام على قائدها العربي سيف الدرلة الحمداني قبيل منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). كذلك ترنو الأمال المخلصة الآن للشام أيضاً وقائدها الأمين رافع لواء السلام والحرب، وذلك لنؤكد الحتمية التاريخية القائلة إن الشام رمز قوة العرب ومنها يدعم السلام ويتأكد الكفاح.

وإذ نقول هذا لانريد أن نحمل الأحداث التاريخية أكثر ما تستحق ولانريد الخروج عن الموضوع فالحضارة والاقتصاد والنشاط التجاري خاصة لايتحقق إلا في ظل الأمان والإستقرار المتبادل للجميع.

وكم نتمنى الإستفادة من التاريخ ودروسه وعبره.

والله ولي الأمر والتوفيق،،،

الحواشي

(١) البلاذري: البلدان وفتوحها وأحكامها ص١٥٤ بيروت ١٩٩٢

ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص٨/٩ دمشق ١٩٨٤

(٢) ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب في تاريخ حلب ج١ ص٨/٩ مخطوط ابن الشحنة الدر ص١٠

(٣) المصادر السابقة

(٤) ابن العديم: بغية: ج١ ص٤٩ ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج١ ص١٦٠

(٥) انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج١ ص١٩٥ ومابعده وأنظر مصادر الحركة الصليبية.

(٦) ابن الشحنة: الدر ص١٠

(٧) ابن العديم: بغية: مجلد١ ص٥٠/ ٥٦ ـ ابن شداد: الأعلاق مخطوطة قنسرين ورقة ٦/٧/١٧

القرماني: أبو العباس أحمد ين يوسف: أخبار الدول وآثار الأول: ص٤٣٣/ ٤٤٦/ ٤٥٧ بيروت طبعة مصورة.

(٨) انظر: الإصطخري: المسالك والممالك ص٤٦ ـ محمد زيود: حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي: ص٣١٥ نقلاً عن ابن العديم: بغية ـ ابن شداد: الأعلاق ج١ ق١ ص١٥٣

سامي الكيالي: سيف الدولة وعصر الحمدانيين ص٥٧ ـ أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص٣٣٤

(٩) أنظر: ابن خرداذبة: المسالك ص١٥٠ ـ قدامه ص١٩١ ـ ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٧ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٢٥ ـ ابن شداد: الأعلاق ج١ ص٢٤ / ٥٩ / ١٣١ ـ ابن الشحنة: الدر ص٧٩ / ١٠٤ ـ خير الدين الأسدي: أحياء حلب وأسواقها ٢٤ / ٢٥

(١٠) انظر: الشيباني ـ الكسب ص١٠ / ٦٥ ـ الجاحظ: البخلاء: ص٣٠١ آدم متر: الحضارة الإسلامية ٢ ص٣٦٩ / ٣٧٣ ـ أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٤٥٠ ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام ج٢ ص٢٤١ ـ زيود: حالة بلاد الشام ص٣٦٩

(١١) يعد أهم هذه الكتب في هذه الفترة: قدامة ابن جعفر (ت ١٣٠هـ/٩٠٣م) وكتابه الخراج وصفة الأرض ـ والبلخي (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) وله كتاب صورة الأقاليم ـ والهمذاني (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) وكتابه: صفة جزيرة العرب ـ والأصطرخي (حوالي ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) وكتابه مسالك الممالك ـ ثم المسعودي (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) وله عدة كتب منها مورج الذهب، والتنبيه والأشراف ـ ابن حوقل (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) وكتابه المسالك والممالك أو صورة الأرض ـ والمقدسي: حوالي ٣٧٨هـ/٩٨٨م) وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ ثم البيروني (٤٠٧هـ/ ١٠٤٨م) له عدة كتب منها الأثار الباقية على القرون الخالية وكتاب الهند ثم ناصر خسرو (٤٥٣هـ/ ١٠٦٤م) وكتابه سفر نامه ـ والبكري (٤٧٨هـ/ ١٠٩٤م) وكتابه معجم ما استعجم والمسالك والممالك . . .الخ.

(١٢) اليعقوبي: تاريخه ص٥٩٠ ـ ابن خلدون: المقدمة ص٢٣٩ ـ زيود المرجع السابق ص٣٧١ / ٣٧٢، وأنظر: المقدسي: أحسن: ص١٦١ وناصر خسرو: سفر ص٤٠ / ٦٠ ـ سليمان إبراهيم العسكري التجارة والملاحة في الخليج العربي ص١١٦ ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام ج٢ ص١٠٧ / ٢٤١ ـ ابن القلانسي: ذيل ص٣٢ ـ الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ص٥١ ـ الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص١٢١

(١٣) المقدسي: ص١٥٠ ـ إبن حوقل: صورة ص١١٥ / ١٨٤ / ١٥٣ / ١٦٥ سبط بن الجوزي: ص١٧٥ ـ كنار: أخبار سيف الدولة ص١٤٩ / ١٥٠ / ١٥٤ / ١٠٤ ـ أحمد أمين: ظهر الإسلام ص١١٥ ـ زيود / المرجع السابق ص٣٧٢ / ٣٧٣ / ٤٥٢

(١٤) إبن حوقل: ص٣٤ / ٣٥ ـ الطبري: ج١٠ ص١٠٣ / ١٢٢ / ١٢٤ / ١٣٥ / ١٣٧ ـ ثابت بن سنان وابن العديم: تاريخ القرامطة ص٦٩ / ٩١ ـ إبن العديم: زبده ج٢ ص٩٧ ـ زيود: المرجع السابق ص٣٩٥ / ٣٩٦

(١٥) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي: ص١١٤ / ١٢٠ ـ زيود ص٣٩٨ / ٣٩٩ وأنظر: التنوخي: نشوار المحاضرة: ج٢ ص١٦١ / ١٦٣ ـ ابن سعيد: المغرب: ص١٥٥ / ١٨٦ / ١٩٧ ـ إبن حوقل ـ صورة ص١٦٣ / ١٦٥ ـ مسكويه: تجارب الأمم ج١ ص٢١ / ١٤٥ ـ إبن العديم: زبده ج١

(١٦) أبو عبيد: الأموال: ص١٢٢ ـ الطبري: ج٣ ص١٤٩ ـ البلاذري: البلدان ص٣٦٦.

(١٧) اليعقوبي: البلدان ص٣١١ ـ الطبري: ج٤ ص٤٤ ـ الشيزري: نهاية الرتبة ص١١.

البلاذري: البلدان ص٣٥٠ / ٣٦٦ ـ المقدسي: ص١٣٨ / ١٣٤ ـ أدم متز ج٢ ص٣٨٠ / ٣٨٨ ـ جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص١٤٢.

(١٨) آدم متز: الحضارة ج٢ ص٣٢٧ / ٣٦٣ ـ الأسدي: أحياء حلب ص١١٨

(١٩) بدور شالميتا: الأسواق في المدينة الإسلامية ص١١٠ / ١١٣ (كمبردج ١٩٨٣) زريق المعايطة: الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي ص٢٤٩ ـ مؤتمر بلاد الشام الخامس آذار ١٩٩٠ عمان. عرفان محمد حمور: أسواق العرب ص٦٣ / ٩٥ ـ زيود حالة بلاد الشام ص ٤٠٢.

(٢٠) الجاحظ: رسائل ج٢ ص١٦٩ ـ الطبري: تاريخ ج٧ ص٦١٠ ـ ابن الأثير: الكامل ج٧ ص٣٠٦ ـ الشيزري: نهاية ص١١ ـ ابن عساكر: دمشق ج٢ ص٢٢٧ ـ ابن جبير: رحلة ص١٨٨.

(٢١) اليعقوبي: البلدان: ص١٤ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم ص٨٧٤ ـ ياقوت: ج٤ ص١٢٢ ـ ابن عساكر: ج٢ ص٢٢٧.

(٢٢) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول ص١٦٥ ـ الأصفهاني: الأغاني ج٦ ص٦٢.

(٢٣) الشيزري: نهاية ص١١ ـ الراغب الأصفهاني أبو القاسم حسين بن محمد الراغب: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ج٢ ص٤٦٦، بيروت ١٩٦١ ـ ابن عساكر: ج٢ ص٢٢٩ ـ الإدريسي: نزهة: ج٦ ص٦٤٧ ـ ياقوت: بلدان ج٣ ص٦٦ ـ زريق المعايطة: المرجع السابق ص٢٤٩

(٢٤) المقريزي: المواعظ ج٢ ص١٠٣ وج٣ ص٤٩ / ٥١ / ٥٢ / ١٥٩ / ١٦٦ / ١٦٧ / ١٦٨ ـ آدم متز ج٢ ص٣٢٥ / ٣٢٦ ـ نعيم زكي سليمان: طرق التجارة الدولية ومحطاتها في العصور الوسطى ص٢٨٠ / ٢٨٣ ـ الأسدي: احياء ص٢٢٥ / ٢٢٩ ـ زيود ص٤٠٤

(٢٥) الأسدي: احياء ص٢٢٥ / ٢٢٩ ـ القلقشندي: الأعشى ج٤ ص٢٢٢ ـ إبن عبد الحكم: فتوح مصر ص١٠٠ ـ نقولا زيادة: الحسبة والمحتسب في الإسلام ص٢٣ (يذكر سوق البربر في الفسطاط) زيود: ص٤٠٤ / ٤٠٢

(٢٦) فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البزنطية بين الإحتكاك الحربي والإتصال الحضاري ص٢٣١ ـ نعيم زكي سليمان: الطرق التجارية: ص٢٨٣ ـ زيود: ص٤٠٥

(٢٧) الأسدي : أحياء ص٢٤٤ / ٢٤٦ / ٢٤٧ ـ سوفاجيه : حلب ص١٣٥ ـ الغزي : نهر الذهب ج٢ ص١٧٧ ـ فتحي عثمان : المرجع السابق ص٢٣١ ـ حمور : أسواق ص٤٧ / ٥٩ .

(٢٨) ابن شداد : الاعلاق ج١ ق١ ص٢٩ / ١٩٦ / ١٩٧ ـ ابن الشحنة : الدر ص٢١٧ ـ ابن العديم : زبده ج٢ ص٤٢٩ / ٤٢٥ وج١ ص١٥٨ / ١٦٧ / ١٦٨ ـ ياقوت : معجم ج٢ ص٦٦ وج٣ ص٦٦ ـ القلقشندي : ج٤ ص١٢٥ ـ الأسدي : احياء ص٤٤٦ ـ ابن جبير : رحلته ص٢٢٥ / ٢٢٦ / ٢٦٧ ـ ابن القلانسي : ذيل ص١٢ / ١٤ ـ القفطي : تاريخ الحكماء ـ ترجمة ابن بطلان في تاريخ الحكماء ابن بطوطه : رحلته ج٢ ص٩١ .

(٢٩) وعن هذه الإتفاقية وبنودها انظر : ابن العديم : زبده ج١ ص١٦٧ / ١٦٨ ابن حوقل : صورة ص١٩٦ ـ ابن الآثير : الكامل ج٨ ص٦٠٤ ـ فتحي عثمان : الحدود ص٢٥٣ ـ زيود ص٤٢٧ .

(٣٠) الأصطرخي : المسالك ص١٤٧ ـ ابن حوقل : صورة ص١٥٩ / ١٦٧ ـ المقدسي : ص١٧٢ / ١٨٤ / ١٤٨ ـ ابن العديم : بغية ج١ ص١٧٩ وورقة ١٦١ ـ ياقوت : معجم ج١ ص٤٢٦ / ٦٣١ وج٢ ص١٦٨ ـ ابن شداد : الاعلاق ج١ ق١ ص١٥٢ ـ الفارقي : تاريخ أمد وميافارقين ورقة ١٢٩ ـ ب ـ ابن كثير : البداية ح٢ ص١٩١ .

(٣١) ابن شداد : الاعلاق ج١ ق١ ص١٥٢ ـ ابن الشحنة : الدر ص٤٧ / ٤٨ ـ ياقوت : معجم ج٢ ص١٠٧ .

(٣٢) وعن النسيج وصناعته وتجارته في حلب انظر : محمد زيود حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي ص١٩١ / ٢٠٠ / ٣٣٩ ـ والنشاط الصناعي والتجاري لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة ص٢٢٤ موتمر بلاد الشام الخامس عمان ١٩٩٠ ، وأنظر : ابن حوقل : المسالك ص١٠١ / ١٠٢ المقدسي أحسن : ص١٨٠ / ١٨١ ـ الثعالبي : يتيمه الدهر ج١ ص٣٤ ـ سعيد خليفة : تاريخ المنسوجات ص٩٥ / ٢٤٤ ـ ابن حوقل : صورة ص١٦٥ / ١٦٦ ـ ابن العديم : بغية ٣٩ط وج٢ ص٥٠ / ٥١ ـ لومبار :الإسلام في فجر عظمته ص٢١٣ / ٢٢٣

(٣٣) وعن الزجاج وصناعته وتجارته انظر : زكي حسن : كنوز الفاطميين ص١٥٦ / ١٧٤ / ١٧٨ الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص٥٩ ـ لومبار : الإسلام ص٢١٩ ـ ديماند : الفنون الإسلامية ص٢٣٨ / ٢٣٩ ـ زيود : حالة ص٢٢٦ / ٢٣٣ / ٣٤٠ ـ المقدسي : ص١٨٠ / ١٨١ ـ أبو الفداء : تقويم ص٢٧٩ الثعالبي : لطائف ص١٥٠ / ١٥٧ ـ العش : الزجاج السوري ص٤٧ .

(٣٤) القلقشندي : الأعش ج٢ ص٤٨٧ / ٤٨٨ ـ كرد علي : حطط ج٤ ص٢٢٣ / ٢٤٣ ـ لومبار : الإسلام ص٢٢٤ ـ المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٤٥ ـ خسرو : ص٢٨ ـ زيود : ص٣٧ / ٣٤٠

(٣٥) زيغرد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٦ ـ جان س ـ ريسلر : الحضارة العربية ص١٢٠ ـ لومبار : الإسلام ص٢٢٤ ـ جلال مظهر : الحضارة الإسلامية ص١١٠ / ١١١ .

(٣٦) اليعقوبي : البلدان ص٢٥٠ ـ لومبار : ص١٩٢ ـ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ص١٥٠

(٣٧) المقدسي : ص١٦٢ / ١٧٤ / ١٨٠ ـ الاصطخري : المسالك ص٥٨ / ١١٩ ـ ابن العديم : بغية ج٢ ص٢٢ وج١ ص١٠ / ٤٣ / ٣٩ ـ ياقوت : ج١ ص٣٥٢ / ٥٦٧ / ٣٨٣ وج٤ ص٤٧٦ ـ ابن حوقل : صورة ص٥٤ / ٧٣ / ١٦٦ ـ لومبار :ص١٩٤ ـ الثعالبي : لطائف ص١٥٧ وثمار ص٤٢٢ ـ ابن شداد : ج١ ص١٥٣ ـ اليعقوبي : البلدان ص٢٥٠ ـ الجهشياري : الوزراء ص٢٨٧ ـ كرد علي : ج٤ ص١٨٣ ـ الكبيسي : أسواق بغداد ص١٩١ / ١٩٥ / ٢٥٠ ـ الغزي : نهر الذهب : ج١ ص٤٢ / ١٢٥

(٣٨) ابن العديم : بغية : ورقة ١٠ ط١٦ ط٤١ و١٦٧ ـ كرد علي : خطط ج٤ ص١٨٣ ـ ابن الشحنة : تاريخ حلب ص٢١٥ / ٢٥٢ ـ ابن شداد : الاعلاق ج١ ص١٥٣ ـ زيود : حالة ص٣٤١ ومؤتمر بلاد الشام ص٢٣٤ .

(٣٩) القلنشدي : ج٤ ص٨٧ ـ ياقوت : معجم ج٢ ص٢٨٢ / ٢٨٦ ، أنظر ديوان كل من الصنوبري وكشاجم ـ ابن سعد : المغرب ص١٥٠ / ١٦٠ ـ النجوم الزاهرة : ج٥ ص٥٩ ابن الشحنة : حلب ص٢١٥ / ٢٥١ / ٢٥٢ ـ المقدسي : ابن العديم : بغية ورقة ٤ط

(٤٠) المقريزي : الخطط ج٢ ص٣٦ ـ آدم متز : الحضارة ج٢ ص٢٤٨ ـ ناصر خسرو : سفرنامة ص١٥٨ ـ راشد البراوي : حالة مصر الإقتصادية في العصر الفاطمي ص٢٦٢ البيهقي : المحاسن والمساوىء ص٤٤٧ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص١٢٦

(٤١) انظر : زيود المرجع السابق ص١٢٢ / ١٣٠ / ١٤٣ ، وأنظر أيضاً المقريزي : الخطط ج٢ ص٤٥٤ ـ المقدسي : ص١٧٤ / ١٨٠ / ١٨١ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٨٥ ـ البكري : المغرب ص٢٠ ـ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص٦١٦ تاريخ الإسلام ج٢ ص٣٢٧

(٤٢) لومبار : الإسلام ص٢١٢ / ٢١٣ ـ زيود ص٤٧٧

(٤٣) المقريزي : الخطط ج١ ص١٦٣ / ٢٦٦ ـ لومبار : ص٢١٢ ـ ابن حوقل : ص١٠٥ زيود : ص٤٧٧ / ٤٧٨

التجارة وغرفة التجارة في حلب
من خلال الأوامر السلطانية (فرمان)

دعد الحكيم
المديرية العامة للآثار والمتاحف

فتح الوطن العربي أبواب تجارته الخارجية للأوربيين منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وتطورت هذه التجارة خلال وبعد الحروب الصليبية. ثم سيطر البرتغاليون على طرق التجارة بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح. وعندما دخلت البلاد العربية تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي. حاول العثمانيون القضاء على احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق الأقصى وذلك بالسيطرة على طرق التجارة البرية ضمن البلاد العربية، وبعقد اتفاقات تجارية مع الدول المختلفة كفرنسة وبريطانية أعطوها فيها امتيازات هامة. ثم تفاقمت سيطرة التجار الأوربيين على المراكز التجارية الحساسة في الوطن العربي واعتمدوا لتسيير أعمالهم على التجار المسيحيين واليهود من سكان البلاد كوسطاء ونواب لهم.

وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ) (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م) ظهرت التنظيمات ومنها ما يتعلق بالتجارة إلا أن التنظيمات الكاملة المتعلقة بالتجارة وغرف التجارة صدرت عام ١٢٤٤هـ ـ ١٨٢٨م في السجل رقم /٤٥/ للأوامر السلطانية لولاية حلب الصادرة من القسطنطينية، وأهم ما جاء فيها:

- *تعيين شخص من التجار يسمى (شهبندر التجار) (رئيس غرفة التجارة).*
- *ينتخب اثنان من التجار المعروفين بحسن سلوكهم لمساعدة رئيس الغرفة (شهبندر التجار) بعمله، ويعين اثنان من الموظفين لمساعدة هؤلاء جميعاً.*
- *على التجار أن يتقدموا بطلب إلى رئيس الغرفة لتسجيلهم في غرفة التجارة مع بيان نوع التجارة، بعد التحقق من أخلاقهم وسمعتهم الحسنة بين الناس.*
- *كما يتم تعيين رئيس غرفة لمدينة حلب، يعين رئيس غرفة لكل بلد تجاري كدمشق وقبرص وأزمير وغيرها.*
- *إن الدعاوى التي تقام على التجار لها نظام خاص، فإذا كان المدعي والمدعى عليه من رعايا الدولة العثمانية ينظر بها في المحاكم العادية.*
- *إذا كان المتخاصمان من رعايا الدولة الأجنبية، تحال القضية إلى الآستانة للنظر بها تحت إشراف الصدر الأعظم.*

ـ *إذا كان الخلاف بين تاجر من رعايا الدولة العثمانية وآخر من تجار دولة أجنبية يفصل بهذا الخلاف وفق الاتفاقات المعقودة بين الدولتين التابعين لهما .*

ـ *تخضع البضائع المستوردة من الخارج لرسوم جمركية بمعدل ٣٪ على أن لا تكون البضاعة من البضائع الممنوع إدخالها .*

ـ *إذا أخذ أحد موظفي الجمارك رسوماً إضافية لمصلحته الخاصة، يجب معاقبة هذا الموظف .*

ـ *أما التجار الذين يحصلون على ترخيص دون حق، فإن رئيس غرفة التجارة ومعاونيه الذين منحوه هذه الرخصة مسؤولين عن ذلك، ويحاسبون على هذا العمل، ويتم تعيين آخرين بدلاً منهم .*

صدر في القسطنطينية أواخر محرم ١٢٤٥هـ.

وفي أوائل عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م) صدرت تنظيمات جديدة خاصة بالتجارة وسميت نظام (ويركو) .

قسم هذا النظام إلى قسمين: الأول ويركو الأملاك (الضريبة) والثاني ويركو (التمتع)، وهذه الضريبة (الأولى) فرضتها الدولة على التجار بنسبة ٣٠ في الألف من مجموع الربح السنوي، ثم رفعت إلى ٤٠ في الألف .

نلاحظ مما تقدم أن التجارة كانت نشطة في بلاد الشام خلال العهد العثماني، ونظمت بصورة جيدة بعد إعلان التنظيمات التجارية وإنشاء غرف التجارة .



منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فتح الوطن العربي أبواب تجارته الخارجية للأوربيين وبخاصة الإيطاليين منهم، وجاءت الحروب الصليبية فأسفرت عن تنشيط التجارة مع الأوربيين[1] ولاسيما ممالك الفرنجة في بلاد الشام، وعندما انتهت الحروب وخرج الصليبيون من الوطن العربي أبقت المدن الايطالية على صلاتها التجارية معه، وعقدت اتفاقيات تجارية تتيح لها استيراد كثير من البضائع وتصديرها .

بعد ذلك سيطر البرتغاليون على طرق التجارة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وسدوا منافذها على التجار العرب والمسلمين، وعندما دخلت البلاد العربية في الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر، حاول العثمانيون القضاء على احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق الاقصى وردهم عن أطراف الجزيرة العربية حربياً، وذلك بمحاولتهم السيطرة على طرق التجارة البرية ضمن البلاد العربية، وبعقدهم اتفاقيات تجارية مع الدول الأوربية المختلفة كفرنسة وانكلترة، أعطوها فيها امتيازات تجارية هامة، منها حق التجارة والإقامة في الموانىء والمدن العثمانية وخفض الرسوم الجمركية على البضائع الواردة والصادرة وحق وجود قناصل لها يتمتعون بالسلطة على مواطنيهم داخل البلاد العثمانية . وعندما ضعفت الدولة العثمانية تفاقمت سيطرة التجار الأوربيين على المراكز التجارية الحساسة في الوطن العربي في آواخر القرن الثامن عشر فيما يخص التجارة الخارجية واعتمدوا بتسيير أعمالهم هذه على التجار المسيحيين واليهود من سكان البلاد لينوبوا عنهم في تجارتهم كوسطاء ونواب لهم، وقام هؤلاء بدور كبير في اقتصاد الوطن العربي فكانوا أشبه ما يكون بمصارف متنقلة .

وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ــ ١٢٥٥هـ) (١٨٠٨ــ ١٨٣٩م) ظهرت التنظيمات ومنها ما يتعلق بالتجارة في مراسيم متعددة .

ففي المرسوم رقم / ١٤٤ / المؤرخ في أواخر جمادى الآخر (١٢٣٤ــ ١٨١٨م) من السجل رقم / ٤٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب يلزم به تطبيق النظام المعطى للتجار المتعاملين مع أقطار بلدان أوربة والهند والعجم .

ويؤكد على اعطاء التجار المحليين فيها حق الاتجار مع الخارج وتفويض كل منهم بتعيين وكيلين له أحدهما مقره أزمير للتجارة الخارجية والثاني في بلد يختاره التاجر، وأُعطي هؤلاء الوكلاء الحقوق المعطاة للمترجمين الوافدين خارج البلاد .

إلا أن التنظيمات الكاملة المتعلقة بالتجارة والتجار وغرف التجارة صدرت عام (١٢٤٤هـ ــ ١٨٢٨م) في الفرمان (المرسوم رقم / ٨٤ / المؤرخ في منتصف صفر ١٢٤٤هـ، والمرسوم الفرمان رقم / ٣٨٣ /[٢] المؤرخ في أواخر محرم عام (١٢٤٥هـ ــ ١٨٢٩م) من السجل رقم / ٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب الصادران من القسطنطينية وفيهما كما يلي :

« لما كانت الدولة العلية العثمانية ترغب في تنشيط التجارة داخل البلاد وخارجها حسب القواعد والقوانين السارية المفعول والمتعارف عليها بين الدول والاتفاقات الجارية براً وبحراً بينهم وبين أوربة والعجم والهند » .

والتي تتعامل معها حالياً ويجب أن تنظم التجارة على الوجه الآتي :

١ــ تأمين حاجة البلاد من كافة الاحتياجات .
٢ــ تأمين ربح للخزينة مع ربح معقول للتجار .
٣ــ توسيع هذه التجارة وتنظيمها بين البلاد وبشكل جيد .
٤ــ على كل شخص يرغب أن يتعاطى التجارة أن يتقدم بطلب تسجيل كتاجر مع بيان نوع التجارة التي يرغبها، كما يجب أن يكون من ذوي الأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة .
٥ــ تعيين شخص من التجار يسمى (شهبندر التجار) (رئيس غرفة التجارة) .
٦ــ ينتخب اثنان من التجار المعروفين بحسن سلوكهم لمساعدة رئيس الغرفة (شهبندر التجار) بعمله ويعين إثنان من الموظفين لمساعدة هؤلاء جميعاً .
٧ــ على التجار أن يتقدموا بطلب الى رئيس الغرفة لتسجيلهم في غرفة التجارة بعد التحقق من أخلاقهم وسمعتهم الحسنة بين الناس .
٨ــ يتقدم التاجر الى رئيس الغرفة بطلب الترخيص له بالاتجار بنوع معين من البضاعة وهذا الطلب يدرس من قبل رئيس الغرفة ومعاونيه، وبعد الموافقة يعطى رخصة للاستيراد والتصدير .
٩ــ وكما يتم تعيين رئيس غرفة لمدينة حلب، يعين رئيس غرفة لكل بلد تجاري لدينا كدمشق وقبرص وازمير وغيرها .
١٠ــ يمنح رئيس غرفة تجارة حلب وساماً تقديراً له، لذا فعليه أن يدفع (١٢٠٠) قرش الى الخزينة في الأستانة لاستلام الوسام .
١١ــ يعين أحد التجار الكبار من المسلمين والقاطن في خان الوزير في حلب السيد الحاج (محمد صالح آغا زهير زادة) المشهود له بالأمانة والصدق والاستقامة رئيساً لغرفة تجارة حلب (شهبندر التجار) والمعروف لدينا بأنه من التجار المعتبرين، ومن أهل الخبرة، كما يعين اثنان من التجار المعروفين مساعدين له .
١٢ــ ان الدعاوي التي تقام على التجار لها نظام خاص، فإذا كان المدعى والمدعي عليه من رعايا الدولة العلية العثمانية ينظر بها في المحاكم العادية عندما يكون المبلغ المدعي به لا يتجاوز أربعة آلاف قرش .
١٣ــ أما إذا كان المتخاصمان من رعايا الدول الأجنبية، وكان المبلغ المتخاصم عليه يزيد على أربعة آلاف قرش، تحال القضية الى الآستانة للنظر بها تحت إشراف الصدر الأعظم .
١٤ــ إذا حدث خلاف بين التجار تؤلف لجنة من رئيس غرفة تجارة كل بلد مع مساعديه بالاشتراك مع ناظر للتجار معين من قبل السلطان لحل الخلاف الواقع بينهم، وذلك حفظاً لكرامة التجار والمحافظة على سمعتهم .
١٥ــ إذا كان الخلاف بين تاجر رعايا الدولة العثمانية وآخر من تجار دولة أجنبية يفصل بهذا الخلاف وفق الاتفاقات المعقودة بين الدولتين التابعين لها .
١٦ــ بالنسبة للبضائع المستوردة من الخارج مهما كان نوعها، فهي تخضع للرسوم الجمركية بمعدل ٣٪ ثلاثة بالمائة، على أن لا تكون البضاعة من البضائع الممنوع ادخالها وأن تكون القواتير (الايصالات) المرفقة بها سجل فيها القيمة حسب التعرفة القانونية للبلاد المصدرة .

١٧ـ إذا حدث خطأ واستوفت الدولة الرسوم مرتين يصار إلى رد المبالغ المستوفاة فوراً الى أصحابها.

١٨ـ إذا أخذ أحد موظفي الجمارك رسوماً إضافية لمصلحته الخاصة يجب معاقبة هذا الموظف كما يجب على رئيس غرفة التجارة ومعاونيه مراقبة المواطنين وأعمالهم.

١٩ـ يحق للتجار نقل بضائعهم المستوردة بحراً وبراً حسب رغبتهم، وللحاجة الماسة للسفن التجارية لنقل هذه البضائع التي بدأنا ببنائها في الترسانة في اصطنبول.

٢٠ـ يمكن تعيين موظف (ملحق تجاري) في الدول التي تتعامل مع دولتنا بالتجارة لتقديم التسهيلات اللازمة لتجار الدولة العلية العثمانية في تلك البلاد وموانئها.

٢١ـ يحق لرئيس غرفة التجارة منح رخص الاستيراد والتصدير بعد دراستها والتأكد من قانونيتها حسب الأصول.

٢٢ـ في حال وفاة أحد التجار خارج البلاد، وله بضائع مستوردة، تحجز هذه البضائع مؤقتاً وتوضع في المستودعات حتى يتم حصر الإرث، ويحق للابن الأكبر للتاجر المتوفي أن ينوب عن والده وأن يحل محله بالتجارة، أما البضائع فتسلم لكافة الورثة بموجب كتاب الإرث حسب أصول الشرع الإسلامي، وذلك دون إرهاق الورثة بمصاريف أخرى.

٢٣ـ أما التجار الذين يحصلون على ترخيص دون حق، فإن رئيس غرفة التجارة ومعاونيه الذين منحوهم هذه الرخصة مسؤولون عن ذلك ويحاسبون على هذا العمل، ويتم تعين أخرين بدلاً منهم.

صدر في القسطنطينية أواخر محرم ١٢٤٥هـ.

وتوالت المراسيم التي تضيف بنود للتجارة وللتعامل بين التجار، منها المرسوم (الفرمان) رقم / ٣٨٥ /[٣]، والذي يكرر به البنود السابقة في المرسوم / ٣٨٣ / ويضيف بنوداً أخرى تشمل عدداً كبيراً من المواطنين، من التجار الإسلام، وتسهيل حرية التجارة بشكل أوسع (براً ـ وبحراً) بتخفيض الرسوم الجمركية وتبادل البضائع ـ كما قرر إجراء انتخابات فيما بين التجار والمواطنين الخاضعين للاتفاقية التجارية بالإضافة الى شيخ التجار (رئيس غرفة التجارة) وإثنين من التجار الذين يخضعون للبروتوكول الدولي المشار إليه للذين تتوفر فيهم الخبرة الكافية والسمعة الطيبة من أهل الإستقامة، ولم يتعرضوا سابقاً لجرم أو عزل من وظيفة بشهادة أشخاص، موثوقي الكلمة على شهاداتهم ويعرفون عن مكانة سكناهم مع اسمهم وشهرتهم.

هؤلاء الثلاثة يعينون بموجب مرسوم سامي، وبمعرفة الناظر العام للتجارة الدولية. يطبق هذا النظام في (الشام ـ حلب ـ قبرص ـ ازمير). كما يتضمن هذا المرسوم تكليف / ١٠ / تجار من ذوي السمعة الحسنة والخبرة الجيدة، للقيام بإدارة أمور التجارة في مناطقهم، وعلى منحهم جميع الامتيازات والرعاية في حدود أنظمة الدولة.

وضمن هذا المرسوم يصدر السلطان تعيين أحد التجار المسلمين الكبار والقاطن في (خان العلبي) في مدينة حلب السيد (محمد وفا مؤقت زادة) المشهود بأمانته وصدقه واستقامته (رئيس غرفة تجارة حلب) (شهبندر التجار) ويخصص له راتباً من الخزينة قدره / ١٢٠٠ / قرشاً، يتولى هذا التاجر مع معاونيه إدارة شؤون التجار وتقديم الخدمات.

ثم يصدر مرسوماً آخر إلى قاضي حلب[٤] يعلمه عن منحه براءة إلى رئيس التجار بحلب (محمد وفا مؤقت زادة) تمنحه نفس الامتيازات للتجار الأجانب، وتسجل هذه البراءة في ديوان محكمة حلب للعمل بها.

ان للتجار الأجانب معاملة خاصة حيث يخضعون لحماية الدولة، وأشير إليها بالإتفاقية التجارية الدولية، وكنموذج عن المعاملة الخاصة لهؤلاء التجار وتأمين حقوقهم وحمايتهم أعرض نموذجاً خاصاً صدر بمرسوم سلطاني رقم / ٣٧٨ /[٥].

إلى والي حلب (علي باشا) وإلى قاضي حلب أصدر الأمر السامي الآتي:

أن التجار الأجانب من دول (أوربا والعجم والهند) المرخص لهم مزاولة التجارة الدولية في أراضي (المملكة العلية العثمانية) والذين يحملون براءات شريفة منحت لهم بموجب البروتوكول المعقود فيما بين (المملكة العلية العثمانية، ودولهم، والقاضي بحمايتهم وصيانة أموالهم).

علمنا أن بعض عناصر من تجار حلب تجاوزوا على التجار الأجانب خلافاً للشروط المقررة والمحررة على براءاتهم التجارية، هؤلاء التجار الأجانب تقدموا بشكوى إلى الديوان

السلطاني ضد هؤلاء التجار، وبعد البحث والتأكد من قبل الولاة والحكام عن صحة هذه الشكوى والتثبت منها، أعلن الباب العالي استياءه وطلب من السلطات المسؤولة الزام التجار المحليين بتطبيق بنود البروتوكول التجاري، وصيانة أموال التجار الأجانب المقيمين في أراضي المملكة تحت طائلة المسؤولية، وملاحقة المخالفين الذين يقومون بالتعدي، واعادة حقوق هؤلاء التجار المغدورين، ورفع التعديات عنهم وتنفيذ النظام المعمول به بالطرق الشرعية.

ينفذ هذا المرسوم حالاً.

صدر في القسطنطينية

من ناحية ثانية يؤكد السلطان بموسوم لاحق ذي الرقم / ٣٧٩ /(٦) التقيد بالتعليمات الخاصة بتقاضي رسوم قيد براءات التجار الأجانب في المحاكم دون أن يتجاوز ذلك مبلغ /١٥/ خمسة عشر قرشاً.

«أرسل إليكم الأمر السامي المتعلق بالمحلات التجارية التي يديرها تجار أجانب».

عملاً بالإتفاقية التجارية الدولية، وإعطائهم بعض الامتيازات، فإن البراءات التي تعطى لهم يجب أن تسجل في محكمة اصطنبول لقاء رسم قدره /١٥/ خمسة عشر قرشاً فقط. وعلى المحكمة عدم مطالبة أصحاب البراءة بأي مبلغ إضافي ما عدا إعطاء كاتب البراءة خمسة قروش لقاء أتعابه.

لذا يطلب تعميم هذا الأمر في مدينة حلب ومحكمتها فقط، وإذا قدم التاجر اعتراضاً بأخذ مبالغ إضافية عن المقررة يلاحق المخالف حسب أنظمة البروتوكول التجاري حفظاً على حقوق التجار المشروعة.

وعندما يخالف أحد التجار أنظمة التجارة يعاقب ويمنع من ممارسة التجارة كما ورد في المرسوم رقم /٢٤٦/(٧).

«إلى قاضي حلب أن الأمر السامي الموجه إليك يفيد أن أحد تجار (أوربة) المقيم حالياً في حلب المدعو (وانيس ترزي باشي) من الطائفة الأرمنية ومن سكان مدينة (ازمير) تصرف تصرفاً منافياً ومخالفاً للبروتوكول التجاري وبنوده مما استدعى تأديبه، بمنعه من ممارسة الأمور التجارية ووضعه تحت المراقبة بإقامة دائمة في مدينة (ازمير) بعد نفيه من مدينة حلب.

وتتوالى المراسيم المتعلقة بالتجار وغرفة التجارة والبنود المتعلقة بالرسوم على البضائع وكنموذج صدر المرسوم رقم / ٤٢٨ / (٨).

«الى وزيرنا والي حلب وإلى قاضي حلب ونوابه في أقضية الولاية، لقد علمنا أن مادة (القهوة والسكر ـ وقماش الخام وبضائع أجنبية متنوعة) التي تنقل من مدينة (ازمير) وتباع إلى مناطق الأناضول خاضعة لرسوم أميرية يتهرب بعض التجار العاملين بهذا الحق من دفع (رسوم الدمغا) والبيانات الجمركية بالاتفاق مع أصحاب البضائع الأجانب بتسجيل أسماء وهمية للمشترين، لذا أصدرنا تعليمات تتعلق بالبضائع الأجنبية التي تنقل من مدينة ازمير الى الأناضول أن تكون مرفقة بالبيانات الجمركية بدفع جميع الرسوم البالغة ٣٪ من قيمة البضائع يتسملها محاسب الجمرك وتثبت في سجل خاص ويرسل كل ثلاثة أشهر إلى خزينة الجمرك المركزية في مدينة (ازمير)

كما يمكن أن تدفع إلى صناديق خزينة المناطق التي بيعت فيها لقاء اشعار بذلك يرسل إلى الخزينة المركزية للاطلاع.

وأخيراً صدر في أوائل عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م) تنظيمات جديدة عرفت باسم خط كولخانة، وهي تنظيمات شاملة إدارية وزراعية وتجارية ولكن الذي يهمنا منها المتعلق بالتجارة المسمى نظام الويركو(٩).

يقسم هذا النظام إلى قسمين: الأول ويركو الأملاك (الضريبة) والثاني ويركو (التمتع) هذه الضريبة فرضتها الدولة العثمانية على التجار بنسبة /٣٠/ في الألف من مجموع الربح السنوي، ثم رفعت إلى /٤٠/ في الألف بناء على القرار المؤرخ في /٤/ ربيع الأول /١٢٩٧هـ ـ ١٨٧٩م) الصادر بشأن الاملاك والأغنام والأعشار، كما فرضت ضريبة النسبية(١٠) وهي ضريبة على الإيراد غير الصافي المقدر للمحل الذي يشغله المكلف، وجعل هذا النوع من أنواع التجارة على خمسة أنواع كل منها يحتوي على قسم من أنواع التجارة والصناعة، ومقدار نسبة الضريبة التابعة لها، وأهم مافيها أن الضريبة على تجار الجملة والصيارفة وباعة الأقمشة والمجوهرات نسبتها ١٢٪ وعلى بائعي الأقمشة والألبسة والعطور والأدوية ١٠٪.

كما فرضت ضريبة اسمها الضريبة المتحولة، وهذه تطرح على أصحاب المحلات التجارية والصناعية لاستفادتهم من خدمة العاملين لديهم، وتبدأ بستة قروش وتنتهي بمائة قرش.

مما تقدم نلاحظ أن التجارة كانت نشطة في بلاد الشام خلال العهد العثماني وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر كان قسماً منها بيد تجار من اليهود والمسحيين كوسطاء للتجار الأجانب، يتمتعون برعاية قناصل الدول الأجنبية، ولكن بعد إعلان التنظيمات التجارية وإنشاء غرفة التجارة أصبح للتاجر صفة رسمية له حقوق ومكانة تجارية.

كما نلاحظ أن عام (١٢٤٥هـ-١٢٤٧هـ) (١٨٢٩-١٨٣١م) غني بأسماء التجار المنتسبين للغرفة التجارية، وبخاصة غرفة تجارة حلب ودمشق، وهذا ما أفاد الدولة بازدياد وارد الخزينة في الآستانة من رسوم انتساب التجار للغرف التجارية.

وبمتابعة أسماء التجار نأخذ فكرة عن عددهم ومهنهم وديانتهم، والملفت للنظر الاصرار على أن يكون التاجر ذا سمعة حسنة معروفاً في الأوساط التجارية باستقامته وغناه، ليكون ثقة في تعامله في الأسواق وعند الدولة.

وفي الأوامر السلطانية جميعها التي تتعلق بالتجارة نلاحظ أنها تبدأ بمقدمة واحدة متشابهة، وتتكرر فيها التنظيمات وبنودها عند منح براءة التسجيل لتاجر في غرفة التجارة، حتى ولو صدرت عدة في يوم واحد.

من هذه التنظيمات نلاحظ أن الدولة العثمانية احترمت التاجر وأعطته حقوقاً واعتباراً، ولم تساوه بأي فرد عادي عند الخلافات، بل لمكانته جعلت الخلافات بين التجار من اختصاص ناظر التجارة في السلطنة، ثم المحاكم التجارية عوضاً عن المحاكم العادية.

وفيما يلي أسماء بعض التجار منحوا براءات تسجيل في غرفة تجارة حلب كتجار أو مندوبين عن تجار بموجب أوامر سلطانية سجل في المحكمة أصولاً.

١ ـ التاجر (فخري أوغلي بن نقولا) المقيم في (خان السنبلي) أواسط ربيع الأول ١٢٣٩هـ.
٢ ـ التاجر (عرزة حنا ييم بن راخا خيم) المقيم في خان فرين أواسط شوال ١٢٣٩هـ.
٣ ـ التاجر (حنا أنطوان بليط) المقيم في (خان الجمرك) أواخر ذي الحجة ١٢٣٩هـ.
٤ ـ التاجر (إليا أندور) المقيم في (خان الوزير) أواخر ذي الحجة ١٢٣٩هـ.
٥ ـ التاجر (يوسف بن إبراهيم دباح) المقيم في (خان كندير) أوائل صفر ١٢٤٠هـ.
٦ ـ التاجر (وانيس بن كركور جركسلي) المقيم في (خان الوزير) أوائل ربيع الآخر ١٢٤٠هـ.
٧ ـ التاجر (يوسف بن بطرس حمصي) المقيم في (خان الجمرك) ١٢٤٤هـ-١٨٢٨م.
٨ ـ التاجر (عبد الله صباغ زادة) المقيم في (خان العلبي) ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م.
٩ ـ التاجر الحاج (صالح آغا زهير زادة) المقيم في (خان الوزير) ١٢٤٥هـ.
١٠ ـ التاجر (محمد وفا مؤقت زادة) المقيم في خان (العلبي) ١٢٤٥هـ.
١١ ـ التاجر (علي بيازيد زادة) المقيم في (خان الفرواتية).
١٢ ـ التاجر الحاج (مصطفى جمالي زادة) المقيم في (خان الملاعق) أواسط جمادى الأولى ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م.
١٣ ـ التاجر الحاج (عبد الوهاب حلبي عداس زادة) المقيم في (خان الحرير) أواسط ذي القعدة ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م.
١٤ ـ التاجر خليل حلبي سباعي زادة المقيم في (خان الفلمنك) أواسط ذي القعدة ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م.
١٥ ـ التاجر الحاج (محمد ركبي زادة) المقيم في (خان العبسى) أواسط ذي القعدة ١٢٤٥هـ-١٨٢٩م.

الحواشي

(١) كتاب تاريخ العرب الحديث والمعاصر للدكتورة ليلى صباغ ص١٨٢ ـ ١٩٠ .

(٢) هذه الأوامر (المراسيم محفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق) يقوم بترجمتها حرفياً خبراء باللغة العثمانية (التركية القديمة التي تكتب بالحروف العربية ثم تراجع الترجمة من قبل خبراء آخرين ويسجل في دفاتر خاصة وتوثق وتحفظ، وهذه فقرات من نص المرسوم / ٣٨٣ / من السجل رقم /٤٥ / للأوامر السلطانية التابعة لولاية حلب تاريخ (١٢٤٥ـ ١٨٣٩م) (بتوفيق الباري تعالى كان وضع نظام خاص للتجارة الدولية لتهيئة الأسباب والوسائل التي تؤول لإعمار البلاد وتوسيع وتقوية اقتصادها وتنظيم التعامل فيما بين التجار من رعايا (المملكة العلية) والتجار الآخرين من رعايا (أوربة ـ الهند والعجم .....إلخ) .

(٣) مرسوم رقم /٣٨٥ / تاريخ أواسط جمادى الأولى (١٢٤٥هـ ـ ١٨٢٩م) من دار السجل رقم /٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ـ صادر عن السلطان محمود الثاني .

(٤) مرسوم رقم /٣٨٦ / تاريخ أواسط جمادى الأولى (١٢٤٥هـ ـ ١٨٢٩م) من السجل رقم /٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ـ صادر عن السلطان محمود الثاني .

(٥) المرسوم رقم /٣٧٨ / تاريخ أواخر شعبان عام (١٢٤٥هـ ـ ١٨٢٩م) من السجل رقم /٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ـ صادر عن السلطان محمود الثاني .

(٦) المرسوم رقم /٣٧٩ / تاريخ أواسط شعبان عام (١٢٤٥هـ ـ ١٨٢٩م) من السجل رقم /٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ـ صادر عن السلطان محمود الثاني .

(٧) المرسوم رقم /٢٤٦ / تاريخ أواسط ذي القعدة (١٢٤٤هـ ـ ١٨٢٨م) من السجل /٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلي ـ صادر عن السلطان محمود الثاني .

(٨) المرسوم رقم (٤٢٨) تاريخ أواخر ذي الحجة (١٢٤٦هـ ـ ١٨٣٠م) من السجل رقم /٤٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ـ صادر عن السلطان محمود الثاني .

(٩) كتاب الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ ـ ١٩١٤م) لعبد العزيز عوض .

(١٠) كتاب خطط الشام لمحمد كرد علي الجزء الخامس صفحة ٩٩ ـ ١٠٠ .

التجارة وغرفة التجارة في حلب

نعمان جبران
المديرية العامة للآثار والمتاحف

قد كان لموقع حلب الإستراتيجي وغنى محيطها الجغرافي بإنتاجياته الاقتصادية الأثر الأكبر في تطور هذه المدينة واعطائها دوراً في النشاط التجاري بكل معانيه على الصعيدين الداخلي والخارجي، فبحكم موقع حلب مثلت هذه المدينة نقطة هامة في تجارة القوافل مع العراق وفارس، كما كانت وحتى مطلع القرن الحادي عشر إحدى أهم المعابر التجارية مع بيزنطة وهذا ما أكدته الاتفاقيات التجارية بين بيزنطة وحكام حلب في القرن العاشر للميلاد، يضاف إلى ذلك أن حلب كانت نقطة التقاء وتقاطع للطرق التجارية الأبعد سواء كانت طرقاً بحرية قادمة من الصين والهند عبر الخليج العربي أو الطرق البرية القادمة من وسط آسيا، فتفرعات هذه الطرق كانت تصل الى حلب في طريقها الى موانىء البحر الأبيض المتوسط، وكذلك الحال بالنسبة للطرق الآتية من آسيا الغربية وخط القوافل الآتي من بحر قزوين مروراً بتبرين وماردين وأورفه جعل حلب على اتصال بأرمينية وكردستان.

❁ ❁ ❁

إن هذا الموقع من الطرق التجارية كان يتأثر بالتطورات السياسية والعسكرية وتبادل القوى في السيطرة على أهم المعابر التجارية، ومن هذا المنطلق يمكن رصد الآثار الإيجابية والسلبية التي أثرت على حلب كمحطة على طريق الحرير من خلال تصارع القوى المختلفة حول الاستفادة من المناطق التي تلعب دوراً هاماً في النشاط التجاري، ويبدو ذلك أكثر وضوحاً في فترة الغزو الصليبي لبلاد الشام، حيث كان من ضمن استراتيجياتهم السيطرة على المناطق المهمة استراتيجياً واقتصادياً والعمل على قطع الاتصال او اعاقته بين المناطق الاسلامية، ضمن هذا التوجه كانت أنطاكية والرها من المناطق الصليبية التي هددت اقتصاديات حلب وطرق تجارتها، فالرها مثلاً شكلت ولمدة ٤٠ سنة تهديداً للطريق التجارية بين حلب والموصل علاوة على الغارات الصليبية المتكررة على مناطق حلب وما رافق ذلك من ضربات لاقتصاديات المنطقة.

■ لم يرسل ملخص باللغة الأجنبية.

وبعد حركة الإفاقة العربية الاسلامية منذ عهد عماد الدين زنكي شكلت حلب ومناطقها نقطة هامة في الحسابات الاستراتيجية للصليبيين والمسلمين في محاولة من كل طرف للفوز بحلب لما تمثله من أهمية على الصعيدين الاستراتيجي العسكري والاقتصادي.

وإثر فشل الصليبيين في السيطرة على حلب أو تحييدها لجؤوا الى محاولة الاستفادة من موقعها التجاري وذلك عن طريق المراسلات وعقد الاتفاقيات التجارية كتلك التي أعطت بعض الامتيازات التجارية لبعض المدن الايطالية كما هو الحال في الأعوام ١٢٠٧, ١٢٠٨, ١٢٢٥م.

وفي فترة الدولة المملوكية وسيطرتها على بلاد الشام ومارافق ذلك من نجاحات حققتها القوة المملوكية في التصدي للصليبيين، وسيطرتها على المناطق التي كانت تهدد شمالي بلاد الشام كان بإمكان حلب أن تستعيد دورا نشطا على الصعيد التجاري، الا أن موقعها فرض عليها أن تعود مرة أخرى كخط مواجهة للتصدي لخطر جديد هدد المنطقة الاسلامية ألا وهو الخطر المغولي الذي مثلته دولة ايلخانية فارس والتي بدأت تهدد بلاد الشام بشكل مباشر بعد سيطرتها على بغداد سنة ١٢٥٨م، وتبرز أهمية حلب في هذا الدور من خلال الاستراتيجية المغولية الهادفة للسيطرة على طريق الحرير والوصول الى شواطىء البحر المتوسط، وبذلك كانت حلب ومناطقها أكثر مناطق بلاد الشام تعرضاً لغزوات المغول منذ عهد هولاكو خان وحتى عهد تيمورلنك.

ولقد رافق الغزو المغولي تغيراً في الطرق التجارية البرية والبحرية ولقد انعكس ذلك سلباً على مناطق الدولة المملوكية، وكانت حلب الأكثر تأثراً حيث قلت مشاركتها في النشاط التجاري نتيجة لبروز أهمية ميناء اياس علاوة على تفضيل الأوربيين للطرق التجارية المارة في الدولة المغولية تجنبا للمرور في أراضي الدولة المملوكية.

وبعد ان استطاعت الدولة المملوكية من انهاء السيطرة الصليبية على بلاد الشام إثر تحرير عكا في زمن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠هـ ورافق ذلك نجاحات مملوكية في التصدي لدولة ايلخانية فارس تمثل بالسيطرة على بعض المواقع الاستراتيجية التي تتحكم في الطرق التجارية كما هو الحال حين تمت السيطرة على قلعة الروم (قلعة المسلمين) سنة ١٢٩١م.

وإثر ذلك عادت حلب لتلعب دوراً بدأ بطيئاً ومتعثراً وتعزز نتيجة الضعف المستمر لدولة المغول وفقدان الأمن على الطرق التجارية في حدود الدولة المغولية التي انتهت عام ١٣٣٥م، وحينها بدأت الحركة التجارية تعود بزخم أقوى ضمن أراضي الدولة المملوكية ولقد استفادت حلب من هذا الوضع وتعمقت استفادة حلب ومشاركتها في النشاط التجاري بعد أن تم للدولة المملوكية السيطرة على منطقة سيس سنة ١٣٧٥م، وبهذا أصبحت الفرصة مهيأة من جديد لكي تلعب حلب دوراً نشطاً في الحياة التجارية إذ عادت نقطة التقاء للطرق التجارية في الدولة المملوكية، وقد تبع ذلك أثر هام في تطور المدينة واتساعها كما أثر على بنيتها السكانية وعمق دورها في الأحداث السياسية في الدولة المملوكية، واستطاعت في بعض الفترات من أن تتفوق على مدينة دمشق في مجالات مختلفة، واستمر هذا الدور الفاعل إيجابياً حتى نهاية القرن الأول من السيطرة العثمانية على بلاد الشام، ويبدو ذلك واضحاً لمن يتتبع المنشآت العمرانية والثراء الاقتصادي الذي عاشته حلب مقارنة بغيرها من المدن الشامية.

إن مهمة هذا البحث تكمن أيضاً في تبيان دور حلب ـ كمحطة على طريق الحرير ـ في سياسات القوى المتصارعة في المنطقة أو عليها، سواء أكانت قوى اسلامية (زنكيين، أيوبيين، مماليك) أو قوى غازية (صليبيين، ومغول) وتبيان كيف أمكن لهذه المنطقة من تجاوز الآثار السلبية للغزوين الصليبي والمغولي، كما يقع ضمن نطاق هذا البحث رصد التغير في البنية السكانية لمنطقة شمالي بلاد الشام وما ترتب على ذلك من تفاعلات حضارية ايجابية يمكن ملاحظتها في المجتمع الحلبي.

الأسواق والتجارة الدمشقية في عصر المماليك

نقولا زيادة

الجامعة الأمريكية ـ بيروت

كانت مصر وبلاد الشام في أيام المماليك الطريق الرئيسي لنقل المتاجر الشرقية ـ من جاوه والهند والصين وسواها ـ إلى أوربة، وكانت القاهرة أكبر أسواق المنطقة كما كانت الإسكندرية نقطة خروج السلع الشرقية إلى أوربة، أما في بلاد الشام فقد كانت حلب ودمشق السوقين الرئيسيتين في الداخل وكانت بيروت أكبر منفذ نحو أوربة.

على أنه يجدر بنا أن نتذكر أن أوربة كان عندها في تلك الفترة ماتصدره إلى الشرق، وخاصة في عالم المنسوجات، ذلك أن أوربة أخذت نفسها بصنع المنسوجات على نطاق واسع وبأسلوب جيد منذ القرن الثالث عشر، وكان إلى جانب القماش الزجاج والأسلحة التي تحمل إلى المشرق.

ولن نتناول هنا هذه الأسواق بأجمعها، بل سنكتفي بالحديث عن دمشق وأسواقها، فقد كانت دمشق تحتوي أسواقها على مصنوعاتها المحلية التي كانت مطمع الكثيرين من زوارها والتجار الذين يهبطونها، ومن هذه الأشياء من منتوجات دمشق السكر والمنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والكاغد (الورق) والصابون وماء الورد والشموع.

وقد زار دمشق عدد من الغربيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بينهم جورجو غوثشي ونيكولو بوغيبونصي وفرسكو بالدي وسيمون سيولي وفان سوخم، وزارها في القرن الخامس عشر برتراندون دولابروكييه وفابري. أما لدفيكو دي فارتيما فقد جاءها سنة ١٥٠٢م.

وقد جمعنا روايات هؤلاء لنخرج منها بصورة عامة لتجارة دمشق في أيام المماليك (١٢٥٠ ـ١٥١٧م).

يبدو من ملاحظات هؤلاء الرحالين أن العمل التجاري النشيط انتقل من داخل المدينة إلى ميدان تحت القلعة خارج المدينة، أما مجمل ملاحظاتهم العامة فهي:

أولاً: أن ما يصنع في دمشق، كبيراً كان أم صغيراً، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر: سواء في ذلك الأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس والزجاج.

ثانياً : إن متاجر دمشق لا يصدق الخبر عنها إلا من رآها بنفسه فأنت لو سرت في المدينة متفرجاً لرأيت فيها الأقمشة الحريرية الآتية من الصين، والبروكار المتعدد الأصناف، والأباريق النحاسية المزخرفة .

ثالثاً : تحوي أسواق دمشق من الحجارة الكريمة والجواهر والأفاوية التي تأتي من الهند . وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن ما في دمشق من الأفاوية يكفي حاجات العالم المسيحي لمدة سنة .

رابعاً : إن سيوف دمشق هي أنبل وأجمل ما يصنع في المنطقة ويصنع في دمشق مرايا من المعدن التي تضخم الأشياء، وبعضها إذا وجهت نحو الشمس عكست من الحرارة ما يكفي لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ قدماً (نحو ٤,٥٠ متراً) .

خامساً : يقدر عدد سكان دمشق بنحو مئة ألف نسمة، وهي بعد القاهرة أهم مدن السلطان .

سادساً : إن الجزء المحاط بالأسوار من دمشق تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة فلورنسة .[١]



بعد هذا العرض العام أود أن أتوقف عند بعض هؤلاء الرحالين لأنقل إلى القراء كلماتهم (مترجمة) عن دمشق، يقول فون سوخم : « دمشق [مدينة] عظيمة وفخمة وجميلة وغنية بكل أنواع المتاجر، وفي كل ناحية منها شيء مبهج . . . فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآلئ والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية والبلاد الواقعة إلى جهتنا [أي نحو أوربة] من البحر المتوسط . . . وهي كثيرة السكان إلى حد لا يصدق . . . وتقوم صناعاتها المختلفة كل في حي خاص بها . وكل صانع يجعل أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته . وكذلك يفعل التجار بسلعهم »[٢] .

ولنقابل هذا بما جاء عند ابن بطوطة في وصفه لدمشق قال : « وعن يسار الخارج منه [الجامع الأموي] سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق . وقد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة . وفي الرحبة المتصلة بها دكاكين كبار الشهود منها دكان للشافعية وسائر أصحاب المذاهب، يكون في الدكان الخمسة والستة من العدول والعاقد للأنكحة من قبل القاضي . . . وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين يبيعون الكاغد (الورق) والأقلام والمداد »[٣] .

بروكييه كان من أهل الخامس عشر وقد قال عن دمشق : « قبل أن ندخل دمشق ترجلنا عن خيولنا حسب إشارة المكاري، وهذه هي العادة المتبعة في هذه البلاد إذ لا يجوز لمسيحي أوروبي أن يدخل مدينة راكباً . . . تحوي دمشق على ما بلغني مئة ألف نسمة وهي غنية ومركز كبير للإتجار، وأهم مدينة في السلطنة [المماليك] بعد القاهرة . . . وحاكمها نائب عن السلطان رأساً .

« يتحتم على تجار الأوروبيين أن يلجأوا إلى بيوتهم في المساء فيقفل عليهم الأبواب إناس معينون لهذا الأمر، ولا يفتحونها إلا في صباح اليوم التالي، وقد لقيت في دمشق كثيرين من الجنوبيين والبنادقة وأهل كالابريا وفلورنسة ومن تجار فرنسة . وقد جاءوا إلى دمشق ليبتاعوا أشياء متعددة وخاصة التوابل بقصد نقلها إلى بلادهم بطريق بيروت، ودمشق مدينة صناعية، فسيوفها من خير ما يصنع وأجمله، وصقلها جيد بحيث أن المرء يستطيع أن يستعملها مرآة لإصلاح زينته . ولم أر في حياتي سيوفاً تقطع مثل السيوف الدمشقية »[٤] .

وقال بروكييه عن بيروت، ميناء دمشق الأول: «ميناء بيروت جيد صالح للتجارة. لقيت في بيروت تاجراً بندقياً اسمه جال برفيزين الذي نصحني بالسفر إلى دمشق حيث ألتقي من التجار والقناصل الأوروبيين الكثيرين وهم يرشدونني إلى خير الطرق للعودة براً إلى أوروبة.

«نزلت أثناء إقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو پول بربريكو، وقد دبر لي مكاناً يحملني إلى الناصرة ويعيدني إلى دمشق ويعود إلى بول بوثيقة من تعرفه جملة أخباري وسلامتي»(٥).

المراجع

(١) ملخص من نقولا زيادة ـ دمشق في أيام المماليك (بيروت، ١٩٦٦)

نقولا زيادة ـ رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (بيروت، ط٢, ١٩٨٦)

Nicola A. Ziadeh Urban life in Syria under the early mamluks (Beirut, 1953)

(٢) رواد الشرق العربي ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) المكان نفسه ص٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) المكان نفسه ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٥) المكان نفسه ص٢٢٥.

حلب وتجارة الحرير وصناعته
في العهدين المملوكي والعثماني

شوقي شعث
المديرية العامة للآثار والمتاحف

مدينة حلب مدينة للتجارة العالمية وذلك بسبب وقوعها عند نقطة تتحكم بالطريق التجارية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وبسبب وقوعها أيضاً في سهل واسع يصلح لزراعة مختلف أنواع الحبوب والخضار والأشجار والقطن وغيرها. ومن بين البضائع التي ساعدت على ازدهار حلب كان «الحرير» حيث أصبحت المدينة محطة مرور هامة لتجارة الحرير في العصر الروماني حين كان الحرير يأتي من الصين والبلاد الشرقية في طريقة إلى أنطاكية وغيرها من موانيء البحر المتوسط، ومن ثم إلى أوربة، وظلت مزدهرة بازدهار هذه التجارة في العهد البيزنطي على الرغم من احتكار السلطات الرسمية آنذاك لتلك التجارة حين شعرت بفوائدها المالية الكبيرة.

كذلك فقد ازدهرت تلك الصناعة والتجارة تحت سلطة العرب المسلمين بعد أن حرروا سورية من أيدي البيزنطيين، ومن دلائل ذلك أن الخليفة الأموي معاوية عمد عام ٦٦٥م إلى انشاء معمل لنسيج الحرير في قصره المسمى بالخضراء بدمشق. وحذت حلب وصور حذو دمشق وفتحت معامل لنسيج الحرير غلب طرازها على حرير دمشق في العهد العباسي.

عموماً نجد في أواخر العهد الأيوبي والعهد المملوكي الأول أن إنتاج الحرير وخاصة الحرير المقصّب قد تركز في حلب ومملكتها، فقد ذكر الإدريسي من القرن الثاني عشر وصفاً لما شاهده من الأنواع المختلفة من الحرير من حلب ومناطقها، منها الحرير المموج أو المقصّب بخيوط الذهب والفضة.

لقد كانت حلب في العصر المملوكي الأول محطة هامة للتجارة بين الهند والبندقية بإيطالية، وحافظت على ذلك فترات طويلة بسبب مهارة أهل حلب التجارية، حيث أصبحت الأعمال التجارية لدى الحلبيين من أهم الأعمال الممارسة، وبسبب التقاء عدة طرق تجارية عند حلب، من أهمها الطريق التي كانت تعرف بطريق الهند التي تنطلق من حلب إلى بغداد فالبصرة فعبدان فهرمز ثم الهند.

استمرت تجارة الحرير وصناعته بحلب طيلة الفترة المملوكية وحافظت على هذا النشاط في العصر العثماني، خاصة في القرنين الأولين من الحكم العثماني بسبب قربها من الأناضول، كما حافظت على مركزها المتميز

كمحطة مرور بين أوربة من جهة، وايران والشرق الأقصى من جهة أخرى، ولعل غنى حلب بالأسواق والخانات التي تقوم على تسويق البضائع وشحنها دليل على ذلك. وكانت التجارة الحلبية تأخذ طريقها إلى أوربا عبر ميناء الاسكندرية وميناء طرابلس الشام ذهاباً وإياباً.

هذه نبذة مختصرة عن صناعة الحرير وتجارته بحلب، وقد رأينا أن ازدهار حلب ارتبط بازدهار ونشاط تجارة الحرير وصناعته، وعلى الرغم من الحروب التي حدثت والأزمات التي وقعت والضرائب التي فرضت على هذه التجارة والصناعة إلا أن حلب ظلت تجني أرباحاً طائلة منها، ولم يبق عليها إلا منافسة البضائع الحريرية الأوربية التي جاءت مع الاستعمار الحديث للمنطقة التي كانت حلب وبلاد الشام تتاجر معها.

❀ ❀ ❀

مدينة حلب مَدينةٌ للتجارة العالمية، وجوداً وازدهاراً، ذلك بسبب وقوعها عند نقطة تتحكم بالطرق التجارية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، ولسبب وقوعها، أيضاً، في سهل واسع يصلح لزراعة مختلف أنواع الحبوب والخضار والأشجار والقطن وغيرها.

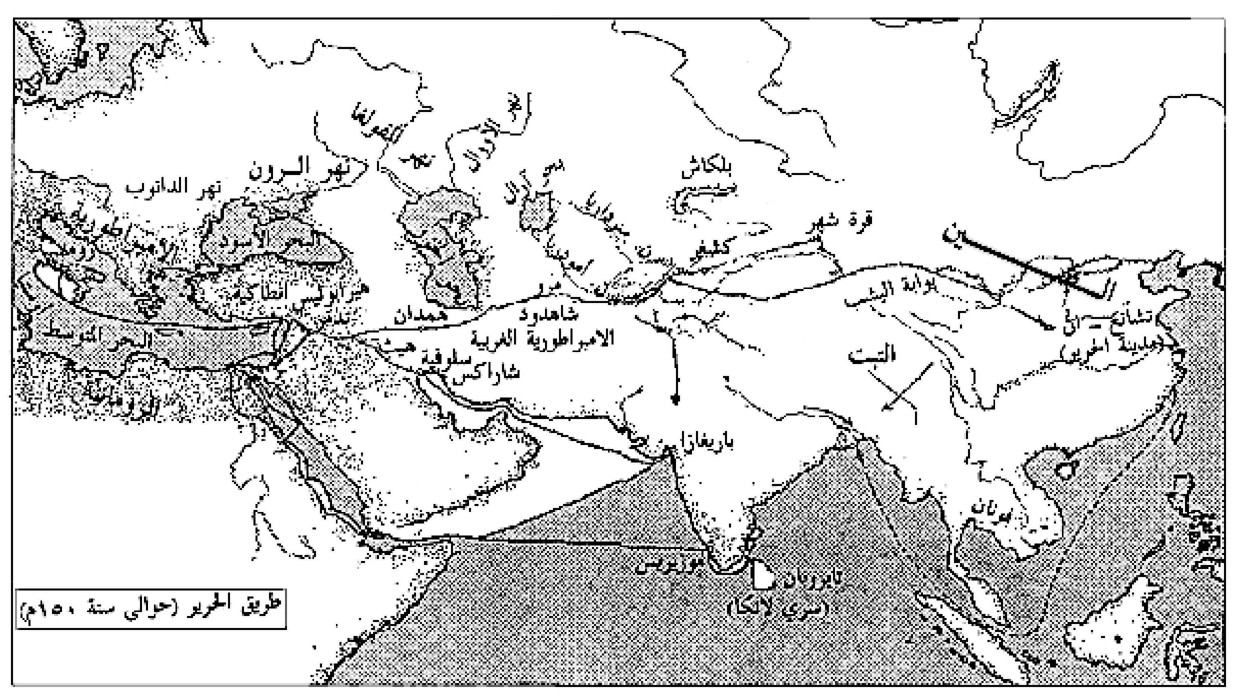
من بين تلك البضائع التي ساعدت على ازدهار حلب «الحرير» فقد أصبحت المدينة محطة مرور هامة لتجارة الحرير في العصر الروماني، حين كان الحرير يأتي من الصين والبلاد الشرقية في طريقه إلى أنطاكية أو غيرها من موانئ البحر المتوسط، ومن ثم إلى أوربة، وظلت مزدهرة بازدهار هذه التجارة في العهد البيزنطي على الرغم من احتكار السلطات الرسمية البيزنطية آنذاك لتلك التجارة حين شعرت بفوائدها المالية الكبيرة، وعلى الرغم من توقفها، أي توقف تلك التجارة، بسبب الحروب الطاحنة التي قامت بين الرومان والبارثيين، وبعدها بين البيزنطيين والساسانيين، مما سبب تحولها أحياناً نحو الجنوب أو نحو الشمال إلا أنها كانت لا تلبث أن تعود إلى الطريق التجاري الدولي الذي يمر بحلب والذي كان أنسب الطرق وأكثرها أماناً.

والأمر نفسه نجده إبان الحرب العربية الإسلامية ـ البيزنطية التي أدت إلى تحرير العرب السوريين من أيدي البيزنطيين. لقد ألحقت هذه الحرب بتجارة الحرير وصناعته ضربة كبيرة، إلا أنها ما لبثت أن استعادت عافيتها ونهضت من كبوتها عندما استقر الأمرللعرب المسلمين بحلب خصوصاً وسورية عموماً.

ومن دلائل تلك العافية أن يعمد الخليفة الأموي معاوية ٦٦٥م إلى إنشاء معمل لنسيج الحرير في قصره المسمى بالخضراء بدمشق عرفت منسوجاته بالطراز وذاع صيتها في كل الأقطار حيث كان خلفاء بني أمية يهدون بعضاً منها إلى عمالهم في مختلف أرجاء الإمبراطورية العربية أو إلى الأصدقاء من أمراء وملوك الدول الأخرى، وحذت حلب وصور حذو دمشق، وفتحت معامل لنسيج الحرير غلب طرازها على حرير دمشق في العهد العباسي[١]، مما دفع التجار الإيطاليين من مدينة أمالفي إلى التردد على حلب ليبتاعوا الأنسجة الحريرية منها وينقلوها بدورهم إلى الأسواق الأوربية مفضلينها بذلك على حرائر دمشق لجودتها ولسهولة الحصول عليها نظراً لوقوع حلب على طريق القوافل الدولية كما أشرنا سابقاً[٢].

يذكر سيرجنت أنه بعد عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، كان لأبي الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الأيسر في حلب معمل لتزيين قماش، صرف عليه نحو ثلاثين ألف دينار، ويضيف أنه ربما كان ذلك المعمل عبارة عن دار طراز فاطمية أنشأها ابن الأيسرمن ماله الخاص لنسج الحرير وتزيينه لتصديره إلى مصر الفاطمية نظراً لإقبال العامة والخاصة على اقتناءالأثواب الحريرية الحلبية[٣].

ويذكر المقريزي أن الوزير الفاطمي بمصر عام ٥١٠هـ/١١١٦ ـ ١١١٧م قد أخذ ثلاثة أثواب حريرية من حلب بين الضرائب التي كانت تذهب إلى الفاطميين بالقاهرة من حلب[٤].



الصورة ١: طريق الحرير (حوالي سنة ١٥٠م)

ومما ساعد على صناعة الحرير وازدهارها في سورية عموماً وحلب خصوصاً أن أهلها أخذوا يهتمون بتربية دود القز على أوراق أشجار التوت التي أخذوا يزرعونها بكثرة، وقد ذكر ابن العوام ذلك في كتابه الفلاحة (في القرن الثاني عشر) وسماه الفرصاد أو توت الإبرسيم وقد تولت النساء السوريات العناية بتربيته من حيث التفقيس والعلف وقطف الشرانق[٥].

ظلت حلب تهتم بتربية دود القز ونسج الحرير والمتاجرة فيه فنجد في أواخر العهد الأيوبي والعهد المملوكي الأول أن إنتاج الحرير وخاصة الحرير المقصب قد تركز في حلب ومملكتها فقد ذكر الإدريسي من القرن الثاني عشر وصفاً لما شاهده من الأنواع المختلفة من الحرير من حلب ومناطقها منها الحرير المموج أو المقصب بخيوط من الذهب والفضة[٦].

لقد برعت حلب في تقصيب الحرير وتاجرت به مع أوربة التي كانت تقبل على شرائه نظراً لجودته أو لرخص أسعاره بالمقارنة مع أسعار الحرير الذي كان يجلب من أواسط آسيا[٧].

لقد كانت حلب في العصر المملوكي الأول محطة هامة للتجار بين الهند والبندقية (فنيتسية) بإيطالية وحافظت على ذلك فترات طويلة[٨] بسبب مهارة أهل حلب التجارية حيث أصبحت الأعمال التجارية لدى الحلبيين من أهم الأعمال الممارسة[٩]، وبسبب إلتقاء عدة طرق تجارية عند حلب من أهمها الطريق الذي كان يعرف بطريق الهند والذي كان ينطلق من حلب إلى بغداد فالبصرة فعَبَدان فهرمز إلى الهند، وقد لاحظنا أن هذه الطريق إنتعشت في الفترة الأيوبية، ولكنها فقدت أهميتها حينما تعرضت حلب وبلاد الشام إلى الغزو المغولي المدّمر، حيث تحولت الطريق إلى الجنوب، فأخذت تستخدم البحر الأحمر إلى عدن ومن ثم إلى الهند[١٠]، إلا أن هذا التحول لم يدم طويلاً فعاد إلى سابق عهده بعد أن زالت أسبابه إثر موقعة عين جالوت وأصبحت حلب من جديد مركزاً لتجارة الهند[١١]، وظل هذا الطريق على نشاطه وإزدهاره حتى إكتشاف رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م من قبل البرتغاليين حين تحولت الطرق التجارية عن حلب من جديد[١٢]، لكن حلب لم تفقد ثروتها بالكليه، إنما بقي فيها من التجارة جانب عظيم لا يوجد مثله في كثير من الممالك غيرها، ويقول ابن الشحنة: «ومن خصائص حلب نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف والبردى والقماش وأنواع الفرو من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر والبضائع الهندية وأجناس الرقيق فانه قد يباع فيها في يوم واحد ويقبض ثمنه ما لو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد لما بيع بعشرة أيام[١٣].

ظل الحرير في العهد المملوكي الأول أهم السلع التجارية التي كان لها رواجها في حلب فقد كانت منبج وإنطاكية اللتان تتبع مملكة حلب من أهم المناطق إنتاجاً للحرير الخام لكثرة أشجار التوت فيهما[١٤]، وكان إنتاج هاتين المدينتين من الحرير الخام ينقل إلى حلب لتقوم بدورها في تسويقه وبيعه للتجار الإفرنج لأخذه خاماً إلى بلادهم ليصنع ثم يعود إلى الشرق منسوجاً وكانت جمهورية البندقية، بسبب وكالاتها بحلب، تزود بلاد فارس بالأقمشة الحريرية وتستورد من فارس عن طريق طرابلس الشام الحرير والقطن لتسويقه في أوروبة[١٥].

ولما كان الإقبال شديداً على شراء المنسوجات الحريرية، فقد عمد بعض التجار والصناع إلى الغش والتزوير والتقليد مما جعل السلطات الحكومية تسن قوانين وأنظمة تحدد شروط البيع، من تلك الشروط إجبار البائع على عرض منسوجاته قبل صبغها على أهل الخبرة ليتحققوا من أوزانها والتعرف على نسبة القطن فيها[١٦]. وطبيعي أن يكون لمثل تلك القوانين والأنظمة نتائج إيجابية على تجارة الحرير بحلب حيث إزدادت ثقة الناس بالحرير الحلبي فطبقت شهرته الآفاق[١٧].

ظلت تجارة الحرير وصناعته ناشطة بحلب طيلة الفترة المملوكية الأولى، ومما يؤيد هذا ما ذكره «ابن الشحنه» في قوله: إذا حضر إلى حلب مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه، ولو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر وعلى هذا فقس[١٨].

إستمرت تجارة الحرير وصناعته ناشطة بحلب طيلة الفترة المملوكية كما سبق أن ذكرنا كما حافظت على هذا النشاط في العصر العثماني[١٩]، خاصة في القرنين الأولين من الحكم العثماني بسبب قربها من الأناضول، كما حافظت على مركزها المتميز كمحطة مرور بين أوربة من جهة وإيران والشرق من جهة أخرى، ولعل غنى مدينة حلب بالأسواق والخانات التي تقوم على تسويق البضائع وشحنها أكبر دليل على ذلك، وكانت التجارة الحلبية تأخذ طريقها إلى أوربا عبر ميناء الإسكندرية وميناء طرابلس الشام ذهاباً ونظراً لأن حلب لعبت دوراً متميزاً في التجارة الدولية فقد عرفت الوكالات والقنصليات الأوربية باكراً دون غيرها من المدن السورية حتى قبل دمشق، فمنذ عام (١٥٨١) نجد شركة المشرق الإنكليزية تتخذ من حلب مركزاً لها إلى جانب مراكز في اصطنبول وازمير، كما قام الفرنسيون نحو عام ١٦٠٠ بالتواجد بحلب كممثلين تجاريين ودبلوماسيين[٢٠].

وقبل ذلك بقليل اتخذ العثمانيون إجراءات شديدة بحق تجارة الحرير الوارد من فارس بسبب حربها معها.

أصيبت تجارة الحرير بنكسة كبيرة في مطلع القرن الثامن عشر بسبب إحتلال روسية في عهد القيصر بطرس الأكبر المناطق المنتجة للحرير في شمال بلاد فارس فتوقف تدفق الحرير الفارسي إلى حلب وعبرها إلى أوربة، ورافق ذلك في الوقت نفسه تردي الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس وإستئناف القتال بين الطرفين في الربع الثاني من القرن الثامن عشر حين سيطر نادرشاه على الحكم وأنهى حكم السلالة الصفوية، وبالطبع كان لذلك أثره الكبير على تحجيم النشاط التجاري بين حلب وأصفهان والخليج العربي وماوراءه.

ويفسر هذه الأهمية الكبيرة لمادة الحرير في تجارة حلب الدولية[٢١].

وفي القرن الثامن عشر أصيبت تجارة الحرير من جديد بنكسة مدمرة حين أقدمت الحكومة العثمانية على فرض ضرائب باهظة عليها فكسدت سوقها ولم يعد التجار الإفرنج يشترون خام الحرير من حلب وبلاد الشام الأخرى، واقتصرت مشترياتهم على الأنسجة الحريرية التي كانت أنوال حلب تنتجها وبعض مدن الشام الأخرى كالزنانير (جمع زنار) والكفيات والعبى والأطالس والمبروم المخامل[٢٢].

وحين سأل أحد الرحالة بعض الأهالي في بلاد الشام خاصة في لبنان: مابالكم لا تغرسون أشجاراً جديدة للتوت؟ أجابوه: أأنت غريب عن هذه البلاد؟

ألا تعلم أننا إذا بنينا داراً أو غرسنا غرساً بثت الحكومة علينا العيون وفرضت علينا الضرائب لزعمها بأننا من أصحاب الثروة فإذا أنكرنا ضربونا بالعصي على أخماص الأقدام بالفلق ريثما يسلبوننا مالنا، وإذا اعترفنا به ضربونا أيضاً زاعمين أننا أغنى مما صدقناهم[٢٣].

وبكساد سوق الحرير الخام في بلاد الشام كسدت الصناعات المرتبطة به كصناعة النسيج وصناعة الصباغة وأخذت تتراجع شيئاً فشيئاً وانصرف العمال المهرة في

صناعة النسيج الحريري إلى أعمال أخرى، وفي الوقت نفسه أخذ الافرنج يحسّنون صناعة الحرير في بلادهم مما مكنهم من نسج الأجواخ والأقمشة الحريرية وضروب الأكسية الذين أخذوا يصدرونها إلى حلب والبلاد الشامية الأخرى.

إلا أنه وعلى الرغم من ذلك ظلت بعض المناطق العثمانية تطلب حاجاتها من الأنسجة الحريرية من تلك التي تنسج بحلب وبعض المدن الشامية الأخرى، ولعل هذا سبب وجود عدد كبير من الأنوال بحلب في منتصف القرن التاسع عشر حيث نجد نحو ستة آلاف نول فيها، في حين كان عدد الأنوال بدمشق ثلاثة آلاف بسبب الإقبال على منسوجات حلب لجمالها ورخص أسعارها بالمقارنة مع الأنسجة المستوردة كما ألمحنا سابقاً[٢٤].

وبعد حوادث عام ١٨٦٠ وما تبعها من إستقرار للأمور عاد تجار الحرير إلى ترويج بضائعهم من جديد فأقبل الناس على العمل في تجارة الحرير وصناعته، فبلغ عدد العمال الذين يعملون في مناسج الحرير بحلب عام ١٨٧٠ نحو ثلاثين ألف عامل في حين كان عدد العمال الذين يعملون في نفس المهنة نحو عشرين ألف عامل، إلا أن هذا الإنتعاش لم يدم طويلاً فأخذت صناعة الحرير تتراجع تدريجياً إلى أن وصلت إلى الحد الأدنى في مطلع القرن العشرين، ويعيد البعض هذا التراجع إلى أسباب كثيرة منها: الأزمات المالية التي حدثت بمصر، ومزاحمة بعض المدن التركية لتجارة المدن الشامية كمدن أدرنه وبروصه وعينتاب وغيرها، هذا إلى جانب شيوع الألبسة الأوربية وحلولها محل الألبسة الوطنية الحريرية الفاخرة، وأهم من ذلك عدم تطور الآلة والطرق التقليدية الصناعية المرتبطة بهذه الصنعة مما فسح المجال إلى الصناعات الأوربية لأن تنافس المنسوجات الوطنية وبالتالي أصبحت أدق وأمتن وأجمل من المنسوجات الوطنية[٢٥].

هذه نبذة عن صناعة الحرير وتجارته بحلب وقد رأينا أن إزدهار حلب إرتبط بازدهار ونشاط تجارة الحرير وصناعته، وعلى الرغم من الحروب التي حدثت، والأزمات التي وقعت، والضرائب التي فرضت على هذه التجارة والصناعة، إلا أن حلب ظلت تجني أرباحاً طائلة منها ولم يبق عليها إلا منافسة البضائع الحريرية الأوربية التي جاءت مع الاستعمار الحديث للمنطقة العربية وغيرها من المناطق التي كانت حلب وبلاد الشام تتاجر معها، ولا شك أن كثيراً من مناطق حلب القريبة منها قد شاركتها ذلك مثل الباب وسرمين وأنطاكية وغيرها من المدن، فيذكر ياقوت[٢٦] أن مدينة الباب التي تقع بين حلب ومنبج كانت تملك أسواقاً للحرير يباع فيها الموسلين من نوع «الكرباس» الذي كان يحمل الى مصر ودمشق وكان يسمى بالموسلين البابي، كما يذكر آخرون أنه في بلدة سرمين كان يوجد سوق يباع فيه الحرير يسمى سوق الحرير خصص نصفه كوقف على جامع الكزواني بحلب حيث عثر على كتابه في منبره تشير الى ذلك[٢٧]، وذكر كذلك أن تجار القز في بالس (مسكنة اليوم) قدإغتنوا غنى فاحشاً قبل العهد الأيوبي من تجارة الحرير، ويذكر ابن العديم في كتابه بغية الطلب أن سيف الدولة الحمداني أمير حلب عندما احتاج إلى المال لمحاربة الروم البيزنطيين استقرض منهم المال وفي رأي آخر صادرهم[٢٨].

الحواشي:

(١) غوستوف: تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة المشرق عدد ٥ ص٢٧٥.

(٢) غوستوف: المصدر نفسه، والعدد نفسه، ص٢٨٥.

(٣) . Sergaent R.B, Ar. Is, XI-XII, chap, XIV Syrian textiles P .138 .

(٤) نقلاً عن المصدر السابق نفسه ص١٣٩.

(٥) ابن العوام: صاحب «كتاب الفلاحة» أو «الفلاحة في الأرضين» وهو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد المعروف بابن العوام الأشبيلي من علماء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، نشر كتاب الفلاحة عام ١٨٠٢ بمدريد في مجلدين مع ترجمة إلى الإسبانية وأعيد طبعه مصوراً عام ١٩٨٨. والمعلومات الواردة في المتن أخذها عن هذا الكتاب السيد غوستوف في بحثه المذكور آنفاً.

(٦) شهاب موريس حافظ : دور لبنان في تاريخ الحرير، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ص٢٢ .

يذكر حبيب يوسف شحور في كتابه القصب وصناعته في سورية أن أصل هذه الصناعة قد جاد من فارس والهند انظر مجلة المشرق٤ (١٩٠١) وكذلك انظر رسالة جورج فريد داوود المعنونة «مدينة حلب في العصر المملوكي الأول» وهي رسالة غير منشورة قدمت لكلية الأداب بالجامعة الأردنية عام ١٩٧٧ لنيل درجة الماجستير بإشراف الدكتور نقولا زيادة .

(٧) انظر شحور المصدر السابق ونفس الصفحة وكذلك انظر شهاب ونفس المصدر ونفس الصفحة .

(٨) داوود : المصدر السابق ص١٣٤ .

(٩) عباسي حسيب : مدينة حلب في م . العمران عدد (٢ـ٢٣) ص٣٢ التي كانت تصدرها وزارة الشؤون البلدية والقروية بدمشق .

(١٠) حسن علي إبراهيم : تاريخ المماليك البحرية، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م .

(١١) ديل شارل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص٦٥، ص١٦٢، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، القاهرة دائرة المعارف ١٩٤٨م .

(١٢) الغزى كامل : نهر الذهب جـ١ ص١٢٣ . طبعه دار القلم بحلب الطبعة الثانية .

(١٣) نقلاً عن الغزي الجزء الأول ص١٢٣ . الطبعة الثانية/ دار القلم .

(١٤) أبو الفداء إسماعيل : تقويم البلدان، ص٢٥١ .

(١٥) Sauvaget J., Alep, p 165.

(١٦) غوستون : المصدر السابق ١٥ ص٢٨٥ ـ٢٨٦ .

(١٧) غوستون : المصدر السابق ١٥ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ ويضيف نقلاً عن شهادة تبين أن مدينة حلب كانت تجاري مدينة ليون بنسج حرائرها .

(١٨) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص٢٥٤ وردت اشارة لمثل هذا سابقا .

(١٩) Sauvaget ... op. cit. p.p 164 -165

(٢٠) رافق عبد الكريم : دراسات تاريخية، العددين السابع عشر والثامن عشر (١٩٨٤) ص١١٦ .

(٢١) رافق عبد الكريم : المصدر نفسه ١١٧ .

(٢٢) غوستون : المشرق ١٥ص ٣٧٤ .

(٢٣) المصدر نفسه ص٣٧٥ .

(٢٥) غوستون : المصدر السابق ص٣٧٧ .

(٢٦) ياقوت المعجم انظر مادة الباب، وقد أورد هذا سيرجنت في مقاله المذكورة سابقاً ص١٣٩ .

(٢٧) الغزي : نهر الذهب ٢ / ٩١؛ طلس : الأثار الاسلامية ص١٢٠ .

(٢٨) ابن العديم، جـ١ ص١٢٣، تحقيق سهيل زكار، نقلاً عن كتاب الجغرافيا لإبن حوقل النّصيبي ويذكر البعض أن مصادرة الأموال واحمال البنر جاءت بعد هلاك أموال سيف الدولة بعد لقائه صاحب مصر في زمانه وذلك بوساطة أبي حصين القاضي .

المنشآت الاقتصادية التاريخية

عبد القادر الريحاوي

المديرية العامة للآثار والمتاحف

تمثل المنشآت والمؤسسات الاقتصادية جانباً هاماً من النشاط الاقتصادي الذي تميزت به بلاد الشام خلال العهود التاريخية، فهي المظهر المتميز للتبادل التجاري بينها وبين شعوب البلدان الأخرى، من الشرق والغرب.

وكانت كل من مدينتي دمشق وحلب في طليعة المدن السورية من حيث العناية بالمؤسسات التجارية كالخانات والقيساريات، كذلك كانت طرق القوافل مزودة بالخانات والفنادق لتأمين راحة التجار والمسافرين.

فسورية كجزء من المنطقة العربية تتمتع بموقع جغرافي متميز بين القارات، ظهرت مكانتها الإستراتيجية منذ أقدم العصور، وتناوبت مع دول المنطقة السيطرة على التجارة العالمية ونقل السلع المحلية والأجنبية في رحلات تجارية منتظمة.

ولقد تمكنت اليمن منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولاسيما في عهد دولتي معين وسبأ من السيطرة على طرق التجارة ونقل السلع من الصين والهند وفارس.

ثم نشطت دول الأنباط وتدمر والغساسنة والمناذرة وأهل الحيرة والحضر، خلال القرون الأولى للميلاد وقبل الإسلام، في توليي شؤون التجارة العالمية.

وكان من أهم السلع وقتئذ، حرير الصين، وسيوف الهند وتوابلها، ولآلئ الخليج، ومنسوجات الحرير الشامي، وسلع اليمن كالعطور والصمغ والكافور والمرو.

وحقق تجار تدمر في هذه الفترة تفوقاً ملموساً، فوصلت قوافلهم إلى موانئ الخليج العربي لتجلب منها بضائع الهند إلى بلاد الشام، ثم تنقلها عبر الموانئ السورية إلى بلدان البحر المتوسط، كذلك وصلت قوافله إلى مصر والبحر الأحمر واليمن والبتراء.

وينتقل النشاط التجاري بعد سقوط دولة تدمر إلى الحيرة والحضر في العراق، وكان لتجار الحجاز في العهد البيزنطي نشاط تجاري هام مع بلاد الشام.

ونشط تجار المنطقة العربية بعد الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية الممتدة الأرجاء، فسيطروا من جديد على تجارة البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود والمحيط الهندي، وحفلت المدن الكبرى والطرق الرئيسية في سورية بالمؤسسات الاقتصادية، الصناعية والتجارية، وبمحطات القوافل، وظلت الصِّلات التجارية قائمة بين أوربا وسورية بعد حركة الإستكشافات والإستعمار، تشهد على ذلك الجاليات الأوربية التي تتخذ منازل لها خانات وقيساريات استمرت حتى القرن العشرين.

والحديث عن المنشآت الاقتصادية يتسوجب التعريف بأسمائها ووظائفها كمصطلحات استمر استعمالها قروناً طويلة، كالسوق والخان والفندق والقيسارية والوكالة.

وكذلك إلقاء نظرة على الصفات المعمارية لهذه المؤسسات، التي مازال الكثير منها باقياً إلى يومنا.

فمحطات القوافل على الطرق تتكون من فِناء حوله قاعات من طابق واحد، بينما تتكون الخانات والقيساريات في المدن من طابقين، وقد سقفت بعض الفناءات من العهد العثماني بمجموعة من القباب، كما في خان أسعد باشا في دمشق.

❁ ❁ ❁

تمثل المنشآت والمؤسسات الإقتصادية التاريخية جانباً هاماً من النشاط الاقتصادي والحضاري الذي تتميز به بلاد الشام، بل هي المظهر الرئيسي لطريق الحرير والتبادل التجاري بين الشعوب على مر العصور.

وفي طليعة المدن التي اشتهرت بنشاطها ومؤسساتها في بلاد الشام والمنطقة العربية مدينتا دمشق وحلب اللتان مازالتا تحتفظان بالعديد من الخانات والقيساريات.

كذلك كانت الطرق المواصلات تزود بالفنادق والخانات كمحطات لقوافل التجار والمسافرين.

وتحدثنا كتب التاريخ والرحلات عن هذه المنشآت بالتفصيل وعن ظروف بنائها ووظائفها وأقسامها المعمارية ونشاطاتها التي حفلت بها في كل عهد.

ولئن اندثر بعض هذه المؤسسات أو بطلت وظيفته، فإن عدداً هاماً مازال قائماً، بعضها بحالة جيدة من الناحية المعمارية، والبعض يستخدم في الأغراض التجارية والصناعية التقليدية، وبعضها عاد سيرته الأولى، فتحول إلى مقر للقنصليات والسفارات الأجنبية، بعد أن كان مقراً للجاليات الأجنبية.

أولاً: أهمية بلاد الشام والمنطقة العربية في التجارة العالمية:

لاشك أن المنطقة العربية تتمتع بموقع جغرافي متميز بين القارات الثلاث، آسية وأفريقية وأوربة، ظهرت أهميته الاستراتيجية منذ أقدم العصور، وخَوَّل هذا الموقع سكان المنطقة ودولها السيطرة على التجارة العالمية، ونقل السلع بين بلدان الشرق والغرب، في البر والبحر.

كما لعب هذا الموقع دوراً هاماً في سير أحداث التاريخ العالمي، تأثرت به دول المنطقة والدول المجاورة لها، سلباً وإيجاباً، فجلب لها الخير والشر.

وتناوبت دول المنطقة السيطرة على التجارة العالمية ونقل السلع المحلية والأجنبية في رحلات تجارية منتظمة، عبر طرق ومحطات، توزعت بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب.

وتمكن تجار اليمن منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولاسيما في عهد دولتي سبأ ومعين من السيطرة على طرق التجارة، بين جنوب المنطقة العربية وشمالها، وعلى طريق التجارة البحري، لنقل السلع من الصين والهند وفارس.

ثم نشطت شعوب الأنباط والتدامرة والمناذرة والغساسنة وأهل الحيرة والحضر، في السيطرة على النشاط التجاري بين بلدان المنطقة (الشام والعراق ومصر وجزيرة العرب) وبعض جزر اليونان، وبين الشرق الأقصى، كالهند والصين وفارس.

وكان من أهم السلع وقتئذ حرير الصين، وسيوف الهند وتوابلها، ولآلئ الخليج، ومنسوجات الحرير الشامي، وسلع اليمن، كالعطور والصمغ والكافور والمرو.

ومما يدعو للإعجاب أن يحقق شعب تدمر القاطن في بادية الشام تفوقاً في النشاط التجاري، خلال القرون الأولى للميلاد، ولاسيما بعد سقوط دولة الأنباط ووصلت قوافل التدامرة إلى موانئ الخليج لتجلب بضائع الهند إلى بلاد الشام متنقلة بعد ذلك من (دورا أوروبوس) على الفرات فإلى أنطاكية على البحر المتوسط، حيث تنتقل السلع من الموانئ السورية إلى جزر اليونان وموانئ الإمبراطورية الرومانية، وتجوب قوافل أخرى الطرق الممتدة بين تدمر والبحر الأحمر ومصر واليمن مارة بالبتراء (سلع).

وينتقل النشاط التجاري بعد سقوط تدمر إلى المحطات العربية الأخرى في أطراف العراق، كالحيرة والحضر، طوال عهد الدولة البيزنطية، مستفيدة من الصراع الدائر بينها وبين دولة الفرس، ويستمر ذلك حتى الفتح الإسلامي، وتشير المصادر إلى ماحصل عليه أهل الحيرة من الثراء من جراء النشاط التجاري الذي انعكس على حياتهم، فسادها الترف والتأنق الحضاري، كما عبر عنه الرواة والشعراء.

أما الحجاز فكان له الصدارة في التجارة مع بلاد الشام قبل الإسلام، وكان لقريش، بالإتفاق مع الحكام البيزنطيين، أن تنزل قوافلها في مدن بصرى والقدس وغزة، وغدت بصرى الشام سوقاً مفتوحة لتجار قريش، وكان في إحدى قوافلها إلى بصرى الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم، قبل النبوة.

ويتحول سكان المنطقة، بعد ظهور الإسلام في جزيرة العرب وإنتشاره، إلى أمة واحدة، تحكمها دولة واحدة قوية عاصمتها دمشق، وتمتد حدودها إلى الهند والصين شرقاً وإلى إسبانيا والأطلسي غرباً، وتسيطر كذلك على البحار الهامة (الأبيض والأسود والأحمر والمحيط الهندي)، وعلى جزر عديدة، كصقيليا وقبرص ورودوس وغيرها، وكان طبيعياً أن تصبح السيادة على التجارة العالمية لشعوب هذه المنطقة بمالديها من تقاليد موروثة، ومهارات وخبرات عريقة.

وهكذا أصبحت المنطقة العربية خلال عهود طويلة أكثر أهمية ونفوذاً عن ذي قبل في ميدان التجارة العالمية.

وبالرغم مما أصاب العالم الإسلامي من تمزق وتجزؤ من الناحية السياسية، فإن شعوبه ظلت متواصلة متعاونة في النواحي الأخرى، ولاسيما منها، التجارية والاقتصادية، وظلت الأسواق هنا وهناك عامرة بسلَع الشرق والغرب.

وغصت المدن الكبرى والطرق الرئيسة بالمؤسسات الاقتصادية المختلفة، وبمحطات القوافل، كالفنادق والخانات والقيساريات والوكالات، التي مازال العديد منها باقياً إلى يومنا هذا، وتعتبر شواهد حية على ذلك النشاط المتميز.

وتظل المنطقة العربية في القرون الأخيرة محتفظة بمكانتها التجارية بالرغم من إنتقال التفوق والنفوذ إلى الدول الأوربية، في أعقاب حركة الإستكشاف والإستعمار، والسيطرة بالتالي، على البحار والطرق العالمية، ولكن تبقى الصِّلات قائمة بين الجاليات الأوربية والبيوتات التجارية في العديد من الموانئ والمدن الكبرى في المنطقة العربية.

أشارت المصادر إلى تخصص بعض الخانات والقيساريات بتجار الفرنج، مثال ذلك قيسارية ابن اليافي في دمشق [١].

وظل العديد من الخانات مقراً لهذه الجاليات حتى نهاية الإنتداب الفرنسي، عَرفتُ في حلب واحدة تقيم في خان النحاسين[٢] وأخرى في خان الجمرك.

أما خان البنادقة القائم خالياً في منطقة الأسواق فكان مخصصاً لتجار البندقية كما يدل عليه اسمه[٣].

ثانياً: المصطلحات الخاصة بالمنشآت التجارية القديمة ووظائفها

الحديث عن المنشآت القديمة التي لعبت دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي المحلي والعالمي، يستوجب التعرف على ما كانت تحمله من مُسَميَّات إختلفت بإختلاف الزمان والمكان، وتبعاً للوظيفة التي تشغلها ومايمارس فيها من نشاط.

وتأصلت هذه المُسَمَّيات كمصطلحات أساسية شاعت على الألسن، وتناقلتها كتب الرحلات والتراجم، وأثبتتها النصوص والوثائق التاريخية، مماسيتوضح لنا من خلال الدراسة التي توصلنا إليها للمصطلحات التالية: السوق ـ الفندق ـ الخان ـ القيسارية ـ الوكالة.

١ـ السوق:

السوق كما هو معروف، مصطلح عربي قديم، بل هو أول المؤسسات الاقتصادية التي عرفتها المجتمعات الحضرية، وكان للعرب قبل الإسلام أسواق مشهورة في المدن وخارجها، اشتهر بعضها كمنتديات ثقافية. وقد فسَّرت بعض المعاجم هذا المصطلح بالعبارة التالية: سميت السوق سوقاً لأن الناس يقفون فيها على سوقهم وهي كلمة يصح فيها التذكير والتأنيث.

وحصلت الأسواق في مدن بلاد الشام على عناية من حيث العمران والعمارة، وتنوعت وظائفها بحسب السلع أو المهن التي خُصَّت بها، وغدى معظمها مسقوف الفناء. وأحسن مثل لهذا النوع من الأسواق نجده في مدينة حلب القديمة التي تغطيها أقباء طويلة بنيت بالحجر المنحوت، وزودت بفتحات للنور والهواء، وغدت الأسواق في العهد العثماني تضم مؤسسات ضرورية في كل منها، كالخان والمدرسة والمسجد والحمام، وأحسن مثل لمثل هذا النوع من الأسواق نجده في أسواق دمشق، البزورية والخياطين والحميدية.

٢ـ الفندق:

كلمة معرّبة، وهي من أصل لاتيني، أخذها العرب عن الفرنج خلال الحروب الصليبية، لأننا لم نجد لها ذكراً في المراجع السابقة للقرن السادس الهجري (١٢م)، وقد ورد في الموسوعة الإسلامية[٤] أن أصل الكلمة يوناني (پاندوخيتو)، ثم انتقلت إلى اللاتينية وأصبحت (فنداجي).

لقد أُطلق الفندق كمصطلح على المباني التجارية المنشأة داخل المدن، وعلى محطات القوافل المقامة على الطرق العامة، وشاع إستعماله في بلاد الشام بشكل خاص منذ القرن السادس الهجري سنة (١٢م) حيث عثر على أقدم استعمال لهذا المصطلح عند المؤرخ ابن عساكر، وذلك خلال حديثه عن الفنادق الموجودة في أيامه بمدينة دمشق، وذكر منها عشرةً، وأضاف إليها المؤرخ أبو شامة اثنين آخرين. كما عثرنا في النصوص المنقوشة على المباني القديمة خبراً عن اثنين لم يأت ذكرهما عند المؤرخين المذكورين، أحدهما يسمى فندق الحلبيين[٥]، ورد ذكره في نص وقفي منقوش على باب الجامع الأموي الشمالي (باب الكلاسة)، مؤرخ في تسع وثلاثين وستمائة (١٢٤١م). والثاني ورد ذكره في النص المنقوش على باب جامع التوبة الكائن بمحلة العُقيبة، وهو مؤرخ في عام تسع وأربعين وستماية (١٢٥١م). ويقع الفندق المذكور غربي (در ابطيخ) التي كانت في محطة (تحت القلعة) أسفل سوق ساروجة وتسمى هذه المنطقة اليوم بسوق الهال.

على أن الفندق الوحيد الباقي إلى يومنا هو محطة القوافل الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص، قريباً من بلدة القُطيفة، ويعرف اليوم باسم خان العروس.

لكنا عثرنا على نص[٦] منقوش على الحجر فوق بوابته تمكنا من نشره كاملاً قبل فقده في عام ١٩٧٣ يسميه فندقاً وينسب بناءه إلى السلطان صلاح الدين، سنة سبع وسبعين وخمسمائة (١١٨١م).

ويضمحل إصطلاح الفندق في العهود اللاحقة، ليظهر في عصرنا كترجمة للمصطلح الأوربي (أوتيل ـ Hotel) الذي أطلق على المؤسسات الحديثة المخصصة لنزول السياح والمسافرين.

٣ـ الخان:

وهو مصطلح فارسي معرَّب، ويعني القصر أو المنزل الكبير. وأقدم ما عثرنا عليه في النصوص العربية لهذا المصطلح يرجع إلى القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي)، وذلك عند البلاذري[٧] المؤرِّخ، حين تحدث عن أحد الثغور الشامية القريبة من أنطاكية، قال: «وكانت منازلها كالخانات». ولعله قصد بالمنازل ليس المساكن العادية، بل منشآت مخصصة لنزول الغرباء، لأننا عثرنا على ذكر لهذا المصطلح عند مؤرخي القرن السادس الهجري، حيث ذكر ابن القلاني موقعاً قرب دمشق سماه «منازل العسكر»[٨]. وذكر ابن عساكر[٩] منازل عديدة في ضواحي دمشق. ويبدو أن المنازل لم تكن منشآت كالخانات والفنادق، بل أماكن مخصصة لنزول الغرباء والقوافل أو معسكرات للجند.

وهناك أبنية في البادية من العهد الروماني يطلق عليها اسم الخانات، كخان الحلابات وخان التراب، لكنا نرجح أن إطلاق اسم الخان عليها كان في وقت متأخر عن عهد بنائها.

لكن مصطلح الخان أطلق فعلاً منذ العهد الأيوبي على منشآت التجارة والسفر إلى جانب الفندق، وبدأ بالشيوع كمرادف له، ثم حل نهائياً، ومع أننا لا نجد عند ابن عساكر من القرن السادس الهجري أي ذكر للخانات فإننا نجد المؤرخين الذين أتوا بعده، أخذوا يفضلون كلمة الخان، حتى أن الرحالة ابن جبير الذي زار الشام في العهد الأيوبي، حين مر بفندق صلاح الدين الذي مر ذكره، أسماه « خان السلطان ».

ومازالت سورية تحتفظ بالعديد من الخانات من مختلف العهود، داخل المدن وعلى الطرقات العامة، أدرجنا أسماء معظمها في اللائحة الإحصائية من هذا البحث.

أما من حيث الوظيفة، فإننا نجد الفنادق والخانات مخصصة للأغراض التجارية والسياحية بشكل عام، فهي إما محطات لقوافل التجار والمسافرين والحجاج من الطرق العامة، وإما منازلُ للتجار وأماكن لبيع السلع داخل المدن ويبدو أن معظم الخانات، ولاسيما في العهود الأخيرة، كان كل منها مخصصاً لسلعة معينة أو مهنة من المهن والصناعات، كما يظهر من الأسماء التي أُعطيت لها، أو ماذكرته المصادر التاريخية عن نشاطاتها.

ونذكر فيما يلي ما عثرنا عليه من أسماء السلع والمهن التي اقترنت بعدد من الفنادق والخانات، وقد بلغت ثلاثين سلعة ومهنة أطلقت على مجموعة من الخانات: خان الملح ـ الطحين ـ الزيت ـ الرز ـ البيض ـ العنب ـ اللبن ـ البرغل ـ الصنوبر ـ الصابون ـ الحرير ـ الحِنَّاء ـ الخشب ـ التتن (التبغ) ـ القطن ـ الجوار والرقيق ـ الجمرك ـ الزعفر نجية ـ الخضيرية ـ الدقاقين ـ الخياطين ـ النحاسين ـ الماردانية ـ النسيج ـ الفتالين ـ الجوخية ـ الألاجة (نوع من النسيج) ـ العلبية ـ الدواليب (للف الخيوط) ـ الفرايين (بائعي الفراء).

٤ـ القيسارية:

تجمع على قيساريات وهي معربة عن الكلمة اللاتينية (Caesarum)، وتعني في الأصل البناء الملكي أو الأمبراطوري، اشتقت من كلمة ـ Caesar (قيصر) لقب أباطرة الرومان.

شاع هذا الإصطلاح في العهد العربي الإسلامي وأطلق على المباني ذات الوظيفة الاقتصادية المخصصة للمهن والحرف، وأحياناً لسلعة من السلع.

وبعضها لنزول التجار، أو لسكن الجاليات الأجنبية، ويختلط الأمر في القرون الأخيرة فينتفي التمييز بين القيسارية والخان.

ونذكر هنا ماعثرنا عليه من الوظائف التي اقترنت بأسماء القيساريات، وهو: قيسارية الصياغ ـ القواسين (صانعي أقواس الرماة) ـ السلاح ـ مسبك الفولاذ ـ القطن ـ البهار ـ نسج الحرير.

وأقدم استخدام لهذا المصطلح عثرنا عليه، يرجع إلى العهد الفاطمي، حيث ذكر المؤرخ ابن عساكر خبراً عن القيسارية الفخرية، ونسبها المؤرخ ابن عساكر خبراً عن القيسارية الفخرية، ونسبها المؤرخ ابن تغري بردي[١٠] إلى الشريف فخر الدين، متولي القضاء في دمشق في أيام الظاهر العبيدي، المتوفي عام ٤٣٤ للهجرة.

٥ـ الوكالة:

شاع هذا المصطلح العربي في مصر بشكل خاص، منذ العهد المملوكي، وأطلق على المؤسسات ذات الصفة التجارية والمهنية كمرادف للخان والقيسارية، ولم نعثر على استعمال له في سورية والبلاد الشامية الأخرى إلا أننا وجدنا عبارة « دار الوكالة » عند المؤرخ ابن عساكر[١١]، دون إيضاح لوظيفة هذه الدار التي تبدو كإحدى المؤسسات العامة وكانت في دمشق على أيامه، أي في القرن السادس الهجري. لكن المحبي في كتابه « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر »[١٢] يذكر وكالة من العهد العثماني في دمشق ويشرح لنا معناها، شعوراً منه بأنها اسم غريب وغير شائع فيقول: « والوكالة اسم للخان في عرف المصريين، والدمشقيون يسمونها قيسارية ». وتعتبر وكالة الغوري في القاهرة اليوم أشهر الوكالات المعروفة وهي من العهد المملوكي، تنسب للسلطان قانصوه الغوري، شيّدت حوالي

عام ٩١٠هـ (١٥٠٥م)، وتشبه هندستها الخانات والقيساريات، لكنها مؤلفة من خمسة طوابق، بدلاً من طابقين.

ثالثاً: الخطوط العامة للهندسة والفن المعماري في العمائر الاقتصادية القديمة:

من السهل التعرف على هندسة هذه المنشآت وتصميمها المعماري وعناصرها الفنية التي تمثل العصر الذي أنشئت فيه، فما يزال العديد منها باقياً بحالة جيدة، شواهد حية أمام أعيننا، لاسيما تلك التي شيّدت في العهد العثماني، والذي بلغت فيه قمة تطورها. فالخانات المقامة على الطرق العامة كمحطات للقوافل، كانت ذات طابق واحد مؤلف من فناء حوله قاعات واسعة، ومسجد أحياناً، بينما جعلت الخانات والقيساريات المقامة داخل المدن من طابقين، وتتكون من فناء سماوي جعل في معظم خانات العهد العثماني مغطى بسقف من القباب، ويتوسط الفناء بركة ماء، ويحيط به مستودعات واسطبلات في الطابق الأرضي، بينما الطابق العلوي مؤلف من مجموعة من الغرف مفتوحة على رواق مشرف على الفناء، وهي مخصصة لنزول المسافرين ومكاتب للتجار، وقد يتوسط المسجد أو يقام في ركن من أركان الطابق الأرضي. وتزودنا المصادر وكتب الرحلات بوصف لما اندثر من هذه المنشآت، ولاسيما منها القيساريات التي لم يبق منها سوى النذر اليسير.

وصف المؤرخ ابن كثير[١٣] قيسارية يلبغا في دمشق المشيدة في العهد المملوكي عام (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) بقوله:

«إن داخلها قيسارية تجارية، في وسطها بركة ومسجد، وظاهرها دكاكين، وأعاليها بيوت للسكن».

ونجد وصفاً مفصلاً لقيسارية أخرى زائلة هي قيسارية الأمير قجماس الإسماقي نائب السلطنة في دمشق، وفي وقفية مخطوطة[١٤] ورد فيها مايلي: «يُغلق عليها باب خاص مبني بالحجارة المنحوتة في جدارها القبلي، يُتوصل منه إلى دُركاه (دهليز) مسقوفة، يُستطرق منها إلى ساحة سماوية مبنية جُدُرُها بالحجارة المنحوتة، وبها بركة ماء يجري إليها الماء من نهر القنوات، وتشتمل على ثماني قاعات معدة لنسيج الحرير، لكل منها باب خاص، وشباك مطل على الساحة المذكورة. ولكل منها منافع ومرافق».

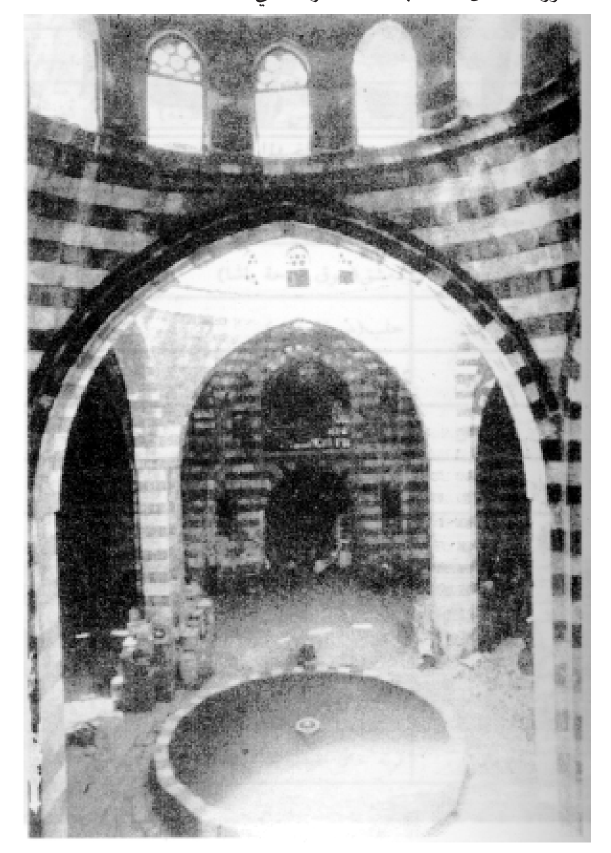
ويحسن أن ننهي هذه الفقرة بايراد ماسجله الرحالة الأجانب في القرون الماضية من وصف لبعض الخانات وما تركته في نفوسهم من انطباعات.

لقد وصف الرحالة الفرنسي Darvieux[١٥] الذي زار دمشق عام ١٦٦٠م خاناتها بقوله: «إنها مبنية بناء متقناً، توجد في الطابق الأرضي المخازن، وفي العلوي أروقة تؤدي إلى الغرف، حيث لكل منها قبة مصفحة بالرصاص».

ووصف الشاعر الفرنسي المشهور (لامارتين) الذي زار دمشق في عام ١٨٣٣ خان أسعد باشا العظم بأن غرف التجار كانت في الطابق العلوي، وأن التاجر المرموق كان يستأجر غرفة ليضع فيها بضاعته الثمينة، ونعتقد أنه يقصد بذلك التجار الأجانب، ويضيف قوله: وكان في جانب الخان اسطبل لخيل المسافرين والقوافل. وأبدى لامارتين هذا دهشته العظيمة حين وقف يتأمل بوابة الخان الرائعة البنيان، فوصفها بقوله: إنها قطعة من العمارة الإسلامية لانظير لها في العالم، ثم سجل الشهادة الهامة التالية: «إن شعباً فيه مهندسون لديهم الكفاءة لتصميم مثل هذا البناء، وعمالٌ قادرون على تنفيذه لجدير بالحياة والفن»[١٦].



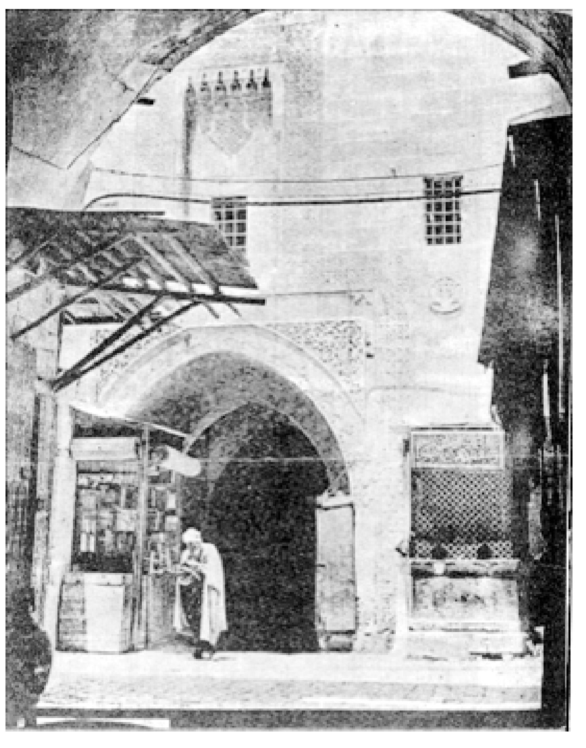
الصورة ١: خان أسعد باشا العظم في دمشق ـ منظر عام للخان مع الأسواق المحيطة به.



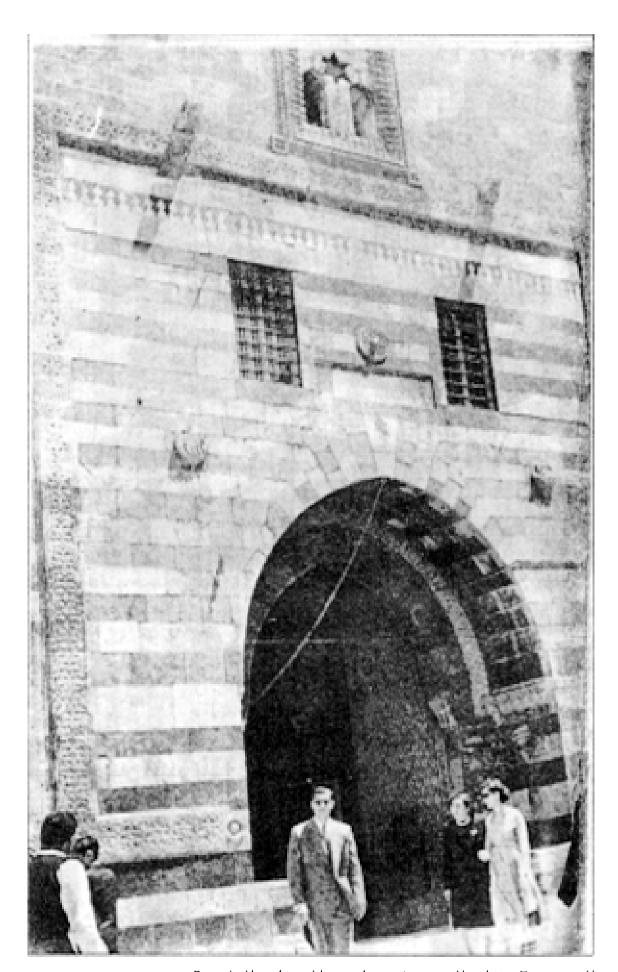
الصورة ٢: خان أسعد باشا ـ منظر داخلي



الصورة ٢: خان أسعد باشا ـ بوابة الخان، القسم العلوي

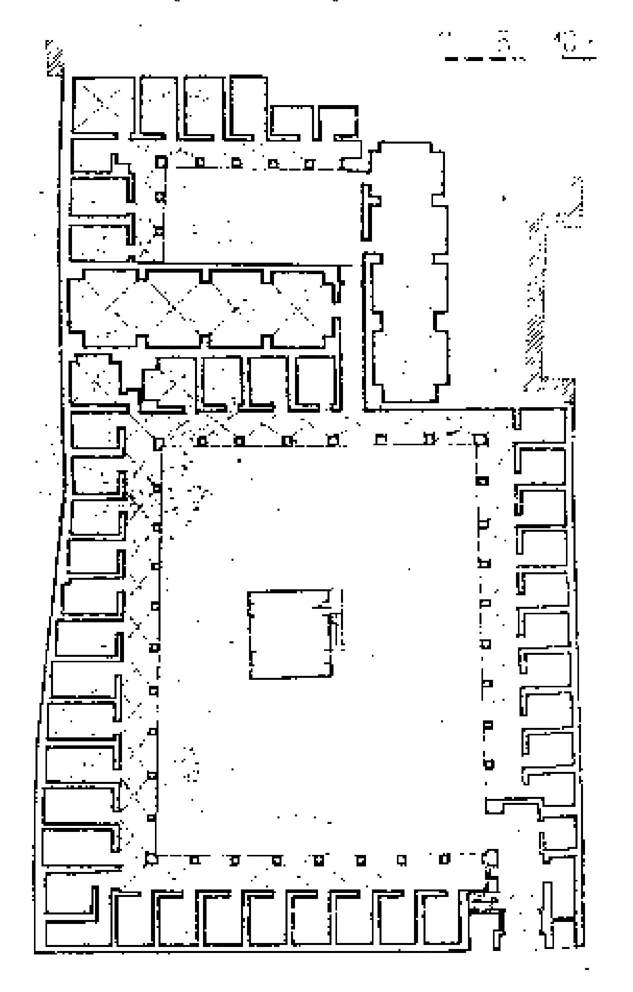


الصورة ٤ : خان الصابون في حلب ـ المدخل والواجهة الخارجية.



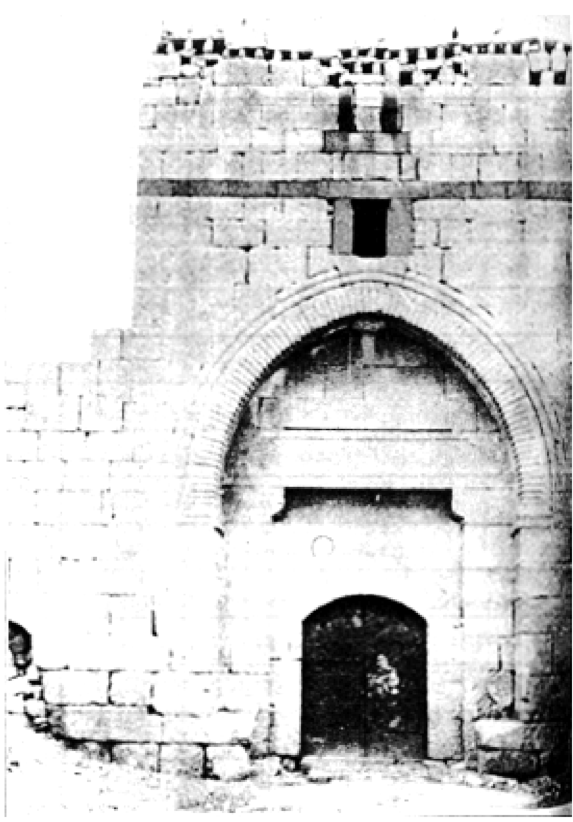
الصورة ٦: خان الوزير في حلب ـ المدخل والواجهة

الصورة ٥: مخطط (مسقط أفقي) خان القصابية في حلب.



الصورة ٨: خان العروس ـ منظر داخلي،





الصورة ٧: خان السبيل، في الطريق بين حلب والمعرة ـ المدخل والواجهة الخارجية

جدول بالمنشآت الاقتصادية التاريخية

اسم المبنى	الموة	العصر	تاريخ البناء	الملاحظات
خان نور الدين	الق يفة(ريق دمشق ـ حم)	سلجوقي	القرن ال اد الهجري	بقيت أق ام من في من قة الب اتين
خان العرو	دمشق ـ حم (قرب الق يفة)	أيوبي	٧٧٥هـ/١٣٧٣م	فندق لاح الدين سابقاً، حالة جيدة(الشكل رقم٨)
قي ارية الصياغ	دمشق(سوق الصاغة)	أيوبي	٦٣١هـ/١٢٣٣م	احترقت وجددت أكثرمن مرة، آخر حريق لها كان عام ١٩٦٠م
خان جقمق	دمشق(سوق مدحة باشا)	مملوكي	القرن التاس الهجري	موجود بحالة جيدة
خان التكة	دمشق(سوق مدحة باشا)	مملوكي		حالة جيدة
خان خاير بك	حلب(سويقة علي)	مملوكي	٩٢٠هـ/١٥١٤م	حالة جيدة
خان القصّابية	حلب(سوق القصابيّة)	مملوكي	٩١٦هـ/١٥١٠م	حالة جيّدة(انظر الشكل رقم١)(الشكل رقم ٥)
خان أوج خان	حلب(سوق النحاسّين)	مملوكي	القرن العاشر هجري	يحتفظ ببواة الهامّة وي مّى حاليّاً خان الع شان
خان الصابون	حلب(محلّةال ويقة)	مملوكي	القرن التاس هجري	حالة جيّدة(انظر الشكل٢)(الشكل رقم ٤)
خان القاضي	حلب(محلّة باب قن رين)	مملوكي	٨٥٤هـ/١٤٥٠م	حالة جيّدة (قرب البيمارستان الأرغوني)
مصبغة الزنابيلي	حلب(سوق النحّاسين)	مملوكي	٩١٦هـ/١٥١٠م	ببقي منها الباب والباقي مجدد حديثاً
خان دنون	ريق دمشق ـ درعا (يبعد عن دمشق ٢٢	مملوكي	٧٧٨هـ/١٣٧٦م	بناء حصين، حالة جيّدة
خان المعزّ	ريق دمشق ـ حم (قرب االق يفة)	مملوكي		علي كتابة تؤرخ بناء غير مقروءة
خان ومان	قرية خان رمان(١٥كم جنوبي حلب)	مملوكي		يق على ريق الخ ا لديدي

خان ال بيل	قرية خان ال بيل(حلب ـ حماة)	مملوكي	٧٣٣هـ/١٣٧٢م	ا بوّابة حصينة(الشكل رقم٧)
خان الع ل	قرية خان الع ل(١٥كم غربي حلب)	مملوكي	٧٤٤هـ/١٣٤٣م	بقيت منـ بوّابة
خان عيّاش	ريق دمشق ـ بغداد(قرب قرية عدرا)	مملوكي	٦٩٠هـ/١٢٩١م	
خان سع	قرية سع (دمشق ـ القني رة)	عثماني	٩٩٤هـ/١٥٨٥م	مازال موجوداً
خان القـ يفة	قرية القـ يفة(دمشق ـ حمـ)	عثماني	القرن العاشر هجري	جزء من مجمّ معماري يضم حمّاماً وم جداً أنشأ الوالي سنان باشا لخ
خان المضيق	قلعة المضيق(حماة ـ جـ ر الشغور)	عثماني	٩٣١هـ/١٥٢٤م	مازال موجوداً خارج القلعة، قرب أفاميا
خان أسعد باشا العظ	معرّة النعمان	عثماني	١١٦٦هـ/١٧٤٨م	مازال موجوداً ـ تحوّل إلى متحف حديثاً
خان مراد حلبي	معرّة النعمان	عثماني	٩٧٤هـ/١٥٦١م	مازال موجوداً
خان الجوخيّة	دمشق(سوق الخيّا ين)	عثماني	٩٦٠هـ/١٥٥٢م	حالتـ جيّدة، يعرف اليوم بخان الخيّا ين
خان ا رير	دمشق(سوق ا رير)	عثماني	٩٨١هـ/١٥٧٣م	وهو قيـ ارية درويش باشا والي دمشق
خان سليمان باشا	دمشق(سوق مدحة باشا)	عثماني	١١٤٥هـ/١٧٣٢م	عرف قديماً بخان ا ما نة
خان أسعد باشا العظ	دمشق(البزوريّة)	عثماني	١١٦٧هـ/١٧٥٣م	أشهو الخانات وأحـ نها بناءً(انظر الأشكال١ ٢ ٣)
خان العمود	دمشق(سوق البزوريّة)	عثماني	١١٦٥هـ/١٧٥١م	خان غير قبالة خان أسعد باشا
خان المراديّة	دمشق(باب البريد)	عثماني	١٠٠٢هـ/١٥٩٣م	تهدّم وجدّد في مـ ا القرن العشرين
خان الجمرك	دمشق (باب البريد)	عثماني		تبا في حاليّاً الأقمشة النـ ائيّة في سوق القلبقجيّة
خان قـ نا	دمشق(باب البريد)	عثماني		حالتـ جيّدة، موجود حاليّاً في سوق القلبقجيّة
خان الزعفرانجيّة	دمشق(باب البريد)	عثماني		في سوق القلبقجيّة، حالتـ جيّدة
خان ا رمين	دمشق(باب البريد)	عثماني	قرن ا ادي عشرالهجر	البناءا الي مجدّد من القرن التاسـ عشر
خان الزيت	دمشق(سوق مدحة باشا)	عثماني		مازال موجوداً
خان الصدرانيّة	دمشق(سوق البزوريّة)	عثماني		مجاور لقصر العظم، حالتـ جيّدة
خان التتن	دمشق(سوق الـ لاح)	عثماني		كان مخصّصاً لبيـ التبغ،أقدم خبر عنـ يرجـ لعام١٤٧١ /١٧٥٧م
خان القـ ن	دمشق(محلّة الخضيرية)	عثماني		كان يعرف بخان الخضيريّة
خان قوربت بك	حلب(الأسواق القديمة)	عثماني	القرن العاشر الهجري	يعرف اليوم بخان قر بة،فيـ قـ عة من قصر مملوكي
خان الجمرك(الكمرك	حلب(الأسواق القديمة)	عثماني	٩٨٢هـ/١٥٧٤م	حالتـ جيّدة
خان الوزير	حلب(الـ ويقة)	عثماني	١٠٩٣هـ/١٦٨٣م	حالتـ جيّدة(الشكل رقم ٦)
خان النحّاسين	حلب(سوق ا مّـ)	عثماني		حالتـ جيّدة
خان البرغل	حلب(محلّة الجلوم)	عثماني		
خان الـ ّاف	حلب(محلّة الجلوم)	عثماني		
خان التتن	حلب	عثماني		
خان البنادقة	حلب (منـ قة الأسواق)	عثماني		ينـ ب الى تجار البندقية(فينيـ يا)الإيـ الية
خان العلبيّة	حلب(منـ قة الأسواق)	عثماني		
خان الغرابين	حلب(منـ قة الأسواق)	عثماني		
خان رستم باشا	حماة	عثماني		
خان الجمرك	حماة	عثماني		
خان ا نّاء	حماة	عثماني		
خان مراد حلبي	معرّة النعمان	عثماني	٩٢٣هـ	
خان أسعد باشا	معرّة النعمان	عثماني	١١٥٨هـ	

المراجع:

١ـ ابن عساكر (الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن)، المتوفى سنة ١٧٥هـ.
تاريخ مدينة دمشق: ـ المجلدان الأول والثاني، طبعة المجمع العلمي بدمشق، تحقيق د. صلاح المنجد، دمشق ١٩٥١, ١٩٥٤
ـ المجلد العاشر، تحقيق محمد أحمد دهمان، ١٩٦٣
ـ المجلد الرابع، تحقيق د. شكري مصطفى
ـ مخطوطة المكتبة الظاهرية في دمشق
٢ـ ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة) القرن السادس، الهجري ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨
٣ـ ابن جبير، أواخر القرن السادس الهجري، الرحلة، تحقيق د. حسين نصار، دار الطباعة بمصر، ١٩٥٥
٤ـ ابن بطوطة، القرن الثامن الهجري، تحفة النظار . . .، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٣٨
٥ـ ابن تعزى بردي (جمال الدين يوسف) المتوفى سنة ٨٤٧هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٤٢
٦ـ ابن العديم، المتوفى سنة ٦٥٦هـ، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق د. سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق
٧ـ ابن كثير (عماد الدين اسماعيل)، المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة، البداية والنهاية، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٣٢
٨ـ البلاذري (الامام أحمد بن يحيى)، المتوفى سنة ٢٧٩هـ، كتاب فتوح البلدان، القاهرة ١٩٠١
٩ـ المحبي (محمد) المتوفى سنة ١١١١هـ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، ١٢٨٤هـ.
١٠ـ سجلات المحاكم الشرعية (دمشق وحماة)، مديرية الوثائق، دمشق
١١ـ حبيب الزيات: الخزانة الشرقية، بيروت
١٢ـ نعمان قساطلي: الروضة الفناء من دمشق الفيحاء، بيروت ١٨٧٩
١٣ـ أسعد طلس: الآثار الإسلامية والتاريخية من حلب، دمشق، ١٩٣٩
١٤ـ عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، الاسكندرية (بدون تاريخ).
١٥ـ عبد القادر الريحاوي: كتاب العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٧٩
١٦ـ عبد القادر الريحاوي: خانات مدينة دمشق، الحوليات الأثرية السورية المجلد ٢٥، عام ١٩٧٥

Darvieux Ch., 1735: Mémoire de Chevalier Darvieux, Paris.

Encyclopédie de l'Islam, N.E., Paris, 1960.

Lamartine A. de, 1851: voyage en Orient, 2vol., Paris.

Lortet Dr., 1884: la Syrie d'aujourd'hui, Paris.

Porter L., 1918: five years in Damascus, 2 vol., London.

Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe, 16 vol. le Caire, 1931-64.

Sauvaget J., 1941: Alep, Paris.

Volney de, 1785: voyage en Syrie, vol. II, Paris.

قنصلية (دار بوخه) بحلب

عبد الله حجار
جمعية العاديات. حلب

١ ـ تمهيد: حلب والقنصليات الهامة:

إن غاية البحث بيان أهمية دار بوخه الكائنة في خان النحاسين التي لا زالت تُسكن منذ العام ١٥٤٨ وحتى الآن قنصلية للبندقية ثم لمجموعة قناصل من آل بوخه، ومساهمة أفراد هذه العائلة في نشر الثقافة والمعرفة والتعريف بالآثار وتنشيط التبادل الثقافي والتجاري بين حلب وأوروبة والعالم.

تميزت حلب بموقعها التجاري الهام بين الشرق والغرب عبر التاريخ والعصور وكانت مركز تجمع لتجارة الحرير والمنتوجات الحريرية القادمة من أقاصي الشرق والعجم أو المصنعة محلّياً في بلاد الشام. أقامت بحلب قنصليات المدن ـ الدول منذ القرون الوسطى والفترة الأيوبية وكانت أول اتفاقية تجارية بين مبعوث البندقية «بيترو مارينياني» وملك حلب في العام ١٢٠٧م وكان فيها قنصلية لفرنسة عام ١٥٦٠م وقنصلية لانكلترة قبل عام ١٥٨٠ ولهولندا منذ ١٦٠٧م.

٢ ـ قنصلية البندقية في خان النحاسين:

كان خان النحاسين وقفاً لجامع العادلية العثماني وقد سكنته قنصلية البندقية منذ عام ١٥٤٨م وحتى عام ١٧٩٧ عندما أصبحت البندقية جزءاً من ايطالية أيام نابليون. ثم أصبحت الدار لآل بوخه إثر زواج جوزيف بوخه القادم من النمسة عام ١٨١٩م من الإبنة المتبناة لآخر قنصل لدولة البندقية. وتعتبر الدار من أقدم الدور التي لا زالت تسكن في الشرق الأدنى، وكأنها قد حوّلت إلى متحف خاص جمعت فيه عائلة بوخه مقتنياته المسجلة في مديرية الآثار بحلب. وهي أثار شرقية قديمة وكلاسيكية وعربية إسلامية بالإضافة إلى زجاجيات وأواني وأراكيل ومكتبة رائعة.

٣ ـ آل بوخه وأحداث تتعلق بالدار:

وصل جوزيف بوخه (١٧٨٨ ـ ١٨٥٨م) إلى حلب لبيع الكريستال البوهيمي فيها وتزوج مارغريت إبنة ساليريو ريتسيني آخر قنصل لدولة البندقية وقد خلف خمسة صبية وإبنة واحدة.

وهكذا نجد أن خان النحاسين استمر مقاماً لقناصل عديدين من عائلة بوخه . وتستقبل السيدة جيني ابنة المرحوم الدكتور أدولف بوخه الزوار المهتمين ظهر كل يوم جمعة، وتتجول معهم في أنحاء الدار مبينة مساهمة العائلة في نشر المعرفة .

٤ ـ تجارة الحرير والأرمن ودوُرهم بحلب :

كان الأرمن يجلبون بضائع الحرير إلى حلب من بلاد فارس ويقدمونها إلى تجار البندقية فيها، وكان لهم تواجد في حي « الجديدة » منذ القرن السادس عشر كما تبين دورهم مثل « دار وكيل » التي نقلت خشبيات جدران قاعتها الكبرى إلى برلين عام ١٩١٢م وتعود إلى عيسى بن بدروس السمسار وتاريخها ١٦٠١م « ودار غزالة » الفخمة وصاحبها خجادور بن مراد بالي وتعود إلى العام ١٦٩٢م .

❁ ❁ ❁

١ـ تمهيد: حلب والقنصليات الهامة:

إن غاية البحث بيان أهمية دار بوخه الكائنة في خان النحاسين التي لا زالت تُسكن منذ العام ١٥٤٨ وحتى الآن قنصلية للبندقية ثم لمجموعة قناصل من آل بوخه، ومساهمة أفراد هذه العائلة في نشر الثقافة والمعرفة والتعريف بالآثار وتنشيط التبادل الثقافي والتجاري بين حلب وأوربة والعالم .

تميزت حلب بموقعها التجاري الهام بين الشرق والغرب عبر التاريخ والعصور، حيث كانت تلتقي فيها طرق[١] التجارة العالمية وكان فيها بالإضافة إلى البضائع الأخرى مركز تجمع لتجارة الحرير والمنتوجات الحريرية القادمة من أقاصي الشرق والعجم أو المصنعة محلّياً في بلاد الشام . وكانت تتصل مع الغرب عن طريق مرافىء البحر المتوسط وخاصة السويدية وإسكندرون وطرابلس، أو عن طريق ازمير واصطنبول ومما يؤكد وجود الحرير والأنسجة الحريرية منذ القديم استعمالاتها في الأكفان المكتشفة في مقابر دورا أوروبوس وتدمر العائدة إلى الفترة بين القرن الثاني ق.م. والثالث للميلاد وكان مصدرها الصين والشرق الأقصى .

أقامت بحلب ومنذ فترات مبكرة قنصليات المدن ـ الدول لرعاية مصالحها التجارية بالدرجة الأولى وذلك بدءاً من الفترة الأيوبية وحملات الفرنجة (الصليبية) من أمثال مدن باري والبندقية وجنوة وبيزا . ثم بعد فترة، مرسيليا ومونبليه (فرنسة) . وقد أطلق أقدم لقب (قنصل) على رئيس جالية بيزا[٢] Pisa، وكان ذلك عام ١١٧٩م . وقد ذكر الرحالة ابن جبير في عام ١١٨٤م : « أن أعجب ما حدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين » كما ذكر كثرة الخانات في حلب وفي الطريق إليها وكثرة أسواقها المسقوفة بالخشب .

كانت أول اتفاقية تجارية رسمية بين مبعوث البندقية « بيترو مارينياني » والظاهر غازي ملك حلب في العام ١٢٠٧م منح فيها البندقية فندقاً وحماماً وكنيسة وخفضت لهم الرسوم وزادت التسهيلات . واستمرت الإتفاقيات التجارية في الأعوام ١٢٢٩ و١٢٥٤م مع الأسرة الأيوبية بحلب واللاذقية وقلعة صلاح الدين . وكانت هناك رحلتان في العام تنطلقان من موانىء إيطالية في عيد الفصح (الربيع) وفي عيد يوحنا المعمدان (الصيف) إلى شواطىء شرقي المتوسط منذ أيام الأيوبيين . وتستمر العلاقات التجارية بازدهار يشوبه بعض الانحطاط أيام حكم المماليك وغزو المغول الذي تخلله . وتبدأ الفترة العثمانية بعد معركة مرج دابق قرب حلب عام ١٥١٦م واندحار المماليك وتزدهر التجارة بحلب وتنشط مع انتشار الأمن والإستقرار واتساع أراضي الامبراطورية العثمانية في آسية وأوربة وأفريقية . وتقيم الدول الأوربية علاقات مع العثمانيين باتفاقيات ثنائية وتعين قناصلها في القسطنطينية وخاصة في حلب المركز التجاري الهام، وكان القناصل غالباً يقيمون في الخانات لسلامتهم العامة وسهولة السهر على مصالحهم التجارية .

تبدأ العلاقات التجارية الحقيقية بين فرنسة والشرق بعد توقيع إتفاقية عام ١٥٣٥م بين فرنسوا الأول وسليمان القانوني وتقيم جاليات في اصطنبول (١٥٥٠م) وتؤسس قنصلية بحلب عام ١٥٦٠م. وتذكر بعض السجلات تعيين قناصل في طرابلس وسواها قبل عام ١٥٤٤م من قبل بلدية مرسيليا التي ربما كان لها تواجد في بعض مدن الساحل السوري منذ الحملات الصليبية. كانت إقامة قنصلية فرنسة بحلب في خان الحبال (١٨١٩م قرألي). وكانت سابقاً في خان الجمرك حيث نقلها إليه قنصل فرنسة شوفاليه دارفيو عام ١٦٨١م وكان فيه آنئذ ٨٠ تاجراً فرنسياً و١٠ تجار انكليز. كما كان للإنكليز تواجد في عكا يعود إلى أيام ملكهم رتشارد قلب الأسد، لكن تجارتهم لم تنتظم إلا بعد لقاء انطوني جنكنسون مع سليمان القانوني بحلب والسلطان بطريقه لمحاربة الفرس عام ١٥٥٣م، حيث سمح له ولشركائه بحلب بنقل بضائعهم إلى الموانىء العثمانية على سفن انكليزية تحمل العلم الفرنسي. وسمح لانكلترة بحرية التجارة في البلاد العثمانية عام ١٥٨٠م بهمة « وليم هيربورن » أيام الملكة اليصابات الأولى حيث وقّعت اتفاقية شبيهة بالإتفاقيات مع فرنسة والبندقية. وكانت القنصلية الإنكليزية بحلب في خان الجمرك.

أما بالنسبة للهولنديين الذين كانوا يملكون أسطولاً تجارياً هاماً ولديهم مدن تستقطب التجارة الأوربية مثل أنفرس وأمستردام وروتردام التي أصبحت مركزاً عالمياً للتجارة بعد الكشوف البحرية وكان اسطولها بحمولة ٧٠٠طن ينقل الجوخ والألبان في بحر الشمال والمحيط الأطلسي، فقد جذبت تجارة الشرق هولندا إلى السواحل الشرقية للمتوسط وكانت سفنهم تعمل تحت الراية الفرنسية في القرن السادس عشر. واندفع الهولنديون إلى آسيا وطلبوا العمل تحت الراية البريطانية وأسست شركة الهند عام ١٥٩٤م وشركات أخرى. وبعد انتصار الأسطول الهولندي على الأسطول الإسباني في العام ١٦٠٧م وفد إلى القسطنطينية « كورنيليوس فان هاغن » عام ١٦١٢م لينال لدولته امتيازات مماثلة لما حصلت عليه فرنسة وانكلترة والبندقية ووفق إلى ذلك وبقي مقيماً في القسطنطينية حتى عام ١٦٣٨م.

وكان الفرنسي أرنو دو لا فاله Arnolt de la Valee ممثلاً للهولنديين بحلب منذ عام ١٦٠٧م وركز الهولنديون تجارتهم في إزمير. ولم تكن تجارتهم في حلب ذات أهمية إذ استخدموا حتى سنة ١٦٢٤م خدمات القنصلية الفرنسية ثم الانكليزية ثم الفرنسية. وقد لعبوا دوراً هاماً في حركة النقل التجاري مع الشرق وخاصة تجارتها مع الشرق الأقصى.

أما دولة البنادقة التي كان لها كما رأينا علاقات مبكرة مع سورية وحلب منذ أيام الأيوبيين فتؤسس قنصليتها رسمياً أيام العثمانيين في حلب عام ١٥٤٨م، وتتخذ خان النحاسين مقراً لها ويستمر وجودها فيه حتى ضم البندقية إلى الدولة الإيطالية عام ١٧٩٧م أيام نابليون إثر احتلاله إيطالية (كان هناك إنقطاع بين ١٦٧٥ ـ١٧٦٢م بسبب الحرب من أجل جزيرة كريت بين العثمانيين والبندقية).

٢. قنصلية البندقية في خان النحاسين:

نشطت الحركة العمرانية والتجارية مع بداية العهد العثماني في حلب عن طريق بناء الجوامع والمدارس الدينية وتخصيص الأوقاف المناسبة لمعيشة العاملين فيها من خانات وأسواق ودكاكين وقرى وطواحين ... الخ. وإذا القينا نظرة على أسواق « المدينة » في الجهة الجنوبية من الشارع المستقيم Via Recta الممتد بين باب أنطاكية غرباً وباب سوق الزرب عند القلعة شرقاً بطول ٧٥٠م نجد الجوامع العثمانية الهامة بدءاً من المدرسة الخسروية (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) وجامع العادلية (١٥٥٧م) والبهرمية (١٥٨٠م) والمدرسة الأحمدية (الجلبي) (١٧٧٣م) قد انتصبت بقبابها الضخمة المدعمة ومآذنها الدائرية الرشيقة. كما نجد قربها العديد من الخانات والأسواق والحوانيت والدور (تشكل مايسمى الأوقاف) تصرف وارداتها ودخولها لدفع رواتب وإعالة العاملين في تلك المدارس والمساجد من مدرّسين وطلاب علم وأئمة ومؤذنين...الخ.

وكان خان النحاسين[٣] من أوقاف جامع العادلية القريب، سكنته قنصلية البندقية منذ عام ١٥٤٨م، كما ذكرنا سابقاً وكان جهازها يتألف من القنصل وعائلته والترجمان ورجل الدين والطبيب الذي يعتني بالجالية. وأصبحت الدار لآل بوخه إثر زواج جوزيف بوخه (١٧٨٨ـ١٨٥٥م) القادم من النمسة عام ١٨١٩م من الأبنة المتبناة لآخر قنصل لدولة البندقية وهو ساليريو ريتسيني. وتعتبر الدار من أقدم الدور التي لازالت تسكن حتى الآن في الشرق الأدنى وكأنها قد حولت إلى متحف خاص جمعت فيه عائلة بوخه مقتنياته خلال القرنين الماضيين وجميع القطع الآثرية مسجل لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف.



الصورة ١

وتضم الآثار الشرقية القديمة والكلاسيكية والعربية الإسلامية والعديد من اللوحات الفنية والأيقونات الجميلة والزجاج البوهيمي وخاصة النرجيلات الأنيقة والمزهريات الصينية البديعة بالإضافة إلى المكتبة الضخمة التي تضم أهم الكتب التاريخية التي تكلمت عن الشرق وسورية وحلب.

وكان قنصل البندقية في حلب يدعى قنصل سورية Console de Siria ويتبعه نيابات قنصلية طرابلس وإسكندرون وأحياناً بيروت وصيدا.

وكانت دولة البندقية هي أول من أوفد طبيباً إلى حلب للإشراف على أفراد الجالية فيها وكان الطبيب يداوي الجالية مجاناً لقاء أجر مخصص من مجلس الشيوخ زيد من / ٥٠ / أشرفي إلى / ٣٠٠ / أشرفي وكان يداوي السكان الذين لهم صلة أو علاقة مع جالية البندقية. وفي عام ١٩١١م نزل الرحالة بيترو دو لا فاله ضيفاً على قنصل البندقية في خان النحاسين وهو الذي قال عن حلب. إنها أكبر مركز للتجارة في الشرق.

٣. آل بوخه وأحداث تتعلق بالدار:

سوف أتعرض بايجاز إلى بعض شخصيات عائلة بوخه التي سكنت الدار أو الشخصيات أو الأحداث التي كانت لها علاقة مباشرة مع الدار وسكانها:

أ. جوزيف بوخه (ولد في النمسة ١٧٨٨م. توفي بحلب ١٤/٦/١٨٥٥م):

جاء حلب عام ١٨١٩م، ليس هرباً من حروب نابليون كما يعتقد، إذ وجد مؤخراً بين محفوظات العائلة المكلف بدراستها خبير ألماني مختص، جواز سفر باسمه وعمره ١٦ عاماً زار فيه اصطنبول وازمير (سميرنا) مما يدل على عراقة العائلة في التجارة. وقد جاء حلب ليفتح فرعاً لبيع الكريستال البوهيمي والخزف لصالح عائلة تسان Zahnn. وقد إقترن بابنة آخر قنصل لدولة البندقية وهو ساليريو ريتسيني. وتحتفظ العائلة ببعض الخزف الصيني الذي كان مع تجارة طريق الحرير مثل المزهرية الصينية (كانطون) ومينغ (الأزرق) وتونغ (الأسود). كما هناك صورة طريفة تمثل جوزيف بوخه باللباس التركي (الجبة والعمامة) إكتسى به كما هي العادة ليسمح له بدخول دمشق، مدينة تجمع الحجاج المسلمين (شام شريف). وظلت هذه العادة متبعة بدمشق حتى تم الغاؤها أيام السلطان محمود الثاني في العام ١٨٢٢م وقد خلف جوزيف خمسة صبية وإبنة واحدة هم أدولف فريدريك فرديناند البير غليوم وماري تريز.

ب. ألبير بوخه [٤] (١٨٤٢- ١٩٢٩م)

وهو ابن جوزيف عرف بهوايته التصوير وكان يملك آلة تصوير ممتازة في منتصف القرن التاسع عشر، رافق الرحالة المركيز جان ملكيوردي فوغويه عام ١٨٦١م في زيارته للمدن المهجورة شمال سورية أصدر عنها دي فوغويه كتابه في جزئين بعنوان «سورية المركزية» عام ١٨٦٥-١٨٧٧م، ذكر أسفل الصفحة ١٣٣ من الجزء الأول ملاحظة تخص كنيسة المشبك على الطريق بين حلب وقلعة سمعان قال فيها: «ولم يكن لدينا الوقت الكافي لقياس أبعاد الكنيسة بالتفصيل وهناك صورة ممتازة لها من تصوير السيد ألبير بوخه من حلب يمكن استخدامها كتأكيد لرسمنا.». وقد قام دي فوغوية بكتابة النص لكتاب من تصوير ألبير بوخه عنوانه: «جبل القديس سمعان العمودي قرب حلب، آثار من القرن السادس» وتم نشره لدى نفس الناشر في باريس، لكن في العام ١٨٧٨م أي بعد صدور كتابه بسنة واحدة، ذكر دي فوغويه في مقدمته للكتاب: «في الوقت الذي قمت فيه بزيارة هذه الأماكن لم يكن فن التصوير أثناء السفر يقدم التسهيلات المتوفرة حالياً كما لم يكن تحت تصرفي سوى آلة تصوير صغيرة لا يمكن عرض صورها على الجمهور بينما على العكس من ذلك كانت لوحات السيد بوخه ممتازة، وقد بينت بدقة رائعة تفاصيل الإنشاء وطراز البناء وتأثير المجموعات الكتلية الكبيرة من الناحية

المعمارية». وقد ضم كتاب ألبير بوخه ثماني صفحات بأبعاد ٥٠×٣٠ سم هي تعليق دي فوغويه على الصور و٢٣ صورة اختصت العشرة الأوائل بآثار كنيسة القديس سمعان العمودي وباقي الصور كانت لدير سمعان ومقابر قاطورة وبلدة براد وكنيسة كالوطة وكنيسة خراب شمس والصورة الأخيرة كنيسة المشبك القريبة من دارة عزة، وقد أقامت حفيدة ألبير السيدة جيني مراش معرضاً لصور جدها الوثائقية عن آثار جبل سمعان والحياة الاجتماعية بنهاية القرن التاسع عشر في فندق شهباء الشام منذ سنوات لاقى إقبالاً كبيراً.

جـ - غليوم بوخه[٥] (١٨٤٥- ١٩٣١م)

وهو أخو ألبير وصاحب الفضل في جمع التحف واللقى الأثرية في الدار وكان عضواً في جمعية العاديات. ويضع فرانس كومون في كتابه (دراسات سورية Études Syriennes) خريطة تبين مسار رحلة أثرية في جبل سمعان انطلاقاً من حلب مع خط السير وأسماء القرى والمسافة بينها مع الزمن اللازم من أعداد غليوم بوخه وتعود إلى أوائل القرن العشرين.

د - فريدريك بوخه (١٨٣٦- ١٩١٢م)

كان قنصل بلجيكة عام ١٨٧٥م، ثم أصبح نائب قنصل روسية القيصرية عام ١٨٧٦م وكان نائب قنصل الولايات المتحدة عام ١٨٩٥ ونال العديد من الأوسمة لقاء خدماته للدول المذكورة.

هـ - أدولف بوخه (١٨٩٥- ١٩٨٧م)

وهو ابن ألبير هاوي التصوير، كان طبيباً تقاعد عن العمل عام ١٩٦٥م، وربما كان أول من أستعمل الأشعة (X) في مستشفى الطونيان بحلب. ترأس جمعية العاديات بين عامي ١٩٧٢-١٩٧٦م، وقد سمته الجمعية رئيساً فخرياً لها مدى الحياة وكان يحتفظ بذكريات جميلة مع الأثريين وزوار الدار من أمثال ماكس ملوان الذي جاء للتنقيب مع زوجته الروائية البوليسية آغاثا كريستي في شمال شرقي الجزيرة في تل شاغر بازار وتل براك وتل الفخيرية، وكانا يقيمان في فندق بارون بحلب. وعندما كان الدكتور بوخه يسأل عما إذا كان يعرف آغاثا كريستي كان يجيب: «أجل أعرفها وقد رقصت معها في دار أختي مدام صولا». وعندما يسأل عن لورانس العرب كان يقول: «لقد إستمع مع مديره سير ليونارد وولي إلى محاضرة عن الحثيين قدمتها في النادي الكاثوليكي وكان خجولاً جداً». وقد احتفظ الدكتور بوخه رحمه الله بذاكرة رائعة حتى أخر أيام حياته. وكان قنصل فرنسة بين (١٩٢٩-١٩٣٨م)، والقنصل الفخري لبلجيكة من عام ١٩٦٥م وحتى وفاته عام ١٩٨٧م. بينما كان أخوه رودلف قنصل هولندا الفخري في الفترة (١٩٢٤-١٩٦٥م).

وهكذا نجد أن خان النحاسين لم يكن فقط مقر قنصلية البندقية منذ تأسيسها وحتى عام ١٧٩٧م، وإنما استمر مقراً قنصلياً وحتى الآن للعديد من الدول الأجنبية الممثلة بأفراد من عائلة بوخه مثل دول النمسة وهولندة والولايات المتحدة وروسية القيصرية وبلجيكة أي أنها كانت عائلة قناصل.

وتستقبل السيدة جيني ابنة المرحوم الدكتور أودلف بوخه وزوجة السيد جورج مراش[٦] من العائلات الحلبية المعروفة بالتجارة والأدب وعراقة النسب وهو القنصل الفخري الحالي للملكة، وتشرح لهم تاريخ العائلة والروائع الأثرية التي تضمها جدران الدار ومساهمتها في نشر المعرفة وإبراز دور حلب الحضاري.

و- السيدة بولين[٧] زوجة يوهان فيلهلم هلفر:

رافقت زوجها الطبيب والنباتي في بعثة الفرات بقيادة الكولونيل تشيزني عام ١٨٣٥م، وكانت مهمة البعثة تأكيد صلاحية نهر الفرات للملاحة من أجل نقل البريد والبضائع بين انكلترا والهند عن طريق الدانوب والفرات حتى البصرة. وقد تحدثت السيدة بولين عن إقامتها في حلب تلبية لدعوة صديقهم جوزيف بوخه لقضاء باقي الشتاء لديه حتى يحين موعد انطلاق سفينتي البعثة دجلة والفرات.

وتذكر مدام هلفر أن السيدة مرغريت زوجة جوزيف بوخه كان لديها أربعة أولاد، بينما أختها تيريز زوجة الدكتور سالينا ليس لديها أولاد، وكانت تمضي معظم وقتها في بيت أختها مدام بوخه، حيث كان زوجها الطبيب يسافر إلى اللاذقية لمعالجة مريض من جالية البندقية. وكانت تبكي أحياناً لأن الزوجة في الشرق لاتحتفظ بكرامتها وسعادتها إلا إذا كانت أماً. كما تعلمنا أن السيدة بوخه كانت تدخن النرجيلة، وزوجها يتسوق حاجيات المطبخ. كما تتحدث عن المجتمع الحلبي وعن الحفلات الموسيقية التي كانت تقيمها عائلة بوخه (موسيقى الحجرة) وعن ثقة العائلة بالتجار السوريين وطريقة التعامل معهم.

ز- الذهاب إلى تدمر من حلب:

ومن الجدير بالذكر أنه من دار بوخه في خان النحاسين إنطلقت مجموعة من التجار الإنكليز لاكتشاف تدمر عام ١٦٧٨م، وقد تعرض التجار لعدوان البدو، حيث سجنوا وطولبوا بفدية لإطلاق سراحهم. وقد عاودت نفس المجموعة من التجار السفر إلى تدمر بعد ١٣ عاماً مصطحبين معهم القس الإنكليزي هاليفاكس الذي نسخ أول ثلاث كتابات تدمرية. وتم فيما بعد فك رموز الكتابة التدمرية عام ١٧٥٣م من قبل العالمين الأب بارتلمي الفرنسي وسوينتن الإنكليزي.

٤- تجارة الحرير والأرمن ودوُرهم بحلب:

كان دَور الأرمن في القرن السادس عشر فعالاً في تجارة الحرير إذ كانوا يجلبون البضائع إلى حلب من بلاد فارس ويقدمونها إلى تجار البندقية فيها، وكان معظمهم يسكنون غالباً في حي «الجديدة» كما تبين الدور السكنية الباقية فيها ويواكب ذلك أن كنيسة الأربعين شهيداً للأرمن من أقدم الكنائس المسيحية بحلب.

ونذكر من الدور الحلبية الأرمنية الغرفة الحلبية(٨) التي أُخذت خشبيات جدران غرفة الإستقبال فيها إلى برلين منذ عام ١٩١٢م، لتعرض فيها باسم Aleppo Zimmer، ويعود تاريخها إلى عام ١٦٠١م، وصاحبها أرمني يدعى عيسى بن بدروس السمسار، وهي غنية بوجوه الشخصيات ذات السمات العجمية وتمثل مشاهد صيد ومشاهد دينية مأخوذة من العهدين القديم والجديد وصوراً لقيس وليلى وعازفة قيثارة وسواها بالإضافة إلى أشكال النباتات والحيوانات والكتابات الدينية والحكمية .. كما نذكر دار غزالة(٩) التي تم استملاكها وهي من الدور الكبرى في حي الجديدة والتي كان صاحبها أرمنياً يدعى خجادور بن مراد بالي وتعود إلى العام ١٦٩٢م، وربما إلى ما قبل ذلك كما تبين الزخارف والكتابات في إحدى قاعاتها.

وأذكر أخيراً واجهات دار اجقباش الداخلية (متحف التقاليد الشعبية حالياً) وتعود إلى ١٧٥٨م، وزخرفتها التزينيية البديعة من نوع الروكوكو الأوروبي دليل انتقال التجار الحلبيين بين الشرق والغرب وقد قيل فيهم: «أعرج حلب وصل الهند».

وأخيراً ومما يؤكد أهمية صناعة النسيج ومن بينها الأنسجة الحريرية في حلب ما يعلمنا به الأب قرألي(١٠) من أن عدد الدور في حلب في العام ١٨١٩م كان ١٤٠٠٠ داراً وكان فيها ١٢٠٠٠ نول من كل الأصناف و١٠٠ معمل لخيوط القصب وصفائح الفضة والذهب أي بمعدل نول لكل عائلة تقريباً.

الحواشي:

(١) طريق الحرير ويفضل أن يقال طرق الحرير وكان الجغرافي الألماني فردينان فونرويشتهوفن أول من أطلق هذه التسمية في القرن التاسع عشر على الطرق التجارية القديمة التي كانت تصل شرق آسيا بغربها وبخاصة الطريق الرئيسية التي تصل الصين مع البحر المتوسط عبر آسيا الوسطى. أما المواد والبضائع التي كانت تنقلها القوافل فأهمها الأحجار الثمينة واللآلىء والمنتجات النسيجية والحريرية والصوف والسجاد والفخار الملون والمرايا البرونزية وأشغال الذهب والفضة والسيوف والأسلحة المزخرفة والأقمشة والأدوات الموسيقية واللوحات الفنية، والتماثيل والخطوط والمصنوعات اليدوية والكتب واللعب والمواد الطبية والتوابل. وكانت طريقاً لنقل الثقافة والأفكار والمعرفة بالإضافة إلى تبادل المنتجات المادية للإنسان.

(٢) د. ليلى الصباغ الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر جزءان بيروت ١٩٨٩.

(٣) المهندس عبد الله حجار معالم حلب الأثرية جامعة حلب ١٩٩٠ ص(٤١)

(٤) المهندس عبد الله حجار، كتاب آثار جبل سمعان للسيد ألبير بوخه/ مجلة الضاد العدد ١و٢ عام ١٩٧٨ صفحة (٣٧-٤١).

(٥) المهندس عبد الله حجار، خط سير رحلة غيوم بوخه لزيارة آثار جبل سمعان/ مجلة الضاد العدد /٥/ عام ١٩٩٢ ص(٥٤-٥٧) وأحاديث شخصية مع الدكتور ادولف بوخه.

(٦) المهندس عبد الله حجار أدولف بوخه الذكرى الأولى لوفاته مجلة الضاد العدد /٥/ عام ١٩٨٨ صفحة (٥٤ـ ٥٧) .

(٧) Travels of Dr and Mme Helfer in Syria, Mesopotamia, Burmah and other erlands

Narrated by Pauline Countess Nostitz (formerly Mme Helfer) and rendered into english by Mrs George Sturage 2vol.

London Richard Bently and son, New Berlington street 1878 (Vol. I: PP. 108- 110- 117...)

(٨) المهندس عبد الله حجار دار وكيل أو الغرفة الحلبية في برلين / مجلة اليقظة الأرثوذكسية حلب العدد ١ـ٢ العام ١٩٨٠ صفحة (٢١ـ٢٧) .

(٩) توفي في ١٤ / ١١ / ٩٤ إثر مرض عضال رحمه الله . وإلى نفس العائلة ينتسب أديبا حلب مريانا وفرنسيس المرّاش .

(١٠) المهندس عبد الله حجار معالم حلب الأثرية ١٩٩٠ ص(٥٠)

(١١) الأب بوليس قرألي أهم حوادث حلب في النصف الأول من القرن التاسع عشر ص(٧١) .

منشآت محمد باشا دوكاجين في حلب ودورها في تنشيط التجارة بالمدينة

محمد الارناؤوط

جامعة اليرموك ـ الأردن

عرفت حلب في القرن السادس عشر تطوراً عمرانياً كبيراً يعبر عن الدور التجاري الذي أخذت تتميز به حلب على مستوى المنطقة حتى دعيت في نهاية ذلك القرن وبداية القرن السابع عشر «السوق الرئيسية لكل الشرق». ونظراً لأنه لا يمكن تصور التجارة في ذلك الوقت دون البنية التحتية لها (الخانات والقيساريات والأسواق) فقد ركز هذا البحث على المنشآت التي بنتها شخصية واحدة (محمد باشا دوكاجين) خلال ١٥٥٢ـ١٥٦٠م، والتي فاقت كل ما بني في حلب خلال القرن السادس عشر. فقد بلغت مساحة هذه المنشآت حوالي ٣ هكتارات، بينما لم تكن مساحة «المدينة» حتى نهاية الحكم المملوكي (١٥١٦م) تتجاوز ٥ هكتارات.



حلب في مطلع العصر العثماني:

استفادت حلب أكثر من أية مدينة أخرى من التغير السياسي الذي حصل في بلاد الشام في مطلع القرن السادس عشر (١٥١٦م)، أي بنهاية الحكم المملوكي وبداية الحكم العثماني الجديد. فقد توسعت حلب باستمرار في السنوات الأولى للحكم العثماني وتطورت «المدينة» بالذات، أي المركز التجاري، إذ تضاعف حجمها في أقل من نصف قرن (١٥٤٤ـ١٥٨٣م) بفضل المنشآت الوقفية التي بناها أربعة ولاة (خسرو باشا، محمد باشا دوكاجين ومحمد باشا الآخر وبهرام باشا)[١]. وفي الواقع إن هذا التطور المثير إنما كان يعبر عن تنافس جديد بين حلب ودمشق، وعن تفوق حلب الواضح في هذا التنافس. وهكذا بعد تعزيز دمشق لمركزها السياسي والديني والتجاري في مطلع العصر العثماني، الذي كان يبدو فيما يبدو في نشاط مينائين بيروت وطرابلس، اللذان كانا يعتبران مينائين لدمشق، جاء دور حلب لتنافس دمشق وتتفوق عليها بسرعة في هذا المجال.

ومن العوامل التي ساعدت حلب على هذا البروز السريع والتفوق لا بد أن نذكر هنا أهمها باختصار:

١ـ تحول حلب من مدينة حدودية في العهد المملوكي إلى مدينة في قلب إمبراطورية كبرى (الدولة العثمانية)، مما كان يعني توفر سوق داخلية واسعة (العراق في الشرق والأناضول في الشمال وبلاد الشام في الجنوب)[٢].

٢ـ موقع حلب الإستراتيجي الذي برز في إطار الدولة العثمانية إذ أصبحت تسيطر على عقدة طرق التجارة الدولية بين الشرق (الهند وبلاد فارس) والشمال (الأناضول) والغرب (أوربة) والجنوب (فلسطين ومصر والحجاز)[٣].

٣ـ بروز حلب بعد سنة ١٥٢٠ كمركز للولاية الجديدة التي أنشئت في شمال بلاد الشام وجنوب الأناضول، التي كانت تغطي منطقة مهمة تتميز بخصوبتها وتوفر فائض لديها للتجارة، وسيطرتها على تقاطع طرق تجارية مهمة[٤].

٤ـ توفر الأمن في ضواحيها بالمقارنة مع دمشق التي كانت تتعرض القوافل بضواحيها لهجمات البدو، وتراجع الضغط الخارجي (الصفوي) عليها في إطار السلم العثماني Pax Ottmanica الذي توفر خلال القرن السادس عشر[٥].

٥ـ بروز أفضلية الطرق البرية مع الهند، بالمقارنة مع الطرق البحرية التي أصبحت تعج بالقراصنة خلال القرن السادس عشر، مما جعل حلب مركزاً مهماً في الطريق البري الممتد من الهند إلى شرق المتوسط[٦].

٦ـ تزايد أهمية الحرير في الاقتصاد الأوربي في القرن السادس عشر، مما جعل حلب مركزاً مهماً لتخزين وتوريد الحرير إلى أوربة نظراً لموقعها المتوسط بين المناطق المنتجة له (بلاد فارس) والبلاد المستوردة له (أوربة)[٧].

وهكذا نجد أن التاجر الأوربي إبتداءً من منتصف القرن السادس عشر يفضّل بعد وصوله إلى طرابلس، التي كانت تعتبر ميناء لدمشق، أن يتوجه إلى حلب للتجارة نظراً للفارق الذي أصبح بين المدينتين[٨]. فدمشق بقيت تعتمد في تجارتها على قوافل الحج التي كانت تحمل من الجنوب أنواع التوابل، بينما كانت تقصد حلب القوافل من عدة جهات كالعراق (البصرة بغداد والموصل) وبلاد فارس وما جاورها (الهند وحتى من الصين) والأناضول (اصطنبول وإزمير وبورصة). ولهذا أصبحت أسواق حلب أنشط وأغنى من دمشق حتى أصبحت حلب تدعى في القرن السادس عشر «السوق الرئيسية لكل الشرق»[٩]. ومن هنا ليس من المستغرب أن تتجاوز حلب بعد حوالي نصف قرن من الحكم العثماني دمشق سواءً بعدد السكان أو بحجم التجارة، كما تعبر عنه دفاتر الضرائب المختلفة. فقد كانت دلالة أقمشة الإفرنج على سبيل المثال تدر في السنوات الأولى للحكم العثماني (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) ٥٢٠٠ أقجة فقط، بينما ارتفع هذا المبلغ بشكل خيالي إلى ٢٠٠ ألف أقجة بعد ربع قرن من الحكم العثماني (٩٤٤هـ/ ١٥٣٧ـ١٥٣٨م)[١٠].

وفيما يتعلق بهذا الإزدهار المثير لحلب في ذلك الوقت لدينا مؤشر آخر مهم، ألا وهو عدد الخانات والقيساريات. ففي ذلك الوقت، كما يشير إلى ذلك ريمون، كان الخان أو القيسارية يمثل مؤشراً موثوقاً للأنشطة الاقتصادية في أية مدينة بالشرق[١١]، إذ كانت الخانات تمثل قاعدة الحياة التجارية ولم يكن في الإمكان تصور التجارة في ذلك الوقت بدون الخانات أو القيساريات[١٢]. وهكذا بينما كانت حلب لا تملك سوى ٣ـ٤ خانات في نهاية الحكم المملوكي نجد أنه خلال نصف قرن من الحكم العثماني بنيت حوالي عشرة خانات كبيرة، ثم أنشئت لاحقاً عشرات الخانات الأخرى وقيساريات كثيرة تتجاوز المئة[١٣]. وبالإضافة إلى الخانات والقيساريات لدينا مؤشر آخر مهم على ازدهار الحياة التجارية، ألا وهو الأسواق المركزة التي تحتوي كل واحدة على مجموعة من الدكاكين المتخصصة في سلع معينة، التي جعلت حلب تتفوق بها على أية مدينة أخرى في المشرق وتنافس اصطنبول ذاتها[١٤].

وهكذا، في هذا الإطار، يمكن لنا أن نتعرف بشكل أفضل على المنشآت الجديدة (الخانات والأسواق) التي أنشأها محمد باشا دوكاجين في إطار الوقفين اللذين أنشأهما بحلب في منتصف القرن السادس عشر.

الوقف والواقف

لقد أنشأ محمد باشا دوكاجين الوقف الأول خلال وقت قصير وجعله بإسم والدته جوهر ملك شاه، أخت السلطان العثماني سليم الأول، التي توفيت في حلب في ٩ ربيع الأول ٩٥٩هـ/ ٧ آذار ١٥٥٢م خلال عودتها من الحج إلى اصطنبول، حيث دفنت حينئذ في حلب[١٥]. وهكذا في الذكرى الأولى لوفاتها، في غرةّ ربيع الأول ٩٦٠هـ/

شباط ١٥٥٣م، كان محمد باشا قد وثّق الوقفية التي اشتملت على منشآت مختلفة بناها في أرجاء مختلفة من حلب.

وهكذا فقد ضم هذا الوقف قيسارية بمحلة جب أسد الله في جوار المدرسة الحلاّوية، وقيسارية أخرى خارج باب بنقوسة في محلة الدلالين تشمل على سبعة مخازن وسبعة دكاكين، وقيسارية ثالثة داخل باب أنطاكية تشمل على ٢٦ مخزناً، بالإضافة إلى ١٢ حانوتاً في رأس سوق السقطية، وفرنين الأول في جامع باب بنقوسة في جوار القيسارية المذكورة والثاني في باب النيرب[١٦].

أما الوقف الثاني الذي بناه محمد باشا بإسمه فقد كان من أهم ما بني في حلب في العصر العثماني إذ أنه اشتمل على منشآت حيوية (٣خانات، قيسارتين و٤أسواق وجامع) إمتدت على مساحة ٣ هكتارات. وتجدر الإشارة هنا، للتدليل على ما يعنيه هذا الوقف، أن مساحة «المدينة» في نهاية الحكم المملوكي كانت ٥هكتارات فقط، ثم إرتفعت إلى ١٠,٦ هكتارات في القرن التاسع عشر، أي بعد ثلاثة قرون من الحكم العثماني، ووصلت أخيراً إلى ١٦ هكتار في نهاية الحكم العثماني[١٧]. وبعبارة أخرى فقد توسعت «المدينة» الحلبية حوالي ٥٠٪ بعد ربع قرن فقط من الحكم العثماني بفضل هذا الوقف الضخم، ومن ناحية أخرى فقد كان لهذا الوقف دوره المهم في تشكيل أهم تطور عمراني لحلب في العصر العثماني، ألا وهو إمتداد «المدينة» باتجاه الغرب على المحور المستقيم الممتد بين القلعة إلى باب أنطاكية. فقد بدأ هذا التطور سنة ١٥٤٤م بوقف خسرو باشا الذي اشتمل على جامع وخان ودكاكين، ثم جاء إلى جواره باتجاه الغرب في ١٥٥٤ـ ١٥٥٦م الوقف الضخم لمحمد باشا دوكاجين الذي اشتمل على جامع وثلاث خانات وأربعة أسواق، وقد تعّزز هذا التوسع العمراني الجديد باتجاه الغرب حين شيد بعد ذلك الوالي الآخر محمد باشا وقفه إلى جوار وقف محمد باشا دوكاجين باتجاه الغرب في سنة ١٥٥٤م والذي اشتمل على خان وسوقين، ثم جاء الوالي بهرام باشا في ١٥٨٣م ليمتد بوقفه الذي اشتمل أيضاً على خان وسوقين في اتجاه الغرب. وهكذا فقد طبعت هذه المنشآت الوقفية المتتالية حلب بأهم تطور عمراني لها في مطلع العصر العثماني، ألا وهو توسع «المدينة» باتجاه الغرب إلى أن تضاعفت مساحتها خلال أقل من نصف قرن[١٨]. وبالإضافة إلى هذا فقد كان وقف محمد باشا دوكاجين يعني الكثير بالنسبة إلى الإزدهار التجاري الجديد الذي عرفته حلب في مطلع العصر العثماني. فقد إشتمل هذا الوقف على ثلاثة خانات من بينها «خان العلبية» الذي كان أكبر خان بني في حلب حتى ذلك الحين، إذ وصلت مساحته ٥٥٥٠ متراً مربعاً، بالإضافة إلى ثلاثة أسواق تتضمن ١٥٧دكاناً.

وعلى الرغم من هذه الأهمية الكبيرة لوقف محمد باشا دوكاجين لم يحظ الواقف بإهتمام يذكر لدى من كتبوا عن حلب في تلك الفترة، حتى إن اسمه يرد بأشكال مختلفة لا توحي بأنها لشخص واحد: توقة دين[١٩]، دوقة كين[٢٠] دوقاقين[٢١] الخ. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مؤرخ حلب المعروف ابن الحنبلي كان معاصراً له (توفي ٩٧١هـ/١٥٦٣ـ ١٥٦٤م) وخصّه بترجمة في كتابه «درر الحبب»[٢٢].

وقد نقل مؤرخ حلب اللاحق محمد راغب الطباخ في «أعلام النبلاء» ما ورد لدى ابن الحنبلي عن محمد باشا دوكاجين، ولكنه أضاف بعض المعطيات «الجديدة» عن شخصيته، كما أنه سجل أهم ما ورد في وقفية محمد باشا دوكاجين التي يبدو أنه اطلع عليها[٢٣]. وفي الواقع لم تكن تلك المعطيات التي ساقها عن محمد باشا دوكاجين جديدة بالنسبة لذلك الوقت (١٩٢٦م)، إذ أنه كان قد نقلها بدوره عن «قاموس الأعلام» الذي كان قد صدر قبل فترة قصيرة. ومع أن صاحب «قاموس الأعلام» شمس الدين سامي فراشري عرف بموسوعيته وموضوعيته[٢٤]، وإنحداره من الموطن الأصلي لأسرة دوكاجين (ألبانية)، إلا أنه قد أشاع هنا الرأي الخاطىء الذي يقول بأن مؤسس هذه الأسرة دوكاجين (دوقة كين) من أمراء (بكوات) نورمانديا الذي استولى على شمال ألبانية بعد الفتح العثماني للقسطنطينية[٢٥]. وفي الحقيقة لقد كان الباحث الكرواتي المعروف شوفلاي Suflay قد أوضح من ذلك الحين (١٩٢٥م) خطأ هذا الرأي، وأشار إلى أن هذا الإسم (دوكاجين) يعود إلى مؤسس هذه الأسرة الألبانية جين تانوش الذي ورد ذكره مع لقب دوق في سنة ١٢٨١م Ducca Dinium Tanuschum Albansem[٢٦] وهكذا تشكل هذا الإسم (دوكا+جين) الذي تحول إلى لقب لعائلة قوية تمتعت بنفوذ مهم في شمال ألبانية حوالي قرنين من

الزمن، أي إلى بداية الحكم العثماني لألبانية. وفي الواقع لقد كانت العائلات الألبانية القوية في ذلك الوقت، وبتأثيرات روح الأحياء في إيطالية المجاورة، تبحث عن أصل «نبيل» لها تتفاخر به على غيرها، ولذلك لا يوجد أساس حقيقي للأصل النورماندي لآل دوكاجين[٢٧]. وعلى كل حال فقد إنقسمت هذه الأسرة مع وصول العثمانيين إلى ألبانية إلى قسمين: الأول بقي على ولائه للبندقية والمسيحية، والثاني إعتنق الإسلام وإرتبط مع الدولة العثمانية. ومن هذا القسم الثاني لدينا أحمد باشا دوكاجين، الذي تزوج من الأميرة جوهر أخت السلطان سليم الأول (١٥١٢ـ١٥٢٠م)، والذي تمكن أولاده وأحفاده من الصعود والبروز في النظام العثماني. ومن هؤلاء لدينا ابنه والي حلب محمد باشا دوكاجين وحفيده قاضي اصطنبول عثمان أفندي دوكاجين[٢٨].

وفيما يتعلق بالواقف تجدر الاشارة إلى أنه عين والياً على حلب سنة٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م حيث بقي في هذا المنصب حوالي أربع سنوات، وبالتحديد إلى محرم سنة ٩٦١هـ (يبدأ في ٧كانون الأول ١٥٥٣ وينتهي في ٥كانون الثاني ١٥٥٤م) حين عُيِّن والياً على مصر[٢٩]. وقد عاد محمد باشا دوكاجين إلى حلب ثانية بعد أن عزل عن ولاية مصر في ٢١ ربيع الثاني ٩٦٣هـ/٦ آذار ١٥٥٦م حيث نظم الوقفية الخاصة بوقفه، ثم غادر إلى اصطنبول حيث توفي هناك بعد وصوله في ٩٦٤هـ/١٥٥٦ـ١٥٥٧م[٣٠].

دور الوقف في تعزيز الدور التجاري للمدينة:

كانت نواة الوقف الأول «التربة» التي احتوت جثمان الوالدة، بينما تكونت نواة الوقف الثاني من جامع العدلية ـ العادلية[٣١] الذي يعود إلى ما بعد سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٦م، والذي عرف بهذا الإسم نظراً لأنه بني في جوار «دارالعدل». وفي الواقع لقد كان هذا أول جامع يُبنى على الطراز العثماني في حلب وبقي يعتبر من أشهر جوامع حلب بجماله وفخامته[٣٢]. وفي أي وقف من هذا النوع، حيث يحتاج الجامع باستمرار إلى دخل يغطي نفقاته، كان الواقف يحرص على بناء ووقف منشآت أخرى تدر الدخل باستمرار لتضمن تغطية النفقات التي يحتاجها الجامع لكي يستمر في خدماته دون إنقطاع. وفي حالة مدينة تجارية مزدهرة كحلب كانت الخانات أو القيساريات هي الإختيار الأفضل للواقف نظراً لما كانت تدره من أرباح، ولذلك ليس من المستغرب أن نجدها دائماً من العناصر المكونة للوقف بشكل عام[٣٣].

وهكذا في هذا الإطار رأينا كيف بادر محمد باشا دوكاجين بسرعة إلى بناء ثلاث قيساريات وسوق صغير وفرنين لأجل الوقف الأول، بينما قام بعد ذلك ببناء ثلاثة خانات وقيسارتين بالتدريج لأجل وقفه الثاني. وبالإستناد إلى المؤرخ المعاصر ابن الحنبلي يبدو أن الواقف بنى أولاً «خان الخراطين»، الذي عرف لاحقاً بـ«خان النحاسين». ثم «خان الفرايين» وأخيراً «خان العلبية»[٣٤].

وبالنسبة إلى الخان الأول يفيد نص ابن الحنبلي أنه قد أقيم في سوق قائم من العصر المملوكي، ألا وهو «سوق الخراطين» الذي سيعرف لاحقاً بـ«سوق النحاسين». وقد بني هذا الخان حينئذ بحجم متوسط إذ ضم ٣٥ مخزناً فقط. أما الخان الثاني (خان الفرايين) والثالث (خان العلبية) فقد بنيا باعتراف إبن الحنبلي في منطقة قفراء (تل عيشة) كانت تستخدم في الدولة المملوكية كميدان صغير يتدرب فيه المماليك على الرمي بالرماح[٣٥]. وقد تميز هذان الخانان بحجمهما الضخم حتى أن الثالث (خان العلبية) كان أكبر خان بني في حلب حتى ذلك الحين، إذ أن مساحته الإجمالية كانت ٥٥٥٠م٢[٣٦]. ولا شك في أن هذه الخانات، وخاصة الأخير منها، ساهمت بدورها في تعزيز الشهرة التي أخذت تتميز بها حلب في المنطقة وحتى على صعيد الدولة العثمانية حتى أصبح يضرب المثل بخانات حلب وجوامع إستنبول وحمامات دمشق ومقاهي بغداد[٣٧].

وإلى جانب هذه الخانات بنى محمد باشا دوكاجين قيسارتين، ألا وهما «قيسارية الفرايين» إلى الشمال من «خان الفرايين» و«قيسارية العلبية» إلى الشمال من «خان العلبية». وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم «القيسارية» في حلب يختلف عن بقية بلاد الشام، حيث لا يوجد فرق بينها وبين الخان. أما في حلب فقد لا تختلف كثيراً عن الخان من حيث البناء إلا أنها ترتبط بالصناعة أكثر من التجارة، وبالتحديد بصناعة النسيج، حيث تستخدم لتشغيل الأنوال المستخدمة في صنع الأقمشة المختلفة[٣٨]. وفي الحقيقة لقد كانت حلب قد أخذت تشتهر بصناعة النسيج في المشرق وحتى في حوض المتوسط، ولذلك يبدو أن بناء هاتين القيسارتين أيضاً كان في إطار البحث عن استثمار مناسب للوقف.

ومن ناحية أخرى فقد بنى الواقف أيضاً عدة أسواق في هذا المركز التجاري المتنامي لحلب في ذلك الوقت. وبالإستناد إلى ابن الحنبلي المعاصر فقد كان محمد باشا دوكاجين قد بنى أولاً «سوقاً عظيماً طولاً وعرضاً ومتانة يعرف بالسوق الجديد»[٣٩]، وهو السوق الذي عرف لاحقاً بـ«سوق الفرايين»، الذي يتألف من صفين من الدكاكين يبلغ مجموعها ٧٥ دكانا. أما السوق الثاني الذي بناه لاحقاً فهو «سوق الخراطين» الذي عرف لاحقاً بـ«سوق النحاسين»، الذي اشتمل على عشرين دكاناً. ويبدو أنه بعد ذلك بنى السوق الثالث المعروف بـ«سوق الجوخ» الذي اشتمل على ٦٢دكاناً، ثم «سوق العلبية»، مما يجعل مجموع الدكاكين في هذه الأسواق ١٥٧دكاناً[٤٠].

وبالإضافة إلى هذا فقد قام محمد باشا دوكاجين بوقف مبلغ ضخم من النقود (٣٠ ألف دينار سلطاني) لتشغيله واستثماره لصالح الوقف. وتجدر الإشارة هنا إلى أن «وقف النقود» كان يعبر عن تطور جديد ومثير في الإطار العثماني يتمثل في تحليل تشغيل النقود الموقوفة بفائدة سنوية محددة لكي يساهم دخلها في تغطية نفقات الوقف. وقد برز هذا النوع من الوقف أولاً في شبه جزيرة البلقان في النصف الأول للقرن الخامس عشر، ثم انتقل إلى الأناضول بعد فتح القسطنطينية (١٤٥٣م)، وبعد ذلك إلى بلاد الشام بعد الفتح العثماني (١٥١٦م). وقد كان لهذا النوع من الوقف دور مهم في تنشيط التجارة نظراً لأن الوقف كان يقدم ما لديه من نقود على شكل قروض للتجارة وأصحاب الحرف بفائدة مقبولة (١٠٪ في الغالب)[٤١]. وفي حدود ما نعرف يمكن القول إن وقف محمد باشا دوكاجين كان أول وأضخم وقف من هذا النوع في بلاد الشام. ومن المثير هنا أن هذا الوقف لم يلفت إنتباه الباحثين حتى الآن. ويبدو لنا أن هناك أكثر من سبب لذلك. فقد ساهم المؤرخان المعروفان الغزي والطباخ في طرح هذا الوقف بشكل غير دقيق، على الرغم من أن كل واحد قد اطلع على الوقفية الخاصة بالوقف وأدرك ما فيها. وهكذا نجد أن الطباخ يشير في حديثه عن هذا المبلغ الموقوف إلى أنه «كان مرصوداً ليقرض لمن أعسر قرضاً حسناً لمدة معينة برهن»[٤٢]. وفي الواقع إن نص الوقفية (ورقة ١٤ أ) صريح في الإشارة إلى تشغيل هذا المبلغ بفائدة سنوية قدرها ١٠٪، أي أنه لا يدخل ضمن «القرض الحسن» كما عرّفه الطباخ[٤٣]. أما الغزي فقد أشار بدوره إلى هذا المبلغ الموقوف (٣٠ ألف سلطاني)، إلا أنه ركز فقط على كون هذا المبلغ قد ترك لإكمال المنشآت التي بدأ الواقف في بنائها أو لبناء منشآت أخرى[٤٤]. وفي الحقيقة إن نص الوقفية (ورقة ١٣ أ) لا ينفي هذا، إلا أنه يشير إلى ذلك كامكانية: «إذا إتفق وجود عقار أمكن بناء شيء من العقار القابل للاستغلال والاستثمار بحيث يكون نافعاً للوقف غير ضار». وهكذا في موضع آخر (١٤ ب) تذكر الوقفية عن هذا المبلغ أن «يستربح لو فضل منه شيء بعد اشتراء العقار بحيث يكون ربح كل عشرة عشر ...». ويبدو أن هذا المبلغ قد أنفق فيما بعد في بناء الخان الثالث (خان النحاسين) والسوق الرابع (سوق الجوخ). ومع أنه لا توجد لدينا بعد معطيات عن تشغيل هذا المبلغ الموقوف، إلا أنه على كل حال يتمتع بأهمية خاصة في أنه فتح الطريق أمام هذا النوع من الوقف في حلب. وهكذا نجد أن والي حلب الآخر أحمد باشا (١٠٠٤-١٠٠٨هـ/ ١٩٥-١٥٩٩م) قد أسس وقفاً آخر من هذا النوع إذ وقف عشرة آلاف دينار ذهبي لتشغيلها بفائدة ١١٪[٤٥]. وبالإضافة إلى هذا نجد في ذلك الوقت، وبالتحديد في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، عدة أوقاف من هذا النوع كوقف سرور جلبي بن اسماعيل ووقف محمد بن أحمد الزنابيلي ووقف خواجة جان بن أحمد الجوخي[٤٦].

وهكذا مع هذا الوقف الضخم لمحمد باشا دوكاجين، والأوقاف الثلاثة الأخرى المذكورة لخسرو باشا ومحمد باشا الآخر وبيرم باشا، توفرت لحلب خلال ١٥٤٤-١٥٨٣م مجموعة ضخمة من البنية التحتية للحياة التجارية (الخانات والقيساريات والأسواق)، التي لا يمكن بدونها تصور الإزدهار التجاري لحلب الذي بقي يتواصل حتى نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، والذي أدى حينئذ إلى نشوء ميناء جديد خاص بحلب ـ الإسكندرونة[٤٧]. وفي الحقيقة لقد ساهم هذا الميناء الجديد في قدوم مزيد من التجار الأوربيين إلى حلب، حيث وجدوا المنشآت المناسبة لنشاطهم التجاري. وهكذا فقد أُجّر حينئذ خان الخراطين ـ النحاسين إلى التجار الإنكليز والفرنسيين، الذين أخذوا يبيعون فيه الأقمشة[٤٨] ويبدو أن هذا الخان حظي بسمعة تجارية، إذ ازداد فيه بإستمرار عدد التجار الذين يبيعون فيه القماش حتى وصل إلى ١٥٥ اجر في ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م[٤٩]. وبشكل مشابه نجد أن الخان الآخر الذي بناه

الواقف (خان العلبية) تحول إلى مركز للتجار الأوربيين. فقد أُجّر هذا الخان أولاً للتجار البنادقة، ثم أُجّر لاحقاً (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) للتجار الفرنسيين [٥٠]، الذين قاموا في السنة اللاحقة (١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م) ببناء سوقين لهذا الخان[٥١] مما يدل على ازدهار التجارة في ذلك الوقت.

ومن ناحية أخرى فقد رأينا أن محمد باشا دوكاجين قد أسّس في حلب أول وأضخم وقف للنقود (٣٠ ألف دينار ذهب)، وبذلك فهو أول من أدخل إلى حلب، وحتى إلى بلاد الشام، هذا الشكل المتطور لتقديم القروض الميسرة وليس الوالي أحمد باشا في نهاية القرن السادس عشر (١٥٩٧م) كما كان يعتقد حتى الآن[٥٢]. ومع أن هذا الوقف فتح الطريق لإنشاء أوقاف نقدية مشابهة، إلا أن العقلية المحافظة في حلب وبلاد الشام بشكل عام لم تشّجع على إنشاء هذا النوع من الوقف، وعلى التصريح بالفائدة (المرابحة) الجارية في القروض كما كان الأمر في الأناضول المجاورة[٥٣]. إلا أن الازدهار التجاري في حلب على كل حال فرض نفسه في هذا المجال أيضاً، وأصبح تشغيل الأموال في السوق شائعاً ومجدياً بسبب الفائدة المجزية (١٠٪ـ ٢٠٪) التي لم تعد تذكر بصراحة في المعاملات الجارية[٥٤].

الحواشي:

(١) أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، القاهرة ١٩٩١، ص١٦٦ـ١٦٧.

(٢) J.Sauvaget, Alep, Paris 1941, pp. 211–210

ريمون المدن العربية الكبرى، ص٣٥ـ٣٧.

(٣) د. ليلى الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ج١، بيروت ١٩٨٩، ص٣٠٨، ٣١٠.

(٤) Bruce Masters, The Origins of Western Economic Dominance in the Middle East- Mercantalism and the Islamic Economy in Aleppo 1600- 1750, New york- London 1988, pp. 13-12

(٥) المرجع السابق، ص١٣، د. محمد م. الأرناؤوط، معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر، دمشق ١٩٩٣، ص٥٩ـ٦٣.

(٦) Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris 1949, pp. 262, .

(٧) Ibid; MastersThe Origins of the Western Economic Dominance, pp. 242. 444

(٨) ليس من أدل على ذلك أن البندقية قامت بنقل قنصلها في سنة ١٥٤٥م من دمشق إلى طرابلس الشام، ليكون إلى حلب أقرب، ثم في سنة ١٥٤٨ إلى حلب ذاتها. وفي ذلك الوقت أيضاً (١٥٥٧م) أصبح للفرنسيين تمثيل قنصلي في حلب، وبعد تأسيس شركة الهند الشرقية (١٥٨١م) أصبحت حلب في سنة ١٥٨٦م مقراً للقنصل الإنكليزي:

الصباغ، الجاليات الأوربية، ج١، ص٣١٧

Masters, The Origins, pp. 14-15

(٩) الصباغ، الجاليات الأوربية، ج١، ص٣٠٨؛ د. خليل ساحلي أوغلو، « تغير طرق التجارة والتنافس بين مينائي طرابلس الشام والإسكندرونة في القرن السابع عشر »، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ج١، دمشق ١٩٨٠، ص١٤٤ـ١٤٥.

(١٠) ساحلي أوغلو، تغير طرق التجارة، ص١٤٢ـ١٤٣.

(١١) ريمون، المدن العربية الكبرى، ص١٨٧

(١٢) Dr Hasan Kalesi, Najstariji vakufski dokumenti u arapskom jeziku u Jugoslaviji, Pristina 1972, s 14-13.

(١٣) هناك اختلاف في المصادر حول عدد الخانات في حلب، ويبدو أن السبب في ذلك يعود فيما يعود إلى خلط بعضها بالقيساريات. للمزيد من التفاصيل:

الصباغ، الجاليات الأوربية، ج١، ص٣١٣.

Masters, The Origins, p.123

(١٤) Masters, The origins, p.126

(١٥) رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي ابن الحنبلي، درر الحبب في أعيان حلب، جزء ٢ قسم ١، تحقيق محمود الفاعوري ويحيى زكريا، دمشق ١٩٧٣، ص٦٩؛ عبد القادر الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في إخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر، ج٣، الرياض ١٩٨٣، ص١٩١٠-١٩١١.

(١٦) وقفية كوهر ملكشاه، مخوطة على شكل لفافة بطول ثلاثة أمتار محفوظة في المكتبة الخاصة للمحامي سعد زغلول الكواكبي في حلب. وانتهز هنا هذه الفرصة لأشكره على سماحه لي بتصويرها.

(١٧) د. محمود حريتاني، حلب - أسواق «المدينة»، دمشق ١٩٩١، ص١٣.

(١٨) ريمون، المدن العربية الكبرى، ص١٦٦-١٦٧.

(١٩) إبن الحنبلي، درر الحبب، جزء٢ قسم١، ص٢٦٣.

(٢٠) كامل بن حسين ين محمد البالي الحلبي الشهير بالغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢، حلب ١٣٤٢هـ، ص١١١، محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٣، حلب ١٣٤٥هـ، ص٢٠٢.

(٢١) ريمون، المدن العربية الكبرى، ص١٦٧.

وبالإضافة إلى هذه ترد في المخطوطات المصرية عدة أشكال أخرى للإسم: دوقية كي، دقادن زادة، دوقتركي زادة. أنظر:

عبد الغني، أوضح الإشارات، ص١٤٩ وهامش ١١٩-١٢٠ أما لدى الجزيرى فيرد بشكل آخر: توقادبن زادة. أنظر: الجزيرى، الدرر الفرائد، ج٣، ص١٩١٠.

(٢٢) إبن الحنبلي، درر الحبب، ج٢ قسم١

(٢٣) الطباخ، أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٠٢-٢٠٦

(٢٤) للمزيد حول هذا المؤلف وأعماله أنظر مقالتنا: «همة الهمام في نشر الإسلام»، العربي عدد ٢٢٥، الكويت ١٩٨٥، ص١٢١-١٢٦.

(٢٥) شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، جلد٣، إستنبول ١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م، ص٢١٨١، الطباخ، أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٠٢.

(٢٦) Dr. Milan Shufflay, Serbet dhe shqiptaret, prishtine 1968,p. 34,40, 224,238

(٢٧) Ibid.,pp. 39 40

(٢٨) شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، جلد٣، ص٢١٨٢.

(٢٩) حول فترته القصيرة في مصر أنظر:

أحمد جلبي عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن ولي مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق د. فؤاد محمد الماوى، القاهرة ١٩٧٧، ص١٤٩، الجزيري، الدرر الفرائد، ج٣ ص١٧٧٩-١٧٨٠.

(٣٠) إبن الحنبلي، درر الحبب، جزء٢، قسم١، ص٢٦٤-٢٦٥. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، جلد٣، ص٢١٨١.

(٣١) بالإضافة إلى ذلك يرد هذا الجامع أيضاً باسم «العديلية» لدى ريمون، ولكن يبدو أنه تحريف من المترجم: ريمون، المدن العربية الكبرى، ص١٣٦ وكان الغزي (ج٢ ص١١١) أول من ذكر أن هذا الجامع قد بني في حدود سنة ٩٦٣هـ أي ١٥٥٥م، وتبعه في ذلك الأخرون الذين كتبوا عن تاريخ حلب في تلك الفترة (قلعه جي، حريتاني وغيرهم). والغريب في الأمر أن الغزي أطلع كما هو واضح على وقفية محمد باشا دوكاجين التي وثقت في مستهل ذي الحجة في ختام سنة ٩٦٣هـ/ تشرين أول ١٥٥٦م، إلا أن الوقفية المذكورة (ورقة ١٤ب -١٥أ) تنص بوضوح أن الجامع لم يبن بعد وإنما أمر الواقف ببنائه، أي أنه بني خلال السنوات التالية لـ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م. والأغرب أن مؤرخ حلب المعاصر ابن الحنبلي (توفي ٩٧١هـ/١٥٦٣-١٥٦٤م) لا يتعرض على الإطلاق إلى هذا الجامع خلال حديثه عن المنشآت التي بناها محمد باشا

دوكاجين في إطار وقفه المذكور مما يدل على أنه بني بعد وفاته:

إبن الحنبلي، درر الحبب، جزء٢ قسم١، ص٢٦٣ـ٢٦٥

(٣٢) الطباخ، إعلام النبلاء، ج٣، ص٢٠٧ .

(٣٣) ريمون، المدن العربية الكبرى، ص١٨٧ .

(٣٤) إبن الحنبلي، درر الحبب، جزء٢، قسم١، ص٢٦٣ـ٢٦٤ .

(٣٥) المصدر السابق، ص٢٦٤ .

(٣٦) يذكر ريمون أولاً (ص١٦٧) أنه « أكبر خانات حلب »، ولكنه في موضع آخر (ص١٨٧) يذكر « خان الجمرك » بمساحته الإجمالية التي تبلغ ٦١٦٧م٢ .

(٣٧) عبد الفتاح رواس قلعه جي، حلب القديمة والحديثة، بيروت ١٩٨٩، ص٤٣٢ .

(٣٨) المرجع السابق، ص٤٤٢ .

(٣٩) إبن الحنبلي، درر الحبب، جزء٢ قسم١، ص٢٦٣ .

(٤٠) ريمون، المدن العربية الكبرى، ص١٦٧ .

(٤١) للتوسع حول هذا الوقف أنظر:

د. محمد الأرناؤوط، « تطور وقف النقود في العصر العثماني »، دراسات مجلد ١٩، عدد٢، عمان١٩٩٢، ص٣٦ـ٤٨ .

(٤٢) الطباخ، أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٠٥ .

(٤٣) وقفية محمد باشا بن دوقه كين، مخطوطة بمكتبة الأسد ـ قسم المخطوطات، رقم ١٤٧٤٠, ١٦ ورقة فقط من الأصل غير الكامل.

(٤٤) الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص١١٤ .

(٤٥) المصدر السابق، ج٢، ص٧٣، المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج١، بيروت د.ت، ص٣٦٤ .

(٤٦) مركز الوثائق التاريخية بدمشق، سجلات المحاكم الشرعية بحلب، سجل ١٢، ص١٠٣، حجة٣, ١٢ربيع الثاني ١٠٣٢هـ/١٤شباط ١٦٢٣م

وتجدر الإشارة هنا إلى أن د.رافق قد كشف في تلك الفترة عن حالات إستثنائية لقروض مسجلة في محاكم حلب « على حكم العشرة بأحد عشر ونصف بموجب الأمر الشريف السلطاني ». أنظر:

د.عبد الكريم رافق، « العلاقات الزراعية في بلاد الشام في العهد العثماني بين المذاهب الفقهية والواقع »، دراسات تاريخية عدد ٤٣ـ٤٤، دمشق ١٩٩٢، ص١٢٢ .

(٤٧) حول مغزى تأسيس ميناء الاسكندرونة أنظر:

ساحلي أوغلو، تغير طرق التجارة، ص١٤٤ـ١٥٠، الصباغ، الجاليات الأجنبية، ج١، ص٢٣٨ـ٢٤٨ .

(٤٨) أبو الوفا بن عمر العرضي، معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، دراسة وتحقيق عيسى سليمان أبو سليم، عمان ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢، ص١٢٢, ١١٥ .

(٤٩) س م ش ح، سجل١٥، ص٤٤٤، حجة١ .

(٥٠) س م ش ح، سجل ١٥، ص٥٧٣، حجة٢, ١٠صفر ١٠٤١هـ/٧ أيلول ١٦٣١م.

(٥١) Masters, The Origins, p. 162

(٥٢) Roland Jennings,(Loans and Credit in Early 17th Century Ottoman Judical Records), JESHO 16, pp. 216-168

(٥٣) Abraham Marcus, The Middle East on the Eve of Modernity-Masters, The Origins, pp. 159-162

Aleppo in the Eighteenth century, Colombia University press 1989, pp. 183- 185.

حلب وطريق الحرير

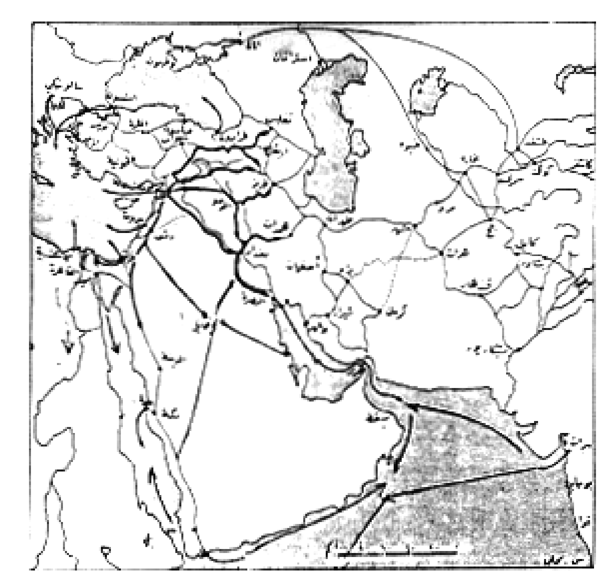
عبد الرحمن حميدة
جامعة دمشق

يعود تاريخ طريق الحرير إلى عصر حديث نسبياً على الرغم من أنها كانت مطروقة منذ عدة آلاف السنين. فقد أثارت لدى الآثاريين والمؤرخين الأوربيين في القرن الماضي فضولاً علمياً لا يقهر، مما حدا بهؤلاء الى القيام ببحوث متعمقة وبرحلات طويلة جداً عبر الصحارى والسهوب والغوطات. وكانت حلب نهاية الخط لهذه الطريق، وكانت خاناتها تؤلف عنابر لهذه المادة الثمينة والمرغوبة جداً. وتدعم الحملة التي اضطلعت بها منظمة اليونسكو بالتعاون مع جغرافيين ومؤرخين يابانيين وأتراك وفرس وسوريين، أقول تدعم بصورة صارخة وتؤكد على الدور التجاري والحضاري لعاصمة الشمال السوري الاقتصادية.



إن موقع حلب عند تقاطع الطرق المتجهة من الجنوب الشمالي، أي باتجاه الأناضول وأوروبة، فضلاً عن الطريق المتجهة نحو الجنوب، أي نحو الحجاز واليمن، ومنها نحو المحيط الهندي، وتلك التي تتجه من الشرق للغرب، الواصلة بين الخليج العربي وبحر الروم، أقول إن عقدة طرق كهذه مؤهلة بحكم طبيعة موقعها، لأن تكون مركز توزيع دولي منذ فجر التاريخ، هذا فضلاً عن اتصال المعمورة على هذه الطرق المختلفة، حيث يتوفر الماء وتكثر المراكز الحضرية، هذا فضلاً عن سهولة المواصلات فوق هذه الطرق المتشعبة من حلب، التي تلعب دور العنكبوت وسط شبكتها، بسبب ندرة الجبال المرتفعة التي تؤلف حواجز طبيعية في وجه المواصلات. أضف الى ذلك توفر الممرات الجبلية المنخفضة كممر بيلان المؤدي الى ميناء إسكندرون، أو منخفض أنطاكية الذي يقود بكل سهولة الى ميناء السويدية عند مصب العاصي، هذا إضافة إلى ممر نهر الأبيض وبداما الذي يجعل ميناء اللاذقية في متناول تجار حلب. كل ذلك على خلاف مدينة دمشق التي يقف جبل لبنان الغربي كأنه حاجز طبيعي عسير، ولاسيما في فصل الشتاء لدى تكاثف الثلوج، أو بادية الشام من الشرق التي ظلت حتى مطلع القرن العشرين عقبة رهيبة أمام القوافل لاتساعها وندرة المياه على مئات الكيلومترات، وتظل مغامرة القائد الفذ خالد بن الوليد ملحمة من ملاحم التاريخ عندما اجتاز هذه البادية لنجدة أبي عبيدة بن الجراح.

ولكن الموازنة بين موقع حلب الرحب وموقع دمشق لا ترقى لمستوى الموازنة بين طريق الحرير الآسيوي وطريق الذهب الإفريقي. فالطريق الأخيرة كانت تصل بلاد غانة،



مصور الطرق الدولية القديمة بين سورية والعالم عن غاوبي وفيرت ١٩٨٥ في كتابها Aleppo

مصدر الذهب، ببلاد المغرب الأقصى مثل مدينة سجلماسة أو مراكش، أو أغمات، حيث تصل المسافة الفاصلة بين تمبكتو وبين مدن المغرب التجارية الى ١٥٠٠كم أو ٢٠٠٠كم، وهي مسافة لا تعرفها الفيافي المحرومة من الأنهار في الصحارى الآسيوية الفاصلة بين الغوطات[١] وأودية الأنهار والتي لا تتجاوز في أقسى الظروف عدة مئات الكيلومترات في صحارى باردة أو معتدلة الحرارة لا تغيب فيها الذرى الجبلية المكسوة بالثلوج عدة شهور من العام، وحيث تسير فيها قوافل الإبل ذات السنامين، أو جمال البختي، نسبة إلى بلاد بكتريان Bactrizne، أو القسم الشمالي من أفغانستان، على خلاف الإبل الوحيدة السنام المتصفة بقدرتها على تحمل العطش لبضعة أيام في حين يتميز الجمل البختي بتحمله البرد القارس لغزارة وبره.

وإذا كانت طريق الذهب الإفريقية تجتاز المنطقة المدارية ونطاق الساحل والصحراء الكبرى كي تنتهي عند نطاق شبه مداري أو مناخ البحر الأبيض المتوسط، أي تجتاز ٢٠ درجة عرض أو أكثر من ٢٤٠٠كم، فإن طريق الحرير كانت تمتد حسب درجات العرض أي يكون محورها الرئيسي مطابقاً لخطّي العرض ٣٥ و٣٧ مع تشعّبها في بلاد التركستان وإيران إلى ثلاثة فروع أحدها شمالي غربي وتنتهي على موانىء البحر الأسود، ويتجه أوسطها غرباً لينتهي في حلب، أما الأخير فكان يتجه نحو الجنوب الغربي ليتوقف قرب مدينة ملتان في الباكستان حالياً أو موانىء الخيلج. وكانت أهمية هذه المحاور الثلاثة تتباين حسب الظروف التاريخية أو اضطراب الأمن والغوص على أحد المحاور.

وهكذا كانت الصحارى الآسيوية المعتدلة أو الباردة، وحيث لا تكاد تغيب الثلوج عن عيون أرباب القوافل، كجبال تيان شان في الشمال أو مرتفعات آستين طاغ جنوب صحراء التركستان الشرقية، أو جبال هندكوش الأفغانية، والجبال التي تطل على سواحل بحر الخزر من الجنوب، شمال مدينة الري (طهران الحالية) أو جبال زاغروس وطوروس في حين تؤلف الفيافي الملتهبة والبحار الرملية المناظر السائدة على طريق الذهب الإفريقية.

إذا كانت طريق الذهب تقطع صحراء حقيقية وهي أقسى صحاري الدنيا، حيث تندر فيها آبار الماء، وتكثر على دروبها الهياكل العظمية للإبل التي نفقت من جراء الظمأ أو رجال القوافل الهالكين من العطش، فإن طريق الحرير كانت تجتاز العديد من السيول والأنهار مثل هلمند أو سيحون وجيحون (سيرداريا وآموداريا) ودجلة والفرات، وحيث كانت تقوم مدن هامة وحضارات متعاقبة.

وهكذا تبدو طريق الحرير أقدم وأطول طريق سلكها الإنسان، طريق ربطت الشرق الأقصى بالشرق الأدنى وجمعت بين حضارات العالم.

وقد أخذت هذه الطريق اسمها من الحرير، حيث ماتزال هذه الطريق التجارية تذكي خيال الناس، وهي طريق غريبة تكتنفها الأسرار، وغارقة في غياهب التاريخ، كانت تربط الصين بأوربة. وكانت شعوب شرق آسيا قد استخدمت هذه الطريق مرة تلو الأخرى قاصدة الغرب في تقدمها الى حيث تغيب الشمس، واستمر استخدام هذه الطريق أكثر من ٤٠٠٠ عام لتربط اسبانية بأورووبة.

وكان للطريق ثلاثة دروب متشعبة مختلفة. وكان أول من تعرّف على هذه الدروب المؤرخ اليوناني هيرودوت في عام ١٣٠ق.م، واستناداً لهذه الأخبار، فإن الفرع الشمالي لطريق الحرير كان يبدأ من مصب نهر الدون في بحر آزوف كي ينعطف نحو الشرق ليصل المنطقة التي كان يعيش فيها حينذاك البارثيون Parthes، أو الفرس القدامى، ومن هناك كانت تتبع طريقاً للقوافل تسير بمحاذاة

نهر تينشان، ثم يمر بعدها بغوطة تورفان الواقعة إلى الشمال من بحيرة لوب نور عند مصب نهر تاريم الواقعة في ما يسمى حالياً التركستان الشرقية أو سيكيانغ.

وتدل المكتشفات الأثرية أن التجارة مع الصين ترجع الى نهاية الألف الثاني ق.م، فكانت الحلي المصنوعة من اليشم والأدوات ترسل الى منطقة روسية الجنوبية اليوم، أي أوكرانية، كما كان ينقل النحاس والأحجار الكريمة من الأورال، وكانت صلة التجار الإغريق بالأورال، ومن ثم الى الصين مقتصرة على التجارة الوسيطة، وبدءاً من القرن السادس ق.م بدأت تجارة الحرير مع الصين.

أما الدرب الجنوبي لطريق الحرير فليس هناك أخبار يمكن موازنتها مع تلك التي جمعها هيرودوت عن الدرب الشمالي، بيد أن الألواح المسمارية الأكادية من القرن السابع ق.م كانت تشير الى وجود هذا الدرب. وتصف الألواح ذلك القطاع من الطريق الذي يصل بين بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وأكبتانا Ecbatane، وهي عاصمة الميديين قديماً (همدان اليوم) وكانت الطريق تمضي من هناك حتى بلاد الصفد Sogdiane (ما بين نهري سيحون وجيحون في عاليتهما) في التركستان حيث يعيش الساكيون ذوي القبعات الطويلة. وكانت بلاد الصفد في العهد الأخميني أبعد موضع فارسي شمالاً في شرقي إيران. ويزعم بلين أن الدرب الجنوبي كان يصل الى نهر جيحون (سيرداريا) وكان الصينيون يعرفون هذا النهر.

أما الدرب الثالث من فروع طريق الحرير فيتألف من طريقين بحرية وبرية، وكانت الطريق البرية تتشعب الى اثنين أحدهما مصري والآخر عراقي، وكانا ينطلقان الى ميناء باريغازا الواقع عند مصب نهر الهندوس. وكانت الطريق تتجه بعدئذ الى تينوى عاصمة الدولة الصينية القوية شرق حوض تاريم.

ومع بداية الفتوحات الاسلامية كان اتجاه التقدم واضحاً عبر ايران الى الشرق بحسب طريق التجارة التركية. وفي عام ٧٥١م هزم القائد المسلم قتيبة الباهلي (أبو مسلم) القوات الصينية عند تالاس وعلى إثرها انتشر الاسلام على طرفي طريق الحرير من خلال الفتوحات العسكرية الإسلامية، وكانت الرغبة في نشر الاسلام هي الشعلة التي أذكت هذه الفتوحات وعملت على تسريعها واعتناق الأقوام التركية للدين الحنيف. ومن هنا انطلقت مشاركة الشعوب التركية التي دخلت الدين الجديد في السلطة السياسية، وخير مثال على ذلك قيام الدولة الغزنوية التي نشرت الاسلام في شبه القارة الهندية، والكرمنشاهية، والسلجوقية.

وبدءاً من القرن التاسع والعاشر الميلادي سيطر الكرمنشاهيون على الدرب الشمالي لطريق الحرير. وفي القرن الحادي عشر سقطت خوتان في أيديهم، وبسقوط هذه المدينة، الواقعة على نهر يحمل الاسم ذاته، وهو رافد أيمن لنهر تايم، تحققت لهم السيطرة على طريق الهند، وبذلك تم الوصول الى الدرب البري البحري لطريق الحرير، ولم تقف الفتوحات الكرمنشاهية وما تلاها من دخول شعوب برمتها في الاسلام الاّ على الحدود البرية لمملكة ويغور البرية في أواسط آسيا.

وفي القرن العاشر اتخذ السلاجقة الاسلام عقيدة لهم وتوسعوا في الفترة اللاحقة تدريجياً نحو الغرب واحتفظوا بالمناطق التي فتحوها. وكان لدخول الأقوام التركية، التي كانت تنتشر على جوانب دروب الحرير المشعة بالاسلام أهمية مضاعفة، فمن جهة انتقلت إليها مع الدعوة الجديدة حضارة ذات سمات فارسية، وأتاحت لهم هذه الحضارة اكتساب قوة سياسية واقتصادية خاصة بهم في وسط آسيا وغربيها، ومن جهة ثانية كان لوصول الاسلام الى أواسط آسيا ميزات متعددة لا مجال للخوض فيها في هذا المجال.

وهكذا تبدو طريق الحرير كأقدم وأطول طريق سلكها الإنسان، طريق ربطت الشرق الأقصى بالشرق الأدنى وجمعت شمل حضارات العالم. وهذا ما حدا بمنظمة اليونسكو الى دعوة العلماء والمؤرخين وكبار الكتاب من شتى أقطار العالم لتزويدها بأكبر قدر من المعلومات العلمية والتاريخية والأثرية عن « طريق الحرير »، كما قامت بعثة جغرافية يابانية مزودة بسيارات الجيب[٢] باقتفاء آثار أرباب القوافل الذين سلكوا تلك الطريق منذ آلاف السنين وتقصوا آثار الأطلال والمدن الغابرة وكانت تحت إشراف الجغرافي الياباني الكبير الدكتور اوبوري، مدير المعهد الجغرافي بجامعة طوكيو، هذا مثلما استضافت جمهوريات آسيا

الوسطى السوفياتية ونظمت رحلة اشترك فيها جغرافيون وأثريون ومؤرخون من أقطار عديدة، منهم الدكتور ساطع محلي من جامعة دمشق، وذلك قبل حوالي عشر سنوات وقد طاف أعضاء الرحلة بأهم المدن والمواقع الأثرية والمحطات التي كانت تتوزع على طريق الحرير وتأخذ جمهوريات آسيا الوسطى الفتية حالياً على عاتقها انعاش طريق الحرير القديمة بطريق مؤلف من شبكة خطوط حديدية تصل الشرق الآسيوي ببحر الخزر والأسود والخليج العربي بطريق إيران(٣).

وقد اكتشف الجغرافي والعالم الأثري سيفين هايدن سنة ١٨٩٠م هذه الطريق وخطط مسالكها من رسوم، وتعرّف على المخطوطات الهندية والصينية والمغولية التي توضح معالم الحضارات التي ازدهرت على طول رصيفيها، بين الشرق والغرب، منذ ٣٠٠٠ سنة ق.م. هذا مثلما ظهر مؤلَّف لكاتب ألماني اسمه هيرمان ظهر عام ١٩١٠م في برلين يحمل اسم «طريق الحرير» القديم بين الصين وسورية، على اعتبار أن سورية تقع خاتمة مطاف هذه الطريق. وكان علماء الغرب يسلّمون بدور تدمر وأهميتها كمركز تجاري كبير ورئيسي في العالم القديم. وقد أشار العالم أولغ Ulig الألماني بأهمية تدمر عندما كتب: «كانت تدمر نقطة التقاء جميع الناس وحافظت على غناها وازدهارها التجاري مئات السنين، وكانت أغنى وأجمل المدن المعروفة على طريق الحرير الغربية، وهذا ما تؤيده الآثار الرائعة التي لاتزال ماثلة الى الآن غير أن تدمر لم تلبث أن تخلّت عن دورها وتحولت لمدينة أثرية منذ أن منيت قوات ملكتها زنوبية بهزيمة منكرة وأسرت الملكة ذاتها على ضفة الفرات لتنهي أيامها أسيرة في العاصمة رومة.

ويتفق المؤرخون على أن نشوء هذه الطريق الأثرية يعود الى الألف الخامس ق. م، أي مع ظهور صناعة الحرير في الصين، وعندما نذكر الحرير، فإنما نقصد به الجمال والترف والنبل، وتعتبر الصين ذات تراث عريق جداً في إنتاج الحرير وصناعته، ويرجع هذا التاريخ الى عهد سلالة شانغ Shang، أي الى القرن الثامن عشر والثاني عشر ق.م أو ١٧٦٦ــ١١٢٢ق.م، حيث تم العثور على دروع سلاحف وعظام نقشت عليها علامات بالرموز الصينية تشير الى الحرير ودود القز والشرنقة وشجرة التوت. ومنذ عهد سلالة تسو Tsu في الفترة الواقعة بين القرن الحادي عشر والثاني عشر أصبح الحرير وصناعته الدقيقة جزءاً أساسياً في الاقتصاد الصيني. وهكذا كانت هذه الطريق تربط الصين شرقاً بحوض البحر المتوسط ومنه بالقارة الأوربية، وذلك عبر أصقاع آسيا الوسطى بصحاريها الشاسعة وبسهوبها العشبية الفسيحة ووديانها العميقة وفجوجها وممراتها الجبلية الوعرة.

وعلى الرغم من طول هذه الطريق وقسوة عبورها كانت القوافل التجارية تسلكها بكثافة للإتجار بنسيج الحرير الثمين الذي كان للصين الفضل في ابتداعه، واحتكرت صناعته، مما جعلها تجني من ورائه أرباحاً طائلة مثلما جنت من وراء تجارته المكاسب بعد أن استقطب انتباه العالم ودهشته، وأصبح النسيج البراق في أيمن الغواتي، ولاسيما نساء الأسر الحاكمة والمالكة.

وكانت الصين في ذلك الزمن الغابر ذات حضارة زاهرة في مضمار العلوم والصناعة، تصدّر منتجاتها التي بلغت شأناً مرموقاً من الكمال الفنّي، ولاسيما في صناعة الخزف القيشاني والفراء والبرونز والنباتات التي تستخلص منها العقاقير الطبية، فضلاً عن المنسوجات الحريرية، هذا في مقابل حصولها على الذهب والأحجار الكريمة والعاج والمرجان والعنبر دون نظر أو أدنى اعتبار لحضارة الغرب، إذ كان الصينيون يتصفون بمركّب السمو ويرفضون رفضاً باتاً تبنّي أية حضارة غريبة عن حضارتهم.

وكانت هذه الطريق الطويلة تجتاز عدداً كبيراً من «الغوطات» التي انتشرت فيها الخانات والمطاعم والاستراحات التي توفر بعض أسباب الراحة من عناء السفر وعلفاً للإبل، كما كانت الطريق تخترق بعض الإمارات المغولية والتركية والفارسية تستحوذ كل منها على ما تحمل القوافل من الحرير وسواه من السلع النادرة المرغوبة، كي تبيعها بسعر أعلى لتجار الإمارات المجاورة، وهذه تبيعه بدورها للإمارات التالية بأسعار أعلى، وهكذا دواليك الى أن تبلغ أسعاره عند بلوغه نهاية الطريق أرقاماً ومستويات خيالية لا تكون في متناول غير الملوك والأمراء.

وعلى أثر ازدياد عدد القوافل على هذه الطريق الأسطورية كثرت العصابات من قطاع الطرق والأشقياء في

هذه البقاع التي يكون الحكم فيها خاضعاً لمفاهيم قبلية وعشائرية، وحيث تسود روح المغامرة بين شذاذ الآفاق الذين وفدوا من كل حدب وصوب طمعاً في الإثراء السهل، حيث بلغت حوادث السلب والنهب أبعاداً مذهلة، هذا كما أثارت هذه الطريق عدداً لا يحصى من أحداث التنافس المسلح بين الإمارات القائمة على جانبيه، تمخضت في النهاية عن تدميره وأدت الى إغلاقه أجيالاً عديدة من الزمن انحرفت خلالها التجارة بين الصين وأوربة عبر الهند، ومن ثم نحو بحر العرب أو نحو البحر الأحمر أو نحو طريق الشمال الأقصى أي باتجاه شمالي الخزر وروسية.

وفي سنة ١٣٨ ق.م حاولت الصين انعاش هذه الطريق واستئناف فتحها بفرض الأمن عن طريق محاربة الإمارات التي كانت سبباً في إغلاقه، وتمّ لها النصر واخضاع تلك الإمارات لنفوذها وإعادة النشاط للطريق وضمان سلامة قاصديه.

وكان العرب، على العموم، حريصين على إبقاء هذه الطريق سالكاً للقوافل بعد أن انتصروا على الصينيين في معركة طالاس وكاشغر في ٧١٥م، إذ كانوا يستوردون عبره مختلف العقاقير الطبية والبارود والورق وأدوات طباعة القماش وسواها من الصناعات الصينية المتقدمة.

ويذكر التاريخ أن الإقبال على اقتناء الحرير منذ العصور القديمة كان يثير حروباً عديدة بين الرومان واليونان من ناحية وبين الفرس والأتراك من ناحية أخرى، وعلى الخصوص عندما أمر امبراطور الرومان سنة ٤٠٠ ق.م الاتفاق مع الصين على استيراد الحرير مباشرة الى بلاده، إلا أن الاغريق لجؤوا إلى خوض الحرب ضد الرومان لإحباط هذا الاتفاق، مما اضطر الصين الى تحويل تجارتها بالحرير الى بلاد فارس.

كما يذكر التاريخ أن السلطان العثماني أحمد الأول (١٥٩٠ـ١٦١٧م) اشتبك مع الفرس للاستيلاء غصباً على ألف ألف (مليون) رطل من الحرير بسبب عجزه عن تسديد ثمنها نقداً.

وقد ظل الصينيون حريصين على الاحتفاظ بصناعة الحرير سراً غامضاً لمدة تزيد على ٤٠٠٠ عام، الى أن تزوجت إحدى الأميرات الصينيات من أحد أباطرة الهند في سنة ١٤٠ ق.م، فنقلت لزوجها هذا السر. وبعدئذ انتقلت هذه الصناعة الى كورية ومنها الى اليابان سنة ٣٠٠ م، ثم إلى الغرب عن طريق الامبراطور جوستنيان الذي استطاع بالاستعانة بالرشوة الحصول من الفرس على كمية من دود القز، وبذلك افتضح سر ديدان القز وطريقة تربيتها واستخراج خيوط الحرير منها، وظلت حتى عهد قريب معروفة في لبنان وبعض مناطق الأناضول الغربي، على أن صناعة الحرير ظلت في دول الغرب على نطاق ضيق جداً.

وظلت طريق الحرير الأثرية تتراوح بين الفتح والإغلاق حتى عام ١٣٦٨م، عندما نشبت الخلافات المذهبية بين الصينيين البوذيين والممالك المغولية في التركستان، ولاسيما في عهد الأسرة التيمورية، مما أدى الى اغلاقها نهائياً وتحول النقل التجاري بين الشرق والغرب الى الطرق البحرية على الأساطيل التجارية الأوربية من برتغالية وهولندية وإنكليزية.

ويرى المؤرخون أن فضل هذه الطريق الشاقة التي تعتبر أقدم وأطول طريق سلكها الإنسان في تاريخ العالم لا يقتصر على نقل الحرير بين الشرق والغرب، بل في المقام الأول إلى ربط أقصى الشرق بأقصى الغرب وتبادل المؤثرات الحضارية بين الأقطار والدول القائمة على جانبيه.

الحواشي

(١) الواحات أو الجزر كما يسميها ابن حوقل هي البقاع الغنية بموارد المياه التي يجود فيها النخيل، في حين تطلق تسمية الغوطات على الواحات الباردة التي لا تنجح فيها زراعة النخل، وعلى هذا الأساس تكون الواحة الوحيدة في سورية هي تدمر ومنها بالميرا التي تتضمن النخيل.

(٢) Jeep وهي لفظ حرفين هما GP أو General Purpose أو عامة المقاصد والأغراض.

(٣) نشر الدكتور ساطع محلي كتابه «على طريق الحرير» مشاهدات ومواقع وأحداث. دار الأهالي. دمشق ١٩٩٤.

المراجع:

مجلة الكفاح العربي عدد ٩٢٢ ١/٤/١٩٩٦
مجلة الخفجي عدد محرم ١٤١٨هـ
المجلة العربية عدد ربيع الآخر ١٤١٢هـ
على طريق الحرير. د. ساطع محلي. دار الاهالي دمشق ١٩٩٤.

الحرير في أنطاكية اليوم

ريم الأطرش

باحثة ـ سورية

الملابس الحريرية التي تشترك فيها سورية البلد الأم وأنطاكية واسكندرونة:

حطاطة المسايخة، المسلوبة، الزنار الطرابلسي، ميزر الحمّام أو البشتمال، المشلح، السراويل الداخلية القصيرة وبقجة العروس.

مكانة أنطاكية الهامة على طريق الحرير: على طريق الحرير، في العصر الهلنستي السلوقي ثم في العصر الروماني أضحت أنطاكية نهاية المطاف، حيث تنتهي إليها طرق القوافل القادمة من الخليج العربي وحضرموت وعدن عن طريق الوسطاء الأنباط ثم التدمريين.

تاريخ أنطاكية: بنيت مدينة أنطاكية في القرن الثالث قبل الميلاد، وخلال الإنتداب الفرنسي على سورية، أعطى الفرنسيون منطقة أنطاكية واسكندرونة للأتراك، ودعيت بولاية هاتاي؛ وهكذا تم سلخها عن الوطن الأم سورية عام ١٩٣٩.

إنتشار الحرير في أنطاكية: أما صناعة الحرير فقد إنتقلت إلى الشرق الأوسط من الصين في القرن السادس ميلادي. وفي زمن الدولة المعنية في القرن السابع عشر انتشر دود الحرير بكثرة في لبنان ومنطقة الجبال الغربية الساحلية السورية والمنطقة الممتدة على ضفاف نهر العاصي، حتى أنطاكية. إشتهرت أنطاكية واسكندرونة بتصدير الشرانق إلى فرنسة، وبصناعة الحرائر الناعمة والمناديل الحريرية. كما إشتهر الأرمن في جبل موسى في الأمانوس بالحرائر المطرزة باليد. تربى دودة القز في سورية وأنطاكية الآن في موسمين: الأول ربيعي والثاني خريفي.

العملية البدائية في حل خيوط الحرير من الشرانق: بعد قطاف الشرانق، لا بد أن تجري عليها عمليات حل خيوط الحرير وتحضيرها على شكل شلل. إنتشرت في الساحل السوري وحتى أنطاكية عدة مخانق أو ورشات لتجفيف الشرانق بهدف قتل الحشرة داخل الشرنقة. بالنسبة لمدينة أنطاكية كانت المخانق كلها تتجمع في السويدية وكان هناك عدة مخانق لآل خوري وعكر وورد وصراف.

صناعة الحرير الحالية في أنطاكية: أما الأقمشة الحريرية التي تصنع اليوم في أنطاكية فهي عبارة عن أقمشة ثخينة تصلح لصنع البزات (بدلات) للرجال والسيدات وهناك أقمشة ناعمة ورقيقة تصلح للقمصان.

مراحل تصنيع خيط الحرير: ١ـ الفتال ـ٢ـ المسدي، ٣ـ المزيّك ـ ٤ـ الملقي.

الرسم على الحرير: في إسكندرونة، لم يبق أي أثر لصناعة الحرير، عدا الرسم اليدوي على الحرير الطبيعي.

أهمية زراعة التوت في هذه المنطقة: أفضل شجرة لتغذية دودة الحرير هي شجرة التوت الذكر أو التي تحمل التوت الأبيض، وإقتصرت زراعتها فقط على المناطق التي ما زالت تعتني بتربية دودة الحرير. إلاّ أن مديرية الزراعة في أنطاكية الآن تحاول أن تعتني بدودة الحرير وبتربيتها وبتشجيع الفلاح على زراعة أشجار التوت بكثافة في تلك المنطقة. ويتم في أنطاكية تسويق المنتجات الحريرية داخلياً في تركية بالبريد.

❁ ❁ ❁

تمهيد

في أثناء زيارتي لبعض القرى التي كان أهلها يربون دودة القز، كانت الكلمة السحرية التي ألفظها هي «دودة الحرير» وبعد أن يسمع أهالي هذه القرى تلك الكلمة السحرية، كانوا يبدؤون بالحديث عن ذكرياتهم في تربية دودة الحرير وكيف كانوا يهتمون بها وهم أطفال ويرون أجدادهم وجداتهم يفرمون للدودة ورق التوت. كنت طبعاً لا أشارك في الحديث، ولكنني أكتفي بالإنصات إلى هؤلاء الناس الذين يتحدثون ببهجة وفرح عن هذه المرحلة من حياتهم وعن تلك اللحظات السعيدة فيها. ويشهد على ذلك بريق عيونهم الساحر في أثناء هذا الحديث. وتشهد على ذلك أيضاً رواية (بقايا صور) للكاتب السوري حنا مينة الذي نشأ في السويدية (أنطاكية) وتحدث في روايته تلك عن علاقة تربية الحرير بحياة الناس وبمواسمهم.

من الملاحظات التي لفتت نظري هي أن معظم الذين يصنعون المنسوجات الحريرية لا يتمتعون بارتدائها بسبب فقرهم. فعمال النول هم أفقر من يعمل في صناعة الحرير وبالتالي هم غير قادرين على شراء الملبوسات الحريرية لغلاء ثمنها.

كما أن معظم من يعمل بصناعة الحريرالطبيعي وصف الحرير بأنه (روح) ويجب التعامل معه بحنان ورقة؛ (روح) لأنه نتاج دودة من مخلوقات الله وبالتالي فدودة الحرير هي (روح) خلقت في هذا العالم.

ومن الأمور التي لفتت نظري أيضاً هي تحسر أهل أنطاكية بشكل خاص على الأيام الخوالي التي كانت فيها المنتجات الحريرية السورية التقليدية تصل بسهولة إلى أنطاكية وترتديها النساء ويرتديها الرجال. وهم يذكرون الملابس التقليدية الحريرية كالحطاطات المصنوعة في حمص والمسلوبة في مصياف، والتي ما زالت نساؤنا في سورية يضعنها على رؤوسهن وحرمت نساء أنطاكية في ظل ظروف انسلاخها عن الوطن الأم من ارتدائها.

وسأذكر بعض هذه الملابس التقليدية التي تشترك فيها سورية البلد الأم وأنطاكية وإسكندرونة:

- حطاطة المسايخة من الحرير الطبيعي والقصب؛ وتلبسها النساء في قرى اللاذقية وقرى أنطاكية (جنيدو) والقلمون وحلب.
- المسلوبة: وهي من الحرير الطبيعي المغزول وتضعها النساء على الرأس فوق العصبة أو الحطاطة؛ وتلبسها النساء في قرى اللاذقية وبانياس والقدموس وكانت ترتديها في أنطاكية وريفها.
- الزنار الطرابلسي: وهو من الحرير الطبيعي الملوّن، وكانت النساء وما زالت ترتديه في طرابلس الشام وقرى حلب وأنطاكية مثل الحربية[١].
- ميزر الحمّام أو البشتمال: وهو من الحرير الطبيعي الدراقلي حيث أن خيوط السدى كانت تصبغ بعدة ألوان وذلك بطريقة التربيط وهو للنساء وتعتبر فوطة لحمّام السوق. كان منتشراً في دمشق وحماة وحلب وأنطاكية.



الصورة ١: المسلوبة



الصورة ٢: ميزر الحمّام.

- المشلح: وهو من الحرير الطبيعي الخالص واشتهرت به حمص وحماه وأنطاكية، ويشبه العباءة في شكله[٢].
- السراويل الداخلية القصيرة المصنوعة من الحرير الطبيعي والمطرزة في جوانبها. وكانت متواجدة بكثرة في أنطاكية وإسكندرونة بالإضافة إلى المناديل الحريرية والسراويل والقنابيز بأنواعها وبقجة العروس وأغراضها وملاءات الأسرّة التي ما زالت تحاك في أنطاكية من الحرير الطبيعي والقطن[٢].

الصورة ٤: المشلح.



الصورة ٥: سروال قصير





الصورة ٣: المشلح.

مكانة أنطاكية الهامة على طريق الحرير:

الإتجاه الرئيسي بالنسبة لنا في طريق الحرير هو المحور الذي يمر في البر في سورية حيث تشكل مفترق الطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. ففيها دمشق، المنفذ الرئيسي إلى بلاد الحجاز ومصر، ثم أنطاكية وإسكندرونة التي تسلم بضائع آسيا إلى مراكب البحر المتوسط لنقلها إلى جنوة والبندقية. وفيها تدمر أيضاً التي تتجه بأبوابها الشرقية إلى بلاد الرافدين. ويعود تاريخ طريق الحرير إلى القرن الثاني قبل الميلاد وقد استخدم نحو ألف سنة حتى القرن الثامن الميلادي.

وانتقلت تجارة الحرير من شعوب الشرق الأقصى إلى الرومان ثم إلى العرب في العصور الوسطى وحتى الحروب الصليبية في القرنين ١٢ و١٣. كان التجار السوريون ينطلقون من أنطاكية، عاصمة سورية الرومانية على المجرى الأسفل لنهر العاصي، باتجاه الشرق مارين بحلب ثم يجتازون الفرات عند جرابلس (هيرابوليس) ويعبرون أراضي الجزيرة بإتجاه إيران مارين بساحل بحر قزوين ثم إلى شرق آسيا؛ ليلتقي التجار المشرقيون بالصينيين وهناك يتبادلون البضائع وأهمها الحرير من الصين. أما الطريق البرية من الصين إلى الغرب فكانت تنطلق من شمال الصين إلى آسيا الوسطى وأحد فروعها يتجه إلى دورا أوروبس (الصالحية على الفرات) ثم إلى تدمر وأنطاكية.

في العصر الهلنستي والسلوقي ثم في العصر الروماني أضحت أنطاكية نهاية المطاف، حيث تنتهي إليها طرق القوافل القادمة من الخليج العربي وحضرموت وعدن عن طريق الوسطاء الأنباط ثم التدمريين. وفي العصر الهلنستي استطاعت تدمر أن تستجلب إليها خطوط القوافل لتكون محطة بين الفرات من جهة وحمص وأنطاكية من جهة أخرى.

تاريخ أنطاكية:

ولنلق نظرة سريعة على تاريخ أنطاكية، هذه المدينة الهامة على طريق الحرير.

بنيت مدينة أنطاكية في القرن الثالث قبل الميلاد، وقد بناها سلوقس أحد قادة الإسكندر الأكبر وسمّاها أنطيوخوس تخليداً لاسم أبيه. تتالى على حكم أنطاكية السلوقيون واليونان والرومان والبيزنطيون ثم حكمها العرب بين عامي ٦٣٧ و٩٦٧ ميلادي. عادت بعد ذلك إلى حكم البيزنطيين ثم الأتراك فالصليبيين في العصور الوسطى. وفي عام ١٢٦٨ استخلص الملك الظاهر بيبرس أنطاكية من يد الصليبيين الذين حكموها ١٧٠سنة (٣). بعد ذلك سيطر عليها العثمانيون كجزء من الوطن العربي. وخلال الإنتداب الفرنسي على سورية، أعطى الفرنسيون منطقة أنطاكية وإسكندرونة للأتراك ودعيت بولاية هاتاي؛ وهكذا تم سلخها عن الوطن الأم سورية عام ١٩٣٩.

من الشخصيات التاريخية التي زارت أنطاكية، كليوباترا، حيث لاقت أنطونيو عندما وصلت مراكبها إلى

مصب العاصي في القرن الثاني قبل الميلاد. وزارها أيضاً الملك فيليب العربي عام ٢٤٤م[٤]. كما دخلت زنوبيا ملكة تدمر في القرن الثالث الميلادي أنطاكية لملاقاة أورليانوس فيها.

وحارب أبو عبيدة بن الجراح البيزنطيين على مشارف أنطاكية وحاصرها بعد ذلك ثم صالحهم على الجزية. كان لأنطاكية في عهد السلوقيين شوارع مرصوفة أهمها الشارع الرئيسي الذي كان يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب، تزينه من الجانبين أروقة قائمة على أعمدة من الرخام. وفي سفح جبل الصليب تقوم مغارة القديس بطرس الرسول وهي أقدم كنيسة مسيحية في العالم. فيها بشر الرسولان بطرس وبولس بتعاليم الدين الجديد. وقد قام بطرس الرسول على رعاية الكنيسة الأنطاكية ٨ سنوات حتى العام ٤٤م. وغادرها لإتمام رسالة التبشير بعد أن أقام تلميذه أفوديوس رئيساً لهذه الكنيسة التي تسلسل عقد أحبارها بلا انقطاع إلى عهدنا هذا. إلا أن الطوارئ السياسية والزلازل التي كانت تكر على مدينة العاصي دفعت ببطاركتها أن يغادروا مركز كرسيهم الأصلي سنة ١٢٦٨م أيام الملك الظاهر. إلا أن الكرسي البطريركي بقي لأنطاكية، وظل بطريرك سورية لطوائف المسيحية كلها يحمل لقب بطريرك أنطاكية وسائر المشرق[٥].

إنتشار الحرير في أنطاكية:

أما صناعة الحرير فقد إنتقلت إلى الشرق الأوسط من الصين في القرن السادس الميلادي. وقد شجع العرب تربية دودة القز وزراعة أشجار التوت وسنوا القوانين لحمايتها، كما ساهموا في إدخال صناعة الحرير إلى أوروبة عن طريق الأندلس.

وفي زمن الدولة المعنية في القرن السابع عشر انتشر دود الحرير بكثرة في لبنان ومنطقة الجبال الغربية الساحلية السورية والمنطقة الممتدة على ضفاف نهر العاصي، حتى أنطاكية.

كانت صناعة الحرير اليدوية في هذه المناطق وحتى نهاية القرن التاسع عشر تلبي الحاجات الأساسية للمجتمع؛ إلا أنَّ الزيّ الأوربي بدأ يغزو مجتمعاتنا، فانحسر اللباس التقليدي. وقد أثر دخول الآلة سلباً على الصناعة التقليدية بشكل عام. وساهم الإنتداب الفرنسي في التأثير على تراجع صناعة الحرير الطبيعي، حيث أنه أدخل الحرير الصناعي الأرخص ثمناً إلى سورية في الثلاثينات.

كما أن الفلاح في مختلف مناطق سورية وأنطاكية واسكندرونة بدأ بتقطيع أشجار التوت بسبب تعرض دودة الحرير لأمراض كثيرة واستبدلت أشجار التوت بالحمضيات والتفاح والزيتون والقطن.

اشتهرت أنطاكية وإسكندرونة بتصدير الشرانق إلى فرنسة، وبصناعة الحرائر الناعمة والمناديل الحريرية. كما اشتهر الأرمن في جبل موسى في الأمانوس بالحرائر المطرزة باليد[٦].

يعتبر الحرير الطبيعي الناتج من دودة القز أفضل الألياف الحيوانية وأغلاها ثمناً وأحسنها استعمالاً. وهي خيوط تفرزها دودة القز من فمها.

تربى دودة القز في سورية وأنطاكية الآن في موسمين:

الأول ربيعي والثاني خريفي. أما المناطق التي تربي دودة القز في بلادنا، فهي قرى سلسلة الجبال الغربية والمحاذية لنهر العاصي.

وفي لواء إسكندرونة تربى دودة القز الآن في قرى أنطاكية وإسكندرونة، منها قرية الحربية ومنطقة السويدية.

مراحل تربية دودة القز:

التربية في الموسم الخريفي أقصر مدة بقليل من التربية في الموسم الربيعي وذلك لأن الحرارة أعلى في شهر أيلول، مما يساعد الدودة على النمو بشكل أسرع.

يشتري المربي البيوض في منتصف آذار تقريباً، وكل علبة فيها ٧,١١غ من بيوض دودة الحرير. توضع في أكياس من الصوف من أجل زيادة حرارتها. بعد أسبوع تفقس هذه البيوض (البذور). فيضع المربي ورق التوت المفروم بشكل ناعم أمام الدود من أجل أن يتغذى عليه وذلك ضمن ما يسمى بالكرينات (وهي عبارة عن وعاء دائري كبير ذي حواف ومصنوع من روث البقر الناشف، أو عبارة عن أوعية خشبية مستطيلة الشكل وذات حواف أيضاً). ويجب أن تكون نظيفة جداً، كالغرفة التي يُرَبَّى فيها الدود فهي نظيفة جداً ومعقمة ومطروشة بالكلس الأبيض. ويجب أن تكون درجة الحرارة بين ٢٢ و٢٤ درجة مئوية وألا تزيد الرطوبة عن ٦٥٪.

ـ دورة حياة دودة الحرير نظرياً تمر بالمراحل التالية:

مرحلة البيض:	مرحلة التفقيس	من ٧ إلى ١٠ أيام
مرحلة اليرقة:	مرحلة الأكل والتطور	من ٢٥ إلى ٣٠ يوماً
	مرحلة التشرنق	من ٣ إلى ٤ أيام
مرحلة الفراشة:	مرحلة التحول داخل الشرنقة	من ١٠ إلى ١٤ يوماً
مرحلة الرشد والكمال:	مرحلة الخروج من الشرنقة	من ٣ إلى ٥ أيام
	ثم التزاوج فالإباضة ثم الموت	
دورة الحياة الكاملة		من ٤٨ إلى ٦٣يوماً

إستحصال بيوض دودة القز:

في أنطاكية، كان هناك في بدايات هذا القرن دراسة تسمى دراسة إستحصال البيوض أو البذور وقد قام السيد بطرس حنا عوض بهذه الدراسة عام ١٩١٤ . كما درست ابنتاه إيلين وكاترين وحصلتا على شهادة لاستحصال البيوض وذلك بعد ٦ أشهر من الدراسة المتواصلة، أشرف عليهما أستاذ متخصص من بورصة وحصلتا على شهادتيهما عام ١٩٤٦ .

وقد قابلت السيدة إيلين في منزلها في أنطاكية في تموز ١٩٩٢ وحدثتني عن طريقة إستحصال البيوض التي كان يقوم بها والدها والتي انقرضت في أنطاكية بعد وفاة والدها بقليل، حيث أنه كان الوحيد في أنطاكية الذي يقوم بهذا العمل الدقيق.

تبدأ عملية إستحصال البيوض بشراء الشرانق من المزارعين بعد أن يكون المستحصل قد راقب الدود وعملية التشرنق مراقبة جيدة عند المربين. ثم يتم أخذ الشرنقة وقطعها وإخراج الحشرة منها، ثم سحقها بالهاون ووضعها على الشرائح لفحصها تحت المجهر لكشف سلامتها من الأمراض: مثل مرض (الأرجل السوداء) وهو مرض سار، ومرض (الكلسة) وهو يمنع الحشرة من أن تصبح فراشة. وعند وجود مرض ما في تلك الدودة، لا تؤخذ تلك الشرانق وتهمل مباشرة. أما إذا كانت الشرانق سليمة، فيشتري المستحصل كمية كبيرة منها وبثمن مرتفع.

تتم عمليات التزاوج بين فراشات الذكور والإناث ثم الإباضة فالموت تحت مراقبة مستمرة. ويعاد فحص الإناث الميتة تحت المجهر للتأكد من خلوها من الأمراض وبالتالي خلو البيوض من الأمراض وذلك في أول شهر آب.

يتم وزن تلك البيوض المستحصلة بواسطة ميزان حساس جداً. (أونصة من البيوض = ٢٥غ).

ثم يتم وضع كل أونصة في كيس شاش ويوضع كل كيس في علبة قياس ١٠X١٠سم من الكرتون فيها عدة ثقوب للتهوية من الأسفل والأعلى.

يكتب على غطاء العلبة رمز أو ماركة الشخص الذي قام باستحصال البيض: اسمه وعدد الغرامات (عادة كل علبة فيها ٢٥غ) ونوع الشرانق (هل هي بيضاء أم صفراء) بالإضافة إلى طريقة الإستحصال.

كان رمز السيد بطرس حنا عوض هو الديك بالإضافة إلى ثلاثة حروف باللاتينية تمثل اسمه الثلاثي:

عوض A حنا H بطرس B

يتم وضع العلب في خزانة بدرجة حرارة ٢ إلى ٤ مئوية لكي تقضي فترة الشتاء هناك حتى شهر آذار، حيث يبدأ الربيع وتبدأ أوراق التوت بالظهور على أشجارها، فتخرج العلب من المشتى لتعرض للبيع. يشتريها التجار ويعطونها للمربين.

وتبدأ دورة حياة دودة الحرير.

العملية البدائية في حل خيوط الحرير من الشرانق:

بعد قطاف الشرانق، لا بد أن تجري عليها عمليات حل خيوط الحرير وتحضيرها على شكل شلل.



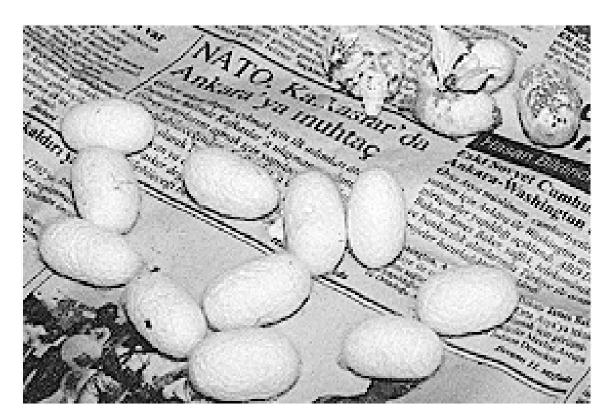
الصورة ٦: التشرنق

سأشرح العملية البدائية في أنطاكية، وكافة المناطق التي تربي دودة القز على الساحل السوري.

الصورة ٧: الكرينات



بادئ ذي بدء، يتم تجفيف الشرانق أو ما يسمى بعملية الخنق وذلك لقتل الحشرة داخل الشرنقة. تعرّض الشرانق إلى بخار ماء يغلي لعدة ساعات تتراوح بين ٥ إلى ١٠ ساعات.



الصورة ٨: الشرانق والفراشة

انتشرت في الساحل السوري وحتى أنطاكية عدة مخانق أو ورشات لتجفيف الشرانق بهدف قتل الحشرة داخل الشرنقة. بالنسبة لمدينة أنطاكية كانت المخانق كلها تتجمع في السويدية، وكان هناك عدة مخانق لآل خوري وعكر وورد وصراف وهم كلهم آغاوات[٧]. وقد تم تأسيس هذه المخانق في نهاية القرن التاسع عشر؛ حيث كان التوت متواجداً بكثرة في هذه المنطقة، فنشطت تربية دودة الحرير في ذلك الوقت. كانت الشرانق توضع في جوارير خشبية ضمن بيوت خاصة ومحاطة من أسفلها بالخيش وهذه الجوارير متوضعة فوق بعضها البعض (من ١٠ إلى ١٥ جاروراً فوق بعضها البعض)، وتغلق عليها الأبواب الخشبية المحاطة باللباد. وتحت تلك البيوت يوضع (دست) أو وعاء كبير في ماء وتحته نار قوية حتى تصل الماء إلى درجة الغليان فيصعد منها البخار إلى تلك الجوارير وتستمر هذه العملية عدة ساعات. طول كل بيت ٥٠م وعرضه حوالي ٣ أمتار[٨].

بعد انتهاء عملية الخنق يتم تحريك الشرانق وتقليبها بواسطة عصا طويلة صباحاً ومساءً.

تنقل الشرانق وتوضع تحت خيمة كبيرة، وتجلس النساء أرضاً لفرز الشرانق الجيدة من غير الجيدة. ثم توضع الشرانق الصالحة ضمن شوالات للتسويق والتصدير إلى فرنسا. أما الشرانق غير الجيدة فتحل بالطريقة البدائية.

الصورة ١٢: تدوير الشللل على الدولاب



الصورة ٩: بعد عملية الخنق



الصورة ١٠: فرز الشرانق

في الخمسينات باع معظم أصحاب المخانق مخانقهم كخشب وخردة ..[٩]

توضع الشرانق في حوض كبير يحوي ماء مغلية، ويقوم الرجل الذي يحل هذه الشرانق بضربها بواسطة عصا طويلة. وعندها تبدأ أطراف الخيوط بالظهور، لتمر عبر فرضة ثم إلى بكرة متصلة بدولاب خشبي يعمل على تدويره صبي صغير أو فتاة أو سيدة. ولهذا الدولاب ٤ بكرات وبالتالي يمكن لف ٤ شلل عليه.



الصورة ١١: حل الشرانق يدوياً





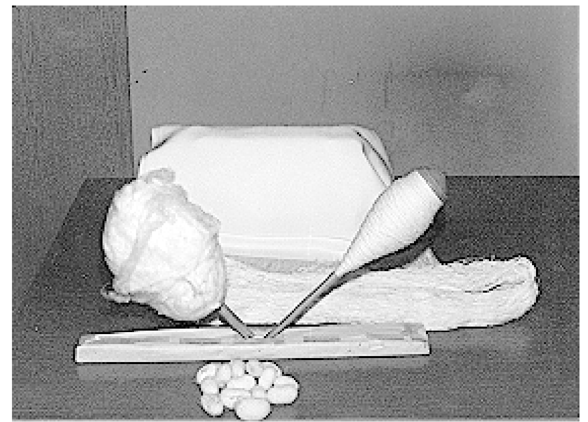
الصورة ١٣: غزل زغب الشرانق



تؤخذ أطراف الخيوط بالعصا من ٤٥ إلى ٦٠ شرنقة تقريباً.



الصورة ١٤: شلل الحرير الخام



الصورة ١٥: تلخيص لكل العمليات السابقة (شرانق ـ زغب ـ غزل ـ خيوط ـ نسيج)

صناعة الحرير الحالية في أنطاكية:

اشتهر الأرمن القاطنون في أنطاكية بصناعة النسيج اليدوي على الأنوال، وبالأخص صناعة الحرير.



الصورة ١٦: المنسوجات الحريرية المصنوعة في انطاكية



في بدايات هذا القرن، جاء الشيخ سلمان ابراهيم بدر بنول يدوي عربي ذي ٤ مداويس من حلب، ثم أخذ النجاران الأنطاكيان عبده دويكية وشعبان بن عبود تشنوك يصنعان منه، فانتشر في أنطاكية. ثم تم صنع أنوال ٦ مداويس و٨ مداويس.

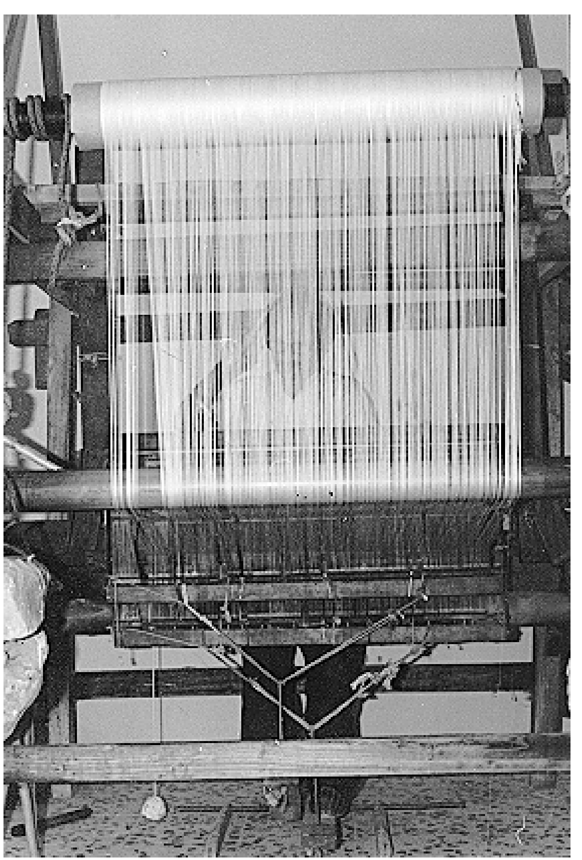


الصورة ١٧: لف الشلل على مواسير الطيّار.

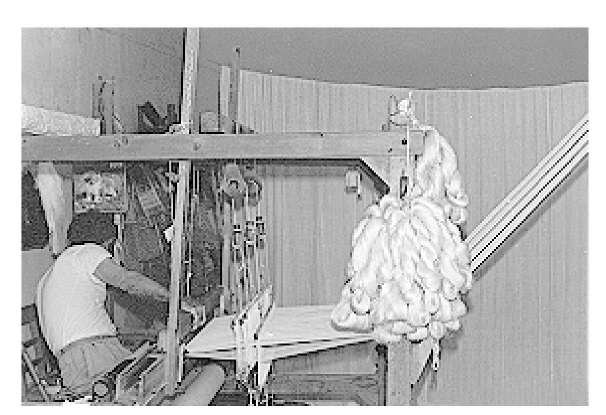
وفي بداية الثلاثينات أخذ كل من حنا عيرنجي وأديب عاشق صنعة الحرير من الأرمن وأسسا العمل في السويدية، ولهذا كانت شهرة الحرير للسويدية. تعلّم لدى حنا عيرنجي كل من سليمان أو سلو وصالح أو سلو ومحمد غريب (أرات) وشريف غريب (أرات) وهما ولدا شحود غريب (أرات).

بين عامي ١٩٣٢ و١٩٤٥ كان في أنطاكية حوالي ٢٥٠ شخصاً يعملون في حل الحرير بالطريقة البدائية، وكانوا يبيعون خيوط الحرير لحلب. ومنهم ذهب ٤ صناع لحل الحرير من الحربية إلى دارة عزة قرب حلب.

تنتشر الأنوال اليدوية والآلية في قرى أنطاكية، ويقال فيما مضى بأن أصوات الأنوال كانت تسمع في قرية الحربية عبرالمنطقة كلها عند هدوء الريح، وذلك لكثرة الذين كانوا يعملون في حياكة الحرير على النول اليدوي(١٠). في قرى أنطاكية، تصنع عدة أنسجة من الحرير الطبيعي ولا يقوم الصناع بصباغتها بالألوان، وإنما تبقى على لونها الأصلي وهو الأبيض السكري.



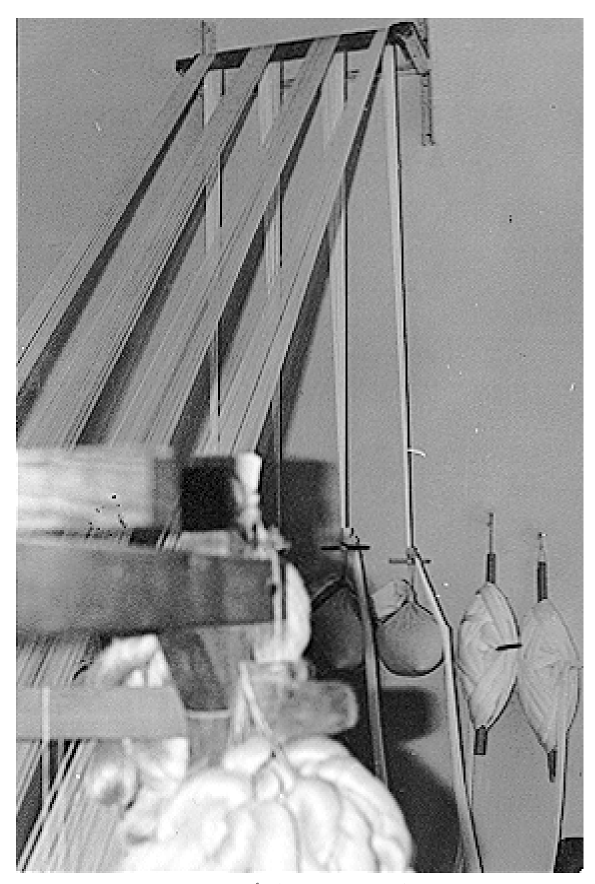
الصورة ١٨: نول يدوي ذو مدواسين



الصورة ٢٠: الحياكة على النول اليدوي.



الصورة ١٩: نول ذو ٤ مداويس



الصورة ٢١: شد خيوط السدى بواسطة أثقال

أما الأقمشة الحريرية التي تصنع اليوم وفي أنطاكية فهي عبارة عن أقمشة ثخينة تصلح لصنع (بدلات) للرجال والسيدات، وهناك أقمشة ناعمة ورقيقة تصلح للقمصان. تصنع القمصان الحريرية في أنطاكية من سدى ولحمة من

الخيوط الحريرية المحلولة عن ٤٠ شرنقة. كما يصنع نوعان من البزات، الأولى ثخينة محلولة عن ٦٠ أو ٨٠ شرنقة ومغزولة على المغزل في السدى واللحمة. والثانية لحمتها مغزولة وسداها من الحرير المحلول غير المغزول[١١].

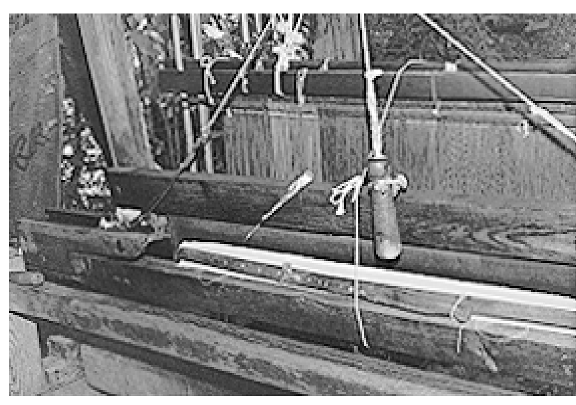
تغلى الشرانق غير الجيدة بالماء والصابون ويضاف إليها ماء منقوع فيه في اليوم السابق رماد الخشب المحروق (الصفوة)، إذ أن محلول الرماد يفيد الحرير في إضفاء الرونق على لونه الأصلي. بعد ذلك يجفف الحرير كما هو، تؤخذ أوباره وتجمع لتغزله السيدات على المغزل اليدوي ثم يؤخذ خيط المغزل ويلف على الطيار ليصبح على شكل شلة حريرية مغزولة ويوصل الطيار بالدولاب الخشبي حيث تكر هذه الشلة على مواسير. وقبل أن تكر على مواسير تغسل الشلل بالصابون والماء لِتطريتها. وتوضع المواسير في المكاكيك (المكوك) لتستخدم كخيوط للحمة.

وتبدأ الحياكة على نول ذي ٤ مداويس. عدد خيوط السدى لحياكة القمصان الحريرية ٥٨٠٠ خيط. عدد الغرامات في ١٠٠ سم، ١٢٦غ. عدد خيوط السدى لحياكة البزات الحريرية ذات الخيط المغزول ١٨٠٠خيط. عرض القماش ٨٠سم.

في اليوم الواحد يمكن للعامل الذي يعمل على النول اليدوي أن يحيك متراً ونصف المتر أو مترين على الأكثر. وفي أثناء الحياكة يقوم عامل النول بتطرية خيوط السدى وذلك بترطيبها بالماء.



الصورة ٢٢: الحياكة على النول اليدوي.



الصورة ٢٣: نول يدوي جرار

بعد انتهاء ثوب القماش من الحياكة، يوضع هذا القماش ليغلي في الماء والصابون ومحلول الرماد لمدة ساعة وربع في وعاء كبير، فيساعد ذلك على تطرية القماش ويجب تغطيس القماش بواسطة عصا في الماء. ويقوم أحد العمال بكي القماش عندما يكون رطباً وذلك بالمكواة اليدوية العادية[١٢].

وإلى الآن تصنع في أنطاكية ملاءات للأسرة عريضة (٤,٥م) مخططة بخيوط عريضة حريرية مغزولة وقطنية مغزولة أيضاً.

أسماء أقسام النول العربي اليدوي ذي المداويس:

المسداية: (أسطوانة خشبية في الأعلى يشد عليها السدى).

المعبر: (أسطوانة خشبية تحتها تماماً يشد عليها السدى).

المناورة أو المطواية: (أسطوانة خشبية بجانب الحائك تفيد في لف القماش المحاك).

النير: (وله عدة درءات).

المشط الكبير: (يضرب به الحائك لتجميع خيوط اللحمة على السدى).

الجرار: (حبل معلق يشد لتحريك المكوك).

المكوك: (فيه ماسورة خيط اللحمة).

الأثقال: (التي تشد خيوط السدى).

المداويس: (٢ و٤ و٦ وأكثر من ٨).

العصافير: (تشد الدرءات إلى أعلى وهي موصولة بالمداويس)[١٣].

مراحل تصنيع خيط الحرير:

١ـ الفتال: توضع الشلل على آلة الكبابة الكهربائية التي تحول الشلل إلى خيوط على بكرات خشبية وتسمى أيضاً آلة الكر. ثم تؤخذ هذه البكرات، وتوضع على آلة الزوي الكهربائية، وهي تجمع الخيوط من بكرتين أو أكثر على بكرة واحدة وتسمى المزواية. أي أن الخيط بعد عملية الزوي يصبح مثنى أو ثلاثياً أو رباعياً ... الخ.

ثم توضع هذه البكرات المزوية على آلة البرم أو الفتل، حيث تفتل هذه الخيوط الثنائية أو الثلاثية على بعضها البعض لتصبح على هيئة خيط واحد مبروم وقوي مما يمتن خيط الحرير.

تبرم عادة خيوط السدى حوالي ٤٠٠ أو ٥٠٠ برمة. أما خيوط الحدف أو اللحمة فتبرم أقل من ٢٥٠ برمة[١٥].

٢ـ المسدي: وهو الشخص المسؤول عن تحضير السدى أي الخيوط الطولانية للقماش. وبعد ذلك يرسلها إلى القصار الذي يقوم بعملية القصارة، والقصارة هي عبارة عن معالجة الحرير الخام بوضعه بحوض ماء يغلي مضاف إليه صابون ومادة الصودا (كربونات)؛ ويبقى الحرير في هذا الحوض لمدة ساعتين أو أكثر ثم يغسل بماء عادي ويعصر. وتصبح بعد ذلك شلل الحرير أكثر بياضاً ولمعاناً، حيث تزول عنها المادة الصمغية؛ وينقص وزن الحرير الطبيعي بعد هذه العملية حوالي ٢٥٪ من وزنه الأصلي.

٣ـ المزيّك: يأخذ شقة الحرير الطبيعي التي ستصبح خيوطاً للسدى من القصّار ويقوم بتغطيسها بالنشاء المحلول في الماء والمضاف إليه الصمغ المأخوذ من أشجار اللوزيات؛ تستمر عملية التغطيس حوالي ٥ دقائق فقط في هذه المواد، ثم تعصر شقة الحرير وبعد ذلك يقوم المزيك بلف الشقة على الملف الخشبي على شكل كرة متطاولة.

في الصباح الباكر، أي في الثالثة صباحاً، يذهب المزيك بصحبة كراته الحريرية إلى منطقة بعيدة عن العمار المدني وفيها جدار طويل. يغرس في هذا الجدار أخشاباً تسمى تعاليق، وذلك بشكل يتعامد مع الجدار، وتلك التعاليق لها بروزات خشبية أيضاً تشبه الأسنان. ثم يبدأ المزيك بنشر الشقة على طول الجدار، أي بطول حوالي ٦٠ متراً. ويكرر هذه العملية ذهاباً وإياباً حتى ينشر كل الخيوط الملفوفة على الملف. ثم يبدأ ما نسميه عملية

الصورة ٢٤: آلة الذوي

ينحصر الآن العمل في صناعة الحرير في أيدي عائلتين تقريباً هما عائلة غريب (أرات): شريف ومحمد. وعائلة عاشق (بويوك عاشق): أديب ـ حسن ـ مسعود ـ رفيق ـ سليمان ...

والصنعة في عائلة عاشق متوارثة أباً عن جد في تربية دودة الحرير ثم في حل خيوط الحرير وحتى في صباغة الحرير. يقوم السيد أديب (بويوك) العاشق بصباغة خيوط الحرير في بيته: حيث تبرم الخيوط المحلولة وغير المغزولة آلياً في السويدية على آلة البرم، أو يدوياً على آلة يدوية، ثم يتم تبييض الخيوط (عملية القصارة): وهي غسل الخيوط بالماء والصابون والصودا. ثم يضيف إليها السيد أديب مواد لتثبيت اللون وهي مادة الشبة أو قشر الرمان ويصبغها بالألوان الأخرى[١٤].


الصورة ٢٥: آلة البرم



البز وهي إبعاد الخيوط بعضها عن بعض بأصابعه، كي لا تلتصق ببعضها نتيجة عملية التغطيس أو التخشين.

يجب بدء عملية البز قبل شروق الشمس لأن حرارة الشمس تجعل الخيوط تلتصق ببعضها البعض.

تفيد عملية التغطيس أو التخشين في تقوية خيوط السدى وتمتينها، حيث أنها تتحمل ضربات المشط عليها عند تركيبها على النول. أما خيوط الحدف أو اللحمة فلا تحتاج لتخشين لأنها محمية في المكوك. بعد الجفاف التام، وانتهاء عملية البز، يعود المزيك فيلف خيوط السدى على الملف ويعود بها إلى المنزل.

٤ـ الملقي: كلمة تعني تشابك خيوط السدى مع النير، والملقي هو الذي يدخل خيوط السدى ضمن النير أو النيارة. وتعتمد هذه العملية على حسابات دقيقة جداً يراعى فيها عرض القماش وعدد خيوط السدى فيه.

ثم يبدأ دور عامل النول لحياكة قماش الحرير.

الرسم على الحرير:

في إسكندرونة، لم يبق أي أثر لصناعة الحرير، عدا الرسم اليدوي على الحرير الطبيعي وهناك مشغل للسيدة زينب باقي، وهي تعمل في الرسم اليدوي على الحرير وفي صباغة الحرير منذ ١٠ سنوات.

أما المواد الأولية، فهي أقمشة الحرير الطبيعي المحاكة في السويدية (أنطاكية) أو في اصطنبول وبورصة.

الصورة ٢٦: الرسم على الحرير



يتم في مشغل السيدة زينب باقي الرسم على مناديل وفساتين وأغطية ووسائد وملاءات للأسرة ولوحات للأطفال وربطات عنق وكلها من الحرير الصافي. أما ربطات العنق، فتتم صباغتها بالتغطيس بالألوان وليس بالرسم عليها بالفرشاة.

تسوّق السيدة زينب منتجاتها داخل تركية فقط، وهي في خطتها القادمة تنوي التصدير إلى أوروبة.

أهمية زراعة التوت في هذه المنطقة:

يعيش شجر التوت عادة بين خطي عرض ٣٠ و٤٢ ولذلك فبلادنا ملائمة لزراعته تماماً. وقد كانت زراعة التوت كثيفة في سلسلة الجبال الغربية السورية بشكل خاص وحتى أنطاكية وإسكندرونة. وزراعة التوت في بلادنا قديمة قدم التاريخ.

وأفضل شجرة لتغذية دودة الحرير هي شجرة التوت الذكر أو التي تحمل التوت الأبيض. ومن ميزات شجرة التوت أنها تعيش بعلاً ومروية، ويمكن فلاحتها مرة أو مرتين في السنة فقط، وتعيش ٥٠٠ سنة تقريباً.

في الأربعينات بدأت زراعة التفاح والموز في لبنان تطغى على زراعة التوت، فأخذ الفلاح يقطع أشجار التوت القوية والجبارة والمقاومة لكافة العوامل الطبيعية ويغرس بدلاً عنها التفاح، ووصلت عدوى زراعة التفاح إلى سورية وإلى كافة المناطق الغربية من سورية حتى أنطاكية.

وأخذ الفلاح يعتقد من خلال تجربته مع أشجار التوت وتربية دودة الحرير وخسارته فيها أن زراعة التفاح والخضار والحمضيات والقطن تعطي مردوداً أكبر من زراعة أشجار التوت وخاصة بعد هبوط أسعار مواسم الشرانق في الستينات. وهكذا، أصبحت شجرة التوت شيئاً فشيئاً شجرة هامشية تزرع على حدود الحقول وتستخدم للتظلل تحتها، واقتصرت زراعتها فقط على المناطق التي ما زالت تعتني بتربية دودة الحرير.

إلا أن مديرية الزراعة في أنطاكية الآن تحاول أن تعتني بدودة الحرير وبتربيتها وبتشجيع الفلاح على زراعة أشجار التوت بكثافة في تلك المنطقة، ولقد وصل إنتاج الشرانق في أنطاكية عام ١٩٩١ إلى ١٢ طناً؛ بينما كان عام ١٩٨٧ / ٢٥ طناً. وكل ٧كغ شرانق يعطي ١كغ من خيط الحرير الخام.

وأصبح موسم تربية دودة الحرير موسماً مربحاً للفلاح بعد أن كان موسماً فقيراً ومضنياً، حيث أن الدودة كانت تعاني من أمراض شتى. أما الآن فالدودة اليابانية المهجنة تقاوم الأمراض وعوامل الطبيعة ويمكن لموسم واحد وخلال ٤٠ يوماً فقط أن يعطي للفلاح المربي للدودة دخلاً كبيراً. ولذلك يتجه الآن بعض الفلاحين إلى العودة إلى زراعة أشجار التوت وتربية دودة القز من جديد.

وأخيراً تخضع المنتجات الحريرية في أنطاكية لقانون العرض والطلب في السوق المحلية، وهي ملك للقطاع الخاص.

إلا أن الأحداث السياسية العربية والدولية تؤثر على تصريف هذه المنتجات سلباً أو إيجاباً؛ فقد أثرت حرب الخليج سلباً عام ١٩٩١ على تصريف مثل هذه البضائع بشكل خاص وعلى التجارة بشكل عام.

ويتم في أنطاكية تسويق المنتجات الحريرية داخلياً في تركية بالبريد؛ حيث يرسل التاجر بعينات من إنتاجه وأسعار منتجاته إلى الموزعين ثم يرسل إليهم بالبريد ويستلم ثمنها بنفس الطريقة. ولقد تأثرت أسعار الحرير سلباً أيضاً في أنطاكية في أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١.

الحواشي:

(١) لقاء مع السيد مسعود العاشق (بويوك عاشق) في قرية يقطو التابعة لأنطاكية في تموز ١٩٩٢. ولقاء مع مرب آخر في السويدية (حزيران ١٩٩٢).

(٢) لقاء مع السيدة جاكلين صراف (صراف غيل) في أنطاكية في تموز ١٩٩٢ صاحب المخنق والدها ويدعى نيقولا صراف وابتدأ عام ١٩٢٩ عمله فعلياً في المخنق الذي أسسه والده عبد الله الصراف عام ١٨٩٠ في السويدية.

(٣)ـ ورد، نخلة ـ حضارة أنطاكية عبر العصور. مطبعة صفدي التجارية، ١٩٥٦.

(٤) Alep et la Syrie du Nord "*in* Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée, n. 62 1991-4" Parid: Edisud

(٥) Festugière (A.J.)- Antioche païenne et chrétienne, 1959.

(٦) Jacquot (Paul)- Antioche, centre de tourisme- Antioche; comité de tourisme, 1931 (3 tomes).

(٧) وحديث مع السيد منير الخوري في أنطاكية في تموز ١٩٩٢ في منزله حيث كان والده وعمه صاحبي مخنق آل الخوري في السويدية.

(٨) لقاء مع السيد جان بيلوني في السويدية (أنطاكية) ـ تموز ١٩٩٢.

(٩) لقاء مع السيد حسن (بويوك) عاشق في الحربية (أنطاكية) ـ تاجر وعامل على النول اليدوي ـ تموز ١٩٩٢.

(١٠) لقاء مع السيد رفيق (بويوك) عاشق في الحربية (أنطاكية) ـ تاجر وعامل على النول اليدوي ـ تموز ١٩٩٢.

(١١) لقاء مع السيد حسن (بويوك) عاشق ـ الحربية (أنطاكية) ـ تموز ١٩٩٢ (أخذ الصنعة عن والده علي عاشق وعن جده ابراهيم عاشق).

(١٢) لقاء مع السيدة أمينة العاشق، يقطو (أنطاكية) ـ تموز ١٩٩٢ (لها حوالي ٣٠ سنة وهي تغزل الحرير) وهي في الأصل من قرية تدعى عين جاموس.

(١٣) لقاء مع السيد سليمان العاشق، يقطو (أنطاكية) ـ يعمل على النول اليدوي ذي ٤ مداويس منذ ٥٥ سنة ويصنع قماش البزات الحريرية ـ تموز ١٩٩٢.

(١٤) لقاء مع السيد أديب العاشق في يقطو (أنطاكية) ـ تموز ١٩٩٢.

(١٥) لقاء مع السيدين شريف ومحمد غريب (أرات) في السويدية (أنطاكية) ـ حزيران ١٩٩٢ وتموز ١٩٩٢.

التغيرات المناخية وتطور المجتمعات البشرية في بلاد الشام مابين ١٨,٠٠٠ ـ ٦,٠٠٠ قبل الميلاد

پول سانلاڤيل

تعريب: يسرى الكجك

من الصعب إيجاد الروابط مابين التغيرات المناخية وتطور المجتمعات البشرية. ومع ذلك، فهذا سؤال، يستحق أن يكون مطروحاً في بلاد الشام، حيث يوجد دوماً تهديد بالجفاف. والفترة التي نتحدث عنها هنا مابين (١٧٫٠٠٠ و ٧٠٠٠ ق.م).هي من بين الأولويات المناسبة، لأنها عرفت تقلبات مناخية هامة وعنيفة، جرت عندما كان الناس لايزالون غير مهيئين بشكل كافٍ للوقاية منها، أو تعديل ظروفها، ولكن هذه التغيرات المناخية لعبت دوراً هاماً في تطور المجتمعات البشرية.

تسجيل نقاط التغيرات المناخية:

لدينا الآن عدد من المعطيات، حول التغيرات المناخية التي جرت قبيل انتهاء الدورة الجليدية الأخيرة، وحول أهميتها وتتابعها الزمني. فالعينات المأخوذة من المحيطيات، وبشكل خاص من الأطلسي الشمالي، وأيضاً من البحر المتوسط. تظهر بأن ثلاثة تغيرات مناخية، ترافقت مع اختلافات حادة في مستوى مياه البحر: مرحلة ارتفاع حراري ملحوظ، يوازي مانسميه في أوربة الشمالية الغربية، بعصر بولينغ والرود، الذي حدث في حوالي ١٣٫٠٠٠ ق.م، ومرحلة باردة وجافة، قد حدثت في حوالي ١٠٫٠٠٠ق.م، إنها درياس الحديث؛ وأخيراً في حوالي ١٠٫٠٠٠ق.م حدث ارتفاع حراري هام، يشير إلى بداية الهولوسن.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

هذه التغيرات، لها أهمية على الصعيد النباتي، وحبيبات الطلع التي جمعت من عينات التربة في حوض المتوسط الشرقي، قد أعطت في جنوب إيطالية واليونان صورة عن استيبس نصف ـ صحراوي مابين ٢٠٫٠٠٠ ـ ١٨٫٠٠٠ ق.م. ثم مابين ١٨٫٠٠٠ و ١٣٫٠٠٠ عن صحاري حقيقية، بنباتات شوكية. بعد تحسن واضح في الطقس في حوالي ١٣٫٠٠٠ ق.م، حدث جفاف تام مابين ١١٫٠٠٠ و ١٠٫٠٠٠ ق.م. ثم بدءاً من الألف العاشر، يعود الطقس للتحسن، ويلاحظ ذلك من خلال أشجار البلوط التي تصل لقمة انتشارها في حوالي ٨٧٠٠ ق.م. في مناخ حار ورطب صيفاً، ولطيف شتاءً، وتتكدس بشكل خاص مابين ٩٣٠٠ و ٨٠٠٠ في مناطق المتوسط الشرقية أنواع من الردميات، تشير إلى وجود مستنقعات كبيرة، هذه الردميات قد حمل بذورها هواء النيل، وغذتها مياه الأمطار والرياح الموسمية.

إن العينات المحيطية، التي تمثل مناطق ترسيب واسعة جداً، وتدل على بلورة المنحنيات البيانية قد أدت لاختفاء المؤشرات الضعيفة فيها، أو إلى حدوث اختلافات محتملة. فالميليمترات من غبار الطلع التي تم الحصول عليها من العينات المرفوعة من منخفضات البحيرات، قد سمحت لنا باتمام هذه اللوحة بدقة. ولكن التأريخ بالكربون ١٤، هو غالباً مايكون نادراً، قد تم انجازه ويتم إجراء جزء منه على حشرات معديات الأرجل، وهي دراسات كثيراً ماتكون غير ممكنة، وغالباً ماتعطي تأريخات أقدم. لذلك يجب

أخذ هذه النتائج بحذر . لأن حبيبات الطلع بشكل عام تعطي معلومات عن أحواض واسعة، ومتباينة الأصول (من جبال لبنان إلى الاستبس في الصحراء السورية، مع حمولات مختلفة بواسطة الهواء والماء في مناسبات مختلفة معقدة . تختلف هذه الحمولات فيما بينها، كما تختلف عن تلك التي في أحواض المحيطات، والترسيب لم يكن دوماً مستمراً ولامنتظماً (فالتنظيف، كان أحياناً واسعاً أو ضيقاً، بحسب تصريف المياه خلال بعض الفترات) . فهل سيكون بلا طائل، بناء تتابع زمني بناءاً على نسب الترسيب .

إن المنحنيات البيانية القديمة للمنخفضات المائية في المشرق العربي، ممكن أن تكون صحيحة فيما بينها، وذلك بفضل التأشير على ثلاث تغيرات شاملة، قد تمت على محاور تطابق مابين البلستوسين والهولوسن . بالنسبة للغاب مثلاً، فإن عودة الحر في عصر بولينغ والرود، يلاحظ بوضوح؛ ويتطابق مع مناطق حبيبات الطلع Y1 - 4 وفترة درياس الحديث الباردة، مع منطقة Y5، أماعودة الحر في الهولوسن، فتتطابق مع Z1–2– التي عادت للظهور في Q (نباتات Capinus - olea - Pistacia - Calliprinos) إنها تماماً كما كانت في توصيات الباحث روزينول ستريك (Rossignol - Strick, 1913) وعكس ماقاله علماء نبات آخرون كبروش وبوتما (Baruch et Bottema, 1991) . الذين ـ ليكونوا أكثر جدية ـ اعتمدوا على دراسات الكربون المشع، الذي أوضح بأن تطوراً هاماً كان للأشجار خلال عصر درياس الحديث (شكل٣) . وبالرغم من أن التأريخات أكثر عدداً لكنها أقل وضوحاً بكثير بالنسبة لبحيرة الحولة .فمرحلة بولينغ ـ الرود تظهر بالعينات من ١٢ـ ٢٤ . ودرياس الحديث بالعينات من ٢٥ ـ ٢٦ . أما درياس الحديث، فقد كان أقل حدة من الغاب . ومن المدهش بأن الترفق الحراري الذي جرى بعد العصر الجليدي الأخير، يظهر بوضوح أكثر من الهولوسن .

لدراسة التطور المناخي في منطقة بلاد الشام مابين ١٧٠٠٠ و٧٠٠٠ق.م . لدينا ولحسن الحظ، معطيات أخرى حول البيئة القديمة (شكل٣)، بعض منها ستراتوغرافية والبعض الآخر جيومورفولوجية، قدمتها سويات المنخفضات من البحيرات المغلقة، وبخاصة البحر الميت (فيما يخص البيئة، فهي بشكل عام نفسها، إذ لعبت بنية السطح دوراً هاماً بتشكل الكثبان، التي تلاشت محتوياتها، وتوضع مكانها الطمي وسويات من الغرانيت، أو على العكس تحزيزات، وذلك بحسب طبيعة الأرض . . .الخ) .

شكل آخر من المخلفات يجب أن يفسر بحذر، إذ هل يشير امتلاء الوديان إلى ارتفاع في الرطوبة، ولوجود تغذية مائية أفضل، أو على العكس، يدل على الجفاف (حيث تدمر الغطاء النباتي، وتنشط الحت على الحواف)؟ بالنسبة إلى كولدبيرج وباريوسف (Coldberg et Bar - Yosef, 1982)، فإن التوضعات النهرية والبحرية، تشير إلى السويات الرطبة، والتوضعات الأخرى تتراكم في فترات الجفاف . أما التحزيزات فتحدث في فترات الجفاف، وهي ترتبط أكثر بالمواقع الأثرية . أما المعطيات الأخرى التي يحويها السجل النباتي والحيواني؛ والتي يؤثر الإنسان في اضطراباتها بشكل كبير، فيجب أخذها بحذر أيضاً . وإن كانت تتميز بأنها، بشكل عام، ممكنة التأريخ بشكل ممتاز . وعند الحصول على هذه المعطيات، يمكننا إعادة تشكيل المحيط البيئي القديم .

إن المجال الجغرافي، موضوع البحث محدد، لكنه معقد (شكل١)، وهو يوضح سويتان من الدرجات المطرية . فهي مرة وفق خطوط العرض، حيث تتناقص المعطيات بسرعة من الشمال إلى الجنوب . ومرة وفق خطوط الطول (بحسب الموقع القاري)، ومع حدوث اضطرابات هامة بسبب المرتفعات (شكل٢) .

إن وضع احتمالات حول السويات الرطبة، يتعلق بالسويات العليا من البحيرات وبشكل خاص البحر الميت (يشهد على ذلك وجود الكلس من الطباشير ـ أو الجير) . كما أن وجود الأرضيات، وتطور الأنواع الحيوانية المنسجمة مع الوسط الغني بالأشجار، وبخاصة البلوط، هي ميزات أخرى، يمكن الاعتماد عليها . كما يمكننا دراسة الحت والترسيب، (وإن كانت دراسة معطياتها أكثر صعوبة)، حيث تتوضع المخلفات في مكانها، في بداية فترات الجفاف، وكذلك الأرضيات السيلية . وحتى أكثر الفترات جفافاً، يمكن التعرف عليها، وذلك بفضل الانحسار الواضح لمستوى البحيرات . ومن التشكيلات النباتية للاستبس والصحراء، أو الكثبان، أو من التبخر أو من العينات الجصية، والغرين الذي هو أكثر تمثيلاً للسويات الوسيطة .

الأطوار المناخية الكبرى:

إذا بحثنا في مختلف المعطيات المتوفرة لدينا، يمكننا أن نؤكد بأنه مابين ١٧,٠٠٠ و٧٠٠٠ ق.م. مرت مناطق المشرق العربي، بعدة أطوار مناخية واضحة بشكل جيد (شكل٣ و٤).

١. أقصى درجات البرودة:

مابعد فترة رطبة جداً ما بين ٣٥,٠٠٠ و٢٥,٠٠٠ ق.م. عرفت مناطق المشرق العربي الجنوبية هبوطاً في هذه الرطوبة حتى ٢٢,٠٠٠ ق.م، ثم تلتها فترة واضحة الجفاف مابين ٢٢,٠٠٠ و١٨,٠٠٠ ق.م. مابين ١٨,٠٠٠ و١٤,٥٠٠ ق.م كانت المناطق الواقعة إلى الشمال من فلسطين أكثر رطوبة. أما مناطق الجنوب، فقد بقيت جافة. ويلاحظ ذلك من وجود سوية باردة وجافة في مستوى منخفض من البحر الميت.

في الواقع، توضعت حتى حوالي ١٥,٠٠٠ ق.م، سويتان واضحتان منخفضتان في البحر الميت. أولاهما في حوالي ٢٣,٠٠٠، وثانيهما مابين ١٨,٠٠٠ و١٥,٠٠٠ ق.م، وهما تشيران إلى حدوث انخفاض في مياه البحر الميت مابين ١٨,٠٠٠ و١٦,٠٠٠ ق.م.

تدنى الغطاء النباتي كثيراً في مناطق بلاد الشام في هذه المرحلة، وسيطرت عليه النباتات القصيرة، وأما الأشجار فلم تكن تمثل أكثر من ٢٠٪ من حبيبات غبار الطلع. ونحن وإن كنا نفتقد إلى تأريخ نباتات الغاب، لكن العينة الطلعية ×٣ (تدل على أقل من ٢٠٪ أشجار) وهي يمكن أن تنطبق على هذه المرحلة. لوحظت مرحلة باردة وجافة في النقب، بعد فترة تراكمات طمية استمرت حتى ٢٣,٠٠٠ ق.م. دلت عليها مواقع الباليوليت الأعلى، حيث تبدأ فترة حت تدل على طقس جاف. في مواقع كبارية، نجد للمرة الأولى في فلسطين، قوارض قادمة من الجزيرة العربية، والصحراء، متكيفة مع البيئات الجافة. في الجديدة ٢٦، في جنوب الأردن ما بين ٢٠,٠٠٠ و٧٠٠٠ ق.م: نباتات رجل الأوز، وفيرة جداً وتصل ٨٠٪ عند القاعدة وبشكل خاص الأتربلكس (Atriplex)، وهي تدل على بيئة الاستبس البارد؛ بعد ذلك تزداد نسبة نبات النوايا (Noaea) والنجليات كذلك. وفي حوالي ١٧,٠٠٠ق.م. ينمو نبات الاسبرنسس (Ithaburensis) في الجديدة 505، وفي غرب الموشابي تتوضع أرضيات حمراء خلال الباليوليت الأخير، وتتوضع المستحاثات تحت الكثبان الرملية.

في وضع عام بارد وجاف، يمكن أن نتحدث عن فترات هي أكثر رطوبة، وقد لوحظ ذلك من خلال دراسة الأرضيات، مابين ٢١,٠٠٠ و١٩,٠٠٠ عام ق.م. في منطقة الأزرق مابين ١٨,٠٠٠ - ١٧,٠٠٠ ق.م، في كل من جبل حجار ونهر صقر. حتى في منطقة وادي عياد بالقرب من تدمر، توجد توضعات غرينية عضوية، في المصطبة المؤرخة بـ ١٨,٩٠٠ ±٢٠٠ و١٩,٤١٠±١٥٠ق.م.

٢. الترفق الحراري في نهاية العصر الجليدي

مابين ١٥,٠٠٠ و١١,٠٠٠ ق.م، حدث ماهو معاكس، إذ شهدت المنطقة مناخاً حاراً ورطباً، نمت فيه الأشجار، بشكل خاص البلوط. بينما تراجعت الأرطماسية ورجل الأوز؛ وكما ارتفع مستوى البحر الميت بشكل كبير. من خلال الأرضيات التي تكونت، والمواقع الأثرية، والبقايا النباتية والحيوانية، يمكننا القول بأن المناخ كان رطباً وحاراً. ومع ذلك، فإن هذه الفترة، لم تكن رطبة دوماً، لكنها أيضاً عرفت العودة للجفاف، وربما للبرودة نسبياً في حوالي ١٣,٠٠٠ – ١٢,٠٠٠ ق.م.

في الحولة، بدءاً من ١٥,٠٠٠ ق.م، تعود اللوزيات، وترتفع نسبة الأشجار بسرعة كبيرة إلى أن تصل إلى ٥٠٪. ويرتفع مستوى البحر الميت حتى ١٨٠م، أو إلى ٢٠٠ م أكثر من ارتفاعه الحالي. مابين ١٥,٠٠٠ و١٣,٠٠٠ ق.م. خلال العصر الكباري الهندسي حدثت على الأرجح هطولات موسمية، توضعت مخلفاتها حتى في النقب. مثلاً في قادش برانيا وبكرتشيت. كما في سيناء، بما في ذلك وادي خيرات، وحتى وادي مشابي. كان الرمل آخر توضعات السوية السابقة، ووصلت سماكته حتى ٨-١٠م. وكذلك مخلفات من الطمي، اعتبرت بحيرية أو مستنقعية، تؤرخ من ١٤,٠٠٠ – ١٢,٠٠٠ ق.م، وذلك من خلال مخلفات موقع المشابي ١٤.

في شمال النقب، تشهد عدة أرضيات قديمة على ترسيب، هو أعلى بكثير مما هو عليه اليوم. تؤرخ الأرضيات الأحدث منها بـ ١٥,٠٠٠ - ١١,٠٠٠ق.م. ويتوضع على المواقع الكبارية كبيسامون، وبئر سبع الممتد من الكباري

الهندسي، حتى النيوليت ما قبل الفخار ب PPNB، وذلك بتأريخ الكربون ١٢ و١٣ لتسعة مواقع مختارة، حيث يشير الباحثون إلى أن الكربون ١٣ يقل باتجاه الشمال: وبذلك يبدو أن التيار المطري، كان له نفس التوجيه الذي هو في عصرنا الحالي. فالأمطار تأتي من المناطق المرتفعة الحرارة، وليس من المناطق المدارية.

في فرعال ٨ في وادي الأردن الأسفل، نسبة ١٣٪ من الأشجار المختلفة، والشجيرات. أما نباتات رجل الأوز فهي نادرة، وتتغذى عليها الوعول.

في جنوب الأردن، في القصبة، كانت الأشجار تشكل حوالي ٨٪ في حوالي ١٥٫٠٠٠ ق.م، ثم ترتفع نسبتها حتى ٢٠٪، خلال هذه المرحلة من التحسن المناخي، التي تمتد من ١٥٫٠٠٠ حتى ١١٫٠٠٠ق.م. يعود الجفاف والبرد من جديد، والقياسات التي أجريت في الحولة، العينة ٢٠، وبشكل خاص في الغاب (منطقة Y٣ حيث أكثر من 30٪ أشجار). ويظهر بشكل مقتضب تراجع بسيط في الغابات (بعد فترة نموها الأعلى). يمكننا تحديد زمنها بدقة. وذلك من خلال الأدلة التي حصلنا عليها من بعض المواقع الأثرية، حيث الأشجار تقل بشكل واضح، أو حتى تختفي. كالسوية E من مصطبة هايونيم (نطوفي قديم)، حيث تظهر كثافة كبيرة بالأشجار، وفقر كبير بالأعشاب، إذ تبلغ نسبتها ٨٠٪ وهي في معظمها مكونة من لسانيات الزهر).

في السامرا ٢، في جنوب الأردن، في حوالي ١٢٫٠٠٠ق.م. تسيطر أشجار تدل على وجود برد وجفاف. ومن جهة أخرى، في حوالي ١٢٫٠٠٠ ق.م، يلاحظ انخفاض في مياه البحر الميت إلى درجة تمكن نطوفيون قدماء معها من تأسيس موقع أريحا ، الذي يبعد فقط ٢٥٠م عنه.

فيما بعد تعود الشروط المناخية للتحسن من جديد، في الحولة العينة ٢١ (تؤرخ بـ ١١٫٥٤٠ ± ١٠٠ق.م). وتمتاز بوجود عينات تحوي على ٧٥٪ من الأشجار، وتزيد عن ٦٠٪ في المنطقة 4Y من الغاب.

في هايونيم في ٩٩٧٠ق.م، تتنوع الأشجار أيضاً (بشكل أساسي بلوط، لوزيات). في الصليبية١٢، تشكل الأشجار ٧٫٥٪، وهي بشكل أساسي أشجار متوسطية كالبلوط والزيتون والآس. في روش زين (النقب)، شكلت الأشجار ٧٪ فقط، كما وجدت الأيائل، ودلت على أنه من بين القوارض الفلسطينية، المكروتوس (Microtus) الذي تأقلم مع المناطق المفتوحة، ويقل بشكل كبير في المناطق العشبية.

في هايونيم، تشكل القوارض ٥٠٪ من الثدييات، ويلاحظ وجود معديات الأرجل التي تعيش اليوم في المناطق المغطاة بـ ٥٠٠مم من الرواسب. في غرب الحمة، كان الغطاء الغابي كبيراً في حوالي ١٢٫٠٠٠ ق.م، عثر على مايدل على وجود عدد كبير من أنوع الأشجار الغابية، وتصطاد الأبقار في السامرا II، حيث تنمو أشجار البلوط، والنباتات المائية. ومن جهة أخرى، فإن البحيرات قد تشكلت في النقب خلف حواجز من الكثبان. إن الرواسب البحرية والنهرية كثيرة في أواسط بلاد الشام، وطمي البحيرات يدل على أنها قد انفصلت عن البحر الميت بعد تراجعه. إن بحيرة بيسان، قد ارتفعت إلى الشط حتى ١٢٠م. بينما قاع المنخفض الحالي اليوم ٢١٠ م. مع ذلك فإن ارتفاع البحر الميت يزداد كثيراً، ربما لأن هذه الفترة كانت قياسياً قصيرة، حيث أن ارتفاع الحرارة، قد زاد من سرعة التبخر.

في شمال المشرق العربي، وخلال السوية IA (١١٫٥٠٠ ـ ١١٫٠٠٠ق.م) كان سكان أبي هريرة من الصيادين ـ الجامعين. وقد جمعوا الحبوب البرية (قمح ـ شعير)، والفواكه كالخوخ والأجاص والزعرور، وهي تدل على غابة متوسطية، وكذلك البلوط والورديات، التي كانت منتشرة أكثر بكثير باتجاه الشرق، مما هي عليه اليوم. مما يدل على أنه مابين ١٢٫٠٠٠ ـ ١١٫٠٠٠ ق.م. كانت الحرارة أدنى بحوالي ٢ ـ ٣°، من أيامنا هذه.

وبهذا فإنه بعد فترة جافة جداً، وباردة جداً، خلال المرحلة الأخيرة من العصر الجليدي الأخير (تتابعها الزمني لازال غير دقيق)، عرفت منطقة بلاد الشام، في حوالي ١٥٫٠٠٠ق.م تحسناً جذرياً في المناخ، ورواسب أكثر ارتفاعاً أحاطت بنمو الغابات، وتراجعت نباتات الاستبس. آخر حلقة من الحرارة والرطوبة، تعاصر تماماً الرود في أوربة الشمالية الغربية. من جهة أخرى، فإن السويات السابقة لعودة الدفء هي أطول بقليل مما يمكننا وصفه بين ١٥٫٠٠٠ و١٣٫٠٠٠ق.م. وهي تسبق بشكل واضح عصر بولينغ الأوربي.

وتعاصر تقريباً عصر درياس القديم الأوربي. وتبدأ بشكل واضح قبل عودة الدفء مابعد الجليدي، الملاحظ في عينات بانوك Gc) ٨٤٠٩)، بشكل أكيد، وقبل ماقاله فلبون وستيك اللذان أرخاها بـ ١٤٢٠٠ق.م. وإذا لم تؤرخ عودة البرودة مابين الفترات بدقة، فإنه يبدو لنا ذلك مؤكداً في بلاد الشام.

٣. الطور البارد الجاف لدرياس الحديث

خلال آلف سنة تقريباً، مابين ١١٫٠٠٠ و ١٠٫٠٠٠ ق.م، تعرضت منطقة المشرق العربي لفترة برود وجفاف شديدين، وهي توازي عصر درياس الحديث. حدث شمل الكوكب، وتأثرت به المناطق المرتفعة جداً، كما المناطق المدارية. وبالطبع منطقة المتوسط، حيث انخفض مستوى البحر الميت بشكل كبير، وحتى حوالي ٧٠٠م، تقريباً مابين ١١٫٠٠٠ و ١٠٫٥٠٠ ق.م، ثم يعود للارتفاع حتى ٤٠٠م (مستواه الحالي). في حوالي ١٠٫٠٠٠ ق.م. في النقب تتحول البحيرات المغلقة إلى سبخات، مثال نهال سكار، ويتوضع الجص، والكربونات (يؤرخ بـ ١٠٫٣٠٠ ق.م) الغنية بـ O_{18}. ومعديات الأرجل ذات الحجم الصغير البرية، تؤكد وجود جفاف، في منطقة النقب مابين ١١٫٠٠٠ و ١٠٫٠٠٠ق.م.

هذه الطبقة تلاحظ بشكل أقل في الحولة (لاتختفي اللوزيات، بينما تنخفض نسبة عدد الأشجار، بشكل قوي حتى ٢٥٪)، ولكنها واضحة جداً في العينة Y5 من الغاب، والتي يرجح روزينول ـ ستريك ١٩٩٣ (Rossignol - Strick)، بأن هذا له علاقة بدرياس الحديث، حيث تهبط نسبة الطلع الشجرية إلى ٢٠٪، بينما الأرطماسية ورجل الأوز تصل إلى مابين ٢٥ ـ ٣٠٪.

في هذه الفترة يلاحظ الجفاف في الصليبية I وIX، مزائيل IV، والملاحة وهاينونيم B وC، الخيام 5؛ حيث تهبط نسبة الأشجار بشكل حاد، أو تختفي كلياً، وتغيب المائيات، بينما تنتشر نباتات رجل الأوز بكثافة كبيرة (تصل حتى ٨٠٪)، والأرض هي استبسية تماماً. وبذلك فلا تظهر الأشجار في الخيام، وتختفي النباتات المائية من هايونيم B وC، ولا تمثل السناجب أكثر من ٢٨٪ من الثدييات، حتى الكلاب تغدو نادرة. في مزرائيل IV، تهبط نسبة الأشجار إلى مابين ٤ و٥٪. أما الصليبية IX، فإن الأشجار مفقودة، وترتفع نسبة رجل الأوز إلى ٩٠٪. في روش زين تحتل نباتات رجل الأوز نسبة ٥٣٪، والأنواع الأخرى ١٦٪. سوية من التراكمات تلاحظ في بعض المواقع النطوفية، ويمكننا تفسيرها بجفاف مفاجئ، يمكن أن يكون قد دمر النباتات، وأضعف الأرضيات، كما في عين الملاحة في السويات النطوفية الحديثة، حيث ترتفع تراكمات الحصى الغنية بالآثار النطوفية الأخيرة. في البيضا، قد تغطت السويات النطوفية بـ ٥٫١م من الترسبات التي تحتوي على موقع من النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB. مصطبة من الرمال الناعمة والطمي توضعت في وادي الحسا في الأردن، وعلى أحد أفرعه، في وادي أحمر وفي طبقا، على بعد ٨٠كم شمال البيضا، وهي مصطبة لمحطة نطوفية.

يعتبر أبو هريرة، الموقع الوحيد في المشرق العربي من عصر درياس الحديث، توضح التغيرات البيئية الهامة، التي أرخت بشكل جيد، وبفضل عدة تأريخات لـ AMS، اسندت التغيرات إلى البرودة والجفاف.

بدءاً من ١١٫٠٠٠ ق.م، تختفي الفواكه، ويتركز الغذاء على الحبوب البرية، والحبوب العشبية، ثم في حوالي ١٠٫٦٠٠ ق.م، وحتى هجر الموقع، في حوالي الألف العاشر، يتوقف جمع النباتات العشبية وتتراجع الحبوب بشكل كبير، وكذلك مجموعة من الأنواع العشبية. بينما يزداد استهلاك الخضار ذات الحبوب الصغيرة التي تأقلمت مع الجفاف.

٤. الهولوسين المثالي

بعد فترة درياس الحديث، الجافة والباردة، توضح دراسات عينات غبار الطلع مابين ٩٫٠٠٠ و ٦٫٠٠٠ق.م. وجود فترة تمتاز بعودة اللوزيات التي تدل على شتاء لطيف. في حوالي ٨٫٠٠٠ ق.م. وعلى امتداد أربعة قرون، تتراجع أشجار البلوط، بينما تزداد الأرطماسية، وتختفي اللوزيات بشكل مؤقت، وذلك على الأرجح بسبب شتاء أكثر برودة، وصيف أكثر جفافاً.

في بداية الهولوسن، عرفت مناطق بلاد الشام، ارتفاع حرارة سريع رافقها ارتفاع بسيط في الترسيب. ومن المستغرب بأن هذه المرحلة تظهر بشكل سيء في عينات الحولة: فحبيبات طلع الأشجار تصل بصعوبة إلى ٤٥٪،

لتهبط بسرعة بعد ذلك إلى ٣٠٪، وذلك يعني أنه أدنى بكثير مما كانت عليه في بولينغ الرود. إن معطيات الغاب أكثر وفرة، فالأشجار تنمو بسرعة لتصل في Z1 و Z2 لحوالي ٨٠٪ (أكثر بشكل واضح من فترة بولينغ الرود)، بنسبة من ٤ / ٥ من البلوط. ويترجم ارتفاع درجة الحرارة بزيادة عدد أشجار الزيتون واللوزيات. يعزى تراجع الأشجار، وبشكل خاص اللوزيات، إلى تراجع في المناخ، لم يؤرخ بدقة، ولكنه من الممكن أن يشير إلى فترة أكثر برودة وجفافاً، قد أشار إليه تنجافلبون (Tenaghiphilippon) في حوالي الألف الثامن، حيث تزداد نسبة أشجار اللوزيات، ولكن دون أن تبلغ النسبة السابقة، بالإضافة لزيادة واضحة في الصنوبريات. ويرتفع مستوى البحر الميت، من خلال ملاحظتنا لبقايا الفقاريات، كما أن جزء من مياهه كانت مستنقعية مابين ١٠,٠٠٠ و٨,٥٠٠ ق.م. مع هذا فإن وجود حزوز على سطح الأحجار التي عثر عليها في المواقع الأثرية الموجودة إلى الشمال من البحر الميت،يشير إلى وجود مناخ أكثر أمطاراً بقليل من الوقت الحاضر.

إن معطيات النباتات القديمة في المشرق العربي، تظهر مرحلة أمطار وفيرة كانت في بداية الخيامية، وانتشرت في مرحلة السلطانية. غور الأردن مثلاً، امتاز عموماً بشروط مناسبة: في نطيف هكدود، كما في الجليل.حيث النباتات المائية وفيرة، واصطيد الوعل والأبقار، وترتفع نسبة طلعيات الأشجار إلى ١٨٪ (في المرحلة الخيامية). في صليبية IX، لاتمثل نباتات رجل الأوز أكثر من ٨٪، من كل حبيبات الطلع، و٢١٪ في السلطانية، وناتيف هاكدود. في نفس هذه المنطقة، لاحظ شولدنراين وغولد برغ (Schuldenreinet Goldberg)، مابين ١٠,٠٠٠ و٨,٠٠٠ ق.م، وجود ترسيبات طمية هامة، لايمكن أن يسببها إلا وجود الرطوبة، وقد ساهمت في تكوين أرضيات كلسية، هنا ترتفع حبيبات طلع الأشجار إلى ٩٥٪، وقد كانت تعيش الأراخص في هور هاريشا والنقب.

ما بعد ٩,٠٠٠ ق.م، يبدو أن الشروط هي أفضل، على الأقل في مناطق المروج الصحراوية. فإن لم يبدو غريباً، العثور على الأراحض في عين غزال قرب عمان، فإننا نجدها أيضاً في منخفضات الأزرق، والبيضا وناحال دنشون في النقب، والوعل أيضاً موجود في أوجرات ميهاد وفي طبيق في سيناء، حيث كانت الرطوبة كافية في عمق الوادي لتعيش أسماك القط، ودجاج السلطان، وطيور الماء غير المهاجرة. فيما بعد، في حوالي ٨٨٠٠ - ٨٥٠٠ ق.م، يزرع القمح والشعير حول جيلات V، في منطقة الأزرق. إن تحليل البقايا المتحجرة للماعز المأخوذة من ملجأ، تشير إلى النيوليت القديم، وكذلك في صحراء الجليل، وعلى المنحدرات التي تطل على غور البحر الميت، هنا حيث لايهطل حالياً أكثر من ١٠٠مم من الأمطار سنوياً. كانت رجل الأوز قليلة هنا، وبالمقابل فقد كان ينمو البلوط والصفصاف، وكذلك النباتات المائية والجرمانيا من نوع (Cerealia).

بالنسبة إلى بلاد الشام الشمالية، فإن المعطيات تبعاً لآراء وراء الباحثين متباينة، فبينما يعتبر بوتيما (Bottema)، بأن الجزيرة السورية، (حيث يسيطر استبس الأرطماسية) كانت جافة أكثر بكثير مما هي عليه اليوم، إذ من المؤكد بالنسبة له بأن الحرارة كانت مرتفعة في الهولوسن، بالنسبة للفترات التي سبقتها، ولكن بدون ارتفاع في التوضعات، بينما كانت بلاد الشام الجنوبية أكثر رطوبة، وذلك بفضل الأمطار الموسمية، وقد كانت السطيحات أكثر جفافاً، مقارنة مع الحقول الجافة. وفي وادي البليخ ربما كانت زراعة الحبوب مروية، أو على الأقل كانت الأراضي لحقبة رطبة، بينما يتساءل أكرمانس (Akkermans)، إذا لم يكن العكس، أي أن المناخ أكثر رطوبة في الألف الثامن ق.م، وكان وادي البليخ مستنقعي، بشكل أو بآخر.

التغيرات المناخية وتطور المجتمعات البشرية

لاحظنا أن المناخ قد حدثت فيه تغيرات مابين ١٧,٠٠٠ و٧٠٠٠ ق.م. وهي غالباً ماكانت تغيرات هامة وعميقة. وعلى مايبدو، فقد كانت متزامنة في شمال وجنوب بلاد الشام. بالرغم من أن المعطيات في القسم الشمالي لازالت مقتضبة، مع ذلك فإننا لاحظنا بأن الأطوار المناخية، والأطوار الاجتماعية للسكان في مناطق المشرق العربي، لم يكن لها أية علاقة مع احتمالات الاعاقة المناخية، حيث أن تراجعاً ما، لايعني احتمال وجود روابط معقدة له، إذ أن هناك دوماً فترة كمون، حتى النباتات في الطبيعة، تحتاج إلى وقت لتتأقلم (في سياق قرن؟)، مع التغيرات المناخية، فهو لم يكن إلا تأخيراً فقط، ليستطيع الناس التأقلم مع التغيرات المناخية للوسط. لمتابعة هذا التسلسل بشكل أفضل، يجب وضعه في اطاره الزمني الدقيق، في السنوات المتتابعة.

في الواقع؛ تمتد التأريخات المعروفة بشكل بسيط، فبالنسبة للعصر الكباري الهندسي (٢٨٠٠ سنة عوضاً عن ٢٢٠٠سنة)، وأيضاً العصر ما بعد النيولتي (١٥٠٠ بدل ١١٠٠سنة)؛ وكذلك تمتد فترة البرودة، وخاصة درياس الحديث (١٤٠٠ سنة عوضاً عن ٨٠٠سنة فيما قبل التاريخ). كولدبيرج وباريوسف (Goldberg et Bar yosef)، قد أشارا، منذ فترة طويلة إلى التطابق مابين الترسيب والحيز المكاني للمواقع، والتغيرات في المظاهر الطبيعية الملاحظة في تعاقب الحت والترسيب. وإذا حاولنا معرفة كيف توضعت الأطوار الحضارية في أماكنها بالمقارنة مع التغيرات المناخية القديمة، نستطيع التوصل إلى مايلي: الكباري (١٩,٠٠٠ - ١٤٥٠٠ق.م أو ٢٠,٠٠٠ ـ ١٥,٥٠٠ ق.م)، حيث المواقع قليلة العدد، وتعاصر فترات برد وجفاف في نهاية عصر جليدي. الكباري الهندسي (١٤,٥٠٠ ـ ١٢,٥٠٠ ق.م أو ١٥,٥٠٠ - ١٢,٧٠٠ق.م). يزداد عدد المواقع الأثرية وامتدادها، أبعد بكثير من مناطق المزروعات المطرية الحالية، ويتزامن مع جزء هام من طور التحسن المناخي (١٥,٠٠٠ ـ ١٣,٠٠٠ أو ٢٠,٠٠٠ ـ ١٥,٥٠٠ ق.م). النطوفي الذي يظهر فيه الاستقرار (١٢,٥٠٠ ـ ١٣,٣٠٠ أو ١٢,٧٠٠- ٩٨٠٠ ق.م). وهي تغطي بالمقابل فترة أكثر تغايراً: جوهرياً، هي توازي فترة حارة، وتتميز بنمو ملاحظ للأشجار في الرود ١٢٠٠٠-١١,٠٠٠ أو ١٣,٥٠٠ ـ ١٢,٠٠٠ ق.م)، حيث المواقع عديدة وممتدة على مناطق واسعة. ولكنه يبدو واضحاً بأن بداياته (النطوفي القديم)، تتوضع في طور تداخل مناخي مابين (١٣,٠٠٠ و ١٢,٠٠٠ أو ١٣,٥٠٠ و ١٢,٠٠٠ق.م). بينما نهاياته (النطوفي الأخير، الهارتفي) فهو يمتد في الطور البارد والجاف لدرياس الأخير، الذي شهد التخلي عن العديد من المواقع وتراجع سكانها إلى المناطق الأقل ملاءمة. أبو هريرة،أريحا، البيضا، قدهجرت أيضاً، وكذلك الأزرق والكوم لحوالي ألف سنة فقط.

العصر الحجري الحديث ماقبل الفخاري آ (العصر ما بعد النيولتي) الممتد (١٠,٣٠٠ ـ ٩٢٠٠ أو ٩٨٠٠ـ ٨٣٠٠ ق.م). لم يكن في بداياته إذاً، عصر درياس الحديث، وقد انتهى (الخيامية). ولكن فيما بعد حصل تحسن مناخي، ويصل إلى ذروته في النيوليتي ما قبل الفخار آ PPNA (٩,٢٠٠ ـ ٨٠٠٠ أو ٩٨٠٠ - ٦٩٠٠ ق.م). إنها إذاً المواقع الأكثر عدداً، ولكن نهاية النيولتي ما قبل الفخاري ب PPNB (الـ PPNC) كما اعتبره رولفنسون ٨,٠٠٠ ـ ٧,٥٠٠ أو ٩٠٠ ,٦ ـ ٦,٣٠٠ ق.م). ينخفض عدد المواقع، وتترك معظم مواقع النيوليت ماقبل الفخاري، ماعدا عين غزال، وادي شبيب، وربما بسطه؟، ويظهر على مايبدو البدو الرحل. وهذا يتزامن مع حدوث جفاف في بداية الألف الثامن (حوالي ٦٩٠٠ ق.م). وبهذا فإنه في محيط فقير، لو حدثت تغيرات مناخية بسيطة، ممكن أن يكون لها نتائج مدمرة. سكان بسطه والبيضا قد تحولوا إلى الرعوية قبل حدوث الخلل المناخي في فلسطين، لأن سكانهما قد تعرضوا لمشكلة إمكانية استغلال المكان حتى قبل ذلك.

وهكذا نلاحظ بأن التغيرات المناخية التي عرفتها مناطق المشرق العربي مابين البلستوسين وهولوسن، يبدو أنه كانت لها انعكاسات هامة على صعيد المجتمعات البشرية. ومن المناسب هنا، طرح وجود علاقة مابين التغيرات المناخية، والتطورات السكانية، والاقتصادية، والاجتماعية الثقافية في المجتمعات البشرية، دون أن يمكننا إيجاد روابط سببية مباشرة فيما بينها (شكل٥)، مع ذلك يمكننا أن نلاحظ نقطة التقاء مزدوجة، فمن جهة، مأشرنا له عدة مرات عند التحدث عن فترات التدني المناخي، إذ أنه في ظروف الحياة الأكثر صعوبة، تجمعت المواقع في المناطق الأكثر ملاءمة، بينما عددها أخذ يتناقص، وأحياناً لدرجة كبيرة وعلى العكس في فترات التحسن المناخي، فإن أعداد المواقع تزداد بشكل واضح، وتسكن حتى مناطق المروج النصف جافة، وأحياناً إلى أبعد من الحدود المطرية الحالية. ولكن من جهة أخرى، فإنه يبدو بشكل واضح بأنه مابين ١٧,٠٠٠ و ٧٠٠٠ ق.م فإن تطور المجتمعات البشرية، قد تزامن مع الفترات المناخية غير الملائمة. وكأن البشر، قد حاولوا أمام التحديات العثور على حلول جديدة لاستغلال الموارد. وهكذا فهم قد تبنوا الاستقرار خلال الفترات الباردة والجافة التي سبقت بولينغ الرود؛ والزراعة قبل نهاية درياس الحديث (وهكذا فهي ترتبط بشكل أو بآخر باستخدام الماء). وأخيراً فقد ظهر الرعي البدوي في الفترة الجافة في بداية الألف الثامن قبل الميلاد.

هذه الأشكال الجديدة من استغلال الأرض، قد انتشرت وعمت فيما بعد، لتتقن عندما غدت الشروط الطبيعية أكثر ملاءمة. خلال مرحلة الانتقال من البلستوسين

إلى الهولوسن، التي شهدت العبور من الشدة الجليدية إلى مابين الجليدية، حيث الاضطرابات المناخية، لم تكن متناوبة فقط، ولكنها كانت أيضاً محبطة، فأدت لدفع التطورات الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعات المشرق العربي نحو الأمام، إذ أن هذا لم ينقص شيئاً من الرغبة في تقدم المجتمعات البشرية نحو الأفضل.

بدءاً من حوالي ٦٠٠٠ ق.م. لم يعد للبيئة والمناخ دور هام، ليس لأن الاضطرابات المناخية، قد غدت أقل حدة من الفترة الانتقالية بين البلستوسين والهولوسن فقط. ولكن أيضاً، لأن البشر قد أصبحوا أفضل استعداداً للتصدي لها، أعدادهم أكبر وامكانياتهم أفضل بقليل لتغير الوسط الطبيعي، وغدا من الصعب التمييز بين المحيط الطبيعي، وبين ماأضافه الإنسان إليه للحد من اضطراباته.

على كل حال، فإن الوضع الانساني القاسي، واستغلال الأرض العارض، قد تزامن بشكل عام مع التغيرات بسبب حدوث التوازن.

فالتغيرات المناخية، وإن كانت في أدنى درجاتها، من الممكن أن يكون لها نتائج هامة، وبذلك نلاحظ بأن الشروط المحيطة بالانسان، قد كانت إذاً مختلفة جداً عما كانت عليه بعد الألف السابع قبل الميلاد.

مروج الصحراء في سورية الشمالية
(ملاحظات أولية حول تغيرات المحيط الجيو ـ بيئي، وإقامة المستوطنات)

جاك بيزانسون ـ بيرنار جيير

تعريب: يسرى الكجك

منذ أن غدت حلب عاصمة أمارة عمورية متسعة، لم تتوقف عن لعب أدوار هامة في تاريخ الشرق القديم. ساهم في ذلك موقعها الجغرافي، وبنية منطقتها، التي هي أكثر أهمية مما يتوقع.

إحداثيات المنطقة:

كما يوضح الشكل (١)، فحلب تقع على خط عرض حوالي ٣٦ْ درجة شمالاً، في منطقة مرتفعة الحرارة، ولا يوجد فيها ارتفاعات كبيرة، إذ تتراوح ما بين ٢٥٠ـ٧٠٠م (القمة في قلعة حلب، على ارتفاع ٤٣٧م).

موقعها المتميز:

في اتجاه شرق ـ غرب، تقع المنطقة على أقصر مسافة ما بين الفرات وشواطىء المتوسط الشرقية، فالبعد لايزيد عن ٢٠٠كم، وذلك بدون الحاجة الى عبور مناطق جبلية عالية (مثال: باب الهوى ٣٨٦م).

والحالة هذه، فإن الفرات الشرقي، كان دوماً المعبر الأساسي للاتصال مع بلاد الرافدين والخليج العربي، حيث تقوم حضارات وإمبراطوريات، تهتم بشكل كبير باقامة مناطق مجاورة للمتوسط، إما بالتأثير الثقافي، أو حتى بالاحتلال المتتالي (آشوري ـ بابلي ـ فارس ----- الخ). وذلك قبل أن ينقلب الاتجاه فيصبح (مصري، حثي، مكدوني ، ثم صقلي، روماني، وأكثر قصراً صليبي).

كما هي الإمارات الآرامية في الاستبس السوري، فإن حلب كانت تجد نفسها في قلب الأحداث. فالمدينة عبارة عن قاعدة التفان، تسمح بالتحرك في مختلف الاتجاهات نحو بوابات الغرب، كما يمكن أن تحمي مخرجين أساسيين في السلسلة الجبلية.

المعابر الأساسية تمر:
- من العمق والعاصي الأدنى (الأناضول وصقلية)
- عبر وادي عفرين الى الاسكندرون.
- عبر سهل الروج إلى اللاذقية.

ومعابر أخرى تنفتح نحو الشرق (بما فيها الطريق الجديد باب الحسكة)، والفرات، وأيضاً باتجاه الجنوب الشرقي الى (الرصافة وتدمر).

هامش الصحراء العربية:

في المنطقة ينفتح معبر سريع جداً. ذو شروط بيئية مزدوجة: متوسطية وصحراوية حقيقية. في الشرق والجنوب الشرقي، المناطق مسطحة وبدون حدود ملموسة، إنها طرقات قبائل البدو وقطعانهم، في البحث

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

دوماً عن الكلأ والماء. الاستقرار كان نادراً جداً، وحتى التاريخ يشهد على ذلك.

إلى الغرب، الأمر معكوس تماماً، حيث توجد بشكل أساسي حواجز بسبب العوائق المناخية (جبال، وديان محفورة، منخفضات بنيوية، وتضاريس كلسية). لقد كانت في الماضي مكسوة بالغابات المختلفة، حيث يوجد الماء في كل مكان تقريباً (بحيرات، أنهار دائمة، ينابيع، آبار قليلة العمق): كل هذه الشروط قد سمحت بالاستقرار الدائم في المنطقة.

في واحدة منها، يمتد طبيعياً نوع من المعابر، يحوي أعشاباً أكثر من الأشجار، استيبس ذو تركيب خاص، وهو غني بأنواع الحيوان والنبات القابل للاستئناس والاستنبات.

بالنسبة للهلال الخصيب في هذه المنطقة، فإن منطقة حلب تعتبر منطقة جافة، وذلك يعني أنها تتأثر كثيراً بالشروط المحلية (أرض مرتفعة، منخفضة... الخ). وهذا الوضع يتناقص من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب نحو الشرق، فعاملا الجفاف سرعان ما يلتقيان.

القاعدة الجغرافية:

المظاهر الطوبوغرافية:

تتشكل المنطقة نتيجة لالتقاء ثلاثة منحدرات من تكوينات متقاربة.

- منحدر أورفه الطويل، قرب تركية، الممتد من الشمال باتجاه الجنوب، بارتفاع من ١٥٠٠م حتى ٦٠٠م عند الحدود السورية التركية. تقطعه عدة أنهار تنبع من تركية (كالفرات مثلاً)، حيث تتفجر ينابيع كلسية قوية (مثال: الخابور وهي بشكل عام دائمة التدفق، يمثلها هنا بشكل أساسي قويق ونهر الذهب).
- منحدر أطراف الكتلة الشمالية ـ التدمرية: أقرب بكثير من الأولى حوالي (١٥٠كم)، وهي أقل أمطاراً، نزولاً من جبل الرشيد (ارتفاع ١٤٠٠م تقريباً) المنفصل عن جبل بشري. يبدأ ارتفاع المنحدر من (٥٠٠م).
- المنحدر الغربي: يبدأ بمرتفعات كلسية، أقل ارتفاعاً من الأولى (أدنى من ٩٠٠م) ويبعد على الأقل (٢٠ـ٣٠كم).

هذه المنحدرات الثلاثة، تميل وتتقارب لتلتقي شرق الجبول، وهو مسطح قليل الإرتفاع، يتفادى نهر الفرات (سوية مسكنة). يتوزع هذا القعر الطوبوغرافي إلى سبخات وبحيرات مالحة، غالباً ما تفتقد للماء.

جوهر المنطقة كلسي بشكل عام:

إن الصخور الرسوبية المتوضعة من الحقب الثاني والثالث، وبخاصة الايوسيني، ظاهرة بشكل واضح. وهي غالباً ما تتكون من الكلس، وبذلك فهي صخور غنية بكربونات الكالسيوم، مع إضافات نادرة للصوان، مع درنات فوسفاتية.

إن التوضعات الرسوبية الأخيرة (باليوسين؟). هي ذات أصل قاري، وتتكون من طمي البحيرات الكلسي، والكتل الرملية، أو في المناطق الشرقية، من صخور، كذلك توضعت في مجاري فروع الفرات القديمة.

هذه الصخور قليلة الصمود في وجه الفيضانات، وقد سهلت تكوّن تسطحات كبيرة الامتداد (المنحدرات). وبسبب سهولة انحلال الصلصال، فقد تشكلت بعض المنخفضات المغلقة، قليلة العمق. كما في قطاع الحربول، حيث تختفي عند نهر الطفشاني.

يضاف إلى ذلك، الجفاف المناخي، وقابلية نفوذ الأرض، ووجود شقوق داخلية. حيث نلاحظ وجود سراديب صلصالية بشكل خاص. ويرجع ذلك حتماً لضعف ميكانيكية التربة، وهو ما يمكن أن يؤدي لنتيجة عكسية، حيث تجد بعضاً من مياه الأمطار فيها مأوى لها، يحميها من التبخر.

على كل الأحوال، فإن هذه الصخور، تشكل مواد متوسطة الجودة للبناء، وهي تستخدم في المباني الهامة للأساسات، حيث يصنع بلاط السطوح من الكلس، أو البازلت.

الغطاء البازلتي:

جزء كبير من المنحدرات مقاوم للعوامل الجوية، وذلك لاحتوائه على طلاء من اللاڤا من أصل المشتقات التي حدثت

في الايوسين الأعلى. سماكتها وسطياً حوالي (١٠) أمتار. ونادراً ما تكون بين (٣٠ و ٤٠)م. مما سهل تشكل وحدوث نتوءات مختلفة. تتشابه كثيراً مع طوبوغرافية المنطقة الحالية، والتي تمتد حتى الأطراف الغربية للجبول.

وقد ساهمت مقاومتها الجيدة للحت في احتفاظها بجزء من المرتفعات، كما هي حال السطوح البركانية في جبل حس، وجبل شبيت. وكذلك فإن أكبر سطح بركاني هو (كغريا ـ بردميش) في الغرب. بعض المسطحات لازالت موجودة في الأخاديد، وهي عبارة عن السطوح القديمة للوديان، ما قبل الميوسينية، في جبل حس، انشاني.... الخ.

تحتمي السطوح البركانية الموجودة بشكل عام بمقدمات ناتئة. تتمزق حوافها على شكل هضاب منضدية ما بين الوديان، وأطراف الجبال. تتميز قمم المنحدرات بانثناءات، حيث تنفصل عن الكتل البازلتية التي تغطي المنحدرات التي تشكلت في الإيوسين.

الأدمة: التشكيلات السطحية:

إن التشكيلات السطحية التي تغطي أطراف المنحدرات، والسطيحات ما بين الكلسية، هي المواقع المناسبة للزراعة على طول المجاري المائية. هذه المخلفات تحتوي أهمها قاعدة النهر، وتتغطى في أعماق الوديان، وتنتشر على أطراف المنحدرات. ساهم في نشوئها الحت الذي جرى على الأرض القاسية، بالاضافة إلى ذرات التراب. كل ذلك ساهم في تشكل مصاطب واسعة. كالترفادي (بالقرب من سبخة قويق)، وهي أرض في منتهى الخصوبة.

ولكن حدوث تدنٍ مفاجيء في انحدار الأراضي المنخفضة. يؤدي لتكدس توضعات ثقيلة فيها: في كل الوديان الجنوبية الغربية تقريباً، وذلك قبل مسافة كافية من التقائها مع المنحدرات الساحلية، كوادي الزروب (جبل بلعاس)، وادي أسود (جبل الزاوية). التي تطغى المياه عليها قبل مسافة كبيرة من التقائها مع المنحدرات الساحلية، أو تتوضع في منخفض تل مانو. مع ذلك، فإن الحافة الشمالية لجبل حس يحتلها طوق من المخلفات المشابهة السميكة جداً، في الممر الذي يفصلها عن جبل شبيت. وهنا أيضاً الإنتاج الزراعي كبير ومستغل بشكل واسع.

في نهايات الأخاديد المنحبسة، توجد مخلفات نقلتها المياه الجارية، والجفاف الفصلي للسبخات، يتيح المجال للمخلفات القابلة للجفاف (ملح، كلس)، التي تختلط مع المخلفات الدقيقة، أو تلتصق بها، مما يفقد الأرض خصوبتها بشكل كبير.

كما أن التيارات الهوائية ممكن أن تحمل أيضاً مخلفات دقيقة (رمال، طمي)، فتبني أشكالاً سطحية تُغير المظاهر الطوبوغرافية أحياناً لارتفاعات عالية (مثال: تشكيلات الطمي في جبل حس). إن حركة الرياح واتجاهها تؤدي لاختفاء المواقع، فلا تظهر إلا بعض الجدران المتآكلة، بحسب اتجاه الرياح الفاعلة التي تتوضع الآثار تحتها، فتتجه غالباً من الغرب نحو الشرق.

الانحراف نحو الهامشية:

إن منطقة حلب ذات ضواحي منسجمة بشكل عام، وذات امتداد متواضع، بشكل متوازن ما بين منبج وحماه، وعلى أطراف السلسلة الساحلية الكلسية لمسكنة. وهي تغطي مساحة ١٥٠٠٠كم٢. تسيطر على طوبوغرافيتها المناطق السهلية على عدة مستويات. وتسيطر على جيولوجيتها أعماق كربونية. أما طقسها فرطب في الصيف، ومن المفترض أنه جاف في السهوب.

وبنفس الوقت فهي تقع على أطراف الصحراء، لذلك فإن أي انعطاف بسيط في النظم الطبيعية التي تحدد امكانية استخدام الموقع، هي كافية لتجعل المواقع ممكنة السكن أولا.

في الواقع، فإن استيطان الأرض قد خضع دوماً للشروط المحلية، وحددت شروطها التقنية الخاصة.

مستوى الجفاف المناخي:

إن الجفاف المناخي يزداد من الشمال باتجاه الجنوب، وكذلك من الغرب إلى الشرق.

توزع الأمطار:

بالرغم من ندرة المعطيات المتوفرة، فيمكننا تصور توزع الأمطار بحسب التوزع الجغرافي. مع الاشارة الى الاختلافات

السنوية الكبيرة التي تشكل عائقاً قوياً أمام اقتصاد يقوم على الزراعة. وحتى أمام الرعي البدوي.

خارج منطقة إدلب، التي ترتفع عن سطح البحر ٤٤٦م، مما يجعل مناخها شبه جبلي في الغرب، بمعدل مطري ٤٦٧مم في السهول الوسطى، مع اختلافات سنوية بين ٧٢٩مم في السنوات الرطبة، و٢٥٧مم في السنوات الجافة. في الشمال من منطقة جرابلس، ذات الارتفاع ٣٦٠م، فهي لا تتلقى أكثر من ٣٢١مم وسطياً (٥٤٨مم في السنوات الرطبة و١٥٦مم في السنوات الجافة).

في الشرق الرقة، ارتفاعها ٢٥٠م. معدل الأمطار ٢١٤مم سنوياً (٣٦٦مم في السنوات الرطبة و٩٥مم في السنوات الجافة). في الجنوب الشرقي الكوم، ارتفاع ٤٦٠م. تتلقى فقط ١٢٩مم سنوياً (٢٨٥مم رطبة، ٣٩مم جافة). في مرتفعات السلسلة التدمرية الشمالية، يهطل حوالي ٢٠٠مم وسطياً، وربما حتى حوالي ٣٠٠مم.

وهكذا في محيط محدد، يمكننا أن نشير إلى حلب ذات الإرتفاع ٣٩٤م، بمعدل مطري ٣٢٦مم/سنوياً، ويتراوح ما بين (٤٩٠مم، رطبة و١٨٢مم جافة). والسلمية أقل من ٥٠٠م ارتفاع، بمعدل مطري ٣٣٠مم/سنوياً. يتراوح بين (٥٣٩مم/رطبة و١٣١ جافة). تستفيد أحياناً الهضاب البازلتية من بعض الهطولات الإضافية، أما السبخات التي تحيط بها، والمنحدرات الجنوبية، فإن معدلات الهطول فيها تقل عن ٢٠٠مم سنوياً، ولكن ليس أقل من ١٥٠مم.

وبالنتيجة، فإن منطقة حلب تتلقى ما بين ٣٥ـ١٥٠مم من الأمطار سنوياً، والخلافات ما بين السنوات الرطبة والجافة، يزيد في تقرير عن ١ـ٣. وفي تقرير آخر مساوٍ أو أعلى من ١ـ٤. إنها محسوسة أحياناً، أكثر من أحيان أخرى، بحسب امتدادها لسنة أو لعدة سنوات.

على كل الأحوال، فإن الهبات المطرية، تبدو أقل من ذلك، حيث يتحكم فيها التبخر بشكل واسع، والذي هو حتماً أعلى من ٢٠٠٠مم/سنوياً.

كما أن الفصل المطير، يغطي أقل من ستة أشهر في العام. (من تشرين الثاني حتى أيار). حيث يكون التبخر في حدوده الدنيا، بسبب الحرارة، وان كانت في حدودها الدنيا، فهي لا تعيق العمليات الزراعية. حيث أن الدورة السنوية للمزروعات الشتوية قصيرة (مثال: الحبوب)، حتى في جزء من الأراضي، فإن زراعة الأشجار بظروف أرض مفروشة وسميكة، وحتى بكثافة كبيرة (في جيب صغير، أو فتحة في الأرض الكلسية).

خارج الحسابات المطرية:

إذا رجعنا إلى التقسيمات البيئية للمحيط المتوسطي، التي حددها امبرجيه (Emberger)، المبنية على الأحوال المناخية الطبيعية (انظر الشكل ٣). فإن كل الحالات المعروضة هي لمجموعات من السنوات الباردة، ومعظمها قد صنفت في نطاق المناطق الجافة (قويق ـ حلب)، جرابلس، وربما السلمية، وهي لا تتميز كثيراً عن حماه، التي صنفت بين المناطق شبه الجافة. وعلى العكس، فإن الكوم وتدمر، قد اعتبرت من المناطق الصحراوية. وذلك نتيجة لغلافها الكلسي. اعتماداً على هذا التصنيف، وبحسب المعطيات المناخية الحالية، يمكننا أن نعتبر، أنه إلى الجنوب من خط مسكنه ـ تل مامو، وإلى الشرق من قصر ابن وردان، فإن كل المنطقة الكبيرة جنوب ـ شرق منطقتنا، قد اعتبرت مناطق صحراوية. ونحن نفهم بسهولة، بأن كل مصدر مياه إضافي، وإن كان ليس مباشرة من المطر، فهو يمكن أن يغير منظر تنظيم الأرض.

الأساس الهيدرولوجي (المائي):

نتيجة لاستقباله للمياه من الخارج، فإن وسط منطقة حلب، يتلقى مصادر مائية جانبية غير منتظمة.

المياه السطحية:

تسقط الأمطار أياماً قليلة، حوالي ±٥٠ يوماً في السنة، ويمكن أن تكون غزيرة لفترات قصيرة. وبذلك فإن فترات التهطال لا تستمر أكثر من عدة ساعات وأيام، ونادراً لعدة أسابيع، في شبكة من المجاري والوديان، وبذلك فإن الشبكة هي في حالة جيدة. عدا مناطق الجنوب الشرقي، لا بل وحتى في الشرق.

هناك عدة مجاري مائية دائمة في منحدرات الباب (قويق)، عدا ما يتسرب منها . كرستيك (نهر الطفشين ونهر الذهب)، حيث منسوب المياه فيها غير مهم، على الأقل في فصل الصيف . أي بشكل عام، خلال فترات السقاية .

يتولد في الواجهة الشمالية للسلسلة التدمرية، وجنوب سلسلة كفرايا وديان، جزء منها دائم التدفق، ولكن سرعان ما تتسرب مياهها تحت طبقات الطمي الكثيفة، والتي يسترد جزء منها لحسن الحظ، عن طريق الينابيع (مثال : أم ميال) . أما وادي أبو جهور الذي يصب في سبخة الجبول، فهو حالة خاصة تغذي ينابيع المياه الجوفية . إن الأحواض النهائية، تغرق فصلياً (سبخات) بشكل دائم، وخاصة الجبول، ولكن هذه المسطحات المائية ليس لها أهمية إلا في تجميع الأملاح، فهي ليست صالحة للشرب أو الري .

المياه الجوفية:

من المناسب التفريق، ما بين المياه الجوفية التي تتجمع في التلعات التي يمكن الوصول إليها عن طريق الآبار (كبئر جب جمعة القديم)، وما بين المياه العميقة التي تتوضع بين الطبقات الجيولوجية، وتكون أكثر ركوداً .

يسمح الغطاء البازلتي والشقوق بتشكيل غطاء تحتي من العصر الإيوسيني : حيث تساهم النبعات على أطراف الكتلة بتغذية الوديان المحفورة، التي تقوم بحفرها متوضعة على التليعات الموجودة (مثال : وادي الحجاب)، أو أنها تخترق الغطاء بفضل الآبار المحفورة على السطح (مثال : رسم الصفا، أو أم الجرن، أو على جبل حس) . تحت تأثير الحوادث الستراتغرافية، يمكن ملامسة الغطاء الإيوسيني على المنحدرات الجنوبية الكبيرة (مثال : عين زينب)، وإلا فعن طريق حفر الآبار (مثال منحدرات شعيره) .

إن الانكسارات في القشرة الأرضية، يمكن أن تسمح بمرور مياه عميقة وحارة : اسريا، جسر فيصل . . . . الخ . وبهذا يفسر وجود الينابيع (أو ما هو في يومنا آبار قليلة العمق) . حتى في القسم الأكثر جفافاً من المنحدرات الجنوبية الشرقية، حيث تساهم في تحديد اتجاه الطرقات .

وعلى كل الأحوال، فإن المحتوى المعدني الذائب في المياه الجوفية، يمكن أن تثبت سمينه (كالمياه المكلوره في سبخة قويق، أو حول الجبول)، أو يكون قليل الصلاحية للشرب (مياه سطحية، ارتوازية للينابيع الحارة) .

موروث الكوارث البيئية في الحقب الرابع:

إذا كانت الامكانيات التي حددت الاشغالات المتوقعة للأرض تتدنى بشكل واضح من الشمال نحو الجنوب، ومن الغرب نحو الشرق، فإن الاختلافات البيئية المفصلة هي أعقد بكثير . وأسبابها تكمن في البصمات التي تركها النشاط المورفولوجي، والتعديلات الداخلية التي تجلت بتغيرات بيئية واضحة .

وبذلك فإن وجود الجص يعزى إلى التوضعات البحرية، وأيضاً إلى التوضعات القارية من البليوسين، حيث ترافقت مع الملح الذي هو دليل أكيد على وجود الجفاف . إلا في المناطق التي تنغسل بشكل دائم . هذه الأملاح ما أسهل ما يعود تشكلها في دورة النشاط المورفولوجي، وتتجمع في السبخات حيث تركد وتتركز بالتبخر . وهي في نفس الحالة حتى اليوم .

الفيضانات التي تفرش الوديان، وتغطي المنحدرات، توضعت هي أيضاً خلال فترات أكثر رطوبة . وسويات المجاري المائية كانت أعلى بكثير مما هي عليه الآن، خلال العصور الرباعية المطيرة، وفترات الهدوء في العصور ما بين المطيرة . وقد تركت آثارها أيضاً، والتي تظهر أولاً بحسب أحوال القاعدة الطبيعية .

تتالي التشكيلات السطحية:

تحت تأثير الاضطرابات المناخية، فإن تتالي سويات الفياضانات والحت ظاهرة بشكل واضح .

وبذلك فإن الفترات المطيرة قد دلت على الشبكة المائية، محركة أعالي الأنهار مع تعميق الوديان، وتسهيل السهول بين المنحدرات، إلى أن تصب في المنخفضات محولة إياها إلى البحيرات .

في الفترات ما بين المطيرة، فإن البروزات (النتوءات) قد استقرت، فيما عدا المناطق المجاورة للسبخات، حيث يحفر الحت خطوطاً على طول الحفرة مشكلة مصاطب وسطيحات، وبالخاصة الشعرية، تسبب حدوث قشرة مغلقة على السطح، هي كلسية في المناطق الأكثر جفافاً وجصية في المناطق الأخرى.

إن تواتر الجفاف في المناطق الهامشية، يزيد من عمل الحت، بالقياس إلى الترسيب، مما ينتج عنه في محيط الحفرة المحبوسة سويات من التوضعات (معروف منها أربع أو خمس) تشير كل منها إلى سرير.

بالمفهوم الشامل، فإن التطور العام، قد حدث بحسب تشكل الأسرة (مصاطب باليوسينية شرقية، أو اليوسينية جنوب شرقية).

إن امتداد المنحدرات، قد أضعف من اتحاد السبخات، بشكل خاص. فتابعت كل منها تعمقها بشكل منفرد بحسب الارتفاع القديم للجبول، فالبحيرة قد استمرت لفترة طويلة على اتصال مع السبخات الأخرى الموجودة بينها، إلا منذ وقت قصير (سهل البويضة الجاف). هذا التاريخ الطويل، قد ترك موروثات أخرى، لا تتوقف عند الشروط الطبيعية.

المياه المتحجرة:

إن المياه الجوفية، ليس من السهل تأريخها، وبحسب بعض المعطيات التي نملكها، بشكل خاص لتدمر، وللعربية السعودية، فقد كانت تغذيتها الأساسية من العصر المطير الأخير الذي انتهى منذ حوالي عشرة آلاف سنة.

وبذلك فإنه يوجد خطر من كثرة الاستهلاك بالمضخات لأكثر من المعدل السنوي من التغذية، إذ سيؤدي ذلك لجفاف القاعدة، مما يؤدي لانتشار القحط. كما في السلمية حيث يستمر الضخ، مما ينتج عنه انخفاض مستوى ضغط الحوض لعدة سنوات.

ولكن الحالة هنا ليست كذلك، بالنسبة لبعض القياسات التي حصلنا عليها (مثال: بئر حمام، مياه على ١٢م في ١٩٩٣، مقابل ١٠م على خارطة ١٩٤٩). فهنا الوضع غير مقلق. على كل الأحوال، في المنطقة الغربية الأكثر ازدحاماً، لا يمكن تجاهل استمرار استجرار المياه الجوفية. في رسم العبد، تقع مياه الآبار على انخفاض ٢٧م. أو على أقل من انخفاض ٢٣٠م، بينما على أرضية سبخة قويق، لا يحفر على انخفاض أقل من ٢٤٣م، حتى نصل إلى مياه قليلة، وشديدة الملوحة والمرارة، وهذا ينطبق حتى على الآبار التي تقع إلى الشرق من منحدرات السفيرة المجاورة للسبخة.

يضاف الى ذلك، الخنادق التي حفرت في وادي البويضة الجاف، أو الحرش، إذ لا يمكننا الحصول على الماء، لأن معدل الضغط المائي قد انخفض في كل مكان، منذ نهاية العصر المطير الأخير. دون أن يكون للضخ أو الاستنزاف دور في ذلك.

وربما لهذا السبب، قابله نضوب طبيعي في الينابيع التي عمرت إلى جانبها التلال، منذ العصور الكلاسيكية، كحفر الآبار في الفترة الرومانية (مثال: تل عين زبيب، المياه غدت على عمق ٨م/١٩٤٨).

صلاحية الأرض:

في ظل الشروط الحالية، فإن التغيرات لا يمكن إلا أن تكون بطيئة، لا بل معدومة: فقط يوجد أرضيات موروثة، منقولة بشكل أو بآخر. مقطوعة أو متوضعة. إنها منحدرة متقاربة وغالباً محتوتة، هي نفسها منقولة. أحدثها فقط فيها بعض الإضافات. نحن إذاً نستعمل مصطلح أرض هنا بمفهومه الدارج وليس المحدد.

بشكل عام، تقل خصوبة هذه الأراضي من الشمال نحو الجنوب، ومن الغرب نحو الشرق بسبب تناقص سماكتها. ولتدني تماسكها الإنشائي، ولغناها بالكلس والجص، وحتى الملح. تتركز الأراضي الأكثر إنتاجية في الغرب والشمال.

- على سفوح مرتفعات الباب، في تدرج لطيف، تغطيها طبقة من اللحقيات السميكة.
- في أسفل المنحدرات الشرقية والغربية لجبل حس، يغطيها أيضاً طمي كلسي وبازلتي، وجزء بسيط من اللحقيات.

- على مياسة كفرايا، حيث الأرض عميقة لحقية ـ كلسية، بنية حمراء نتيجة وجود البازلت. نفوذة، غنية جداً بالمواد العضوية. مما يجعلها تحفظ المياه بشكل جيد، متفاوتة التآكل في التخوم الشرقية.
- في الوديان، وعلى المنحدرات الصغيرة التحتية التي استفادت من هذه المواد المحمولة، وهي وإن كانت أقل خصوبة لكنها لازالت مستغلة.
- في سهول الردميات، حول الخابور، حيث تغدو المكونات الكلسية زائدة.
- وأخيراً في المناطق ما بين النهرية، في ثنايا جبل حس، وأقل بشكل واضح عند جبل شبيت، حيث يتغطى البازلت أحياناً بطبقة غرانيتية، كلسية. وكذلك أيضاً سطيحات، وأعماق الوديان، التي هي غالباً عريضة جداً، والتي تحتفظ بجزء من الطمي.
- على المصاطب الرباعية للشطيئات التي تحيط بسبخة قويق.

باتجاه الجنوب الشرقي، تمر على بازلت على أرضيات محمرة من الغمر المتوسطي، وأيضاً على أرضيات أقل سماكة غنية بالكلس. لأنها أقل غسلاً. وأخيراً على أرضيات رمادية صحراوية. يستثنى من ذلك أعماق الوديان التي غطتها بشكل متأخر لحقيات غنية بمواد دقيقة.

في كل مكان، تغطت المصاطب النهرية الرباعية، والمنحدرات الحتية القديمة بقشرة سميكة، حولتها إلى بلاطات. وهي كلما ازدادت سماكتها، كلما قلت خصوبتها مع الزمن. هذه القشرة هي كلسية في المناطق الغربية والشمالية. والطبقات الحتية (رمال جصية) ممكنة الزراعة، طالما أنها لم تتصلب، أي حديثة التوضع (أحدث من العصور الكلاسيكية).

التقييم والاستيطان:

إن الاختلاف والتجميع في مظاهر التنوع للبيئات الجغرافية، تعود إلى السكان الذين أرادوا أن يحددوا قيمة المنطقة بعادات متناقضة، ودون أسباب واضحة في هذه المناطق المرجية، التي تقع على تخوم حضارتين، ذوات أنظمة معاشية مختلفة.

لمعرفة من أقام هنا أولاً؟ ومتى؟ والأقل أهمية من ذلك كيف؟ ولماذا؟ حدث التدفق وعودة التدفق قد تكررت في التاريخ. يأتي دور الكردنولوجيا التي ستقدم التفسير المنطقي للاستيطان في المروج الجافة.

العالم المتوسطي:

إن اختيار استراتيجية التطور التكنولوجي الضرورية لزراعة مستقرة، كانت هم السكان الذين استوطنوا في المناطق المتاخمة لشواطىء المتوسط، وقد فصلت الزراعة عن التدجين منذ البداية، واختيرت الأنواع التي عرفت في المناطق الرطبة من الهلال الخصيب. وتضمنت الحبوب والخضراوات، وكذلك العنب مع الأشجار المثمرة، إضافة إلى الماعز والخراف، وكذلك الأبقار والحمير.

القاعدة الأساسية لهذا الاقتصاد

وهي يمكن أن تكون منتجة بالرغم من الجفاف، والصيف الطويل بدون مطر، شرط أن تكون متمركزة في الأرض، وتتوفر لسقايتها (خزانات مياه، برك)، ويغطيها جزء من الهطولات الشتوية. وهذا يتطلب وجود أرض خصبة وعميقة بشكل خاص. إنها حالة تلك الأراضي موروثة جزئياً، والتي يغطيها البازلت الميوسيني. أي المناطق التي تقع إلى غرب منطقتنا، وهي تمتد أيضاً من مرتفعات منحدرات الباب، وحتى الأطراف الشمالية للجبول المغمورة بغطاء من الطمي الغرانيتي، قد غذتها السيول على المنحدرات القديمة المائلة، الأفضل أمطاراً أكثر امتداداً نحو الشمال. إنها أخيراً حالة المناطق التي تقع إلى الغرب (أطراف سلسلة كفرايا)، عند اطراف الجبال والوديان، وتحت الإنثناءات البازلتية للسلاسل الغربية لجبل حس، أو في الشمال الغربي لهذه السلسلة (المنحدرات الداخلية للسفيرة).

كل هذه المصاطب سكنت بكثافات مختلفة منذ عهود طويلة. وهي بذلك تحوي في جنباتها عدداً من تلال ما قبل التاريخ، وبقايا مدن وقرى من العصور الكلاسيكية (وبقايا التنظيم الزراعي والمائي).

الزراعات السنوية:

تبقى زراعة الأشجار متواضعة في محيط جبل حس، وفي اعماق الوديان المحيطة به. وهي لم تعد تظهر على

سفوح جبل سنجار، واختفت كذلك من المنحدرات الهضبية لمنطقة الباب، لأنها تتطلب جهوداً كبيرة في إروائها. وانصب الاهتمام الأكبر على زراعة النباتات ذات الدورة القصيرة. حيث تعاد زراعة الأرض أيضاً قبل حلول الصيف، فتستطيع قطعان الماشية الصغيرة نوعاً ما، الحصول على الغذاء. وهذا أيضاً ينطبق على سفوح جبل شبيت، الأكثر امتداداً في المنطقة الجافة. وينطبق على السفوح الجنوبية، وبشكل خاص الجنوبية الغربية من الأراضي الكلسية ذات المصاطب اللحقية، أو حول سبخة قويق (المصطبة القديمة).

إن مخزون المياه الجوفية، قد تم اشراكه بالرعي لإطالة الموسم الزراعي، وتحسين مردوده، ولكن بشكل خاص لأغراض التجميع: خزانات تحت الأرض، أحواض تخزين، آبار، مضخات... الخ. ولكن تبقى خطورة هذه العملية في الحصول على مياه غنية بالمعادن، بل وربما مالحة.

المراعي البدوية:

في الشرق، وإلى الجنوب الشرقي، وفي الوسط المنخفض لمنطقتنا، يعود النظام البدوي الرعوي للظهور، ويتصل مع المناطق الصحراوية المجاورة، حيث تقدم الأراضي غطاء نباتياً صحراوياً، وحرية التنقل، والنقاط المائية.

إنها تماماً شروط منطقة الإستبس الجافة، ذات البيئة القاسية، بل والصحراوية فعلاً.

إن نمو الوسط الطبيعي، قد جعل الممارسات صعبة، حيث أن نقاط الماء الطبيعية (ينابيع)، تعاني من انخفاض مستوى المياه الجوفية، على الأقل خلال الجزء الثاني من الهولوسن، مما أدى دوماً إلى تغييرات في الغطاء النباتي، وافتقاره إلى العديد من الأنواع الرعوية، فلم تعد تنمو إلا النباتات القصيرة.

من جهة أخرى، بدأ الاعتماد يزداد يوماً بعد يوم على زراعة الحبوب في تغذية القطعان. ففي سنوات الجفاف تتحول حقول الحبوب إلى مراعي. وقد أعطت المكنة تحريضاً وقيمة أكيدة لهذا النوع من النشاط، فلم يبق إلا القليل من الأراضي التي لم تعد محروثة بما في ذلك الطبقات الغرانيتية الحديثة. هذا التطور الحديث، قد ترجم بسقاية الحقول التي تستغل لفترات قصيرة، والتي تزداد يوماً بعد يوم. وتحول البداوة إلى انصاف بدو، حتى أن بعضهم انتهوا بالاستقرار نهائياً.

المساحات القاحلة والمهملة:

إن جزءاً من الأراضي التي كانت مزروعة قديماً قد تركت. وهي تلك التي أفقدها عامل الحت تربتها (مثال: المنحدرات الواقعة فوق الإنثناءات البازلتية، والتي غالباً ما تم حتها منذ القدم). أو نتيجة غمرها بطبقة كتيمة من الغرانيت (الكوات حول تنات الدهامي)، أو بسبب استقطاعها (أطراف الخزانات تحت الأرضية).

يضاف إلى ذلك أرضيات السبخات، التي تفيض فصلياً، وتمتلئ بمخزون ملحي، يتحول صيفاً إلى طبقة ملحية سطحية. إن منخفض الجبول المائي لا تؤمه إلا الطيور المهاجرة في أدنى الحدود. أما السطيحات الشرقية خلال ذلك، فهي قليلاً ما ترتاد وتحرث. خاصة في المناطق الجنوب شرقية. وكذلك الآثار والمواقع الأثرية فهي نادرة جداً فيها.

اختيار مواقع الاستيطان البشري (الشكل: ٤):

بالرغم من الجفاف المسيطر، وغياب الأراضي المناسبة، والطبيعة الكلسية التي تضعف الخصوبة، فإن العائق الأساسي أمام الاستقرار كان الماء. وكثيرة هي المواقع التي استوطنت قديماً، خاصة في مناطق الالتقاء بالقرب من الينابيع. تجمعات يمكن فهمها بسهولة، ولكن أيضاً في مناطق لا تسمح قساوة مناخها الحالية، بفهم أسباب استيطانها.

وفي المحصلة، يبدو متناقضاً بأن تكون منطقة محكوم عليها بهذا الشكل من المناخ، أن تسكن بكثافة في مناسبات عديدة. وأن تكون للسيطرة عليها أهمية كبرى. على كل فالحال اليوم كما كان بالأمس، واستيطان المكان قد تنوع، فهو كان ولا يزال كثيفاً، في أطرافها الجنوبية والغربية، وحول وعلى أطراف السطيحات البازلتية كثيفة التربة. وبشكل أقل عند حواف السلسلة التدمرية، ويلاحظ أيضاً حول مجرى قويق في معبر المبطح، وعلى الأطراف الغربية لسبخة الحرباك.

حول حفر تجمع المياه في الوسط، وعلى المنحدرات المجاورة لها، وحول المصاطب القديمة للوديان الجنوبية الغربية، عدد القرى القديمة ملفت للنظر، والمفاجىء أيضاً تكدسها، فهي إن لم تقم على أنقاض بعضها، متقاربة جداً: اندرين، أبو عجوه، تباره. عزيزة دك، أبو خنادج، أم الرجوم، خربة الربيات.... الخ. وما ذلك إلا لانعدام الأمن، ولمجاورتها للصحراء وقبائلها الرحل، وميلها إلى الرافدين، أو إلى الفرس المتقدمين نحو الغرب، حيث أنشؤوا عدداً من المراكز للمراقبة العسكرية على أطراف جبل شبيت، جنوب جبل حس،. وفي أم الرجوم، أو رسم الجريج.

الخلاصة:

إن منطقة المرج الجاف، الواقعة إلى جنوب شرق حلب، ما بين الهلال الخصيب والصحراء، تعرضت حتى أيامنا هذه، إلى اختلافات مناخية، ،ونظم تشتد من الغرب نحو الشرق، ومن الشمال نحو الجنوب. فقط المناطق الواقعة إلى الشرق من حلب (سهل ومنحدرات شمال سبخة الجبول)، وإلى الجنوب من المدينة القديمة (سلسلة كفرايا)، لازالت جزءاً من الهلال الخصيب، وتسمح بقيام زراعات متوسطية، والتي تعتبر هنا المفضلة منذ العصر الحجري الحديث. ان الاستقرار على السفوح البازلتية ذات التربة الكثيفة لجبل حس، والشبيت هو نادر جداً لأنها أكثر جفافاً. وحيث تندر الأشجار أيضاً، فلا تستطيع استيطانها إلا المجتمعات القادرة على التعامل مع هذا النوع من البيئة.

إن وسط المنطقة، هو مركز التقاء ثلاث منحدرات، تحتلها منخفضات مغلقة. هي بحيرة الجبول، وعدد من السبخات تمثل أوساطاً منفرة للجميع، إلا للبدو، أو لإستغلال الأملاح. أطرافها، خاصة المنحدرات التي هي في مستوى أدنى من الأراضي التدمرية، فهي تمثل اليوم أماكن غير ممكنة السكنى، نظراً لجفافها. إن الملاحظات الأثرية تبدي جيداً، أن الحالة لم تكن كذلك دوماً. ففي الواقع، على الأقل في العصور البرونزية، وفي الفترات الرومانية البيزنطية، كانت مواقع السكن متعددة، فكانت الينابيع المائية، أو الامكانيات المائية (آبار، مستودعات.... الخ). كافية لتغطية حاجات الإستهلاك المعاشي. إن الزراعة اليوم نظرية، وبعيدة عن كل إمكانيات الاكتفاء، للابقاء على حياة مجموعة من الناس. ولا يمكن أن تكون متطورة بالقدر الكافي. إلا في ظل ظروف بيئية أكثر ملاءمة على الأقل لزراعة الحبوب.

هذه النظرية، يجب أن تؤخذ بتحفظ، لأنه إذا أردنا التحقق، بالنسبة لهاتين الفترتين اللتين كانتا مزدهرتين في تاريخ المنطقة، (وربما لفترات أخرى؟)، فإنها تنتمي إلى سويات توسع سكاني، قد ساهم فيه توسع محتمل للامتداد السكاني.

الفرات السوري الأوسط
وأولى المجتمعات الزراعية الرعوية

جاك كوڤان

تعريب: إحسان شيط

سنتكلم عن دور سورية الشمالية، وبخاصة عن الفرات الأوسط، في نشوء وانتشار أولى المجتمعات الزراعية الرعوية. وفي الواقع تميزت هذه المنطقة بظاهرتين أساسيتين في بدايات العصر الحجري الحديث جعلتا منها مركزا هاما لانتشار المدنية في الشرق الأدنى، وحوض المتوسط الشرقي، وبالتالي في العالم القديم كله.

الظاهرة الأولى هي أن الفرات الأوسط يشترك مع مناطق سورية أخرى، كمنطقة دمشق، ومنطقة الشرق الجنوبي، ووادي الأردن بأنه تم فيها اكتشاف الزراعة حوالي ٩٨٠٠ قبل الآن حسب التوقيت بالفحم المشع، يعني حوالي ٩٠٠٠ عام قبل المسيح حسب التوقيت المعير، وهي الفترة المسماة النيوليتي ما قبل الفخار (أ) العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ).

والظاهرة الثانية هي أن الفرات الأوسط قد شهد في الألف التاسع والثامن قبل الميلاد ولادة مدنية (النيوليتي ما قبل الفخار ب) والتي انتشرت فيما بعد في كل الشرق الأدنى. وفيها تم اكتشاف تربية المواشي، وبعدها البداوة الرعوية. التي كان لها أثر كبير في انتشار ثقافة العصر الحجري الحديث إلى مسافات بعيدة من خلال العلاقات الاقتصادية والثقافية بين المدنيات المتباعدة.

وسبب غزارة معطياتنا عن العصر الحجري الحديث في سورية هو حملات التنقيب في المواقع الأثرية التي نظمتها الحكومة السورية في منطقة الغمر في سد الفرات عام ١٩٧٠ والآن في سد تشرين.

لقد تعرفنا على بدايات الألف التاسع قبل الميلاد في حفريات مريبط من قبل (فان لون ١٩٦٨). وفي الحفريات التي قمت بها (كوفان ١٩٧٧) بين ١٩٧٠ و١٩٧٤. وقد قدمت الأسبار التي أجريناها في تل الشيخ حسن بعض المعلومات المتممة (كوفان ١٩٨٠). ونحن الآن ننتظر كثيراً من التفصيلات حول تطور الزراعة من الحفريات في موقع الجرف الأحمر قرب سد تشرين التي بدأ فيها ماكليلان ١٩٩٢. (ماكليلان وموترام ١٩٩٠). وتتابع البعثة الفرنسية السورية العمل في نفس الموقع بإدارة دانييل ستوردور وبسام جاموس.

حوالي ٨٧٠٠ ق.م ظهر (النيوليتي ما قبل الفخار ب) نتيجة التطور العميق للأسس الثقافية السابقة. ولقد قدمت حفريتنا في المريبط (المرحلة الخامسة) عام ١٩٧٢ المعلومات الأولية، التي تم استكمالها في حملة تنقيب جديدة في موقع الشيخ حسن، تقوم بها د. ستوردور. وقدم هذا الموقع الذي أصبح اليوم جزيرة في بحيرة الأسد بعض المعلومات عن (النيوليتي ما قبل الفخار ب) القديم (ستوردور نفس المجلد)، وحول نفس الفترة يوجد الآن تنقيبات في موقع جعدة التي ليست بعيدة عن سد تشرين يقوم بها كوكينيو (كوكينيو نفس المجلد).

بين ٨٢٠٠ و٧٠٠٠ ق.م (النيوليتي ما قبل الفخار ب) الوسيط والحديث) قدم الموقع الرائع الذي تعمل فيه

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

البعثة الإسبانية (موليست نفس المجلد) مع باحثين فرنسيين معطيات عديدة حول نشوء وتطور تربية المواشي، وسوف تقارن مع معطيات سابقة قدمها موقع تل أبو هريرة المغمور عام ١٩٧٠ البعثة البريطانية (مور وال ١٩٧٥) .

وانطلاقا من تنقيباتنا وتنقيبات زملائنا، تساءلنا مؤخراً (كوفان ١٩٩٤) عن الأسباب التي خلقت هذه الطفرة الاقتصادية الأساسية التي دفعت الإنسان من حياة الصيد والتقاط الثمار إلى الاعتماد على الزراعة وتربية المواشي في تأمين معيشته . ويبدو لنا أن هذا التحول نتج عن هزات ثقافية وأيديولوجية سبقته .

نشوء الزراعة

كان استيطان القرى أسبق من اكتشاف الزراعة في كل الشرق الأدنى . ظهرت القرى بين ١٢٠٠٠ و١٣٠٠٠ قبل الآن (أي ما يعادل ١٢٠٠٠ و١٠٠٠٠ق.م) أسسها الصيادون جامعي الثمار في فترة الحضارة النطوفية، على المساحة الممتدة من الشرق الجنوبي ووادي الأردن حتى الفرات . وفي منطقتنا كان النطوفيون هم أول من سكن قرى أبو هريرة وبعدها المريبط على ضفاف النهر في منطقة تتميز بموارد طبيعية متنوعة جداً : فعلى الهضاب المجاورة للنهر كان يوجد غزلان وأنواع من الخيليات والحمير برية . أما في منطقة الزور أي غابات النهر كانت تعيش الوعول وأنواع من البقريات . إضافة إلى الطيور العابرة والأسماك والقواقع التي لا تنفذ من مياه النهر . استطاع هؤلاء القرويون أن يستقروا بشكل دائم في قراهم . وكانوا يخزنون الحبوب البرية التي تنضج في أواخر الربيع . كما كانوا يبدلون خطط صيدهم حسب الفصول وحسب الطرائد المتاحة، ولكنهم كانوا يصطادون الأسماك بشكل مستمر : لذلك نجد كميات كبيرة من حسك الأسماك عند الغربلة الدقيقة لتربة مواقع التنقيب . وفي حالة التغيرات المناخية الحادة كفترة الجفاف التي حدثت في نهاية الألف الحادي عشر في الشرق، في نهاية الفترة النطوفية، واستمرت طوال الفترة الخيامية التي تلتها (فترة مناخية عالمية دعيت في أوروبة درياس الحديث) كان من أثر هذه الصدمة المناخية قلة الأمطار وجفاف الكثير من السبخات في السهول العالية، ولكنها كانت معدومة الأثر على النباتات والحيوانات التي كانت تعيش على ضفاف النهر، وعلى الناس الذين كانوا يعيشون على هذه الضفاف .

ظهرت أقدم آثار الزراعة بعد الدرياس الحديث في حوالي ٩٨٠٠ قبل الآن (٩٠٠٠ سنة ق.م) خلال المرحلة ٣ب في المريبط، وفي إطار ثقافة المريبط، نجد أن القرية الصغيرة ذات البيوت المستديرة، التي سبق وبناها النطوفيون في حوالي ١٠٥٠٠ق.م، تحولت في ١٠٠٠٠ق.م (المرحلة ٢) إلى قرية ليست أكبر من السابقة . تعود إلى الثقافة الخيامية، وتختص ببعض المستجدات، منها تقني (كظهور أول رؤوس السهام) وبعضها الآخر أيديولوجي، كظهور أول آثار عبادة الإلهة وعبادة الثور، العبادات التي سيكون لها مستقبل كبير . وحتى ذلك الحين لم تحدث تطورات في المجال الاقتصادي . حيث كان الصيادون وصيادو الأسماك وملتقطو الثمار يعيشون على ما تقدمه لهم الطبيعة يوماً بيوم . ولا تبدأ هذه القرى بالتوسع الملحوظ سوى في المرحلة الثالثة للمريبطي، لتصل إلى حدود الهكتارين . وفي هذه المرحلة بالذات نلاحظ زيادة واضحة في كمية الحبوب بدلالة غبار الطلع أو الحبوب المكتشفة في الحفريات . هذه الحبوب كانت تجمع سابقاً بكميات قليلة مباشرة من الطبيعة . وهي تتألف من القمح والشعير والشيلم . ومن الأنواع التي لم تدجن بعد، أي أنه لم تطرأ عليها التبدلات الشكلية التي تحدثها الزراعة . إذن لا يوجد هناك برهان مباشر من علم النبات على بداية الزراعة، حتى أن بعض علماء النبات يشكون في كون مرحلة مريبط ٣ب زراعية، حسب الاعتقاد أن التبدلات الشكلية التي تطرأ على النبات بسبب الزراعة تظهر في وقت قصير، ولكن اليوم، برهنت التجارب التي تمت في وسط فرنسة في جالس / الأردش، على أن التدجين يمكن أن يكون بطيئاً جداً . حتى أنه في بعض الحالات توجد مرحلة زراعة ما قبل التدجين (ويلكوكس) تمتد على عدة قرون (أندرسون وآخرون ١٩٩١) . وهناك مؤشرات أخرى تدل على أنه هكذا كان الوضع في مريبط ٣، وفي نفس الوقت وفي منطقة دمشق وفي وادي الأردن ظهرت أولى الحبوب المدجنة .

وليس المهم في بداية الزراعة هو ظهور الأنواع المدجنة الجديدة للحبوب، بل التأكد من أن الإنسان بخلاف الأنواع الحيوانية الأخرى لا يكتفي بما يقدمه وسطه الطبيعي، ولكن بدأ بتحويل هذا الوسط وصار يتدخل مباشرة في تكييف مصادره الغذائية، مستعملاً تقنيات جديدة على أنواع مختارة لتحقيق هذا الهدف . وتعتبر هذه المبادرة بحد ذاتها ثورة . ويدل مثال المريبط على أن ما حدث فيها ليس كما

يظن البعض نتيجة لنضوب الموارد الطبيعية. وترك صيد الأسماك، في المرحلة الثالثة، وصيد الطرائد الصغيرة، والاستعاضة عنهما بالطرائد الكبيرة. تثبت أنه كان هناك مجال لاختيار حر، وليس تحت ضغط الحرمان الغذائي. وبالمناسبة لم يكن الحرمان في يوم من الأيام محرضاً على الاختراع.

وكما أوضحنا سابقاً (كوفان ١٩٨٧, ١٩٩٤)، يتوجب علينا أن نفتش عن مصدر هذه التحولات ليس في ضغوط البيئة المادية ولكن في الثقافة نفسها وفي الطريقة المختلفة التي يستوعب بها العقل شروط البيئة. ومن وجهة النظر هذه تكون التحولات النفسية هي التي لعبت الدور الأهم، يشهد على ذلك الطفرة الإيديولوجية والدينية في مجتمع الفترة الخيامية والتي سميناها (ثورة الرموز) وذلك قبيل الثورة النيوليتية.

ومن المحتمل أن يكون هذا الامتداد للثقافة المريبطية التي يمكن أن نعزو إليه الاقتصاد الزراعي الأول ليس محدوداً بشواطىء الفرات الأوسط. ففي جوار حلب المباشر في تل الكرامل على بعد بضعة كم شمال حلب نجد آثاراً للثقافة المريبطية (كوبلامد ومور ١٩٨٥) وأبعد قليلاً إلى الشمال أو الجنوب في منطقتي إعزاز والسفيرة (بحيرة الجبول) يوجد شروط بيئية ملائمة وهي مناطق بالكاد معروفة من قبل علماء ما قبل التاريخ، ومن الضروري أن تجري فيها تنقيبات معمقة.

ظهور الـ (النيوليتي ما قبل الفخار ب) وتربية المواشي

ويبدو أن منطقة الفرات الأوسط كانت إحدى ثلاث مناطق شهدت ظهور الزراعة في الشرق الأدنى. واشتركت في ذلك كما رأينا مع الأردن ومنطقة دمشق، وذلك في الإطار الزمني لـ (النيوليتي ما قبل الفخار أ).

والنيوليتي ما قبل الفخار ب الذي يمتد من ٨٧٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة ق.م (٩٥٠٠ حتى ٦٨٠٠ قبل الآن) ليس إطاراً زمنياً بسيطاً. فهو على خلاف الحال في النيوليتي ما قبل الفخار (أ) الذي كان يشمل ثلاث حضارات متزامنة متقاربة، ولكن متمايزة حسب موقعها سواء في المشرق الجنوبي أو المتوسط (دمشق) أو الشمالي. فهو يمثل ثقافة موحدة كما في الفترة النطوفية. هذه الثقافة لها منشأ محدد وهو الفرات الأوسط، ومنه راحت تنتشر أولاً نحو الشمال ثم نحو الجنوب والشرق.

لم يتواجد النيوليتي ما قبل الفخار ب في مرحلته القديمة إلا في منطقة المشرق الشمالي، وقد تطور في ساحة المريبط. ويمكن أن نشاهده في مريبط ٤أ، وفي الشيخ حسن (تنقيبات ستوردور)، وفي جعدة. واعتباراً من ذلك الحين في نهاية فترة المريبط تبدأ أولى المخططات الهندسية المستطيلة للبيوت بالظهور، والتزايد على أطراف البيوت المستديرة الباقية. ويتطور التسليح بظهور أشكال جديدة من السهام (نصال صيدا)، والفؤوس المجوفة من الأحجار الخضراء أو من البازالت. وتبقى الزراعة في هذه المنطقة في مرحلة ما قبل التدجين. وهذه المرحلة المتوسطة بين مرحلة جمع الثمار وظهور أنواع جديدة نتيجة فعل الزراعة، ستتضح بدون شك من معطيات التنقيب في الجرف الأحمر وجعدة.

وعلى كل الأحوال يخرج النيوليتي ما قبل الفخار ب من حدود سورية الحالية ليستوطن في منحدرات طوروس شمال الجزيرة. وهناك في المواقع التركية في حفر هويوك وتشايونو نلاحظ وجود القمح المدجن بأنواعه والشعير والبقوليات (العدس) وذلك منذ بداية الاستيطان. ويبدو أن التدجين بمعنى ظهور التحولات الشكلية للأنواع البرية هو أسرع في الأراضي الشمالية منه في الفرات الأوسط حيث نشأ.

أصبح النيوليتي ما قبل الفخار ب الأوسط المعروف في منطقتنا باسم مريبط ٤ب وأبو هريرة قبل الفخار أو أكثر وضوحا بسبب الحفريات الجارية في حالوله قرب منبج. وهو الفترة التي انتشر فيها النيوليتي ما قبل الفخار ب نحو الجنوب إلى فلسطين (أريحا، عين غزال) وقد أثر في طريق انتشاره على ثقافة العصر الحجري الحديث في حوض دمشق (أسود ٢). وتشير معطيات علم الإناسة إلى أن نفوذ سورية على المشرق الجنوبي لم يكن ثقافياً فحسب بل كانت ترفده بشرياً. وحينئذ تظهر تربية المواشي على ضفاف الفرات في أبو هريرة، أو حالولة أو أريحا. في بادىء الأمر يتم تدجين الماعز، والأغنام في المشرق الشمالي، وأخيرا يتأخر تدجين البقر والخنازير إلى النيوليتي ما قبل الفخار ب الحديث.

ويتميز النيوليتي ما قبل الفخار ب الحديث اعتبارا من ٧٦٠٠ ق.م بالانتشار المكاني. وهو الذي سينقل الزراعة وتربية المواشي إلى مناطق كانت غير مأهولة: في الغرب الشاطىء السوري واللبناني، وبخاصة تأسيس رأس شمرا،

وفي الجنوب الشرقي في المنطقة الصحراوية تأسيس بقرص على ضفاف الفرات أو إشغال الواحات السورية كالكوم وتدمر الشبه المهجورة منذ العصر الحجري القديم.

وحوالي ٧٠٠٠ق.م ومن واحة الكوم (ومثلاً في قدير ا، انظر كوفان ١٩٩٠ وستوردور وطه في مقال لم ينشر بعد) عندنا الدليل على أن البداوة الرعوية كانت موجودة. وكانت تربية المواشي تقوم على تربية الأغنام وبعض الماعز والأبقار. وكانت الزراعة متواجدة مع الاقتصاد الرعوي، وكانت تمارس في أوقات الاستقرار المديدة. وساعدت البداوة التي ظهرت في النيوليتي ما قبل الفخار ب على خلق اتصالات بين مناطق متباعدة. وللبداوة يعود الفضل فيما بعد في أنها ساعدت على نقل الفخار الأسود اللماع المسمى ("Dark DFBW Faced Burnished Ware" أو فخار عمق أ) من منطقة الساحل إلى منطقة أبو هريرة على الفرات، أو إلى منطقة تل الرماد قرب دمشق. وفي هذه الفترة بدأت منطقة حلب تلعب دورها التاريخي كملتقى طرق للتبادلات والتحركات البشرية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

وهذه الفترة هي أيضاً فترة المواقع الجديدة في العراق الشمالي (مغزلية، سوتو، حسونة، أم الدباغية) وتظهر استمرار تقاليد النيوليتي ما قبل الفخار ب في العمارة والصنائع. وكل ذلك يدل على أن قوة انتشار النيوليتي ما قبل الفخار ب في كل مرحلة تعود إلى ارتباط الزراعة بتربية المواشي.

ما هي أسباب هذا الانتشار الجغرافي؟ لقد بينا (كوفان، ١٩٩٤) :

١ـ أن الملامح الثقافية التي تسمح بتحديد النيوليتي ما قبل الفخار ب من بيوت مستطيلة، وتطور الأسلحة، والسيطرة على العالم الحيواني من خلال تربية المواشي اعتباراً من النيوليتي ما قبل الفخار ب الوسيط. كل هذه الملامح وحّدت بين الرموز في المناطق. وتتأكد بشكل واضح ذكورية الثقافة في الفن والدين بظهور الدمى التي تمثل رجالاً، وظهور عبادة الثور. ومثلا يتظاهر وصول النيوليتي ما قبل الفخار ب إلى عين الغزال قرب عمان بظهور العديد من دمى الثيران الطينية بعضها مجروح بشفرات من السيلكس تمثل سيطرة الإنسان على الحيوان. وهذا أول ظهور لموضوع عبادة الثور الذي سنتعرف عليه في أناضول العصر الحجري الحديث على الجداريات المرسومة في جبال هويوك، وبعدئذ في كل حوض البحر الأبيض المتوسط. ولكننا نجد أن صورة الثور كانت غائبة تماما في النيوليتي ما قبل الفخار ب الفلسطيني (السلطاني) حيث عبادة مكرسة للإله الأم فقط.

٢ـ وكل خصائص النيوليتي ما قبل الفخار ب كان لها مقدمات في النيوليتي ما قبل الفخار أ في منطقة الفرات المريبطي، وهذه الخصائص التي كانت موجودة في مريبط ٥ والشيخ حسن والجرف الأحمر، وتتألف من البيوت المستطيلة، واستعمال طريقة خاصة في تقطيع السيلكس على هيئة نواة زورقية الشكل والتي أعطت أسلحة من نوعية جيدة، وكان ظهورها أسبق في الشمال منه في الجنوب. في حين أن عبادة الثور تعود فيها إلى الفترة الخيامية. وتميز هذه الخصائص الطفرة العقلية الثانية التي حدثت في النيوليتي ما قبل الفخار ب وظهر خلالها حركة ذكورية من نوع جديد لا تفسر فقط عبادة الأسلحة والسيطرة على عالم الحيوان، بل تفسر الميل إلى السيطرة على أراض جديدة.

وأدى هذا الاندفاع للسيطرة الذي تميز به النيوليتي ما قبل الفخار ب إلى إدخال العالم القديم في العصر الحجري الحديث انطلاقاً من الشرق الأدنى. وكانت الثقافات المادية مختلفة باختلاف المناطق لاستمرار الخصوصيات الثقافية المحلية فيها. ولكنها كلها تميزت بملمحين جديدين بتأثير هذا الرفد الشرقي: الملمح الأول هو ثورة الرموز التي رافقت ديناً جديداً فيه الإلهة الأم وإله مذكر له شكل بشري أو بهيئة ثور. والملمح الثاني هو اقتصادي وهو انتاج القوت. ولا يمكن فصل التغيير المادي الذي بدل وجه العالم عن التغيير الفكري الذي سمح برؤية هذا العالم رؤية أخرى، ويبدو أن التغييران نشأا في وادي الفرات الأوسط ومنطقة حلب.

استئناف التنقيبات عن مرحلة ماقبل التاريخ في تل الشيخ حسن حملة استكشافية

دانييل ستوردور

تعريب: غادة الحسين

استأنفت البعثة الفرنسية في الكوم – المريبط، بإشراف د. جاك كوفان في أيلول ١٩٩٣ حملتها للتعرف على الامكانيات الجديدة التي قد يوفرها تل الشيخ حسن، وذلك بعد سلسلة متتالية من التنقيبات قام بها فريق ألماني باشراف د. ج. بوزه. وقد فوضت المديرية العامة للآثار السورية الدكتور جاك كوفان بالعمل في هذا الموقع، حيث أجرى في عام ١٩٧٦ سلسلة من الأسبار كشفت عن استيطان هام خلال المرحلة التي سبقت ظهور الفخار والتي غطت معظم فترة استيطان عصرأوروك ومابعد عصر أوروكو. ولهذا فقد أناب د. جاك كوفان جامعة ساربروكن للتنقيب عن الإستيطان الأحدث في هذا الموقع لكي يتم الوصول بمساحة كافية الى مستويات ماقبل التاريخ.

لقد تم بلوغ هذا الهدف في عام ١٩٩٢ نتيجة للتنقيب المكثف في سويات عصر أوروك، حيث ظهرت تحتها مباشرة سويات ماقبل التاريخ. قررنا بالاتفاق مع د. بوزه و ج. كوفان منذ عام ١٩٩٣ أن تتم محاولة لتحديدالإمكانيات الدقيقة التي مازال الموقع يقدمها، وذلك بإجراء اختبار على سعة الطبقات المتوفرة لماقبل التاريخ، وعن حالة حفظها وانتمائها الزمني– الثقافي في آن معاً.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

جرى موسم التنقيب مع فريق مؤلف من ١٤ شخصاً.[١] ونظراً لأن مستوى البحيرة مرتفع جداً فقد تحول الموقع الذي كان على ضفتها الشرقية الى جزيرة. لذا كان فريق العمل يصل اليه يومياً بالقارب.

دراسة الطبقات الأثرية أو التوضعات الطبقية

لقد أثبت جاك كوفان منذ عام ١٩٧٦ أن تل الشيخ حسن يحتوي على سويات محفوظة جيداً تعود لنهاية العصرالنيوليتي ماقبل الفخار أ، وعلى الأرجح لبداية العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب، مما أعطى للموقع أهمية استثنائية، فلم يتم التعرف على مراحله بتتابعها المباشر، إلا في الموقع المغمور من المريبط، الذي يبعد ١٥ كم، ويقع في أسفل تل الشيخ حسن (صورة ١).

لم تكشف حملتنا لعام ١٩٩٣ عن سويات أفقية تعود للعصر النيوليتي ماقبل الفخار أ موازية لتلك التي تم العثور عليها في عام ١٩٧٦من مرحلة المريبط ٣ ب، بل على العكس فإن مجمل الطبقات التي تم الكشف عنها تنتمي إلى النيوليتي ما قبل الفخار ب والتي يحتويها موقع مريبط في سويته الرابعة.

إن الأسبار التي تم إنجازها في عام ١٩٧٦ في محيط الجهة الشمالية الغربية من التل المشار إليها (باللون الأسود في الصورة ٢)

، كما يمكن أن نراها من خلال دراستنا للمخطط رقم ٢، هي حالياً مغمورة تماماً وبعيدة عن محيط التل بمسافة لاتقل عن ٢٠ م . أما المربعات التي فتحناها، فإنها تقع بالمقابل في وسط التل أو في جهته الشمالية.

ونتيجة لذلك أصبحنا أمام احتمالين بالنسبة للتوضع الطبقي في المناطق التي مازالت قابلة للتنقيب انطلاقاً من فحص المخطط الوارد في الصورة رقم ٣.

– إما أن دراسة طبقات النيوليتي ماقبل الفخار ب بالتحديد تشير الى استيطان أفقي للعصر النيوليتي ماقبل الفخار أ في الأطراف الغربية للتل والتي اختفت حالياً.
– أو أن تتابع العصر النيوليتي ماقبل الفخار أ ونهاية النيوليتي ماقبل الفخار ب، سواء رافقته فترة انتقالية أم لا، كان يغطي التل بأكمله.
– بالقياس لطبقات العصر النيوليتي ماقبل الفخار أ، التي اكتشفت في عام ١٩٧٦على عمق ٩٫٥٠ م. فإن أقل من متر من الطمي يفصلنا عن هذه السويات ، هذا إذا ما تأكدت صحة الاحتمال الثاني.

لقد فقد التل سوياته التاريخية الأكثر حداثة، نتيجة للأعمال التي أجراها بناؤوا عصر أوروك. في الواقع، لقد لاحظنا في الجزء الأوسط من التل، أن تماس المنشآت الأولى التاريخية أصبح على عمق ٦٠٫٧ م من السطح. ولايمكن لهذا الانتظام المضاف الى الشكل العادي والمزيل تماماً لأولى سويات العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب إلا أن نعزوه الى نشاط بشري.

عمارة ومدافن

لقد تم العثور في المربعات فريكه و سوفرس (صورة ٢) والتي نقب فيها على التوالي كل من فريدريك أبس و أ. يني، على شواهد معمارية محفوظة بشكل جيد.

مربع «سوفرس»

لقد أتاح التنقيب الذي تم في الاثني عشر متراًمربعاً بالتعرف على منزل مستطيل الشكل جدرانه من الآجر، قاعدته من الحصى الكبيرة، أرضيته من الحصى والرمل والطين (شكل ٤). يعود المدفن المقام في أرض هذه الغرفة الى فترة لاحقة للبناء مباشرة. وكما وتوجد عدة حفر للدفن من الحصى في المساحات الخارجية.

مربع «فريكه»

لقد أتاحت الخمسة والعشرون متراً مربعاً المنقبة في تلك المنطقة الكشف عن منزلين مستطيلين كبيرين متتاليين بجدران مستقيمة تفصل بين المنزلين، محددة بذلك غرف ذات أحجام كبيرة نوعاً ما (شكل ٥). لقد بُني المنزل الأحدث شمال المنزل الأقدم، وذلك على المساحة الخارجية التي تحده. يستند الجدار الخارجي (س) للمنزل الجديد على أنقاض الجدار الخارجي (ن) للمنزل القديم. ولم يُكشف سوى عن أرضية المسكن الأكثر حداثة. يظهر تحت البلاطات الحجرية في إحدى الغرف مدفن لشخصين. وتحتوي المساحة الخارجية على موقد كبير مستدير، وعلى مواد صوانية كثيرة وعلى رحى مكسورة في مكانها وبعض عظام حيوانات، . كذلك فقد حفر مخبأ في الأرض احتوى على تسعة رؤوس سهام، وتتألف المنقولات الصوانية من أدوات وأسلحة بشكل خاص، إضافة الى شظايا تشذيب ونوى مستعملة سابقاً.

أما في باقي مناطق الحفريات فقد تكونت البقايا المعمارية بشكل أساسي من حفُر دفن، التي تذكر بتقاليد حُفر الحصى في مريبط، التي نجدها حتى في الأناضول (موقع جفرهويوك) في فترة النيوليتي ماقبل الفخار ب الوسيط.

بشكل إجمالي، تم العثور على سبعة مدافن، اثنان منها كانت مزدوجة، وحتى الآن لم يتمكن جون انفرونس ، المكلف بالتنقيب عنها ودراستها ، إلا بالتنقيب في اثنين منها. فقد تم الحفاظ على الباقي، ويمكننا أن نستنتج حالياً أن كل أعمال الدفن قد تمت داخل المساكن. ومن المرجح أن الطقوس المأتمية كانت متنوعة فمنها المقابر الفردية أو الثنائية، الأولية والثانوية والكاملة، والتي لاتحتوي إلا على جمجمة مفصولة عن الجسد.

الأدوات:

لقد تم تصنيف حوالي ٩٠٠ أداة وبقايا تشذيب الأدوات الصوانية، إضافة الى أدوات الطحن (مساحن ومدقات) بشكل منتظم. ولم يتم العثور على أية قطعة فنية، لقد شذبت الأدوات الصوانية (شكل ٦)، وهي غالباً ماتكون مقطعة على كتل حجرية مستديرة منشؤوها ضفاف الفرات. أما حجر السبج ذو الأصول التركية فقد

وجد بوفرة، واستخدم محلياً وقامت بالبحث عنه ماري كليركوفان. وقد حلل الدكتور ي. برينيكه و ج. كيلير[٢] نموذجين بتفاعل النترجة في معهد ماكس بلانك في مدينة هيديلبيرغ. وحلل ب. مارتينيتو[٣] بواسطة ICP/AES-MS العينات الخمس الأخرى. أما مصدر عينات السبج فهو وسط الأناضول، من الكتلة في Gollü Dag ستة عينات من منجم Kômürcü وواحدة من منجم Kayrili.

الصناعة الحجرية

إن وفرة الأدوات الحجرية وتنوعها من (مخلفات النحت، أدوات مصنعة داخل وخارج الأبنية السكنية، مخبأ رؤوس السهام) ستسمح بتحديد الامكانيات التقنية وأنواع النحت التي مارسها سكان هذه المنطقة من الفرات في عصرالنيوليتي ماقبل الفخار أ القديم. وستسمح أيضاً بمقارنة عاداتهم المحلية مع موقع معاصر في جعدة المغارة التي نقب فيها أ. كوكينيو. من الهام دائماً معرفة اتساع مجموعات المواقع أو المناطق التي اتبعت بداخلها نفس التشكيلات التقنية.

حالياً يبدو من المؤكد أن سكان تل الشيخ حسن ورثوا تقنيات طرْق ثنائية القطب وذوات الأشكال الفنية العائدة الى العصر النيوليتي ماقبل الفخار أ لهذه المنطقة نفسها (مريبط، الشيخ حسن)[٤] وخلال العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب القديم، فقد استطاعوا أن يطوروا أسلوب استخدام مبتكر، حيث تستند هذه الطريقة التي تعرفنا عليها عملياً في فترة مريبط ٤ أ، الى طرقات متعاقبة للنواة الأصلية بهدف الحصول على رقائق ذات خواص محددة[٥]. إن غنى موقع الشيخ حسن بعناصر التشذيب سمح بمتابعة أسلوب الطرق. هذا إضافة الى فهم أفضل للعلاقات التقنية والثقافية خلال العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب كله في منطقة الشرق الأوسط. تمتلك الصناعة الحجرية بالإضافة للعناصر التقليدية الخاصة بهذه المراحل مثل (رؤوس السهام) (شكل ٦ رقم ١-٢)، نصال ملمعة، مكاشط، مثاقب (شكل ٦ رقم ٤-٥)، نماذج جديدة من الأدوات: مثل مكاشط ذات ساق معلاقي (شكل ٦ رقم ٧)، صفائح ذات ظفر، مما يساعدنا على تجديد معرفتنا التي ماتزال جزئية عن هذه المرحلة الهامة في الشرق. إن الدراسة الجارية لا تندرج ضمن بحث لإقليم منطقة الفرات الأوسط خلال المرحلة الانتقالية بين عصري النيوليتي ماقبل الفخار أ و ب فحسب، بل تشتمل أيضاً على عملية انتشار العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب الى مختلف أنحاء الشرق الأدنى.

الحيوان والنبات

تكشف دراسة الحيوان غياب التدجين ونشاطات الصيد لأنواع الخيول الصغيرة بأنواعها (الحمار، فرأ التيبت). أما الحيوانات مثل (الغزال، الخيول) فتأتي، كما هو الحال في مريبط من السهب المحيط. أما الحيوانات مثل (الثور، الآيل، القندس) فتأتي من الوادي نفسه. وهنا تتوقف المقارنة. في الواقع تظهردراسة الحيوان في سويات تل الشيخ حسن والتي تمت دراستها في عام ١٩٩٣ تشابهاً لهذه الحيوانات مع تلك التي تم العثور عليها في جعدة المغارة أكثر من تشابهها مع تلك التي في المريبط في بدايات عصرالنيوليتي ماقبل الفخار ب.

دُرست كمية كبيرة من الرواسب بهدف التعرف على عالم الحيوان، أما بقايا النباتات المكربنة فهي مازالت قيد الدراسة في كتاب (ويلكوكس و رواتيل، قيد الطباعة)، والذي كتبه جورج ويلكوكس (حبوب و ف. رواتل، كربونات من الخشب: وهي الأطروحة التي نوقشت في عام ١٩٩٧).

حصيلة و آفاق

عقب هذا الموسم وفي ضوء النتائج الأولى يبدو من الهام متابعة التنقيب في سويات ماقبل التاريخ في تل الشيخ حسن، والتي تبدو حالة حفظها واتساعها وقيمتها التاريخية استثنائية بشكل كبير. ولكن للأسف فإن الارتفاع الشديد للمياه في عام ١٩٩٤ (٥ م) أطاح عملياً بكل الآمال المعقودة لإنقاذ هذا الموقع.

تتأتى القيمة التاريخية الاستثنائية لموقع مريبط من أن الانتقال من العصرالنيوليتي ماقبل الفخار أ الى العصر النيوليتي ماقبل الفخار ب كان مباشراً. وهذا التتابع لم يتوفر في أي موقع آخر. ومن جهة أخرى،أدت المشاركة العلمية للفريق وخاصة المختصين في التنقيبات (والتحليل) في الجرف الأحمر (د. توماس ماكليلان) حتى عام ١٩٩٣ ثم د. ستوردور وبسام جاموس منذ عام ١٩٩٥) وفي جعدة (د. إيريك كوكونيو) وفي حالوله (د. . م. موليست)

وكلها مواقع تتوضع في الفرات الأوسط وتشمل في مجملها كل المقطع ـ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار أ ـ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب ـ ماقبل حلف،أدت الى رفع مستوى عمل هذه البعثة من مجرد التنقيب المنفرد الى مستوى البحث العلمي الأكثر اتساعاً والأكثر دقة (شكل رقم ٧) . إن هدف الباحثين في كل هذه المواقع وبناءً على التعاون الوثيق فيما بينهم، هو دراسة التحولات التقنية والثقافية التي أفضت خلال ٤٠٠٠ سنة الى مجتمعات نيوليتية تمارس الزراعة وتربية الحيوانات وبتقنيات متطورة في مجال الصناعة الحجرية وصناعة الفخار .

جعدة المغارة

عناصر جديدة متعلقة بانتشار النيوليت ماقبل الفخار في الشمال

إيريك كوكينيو

تعريب: بسام جاموس

ملخص:

ضمن إطار مشروع الحملة العالمية لإنقاذ سد تشرين (الفرات الأوسط) كشف التنقيب في جعّدة المغارة عن طبقات أثرية هامة تتعلق بالنيوليت ماقبل الفخار (النيوليتي ما قبل الفخار ب) القديم الذي يعود إلى ٩٠٠٠عام.

سبقت فترة ماقبل التاريخ هذه مباشرة تدجين الحيوان وزراعة الحبوب، ومانقلته لنا جعدة المغارة هام لفهم شكل لهذا التطور المترافق مع المريبط والجرف الأحمر.

منذ هذه الفترة برهنت العلاقات والمبادلات مع المقاطعات الشمالية لطوروس والأناضول ومع حلب من خلال المواد الأولية (الأوبسيديان).

على الصعيد الثقافي تمكننا خصائص جعّدة المغارة (عمارة ومواد أثرية) تمكننا أن نعرف التطورات اللاحقة لطوروس (تركية) في النيوليتي ما قبل الفخار (ب) الوسيط.

إن إظهار الابتكار المبكر للصفات الثقافية في منطقة الفرات الأوسط السوري (المريبط ـ الجرف الأحمر ـ الشيخ حسن ـ جعّدة المغارة ...) ثم انتشارها إلى الفرات الأعلى التركي، حملا عناصر جديدة متعلقة بقدم المبادلات بين سورية وهضبة الأناضول.

▪ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

المدخل:

بدأ التنقيب في جعّدة المغارة عام ١٩٩١ وذلك ضمن إطار مشروع الحملة العالمية للانقاذ أثر الشروع ببناء سد تشرين.

موقع جعدة المغارة المبني على تل منخفض (٥ ـ ٦م تحت السهل الحالي) والواقع في أعلى قره قوزاق في الشمال الغربي من حلب، متوضع على المصطبة العليا للضفة اليسرى للفرات ومتصل مع سهب الجزيرة والوادي.

وقد أوضحت الحملات الاستطلاعية الثلاث الأولى أهمية الطبقات الأثرية الرئيسية التي تعود إلى النيوليت ماقبل الفخار (أ) والنيوليتي ما قبل الفخار ب القديم الذي يعود إلى ٩٠٠٠ عام حسب الكربون المشّع، هذا يعني النصف الثاني من الألف التاسع قبل عصرنا بتواريخ منسقة، وظهرت أيضاً في جعّدة المغارة فترتان أثريتان أكثر حداثة:

الأولى: تشمل ماقبل حلف (بداية النيوليت الفخاري) مع ثلاث طبقات للبناء على الأقل، وكثرة في مادة الفخار.

الثانية: إعادة استخدام تل ماقبل التاريخ في البرونز القديم ٣ / ٤ لأعمال الدفن في قبور فردية مترافقة بمواد فخارية ومعدنية متنوعة (قبر لم يمّس كشف عام ١٩٩٣).

ضمن هذه الفترات القديمة من الواضح أن لامجال للحديث عن «طريق الحرير» وعن «الطرق التجارية» أو عن التجارة بعيدة المدى، لكن مع ذلك من الممكن الكشف بوضوح عن المبادلات الداخلية.

انطلاقاً من النتائج المأخوذة من جعّدة المغارة سوف نوضح هذه المبادلات:

إن استراتيجية التنقيب المتبناة حيال هذه الفترات خصّت التنقيب الممتد بطبقة أو عدة طبقات، وذلك لمحاولة معرفة التنظيم القروي وفهم أشكال الحياة المشتركة، وتحديد الاسهام المعرفي، لأنه يخص مرحلة انتقالية، حيث أن أناس ما قبل التاريخ بدؤوا بتدجين المحيط النباتي ثم الحيواني منتقلين من أشكال حياة الصيد والالتقاط إلى اقتصاد الحيوانات والحبوب البرية المستهلكة، حيث لايستثنى التنظيم في إدارة الموارد، وبخاصة في زراعة ماقبل التدجين.

إن معرفة أشكال الحياة تسمح بفهم سبب هذه التغيرات التي بدأت في المريبط والجرف الأحمر وبلغت أوج تطورها في حالولة.

انطلاقاً من هنا سيصبح من الممكن تحديد الدور الصحيح للمنطقة المؤسسة في الفرات الأوسط السوري، خلال مسيرة الإبتكارات المكونة للنيوليت، ثم انتشارها الكبير نحو الشمال.

جعّدة المغارة والمبادلات الجارية مع الأناضول في النيوليتي ما قبل الفخار ب القديم:

منذ هذه الفترة القديمة تبدو العلاقات والمبادلات مع المقاطعات الشمالية لطوروس والأناضول جلية، من خلال جلب المواد الأولية (الأوبسيديان) وانتشارها على المستوى التقني والثقافي.

على الصعيد الثقافي نرى في الحقيقة أنه في جعّدة المغارة ظهرت صفات مميزة نعرف منها التطور اللاحق في طوروس (تركية) للنيوليتي ما قبل الفخار ب الأوسط.

الوضع الواضح للابتكار المبكر لقسم من هذه الصفات الثقافية في المنطقة المكونة من الفرات الأوسط السوري (مريبط) - الجرف الأحمر - الشيخ حسن - جعّدة المغارة - حالولة - أبو هريرة ... الخ) ثم انتشارها وانتقالها نحو الفرات الأعلى التركي جلب إذاً عناصر جديدة تتعلق بقدم هذ المبادلات الجارية بين سورية وهضبة الأناضول.

هذه العناصر هي التي سنحاول وضعها بوضوح من خلال عرض موجز للنتائج الأساسية المكتسبة من حملات التنقيب في أعوام ١٩٩١-١٩٩٢-١٩٩٣.

في مجال التنظيم المكاني للمساحات القروية والعمارة، فإن طبقات النيوليتي ما قبل الفخار ب لجعّدة المغارة مميزة بوجود البيوت الصغيرة المستطيلة (جدران من اللبن مع دعامة من الحجارة ضعيفة المرونة) ومن الأرضية الترابية المبنية من الحجارة المقطّعة، وهذه البيوت معزولة عن بعضها البعض ومنفصلة بفراغات واسعة غير مغطاة، تتوزع فيها هياكل الحرق (مواقد مملوءة بشكل عام بحجارة محروقة) ثقوب لأعمدة تثبت وجود البناء الخفيف المبني من مواد قابلة للزوال، ونمط خاص للبناء مستطيل الشكل عامة).

في الطبقات الأثرية العائدة لهذه الفترة لدينا في جعّدة المغارة سلسلة من الجدران المنخفضة، متوازية ومتقاربة (الفراغ بين جدارين متجاورين لايتجاوز ١٥سم) ومخططها يوحي بالمخطط الشبكي للنيوليتي ما قبل الفخار ب في طوروس. هذه الجدران كما البيوت بنيت بعناية من اللبن مع دعامة من الحجارة والحجارة المقطعة في الأساس.

الأمر لايتعلق بهياكل سريعة الزوال لأن عليها آثار إعادة دورية لترميم الطلاء، والشيء نفسه بالنسبة للأرضيات المحيطة المتتالية.

هذه السلسلة من الجدران هي دائماً قليلة الارتفاع (النماذج الأفضل حفظاً تفصح عن طلاء رأسي مدوّر يسمح بتقدير الطول بأقل من ٥٠سم).

بخلاف موقع شايونيو في تركية، لانظن أن المسافات بين الجدران الصغيرة هنا ممكن أن تكون قد ملئت بالتراب، بحيث يشكل المجموع سطحاً مرتفعاً بني عليه السكن الحقيقي.

في الحقيقة لابد لنا أن نتصور وجود ـ في الطبقات المختلفة، في آن واحد، بيوت مستطيلة (كلاسيكية) وأخرى مبنية على أساسات.

من جهة أخرى فإن آثار الصقل والترميم الجزئي للطلاء الدوري ليس لها ما يبرزها، فلو كانت الفراغات معدّة لتكون مملوءة بالتراب، حتى لو كانت الجدران تدعم غطاءً دائماً (فقط الجدران الخارجية) لكانت تخضع لهذا الشكل من التعامل.

بالعكس نعتقد بأن هذه الجدران استخدمت كدعائم لسطوح ذات مواد خفيفة (قصب وأغصان)، والفراغات بين الجدران بقيت مفتوحة فهي تملك وظيفة مرور الهواء بحرية، حتى تتم التنقية والتي كان قد قام بها الحجر المقطّع.

إن عملية إعادة طلاء الجدران تؤكد أن السطوح لم تكن ثابتة، لكنها متغيرة بانتظام (ترميم فصلي) مما يوحي باستخدام مواد خفيفة كالقصب أو الأغصان.

تبقى الوظيفة الصحيحة لهذه الأبنية واضحة، فلتكن كما هو متعارف عليه في المنطقة للنوم أو للتجفيف من أجل حفظ الغذاء. إذا كانت هذه الانشاءات (المخطط الشبكي) لها أبعاد ووظيفة مختلفة عن تلك المعروفة في النيوليتي ما قبل الفخار ب في طوروس وخاصة في موقع شايونو، فإن الفكرة الأولية هي نفسها.

في العودة لمسألة المبادلات وانتشار الأشياء، والتقنيات والأفكار بين الفرات الأوسط والأناضول حتى الوقت الحاضر يظهر أن النيوليتي ما قبل الفخار ب في طوروس نتج عن انتشار النيوليت في الفرات الأوسط، ثم أعاد بالمقابل ابتكارات خاصة به كهذه النماذج من العمارة، وبغياب اكتشافات أقدم في طوروس يظهر بأن نموذج المخطط الشبكي لشايونو قد ولد في الفرات الأوسط قبل أن ينتشر نحو الشمال.

الأدوات الصوانية المكتشفة كثيرة وتمثل تماماً هذه الفترة، تبرز الكثير من الخطوط المتوازية وبنفس مواد المريبط في السوية الرابعة والشيخ حسن (النيوليتي ما قبل الفخار ب القديم) سيطر التسلّح من خلال السهام ذات السويقة (رؤوس بيبلوس وأشياء أخرى) شملت نصالاً مستقيمة من النوى، حيث ضعف هذا الشكل في نهاية (النيوليتي ما قبل الفخار ب المريبط النهائي).

كما وأنه خلال الفترات السابقة جلب الأوبسيديان من الأناضول (أكثر تحديداً من كابادوسا)، ولكنه بقي هامشياً بالنسبة للصوان واستعماله، ومحدوداً بالنصال والنصيلات الضيقة والتي لم تكن مشذبة بشكل دقيق.

تحوي الأدوات العظمية في النيوليتي ما قبل الفخار (أ) القديم ـ بشكل أساسي ـ دفعة للشكل المنتشر في كل مكان، وأقل غنىً وتنوعاً عن مثيلاتها في النيوليتي ما قبل الفخار أ المريبطية) في المواضع السابقة.

علينا مع ذلك الاشارة لعدة قطع لنموذج كامل للخطّاف، حتى الوقت الحاضر، يتبين بأن هذا الشكل كان مصنعاً في الأناضول (حيث عرف بالتحديد في موقع كفر هويوك) قبل أن ينتشر بكثرة إلى سلسّلة الأناضول (شاتال هويوك ـ هاسيلار) واليونان باتجاه سورية حيث عرفت هذه الأدوات في أبو هريرة وحالولة في الوقت الحاضر. إن أمثلة جعّدة المغارة هي الأقدم المعروفة والتي من الممكن أن تكون قد ابتكرت في الموقع الأول من هذه المقاطعة في الفرات الأوسط السوري قبل أن تؤلف مجالاً ثقافياً في انتشار النيوليت إلى الشمال والشمال الشرقي، وبنفس العنوان فإن الأبر المثقوبة حصل عليها بشقوق محورية ابتكرت في المريبط في بداية النيوليتي ما قبل الفخار أ.

عناصر متعلقة بالمبادلات اللاحقة في النيوليتي ما قبل الفخار ب:

بالرغم من سوء حفظ طبقات النيوليت الفخاري (قبل حلف، الألف السادس ق.م) تثبت انتماء هذه المقاطعة للشكل الثقافي المعروف في مختلف نقاط الجزيرة السورية (البليخ ـ الخابور ....).

كانت المبادلات بلا شك أكثر تنوعاً في النيوليتي ما قبل الفخار ب، كما يوضحها مثلاً استيراد الأوبسيدان ليس فقط من كابادوسا بل أيضاً من الأناضول الشرقية (بتنفول B).

آخر سكنى أثرية في جعّدة المغارة تعود إلى بداية النصف الثاني من الألف الثالث ق.م مع مقبرة من البرونز القديم (٣-٤)، الأثاث الجنائزي المشترك في هذ القبور

الفردية متنوع، ولكن يظهر أنه ناتج عن تقليد حرفي محلي للفرات الأوسط، بالرغم من أن المادة الأولية (مثل النحاس) قد جلب من الأناضول.

نتيجة:

منذ تنقيبات المريبط نعرف أن النيوليتي ما قبل الفخار ب ولد على ضفاف الفرات مستمداً مباشرة من النيوليتي ما قبل الفخار ب المحلي (المريبطي) ثم أنه انتشر إلى طوروس الشرقي ليشكل ثقافة جديدة (النيوليتي ما قبل الفخار ب طوروس) ويدمج عناصر ذات أصل سوري إلى إرث أناضولي (وخاصة للعناصر ذات الأصل القوقازي).

ثم وبفعل رجعي للابتكارات ذات الأصل الأناضولي ممكن أن تكون قد نقلت باتجاه معاكس مرافقة المبادلات للمادة الأولية (الأوبسيديان).

تنقيبات جعّدة المغارة تسلط أضواء جديدة على النيوليتي ما قبل الفخار ب القديم، وتظهر بأن الكثير من الابتكارات التي نعتقد بأنها من أصل يعود لطوروس قد كوّنت في المجتمع البدئي السوري، حيث بقيت قدرتها الابتكارية كاملة وبخاصة النموذج للمخطط الشبكي، فتطوره هو أحد مزايا حقبة احتلال شايونو، ويخص أيضاً ظهور الخطّاف العظمي T عنصر نسب أصله إلى الأناضول T. في هاتين الحالتين إن التطور والجودة اللاحقة للعناصر الثقافية هي إحدى مزايا النيوليت الأناضولي، ولكن فضل التجديد الأول تعود إلى منطقة الفرات الأوسط السوري.

العصر الحجري في الألف التاسع والثامن في شمال سورية، نتائج التنقيبات في تل حالولة (وادي الفرات، سورية)

ميغيل موليست

تعريب: بسام جاموس وعادلة طالبي

مقدمة:

إن منطقة شمال سورية وبالتحديد حوض الفرات الأوسط، هي واحدة من أهم المناطق في الشرق الأوسط التي تنبئ عن تطور معرفة التحولات الإجتماعية والإقتصادية الذي تمثله مرحلة الإنتقال من حياة القرى (الصيد والجني) إلى مرحلة تطوير الإقتصاد المعتمد على الزراعة والتدجين.

في السبعينات والثمانينات، قدمت مواقع المريبط (كوڤان، ١٩٧٦) والشيخ حسن (كوڤان، ١٩٧٨) وأبو هريرة (مور، ١٩٧٥) مستندات سمحت بتحديد التطورات الإجتماعية الثقافية لهذه التحولات وتفسير الشروحات المتعلقة بها (كوڤان، ١٩٧٨ــ١٩٨٩؛ مور، ١٩٨٥؛ جاك وماري كلير كوڤان، ١٩٩٣).

لقد اقتُرحت الحفريات الجديدة المنفذة في منطقة مشروع بناء سد تشرين والجارية ضمن إطار عمليات إنقاذ، بتوجيه من المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، مما سيسمح بإغناء معلوماتنا عن هذه التحولات وإعادة النظر فيها. وتندرج ضمن هذه الحفريات أعمال البعثة الأثرية الإسبانية (وزارة الثقافة، جامعة آتونوما في برشلونة ـ إسبانيا) العاملة في موقع حالولة الواقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات، قرب مدينة جرابلس الحالية. وقد بدأت البعثة أعمالها منذ عام ١٩٩١ ضمن ظروف مناسبة وذلك بفضل دعم المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية. ونحن نشكر بشكل خاص الأستاذ الدكتور سلطان محيسن المدير العام للآثار والمتاحف، والدكتور عدنان البني مدير التنقيب والدراسات، والدكتور محمد وحيد خياطة مدير آثار حلب، والسيد محمد حاج علي ممثل المديرية لدى البعثة. كما نذكر بأن نجاح البعثة مرده اندراجها ضمن مشاريع نشاطات وزارة الثقافة الإسبانية ـ المديرية العامة للفنون الجميلة والأرشيف، بالإضافة إلى مساهمة وزارة التعليم والبحث (DGICYT. Projet NH 93-0903)[١] في دعم وإنجاز المشروع.

موجز عن جوانب المسألة المتعلقة بالفترة الواقعة بين الألف التاسع والألف الثامن في منطقة الفرات الأوسط:

نلاحظ حسب معلوماتنا الحالية من الوثائق، أن منطقة الفرات الأوسط واحدة من المناطق النادرة في الشرق الأوسط التي استمر السكن فيها بين الألف العاشر والألف الثامن، حيث نستطيع أن نلحظ التحولات المتتالية في مجال العمارة والحرف والتموين، الخ. مما يسمح لنا بدراسة تفصيلية

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

لتطور التحولات من مرحلة الإقتناص (الجني والصيد) إلى مرحلة الإنتاج (الزراعة والتدجين) .

رغم أن الدورة الكاملة لهذه التحولات بدأت منذ الألف العاشر، سنقوم بتقديم محصلة المعلومات الحالية قبل المستندات الجديدة التي تشمل الفترة الممتدة بين الألف التاسع والثامن . من الضروري أن نذكر بأنه منذ البداية كانت سمات تل حالولة تشكل استمرارية واضحة مع المراحل السابقة في بقية مواقع المنطقة نفسها (انظر مقالات كوڤان، ستوردور، كوكينيو في هذا العدد) .

تشير الدلائل المكتشفة بأن العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط (٩٢٠٠-٨٥٠٠) يتجلى بالدرجة الأولى في العمارة . وهكذا يدل موقع (أبو هريرة) خلال إستيطانه الثاني بعدما هُجر في العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار أ، على توطيد القرى الزراعية كل مرة مع اتساع أكبر يقدر بـ (٨هكتار)، وفي مجال العمارة فقد ظهرت تقنيات وأفكار جديدة لأبنية من الأجر متعددة الغرف، أرضيتها مطلية بالكلس وأحياناً ملونة . كما أصبحت المواقد، الأفران والحفر لحفظ الحبوب داخل المنازل .

في مجال الإقتصاد، ورغم أنه في المرحلة القديمة يُعتقد وجود زراعة ما قبل التدجين، يبدو أنه ابتداءً من سوية (أبو هريرة ٢)، وُجدت زراعة الحبوب والبقوليات، كما نستطيع أن نلاحظ الدلائل الأولى لتدجين الضأنيات والغنميات (ليجي وردّده هيلمر، ١٩٩٢) . وتستمر تقنية النحت النصالي التي ظهرت منذ مرحلة المريبطي الحديث في إنجاز أدوات حجرية منها أسلحة عديدة أغلبها من نمط جبيل . كما سمحت هذه التقنية بتطوير صناعة واستعمال الفؤوس المصقولة . من جهة أخرى، إزداد استعمال مادة الأوبسيديان، كما تعددت المناطق من حيث كان يُؤتى بها، إذ بالإضافة إلى منطقة كبادوكيا كما في المراحل السابقة، أُتي بها من الأناضول الشرقية (ماري كليركوڤان، ١٩٩١) .

في المجال الرمزي والفني نشير إلى وجود طقوس خاصة بثقافة العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب، مع جمع مجموعة جماجم في مستودع أو وضعها على أرضيات المنازل، ولقد عُرفت هذه العادات في (المريبط وأبو هريرة) .

في المرحلة الحديثة للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب (٨٥٠٠-٨٠٠٠) لاحظنا استمرارية الإقامة في أبو هريرة بتوسيع مساحة السكن في نفس الوقت، مع ظهور مواقع جديدة، سواء نحو نهر الفرات الأدنى مثل بقرص (أكرمانس وآخرون، ١٩٨٣؛ رودنبورغ، ١٩٨٦)، أو في المناطق المرتفعة نحو الأناضول مثل كرتيل (ڤوا، ١٩٨٦) أوهياز (رودنبورغ، ١٩٨٩) .

تشير وثائق بقرص إلى تعقيد المنازل ذوات ٥ غرف أو أكثر ونظام معقد ومرتب للمساحة المسكونة . بينما في المجالات الأخرى استمر التشابه مع العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط . في مجال الحرف نلاحظ في نهاية هذه المرحلة منذ حوالي ٨٠٠٠ بروز فنون النار مع ظهور الفخار، إما في منطقة الفرات كموقع بقرص، وإما في قرى حوض البليخ مثل تل أسود، أو الدامشلية (لوميير، ١٩٨٦) .

في المجال الإقتصادي، نلاحظ في هذه القرى توطيد تقنيات الزراعة بشكل كبير مع زراعة أنواع جديدة من الحبوب كالقمح القاسي *Triticum Aestivum/Durum* الذي لم يُوجد سابقاً إلاّ في واحة دمشق، بينما نجده حالياً حتى في مناطق السهوب كبقرص . ولقد خص هذا الإنتشار حتى زراعة البقوليات، كما أنه خلال هذه المرحلة بدأ استغلال الكتان في تل الرماد في وسط المشرق . غير أن توطيد الممارسات الإقتصادية الجديدة لوحظت خاصةً في استغلال الحيوانات، بحيث أُكد تدجين الضأنيات والغنميات، بينما تعود آثار تدجين الثور قبل ٨٠٠٠ في المواقع الموجودة في منطقة نهرية مثل بقرص وهياز أو في رأس الشمرة على الساحل (هيلمر، ١٩٩٢) .

ابتداءً من الألف الثامن . تصبح وثائق منطقة الفرات الأوسط نادرة ويصعب تركيبها . ورغم استمرار الإقامة في تل بقرص وأبو هريرة وكرِ تيل خلال القرون الأولى، فإن الوثائق المدونة لاتسمح بوضع جدول أكبر، وهذا ما قاد الباحثين هورس وكوبلاند (١٩٨٣) إلى اعتقاد نهاية دور منطقة نهر الفرات في تلك المرحلة، لدرجة أنهم تحدثوا عن العزوف عن هذه المنطقة بإتجاه الغرب أو الشرق، حيث نلاحظ إقامة سكانية أكثف، وحيث يسمح لنا وجود الفخار بتعريف مجموعات ثقافية مثل « المنطقة السورية -

السيليسية » على طول ساحل البحر المتوسط، أو منطقة الخابور وروافد الفرات الشرقية.

وثائق تل حالولة الجديدة:

تدل الأعمال التي تمت حتى الآن في هذا الموقع على احتمال وجود إقامة مستمرة منذ العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط، حتى ثقافات النصف الأول للألف الثامن. (أي الفترة التي، حسب التأريخ غير المضبوط، تغطي المرحلة ما بين ٨٧٠٠ و٧٤٠٠). كما أنه تم التعرف على إقامة تعود إلى مرحلة حلف الوسيط في أجزاء أخرى من التل.

مرحلة استيطان العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط:

إلى يومنا هذا، تم تنقيب مساحة تقارب ١٠٠م٢، تعود إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب الوسيط، الذي لم يُعثر على آثاره إلاّ في الجزء الجنوبي من التل (القطاع ٤)، ويأتي مباشرةً فوق الأرض البكر. وحسب التواريخ المطلقة التي تحصلنا عليها، ترجع هذه المرحلة إلى الجزء الأول للألف التاسع. (هناك تأريخان: الأول ٨٧٠٠ ± ٦٠ وهو الأصح، والثاني ٩٥٢٠ ± ١٨٠ ويُعتبر قديماً جداً).

إلى يومنا هذا، تم التعرف على ست سويات مع تسلسل أبنية، وإقامات وهجرات منازل مع المساحات الخارجية التابعة لها، لكنه من الصعب تحديد المساحة المسكونة بشكل دقيق، رغم أن العلامات تجعلنا نعتبرها بحوالي ٦ /٧ هكتار.

العمارة وتميُّز المساحات:

لقد تم تنقيب بنائين كاملين، الأول أعيد بناؤه مرة واحدة فقط بينما أُعيد بناء وترتيب الثاني -على الأقل- أربع مرات. وتتميز عمارة هذه المرحلة بالمخطط المستطيل الشكل مع حجرتين أو ثلاث ذوات أحجام مختلفة. وتتمثل المواد المستعملة في بناء الجدران في الأجر الخام أو اللبن، وفي بعض الأحيان بالأحجار، كما طليت الأرضيات وواجهات المنزل الداخلية بالجص. كان يتم الإتصال بين الغرف عن طريق مداخل عالية نوعاً ما، ومطلية هي الأخرى بالجص. في الغرفة الكبيرة بُني فرن بتقنية متحضرة، وبالإضافة إلى هذه الأبنية، توجد مساحات خارجية بُلطت أرضيتها بالتراب المدكوك، وفيها طبقات من الفضلات وبعض الإنشاءات (كمواقد في حوض، الخ)، وهذا ما يدل على استعمال هذه المساحات للنشاطات المنزلية (التقطيع وتجهيز الطعام) أو لنحت الأحجار، كما وُجدت عدة حصر متفحمة.

ولقد قدمت إحدى الأبنية عناصر رمزية، إذ تم العثور فيها على خمس مقابر في الطبقة الحديثة، ومستودع لجماجم ثيران *Bos Primigenius* في قاعدة كل طبقة معادة البناء. كما تتميز هذه الأبنية بكون أحد جدرانها الخارجية دائري، على شكل محراب .

النشاطات التقنية:

في الصناعة الحجرية حيث الدراسة جارية(٢)، لوحظ استغلال نوعين من الصوان المجلوب من مناطق مختلفة: استُخدم خاصةً الصوان ذو الحبيبات الخشنة أو المتوسطة، أُتي به من منطقة وادي الفرات نفسها، إذ نقله النهر مع بقية الحصى؛ واستُعمل النوع الثاني، وهو من نوعية أفضل، في صناعة بعض الأدوات، وقد أُتي به من منطقة أبعد لم تُحدد بعد. كانت تقنية نحت الحجارة نصالية، ولقد استُعملت خاصةً لطرق نوى ثنائية القطب، من بينها النوى الزورقية الشكل التي تميز العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب.

ومن الأدوات التي استطعنا التعرف عليها، نذكر الأسلحة الدفاعية، منها بشكل أساسي نبال جبيل، وأيضاً النصال المشذبة، بعضها ملمعة، والمثاقب والأزاميل، الخ. كما وُجدت مادة الأوبسيديان، وأغلبها على شكل نصيلات. وتتمثل الأدوات المصقولة في بعض الفؤوس وكرات المقلاع. أما فيما يتعلق بالأدوات العظمية، فإلى جانب الأدوات العادية نذكر المصاقل والمخارز وإبرة محززة من نمط مريبط(٣).

إقتصاد المعيشة:

قدمت دراسة المستحاثات النباتية والحيوانية الجارية وثائق مهمة حول اقتصاد هذه القرية(٤): فيما يتعلق بالإستغلال الحيواني، يتضح بأن الصيد كان النشاط الأساسي

لتأمين الغذاء اللحمي. ومن أهم الحيوانات المصطادة نذكر الثيران من نوع *Bos Primigenius* إلى جانب الغزلان والخنازير والخيليات من نوع *Equus Hemiouns* و*Equus Asinus*، والأيليات من نوع *Dama Mesopotamica*، إضافةً إلى السلاحف والعصافير. وإن الكلب أحد الحيوانات التي يمكن اعتبارها أليفة، إلاَّ أنه لا توجد آثار لاستهلاكه. وتدل آثار لأنواع من الضأنيات والغنميات البرّية والمدجنة على ممارسة التدجين في نفس الوقت مع الصيد في قاعدة الموقع، بينما ترتفع نسبة الضأنيات تدريجياً من القاعدة، مع احتمال أنها كانت في السويات السفلى متوحشة وفي السويات العليا مدجنة. وتشير كل هذه المعطيات إلى استهلاك واسع للحيوانات الموجودة في هذه المنطقة.

أما فيما يتعلق بالإستغلال النباتي، تدل الدراسات النباتية الأولية على زراعة القمح في قاعدة الموقع، إذ وُجدت بعض أنواعه بشكلها المدجّن *Triticum aestivum/durum* *Triticum monococum, Triticum dicoccum*، لكن عُثر أيضاً على أنواع برية مثل *Triticum diciccoides* و *Hordeum spontaneum*، وسوف تمكننا دراساتها المتعمقة بتحديد فيما إذا كانت هذه الحبوب قد قُطفت أو زُرعت. كما أُكدت زراعة واستهلاك بعض البقوليات مثل العدس والبازلاء، واستثمار الأشجار المثمرة البرية كأشجار الزيتون والخوخ. وتشير تحاليل الفحم الأولى على وجود أنواع مختلفة من النباتات كالفستق *Pistacia*، وتدل هذه الأنواع على وجود مناخ أكثر رطوبة من الوقت الحاضر، وبالتالي وجود غطاء نباتي أكثر أهمية.

عادات الدفن:

رغم قلة المدافن (تم العثور على ستة مدافن) نلاحظ تنوعاً معتبراً في عاداته، إذ عُرف الدفن الثانوي للجماجم، مدافن فردية أولية أحياناً داخل منزل في حفر لها غطاء، وأخيراً مدافن ثانوية لأشخاص.

الإقامة في الموقع خلال العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الحديث:

إن هذه المرحلة معروفة في مساحة كبيرة من الموقع (بلغت المساحة المنقبة أكثر من ١٥٠م٢)، وتم التعرف فيها على تسلسل معتبر لطبقات استراتيغرافية، مكونة من سويتين تتميز كلاهما بوجود أبنية وبإشغال وهجرة المنازل والفسحات الخارجية الملحقة بها. وإضافةً للتأريخات النسبية المذكورة سابقاً، تضع ستة تأريخات مطلقة هذه الإقامات في النصف الثاني من الألف التاسع.

ويبدو أنه خلال الإقامة في هذه المرحلة، عرفت القرية اتساعاً أكبر في هذا الموقع، إذ شملت حوالي ٨ هكتار. كانت المنازل منفصلة عن بعضها البعض بمساحات خارجية، بُنيت فيها مواقد وأفران مدفونة وورشات (حرفية)، الخ ... وتشير كل هذه الأبنية إلى وجود نشاطات منزلية وحرفية خارج المنازل.

ولقد تم الكشف عن سبع منشآت جزئية أو كاملة لها مميزات وخصائص متشابهة. وتتمثل في بيوت مبنية على قاعدة حجرية وجدرانها من الآجر، مطلية من الداخل بالجص الذي استُعمل كذلك لطلى سطوح أغلبية الغرف. شكل هذه المنازل مستطيل وهي متعددة الغرف: للمنازل المحفوظة أفضل ثلاث غرف، ويبدو أنها استُعملت لوظائف مختلفة، ففي الغرفة الأكبر ذات السطح المطلي بعناية كبيرة، عُثر على موقد وفرن. بينما الغرفتان الأخريان أصغر حجماً، ولها وظائف ثانوية، إذ وُجد في احداهما عدد من مخازن الحبوب وهذا ما يدل على انها استُعملت للخزن. تتكون أرضية الفسحات الخارجية من الطين المدروس، وعُثر فيها على مواد عضوية (مساحات فحمية، الخ.) إضافةً إلى أبنية للحرق. ونلفت الإنتباه إلى عدم وجود أية جمجمة ماعدا قرون ثور *Bos Primigenius* في أساسات هذه المنازل، لكن لا توجد أدلة على ممارسة اعتيادية.

أخيراً، عُثر في القطاع ١ على جدار كبير بُني من الأحجار الكبيرة وهو حالياً قيد التنقيب، يبلغ ارتفاعه المحفوظ أكثر من ٣م، وحسب التأريخات الحالية، يعود إلى نهاية النيولتي ما قبل الفخار ب.

النشاطات التقنية:

في مجال الصناعة الحجرية، تتميز هذه المرحلة عن السابقة بالإستمرارية الكبيرة في استغلال نفس أنواع الصوان، كما ازداد استعمال الأوبسيديان، وعُثر منه على

نوى ذات قاعدة واحدة للطرق. ويدل وجود تقنية الضغط في طرق الأوبسيديان على أن الصناعة كانت محلية، رغم أنه كان يُؤتى بهذه المادة من منطقة الأناضول الشرقية وكبادوكيا[٥]. من الناحية التقنية، يمثل الصوان النوع الأساسي للحجر المستخدم، ولقد استُعمل في صناعة الأدوات الصوانية النحت الثنائي القطب والنصالي.

ونلاحظ هذه الإستمرارية أيضاً في وجود النبال كنوع غالب، ثم تأتي بالدرجة الثانية النصال المشذبة والمكاشط والمثاقب، الخ.

ومن بين رؤوس السهام، عُثر خاصةً على نبال جبيل، لكن في السويات العليا وُجدت كذلك نبال العمق. أما فيما يخص النصال المشذبة، عُثر على نوع جديد متميز ويتمثل في النصال المطروقة الملمعة ذات ضهر محدب (الأسود، كوڤان، ١٩٧٢)، وهي تميز العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الحديث في منطقة الفرات. ومن المميزات الأخرى، نذكر وفرة وتنوع الأدوات الحجرية المصقولة كالفؤوس والأواني وكرات المقلاع. كما عُثر على عدد معتبر من الحلي بأشكال خاصة بهذه المنطقة، ونذكر منها اللآلئ من الحجر الأخضر أو من الأوبسيديان. ولقد استُعمل أيضاً الطين في صناعة بعض الأدوات، ككرات المقلاع، وبخاصة التماثيل الحيوانية المبسطة. أما بالنسبة للصناعة العظمية فوُجدت بكثرة، منها خطّاف.

إقتصاد المعيشة:

فيما يتعلق باستغلال الحيوان، تختلف دينامية هذه المرحلة عن المرحلة السابقة، إذ تبين دراسات علم الحيوان الأهمية الكبرى لفصيلتي الضأنيات والغنميات المدجنة، وبخاصة الخروف رغم الإستمرار في استهلاك الغزال. يتواصل أيضاً استغلال الثور، ولقد لاحظنا انخفاضاً في قامته، وهذا ما يثبت تدجينه. أما فصيلة الخنازير فآثارها ضئيلة جداً، لذلك يصعب اثبات تدجينها. ولقد رافق التزايد في استغلال الأنواع الحيوانية المدجنة تناقص في الأنواع المصطادة، وبخاصة تلك التي كانت تشكل الغذاء الأساسي في المرحلة السابقة، كالغزلان والأبقار البرية والأيليات والخيليات والخنازير، رغم أن نسبتها كانت قليلة. أخيراً ـ ولو بشكل قليل ـ، نلاحظ استمراراً في استغلال الأنواع الحيوانية الصغيرة كالطيور والسلاحف.

وتبين تحاليل العينات النباتية التي لا تزال قيد الدراسة استمرارية بدءاً من أفق العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب الوسيط.

عادات الدفن:

عُثر في هذه المرحلة على خمسة مدافن فردية، أربعة منها أولية وواحد ثانوي. ولقد لوحظ وجود نسبة عالية (أكثر من ٧٠٪) من الأطفال، لا تساعد على تحديد الجنس، ونسبة قليلة من الشبان / البالغين. وبصفة عامة، تنتمي هذه البقايا لأشخاص من ذوي البنية الضعيفة، وإن المرض المنتشر كان نقص تنسج الأسنان الذي يسببه عادةً الإضطراب في التغذية[٦].

الإستيطان في النصف الأول من الألف الثامن:

المرحلة التالية المؤكدة في تل حالولة تعود إلى النصف الأول من الألف الثامن، وهي استمرار للمراحل السابقة كرونولوجياً، إلاّ أنها وُجدت استراتيغرافياً في قطاعات أخرى من التل. ولقد أُعطي لهذه المرحلة تسميات كثيرة، فبالمعنى الواسع إنها تطابق ثقافة "ما قبل حلف" التي لها علاقة بثقافات الساحل السوري كالعمق A-B ورأس شمرة VB- A (بريدوود، ١٩٦٠؛ دوكونتنسون، ١٩٦٣)، أو ثقافات منطقة وادي البليخ شرقاً (أكرمانس، ١٩٩٢). وبما أن دراستنا حول هذه السوية لا تزال جارية، فإننا نفضل أن نبقى الآن في الإطار الكرونولوجي، إلى أن نحدد بدقة صلاتها الثقافية.

معطياتنا من ثلاثة قطاعات:

لقد ساعدت الظروف الطبيعية، في القسم الجنوبي الشرقي من التل على الإقامة فيه، إذ أنه يقع عند ملتقى الواديين اللذين كانا يحيطان بالتل، حيث كانت الرؤية باتجاه الفرات واضحة. وفي عام ١٩٩٢، قمنا بحفر جزء من هذه الجهة (القطاع SS-7) على مساحة ٢٢٨م٢، فاكتشفنا ـ على الأقل ـ تسع سويات متتالية، متميزة بتحضير وبناء وهجر مجموعة منشآت سكنية، والتي حسب أربعة تأريخات

مطلقة ـ ترجع إلى النصف الأول من الألف الثامن ق . ح . (٧٨٨٠ ± ٧٤٤٠) .

في مختلف المربعات والسويات تم العثور على منشآت كبيرة، بُنيت من الطوب . في السويات المحفوظة أفضل، يصل ارتفاع هذه الأبنية حتى ١,١٠م، وتبين الأجزاء التي ظهرت حتى الآن جدراناً كبيرة، عرضها ١,٢٠م، وتختلف أحجامها وآثارها والمواد التي بُنيت بها وكيفية ترتيبها عن الأبنية المنزلية . وحسب الوثائق الحالية، ترجع هذه البقايا إلى سور كبير يحد بمساحات ذات أرضية مدروسة، لم توجد فيها آثار لمنشآت، لذا من المحتمل أنها كانت فسحات للإقامة في الهواء الطلق . ومن بين الأبنية المرتبطة بالسور، عُثر على باب أو ممر، وخاصةً مجاري مائية في مختلف السويات، يصل طولها في السوية المحفوظة أفضل ١٦م . وإن هذه المجاري عبارة عن حفر، حُفرت وعولجت بعناية، كما تدل على ذلك جدرانها المطلية بالصلصال وأحياناً بالأجر الخام، وتعلو قاعدتها المنحدرة قليلاً والمغطاة باللبن طبقة من الحصى . وكانت كل المجموعة مغطاة ببلاطات كبيرة مسطحة ومتداخلة . وحسب استنتجاتنا الحالية، بُنيت هذه كقنوات لنقل المياه في الإتجاه غرب ـ شرق التل، ووُضعت في الجزء الشمالي منه حيث الانحدارات ملساء أكثر .

في القطاع SS14 المفتوح على مساحة ١٥٠م^{٢}، تم العثور على وثائق أخرى، وتتمثل في ثلاث سويات معمارية كبيرة . ورغم أننا لم نحصل على تأريخات مطلقة، تحدد التأريخات النسبية هذه الإقامة في مرحلة أحدث من مرحلة القطاع SS7 .

وفي هذا القطاع، كشفت البقايا المعمارية عن وجود ستة مساكن منزلية ذات مخطط مستطيل ومتعددة الغرف، بُنيت على قاعدة حجرية، لكن جدرانها التي يُحتمل أنها بُنيت من الأجر الخام، وُجدت متآكلة جداً . وكانت أرضية الفسحات الخارجية من التربة المدروسة، وعُثر فيها على منشأت الحرق على شكل أحواض .

أخيراً، في الجهة العليا من التل حيث فُتح القطاع ١، وفي السويات الثلاث لمرحلة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، تم التعرف على إقامات جديدة التي ـ حسب البقايا و التأريخات المطلقة ـ تعود إلى الربع الأول من الألف الثامن . ولقد كانت هذه الإقامة الجديدة المرتبطة بالجدار الكبير باتجاه الشرق من حيث الأرضيات الخارجية التي تقابل الواجهة الخارجية للجدار، بينما كانت باتجاه الغرب من حيث الإنشآت التي تعلوا مباشرةً سويات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار . وفي هذه الجهة (أي الإتجاه الغربي)، تمكنا من التعرف على سويتين أساسيتين مع مساحات خارجية وحفر وبقايا لأبنية، من بينها النمط المعروف بإسم *Tholos*، وهو متكون من غرفتين مستديرتين / بيضويتي الشكل، قطرها الداخلي ٢,٢٠م و١,٣٠م، وهي متصلة بممر . في الطبقة الحديثة لهذا المبنى، عُثر على أرضية وواجهة داخلية مطلية بالجص، كما عُثر على مقعد صغير مرتفع قليلاً ومستطيل الشكل مستند إلى الجدار S.E . عرض المدخل الموجود في الناحية الغربية ٥٥ سم . وكانت الجدارن الداخلية مدعمة بعناصر دائرية . أما المرحلة الأقدم التي أعطت أيضاً أرضية وواجهة داخلية لجدران مغطاة بالجص، فقد كان جدار الغرفة ذات القطر الصغير مستنداً على جدران الغرفة الأساسية . رغم أن حجم البناء الذي كُشف عنه صغير نوعاً ما بالنسبة لأغلبية أبنية *Tholos*، فإن وظيفته كمنزل سكني واضحة .

إن الوثائق المستخرجة من الجهات الثلاث المنقبة و سبر عام ١٩٩٢، تشير إلى إقامة واسعة في التل خلال هذا الأفق الكرونولوجي . وتتميز هذه الإقامة بوجود جدار كبير، بُني كحاجز لمساحة سكنية ذات منشأة مبعثرة ومتعددة الغرف، تفصل بينها مساحات واسعة .

النشاطات التقنية:

حدث تغيير بالنسبة لاستغلال الأدوات الحجرية، إذ انخفض استعمال الصوان ذي الحبيبات الناعمة، بينما ازداد استعمال الصوان الخشن، ذي الحبيبات المتوسطة . كما حدث تغيير في تقنية صناعته، إذ رغم الإستمرار في تقنية النحت النصالي، انتشرت تقنيات أخرى أكثر تنوعاً بشكل أكبر . كما استمر استعمال الأوبسيديان بشكل كبير، وبينت تحاليل النوى من هذه المادة بأن صناعة الأدوات التي استُخرجت منها كانت محلية، وكانت تتم بتقنية الضغط . وتتمثل الأدوات العادية خاصةً في الأسلحة أو نبال العمق

التي أصبح لها دور أساسي، بينما فقدت الأنواع الأخرى، كالنصال المشذبة والمثاقب والكاشط، جمالها والمميزات التي عُرفت بها في المراحل السابقة. فيما يتعلق بالأدوات المصقولة، وُجدت بكثرة وتتمثل خاصةً في الفؤوس والمناقش والأواني الحجرية والهاون.

لكن الجديد في تقنية هذه المرحلة يتمثل في وجود الفخار. ورغم التنوع حسب السويات والقطاعات يمكننا جمع المجموعات المكتشفة بفضل الملاحظات التالية:

- بصفة عامة، النمط الممثل أكثر هو الفخار الخشن ذات مثبت نباتي والمعروف بـ (الإناء الخشن البسيط *coarse simple ware*). وضمن هذه المجموعة، تم التعرف على عناصر ملمعة (الآنية الخشنة البسيطة الملمعة *burnished coarse simple ware*) أو الآنية ذات الزخرفة المحززة (الآنية الخشنة المضغوطة والمحززة *coarse impressed and incised ware*)، أومجموعة أواني خشنة ومدهونة بالأحمر (الآنية الخشنة المدهونة بالأحمر *red-slipped coarse ware*).
- تتميز مجموعة الأواني الناعمة بالمثبت المعدني المتكون من حبيبات مصقولة، بعضها سوداء اللون، مع وجود كبير للكوارتز، وتسمى هذه المجموعة بـ(آنية داكنة الواجهة والملمعة *Dark Faced Burnished Ware*)، والبعض الآخر ملون بالأحمر (الآنية الملونة الحمراء *red painted ware*).

إن الدراسات الجارية[٧] لفخار مختلف السويات لاتسمح لنا بتقديم أية مقاربة دقيقة. لكن بشكل عام، نلاحظ تشابهاً مع المجموعات المعروفة في سويتي العمق أ والعمق ب بالساحل السوري (بريدوود، ١٩٦٠). ولأول مرة، نلاحظ في الموقع وجود أوعية بيضاء إلا أنها قليلة العدد. بينما عُثر على عدد كبير من أدوات متنوعة، منها الأختام الحجرية أو الخزفية، وأطواق من الخرز الحجري أو الخزفي، الخ.

إقتصاد المعيشة:

لاتزال دراسة العينات النباتية جارية، لكن تشير العلامات الأولية إلى استمرارية كبيرة لممارسات وأنواع المرحلة السابقة. فيما يتعلق باستغلال الحيوانات، تبين لنا تثبيت في التدجين المتعلق بدرجة أولى بالضأنيات والغنميات، مع وجود متوازن للماعز والخرفان. بينما تأتي فصيلة البقريات في الدرجة الثالثة من ناحية الأهمية، ولوحظت كذلك استمرارية صيد الأرخص. أما بقايا الخنازير، فعددها قليل جداً، لذا يصعب التعرف على العناصر المدجنة. كما استمرت نشاطات الصيد، إلاّ أنها انخفضت بشكل ملحوظ. ولقد ركز الصيد على الأرخص والأيليات والخيليات والسلاحف.

أخيراً، قدم تل حالولة مرحلة إقامة أخيرة لم تُحلل في هذا التقرير وهي تعود إلى أفق ثقافة حلف. وتتمثل في بقايا لأبنية في حفر على الأرضية العليا للقطاع ١. وتعتبر نفس هذه الأنواع من البقايا (السطوح الخارجية والحفر) أدلة أساسية لإقامات أحدث، والتي تأتي بعد ثقافة حلف ستراتغرافياً، وهي آخر إقامة للمرحلة الإنتقالية حلف الحديث/عبيد. وفي هذا الأفق، تمكنا من تنقيب منشأة مستطيلة قائمة على قاعدة حجرية.

مناقشة:

مع أن النتائج لا تزال جزئية، تبين الأعمال التي جرت حتى الآن في تل حالولة أهمية هذا الموقع في دراسة كيفية تطور التغيرات الإجتماعية والإقتصادية للعصر الحجري الحديث (الظاهرة النيوليتية). ولقد زودتنا المعطيات بمعلومات حول المراحل الأخيرة للعصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب، والمراحل الإنتقالية إلى ثقافات (غير معروفة جيداً في هذه المنطقة) تعود إلى الألف الثامن.

يشكل تل حالولة قرية مهمة خلال المرحلتين الوسطى والحديثة للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، إذ يضفي عليه اتساعه ومنشآته دوراً إقليمياً معتبراً. إن وجود بيوت مستطيلة على القاعدة، متعددة الغرف ومزودة بالمواقد والأفران وحفر لخزن الحبوب، يشير إلى المستوى العالي في التقنية المعمارية المتقنة آنذاك. ومن جهة أخرى، إن المنزل المُشار إليه في قطاع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب الوسيط، حيث وُجدت رموز كثيرة، تذكرنا بوثائق جبيل (دونون، ١٩٧٣)، أو بدرجة أقل وثائق تشايونو (أوزدوچان وأوزدوچان، ١٩٨٩) التي كانت لها وظيفة

"جنائزية"، وبخاصة دينية، إذ ربما كانت "معابد" (كوڤان، ١٩٩٤) . وفيما يتعلق بالجدار الكبير الذي عُثر عليه في القطاع ١، ورغم أن تنقيبه لا يزال جارياً ولم تُحدد وظيفته كاملاً، فإنه يدل على وجود أشغال كبيرة، ربما جماعية.

وتدل معطيات النشاطات التقنية على الاستمرارية القوية مع الآفاق الثقافية السابقة، وستؤدي دراساتها النهائية، دون شك، إلى تحديد أفضل مميزات العصر الحجري الحديث ماقبل الفخار ب في الفرات. كما سيزودنا تل حالولة بمعلومات جديدة في المجال الإقتصادي. إذ من جهة، وهذا هو الأهم، تمكنا من خلال التتابع الستراتيغرافي معرفة عملية تدجين أنواع حيوانية، التي أصبحت فيما بعد ذات أهمية اقتصادية كبيرة. وسيسمح هذا بإكمال المعطيات الجزئية من موقعي (أبو هريرة ورأس الشمرة)، ومتابعة عملية تثبيت الممارسات الزراعية. وإن معرفة كيفية استغلال البيئة بكل ما تقدمه من مواد وعناصر، ستسمح لنا بفهم علاقة المجموعات البشرية بوسطها الطبيعي، الذي حسب نظرتنا الأولية لا يبدو أنه كان مستغَل بكثافة، بل كان مداراً حسب النشاطات الإنتاجية الجديدة.

فيما يتعلق بالمراحل التي امتدت بين ٨٠٠٠ و ٧٥٠٠، فأول ظاهرة يمكن ذكرها هي استمرارية الإستيطان في الموقع، مع اتساع وأهمية مماثلة للمراحل الأسبق. إضافةً إلى ذلك، تدل الأبنية التي نحن بصدد إخراجها ودراستها، وقنوات المياه، على نظام قروي متحضر. ويعتبر هذا النمط المعماري وتنظيم المساحات هو الأقدم المعروف حالياً في سورية، ويمكن مقارنتها مع وثائق مناطق أبعد كموقع مغزلية في العراق الذي عُثر فيه على جدار (بدر، في الثمانينات)، وأيضاً موقع كيروكيتيا (لوبرين، ١٩٩٤)، رغم أنها أحدث.

يدل إذن تل حالولة على استمرارية سكنية خلال النصف الأول للألف الثامن، وتؤكد هذا دلائل المسوحات الأثرية الحديثة مع تمركز على سطح مواقع تعود إلى نفس هذه المرحلة: موقع ملا أسعد، والحمام الصغير والحمام الكبير (كوپلند، ١٩٨٥)؛ كما تم التعرف على هذه المرحلة من خلال الإستيطان الثاني في موقع جعدة المغارة (كوكينيو، قيد الطباعة)، وأخيراً عُثر عليها أيضاً في قاعدة موقع قوزاق شمالي (لوميير، معلومة شفوية).

وعلى عكس جنوب المشرق (پيرو، ١٩٩٣؛ رولفسون وكوهلر - رولفسون، ١٩٩٣)، تدل معطيات نشاطات حالولة الإقتصادية والتقنية على استمرارية الأعمال الجديدة المتقنة طوال فترة ألفي عام، بدون انقطاع ولا هجرة، إذ كانت الإقامة دائمة، وكان الإنتاج الإقتصادي في هذا الموقع متقن. وإن حالة البحوث الحالية لا تسمح بربط حالولة بمجموعات ثقافية أخرى معروفة (مثلاً العصر الحجري الحديث السوري - السيليسي)، ولا باثبات وجود ثقافة خاصة بحالولة. لكن يضع هذا الموقع احتمالات جيدة لتحديد استمرارية التطور الثقافي والإجتماعي والإقتصادي لمجموعات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب في منطقة وادي الفرات.

البحوث الأثرية في حوض الروج، إدلب

تاكويا إيواساكي - اكيرا تسونيكي

تعريب: إحسان شيط

مقدمة

أجرت بعثة جامعة تسوكوبا أبحاثاً أثرية في محافظة إدلب، شمال غربي سورية، في الفترة مابين ١٩٩٠ و١٩٩٢. وكان الغرض من وراء هذه الأبحاث هو الحصول على معطيات مادية فعلية بغاية دراسة الانتقال التاريخي بدءاً بالقرية الزراعية وانتهاءاً بالمدينة، لذا ستنصب اهتماماتنا الخاصة على مواقع العصر الحجري الحديث وبدايات عصر البرونز.

خطط هذا المشروع بالارتباط الوثيق مع التنقيبات التي قام بها متحف الشرق القديم في طوكيو منذ العام ١٩٨٠ في تل المصطومه. لقد استكملنا عملنا الميداني الواسع النطاق، ونرغب أن نعرب عن امتناننا الحميم لكافة المؤسسات والأفراد الذين انخرطوا في بحثنا، وبخاصة لفخامة السيدة نجاح العطار، والدكتور سلطان محيسن والدكتور عدنان البني، الدكتور علي أبو عساف، السيد عدنان الجندي، السيد نسيب صليبي، السيد عبدو أصفري، السيد محمد لحلوح، السيد حميدو حماده، السيد جمال حيدر والعاملين الآخرين في المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية.

منطقة الدراسة هي حوض الروج، الواقعة على بعد ١٠ كم غربي إدلب، وحوالي ٧٠ كم جنوب غربي حلب (الشكل١) .يمتاز هذا الحوض بموقع نموذجي محاط بالجبال الكلسية (شكل٢) . يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب حوالي ٣٠كم و٨كم كحد أقصى من الشرق إلى الغرب. وقد فصلت الحمم البازلتية الجزء الجنوبي من هذا الحوض عن سهل الغاب الممتد على ضفتي العاصي. أما توضعات طمي المنعطفات النهرية المروحية الشكل التي جلبتها مسيلات أودية الجبال المحيطة، فقد استقرت على حافة الحوض. في حين انتشرت توضعات السهل الفيضي داخل توضعات المنعطفات النهرية المروحية الشكل، وكانت هنالك بحيرة قديمة، ندعوها بحيرة العمق، قائمة في مركز الحوض، وهذه البحيرة استعيدت للاستثمار الزراعي، لحقول القطن بوجه خاص، وقد اكتشف ٣٣ تلاً داخل الحوض، ومن الجدير ذكره أنه ما من مستوطنة قديمة تأسست في السهل الفيضي، وأن كل التلول تقريباً اتخذت مواقعها عند أطراف توضعات المنعطفات المروحية، لأن الكثير من الينابيع تظهر في هذه النقاط (شكل ٣)

منهج البحث

يتألف بحثنا من ثلاث عمليات أساسية؛ أي سبر الأعماق والمسوحات العامة والدراسات البيئية الطبيعية. وقد أجريت عمليات السبر في أربعة تلول، تل عري ١ و٢، وتل عبد العزيز وتل الكرخ٢، والتي أمدتنا بتسلسل زمني حضاري مفصل للحوض من العصر الحجري الحديث إلى بدايات عصر البرونز.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

لقد استخدم هذا التسلسل الزمني لتحديد العصور التي تعود إليها المواد المجمعة أثناء عمليات المسح العامة، التي أجريت للتوصل إلى فهم انتشار المواقع الأثرية لكل عصر. وقد استخدمت المسوحات السطحية التصنيفية لبعض التلول الهامة. والشكل ٤ يبين حالة مجمع في تل حري. رتبت شبكات متسامتة ٢×٥م على مجمع التل طولانياً وعرضانياً. وقمنا بجمع كل المواد السطحية في كل شبكة، وقسمت المواد وأحصيت حسب العصور التي تعود إليها. زودنا هذا العمل بمعلومات عن امتداد المستوطنة في كل عصر.

قام الاختصاصيون بالدراسات الجيومورفولوجية والجيولوجية والنباتية والبلينولوجية (فرع من علم النبات يبحث في الأبواغ واللقح). وقد أمدتنا هذه الدراسات بالكثير من المعلومات عن البيئة القديمة للحوض، وحجم التغير الذي طرأ على بحيرة الروج القديمة، مثلاً.

التعاقب الزمني وعدد المواقع

استطعنا، استناداً على نتائج عمليات السبر الأربعة، أن نقسم التعاقب الحضاري منذ العصر الحجري الحديث وحتى بدايات عصر البرونز في حوض الروج إلى الفترات الست التالية. وسمينا كل فترة الروج ١ حتى الروج ٦.

لقد شهدت الروج ١ تأسيس المستوطنات الأولى التلية النمط في الحوض. وقد تم تحديد هذه الفترة بالاعتماد على الطبقات الأقدم لتل الكرخ٢، وهي تعود إلى مراحل العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار النهائية والأخيرة في المشرق.

وتعود الروج ٢ إلى النيوليتي الفخاري والتي أعقبت الروج I مباشرة. وقد تمكنا بالاعتماد على عمليات السبر في تل الكرخ٢ وتل عري ١ و٢ من وضع اليد على عملية نشوء مرحلة فخارية مبكرة مفصلة وقسمناها إلى أربعة فترات جزئية. وقد بدأت هذه السلسلة الفخارية المتعاقبة بالفخاريات غير المصقولة ذات العجينة الرملية والسطح البني الشديد النعومة والخالي من الزخارف (الشكل ٥). أما الشكل فقد اقتصر على الطاسات المدورة القعر. سميناها آنية الكرخ، والتي يحتمل أنها سبقت آنية العمق نموذج A المصقولة، الداكنة السطح.

وأنتجت المراحل الجزئية الثلاث التالية آنية العمق B–A، إلا أن كل مرحلة جزئية لها أسلوبها الزخرفي المميز. فالآنية المصقولة القاتمة السطح للفترة الجزئية الثانية، مثلاً، عليها طبعة مسمار (الشكل ٦)، والثالثة عليها طبعة المِهزة (الشكل ٧)، وآنية الفترة الأخيرة فعليها النقش المصقول (الشكل ٨).

وقد تميزت الروج ٣ بالتأثير الحلفي في صناعة الفخاريات المحلية. وقد تم التعرف عليها خلال عمليات السبر في تل عري ١ وتل عبد العزيز. وبالرغم من اكتشاف فخاريات حلفية حقيقية مطلية (الشكل ٩)، فإن فخاريات هذا العصر الأكثر روعة هي الآنية الصقيله المطلية بالأحمر ذات العجينة الصفراء الشاحبة إلى الصفراء البرتقالية (الشكل ١٠).

وخلال فترة الروج ٤، ألغت الفخاريات العبيدية النسب التأثير الحلفي إلغاءً تاماً. وقد أنتجت طبقات تل عبد العزيز العليا مقداراً كبيراً من الفخاريات المطلية العبيدية النسب.

كانت مرحلة الروج S هي الفترة الواقعة بين نهاية العهد العبيدي وبدايات عصر البرونز. لسوء الحظ، المعلومات المتوفرة حتى الآن قليلة، لأننا لم نصادف الطبقات الحضارية لهذا العصر في عمليات السبر. وقد أشارت بعض كسر الفخار من المجموعات السطحية إلى وجود هذا العصر في الحوض، وتعود فترة الروج ٦ إلى بدايات عصر البرونز في شمال غربي سورية. أنتجت الطبقات العليا المسبورة في تل عري I أنماطاً متعددة من الأواني الرقيقة المدورة الضاربة إلى الصفرة، وقد أعطت المثل الرائع على التطور المحلي من البرونز القديم I إلى BIVEBI 4، أما عمليات السبر الكرونولوجي (التسلسلي الزمني) للعصور اللاحقة فلم نقم بها، لأن اهتمامنا الخاص كان منصباً على الفترة من العصر الحجري الحديث إلى بدايات عصر البرونز.

وكما أسلفنا، تم اكتشاف ثلاثةٍ وثلاثين تلاً ضمن الحوض. والمواد العائدة إلى الفترة الواقعة بين الروج I والروج٦ جمعت من تسعة عشر تلاً، والتلال الأربعة عشر الأخرى

أنتجت فقط مواداً أحدث. إن موقع كل تل واستيطانه ملخصان في الشكل ١١ و١٢. ولابد لنا من ملاحظة أن معظم التلول قد استوطنت خلال عصرين أو أكثر. والآن ندرس نمط مستوطنة حوض الروج.

نمط المستوطنة

تم تعيين أولى أنماط المستوطنات في حوض الروج في تل الغفار I في الشمـال الشرقي وتل الكرخ٢ في الجزء الجنوبي للحوض. وهاتان المستوطنتان العائدتان لمرحلة الروج I هما الوحيدتان اللتان اكتشفتا من هذه المرحلة، وذلك جزئياً بسبب صعوبة تمييز مواقع النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB المتأخرة عن مواقع العصر الحجري الجديد الفخارية المبكرة بالاستناد إلى المواد السطحية. وللسبب نفسه كان من العسير جداً أن نفترض حجم مستوطنات النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB. على أية حال، بدا أن مستوطنات مرحلة الروج I شغلت أكثر من بضعة هكتارات بقليل.

أثبتت حفرة سبرٍ صغيرة في تل الكرخ٢ أن قاطنيها قد جلبوا كمية هائلة من حصى الصوان من مقلع مجاور وأعدوا أدوات حجرية عديدة ضمن مستوطنتهم. هنالك نبع صغير، عين الكرخ، عند أسفل تل الكرخ٢، والتي لابد أنها مدت سكانها القدماء بأسباب الحياة. وعلاوة على ذلك، اكتشفت أيضاً مبانٍ مستطيلة الشكل شيدت بالطين المدعوك (Pise) في حفرة السبر.

اكتشفت ١٤ تلاً من تلال فترة الروج٢ في المنطقة. وهي تشير إلى أن تطور الحوض كان يسير بسرعة خلال هذا العصر، وقد أنتج مجمعان كبيران مهمان في عري في الشمال والكرخ في جنوب الحوض عدداً هائلاً من المواد المتزامنة مع فترة الروج٢.

يمثل الشكل ١٣ خريطة لمجمع التل في الكرخ. والمثير للدهشة، أننا لم نستطع جمع شيء سوى مواد العصر الحجري الحديث (أي عصري الروج١ و٢) من فوق تل عين الكرخ وتل الكرخ٢، باستثناء الجزء ا لجنوبي من التل الأول والذي كان مغطى بشكل كثيف بكسر الفخار البيزنطي. جمعت بعض المواد أيضاً من أسفل تل الكرخ I، والتي كانت مغطاة بتوضعات كثيفة لحضارات لاحقة. وتشير المجموعة السطحية إلى أن مجمع التل، الذي شكل مستوطنة واحدة ضخمة خلال فترة الروج٢، بلغت مساحته أكثر من عشرة هكتارات.

ويشير مجمع التل في عري إلى نفس الوضع. فمجمع التل هذا تألف أيضاً من ثلاث تلول اصطناعية (شكل ٤)، التل الجنوبي الأعلى سميناه تل عري ١، والتلان المنخفضان اللذان سميناهما تل عري٢ وتل عري٣، كانا متصلين بالجزء الشمالي لتل عري ١. وأمكن جمع مواد فترة الروج٢ من كل هذه التلول. من ناحية أخرى، تل عري ١ فقط أنتج مواد أحدث. وقد أظهرت عمليات السبر في تل الكرخ٢ وتل عري ١ و٢ سلسلة من المباني المعقدة، مما يوحي بوجود مستوطنة كثيفة السكان هناك خلال مرحلة الروج٢. ووجود طبعات الأختام الحجرية والخرز التركوازي (الشكل ١٤) بين المواد المنقبة، يشير إلى أن هذه المستوطنات كانت مركزاً للتجارة ضمن الحوض. أما المواقع الأخرى المعاصرة، كتل ميليس وتل قليون وتل الغفار I وتل بتراد وتل فيلون٢ وتل عبد العزيز في الشمال وتل تليرا وتل مروان٢ في جنوب الحوض، فقد كانت كلها صغيرة نسبياً. وهكذا، افترض أن هنالك منظومة مستوطنات تتألف من واحدة ضخمة حولها عدة مستوطنات صغيرة في الحوض خلال ذلك العصر (الشكل ١٥).

اكتشفت مواقع أقل بالنسبة لفترتي الروج ٣ و٤ اللاحقتين، أربعة أو خمسة مواقع فقط تعود لهاتين الفترتين. وعلى الرغم من أن كل هذه المستوطنات قد تأسست في مرحلة مستوطنات الروج٢، فإن كسر الفخار جمعت من بقاعٍ أكثر محدودية من كسر الفخار الملتقطة من العصور السابقة. أما الموقع النموذجي فهو تل عبد العزيز، الذي غطى فقط ٦,٠ هكتار، ويمكن الافتراض بأن هنالك أفول في عدد السكان تصادف مع انحسار في حجم المستوطنة. هذه النزعة كانت أكثر جلاء بالنسبة لمرحلة الروج ٥.

وعودة السكن واضحة بالنسبة لفترة الروج٦. فقد أعيد استيطان أو تأسيس عشر مستوطنات من جديد في الحوض خلال تلك الفترة. ومعظم هذه التلول كانت بأقطار تتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠م، في حين أن مستوطنتي تل اذحان

المسورة في الظاهر في الشمال وتل الكرخ I في الجنوب، فقد كانتا أكبر إلى حدما. وقد أظهرت عملية سبرٍ في تل عري جزءاً من سور المدينة في هذا العصر. بكل الأحوال كانت معظم التلول ذات حجم متوسط والفروق في حجم المستوطنة خلال هذا العصر لاتنطبق والفروق التي لعصر الروج٢.

مناقشة

لقد أشرنا بصورة موجزة إلى تغير أنماط مستوطنات حوض الروج بالاستناد إلى عمليات المسح الأثري التي قمنا بها. وفيما يلي مناقشة لبعض وجهات النظر الضرورية للوصول إلى فهم أفضل للتاريخ المبكر في الفترة منذ العصر الحجري الحديث وإلى أوائل عصر البرونز في شمال غربي سورية.

من وجهة النظر الجغرافية، اكتشفت مواقع العصر الحجري الحديث في شمال غربي سورية في ثلاثة مناطق مختلفة (الشكل ١٦). المنطقة الأولى هي ساحل المتوسط، رأس شمرا (كونتينسون ١٩٦٢, ١٩٦٣, ١٩٦٤, ١٩٧٧، و١٩٧٧ ـ ١٩٧٨) وتل سوكاس (ريس وترين Riis and Thrane ١٩٧٤) وقلعة الروس (اهرتش ١٩٣٩) وطبعة الحمام Tabát el Hammam (بردوود ١٩٤٠) كلها موجودة في هذه المنطقة. وكل هذه المواقع تعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري ، ماعدا رأس شمرة التي وجدت فيها طبقة النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB الحديثة تحت طبقات النيوليتي الفخاري.

أما المنطقة الثانية فهي أحواض السهول القائمة حول أو بين السلاسل الجبلية، جبال اللاذقية، جبل الزاوية وجبال أمانوس، والتي تمتد شمالاً وجنوباً .ومعظم المواقع النيوليتية في هذه المنطقة قامت في السهلين، سهل العمق وسهل الغاب، على امتداد نهر العاصي .في سهل العمق، تل الجديدة، تل دهب (بردوود وبردوود ١٩٦٠)، ووادي الحمام (أوبرين ١٩٣٣)، وتل الشيخ (وولي ١٩٥٠, ١٩٥٣) ظهرت فيها كلها طبقات نيوليتية فخارية. وقد اكتشفت الطبقات النيوليتية الفخارية في قعر حفر السبر في حماة (انفهولت ١٩٤٠، فوغمان ١٩٥٨، ثوزين١٩٨٨) وقلعة المضيق (ديوي ١٩٧٠، أوت ١٩٧٦) في سهل الغاب. وقد أعلن عن مواد نيوليتية فخارية أو من النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB من صلنفة (كوڤان ١٩٦٨) والجانودية (كونتينون ١٩٦٩) على المرتفعات المحيطة بسهل الغاب. وقد تم الكشف عن التعاقب الحضاري من أواخر النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB وحتى النيوليتي الفخاري في قميناس (مسعودا وشعث ١٩٨٣) على سفح الجزء الشمالي الغربي لجبل الزاوية. وسهل الروج أيضاً جزء من هذه المنطقة الثانية.

المنطقة الثالثة هي سهل الهضبة الداخلية، خاصة بمحاذاة نهري قويق والفرات. وقد قامت جامعة لندن بمسح مكثف لنهر قويق (ماترز Matthers ١٩٨١)، واكتشفت حوالي ٢٠ موقعاً أنتجت مواداً متعددة منذالنيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB وحتى النيوليتي الفخاري. وذكر الكثير من مواقع النيوليتي ما قبل الفخار أ PPNA وب PPNB المبكر في منطقة الفرات الأوسط، تل مريبط (فان لون ١٩٦٨ كوڤان ١٩٧٦، ١٩٧٧, ١٩٧٨، كوڤان ١٩٩١) وتل أبو هريرة (مور ١٩٧٥، ١٩٧٩) وتل شيخ حسن (كوڤان ١٩٧٧, ١٩٧٨) وجعدة المغارة المنقبة حديثاً (كوكنيو ١٩٩٤) كلها من ضمن هذه المواقع، وقد أعطتنا مزيداً من المعلومات عن انبثاق المجتمعات الفلاحية المستقرة الأولى.

وحتى الآن، لم يرد ذكر مواقع تعود للنيوليتي ما قبل الفخار أ PPNA وب PPNB المبكر في المنطقتين الأوليتين في شمال غرب سورية، وهذه الحالة تقف على نقيض حالة المنطقة الثالثة. من ناحية أخرى، تم الكشف عن القليل من مواقع النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB الحديث وعن عدد هائل من مواقع النيوليتي الفخاري في المنطقتين الأوليتين، المتماثلتين أولياً مع نتائج تقصياتنا بالنسبة لحوض الروج.

وعليه يمكننا أن نفترض تحركاً دينامياً للسكان خلال أواخر النيوليتي ما قبل الفخار ب PPNB وبدايات عصر النيوليتي الفخاري. إذ يبدو أن المستوطنات انزاحت إلى الغرب والشمال حيث المطر الأوفر. ولربما كان لهذه الظاهرة صلة ببعض المعطيات الباليونولوجية التي تظهر انحساراً للمطر في أواخر الألف السابعة ق.م، وقد كان حوض الروج أحد تلك المناطق، التي انتقل الناس إليها، ونعتقد بأن مجمعات تلول

الكرخ وعري هامة جداً لدراسة مسار انبثاق المستوطنات المركزية الكبيرة الحجم. إن نمط مستوطنات مرحلة الروج ٢ يفيد بأن السلطة بدأت بالظهور قبل ذلك الوقت بقليل.

تناقص عدد المستوطنات في حوض الروج أثناء مرحلتي الروج٣ والروج٤ . أما القائمة منها فكان معظمها صغيراً ولم يكن بينها مراكز كبيرة في هاتين المرحلتين. وفخاريات هاتان الفترتان تأثرت تأثراً بالغاً بفخاريات شمال شرق سورية وشمال الرافدين، أي بالحضارة الحلفية والعبيدية. وقدبيّن الدارسون بأن المستوطنات الحلفية كانت صغيرة نسبياً بالمقارنة مع مستوطنات العصور السابقة (أمثلة واتسون ١٩٨٣، مكوريوستون ١٩٩٢، يكار ١٩٩٣). فإذا كانت هذه هي الحال، فإن الحجم الصغير لمستوطنة فترة الروج٣ يعكس النزوع العام للحضارة المرتبطة بالحضارة الحلفية. لكننا لانستطيع أن نستجلي كم تناقص عددها. ومن المؤكد، بكل الأحوال، أن مراحل الروج من ٣ ـ ٥ كانت مراحل أفول ضمن حوض الروج.

بدأت عملية عودة السكان في فترة الروج ٦ . ومن المعروف جيداً أن مملكة إبلا العظيمة قد ازدهرت خلال بدايات عصر البرونز الرابع في شمال شرقي سورية. وعلى الرغم من أن تل مرديخ نفسه قد أعطى مواد إبلا٢ وإبلا ٣ (ماتسوني ١٩٨٥)، إلا أننا لم نعرف الحجم الدقيق للمدينة في ذينك العصرين. وكافة تلول فترة الروج٦ في حوض الروج تقريباً أنتجت كسراً فخارية تعود لمرحلة إبلا٤ . وبما أن حوض الروج وافر الامدادات المائية والمنتجات الزراعية، فلا بد أنه كان وثيق الصلة بإبلا في ذلك الزمان، فأنماط مستوطنات فترة الروج٦، التي تتميز بكثافة المستوطنات المتوسطة الحجم، تشير إلى أن الحوض كان محكوماً من قبل سلطة مركزٍ ضخم من الخارج.

لقد أضحت الدراسة الإقليمية واحدة من الميادين الهامة في الدراسات الأثرية، لأنها يمكن أن تمدنا بالمعلومات الأساسية لفهم التاريخ القديم. ودراسة نمط المستوطنة هي، على وجه الخصوص، الموضوع الرئيسي للدراسة الاقليمية. ولهذا السبب، كان المسح الشامل لفهم نمط المستوطنة لكل عصر هو العملية الرئيسية في بحثنا. كان بودنا أن نفترض مجموعة واحدة من المعطيات الأثرية لشرح حالة شمال شرقي سورية ماقبل التاريخية في هذا التقرير،لكن مناقشاتنا ماتزال افتراضية. ونحن نأمل أن نتمكن من تطوير فرضيتنا عن طريق البحث والتحليل المتواصلين.

أصول أقدم الحضارات الزراعية في شمال شرقي سورية وتطورها

رؤوف منشايف ـ نيقولاي ميربرت

تعريب: هالة مصطفى

خلاصة:

في عام ١٩٩١ ـ ١٩٩٣ كشفت بعثة الأكاديمية الروسية للعلوم النقاب عن أخاديد طبقات الصخور في مستوطنة تل خزنة II المتعددة السويات. يقع تل خزنة II على بعد ٢٥كم شمال شرق الحسكة. يبلغ ارتفاعه ٩أمتار ويتراوح قطره من ١٠٠ إلى ١٥٠م، وتبلغ سماكة الطبقة السفلى ٣,٥ متر، وهي مكونة من مواد متجانسة تنتمي لحضارة تل سوتو وترتبط تاريخياً بأواخر عصر حسونة القديم. إلى الأعلى منها يوجد طبقات حلف وحضارات السلالة الأولى وعصر الوركاء (أوروك) المتأخر. لمواد الطبقة المنخفضة أهمية خاصة وربطها بالطبقة المشابهة لها من تل كشكشوك II (تنقيب البعثة اليابانية) يسمح بتوسيع رقعة المنطقة التي سادت فيها أقدم الحضارات الزراعية في شمال بلاد الرافدين حتى شملت شمال شرقي سورية.

البحث:

بدأت بعثة التنقيب التابعة للأكاديمية الروسية للعلوم عملها عام ١٩٦٩ على نطاق واسع في شمال بلاد الرافدين. وقد اقتصرت التنقيبات حتى عام ١٩٨٥ على سهل سنجار غربي العراق، وأسفرت عن كشف مجموعة مهمة جداً من المواقع العائدة لما قبل التاريخ في بلاد الرافدين، تمتد من عصر ماقبل الفخار في العصر الحجري الحديث حتى العصر السومري العبيدي الأول. ومنذ عام ١٩٨٨ بدأت التنقيبات في السهول المجاورة للعراق في منطقة الحسكة السورية. كان هدف البعثة التنقيب في موقعين متعددي الطبقات هما تل خزنة I وتل خزنة II، حيث يحتوي الأول على طبقات تعود للألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وهذا ماسيكون موضوع تقريرنا الثاني. أما الآن فسنعرض وبشكل مختصر نتائج التنقيبات التي بدأت عام ١٩٩١ في تل خزنة II (ر.م. منشييف، ن.ي. ميربرت، ١٩٩٤).

في بادئ الأمر، يجب أن نؤكد أن هذا التل يحتوي على طبقة كبيرة جداً من أقدم الحضارات الزراعية في سهول بلاد الرافدين، التي سبق أن وجدتها بعثتنا لأول مرة في تل سوتو قرب تل عفار (ن. و. بادر، ١٩٩٣)، ومن قبل البعثة البريطانية أثناء تنقيبها في أم الدباجية في منطقة الحضر.

يقع تل خزنة II على بعد ٢٥كم شمال شرق الحسكة على الضفة اليمنى من وادي رجلة الذي يصب في نهر جغجغ على الرافد الأيسر لنهر الخابور. يبلغ ارتفاع التل ٩أمتار ويتراوح قطره من ١٠٠م لغاية ١٥٠م، وتبلغ سماكة الطبقة السفلى ٣,٥ متر، وهي مكونة من مواد متجانسة تنتمي لحضارة تل سوتو وترتبط تاريخياً بأواخر عصر حسونة القديم، يليها طبقة تعود لعصر لاحق ثم طبقة رقيقة

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

من حضارة حلف، وفوقها بعد الطبقة الجرداء الثانية هناك أنقاض لمقبرة كبيرة تعود إلى عصر الوركاء (أوروك) المتأخر، وأخيراً عدة طبقات تعود إلى عصر السلالات المبكرة.

أهم شيء يمكن أخذه بعين الاعتبار هو مواد الطبقة المنخفضة الوفيرة حيث نجد بداخلها عدة سويات من الأرضيات مع أنقاض جدران من الآجر، ويدل غياب الانقطاع الطبقي فيها وتجانس المواد على ديمومتها لفترة طويلة، وأهم اللقى فيها كسر الفخار. داخل الطبقة المنخفضة، هناك صف من الأشكال المميزة من الأواني المعروفة لنموذج المواد التي اكتشفت في موقع تل سوتو ـ أم الدباجية (ر. م. منشايف، ش. ن. اميروف، ١٩٩٤) بين هذه المواد جرار كبيرة ذات جدران سميكة غير مصقولة تستعمل لحفظ الحبوب والماء وأحواض ذات شكل بيضوي وقصعات وفناجين مختلفة منها المصقول وأغلبها ذات تزيينات ملونة بالأحمر والأسود. لابد من الاشارة إلى وجود نماذج محلية وفريدة من الفخار في الأقاليم الشرقية، مثل القصعات الرقيقة ذات السطوح السوداء أو الحمراء. ونفترض أنها نتاج تفاعل التقاليد في بلاد الرافدين مع تقاليد العصر الحجري الحديث السوري الكيليكي.

أثيرت هذه القضية عدة مرات. لكنه لم يتم اثباتها بشكل مؤكد لغياب الأدلة الأثرية المادية. لكن أهمية كبيرة لدراستها واضحة تماماً، فوضع المسألة بحد ذاته يحتم الانتقال من دراسة كل موقع على حدة إلى الدراسة الشاملة لتاريخ الشرق الأدنى القديم بكل تركيباته وتعقيداته، كما يجب الأخذ بعين الاعتبار التمازج والتفاعل بين تقاليد الحضارات وتطور المراكز المختلفة لتشكيل اقتصاد انتاج الغذاء. بالاضافة إلى مجموعة من الظواهر الحضارية المادية في المستوطنة ونماذج البناء المتنوعة حتى ظهور الفخار.

ان ابتداء التنقيب في الطبقة السفلى لتل خزنة II له أهمية أساسية وربطها بالطبقة المشابهة لها من تل كشكشوك (تنقيب البعثة اليابانية)، سمح بتوسيع رقعة المنطقة التي سادت فيها أقدم الحضارات الزراعية في شمال بلاد الرافدين حتى شمل شمال شرقي سورية. فلأول مرة، في منطقة بلاد الرافدين الأعلى يتم العثور على حلقة ربط هذه مع (حضارة تل سوتو) التي سبقت عصر حسونة في تطور الحضارات الزراعية في الشرق. تم تأريخ حلقة الربط في الربع الأخير للألف السابع ق.م حتى بداية الألف السادس ق.م وتم اثبات انتماء هذا الموقع إلى هذه الحضارة، بعد التنقيب في الطبقة السفلى لتل حسونة II واكتشاف جرار كبيرة مستعملة كقبور للأطفال، بالإضافة إلى بعض الأواني الفخارية والمرمرية وبعض العقود المؤلفة من حبات حجرية، ومثل هذه اللقى معروفة في حضارة تل سوتو.

يثبت تقريرنا هذا، وجود حضارة مشتركة تمتد من موقع الحضر في الجنوب الشرقي وحتى تل خزنة II، ومنطقة الحسكة في الشمال الغربي، وتشكل هذه المنطقة من سورية حلقة وصل بين المواقع المبكرة مثل مريبط وأبو هريرة والرماد وغيرها، التي تضم أدلة على تدجين الحيوانات وبدء الزراعة، وبين المواقع المتأخرة المعقدة مثل حضارة حلف. وأكثر من ذلك فإن التواصل المعروف للمجتمعات الزراعية الأولى في المنطقة السورية يتلائم مع الدلائل العراقية في شمالي بلاد الرافدين. إن نشوء مثل هذه المجتمعات الزراعية على امتداد هذه المنطقة الشاسعة يبرهن على تكوّن نظم للاتصالات التجارية والحضارية في مراحل موغلة في القدم، والتي لعبت فيما بعد دورها في ظاهرة طريق الحرير.

طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق.م

مارك لوبو

تعريب: أحمد فرزة طرقجي

الرجل وحيوان الصيد . في أصل ماضيهم البعيد، ووسط بيئة عدائية وتغيير إجباري، إلى ملاحظة بسط الملكيات المتكيفة خصوصاً في توازن إنشائها الهش الباكر . هذه الملكيات المتكيفة ديموغرافياً في توسع سريع، والتي انجذبت باكراً إلى ارتياد الأقاليم الجديدة للصيد، ولإخضاع المساحات الواسعة كلها في المستوطنات البيئوية الجديدة، من كل هذه الخاصية ومن استصلاح مستمر للأرض بمجموعة أدوات كانت تسمح لهم بتنمية وتوسيع امبراطوريتهم على حساب الوسط المحيط .

ويبدو غير مجد إعادة التأريخ للمستوطنات البشرية في آسية، وهنا عندنا بضعة آثار للمستوطنات، ولكن مع كل مرة فإننا نلاحظ خطين ملازمين للتوطن البشري منذ الماضي السحيق: الإهتمام المثابر لاستكشاف الأقاليم الجديدة، وضرورة بقاء وتحسين التقنيات المدعمة لسيطرته على الوسط المحيط . هاتان الخاصيتان في النماذج المتعاقبة للجنس البشري، كانت مصاحبة للقدوم المبكر للرجل الصياد المكتشف .

هذا الصياد المكتشف، يأخذ مكانه على مساحات رحيبة، محتفظاً بذكريات الأماكن التي اجتازها . وهذا كان كمعرفتهم لطرق الإتصالات، الدروب، المواد، وإذا صح القول ساعد على إلغاء الحدود العليا للقوى الكامنة، والقابلة للتغير الفكري عبر الذاكرة . خلافاً لمجريات الترحال الخاص للعديد من أنواع الحيوانات، ولكنها على الأرجح مبنية على الميل الفطري .

الإشغال البشري في سورية وفي بلاد الرافدين في الألف الثالث ق.م، كان أثره ملموساً في تحركين كبيرين، الأول في الزراعة، والثاني المتولد عنه في التجمعات المدنية . هاتان المرحلتان من الإنتشار الواسع والعميق، حوَّلتا البنى الاجتماعية والاقتصادية لمجموعة سكانية كانت مغلوبة ومقهورة، إلى مجموعة مسيطرة ومغيِّرة جزئياً للوسط البيئوي المحيط .

المدن الأولى ظهرت نحو ٣٧٠٠ق.م في جنوب بلاد الرافدين وفي سوسة، ومن الملاحظ التوسع المحتمل عبر البحث في المواد الأولية القادمة من الجنوب مباشرة . إن إنشاء المستوطنات الاقتصادية في أعالي الرافدين وعلى الفرات السوري، كانت هذه الحركة أكثر اتساعاً بحيث تبدو بنفس اسلوب دلتا النيل في فجر التاريخ المصري .

اتسم عصر جمدة نصر بين ٣٢٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م بتراجع قوي في حركة الإنتقال هذه، ويسمح للثقافات المحلية بإنشاء مؤسسات نستطيع تسميتها بما قبل المدنية في شمالي بلاد الرافدين وفي سورية والمشرق .

وحوالي ٢٧٥٠ ق.م من المحتمل أيضاً مع أواخر نهاية فجر السلالات الأولى وبداية فجر السلالات الثانية، ظهور

■ نشرت المقالة الأصل بالأجنبية في مجلة أخرى.

ثقافة مميزة من خلال فخارها المترف، المعروف بالفخار المعدني، ومن خلال تشكيلها لمنشآتها الأكثر خصوصية والمقامة حسب نظام الجزيرة العليا، ضمن إطار دقيق وصارم لأراضي المملكة. هذه الثقافة بقيت مزدهرة حتى القرن الرابع والعشرين ق.م، حيث بلغت أوجها في هذا العصر تحديداً.

كانت أعالي الرافدين بعيدةً كعالم مغلق، مقطوع عن الخارج، ورغم ذلك فقد كانت مكّونة منذ زمن طويل نوعاً من المضائق أو الممر الإجباري بين المشرق وبلاد سومر.

وبحق كانت بلاد الرافدين في الألف الثالث ق.م عالماً يربط بين عالمين (صلة الوصل)، وهو مع ذلك أبعد عن الأناضول أكثر من سورية، والتركيز الكبير للحفريات الأثرية في سورية الشمالية سمحت بشكل أفضل تقييم وإظهار إسهامات هذه المنطقة في المشاركة بحضارة الشرق الأدنى.

ماهي المعايير التي تسمح بتحديد طريق الإتصال عندما لاتكون الإسهامات مادية ملموسة على أرضية الواقع على غرار الطرق الرومانية المعروفة لدينا ضمن أقاليم المنطقة؟

وقبل كل شيء، الأنظمة الجغرافية كذلك لاتسمح من خلال العوائق الجبلية إلا عبر الممرات الجبلية أو المنافذ المنشأة من خلال المجاري المائية، ونقصد المجاري العليا للفرات والدجلة، التي تسمح بالعبور إلى هضبة الأناضول الشرقية، والخابور الشرقي والزاب الكبير، وتوصل نحو أورارتو، ونهر الزاب الصغير والديالى، فقد شكلت ثغرات سمحت للعدو الرهيب بعبور سلاسل جبال زاغروس وشن حرب أخضع فيه الهضبة الإيرانية.

الممرات المائية السالكة أو غير الصالحة للملاحة، كانت أيضاً جيدة الدلالة لعبور القوافل والتجار والدبلوماسيين على طول وادي عجيج الذي يرشد مباشرة المسافرين إلى منطقة باغوز في جنوب جبل سنجار، وتجنبهم الإلتفاف عبر الخابور. وإلى جانب هذه الطرق المائية، هناك شبكة الطرق الكثيفة للقنوات في جنوب بلاد الرافدين، أو الإنتقال النهري الذي أصبح موسعاً جيد التنظيم لهذه الطرق، والمحطات المائية كانت ضرورية أيضاً. وبشكل واضح تحاشت المناطق الصحراوية الخالية من الآبار، ولاننسى أبداً أن هذه الطرق تَخدمُ انتقال المواد المهمة كقطعان الماشية والأغنام والحيوانات الكبيرة المستهلكة للماء.

بهذه المعايير الجغرافية، إضافة إلى التحاليل البيئية للحيوانات والنباتات وكذلك التنقيبات الأثرية المنهجية المتزايدة دائماً، نستطيع بثقة إثبات الخارطة البيئية القديمة، عصراً فعصراً، من إنتشار وكثافة النظام البيئي في الألف الثالث ق.م على طرق الخابور الأوسط، هذه الكثافة التي لانجدها في عصر آخر، ودراسة الفخار السطحي للمواقع الكبيرة يسمح بتقدير آخر لنفس هذه الممارسات بشكل جريء، والأهمية الخاصة للتركيب البيئوي تسمح باستشفاف الروابط بين المناطق الهامة، وأحياناً تكون هذه الروابط متأرجحة بدلالة تبدل خط سيرها وتجوالها ولكن أصول المحاور الكبرى للإتصالات كانت معلقة ومرتبطة بواحدة من العصور المبكرة من الكالكوليتيك الأوسط على وجه التقريب.

ومن التدقيق في أنظمة الجغرافية السياسية أو الجغرافية الاستراتيجية، نستطيع أيضاً التأكيد على أثر خطوط السير في عالم الألف الثالث ق.م، حيث برزت المدن الكبرى، وتواجد الإحتكاك الإقليمي، وهو أحياناً حذر متحاشٍ للممرات والطرق، والمعابر الثابتة ومع ذلك فخطوط السير الفرعية، المتواجدة في عدة أماكن، تسمح للتجار بتحاشي الضرائب أو الرسوم أو قطاع الطرق. وأحياناً كانت العلاقات بين المدن ميسرة، والنصوص في ماري تزودنا في الألف الثاني ق.م ببعض قصص مشاهير العصر ومخاطر السفر، والطريق الأسلم في أيامهم لم يكن من نقطة إلى أخرى بالضرورة الخط أو الطريق المستقيم.

وتحت حاجتهم للسفر، مع الإدراك للتهديد المعروف من قبل البدو أو الجبليين، كان يتحتم عبور الفرات بين عانه وسيبار مثلاً، حيث لايوجد أي خطر. وفي عصر أوروك نرى شبه الصحراء في الألف الثالث تبدو كمنطقة ضعيفة، بحيث لانستطيع التحقق بصورة فعالة من الإستثمار المتشابه للمدن المحصنة مثل حارادوم. الواقعة على بعد ٩٠ كم إلى الجنوب من مدينة ماري، والتي أسست في القرن الثامن عشر ق.م.

ولوقت طويل اعتبر دجلة أحد محاور الإتصالات الكبرى للطرق وكذلك الفرات. كما أن الطرق البرية كانت تحاذي بالتأكيد المحاور المائية الهامة. ولكن الأهمية هنا مختلفة كثيراً، عند التفكير بقطع النهر، والطريق الكبير أو الطريق الملكي هو طريق بري، يصل بين سوسه مع منشآت أكثر

شرقية قبل تبة يحيى، ونحو الغرب أقامت سوسه علاقة وطيده مع أشنونا. وبغياب أشنونا، حاذت الطرق السهول الواقعة في سفوح جبال زاغروس على مسافة جيدة من وادي دجلة، حيث تصل إلى ليلان، موزان، وتجتاز الخويرة ثم حرّان ثم تصل إلى الفرات، وجرابلس ثم إيمار، ومن هذين البابين نصل إلى حلب التي تسمح بتوجيه المسافرين نحو آلالاخ، وأوغاريت، أو نحو الجنوب نحو إبلا، حماة، قطنة، ثم بيبلوس على الساحل أو تتبع الطريق نحو الجنوب، نحو سهل البقاع، وإلى الجنوب أيضاً، فيجتاز فلسطين بدون توقف عبر مجدو واليرموك للوصول إلى غزة وأبو صير، وأخيراً إلى دلتا النيل. وهذه الطريق في طرفها الغربي مزدوجة مع خط سير بحري، يربط من جهة ثانية أوغاريت وبيبلوس وصور وعكا ومصر.

كانت هذه الطريق إذاً الشريان الحيوي للهلال الخصيب، في جزئه الجنوبي والذي يتفرع إلى محور آخر رئيسي، وهو الذي يربط أور بأشنونا بطريق عبر المدن السومرية الكبرى مثل لارسا وأوروك وسيبار وكيش ونيبور. تربط هذه الطريق المواقع بين سوسه وإشنونا (التي تسيطر على مدخل الواردات المعدنية من الهضبة الإيرانية) كمحطات تجارية ثابتة على طريق مناطق المناجم في فيشنوف وأناراك الأبعد إلى الشمال، فموزان وماردين ومنطقة ديار بكر التي كانت مواقع على المسالك المؤدية إلى المناجم في الأناضول الشرقي. وعلى امتداد ٨٠٠كم، تجتاز هذه الطريق الطويلة، المهيبة، أعالي الرافدين، وعلى أطراف كركوك وبمنافذها على الفرات إلى كركميش وإيمار، وتتجه أبعد من هذا الممر، خاصة إلى الجزيرة العليا، وليست هي الطريق الوحيدة، ولكنها تأخذ بنظام المحاور المتوازية، وعند تفحصنا لخط هذه الطريق، والطريق التي ذكرناها سابقاً الأكثر قدماً، أثبتت بشكل واضح فكرة وقوعها بين خطي المطر المتناظرين في التهطال السنوي العام بين ٣٥٠ – ٤٠٠ مم على حساب المعدلات السنوية. ونشير هنا إلى أهمية الزراعات البعلية. تحمل هذه الأسباب على الاستنتاج بأن مخطط هذه الطريق يقابل تماماً مسافة هامة من طريق سوسه الجنوبية إلى فلسطين في الحدود الجنوبية لتقسيم الشعير البري في الألف الثامن والسابع ق.م، في بداية النيوليت، ومن جهة أخرى فإن هذا المحور يرتكز على الأغلب حول المواقع القديمة في الشرق الأدنى، من عصور النيوليت، وحسونة وحلف في مناطق أكثر اعتدلاً لتأمين أوليات الموارد الاقتصادية والمؤونة.

يمكن لطريق الاتصال هذه أن تدعى أيضاً طريق الشعير، على الأقل في العصر، الذي تكوّن فيه، في القرون التالية. كان المسافرون الذين يسلكون هذه الطريق مصطحبين مواشيهم أو دونها، متأكدين من إقامة في محطة في القرى، ثم أصبحت المدن فيما بعد قادرة على توفير احتياجاتهم.

والطريق الثانية في الأهمية هي بدون شك تلك التي تمر عبر الفرات، على الجزء الأكبر منه، باستثناء قطعة مذكورة سابقاً بين عانه وسيبار. والدراسات حول الثقافة المادية للممتلكات القديمة في ماري، وأكثرها بوجه خاص من الفخار، تقودنا إلى اعتبار ماري منذ فجر السلالات الثانية متصلة حصراً مع وادي ديالى، وفي الواقع كانت قد أسست في نهاية فترة فجر السلالات الأولى، من خلال خط سير واضحة مباشرة في العلاقة بين أشنونا وماري. وخط السير هذا يمر عبر عانه ويجتاز الطريق السفلي لوادي ثرثار، وهذه كانت منطقة واقعة تحت سيطرة أشنونا في ٢٧٥٠ ق.م، والطريق عبر الفرات هي بالتأكيد المحور الأكبر للإنتقال والمرور عبر جزء هام من مجرى النهر، حيث يدوم فترة من الزمن خلال العام تسمح بنقل البضائع والمواد الغذائية الثقيلة.

أقامت هذه الطريق على الفرات علاقات مباشرة بين مناطق كيبان، كركميش، إيمار، توتول، ترقا، ماري، عانه، سيبار، كيش، المحصورة بالحدود الغربية العليا ثم إلى أسفل بلاد الرافدين، وفي حوالي منتصف الطريق تحتل ترقا موقعاً مميزاً، وهذا في الواقع جعلها مدينة هامة عند تقاطع الطرق، تستطيع إذاً التحكم وجمع الجزيرة العليا عبر مجرى الخابور المائي، وكذلك توصل قطنة في سورية عبر وساطة طريق يجتاز السهوب ويمر عبر تدمر. شكلت ترقا جسر انتقال بين سورية الداخلية وأعالي الرافدين، وترقا بسيطرتها على نقطة هامة وحساسة ساهمت في التحولات الاقتصادية في الشرق الأدنى. وسيطرة ترقا هذه كانت من جهة أخرى مصدر قلق مستمر لملوك ماري. أما توتول وبقدر أقل من ترقا في الواقع، كانت ذات موقع ممتاز، عند ملتقى نهري الفرات والبليخ، أما إيمار وكركميش وأهميتهما الظاهرة والرائعة: فقد كانتا البوابتين الأكبر على تقاطع الطريقين السوري ـ الرافدي، ودرب الشمال والفرات، ويجب التأكيد على هذه المحاور الكبيرة، إضافة إلى طريق نهر الدجلة الذي يربط نينوى وآشور، وملتقى النهرين بالديالى، وهناك أيضاً طريق، سلط عليها الضوء ديڤيد أوتس بمعرفة ربط الطريق ثانية مع المنشآت المقامة

في الجنوب من جبل سنجار مع آشور. وهي طريق ثابتة إلى الجنوب من قوس التلال الممتدة على محور جبل سنجار، تسمح للمواقع الكبيرة كتل خوشي، تل هدايل، تل عفار، من إقامة علاقة كصلة وصل مع وادي دجلة الأبعد إلى الغرب، واضعاً بهذا الربط تل خوشي مع أسفل مثلث الخابور. يسمح هذا الطريق المنحني كذلك بالربط مع الجنوب للطرق في وادي ثرثار وكذلك وصل سيبار ببلاد أكاد. ولأجل اختصار بعض المواقع، تقودنا هذه المدن إلى أعالي الرافدين. لذلك نقول: إن الذي يهم من طرق الإتصالات بين الجنوب والشمال، إنما هي المعابر النافذة بين منطقة وأخرى.

لعبت أشنونا من موقعها ذي الخصوصية المميزة ـ حقيقة ـ كحاجز استراتيجي مسجل في العلاقات بين سومر وسوبارتو، وأشنونا مع باقي المدن في الوادي الأدنى للديالى، وفي عداد بعضها ـ توتوب ـ سلمت البضائع من خلال منفذ إلى نينوى، عبر الطريق الكبيرة في سفوح الجبال الموصلة إلى آشور، ومن خلال طريق دجلة الموصلة إلى ماري عبر الطريق المجتازة لوادي ثرثار. وأشنونا كذلك تسيطر على موقع ممتاز ضمن منطقة حمرين، وتتحكم بقسم كبير من البعثات التجارية باتجاه مناجم النحاس في الهضبة الإيرانية.

لمدينة أخرى أهمية خاصة في العلاقات بين الجنوب والشمال الرافدي، هي نينوى المسيطرة من خلال دجلة على سفوح الجبال التي تتشعب من هذه الجهة نحو الغرب باتجاه سهول الخابور والمواقع مثل تل الهوى، ليلان، موزان، وتتوازى مع منطلق الطرق الموصلة نحو هضبة الأناضول.

أما آشور، فقد شكلت معبراً ثابتاً على دجلة في مسار الطريق المنحني الموصل إلى حواضر مزدهرة ثابتة في جنوب جبل سنجار. وأخيراً ترقا، على غرار ماري، تقع على مفترق طرق ذات أهمية كبيرة، عند العقدة الموصلة نحو أواسط الفرات، ونحو مثلث الخابور، ونحو قطنة، عن طريق تدمر في الإنطلاق نحو سورية. وإذا أردنا الوصول إلى أعالي الرافدين يتحتم المرور عبر حلب، ثم عبر البوابات المائية من كركميش أو إيمار، ونصل بعد ذلك إلى وادي البليخ، فالخويرة ثم الخابور أما من جهة العلاقة بين أعالي الرافدين والشمال، ونقصد بهذا هضبة الأناضول، فهناك ثلاثة معابر أساسية، تبدو واضحة، الأولى من الفرات الأعلى، ثم ممر ماردين، ثم أعالي دجلة.

يمكن اجتياز منطقة الجزيرة العليا تدريجياً في اتجاه الغرب عبر الطريق الكبير على امتداد سفوح الجبال، وعبر اتجاه جنوب ـ شمال عن طريق الخابور الذي يشكل المحور الذي يتجه إلى الأناضول الشرقي عبر ممر ماردين في هذه المنطقة، حيث نصادف سهلاً مرتفعاً قليلاً وترويه من روافد الخابور. والمعبر سهل يأخذ شكل خط سير الطريق الكبير من نينوى إلى حران، ومنها يتفرع إلى ثلاثة محاور تتجه إلى منطقة حاموكار وتل ليلان، ومحوراً أعلى يبدو أنه يربط تل ليلان وشيخنا القديمة، إلى موزان، عيلون، تل الفخيرية. ومحور أوسط يقود من ليلان إلى عربيد، شاغربازار، تل براك، تل بيدر، تل الفخيرية.

وأخيراً هناك طريق أطول إلى الجنوب، يمتد على طول وادي رميلة، ثم يجتاز الخابور، يقود إلى أطراف حاموكار، إلى تل براك، إلى الجنوب من مثلث الخابور، ثم إلى تل الفخيرية. وهذه الطرق المتوازية تتقاطع طولياً من خلال عبور روافد الخابور، وادي عباس، جغجغ، وادي خنزير، وادي العويج، وفرعي الخابور الأعلى. هذه التقاطعات المستقيمة تحصل تقريباً كل ٢٥ كم. ونستطيع المقابلة مع المراحل اليومية على أية حال عندما لا ترافق القافلة قطعان الأغنام، وعندما تكون مسافة السير كذلك بطيئة، تستطيع إيجاد أماكن إيواء انتقالية كالتي توجد في تل بازي أو تل عربيد. وفي هذه المناطق من الصعب اضمحلال أو تلاشي الحدود الجغرافية المرئية من مسافة بعيدة، وصف مسافر رحالة فتحة ماردين: هذا الدليل الذي يبدو كمطرقة كبيرة بركانية من كوكب، «النجم» في عيون الرافديين القدماء.

كانت ضفاف روافد الخابور أيضاً على قدر المحاور الجنوبية ـ الشمالية ـ تسمح بالإقتراب من قاعدة المثلث وهذا يعني بالواقع الضواحي القريبة من الحسكة. إلى سلسلة تور ـ عابدين أو إلى ممر ماردين، باتجاه منطقة الينابيع الكبريتية في أعالي الخابور، كذلك إلى تل الفخيرية على محورين ـ الأول نحو الغرب والآخر نحو الشمال الغربي. الأول يوصل نحو أبو شيخات، تل الخويرة، ثم نحو حران أو حمام التركمان، ثم يتابع محور يصل نحو أورفة حالياً، والموق القديم لقازان هيوك،

هذا المحور يوصل بعد ذلك إلى أعالي الفرات للوصول إلى ملاطية. بمحاذاة تلال أقل أهمية تقودنا إلى النظر في احتمال المحور الثاني الذي يحاذي التخوم الشمالية لجبل عبد العزير، ويتابع عبر طريق قريب إلى الشمال من جبل سنجار. ولاننسى أبداً ضرورة الصلات الرابطة للمواقع الكبرى الواقعة إلى الجنوب من جبل سنجار (تل خوشي، تل هدايل، بين آخرين) مع المنطقة العليا من الخابور الأوسط وتل براك. وهناك أخيراً خط سير لربط الجنوب بجبل سنجار، إلى ماري. وهذه الطريق نسبياً مباشرة، تستطيع وضع الروابط بين تل خوشي وباغوز إلى بضعة كيلومترات من أسفل النهر في ماري في مسلك طريق من مجرى وادي عجيج، موضحة على خارطة طرق الإتصالات في أعالي الجزيرة في الألف الثالث ق.م (وأكثر دقة في فترة فجر السلالات الثالثة).

ولن نندهش من مشاهدة تقاطعات الطرق الرئيسة المليئة بالمواقع التي تبدو الأكثر أهمية. وبمعرفة تل ليلان، تل موزان، براك، الخويرة، حران، حمام التركمان، وأيضاً تل عيلون وشاغربازار، وتل بيدر. والموقعين الباقيين المشابهين، الأول مناظر لموقع ينابيع الخابور وممكن إرتباطه بتل الفخيرية، والآخر في أسفل المثلث كذلك في أعالي مدينة الحسكة الحالية.

الخلاصة: أتمنى أن تستعيد الجزيرة العليا وهذه الدلتا غير البحرية أهميتها كجزء شمالي من الهلال الخصيب. وهذه المنطقة إذا صح القول مفتاح العقد في منتصف المسافة بين فلسطين والبلاد السومرية، المزدهرة في الألف الثالث ق.م، لاسيما في فترة فجر السلالات الثالثة، حيث أدت قدرة تغير الوسائط ضمن وقتها المناسب وظروفها الخارجية المعوقة والإحاطة بالحدود المناخية، إلى إنتشار الزراعة البعلية في هذه المنطقة بين المريبط وجرمو، فاتسعت أوائل التجمعات الزراعية، وهذا الموضع ملائم لمنطقة تقع على سفوح الجبال الأمر الذي سمح لها بلعب دور محوري في بداية التأريخ في الشرق الأدنى القديم. في منطقة بعيدة عن الإنغلاق على نفسها، لقربها من مناجم النحاس في الأناضول وإيران. وكان جزء كبير من أعالي الرافدين ضمن مناطق تأنيس النار والخلائط ومعلناً لها في الألف الثالث ق.م ولكن الزمن كان يحتويها، ودائما مفتوحة على الجهات الأربعة.

أعالي الرافدين هذه، بلطف موقعها الجغرافي وبنعمة الطرق التي تخترقها، كانت المنطقة ـ المحور. أي نقطة إتصال للتحولات الكبرى الثقافية والاقتصادية التي روت الشرق الأدنى. وبهذا العنوان استرعت هي والناس الذين أعمروها أولاً انتباهنا ثم حظيت بكل احترامنا.

تل آفيس والمنطقة المجاورة له في العصر الحجري النحاسي المتأخر

ستيفانيا ماتسوني

تعريب: إحسان شيط

تم في السنوات القليلة الماضية جمع دلائل جديدة عن الاتصالات بين مختلف الثقافات والتي دامت فترات طويلة بين جانبي الهلال الخصيب وما وراءه حتى الهضبة الإيرانية والبحر الأبيض المتوسط، متتبعين أصل طريق الحرير حتى قبل ظهور الكتابة. وقد لعبت السفوح الجبلية (Pedemont) والمنطقة المحيطة بها دوراً نشطاً في عملية تشكل شبكة تبادل على مسافات واسعة، عبر قوس من المناطق المرتفعة التي تتخللها أنهار وجداول بشكل طبيعي، وتقع قرب مناطق غنية بالموارد. وعلى طول السفوح الجبلية والمناطق المرتفعة، كانت المجتمعات الزراعية في «حلف» على اتصال ببعضها البعض؛ فقد وصل أسلوب[١] فخاريات حلف إلى البحر المتوسط والهضبة الإيرانية، وهو ما توثقه السجلات في مرسين ورأس شمرا من ناحية، وفي غيان Giyan VA في لوريستان وفي سهل سوسيانا في مرحلة[٢] خزنية.

إن ظهور المجتمعات على ضفاف النهر خلال مرحلة العبيد لم تغير من واقع هذه الصورة المتمثلة في الاتصال بين المنطقة الإقليمية؛ وقد توسعت بإدماج الأراضي الواقعة على ضفاف الأنهار وساحل الجزيرة العربية[٣]. وجاء ازدياد حركة المرور نتيجة الاتجاه نحو إقامة مجتمع مركب من مجتمعات العبيديين، كما سمح التحكم بالموارد ومركزيتها وتحسين مرافق التخزين بتحرك وتبادل مكثفين أكبر للسلع وإمدادات الغذاء[٤].

إن انتشار فخاريات العبيد ونموذجها، والأختام التي تصور حيوانات والتي تعبر عن الخصوبة تعتبر شواهد عن استمرار التبادل الثقافي الشامل فيما بين المناطق البعيدة.

وقد يكون توسع ثقافة أوروك قد غيّر هذا الأفق تغييراً كبيراً وجعله متكاملاً بل ذا تنظيم مؤسساتي، يقوم بتنسيقه مركز يتجاوز الإقليمية، وينبغي توثيق الشيء الكثير حول نظام التجارة المبكر بين الأقاليم، إلا أن أهمية السيطرة على طرق Pedemont هي التي شكلت فيما بعد النتيجة الطبيعية لتوسع أوروك. وفي تحليله العام لنظام عالم أوروك[٥] حدد الغزي Algaze عملية تتكون من أربع مراحل لتوسع مجتمعات ما بين الرافدين في عصر أوروك: فقد شهدت المرحلة الأولى السيطرة على سهول جنوب غربي إيران وإقامة مستعمرات: وشهدت المرحلة الثانية إقامة مستوطنات جديدة في مناطق مستقرة ثانوية، والسيطرة على مواقع محلية كانت تتمتع بالمركزية على طول الطرق الطبيعية؛ أما المرحلة الثالثة فقد شهدت استيطان مناطق مدنية داخلية في منطقة الفرات الأعلى؛ في حين شهدت المرحلة الرابعة والأخيرة إنشاء مناطق داخلية متخصصة في المناطق البعيدة. ووفق هذا التفسير، تم التوصل إلى نقطة تحول محددة للمراكز السكنية المحلية اللاحقة لفترة العبيد أو العصر النحاسي المتأخر خلال المرحلة الثانية، مع قيام «المجتمعات المتكاملة» وذات الموارد القليلة في بلاد ما بين

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

الرافدين بالاستيلاء على «المجتمعات الأقل تطوراً في المناطق المرتفعة». ويركز هذا التحليل على عملية التفاعل بين المركز والمحيط، حيث أن المركز يشكل «قوة لإحداث التغيير في المجتمعات المحلية الأقل تطوراً في المنطقة المحيطة بالدول التوسعية القديمة»[٦]، ورغم أنها لا تنكر حقيقة شبكة التبادل الأقاليمية السابقة أو وجود مجتمعات محلية مركبة فهي لا تبحث في الدور النشط لكل من عملية التغيير التي أدت إلى حدوث المجتمع المدني. ولن أنتقد هنا وجهة النظر هذه أو دور المجتمعات النهرية في هذا السياق؛ كما أني أدرك تماماً أن البحث عن باعث رئيسي مجرد أمر نظري بحت. وقبل فهم طبيعة وتركيبة المجتمعات المدنية البدائية بشكل صحيح فإن الحاجة تستدعي الحصول على دلائل جديدة: وعلى أي حال فإن تجاهل دورها النشط في عملية المجتمعات المدنية قد يكون من باب التبسيط المخل.

العصر ما قبل البرونزي

خلال أواخر العصر النحاسي، كانت شمال سورية وبلاد ما بين الرافدين وجنوب الأناضول تشترك في صفات وخصائص التحول الاجتماعي والثقافي؛ فقد تميزت قطع السيراميك المجمعة لفترة ما بعد العبيد المحلية باتجاه عام نحو التبسيط والتوحيد؛ وتظهر المستوطنات وضوحاً جديداً في الحجم والموقع. وتوجد وثائق عن تزايد المركزية في الكثير من المواقع في مالاتيا وفي تيب غورا[٧] (Tepe Gawra). وتتصف الفخاريات في الجزء الغربي والشمالي من المنطقة الشاسعة بالأواني الخزفية المقواة بالتبن (Chaff Faced Ware) التي بنوعيتها الجديدة والزبادي ذات الإنتاج الكبير، تشير إلى وجود وحدة ثقافية كبيرة تنتشر في أكثر أودية الأنهار أهمية، من الفرات الأعلى والبليخ وحتى نهر قويق ومروراً بالعاصي المنخفض وعفرين وكراسو المطلة على واد العمق. وقد اتسم هذا المنحنى الواقع في أقصى الغرب في الفترة العبيدية بتركز سكاني مكثف بسبب الموارد الطبيعية والمناخ وخصوبة التربة وإمكانية استغلالها زراعياً على نحو مكثف. وقد تم نقل حجر السبّج (زجاج بركاني أسود) المستخرج من منطقة تشفتليك في سلسلة جبال طوروس بشكل رئيسي[٩] على طول الطرق الداخلية لهذه المنطقة واسخدام الشبكة نفسها بواسطة تجارة النحاس وربما القصدير في أواخر العصر النحاسي وبداية العصر البرونزي وربما العصر القصديري[١٠]. وبسبب اتصالها الطبيعي، لعبت المنطقة فيما بعد دوراً هاماً كمفترق للطرق للكثير من طرق التجارة بحيث ربطت مناطق طوروس الغنية بالموارد وهضبة الأناضول بالبحر الأبيض المتوسط ودول المدن القوية وممالك سورية وبلاد ما بين النهرين.

لقد أظهرت دلائل الاكتشافات الأثرية الجديدة من أواخر العصر النحاسي في هذه المنطقة عملية وجود مركزية كثيفة من الحفريات التي أجريت في تل آفيس في سهل إدلب ومن المسح الذي أجري في شمالي هذا الموقع وعلى طول الطرق الرئيسية الممتدة إلى وادي العمق.

أحرز تقدم في الأعوام ١٩٩١ و١٩٩٢ و١٩٩٤ في منطقتين مختلفتين من الأكروبوليس، المنطقة E1-2 على المنحدر الغربي، حيث كانت قد كشفت سلسلة طويلة من مستويات العصر الحديدي الأول والمنطقة G على الجانب الشرقي الواقعة قرب مقبرة الشيخ حسن ومقبرة حديثة صغيرة، حيث بوسعنا تتبع باحة كبيرة مرصوفة بالحجر وواجهات آجرية محفوظة جيداً من العصر الحديدي الثاني (الشكل ١).

وقد تم توسيع الخندق المدرج في المنطقة E1 غرباً ووصل طوله إلى ٣٠م، كاشفاً عن سلسلة متتابعة من ٢٦ مستوى من أعلى الأكروبوليس حتى قاعدته في المدينة الغربية الأكثر انخفاضاً (الشكل ٢). ومن الجلي أن هذه القاعدة قد بنيت بالجدارين الضخمين المحفوظين جيداً من أواخر العصر البرونزي الأوسط وMBLL، مع البقايا المتناثرة لمستوطنة العصر البرونزي القديم EB-IVAB بينهما (الشكل ٣ الأعلى). ويتألف سور المرحلة المتأخرة من العصر البرونزي (M. 1155) الذي كشف ما يقرب من ٢٠ متراً منه (الشكل ٤) من بناء حجري مرتفع متين طوله متران، مع واجهة خارجية من الأحجار الكبيرة مصفوفة على ثلاث مصاطب قليلة الانحدار. ويقوم فوق هذه القاعدة بناء مرتفع طوله متر مشكل من مستويات من الحصى متداخلة بخليط من الطين وعدد قليل من الآجر فوق طبقات من القش معاملة بنوع من الجص الأبيض المقاوم للمياه. وتظهر الواجهة العلوية من النسق العلوي للقاعدة الحجرية، في جزء صغير منها في

الوسط، مبنية من الحصى لتكون بمثابة مصطبة حقيقية لهذا المبنى العلوي. أما الأرض أمام الجدار فهي منحدرة قليلاً باتجاه المدينة المنخفضة؛ ولعل خندقاً غير عميق يواجه السور، لضمان جريان الأمطار لجمعها بهدف عدم حدوث أي ضرر للمبنى.

وكان راسب سميك ومتجانس يغطي السور، الذي شهد امتلاء بسبب الريح بشكل بطيء على مدى فترة طويلة (الشكل ٣)؛ ويمكن تمييز ثلاث مراحل مختلفة في طبقات الصخور وهي: الأرض الأصلية (L. 1603, Lev. 18e) وحشوتها الريحية (Liv 18d)، وأرض ثانية (Liv 18c) وحشوتها النهائية والبطيئة، والمستوى النهائي الممتلىء بالنفايات والغني بمواد عديدة (Liv. 18a-b). وطبقات الصخور هذه محفوظة جيداً في القسم الجنوبي للسور (COPIV20) في حين أن حفرة كبيرة مليئة بالنفايات في القسم الشمالي (COPV3) قد شوهت القسم العلوي من الجدار، حيث ترتكز دعامة من الطوب فوق قاعدة من الأحجار الضخمة فوق خط السور. إن الحشوة الشديدة النعومة والرملية والغنية بالمواد العضوية المحمولة بواسطة الريح، تشير إلى امتلاء الأرض الخارجية بالطمي نتيجة استخدامها الطويل جداً، ونظراً لعدم وجود بقايا محروقة أو دلائل على تدمير عنيف على طول مقدمة الجدار، حتى في مراحل استخدامها الأخير وانهيارها النسبي، يمكننا أن نفترض تداعياً بطيئاً للبناء بعد هجر الموقع.

تم جمع عدد من الأختام من حشوة السور (الشكل ٥، الأسفل). ويأتي ختم اسطواني (TA. 94, E.250) من الأعلى على مستوى a-b18 والرموز فيه معروفة جيداً في أواخر فترة أوروك السورية[١٢] (جمدت نصر) Jemdet Nas. إن مشهد صف من مختلف أنواع الحيوانات من الماعز والغزلان والكباش، والأسماك والطيور والأوراق كحشيات، موثق جيداً في الأختام السورية المبكرة من هذه الفترة، ويمكن مقارنتها بختمين من مجموعة يال البابلية ومتحف Ashmolean الذي يستمد الرسوم من أواخر فترة أوروك المحلية[١٤]. ومن المستوى العلوي جداً a,b18 يأتي ختام جملوني بأربعة رؤوس غزلان كما نرى في جملونين، واحد من متحف Ashmolean والآخر من مجموعة (Chiha). إن الرؤوس الجميلة المحفورة في الجملون من آفيس يمكن موازاتها بطبقتنا الثانية للجمالونات السورية الأناضولية، كما تتصف بعدد من الأختام الأسطوانية في الفتحات كالواردة من تشاكازو/كوبا هويوك، والجمالون الأكثر نظامية هو من تل جديدة (١٧) من مرحلة F من العمق. ومن نفس الحشوات يأتي ختم تعويذة في شكل قنفذ محفور على شكل غزال (TA.94, E.378) وخاتم بشبكة (TA.94, E.253) مشابه للأختام من تل براك والعمق F180 ويمكن مقارنة خاتم طيني على شكل نبات بـ Pintaderas من بيبلوس، ونجد شعارات في الرسوم من جاوا وتل أم حماد[١٩].

إن الصناعة الحجرية المؤلفة بصورة رئيسية من شفرات من الزجاج البركاني الأسود، وأحجار صغيرة مثلثة الشكل وشفرات كنعانية، موثقة جيداً في نفس منطقة الانتشار التي تغطيها الفخاريات المحلية. ويشير ارتفاع النسبة المئوية للشفرات من الزجاج البركاني إلى وجود اتصالات قوية ومباشرة مع شمال طوروس، حيث تم استخراج المادة الأولية[٢٠].

وتنتمي مجموعة الفخاريات من (الحواشي) إلى محيط ثقافي متجانس. وأكثر هذه الفخاريات تصويراً لذلك هي التي يظهر التبن على سطحها في ثلاثة أشكال: أحمر برتقالي وبيج وأخضر رملي، ونادراً ما تكون مصقولة. أما زبادي Coba (من موقع كوبا هويوك /ساكجاغوزو) المكشوطة بالصوان غالباً، والمنتجة بكميات كبيرة فهي أكثر الأشكال توثيقاً (الشكل ٦). في حين أن زبادي Bead Rim أقل عدداً فضلاً عن الزبادي ذات الحواف البسيطة (الشكل ٧). وكانت حواف الجرار تُعمل بشكل منتفخ أو بحواف بسيطة مقلوبة إلى الخارج (الشكل ٨). كما توثق فخاريات بسيطة ذات حبيبات معدنية وقوام ناعم خفيف متبقية من التقاليد العبيدية، كما تسود كؤوس وأكواب مخروطية الشكل في هذا النسيج. كما توثق فخاريات مرسومة على سطح يظهر عليه التبن بأشكال بسيطة تعود إلى العهد السوري العبيدي المتأخر، ولو بنسب ضئيلة (الشكل ٩: ١٦ ـ ١٩, ١٠: ٨ ـ ١٠, ١١ ـ ٤) وعلى نسيج أخضر رملي قريب من التقليد العبيدي، وهو نوع من التقليد العبيدي المحلي الذي دبّ فيه الانحلال (الأشكال ١: ٩ ـ ٦, ٩ ـ ١٢, ٢ ـ ٤, ٦ ـ ٧) وتمثل الفخاريات المصقولة نسبة محدودة جداً (الشكل

٩ :١٣ ـ ١٤)، غالباً في زبادي لم يتم إنتاجها محلياً وهي تقليد للأواني المصقولة السوداء الواردة من الأناضول، وهي موثقة كذلك في عدد قليل من القطع في آفيس. والأواني المصقولة والمصقولة الحمراء نادرة جداً. وتم زخرفة عدد قليل من القطع المصقولة الرمادية بإجراء شقوق فيها (الشكل ١١ :٥) [٢١] وقطع قليلة من عبيد وحلف من أكثر السويات عمقاً في الموقع وهي تسجل التاريخ الطويل للمستوطنة خلال العصر النحاسي بأكمله.

بني سور مدينة آفيس في المرحلة الأخيرة من أواخر العصر النحاسي نظراً لأنه مكسو بسلسلة طويلة من المستويات (١٩ ـ ٢٦) التي ظهرت بعد سبر أجري في عام ١٩٩٢ على قاعدته (الشكل ٣ السفلي) : وتُسجل ثلاث مراحل مميزة في هذه السلسلة، تتألف الأخيرة منها من باحة مرصوفة مفتوحة ذات موقد كبير على شكل قمع. إن أفق الآنية لهذه السلسلة يتوافق تماماً مع حشوة الجدار في الفترة اللاحقة، حيث سادت الآنية ذات السطح الممزوج بالتبن على البسيطة منها، ونسبة محدودة من الآنية المطلية التي تعود إلى أواخر الفترة العبيدية (الشكل ١٢ الأسفل). إن وجود هذه المستويات من الخوابي الكبيرة المخزنة في أواني بسيطة (الشكل ١٢، الأعلى) وقطعة من خابية المونه (Reserved slip) ذات رسوم وكتابات غير واضحة تشير إلى احتمال وجود علاقة، على الأقل بالنسبة للجزء الأوسط من هذه السلسلة المحلية مع مرحلة أوروك المتوسطة من بلاد الرافدين. وتفصل أكثر من ستة أمتار من الأنقاض الأثرية هذا المستوى عن التربة العذراء، كما نعلم من ثقب أجري في نهاية الموسم عند الحافة الغربية من عملية السبر: وبالمقارنة مع السلاسل الطويلة من فترات حلف عبيدالموثقة في أنحاء شمالي سورية، فمن الممكن تحديد هذه السوية العميقة وربطها بهذه المراحل، وبما أن التربة العذراء تقع على عمق ما لا يقل عن ثلاثة أمتار فوق السهل المحيط خارج المدينة السفلى، كان على المستوطنة الأولى من آفيس أن تقام فوق حجر كلسي طبيعي في وضع مرئي في سهل الطمي بممراته الطبيعية إلى الساحل وجبال طوروس الشمالية ووادي الفرات.

إن السلسلة الطويلة التي تعود إلى أواخر الفترة النحاسية في آفيس تتسم باستمرار السكن فيها على مدى فترة طويلة، وقد توج ذلك ببناء مدينة ضخمة، والتي من المحتمل أن تكون قد تدهورت حالتها وهجرت في نهاية الأمر. وهذا الأفق موثق جيدا في منطقة جغرافية واسعة تغطي جنوب وسط الأناضول (Malatya VII, Kurban Huyuk) وجنوب الأناضول (Cuba Huyuk / Sakcagozu) التي منحت الاسم لهذا النمط وشمال شرقي سورية (تل ليلان وتل براك) وشمالي سورية (تل حمام التركمان) والساحل السوري (العمق F، رأس شمرا III٢) ووسط سورية (حماة، قلعة المضيق)[٢٣]، وهو موثق على مدى فترة طويلة من الزمن، وتظهر بوضوح العديد من المراحل الفرعية والتباينات الإقليمية في مختلف المواقع. ففي تل حمام، فإن الفخاريات المطلية من نموذج المرحلة العبيدية المتأخرة (IV A-D) منفصلة عن مرحلة VA بأواني سطحها ممزوج بالتبن وزبادي كوبة وأخرى (VB) تتصف باختفاء زبادي كوبة ووجود الزبادي ذات الحواف المنتفخة والأواني البسيطة. وفي أماكن أخرى لا يوجد دليل على هذه المراحل المنفصلة من التطور بنفس السلسلة؛ وقد تكون هذه حالة الساحل السوري، وعلى الأقل في رأس شمرا. أما في سلسلة العمق فتوجد فجوة في الوثائق بين مرحلتي E وF. وتظهر الأواني ذات السطح الممزوج بالتبن في طرسوس في أفق المرحلة العبيدية المتأخرة مع زبادي كوبة الموجودة كذلك في المرحلة المحلية الأخيرة من العصر النحاسي المتأخر، موازياً لحالة السلسلة الطويلة لأفق آفيس[٢٤]. وفي تل العبر على الفرات، حيث تم الحصول على سلسلة طويلة لفترات العبيد والأوروك، يمكن تسجيل تطور مشابه؛ ومن الجدير المقارنة مع مواد آفيس الزبادي ذات الحواف المصقولة المقلوبة والنافرة [٢٥] من مستويات أوروك الوسطى. وفي تل ليلان Vib، توجد نسبة صغيرة من أواني العبيد المطلية في الأفق المتسم بزبادي كوبة والأواني التي يظهر التبن على سطحها؛ وفي ليلان ٧ ثمة انحدار شديد في الأواني المطلية في حين ماتزال ذات السطح الممزوج بالتبن مسجلة بطائفة واسعة من الأشكال، من بينها زبادي كوبة المنحدرة وستختفي في ليلان ١٧، لتحل محلها أنماط أوروك المتأخرة كالزبادي ذات الحواف المشطوفة[٢٦].

ويتوفر عدد قليل من الوثائق في سلسلة آفيس التي تتيح استحداث تأريخ محلي نسبي. إن وجود قطعة من

خابية المونة (Resrved Slip) في المستوى ٢١، وهي مرحلة تسبق سور المدينة تماماً قد تدعم ارتباط هذا المستوى بمرحلة أوروك الوسطى،تماما عندما تم توثيق الرموز لأول مرة في سورية في تل شيخ حسن[٢٧].

إن خوابي التخزين البسيطة التي وجدت في فترة أبكر من نفس المرحلة قد تشير إلى تاريخ مشابه. فقد تم جمع عدد قليل من الأشياء والقطع من فوق قمة السور، وفي الأنقاض التي تعود إلى انهيارها الأخير، والتي تشهد على مرحلة لاحقة، وهي كسرة فخارية مرسومة بشكل حيوان مع علامة فخارية، وختم اسطواني من الحجر الكلسي بشكل خط وقوقعة حيوان مصغرة[٢٨].

إن أفق الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن يحمل دليلا على زبادي كوبة (Coba) على الأقل في شمالي سورية على مدى فترة طويلة، وهي توازي في مرحلة مبكرة الفترة العبيدية النهائية أو ما بعد فترة العبيدية مباشرة وأوائل أوروك[٢٩] ومتداخلة مع فترتي أوروك الوسطى والمتأخرة. إن استمرار وجود هذا الأفق خاصة ثقافية إقليمية محلية، في منطقة الفرات والخابور خلال فترات أوروك الوسطى والمتأخرة، توجد أواني الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن Chaff Faced مع فخاريات أوروك في المستوطنات المحلية[٣٠] في حين لا تسجل في المناطق الداخلية لأوروك سوى أشكال أوروك. وفي مالاتيا ٧١١ ظهرت سلسلة طويلة لأواني الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن وزبادي كوبة، وربطت بعدة مستويات مهنية[٣١]. وفي النهاية فقد حل أفق الحافة المقلوبة في مالاتيا VIA محل الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن بعناصر من تقاليد أواخر أوروك.

من المؤكد أن عدداً قليلاً من الاتجاهات الإقليمية كانت تسود المنطقة بأكملها، والتي كانت متماشية مع الواقع المحدد الاجتماعي والاقتصادي للمستوطنات المحلية، ومستوى تشكلها الاجتماعي المركب أو ارتباطاتها بمناطق أوروك. ويظهر تل آفيس دليلاً عن استمرارية قوية من نفس الأفق على مدى سلسلة طويلة تتسم بتحول المستوطنة إلى موقع محصن وربما مركزي. وبشكل مبدئي، فقد تكون أواخر العصر النحاسي لآفيس مرتبطاً بأوائل أوروك في مرحلتها المبدئية (Livv. 25-22) إلى منتصف فترة أوروك ٢١ ـ ٨١٩ وأواخر فترة أوروك (a-b18). لقد بني سور المدينة بطبقته الأولى (Lev. 18e) والثانية (Lev. 18c) في مرحلة لاحقة من هذه السلسلة، ربما في مرحلة متقدمة من أفق الفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن؛ واستخدامه النهائي وهجره (a-b18) في المرحلة الأخيرة من نفس الأفق قد تكون موازية لفترة أواخر أوروك النهائية.

إن وجود أبنية إدارية (مالاتيا VII، وتل حمام VA) بل وحتى أسوار المدينة الضخمة (آفيس، جاوة، صيدا، رأس شمرة، بيبلوس ومالاتيا)[٣٢] وانتشار الفخاريات المنتجة بكميات ضخمة، بتكاليف منخفضة جداً من قبيل زبادي كوبة والفخاريات ذات السطح الممزوج بالتبن بأختام اسطوانية ودمغات على الخوابي في المشرق بأكمله، لهو دليل واضح عن انتشار وكثافة عملية تمدن محلية وأصلية، وتشكل المجتمعات المركبة التي بدأت بعد المرحلة العبيدية مباشرة ووصولها إلى الذروة في غداة توسع أوروك أو في بدايتها. ففي مالاتيا، يمكن إرجاع هذه الفترة بدقة إلى المرحلة VII وقبل انتشار ثقافة أوروك التي أثرت على مستوطنة VIA-B المحلية.ونفس السلسلة واضحة في تل براك حيث أن المستويات التي اتصف بها هذا الأفق تسبق فترة أواخر أوروك. ومن حكم المؤكد فإنه لايزال من الضروري بناء إطار تأريخي مأمون لهذه الفترة تتعلق بالسلاسل الثقافية المحلية، لإظهار فروقات قليلة بين انسجام كبير مع الفترة التاريخية لمنطقة بلاد الرافدين.

إن الدليل الجديد يطرح أسئلة جديدة حول دور المناطق «المحيطة» في عملية ظهور التمدن وعلاقتها وإمكانية سبقها لتوسع أوروك. فقد ربط تفسير ـ ظهر مؤخراً ـ وجود المستوطنات المحصنة في السهول السورية ـ بلاد الرافدين خلال هذه المرحلة إلى ازدياد الضرورات الدفاعية استجابة للدور القمعي الذي لعبته مناطق أوروك الداخلية[٣٣]. إلا أن سور المدينة الدفاعي ليس سمة محصورة بسورية ـ بلاد ما بين النهرين، بل هو موثق في حقيقة الأمر في جميع مناطق المشرق، وكذلك في المناطق التي لم تتأثر بسيطرة أوروك، كما كان حال بيبلوس وجاوة. وإني أربطها بعملية المركزية المشرقية العامة التي تحتاج إلى استراتيجيات دفاعية ودور متزايد للسيطرة على المناطق المحيطة. إن وجود شبكة

المستوطنات الأكثر استقرارا وازدياد التراتبية في هذه الشبكة تعد من خصائص هذه الفترة، كما أشارت إلى ذلك العديد من المسوحات التي أجريت بدءاً من شرقي الأردن وحتى هضبة الأناضول.

إن المسح الذي أجري في سهل آفيس في عام ١٩٩٣، أتاح توثيقاً جيداً لهذه العمية بالذات[٣٤]. وقد شمل المسح سهل الطمي الواقع شمال الموقع الذي يحده جبل سمعان شمالاً، وجبل بريشا إلى الشمال الغربي، وهو يقع في الجزء الشمالي ـ الشرقي من محافظة إدلب. وكما تم مسح عدد من التلال الواقعة خارج هذه المنطقة، في نفس منطقة إدلب للحصول على مزيد من المعلومات حول أواخر العصور النحاسية.

وإلى شمال وشمال غرب تل آفيس، يوجد عدد من المواقع الصغيرة نوعا ما والواطئة في السهل. وهي تغطي جميعها فترة طويلة من السكن في الفترة العبيدية المتأخرة وحتى الفترة الفارسية ـ الإغريقية مع تذبذب محدود ظهر خلال تلك الفترة الطويلة. وتوجد معظم مواقع أواخر العصر النحاسي على طول خط شمالي ـ جنوبي. ففي شمال آفيس كشفت التلة الواطئة جدا لتل محلق عن مواد من حلف والعبيد من الفترة البرونزية الأولى IV ومواد من العصر البرونزي الأوسط II. ويوجد على مسافة عدة كيلومترات إلى الشمال تل أربيغ، وكذلك منخفض جداً فوق السهل مع ظهور دلائل جيدة من مواد تعود إلى العصر البرونزي المتأخر، المركزة بشكل رئيسي على الطرف الجنوبي لتوطن إسلامي في فترة لاحقة؛ ويتسم أفق الفخاريات هنا بالآنية ذات السطح الممزوج بالتبن في أشكال زبادي كوبة وذات حواف محدبة بالإضافة إلى عدد قليل من الفخاريات الممزوجة بالتبن المطلية من نموذج أواخر الفترة العبيدية، وفي أشكال خوابي ذات حواف وكؤوس. وتم جمع الفخاريات نفسها في تل شعلاك وتل زردينا شمال تفتناز؛ الأول عبارة عن تلة صغيرة، جرفت أطرافه جزئياً بسبب ظهور القرية الحديثة، مظهرة دلائل واسعة عن وجود سكن في أوائل العصر البرونزي I-IV والأوسط II، أما الثاني فهو عبارة عن تل مرتفع، تم حفر أحد جوانبه ويظهر أثاراً من سلسلة طويلة من السكن من فترات البرونز المبكر EB وحتى البرونز الأوسط والمتأخر MB وLB والعصر الحديدي. وتم جمع الوثائق المتعلقة بالمراحل الأولى من السكن في قاعدة التلال التي آفيسدتها في معظم الأحيان الحفريات الأخيرة، والتي كشفت في بعض الأحيان عن ترسبات عميقة (تل شعلك وزردينا)، أو حيث أدت الأعمال الحقلية الواسعة إلى تسوية التلال الأصلية، فكشفت جزئيا المستويات الأولى (تل محلق وتل أربيغ). إن المرحلة المتأخرة من العصر النحاسي مازالت مطمورة في أعمق طبقات الوادي، ولا يمكن توثيقها إلا بين الحين والآخر. وفي جميع الأحوال، فإن المواقع الصغيرة الأخرى لم تظهر أثاراً أو دلائل على هذه المرحلة مثل تل صندل وتل بنيات الخليل وتل العين وتل النيرب، إلا أنها جميعها تحتوي على وثائق جيدة تعود إلى فترات البرونز المبكر ٤ ،الأوسط ٢، والمتأخر ١ـ٣ EBIV, MB II, IA-I-III وكشفت قرية بنش قطعا صغيرة متناثرة من العصر الحديدي II-III والعصر البرونزي الأول، وقد بنيت القرية في واقع الأمر فوق تلة صغيرة أصابها التهدم بدرجة كبيرة، وتلة طبيعية من الأحجار الكلسية، وقد تخللتها الكهوف التي استخدمت كمأوى للرعاة. إن القطع الصغيرة القليلة من عصر البرونز المبكر ٤ EB IV التي تم جمعها من الأساسات المكشوفة من بعض البيوت قد تدعم التعرف على هذا الموقع مع بنش الذي ورد ذكره في حفل تتويج أو شعائر زواج في سجلات إبلا كمكان لعبادة أسلاف العائلة الحاكمة.

يعد تل نوار عند تقاطع الطريق بين منطقة حلب إلى الشرق وسهل العمق غرباً أكبر تلة في شمالي آفيس، ويهيمن على الممر بين جبل باريشا وجبل سمعان. والتلة مرتفعة جدا عن السهل وتبلغ مساحتها حوالي ١٠ هكتارات. وقد شكلت هذه التلة بصورة رئيسية من المستويات الفارسية والهيلينية عند القمة والعصر الحديدي I-III على المنحدرات الوسطى. وإلى الشمال الشرقي ينفتح واد على التلة، يكشف على الجانب الشمالي جدران بوابة مؤلفة من غرفتين تتصل بسور خارجي للمدينة على الطرف الشرقي من التلة ومبني من أحجار كلسية ضخمة. وقد يعود هذا السور إلى البورنز الأوسط٢ـ البرونز المتأخر ١ـ٢ LB-1-II MB11 وهو مبني فوق مصطبة من القرميد الطيني من مرحلة أبكر توازي السلسلة في تل آفيس، حيث بنيت أساسات سور المدينة الدفاعي من عصر البرونز الأوسط MB II مباشرة فوق مستوطنة البرونز القديم ٤ ب EB IVB الأخيرة. وتم جمع قطع متناثرة تعود إلى أواخر فترات العبيديين والعصر النحاسي

في قاعدة الطرف الغربي للتلة، وتم توثيق زبادي كوبة وفخاريات ذات فتحات على شكل أطواق وأواني ذات السطح الممزوج بالتبن، وتشبه الأشكال والطين بعض تلك الموجودة في تل آفيس شبها تاما، مما يظهر الوحدة الثقافية لهذه المنطقة في هذه المرحلة. ويبدو أن السكن في أواخر العصر النحاسي ينحصر في المنطقة الوسطى من سهل آفيس: فقد تم توثيق هذه المرحلة جيدا نتيجة لمسح الروج إلى الغرب، إلا أنه يبدو أنه لا يوجد على الجانب الشرقي من سهل إدلب. ويمكننا أن نقدر فيما إذا كان ذلك يعتمد على الطبيعية العرضية بسبب تعرض أعمق طبقات التلال المرئية على السهل كما لاحظنا في عدة حالات، ولكن في عدد قليل من التلال التي تم زيارتها خارج السهل مثل تل داديخ. وقد قمنا بجمع قطع تعود إلى أواخر العصر النحاسي في قاعدة على الجانب الشرقي من التلة وإلى غرب تل مرديخ.

وكشف المسح منظومة من المستوطنات تعود إلى المرحلة النحاسية المتأخرة المعاصرة لنمو مدينة آفيس وسورها الدفاعي، المركز في معظمه في المنطقة الوسطى من الوادي الذي أغناها زراعياً وجعلها أكثر سهولة في الاتصال على مفترق الطرق الرئيسية إلى منطقة العمق. وكانت الروابط الثقافية مرتبطة بشكل وثيق بهذه المناطق في المراحل الأولى من فترات العبيدين إلى أوائل العصر البرونزي كما هو موثق في الفخاريات وصناعة الأحجار والأختام. وكانت المنطقة تعد مفترق طرق طبيعي، ربما تم عن طريقه نقل حجر السبج من الهضبة الأناضولية إلى سورية في المراحل الأولى، وذلك موثق جيداً في آفيس بالإضافة إلى النحاس اعتباراً من الألف الثالث وحتى الآن.

إن البحث عن مفترق طريق من الجانب الشمالي من سهل آفيس إلى الغرب، وهو ممر طبيعي إلى وادي نهر العاصي يحيط الأطراف الشمالية لجبل باريشا وجبل العلى وجبل الدويلة، في النقطة التي يتدفق فيها نهر العاصي وعفرين إلى الوادي. ومن المؤكد أن موقع حارم الكبير كان يهيمن على هذا الجانب من السهل، حيث بنيت القلاع البيزنطية والإسلامية فوق التلة السابقة التي أقيمت من البقايا المرتفعة التي تعود إلى أوائل العصر البرونزي الرابع ومنتصف العصر البرونزي الثاني، وربما إلى العصر الحديدي، وثمة طريق ثان من آفيس عبر الممر بين جبل الزاوية وجبل باريشا إلى سهل الروج حيث كشفت البعثة اليابانية من جامعة طوكيو بقيادة البروفسور إيوازاشي عددا من المواقع من العصر النحاسي المليئة بمواد تتعلق بحلف ـ عبيد خلال المراحل المحلية من الروج ٣ ـ ٥ (حلف، عبيد وأوروك). ويوازي تل عبد العزيز سلسلة آفيس بمواد من آخر المرحلة العبيدية وأواخر المرحلة النحاسية التي شهدت وحدة ثقافية لهذه المنطقة على مدار هذه الفترة. ويظهر موقع وكثافة مستوطنات العصر النحاسي المتأخر في المنطقة تخللاً أشد وزيادة في الاستقرار الثابت خلال المرحلة التي ترتبط بتكثيف الزراعة والتجارة.

وباتباع الطريق المؤدي إلى وادي العاصي المنخفض من الطرف الشمالي لسهل آفيس، هناك تل آخر تحوي قاعدته مواد من أواخر العصر النحاسي وهو تل بك، وهو عبارة عن تلتين متوسطتي الحجم الذي تم احتلاله كذلك خلال أوائل العصر البرونزي وأواخر العصر البرونزي والعصر الحديدي ١ ـ ٣ والعصر الهليني والبيزنطي. ويقع غرب سلقين على الضفة الشرقية من سهل العاصي معبر آخر للنهر عبر الجبال قبل أن تصب في سهل انطاكية، في وضع مربح جداً للسيطرة على طريق النهر واستغلال الزراعة. كما يعد الموقع هاماً نظراً لثرائه بالرواسب من عصر البرونز المبكر ٢ـ٣ EB II-III، وتغطي منطقة واسعة من جنوب غربي التلة بقطع حمراء مائلة للسواد محروقة (الشكل ١٣)، وربما نجمت عن عمل ورشة متخصصة. وتبدو الأشكال والطين والزخارف مشابهة جداً لأنماط من المواقع في «منطقة العمق» في مرحلة H مظهرة أصلاً مشتركاً ونفس الصانع، وربما كانت ورشة تل بك منطقة الفرن الرئيسية لهذه الفخاريات في منطقة العاصي السفلى.

توفر عملية المسح في آفيس دليلاً جديداً لصورة منطقة شهدت زيادة مضطردة في السكن مع تراتبية في المستوطنة وشبكة من مواقع صغيرة حول مدن قليلة تعمل بمثابة أماكن مركزية مدعمة بقوة، فيها مباني رسمية أو وحدات مركزية لتخزين إمدادات الغذاء والمصادر الطبيعية والتحكم بها وتبادلها مع الخارج.

وسأختتم كلمتي بملاحظة عامة حول دور سورية في هذا الصدد، إذ لم يكن دور منطقة فرعية لم يستفد من التأثير المهيمن للمجتمعات المتكاملة جدا للطمي فحسب،

بل كذلك للمناطق الداخلية ذات الطابع المحلي المستفيدة من الموارد الطبيعية والموارد الزراعية المختلفة والتغلغل بين الأقاليم. ففوق هذا الأساس، تطورت المجتمعات المحلية بالتدريج إلى مستوى مجتمعات مركزية متقدمة.

المجمع الديني في مستوطنة تل خزنة I شمال شرقي سورية

رؤوف منشاييف . نيقولاي ميريرت

تعريب: هالة مصطفى

منذ عام ١٩٨٨ تقوم بعثة أكاديمية العلوم الروسية بتنقيبات واسعة النطاق في مستوطنة تل خزنة I ذات السويات المتعددة، والواقعة على بعد ٢٥ كم شمال شرقي مدينة الحسكة، على الضفة اليسرى لوادي رجلة، يبلغ قطر التل ١٥٠م وسطياً وارتفاعه٢ ر١٧م. يعود الجزء الرئيسي للسوية الأثرية (أكثر من ١٤م) لعهود السلالات المبكرة (السلالات من I إلى III، الألف الثالث ق.م.). أما الجزء الأدنى والأصغر (٣م)، فيرجع للحضارتين الأوروكية والعبيدية (الألف الرابع). أعظم مكونات التل شأناً هو مجمع المعبد الذي يتألف من نسق من الإنشاءات الضخمة التي حفظت بارتفاع لا بأس به. في طليعة أبنية هذا المجمع برج مستطيل الشكل في المخطط بقي بارتفاع ٨أمتار، في داخله تجويف عميق شبيه باسطوانة العمود. ويرتبط بالبرج عدد من الحجرات والأفنية ويسور هذا الحرم جدار ضخم فيه أنصاف أعمدة جدارية، كما هو مألوف في بناء معابد بلاد الرافدين القديمة، وهنالك مايدعو للإعتقاد بأن المكان ـ قيد البحث برمته ـ لم يكن ذا طابع مديني بل ديني. ويؤكد ذلك وجود المباني الشعائرية وفي داخلها مذابح من الطوب، ثم الغياب الكامل لآثار الأواني المنزلية النموذجية. ويتيح لنا ترتيب الهياكل المعمارية المتزامنة في السويات المختلفة أن ندرج معبد تل خزنة «I» في عداد مايسمى «المعابد العالية» التي تقام فوق عدد من المنصات الاصطناعية المتعاقبة. ويمكن اعتباره أقصى معبد في الشمال، وأحد أولى المعابد من هذا الطراز، وهو يوسع رقعة «المعابد العالية» باتجاه شمال شرقي سورية.

ظلت عمليات التمدن وتشكل بنى الدولة والحضارة ومن ضمنها ظهور مراكز دينية خاصة ـ إلى عهد قريب ـ تُدْرس على ضوء معطيات وادي الرافدين الأدنى والأوسط. أما الآن فقد تغير الموقف، وبوسع المرء حالياً أن يؤكد أن العمليات الآنفة الذكر قد شملت رقعة أوسع من ضمنها شمال شرقي سورية: تلك البقعة التي تتميز بالتمركز المذهل للمواقع العائدة للألفين الرابع والثالث ق.م، ذات السويات شديدة الثراء بالحقائق والمعلومات من عصري فجر السلالات وأوروك المبكر. هذا التمركز من الصعب أن نجده في وادي الرافدين الأدنى والأوسط، وهو بلا شك، مرتبط بخاصية ديناميكيةٍ نوعية للعملية الثقافية التاريخية في منطقة شمال شرقي سورية، التي من خلالها تواصلت المراكز الرئيسية في بلاد الرافدين مع إقليمي شرق المتوسط والأناضول. لذلك، كان من الطبيعي أن تجذب هذه المواقع، بمختلف مراحلها اهتمام البعثة الآثارية التي تقوم بالأبحاث في تلك المنطقة الآن. والكثير من هذه المواقع أعطت ثماراً رائعة. يكفي للدلالة على ذلك، أن نشير إلى تل براك بمجمعي معبده وقصره العائدين لعهود فجر السلالات والعهود الأكدية،

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

أو إلى ثراء أرشيف تل ليلان ، أو إلى مجمع قصر تل كشكشوك الرائع من فجر السلالات . . . .الخ . وتظل حفريات تل خزنة « I » الجارية منذ العام ١٩٨٨ هي الأهم (ر.م. منشاييف، ن.ي . ميربرت؛ ن.و. بدر ١٩٩٠؛ ر.م.منشاييف؛ ن.ي. ميربرت؛ ن.و. بدر١٩٩٣؛ ر.ن. منشاييف، ن.ي. ميربرت ١٩٩٤) .

تل خزنة « I » مستوطنة متعددة السويات، يقع على بعد ٢٥كم شمال شرقي الحسكة، على الضفة اليمنى لوادي « رجلة »، ويبعد ١م « I » شمالي تل خزنة « ٢ »، الذي سنخصص له مقالنا الثاني . يبلغ متوسط قطر التل ١٥٠م، وارتفاعه١٧,٢م، ويرجع القسم الأعظم من سوياته الأثرية إلى عصور فجر السلالات الممتدة من بداية الألف الثالثة حتى ربعها الأخير . أما المستوى العائد للثقافة الأوروكية والعبيدية (نهاية الألف الخامس إلى نهاية الألف الرابع ق.م)، فهي ضئيلة السماكة (لاتزيد على ثلاثة أمتار)، وتحتها طبقة مختلطة اكتشفت داخلها قواعد هياكل المعبد الرئيسي .

اكتشفت شبكة أبنية متعددة لمجمع يعود إلى الألف الثالث في الجزء الجنوبي من التل . ربط معظمها وفق المخطط العام واتسم مكانها بوجود منصات اصطناعية متعاقبة ـ مصاطب متدرجة وفق تركيبة المكان المدرجة .

ترتبط كل مصطبة من هذه المصاطب بمجموعة من المباني، إلا أن المصاطب الأحدث تخص مجمع المعبد الوحيد . هذه الحقيقة توضح الهوية الفعلية للمواد المكتشفة في القطاع كله (فخاريات بشكل رئيسي) رغم الفروق الجوهرية في سوياتها . ثم تعيين مالايقل عن أربع مصاطب من هذا النوع على الأعماق ١,٥م و٢,٥م و٩,٦م (مازال كشف المنصة الأعلى فوق التل في بدايته) . عثر فوق المصاطب المختلفة على المباني الأساسية، ومعها الأبراج الضخمة المصمتة المحتوية على أعمدة نصفية من نفس النموذج المألوف في هندسة بناء معابد بلاد الرافدين القديمة . هذا وقد رصفت أسطح المصاطب الأحدث مع أسطح المنحدرات القائمة بينها بالحجارة . تسمح هذه الدلائل بإدراج هذه المنشأة المعمارية في عداد مايسمى « المعبد العالي »الطراز النموذجي المميز لهندسة المنشآت الدينية ذات التركيبة المدرجة للموقع في بلاد الرافدين. كان هذا النموذج معروفاً ـ حتى الآن ـ في وادي الرافدين الأوسط والأدنى بالدرجة الأولى (ب ديلوغار ١٩٤٠، هـ.لنزن ١٩٥٥، س. للويد ١٩٧٨، و. تونكا ١٩٨٤) . ومن هنا تأتي الأهمية الخاصة لاكتشافه لأول مرة في تل خزنة « I » في شمال شرقي سورية .

تضم المنصة السفلى سوراً مصمتاً بسماكة ٤م تقريباً، يبدو أنه دفاعي، إذ أنه مشيد من طبقات متراصة من اللبن والتراب ومطلي بالطين من الجانبين .

يمكن اقتفاء أثر هذا الجدار لمسافة تزيد على ثلاثين متراً، وماتزال بعض أجزائه قائمة حتى ارتفاع ١,٦٠م، محيطاً بمجمع المعبد الذي يؤلف مجموعة الأبنية الأساسية . يتبع لهذا السور برج ضخم (N37) الشكل ١١ ـربما زقورة (؟) قائم بارتفاع ٨أمتار حتى الآن، وهو مشيد باللبن، ولأعلاه مسقط محيطي خارجي ٥×٦,٤م . يتداخل جدار المعبد السفلي ذو أنصاف الأعمدة الجدارية مع هذا البرج المرتبط بمجموعة الهياكل التي تشكل بالنسبة لها مركزاً معمارياً من نوع ما . دُرست سلسلة الحجيرات العمودية المتتالية القائمة داخل البرج التي فصلتها عن بعضها البعض، أرضيات مرصوفة بالطوب والحجارة . ووصل عمق هذا الهيكل إلى ستة أمتار حتى الآن (من أعلى البرج)، إلا أن الأرضية السفلى لم تكشف بعد . في الحجرة العليا وجدت الأفازير الحاملة للسقف، ومدخلها كان من الأعلى عند القمة . ولإحدى حجرات البرج السفلية مدخل يفضي إلى الفناء . والذي كان سطحه المرصوف بالحجارة أعلى من مستوى أساسات البرج ٣٧ بثلاثة أمتار ونصف .

توضعت طبقات كثيفة من الرماد على أرضيات الحجرات داخل البرج ٣٧ . اكتشفت بينها بقايا الحبوب وعظام الحيوانات ولقى أخرى ليست بالكثيرة؛ كنصال المناجل ومقابض المجارش اليدوية والمطاحن وكسر الأواني والتماثيل الصغيرة للحيوانات المختلفة . لم تنته الأبحاث المتعلقة بهذه اللقى المدهشة بعد، مع ذلك لدينا مايدعو للاعتقاد بأن المكان استخدم كمبنى مقدس .

لإحدى القطع الرائعة أهميتها الخاصة في إثبات هذا الرأي . ففي الكوى الطولانية (النوافذ) من الجهة الجنوبية الخارجية في القسم العلوي للبرج دفنت مجموعة نصال

المناجل، بلغت ١٧ نصلاً (الشكل ٢)، وختم مستطيل (الشكل ٣) من الحجر الأبيض (حجر كلسي رخامي)، وعلى إحدى الأرضيات نقشت صورة لأسد وحيوان من ذوات الحوافر نقشاً غائراً في مشهد يرجح أنه مشهد تعذيب. للختم المستطيل صلة وثيقة بفن النقش على المجوهرات في السويات الأوروكية المتأخرة في تل براك وتبة غورا (M. EL.Mallowan, 1947, pl. XVIII28; XIX; 14; XX : 25,34, 36; A.J. Tobler 1950, pl.CLXVIII, 156) إن السمة الطقسية لهذه القطعة جلية، وهي مرتبطة بالخاصية الوظيفية للبرج ٣٧ التي أشرنا إليها آنفاً. لكن هذه الوظيفة لاتعني استبعاد إمكانية استثمار منشآت كهذه المنشآت استثماراً عملياً، كمخازن للحبوب مثلاً. تؤكد على هذا الضرب من الاستثمار البيانات الموجودة على الأختام الاسطوانية الرافدية العائدة للألف الثالث قبل الميلاد. إن اقتران الديانة بالممارسة الزراعية يبدو هنا طبيعياً بشكل مطلق.

يقوم البرج ٣٧ على ركيزة أو منصة ارتفاعها ١,٧م، بنيت من آجر كبير الحجم، وقد بقيت دون طلي. لكن جدران البرج الخارجية وجزئياً الداخلية، فقد تم اكساؤها بطبقة مجدولة من الجص الأخضر والبني.

فوق المنصتين السفلية والثانية عدد من الحجرات والأفنية مرتبطة بالبرج، وإلى الشرق ينطلق سور مصمت فيه أنصاف أعمدة جدارية، وارتفاعه ٦ أمتار، محيطاً بحرم المعبد من الجنوب والشرق، ومن الجهة المقابلة وعلى مستوى المنصة الأولي أبنية ضخمة مرتبطة بالبرج ٣٧، اكتشف داخل إحداها المذبح المبني من الآجر، والتنور نصف الاسطواني الذي توضعت إلى الشرق منه بقليل، خلف سور المعبد تماماً منشأة أخرى ضخمة برجية الشكل N110، وهي على صلة وثيقة بالبرج ٣٧ سواء من حيث الشكل أو الأبعاد. فالمبنيان كلاهما ينتميان لمستوى البناء الأولي الذي يرتكز عليه مجمع المعبد (حوالي ١٤م تحت قمة التل)، ويستندان على قطع ضخمة ناتئة تحت الجدران مصنوعة من آجر كبير الحجم (٦٠×٦٠) والبرجان أيضاً مطليان بطبقة مجدولة من الجص الأخضر والبني. ثم تحديد حجرتين داخل البرج ١١٠، متوسط بعديهما في المستوى العلوي هو ٢×٢,٥م. لكنهما وسعتا بشكل له دلالته أثناء عملية التعميق. لكن تقليل عرض الحجرة عند السقف جعل من الممكن أن نفترض أن البناء ١١٠ استخدم بادئ الأمر كمخزن للحبوب.

تمتد المباني الضخمة ذات الصبغة الدينية والاقتصادية حتى الطرف الشرقي للموقع. وفي الجهة المقابلة لابد من ذكر المباني المتلاصقة التي ترسم التخوم الغربية للمستوطنة، حيث اكتشفت منازل تأسر بجلالها ومهابتها، وبقيت جدرانها قائمة بارتفاع ٦م حتى الآن.

شمال البرج ٣٧ تبرز للعيان مباني المنصة الثانية (متوسط السوية ١١م). هنالك فناءان كبيران تسورهما الجدران وحرم صغير مرتبط بالبرج بقي بارتفاعه الكامل (حوالي ٣م)، وفي داخله أقيم مذبح مستطيل من الآجر، وقد ألحقت مباني المنصة الثانية هذه بالمباني المرتبطة مباشرة بالبرج ٣٧. وتدعى مبدئياً « المعبد الأقدم ». وعلى المنصة التالية (متوسط السوية ٩,٥م) أقيمت الشبكة الثانية المماثلة وهي، دون شك، مرتبطة « بالمعبد الأقدم » لكنها في الوقت نفسه تمتلك ميزات الوحدة المعمارية المستقلة، وهي لهذا السبب تدعى « المعبد الأحدث »، الذي يكرر بعض سمات ومكونات « المعبد الأقدم »، لكن بصورة مصغرة. هنالك في مركز الشبكة المعمارية شيد البرج ٢٤، وهو صورة مصغرة عن البرج ٣٧ وعلى نفس محوره الأفقي. ولكل المباني الأخرى صفة دينية أو اقتصادية، وقد ألحقت جميعها بالمجمع المتصل بالبرج المركزي والمسور بجدار قائم حتى الآن بارتفاع ٥م، وبه أنصاف أعمدة جدارية من النوع نفسه الموجودة في « المعبد الأقدم ».

إن أنقاض المباني البارزة فوق التل برهان قاطع على وجود منصة أو منصتين أخريين، لكن شبكة من الحجرات الصغيرة بشكل عام بينها ممرات ضيقة أقيمت في وقت لاحق فوق السفوح العليا للتل وغطت الأنقاض السابقة، وماتزال التنقيبات في هذه المنطقة العليا في بدايتها. مع ذلك لابد من التنويه ومنذ الآن بأن تخطيط ذلك الجانب قد حددته سلفاً الجدران الرئيسية السميكة التي قطعّت، وفي نفس الوقت دعمت مجموعات الأبنية المنفصلة. تتميز هذه المجمعات بكون القسم الرئيسي من حجراتها لايحتوي على

أية بقايا منزلية نموذجية، وحتى التنانير والمواقد المعزولة لم تكن منزلية بقدر ماهي مرتبطة بممارسات طقسية. أزيلت من بعض الحجرات أكوام كبيرة من عظام الحيوانات، لكن المهم هو اكتشاف بقايا إنسانية لها، دون شك، صلة بعمليات دفن متعمدة. فالهياكل العظمية للراشدين قد سجيت على فرش وبجانبها حاجيات في متناول اليد: آنية وأدوات وأسلحة برونزية والمئات من خرز الكوارتز والعقيق الأحمر بالإضافة إلى بقايا حيوانية. أما دفن الأطفال فكان يجري في أضرحة وأوعية فخارية دفنت في أرضية الحجرات.

نذكر بهذا الخصوص إحدى الحجرات الصغيرة (ارتفاع ٢م) كانت مليئة بالرماد وعلى أرضيتها ضريح طفل وأكثر من أربعين تمثالاً صغيراً من الفخار لحيوانات مختلفة.

ماذكر آنفاً يعطي القطاعات المرتبطة بالمعبد ميزات خاصة ويتيح لنا أن نفترض أنها كجزء من الهيكل المقدس المتصل بالمعبد. وهنالك أسس للاعتقاد أن الصرح قيد البحث برمته لم يكن ذا صبغة مدنية بل دينية. وهذا ماتؤكده بقايا الأبنية الشعائرية في المصاطب العليا، حيث مايزال البحث في بدايته.

ولنعد إلى معبد تل خزنة، ولنشر ثانية إلى إمكانية درجه في عداد مايسمى «المعابد العالية» لأنها بالمقارنة مع «معابد سوية الأرض» قد أقيمت على منصة أو عدد من المنصات الاصطناعية المتعاقبة. إن لتقاليد هذا النوع من المعابد جذوراً راسخة في بلاد الرافدين، فقد ظهرت سابقاتها بشكلها المتطور في عصري الوركاء وجمدت نصر، ولها صلة وثيقة بأشكال الزقورات والهياكل التي شيدوها. علاوة على الأمثلة النموذجية الأصلية في الوركاء (المعبدالأبيض...الخ) يمكن بهذا السياق أن نذكر المعبد I في أريدو (عصر فجر الكتابة) الذي يعتبر واحداً من الأمثلة النموذجية لمباني المصاطب التي استمرت زمناً طويلاً. ولئن كان معبد أريدو أبعد النماذج من جهة الجنوب فإن مجمع تل خزنة يمكن اعتباره النموذج الأبعد إلى الشمال، بل ويرسم حدود «المعابد العالية» في شمال شرقي سورية. علينا في الوقت نفسه أن نشير إلى أن تأسيس المعبد في تل خزنة I ربما يعود بتاريخه إلى عصر أوروك أيضاً. كما أن الوظائف التي كان يؤديها أثناء مرحلة السلالات الأولى تشهد على عظمة الفترة التاريخية التي وجد فيها.

النظير الأقرب لمجمع تل خزنة I «المعبد البيضوي» في الخفجة ـ ديالا. ويبدو تماثلهما جلياً في كثير من المعايير الجوهرية. يشهد هذا التشابه الصارخ في التقاليد المعمارية على التواصل المستمر والخلاق بين مختلف أقاليم وادي الرافدين، وهو الذي حدد المستوى الرفيع لوحدتها الثقافية خلال الألف الثالثة قبل الميلاد. لكن هذا الانسجام التام لايمكن فهمه بالتعويل كثيراً على مقولة أنه جاء نتيجة لانتشار المنجزات الثقافية لوادي الرافدين الجنوبي والأوسط باتجاه الشمال، في أعالي الرافدين والإقليم السوري، وقد أصبحت هذه الأفكار التي كانت تعتبر تل خزنه ١ مقاطعة بعيدة عن مركز الثقافة في الشرق الأدنى، في ذمة الماضي. أما الآن فيتجلى شيئاً فشيئاً تعقد وتنوع عملية تشكل ذلك المركز والدور المميز في هذه العملية لكل إقليم من الأقاليم التي ذكرناها آنفاً، وذلك من خلال توازيها في عملية التطور خلال عدة آلاف من السنيين بدءاً من ظهور أقدم المواقع الزراعية إلى تشكل المدن والمحاولات الأولى لتشكيل الدول العظيمة.

دليل على التجارة في تل السويحات خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد

توماس هولاند

تعريب: هالة مصطفى

إن اللقى التي اكتشفت أثناء أعمال التنقيب عام ١٩٧٠، والتنقيبات الحديثة في أعوام ١٩٨٩ ـ ١٩٩١ ـ ١٩٩٢) في تل السويحات (انظر المخطط البياني، الشكل١)، الواقع على الجانب الشمالي الشرقي من بحيرة الأسد، أوضحت الدور الذي لعبه هذا الموقع على طرق التجارة بعيدة المدى الممتدة عبر شمالي سورية من الشرق إلى ساحل البحر المتوسط وما خلفه. وقبل ذلك خلال أعمال عام ١٩٧٠، أقيم سبران عميقان في المنطقتين IC وIIA، وذلك ضمن البلدة الرئيسة المسورة، وقد أظهرا أن أول تأسيس للموقع كان في النصف ا لأول من الألف الثالث ق.م، في بداية العصر البرونزي المبكر، وبالرغم من أن هذين السبرين كانتا صغيرين لتزويدنا بالدليل على العلاقات التجارية خلال أبكر فترات إشغال الموقع، فإن المواد التي بقيت من الفترات الأخيرة تشير إلى أن البلدة تأسست أصلاً كإحدى محطات طرق التجارة بين الشرق والغرب خلال فترة السلالات الأولى المبكرة في بلاد الرافدين، ولكن هذا يجب أن يبقى افتراضاً لحين اجراء تنقيبات أوسع في السويات الأعمق.

من الواضح أن هذه البلدة بلغت أوج ازدهارها إبان عهد السلالة الحاكمة الثالثة المبكرة، حوالي ٢٦٠٠ــ٢٣٠٠ق.م، إذ إن التنقيبات خلال عامي ١٩٩١ـ١٩٩٢ في منطقة العمل ٥ إلى الشمال من المنطقة I التي تم التنقيب فيها عام ١٩٧٠ على المنحدر الشمالي من التل، أظهرت جزءاً بسيطاً من المبنى الضخم (انظر المخطط، الشكل ٢) الذي يحوي على الأقل مشهدي رسمين جداريين. إن بنية مثل هذا المبنى الضخم الذي ربما كان قصراً أو معبداً، يشير إلى مظهر رسمي في البلدة مع مصادر كافية من القوة والمال لتمويل مشاريع عمرانية عامة وأعمال فنية. يظهر موضوع التصوير وتاريخ الرسومات الجدارية في تل السويحات أنها وبالتأكيد كانت معاصرة للرسومات الجدارية التي اكتشفت في كل من ممباقة وتل حلاوة، تل B . على كل حال، فإن إحدى الرسومات في تل السويحات، التي تمثل بقرة ترضع عجلاً (انظر الرسم، الشكل ٣، الذي يمثل المشهد المرمم)، هي في الوقت الحالي مشهدٌ فريد لم يظهر في رسومات ممباقة وحلاوة أو في أي مكان آخر في سورية والنماذج الأخرى التي عرفت من نفس الفترة (ماري، معبد نينهور ساغ، وتل رقاي، السوية ٤، المبنى الدائري؛ انظر وبشكل خاص س.دونهام، «لوحة جدارية من تل رقاي إلى الشمال الشرقي من سورية» (Levant 25 [1993]، صفحة ١٢٧ـ٤٣). يشير المشهد الذي يمثل بقرة ترضع عجلاً في إحدى أكبر الرسومات الجدارية، أن الثيران لعبت دوراً رئيسياً ما سواء في الاعتقاد الديني أو في اقتصاد المعبد، إذا كان المبنى معبداً. ومن

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

جهة أخرى، فإن وجوده في مبنى إداري ربما يشير إلى أن هذه الثيران كانت جزءاً جوهرياً من السلع التجارية التي وفرت ازدهار السويحات. من أجل إيضاح هذه المسألة يجب انتظار التنقيبات الكاملة لهذا المبنى ونقل الأجزاء المتبقية من اللوحة الجدارية للبقرة والعجل، إذ إنه لايزال يتوضع قسم عند قاعدة الجدار ذي السماكة ٢٥ ,١م، الذي يمتد خلف الأخدود الشمالي من منطقة الحفرية ٥.

فقد تم اكتشاف كسرة كبيرة فقط من اللوحة الجدارية الثانية المعروفة، وذلك في عام ١٩٩٢ في القسم الجنوبي من الحفرية، على الجدار الذي يمتد من الشرق حتى الغرب ولم يتم تنقيبه، وذلك تحت السويات المنقبة التابعة للربع الأخير من الألف الثالث. إن جزء المشهد من اللوحة الجدارية الثانية يمثل ادميين ربما يحملان أغصان أشجار، وهو مشابه للأشكال التي ظهرت في رسومات تل حلاوة.

إن التوسع الكبير لتل السويحات كأكبر موقع محصن في كل من المدينة الداخلية المسورة والمدينة الواطئة المحاطة بنظام تحصين أرضي، حدث حوالي عام ٢٣٠٠ق.م. بعد انهيار مبنى الرسومات الجدارية. وتقدم هذه الفترة من تاريخ الموقع أكثر المعلومات فيما يخص اقتصاد هذه المدينة، وبخاصة دور السويحات فيما يتعلق بالتجارة الدولية.

تعود إلى هذه الفترة مجموعة كبيرة من الغرف في المنطقة IV (انظر المخطط، الشكل ٤)، وقد تم بناؤها قبالة الجزء الغربي من سور المدينة الداخلي الطيني الذي يبلغ عرضه ثلاثة أمتار، والمحصن بأبراج داخلية وفيه شارع داخلي مرصوف بحصى متوازية على بعد ١٣ متراً إلى الشرق من سور المدينة. لم يحدد بعد فيما إذا كانت هذه الغرف تنتمي إلى بناء أو أكثر، طالما أن عمليات التنقيب لاتزال غير كاملة في هذه المنطقة. على كل حال، إن المخطط الحالي يظهر مجموعة من عشر غرف مصممة بشكل متناظر، وقد بنيت في مواجهة الجهة الجنوبية والغربية من باحة سماوية واسعة جداً. إن محتويات غرف المنطقة IV، إضافة إلى الباحة تشير إلى أن هذا المبنى ربما كان مسكناً لتاجر غني، استخدم بعض الغرف للأعمال المعدنية، وكذلك لتخزين الأوعية الفخارية، والتي كانت تستخدم لشحن البضائع من أجل التجارة الخارجية.

كانت الغرفة ٣ تحتوي على وزنة حجرية / مانا واحد / وعلى ملقطين برونزيين كبيرين وبوتقة مع بقايا من مادة معدنية متآكلة ومِلْوَقْ برونزي وقطعة غير مميزة من نفايات برونزية.

تركز العمل في الزاوية الشمالية الشرقية من الغرفة. ولربما تكون الوزنة الحجرية الوحيدة (الشكل ٥) قد استخدمت لوزن المنتجات المعدنية الخام التي كانت تستورد من تركيا الشرقية على امتداد نهر الفرات على الطريق الجنوبي للتجارة. عثر على الدبوس البرونزي ذي الرأس الفطري المزود بثقب لتعليق الملابس، في الغرفة ٤ إلى جانب طوق برونزي ربما كان يستخدم لإغلاق جرة التخزين، ووجد مشبكان (قفلان معدنيان) في جرة في الباحة، وقطع برونزية عديدة أخرى في المناطق الأخرى التي عاصرتها، وكانت قد صنعت على الأغلب من قبل الحدادين المحليين الذين عملوا في هذا المبنى. ومن المحتمل أن تكون الأعمال المعدنية قد مورست في الغرفة ٧، حيث وجد قالب من الفخار غير المشوي، وقد يكون إما من أجل سكب أداة معدنية أو أسلحة. وفي مبنى يقع إلى الشمال في الغرفة ١٥، وجدت بوتقة فخارية غير مشوية إلى جانب منتجات متآكلة وأجزاء من دبوس.

أفضل دليل على دور تل السويحات في سوق التجارة الدولية هو وجود خمس جرار تخزين من ذوات اليد الواحدة والقعر المسطح، وقد وجدت في الغرفة ٤ من المنطقة IV قرب الحفرية في باحة الغرفة ٨، وفي الغرفة ١٠ من مبنى الأعمال المعدنية.

جرار التخزين هذه (الشكل ٦) فريدة في شكلها، وبخاصة المسكات الصغيرة ذوات العروات الشاقولية المعدنية التي تتوضع على حواف الإطار السفلي إلى أعلى الإطار العلوي، وهي جرار غير معروفة تماماً في الوقت الحاضر في المنشورات التي اهتمت بمواقع شمالي سورية وبلاد الرافدين، ماعدا مثال واحد من تل حديدي (موجود الآن في متحف حلب، للإيضاح انظر ر. دونمان «بعثة وادي الفرات م.ب.م ١٩٧٤: تنقيبات تل حديدي»، لور ٢٥ ١:[ربيع ١٩٧٥]: ٣٧).

وعرف مثالان آخران، أحدهما من القبر B ١٦٤ في الموقع A في ڤونوس، Bellapais في قبرص (انظر ج.ر. ستيوارت، «قدرٌ مستورد من قبرص» PEQ [١٩٣٩]، صفحة ١٦٢ـ٦٨ الصورة ٢٧). والآخر من المصطبة في مدفن الجيزة الكبير في مصر (انظر س. حسان، تنقيبات الجيزة ١٩٣٠ـ١٩٣١، القاهرة، ١٩٣٦، صفحة ١٣٩ـ٥٠، الشكل ١٧٣، الصورة ٤٧: ٣).

من المهم هنا أن نذكر أن مثال الجيزة له غطاء معدني يشبه الطاسة، وقد وصف في التقرير أنه نحاسي. إن شكل وأصل وتاريخ جرة Vounous تمت مناقشتهم كثيراً منذ ١٩٣٩، وبخاصة من قبل ر.أميران من عام ١٩٥٨ ولغاية ١٩٧٣، إذ حاول الربط بين الجرة القبرصية والمنتجات الخزفية في كنعان. لكن بعد نشر أول اثنتين من جرار سويحات ذات النمط الڤونوسي من المنطقة IV، الغرفة ٤ (Levant 8 [١٩٧٦]، الشكل ١٠: ١ وLevant 9 [١٩٧٧]، صفحة ٥١، الشكل ٤: ٩)، أعاد أميران النظر بتخمينه (Levant 15 [١٩٨٣]، صفحة ١٩١ـ٩٤. الشكل ٣)، واستنتج أن «الوطن الأم لمثل هذا النوع هو في مكان ما من سورية الشمالية، وأن كلاً من جرار ڤونوس والجيزة كانت الغاية منها حفظ بعض السلع التجارية». إن شكل هذا النوع من وعاء التخزين معروفٌ في الوقت الحالي فقط في السويحات في بلاد الرافدين السورية وفلسطين ومكان آخر في ڤونوس والجيزة. حتى يظهر دليل آخر من التنقيبات، فإن النماذج الخمسة المعروفة من السويحات تبين أن هذا الموقع هو الموطن الأصلي للصناعة، إذا لم تكن قد وصلتهم عن طريق الاستيراد من بعض المراكز غير المعروفة سواءً من شرقي نهر الفرات أو غربه.

إن تاريخ أمثلة السويحات يمكن أن يعود إلى الفترة بين ٢٣٠٠ و٢١٠٠ق.م تقريباً، من خلال الفخار المرتبط به والتوضعات الطبقية وكذلك في العمودين من المنطقة IV اللذين أرخا بالكربون المشع، وهما من دعائم السقف التي حرقت أثناء انهيار المبنى من جراء حريق هائل. أما عن محتويات الجرار التي تم تصديرها من شمالي سورية إلى قبرص ومصر فلا يوجد أي دليل. أما بالنسبة إلى جرار السويحات، وهل تم تصديرها أو استيرادها أو صنعت في السويحات من أجل نقلها عن طريق التجارة، فإن كمية معينة من شواهد محتويات الجرار تشير إلى أنها سوائل. ثلاثة أوعية كانت قد احترقت بشكل كامل عندما دمر الحريق الغرف أكثر من الحاويات الفخارية الأخرى القريبة جداً منها، والتي يعتقد أنها كانت تحتوي على سائل طيار. وكانت الجدران الداخلية للجرار متآكلة أيضاً بشكل كثيف، وكثير من أسطحة الجرار مقشرة. وهناك بقايا من مادة مكثفة ذات لون أسود (ليست محللة) داخل زوجين من الجرار التي يحتمل أنها بقايا من مادة القار ـ البيتومين ـ (التي استخدمت أيضاً لاصلاح الفخاريات في السويحات) أو مادة مشابهة لختم الأسطحة الداخلية للجرار بما تحتويه في الأصل من سائل.

وقد تم اكتشاف نمط فخاري ملفت للنظر لتمثال صغير يمثل حصاناً (الشكل ٧)، وذلك في باحة المنطقة IV الغرفة ٨ خلال تنقيبات موسم عام ١٩٩٢. يبلغ طول الحصان ١٣سم تقريباً، وهو شبه كامل، ماعدا الأجزاء السفلية من الأرجل التي كسرت في العصور السابقة. كان شعر مقدمة رأس الحصان وشعر عنقه والأعضاء الجنسية للحصان الذكر قد تم تفصيلها جيداً بقطع تطبيقية من الفخار. وقد ثقبت فجوة في فكي الحصان من أجل وضع حلقة لوضع اللجام، لذلك فإن إظهار نمط مثل هذا المهر كان من أجل تمثيل الحصان المدجن.

في الوقت الحالي، يبدو أن هذا النمط هو واحد من أقدم التماثيل الصغيرة الفخارية المعروفة التي تمثل منحوتة حصان مدجن في الشرق الأدنى. وكان قد اكتشف تمثال آخر صغير لحصان مشابه في تل غاورا، السوية VI، يعود تاريخه تقريباً إلى نفس الفترة، كما هو الحال في مثال السويحات (انظر ي،أ، سبيسر ـ تنقيبات تل غاورا، فيلادلفيا، ١٩٣٥، صفحة ١٩٢، اللوحة ٣٤: ٥).

إن تواجد تماثيل صغيرة خاصة لأحصنة وإظهار أنواع أخرى من الخيول مثل نوع من حمار الوحش، ربما يشير إلى أن الحصان الحقيقي لعب دوراً مهماً في طرق التجارة بعيدة المدى خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، أكثر مما تم توقعه إلى يومنا هذا.

دليل آخر من البلدة الواطئة في السويحات، يمكن أن يزودنا بمعلومات أكثر عن الأساس الاقتصادي للموقع. في الوقت الحالي، تم التنقيب عن طريق كشوفات أخيرة كبيرة في منطقتين فقط من البلدة الواطئة، مناطق العمل ٤ و٩ في الحد الشمالي الغربي. أما في عام ١٩٩١، فإن تنقيبات منطقة العمل ٤ كشفت منطقة بمساحة أكثر من ٢٠٠م^{2}. وجدت الأساسات الحجرية فقط لمعظم المباني في هذه المنطقة نتيجة ما أصابها من تآكل، وذلك تحت سطح التربة مباشرة. لكن معظم سويات أرضية الألف الثالث كانت سليمة مع عدد مفاجىء من مكتشفات الموقع التي تتضمن تماثيل صغيرة وأوعية للطبخ ودبابيس برونزية وأوعية فخارية منزلية أخرى. عثر على هذه اللقى في منزل كبير يحوي سبع غرف كانت قد خططت بشكل جيد.

وفيما يتعلق بالأهمية الاقتصادية، فقد كان هناك عدد من المغازل الطينية، تشير إلى أن نسج الملابس ربما كانت مهنة هامة، ليس فقط من أجل الاستعمال الداخلي، وإنما من أجل التصدير أيضاً.

أظهرت منطقة العمل ٩، التي توضعت شمالي منطقة العمل ٤، وجود ثلاثة مبانٍ على الأقل وشارع مرصوف بالحصى. وكان هناك عدد من أحواض جصية للنفايات في واحد من هذه المباني، مما يدل على أنها كانت منطقة صناعية للبلدة خلال النصف الثاني من الألف الثالث.

إن وجود الحجر الموازي والمغطي لقناة المياه في الشارع، ربما يشير إلى أن استخدام المياه لعب دوراً أساسياً في تصنيع السلع في منزل الحوض الجصي. ومن المحتمل أن دباغة جلود الحيوانات أو عمليات تصنيع الغذاء كانت تجري في هذا المنزل، مرة أخرى، إما للإنتاج المحلي أو من أجل التجارة الخارجية.

والنتيجة هي، أن تنقيبات تل سويحات أثناء ستة مواسم من العمل، أظهرت أن البلدة وصلت أوج ازدهارها خلال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. وكانت بلدة ذات تخطيط معماري ونظام شوارع متميز داخل سور البلدة من اللبن المقوى. إن امتداد المدينة خلال الربع الأخير من الألف الثالث الى البلدة الواطئة، وَسَّع أحياء العيش والعمل إلى ما يقارب ٤٠ هكتاراً، إضافة إلى كل المنطقة التي أحيطت بنظام تحصين أرضي رصين على شكل مستطيل.

لاتزال عدة أسئلة مطروحة دون إجابة، وذلك فيما يتعلق بالتاريخ السياسي للبلدة، وخاصة سبب الحاجة إلى مثل هذا التحصين الكثيف والعلاقة بين السويحات ومملكة إبلا في الغرب من جهة، والأكاديين والامتدادات الإقليمية لما بعد الأكاديين من الشرق من جهة أخرى. ربما يظهر أن السويحات لم تحكم مباشرة من قبل إبلا. كما أن معظم اللقى من الموقع أظهرت انعكاساً أكثر للتأثير الشرقي، وبخاصة وجود وزنة حجرية /مانا واحد/. وقد عرفت وزنة واحدة غير محددة الطبقة إلى الغرب من السويحات في تيتريس على الفرات إلى الجنوب الشرقي من تركيا. ربما يزودنا العمل في المستقبل بدليل كافٍ لإظهار أن سويحات كانت محطة رئيسة على طريق التجارة بين الشرق والغرب مع مواقع أخرى على روافد الفرات العليا، التي بقيت محصنة لضمان المرور الآمن للمستوردات إلى داخل بلاد الرافدين من قبل سارغون ومن تلاه.

حلب في عهد إبلا

ألفونسو أركي

تعريب: علي خليل

تبين الرسائل والوثائق الاقتصادية من أرشيف ماري، أن مصير حلب، خلال النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، كان رهناً بمصير إله طقسها: الإله « حدّا » . وأن زوجة إله الطقس في حلب، والذي أحله الحوريون مقام إلههم الرئيسي: تيشوب، كان اسمها « خِبت » .

وأحد أهم الألهة المعروفة من أرشيف إبلا (القرن الرابع ق.م) هو حدّا الخلامي، وخلام اسم مكان لابد أن يتطابق مع حلب Halab ، فالحرفان ب وم يقبلان التبادل)؛ وكان اسم زوجته خا ـ أباتو Ha'abatu . الحرف الصامت ل « L » لايكتب أحياناً في اللغة الإبلائية (مثال، ١ـ١ـغا ـ دو a–a–ga-du = في الأكادية الَكتو alaktu بمعنى « رحلة »)؛ وعليه فإن خاَباتو (خبت لاحقاً) تعني خلبيتو « مؤنث خلب » .

خلال القرن الرابع والعشرين، كانت « خلب » واحدة من أهم الأماكن المقدسة في مملكة إبلا .

١. إله الطقس في «خلب»

في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، ارتبط مصير حلب بمصير إله طقسها . فها هو ياريم ليم ملك خلب (العقود الأولى للقرن الثامن عشر ق.م) يُعلم ملك « در » (A1314) . « لقد أنقذت مدينة بابل بفضل جيوش الإله أدُّو Adu إله ياريم ليم، ووهبت الحياة لك ولمدينتك » وعندما يرفض زمري ليم، الذي اعتلى عرش ماري بفضل مساعدة ياريم ليم نفسه، التخلي عن ملكية له في المنطقة، يقوم حدّا الكلاسي (موضع في جوار حلب) باعلامه عن طريق الوحي الإلهي (A 1121. A 2731t) بما يلي: إذا لم يسلمها، فإني القادر على الاستيلاء عليها . أنا سيد العرش، سيد الأرض والمدينة . أما إذا حقق رغبتي فسأهبه عرشاً إثر عرش، منزلاً تلو منزل أرضاً إثر أرض، مدينةً تلو مدينة، وقد أسلمه بلده من الشرق إلى الغرب . » ويحمل الوجه الآخر للرقيم وحياً آخر من (حدّا الخلبي » Hadda el Ḫalab) : (ألست أنا آدو Addu ، سيد خلب Halab ، الذي فقهك من بين الرعية، والذي أوصلك إلى العرش وإلى منزل والدك ؟ » وفي A1968 تكون رسالة حدّا الحلبي أكثر جلاء: « هذا مايقوله آدو Adu : البلاد كلها أعطيتها ليهدوم ليم Yahdum Lim ، وبفضل جيوشي لم يكن له ندٌّ في المعارك، تخلى عن بلدي، بلدي الذي ائتمنته عليه، هاأنذا أهبه لشمشي آدو Samsi - Addu ثم لشمشي آدو . لقد أعادك زمري ليم Zimri - Lim إلى عرش أبيك وأنا أعطيتك الجيوش التي حاربت بها ضد تمتوم Temtum . لقد مسحتك بزيت انتصاري، ومامن أحد وقف في وجهك . » وهكذا نجد أن سلطة خلب هي في يد إله طقسها .

ويظهر اسم إحدى السنين في ماري (بالإضافة إلى الهبات (النذور) المقدمة في مناسبات مختلفة) ولاء زمري ليم لهذا

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

الإله وعبادته إياه: «العام الذي قدم زمري ليم فيه تمثاله لحدًا الحلبي».

٢. خِبَت، عشيرة إله الطقس

في رسالة من ماري، ARMx92، نجد الإلهة خبت جنباً إلى جنب مع إله الطقس. حيث تطلب امرأة تدعى شِفيروم ـ أوربات، أخذت منها مرضعة. الإنصاف من زمري ليم «أعد لي مرضعتي لأباركك عند إله الطقس (dIM) وعند خبت (dHe- (11 . 21 - 23 (ba - at»، وبما أن المرأة تحمل اسماً حورياً وأن خِبت كانت في مجمع الآلهة الحوري هي زوج إله الطقس تيشوب، يعتقد أن الرمز IM يعود لـ تيشوب.

يبدو أن المرأة تنحدر من ساغاراتوم على نهر الخابور في شرقي سورية. لكن عبادة خبت انتشرت في غرب سورية أيضاً. هذا مايبينه الرقيم (KT K/ K4) الذي وجد في (كوليتي / كانش) السوية IB «والذي أرسله شخص يدعى إخلي ـ أدّو، أحد ساكني مركز سوري غير معروف. أحد الشهود المذكورين في الوثيقة، والذي يحتمل أن أصله من قطنه، يحمل اسماً مع المقطع اللاهوتي «خبت»: آ ـ مي ـ في ـ باشا ـ قا ـ تان. وبعد ذلك بقرن تقريباً تم التأكد من وجود أسماء أنثوية، لدى آلالاخ سوية VIII، صيغت مع هذا المقطع.

وفي هذه الفترة بالذات، كان أهم ثلاثة آلهة في مجمع آلهة حلب هم: إله الطقس وخِبت وعشتار. هذا مايبينه نقش لـ«أبًا» اليمحاضي حوالي ١٧٥٠ ـ ١٧٢٠ ق.م، حيث يسجل هذا الملك تنصيبه لأخيه ياريم ليم حاكماً على آلالاخ. وبما أن خِبت في مجمع آلهة الحوريين الغربيين هي كما أسلفنا عشيرة تيشوب، فقد ساد الاعتقاد بأن هذا النقش يحدد بداية النفوذ الحوري في حلب. لقد كتب اسم الإله بالرمز الكتابي IM، وبما أن تيشوب يتماثل مع حدًا، فقد أمكن لكل جماعة عرقية أن تعبر عن اسم إله الطقس بلغتها.

في بداية القرن الخامس عشر، كان هؤلاء الثلاثة مايزالون الآلهة الرئيسية للبيت الملكي في آلالاخ. فهاهو إدريمي يقدم نفسه بما يلي: «أنا إدريمي عبد إله الطقس dIM، عبد خِبت وعبد عشتار (dMu.S) سيدة آلالاخ، سيدتي.

بالرغم من أن حقيقة أن خبت هي عشيرة إله الطقس الحوري، تيشوب، فإن ل.ج غلب يرى «أنها كانت إلهة محلية أصيلة في وادي الرافدين والأناضول» وفي الوقت نفسه تقريباً أشار ي.آ سبايزر أيضاً إلى أن» هذا التكسير [في كتابه اسم خبت] يجعل من المرجح أن الاسم لم يكن حوري الأصل»؛ ويضيف: «إن اسقاط حرف التاء «T» الأخير [في أسماء العلم مثل تا ـ دو ـ خي ـ با ـ جي ـ لو ـ خي ـ با] يشير على الأرجح، إلى أصل سامي.»

والآن تبين النصوص الإبلائية ليس فقط بأن خبت (على اختلاف الشكل الكتابي) كان ينظر إليها باعتبارها زوجة إله الطقس الحلبي، حدًا، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، بل تبين أيضاً أن اسمها لم يكن سوى النعت الذي يعني «الحلبية» أي «سيدة حلب».

وتربط بعض قوائم الهبات بين إله الطقس وخبت ربطاً مباشراً، كما في الرقيم ...: TM. 75 G. 1464 rev. 1X-X6 دعامة دائرية بقرون أربعة لثورين: هبة من الملك «لحدًا» في الشهر الثامن، وشاقل واحد ذهبي منقوش: تقدمة من الملك لخبت بسبب مرض أمه (الملك)«. والرقيم TM 75 G. 2429 rev - IX418 يظهر إله الطقس هذا هو خدا سيد «خلام»؛ بالإضافة إلى أن الرقيم TM 75 G. 10143 12–9 obv.VII يثبت أن خبت كانت آلهة لنفس المركز أيضاً.

وفي نظام الكتابة الإبلائية يمكن أن لاتنلفظ الحرف الصامت «ل» مثال La - ru - ga - du (لا – رو – غا – دو) / ru - ga - du – A (آ ـ رو ـ غا ـ دو (اسم جغرافي)، و ga -du – a – a (آ ـ ا ـ غا ـ دو Halaktu (m) / (هلاكتو (م)) (بالأكادية alaktu (الكتو)؛ أو En - na - il (ان ـ نا ـ إيل) / En - na - I (ان ـ نا ـ إي) (اسم شخص). بناءً على ذلك يمكن أن يترجم اسم الآلهة (ba - du a – H) (خ ـ ا ـ با ـ دو) / (Ḫahabatu) (خهاباتو) بسهولة باعتباره شكلاً من أشكال نسبة المؤنث خلبيتو «halabaitu» أي السيدة الحلبية أو سيدة حلب.

فإذا كانت (Ḫalabaitu Ḫaábatu) هي إلهة حلب فإن اسم المكان خلم لابد أن يكون حلب Ḫalab) .

لقد ارتأى وولغرام فون سودن أن خلام لابد من مطابقتها مع حلب . ثم جاء و . ج . لامبرت بعناصر أخرى لصالح هذه النظرية « مادامت عبادة أدد « Add » كانت قائمة في سورية منذ زمن أرشيف ماري، فللمرء أن يتوقع ظهور « أدد » حلب في وثائق إبلا . إن أهم إلهين للطقس في نصوص إبلا هما خدًّا (أدد)الخلامي وخدًّا اللو أوبى (lu - ub) . نجد أيضاً في وثائق ماري المعاصرة لوثائق إبلا تصديقاً على ذلك (إله خلم : Dingir Ḫa- (614 i20 16) ،dtl - Ḫa - lam, (22 III6) lam ، الذي كرس له معبد . لذا يرجح (يتابع لامبرت) أن خلم يجب أن تتطابق مع حلب، الفرق الصوتي ليس مشكلة، لأن الحرفين « م » و »ب » قابلان للمبادلة بطبيعة الحال، والأداء الصوتي الأكادي لرموز المقاطع السومرية المنتهية بالحرف / م m / يوحي بلفظ شبيه بلفظ الـ (ب b) أو (پ P) مثال عليم alim = عليمبو؛ ذو لوم (١) = ذو لو پو .

وهكذا، يؤكد تحليل اسم الآلهة Ḫa - abatu تأكيداً حاسماً بأن خلم Ḫalam يجب أن تقرأ خلب Ḫalab .

يمكن تتبع تاريخ اسم خبت Ḫebat وإرجاعه إلى خاباتو Ḫaábatu، فالانتقال من الحرف « a » إلى الحرف « e » في المقطع الأول يمكن توضيحه في حال كان اختفاء الحرف « L » ناتج عملية ادغام في الحلق؛ مثل بألوم baálum (أكادية قديمة) بِلوم Bélum (بابلية قديمة) بمعنى يحكم .

وفي أسماء الأعلام المركبة مع المقطع اللاهوتي خلب Ḫalab كالمقطع الثالث في آخر اسم ملك إبلا - Ig - ri Ha - lab لايكون اسم المكان سوى أطناب في مديح إله ذلك المكان . هاهو اسم علم آخر من ماري يعود إلى العهد البابلي القديم I_din - Ha - la - ab، واسم آخر يشهد على صحته رقيم من (إسن Isin) هو - Puzur - Ha - la ab وكلاهما يستحضران المقطع اللاهوتي ذاته .

خلب وإلهها في النصوص الإبلائية

للفظة خلب وتاريخها تعليل مقنع . فلفظها في الأوغارتية (ح ل ب HLb) بمعنى التل، وهذه المدينة التي ظلت مركزاً هاماً بلا انقطاع، لما لايقل عن ٤٥٠٠ عام، تأخذ اسمها من التل الصخري، الذي تعلوه حالياً قلعة هائلة، حاجبة تحتها سويات أثرية موغلة في القدم (مما يجعل التنقيب عنها أمراً عسيراً) وربما حفظت بشكل رديء، إذ يسود الاعتقاد بأن التشييدات المعمارية قد ركبت فوق بعضها دون تأنٍ .

لم تكن خلب في عهد الأرشيف (القرن الرابع والعشرين) عملياً سوى مكان عبادة ضمن سلطات ملوك إبلا، يشرف عليها قيم (أوغولا) مثلها مثل مراكز أخرى كثيرة) . فهي تقريباً لاتذكر إلا مرتبطة بإلهها . وحين يرتحل إلى حلب كانتيسو أحد الشخصيات الرسمية الهامة في أورشوم Ursaum (موضع يتطابق مع أنتيب Antep) مكلفاً بتسليم مو ـ دو (Mu - Du) كمية من الفضة لإبلا، فلا بد أن السبب كان ذو طبيعة دينية (.TM 75 G. 2351 rev VIII 11-7) .

كان حدّا الحلبي أحد الآلهة الرئيسية في إبلا أيضاً . وتبين قائمتا أضاحي أن تمثالاً لحدا تم تكريمه في معبد كورا أهم آلهة إبلا، لكننا لاندري إن كان هو حدّا الحلبي 2") udu ^{d}Á-Da en-nidha é ^{d}Ku - ra" 11010 (+) obv. II26) (كبشين لحدّا : ضحى الملك بهما في معبد كورا) .

من غير الممكن غالباً أن نثبت ماإذا كانت بعض السجلات الإدارية تشير إلى حرم خلب أو إلى حرم إبلا . وبذلك ليس مؤكداً ما إذا كانت « مينات اللازورد التسعة (5.4 كغ قيمة 5.1كغ من الفضة) مقابل رأس حدّا الحلبي (TM 75 G. 1860 rev. XVI 19-10) ترجع إلى الإله المبجل في معبد حلب أم في معبد إبلا . وهنالك تمثال آخر للإله بوجه ويدين يغطيهما الذهب (rev. XVII 20 ff 2462. G)، ربما جرى تقديم هذه المصنوعات في إبلا في الشهرين الثالث (iTi ^{d}AMA - ra) والثامن (/iTi i- nun iTi nidba ^{d}A - da) كان أربائيل حينئذٍ كاهناً (باشيش) لحدَّ الحلبي .

وتميز قوائم الأضاحي بجلاء بين العبادات في إبلا (القسم الأول) وتسليم الغنائم لأداء الشعائر في المراكز الأخرى (القسم الثالث) . ففي الرقيم (TM 75 G 1764)

يتلقى حدّا الخلبي أضاحي في إيبلا، في اليوم المكرس له في الشهر الثالث (dAMA - ra) من الملك وإراق - دامو (Iráq - Damu) ولي العهد. أما في الرقيم (TM 75 G. 10167 obv. III 15 FF) فيقوم بالتقدمات خمسة من أبناء الملك الأخير عشتار - دامو (Istar - Damu)، وهم ذ - دامو Ze – Damu، زب - دامو (Zib - Damu)، ذو خوانو (Zuhuanu) ساغ - دو (Zag - Damu)، وابتي دامو (Ibti - Damu).

وحتى في الرقيم (TM 75 G 1764)، لكن في القسم المتعلق بتسليم الأغنام خارج إبلا، يتلقى حدّا، في خلب، أضاحي من إتّي - إدبال (ITTi - Idbal) وروزي - مالك (Ruzi - Malik)، أخ الوزير إبّي زيكر (Ibbi - Zikir) وابنه على التوالي. ويحتفل بالشعائر المقامة لحدًا في خلب في الشهر الجديد اتي غيبيل (Iti gibil) بشكل عام، وربما جرت في الشهر الثامن الذي يبدو مطابقاً للشهر الذي يأخذ اسمه من عبارة «تقدمة لحدًا» اتي ندبا عدا Iti nidba dA dd -، تمليها الشعائر المقامة لحدًا اللؤوبي (Hadda el Lu - ub)، المركز العظيم الآخر لعبادة إله الطقس. وأحياناً يجري تقييم التقدمات المقامة لحدًا في حلب: ٣٨ رأس غنم من الملك في الشهر الثالث، حسب الرقيم (Tm 75 G. 22 38 rev. X9-15) ويسجل الرقيم ARET×99 إرسالية للتضحية في شهر ندبا nidba مؤلفة من ٨٠٠ رغيف خبز طاهر، دقيق قمح وست جرار من نبيذ الشعير تقدمة من الملك، في حين يقدم الوزير أبي زيكير ستة جرار أخرى.

وتكتب لمعبد إله خلب، ربما من أجل أعمال الصيانة، كمية بارزة من الفضة ١٠٦ كغ تقريباً، ليس من ضمنها (با - لو - ما) قيمة ٤ خناجر ذهبية ونطاق ذهبي مع قلادة وسيف ضالع قدمها الملك إلى معبد حدًا في خلب». يُلحق بها ٢,٥ كغ من الفضة خصصها القصر لـ ٤٤ شخصاً لهم صلة بالمعبد، من بينهم عدد من الحدادين والمنشدين (سنوك - سموك، نار - نار sinug - Simug , nar - nar)

إنه نفس المعبد الذي يمضي إليه الملك الشاب انتور (entur) ملك توبا (Tuba) مع اثنين من وجهاء قومه ليؤدي قسم الولاء لإبلا في (udnam - k é dÁ-da) بيت الإله أدا (ARET I11) وهذه حالة استثنائية، لأن الشعائر من هذا النوع كانت تقام في معبد كورا في إبلا.

في ذلك العصر، لم يرد إلى جانب خلب حصراً تقريباً، ذكر أية مراكز أخرى باعتبارها أماكن عبادة لإله رئيسي. وعليه فإن خلب، زمن أرشيف إبلا، كانت بلدة معبد.

منذ بداية الألف الثالثة على الأرجح، أقام الناطقون بالإبلائية والقاطنون شمال سورية عبادة إله طَقسهم، حدا، على تل مطل على حلب. أما المجموعة التي استوطنت إبلا فقد آلت إليهم عبادة إله محلي عظيم، يعود للسكان المخضعين، اسمه كورا. لقد غرست المملكة الإبلائية جذورها عميقاً في التقاليد المحلية. فها هو طقس زواج القرينين الملكيين، ARET X1؛ لايذكر حدًا؛بل يظهر «الملك والملكة» الجديدين كممثلين لإله كورا وعشيرته (زوجته) باراما (Barama)، وهذه بدورها «يعاد تجددها» طقسياً. وقد اعتبر حدًا أيضاً إلهاً عظيماً في إبلا. فالعاهل كان، قبل أن يصدر أي حكم، يتضرع للإله كورا ولإله الشمس ولحدا ولجميع الآلهة.

وحين سقطت إبلا، اختارت إحدى السلالات الأمورية الحاكمة خلب في بداية الألف الثانية، كمركز سياسي لغرب سورية، ومن الواضح أن التقاليد الرائعة لعبادة حدًا هي التي جذبتهم للقيام بذلك. كان ذلك خياراً ماتزال نتائجه ماثلة أمام أعيننا: فحلب ماتزال مدينة هامة وساحرة، بخلاف إبلا التي اضطرت لانتظار أعمال الباحثين كي ترجع إلى الحياة بعد موت طويل.

مقارنات ما بين مكتشفات عصري البرونز والحديد في مواقع وادي العاصي، أوغاريت وإبلا، ومكتشفات موقع تل قرقور

رودلف دورنمان

تعريب: طوني جروج

زودتنا التنقيبات المتتابعة في تل قرقور خلال عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤، والتنقيبات والمسوحات الأولى، بمجموعات جيدة من فخار الفترات التي ظهرت في الموقع. ونحن ممتنون للمسؤولين في المدرسة الأمريكية للبحث الشرقي والرابطة الانجيلية الكاثوليكية لاستمرارهم في دعم التنقيبات.

ونقدر عالياً تشجيع ودعم المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية لاسيما الدكتور سلطان محيسن والدكتور عدنان البني ونسيب صليبي وعبد الرزاق زقزوق.

كان اطلاعنا على الموقع محدوداً جداً شملت أعمال التنقيب ٥٥ فداناً من التل (الشكل ١)، في منطقتين على التل الجنوبي العالي ومنطقة على التل المنخفض. وقد زودنا المسح السطحي للموقع بمادة محدودة جداً من العصر الحديدي، وبعض المواد من العصور الهلنستية والبيزنطية ومن العصر الاسلامي الوسيط وكذلك من عصُور مبكرة.

عثرنا على فخار من العصر الحديدي بشكل جيد في تنقيباتنا، لكن لم يتم العثور إلا على عدد محدود من العناصر المعمارية.

على التل المنخفض، تم العثور على جدران تعود إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهي قريبة من السطح، ولكن بدون تأريخ أكيد، إضافة إلى المواد التي وجدت على الأرضيات المحفوظة جيداً. كما كشف عن جدار وبرج يعودان إلى تاريخ مشابه فوق بقايا منطقة البوابة التي تعود إلى العصر الحديدي على المنحدر الجنوي للتل الجنوبي.

كثفنا جهودنا في منطقة البوابة وفي الجزء الأعلى من التل على الجهة الجنوبية. في هذه المنطقة، ارتبط فن العمارة بفخار القرنين التاسع والثامن الذي اكتشف قريباً من السطح. بدأت تتابع طبقة الصخور في المنطقة B على قمة التل بتزويدنا بفخار العصر الحديدي II، وكانت المنطقة مفتاحاً لهدفنا من اجل استمرار التنقيب في منطقة البوابة الشكل٣، حيث بدأنا برؤية ماتوقعنا أن نجمعه من التنقيبات التي امتدت في هذه المنطقة. وإمكانية كون المنطقة تعود إلى مجمع قلعة من العصر الحديدي معروف في حماة مثل تعيينات وتل زنجرلي.

على أساس العمل الأول. توقعنا جمع مواد العصر البرونزي المجاورة إلى المنطقة التي يتم التنقيب فيها على التل المنخفض. وقد دَلَّت تنقيباتنا أن إشغال العصر الحديدي II تم تمثيله بشكل جيد، وكانت هذه الفترة أكبر الفترات على التل وبمثلها على التل المنخفض، لذلك فإن مساحة ٥٥ فداناً من التل يمكن أن تكون قد شغلت بمعظم فترات العصر الحديدي.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

وإذا استمر الدعم للقيام بمزيد من التنقيبات سيكون بمقدورنا مقارنة تل قرقور مع قرقارا التي ذكرها شلمناصر الثالث في كتاباته ومع قُرقُر التي ذكرها سارغون أيضاً.

تُعتبر حصيلة فخار فترة الحديد من التل من النوعية المعبِّرة جداً، وتشكل الأواني الفخارية المجموعة من الموقع (أكثر من 93٪) أنموذجاً لفخار فترة الحديد II، كما تشير النماذج المكتشفة حتى الآن إلى فترة زمنية محدودة.

عثرنا على كمية محدودة جداً من فخار الفترة الفارسية في طبقات القرنين الخامس والرابع ق.م (الشكل ٦ : ٢٩–٣١, ٣٣, ٣٤)، وكذلك كسر من الزجاج اليوناني الأسود ومن التماثيل الصغيرة المميزة. من ناحية أخرى، تزودنا منطقة واحدة فقط بدليل عن عمارة هذا الموقع في هذه الفترة من التاريخ، وهي تنور وجدران حجرية تم إعادة بنائها على جدار البوابة الداخلية التي تعود إلى العصر الحديدي في المنطقة A كما في الصورتين F030 وF306. نعتبر هذا التأريخ مؤقتاً، طالما أن العينة المدروسة صغيرة جداً، وأننا لا نزال بحاجة إلى كشف المزيد من هذا المنسوب. أما فخار القرنين السابع والسادس ق.م، المتوفر ضمن مواد السطح وفي الحفر المنفذة لاحقاً في منطقة فترة الحديد II، فهو قليل جداً ومبعثر.

هناك ما يمكن اعتباره دمغة الصائغ في هذه الفترة على طبق عميق ملوّن بالأحمر مع طبقة من الدرجات اللونية والمعالجات السطحية (الأشكال ٤ : ١–١٩, ٦ و٧). في المنطقة B المتميزة بالتتالي المنتظم لسكناها، يتم التعمق إلى مستويات مبكرة جداً في تاريخ هذا التقليد، والذي نرجعه مبدئياً إلى بداية القرن العاشر ق.م. فبالرغم من توفر كسر من النماذج التي كانت منتشرة خلال القرنين التاسع والثامن ق.م، تمثل الكسر ذات اللونين البني الغامق والبني المحمر المرحلة الأقدم في هذا التقليد، وهي مصوّرة بشكل بدائي في الشكل ٧ والرسومات المرتبطة به في الشكلين ٤ و٥ .

إن اللون المستعمل للوعاء مميز باللون البني إلى الأصفر حتى الأحمر المصفر، بحيث يأتي استعمال البني المصفر أو الأصفر أو الأبيض تحت المعالجة السطحية بالأحمر التي يتم تلميعها يدوياً أو يبقى دون تلميع، وتبدو النزعة إلى تلوين السطح بالأحمر، بهدف تقسيمه إلى بقع صغيرة (الأشكال ٦ : ١, ٧ : ١ ٣ ٧ ٨ ٩ ١٢ ١٥ ١٨ ٢٢ ٢٣)، كسمة مميزة متوفرة في العمق في طبقات الفخار الأولى للمرحلة O، والتي تتبع تجمع المرحلة N في القرنين الأولين لفترة الحديد، الثاني عشر والحادي عشر ق.م (سويفت، 1958).

لا يزال تحليلنا حتى هذه النقطة أولياً، لأننا لا نزال في بداية التحليل التفصيلي والوصفي للأوعية، لكنه من المفيد أن ننظر إلى هذه المجموعة بالمقارنة مع الأطباق الكبيرة، من فترة الحديد II، ذات السطوح الحمراء الملمَّعة النموذجية، فاللون يتغير بين البني المُحمر والأحمر والأحمر المُصفر. لذلك فإن الكسر الملمّعة، والمصقولة أحياناً، العائدة إلى القرنين التاسع والثامن ق.م الأخيرين تظهر في اللون المثالي للأحمر المُصفر والمُزهر، وهنا، كما يبدو، تبدأ هذه الفترة الأخيرة لفترة الحديد II (الشكلان ٩ : ٢ و١٣).

من المتوقع أن هذا الأمر لا يمتد لفترة أبعد من القرن الثامن ق.م لأننا لا نملك الحواف الجانبية والأكثر إسهاباً التي عادة ما تظهر في أوعية هذه الفترة. كذلك فإن الأطباق العميقة الحمراء الملمَّعة، من ضمن سياق بداية فترة الحديد II في العمق، تمثِّل تقليداً مشابهاً جداً.

تقدم الأطباق العميقة والكؤوس ذات الجوانب المستقيمة أو المنحنية، بالإضافة إلى الأطباق ذات القمة المسطحة والحواف الرقيقة، تمثيلاً واضحاً لفترة الحديد II، بالإضافة إلى القليل من النماذج الملحوظة من فترات سابقة، والمقصود بها أواني القرن العاشر ق.م مع النموذج إياه من نهاية فترة الحديد II (الأشكال ٤ : ٢٠–٢٣, ٤ : ١–١١، ٤, ١٠ : ٢–٥ ١٠–١٣ ١٩–٢٢ ٢٦–٣٠ ٣٣–٣٧). لذلك فإن تلك النماذج، مسطحة القمة، توافق كثيراً سياق أواخر القرنين التاسع والثامن ق.م، وكذلك الأمر بالنسبة للأطباق الملمّعة، يدوياً أو على الدولاب، ذات الحواف المستقيمة.

وجدت نماذج قليلة جيدة الصقل (الأشكال ٥ : ٥ ٧ ١٢ ١٣)، بالإضافة إلى طبق أسود رقيق الحواف من فترة ما بين القرنين الثامن والسابع ق.م (الشكلان ٥ : ٦, ٩ : ٨). أما بالنسبة إلى كسر الأطباق المشغلة، المائلة إلى فئة الألوان

اللاحقة (من الزهري حتى البرتقالي المحمر)، ذات السطوح المتباعدة الملمّعة على الدولاب، فهي نادرة في حصيلتنا حتى الآن .

تمّ العثور على مقاطع من طبق أكثر عمقاً مزدوج الزاوية مع فئة لونية وتلميع مشابهين لتلك الأطباق الكبيرة (الأشكال ٥ : ١٢–١٦, ٨ : ١–١٧)، ومع ذلك أيضاً وُجدت نسبة جيدة من الأطباق البسيطة لونها بين البني المصفر والأصفر وبدون تزيين أو تلميع . كما عثرنا على كمية قليلة من حواف أوانٍ تمّت معالجتها بطلاء أو تلميع بالأحمر، مع بعض القواعد والأغطية (الشكلين ١٠ : ١ ٩)، وجميعها مشابه تماماً لنماذج تلك الفترة، كما هي الحال مع مخزوننا من حواف الأواني البسيطة والمشغّلة (الشكل ١٣) .

وجدنا بعض القناديل والمصافي والأطباق الكبيرة في أوعية بسيطة مميزة تعلو النماذج التي ذكرناها ذات السطوح الحمراء، بالإضافة إلى ذلك وجدنا كمية جيدة من الأواني الثقيلة (الشكل 14)، ضمن أوعية بسيطة . حتى هذه النقطة، فمن غير الممكن حالياً تقديم صورة عن استخدامات بعض مناطق الموقع، بالمقابل تحتوي الأجزاء المأهولة من المنطقتين B وD كميات كبيرة من أوانٍ خدمية أكثر ثقلاً، والتي يُحتمل أن تكون لأغراض صناعية، وكانت إلى جانبها تلك الفئة النموذجية من الكسر المزينة بالطلاء (الشكل ١١)، منتشرة في كل أرجاء الموقع . يمثّل كلٌّ من التزيينات بالخطوط، باللونين الأحمر والبني، والرسوم المتدلية من مقابض الأواني تقليداً نراه واضحاً في فخار معاصر من العمق . ميزة أخرى هامة من تسلسل العمق O هو تنـوع أوعية الطبخ بـالفتحات، ذات المـقابض الشريطية القريبة من العنق (الشكلان ٥ : ٢٥ ٢٦)، كما وجدنا مثالاً جيداً مماثلاً على حواف وعاءٍ للطبخ من ضمن سياق فترة الحديد II .

إلى هذا الحد يُمكن القول بأن الفخار المستورد مبعثر في الموقع وتمثله أفضل تمثيل الكسر القبرصية المطلية بالأبيض وبالأسود على الأبيض وبالأسود على الأحمر والأسود، والتي يمكن اعتبارها نموذجية لهذه الفترة في قبرص (الشكل ١٢) . فحتى الآن لم يتوفر، في تل قرقور، ما يشابه تلك العينة من الفخار الهندسي الروماني التي عُثر عليها في العمق والمينا، ويبدو من المعقول ألا نتوقع أن يوازي تلُّ قرقور العمق في ذلك، لذا فإنه من دواعي سرورنا أن تزودنا الحفريات المحدودة في الموسمين السابقين في التل بعينات كهذه من مخزون فخار عصر الحديد .

يمكننا التركيز فقط على مجموعة واحدة من حصيلتنا من الفخار، ومع ذلك –وبهدف توخي الكمال– يتوجب علينا ألا نغفل تلك المجموعة النموذجية لأنماط البرونز الوسيط II (الشكل ١٥) . من ضمنها كسر مطلية، صحون مزدوجة الزاوية وأوان محزّزة بالمشط لتزيينها، وهو التقليد الشائع في حماه وتل مرديخ وتل حديدي ومناطق أخرى . وعلى ما يبدو فإن التواجد البشري الأكثر كثافة في تل قرقور في الألف الثاني ق.م انحصر في الفترة الزمنية بين القرنين الثامن عشر والسادس عشر ق.م .

سنعود إلى الألف الثالث ق.م بالتفصيل بعد قليل، لكن –وبهدف توخي الكمال أيضاً– نريد أن نستعرض الفترات الزمنية التي يمثلها الفخار المتوفر لدينا :

– الوعاء الملمّع ذو السطح الداكن الواضح المعالم (الأشكال ٢١ : ٦ ١٧ ١٨)، يدل على التواجد البشري في فترة النيوليت المعاصرة لكلّ من العمق A وB،
– النماذج المتعددة من كسر العُبَيد المطلية (الشكلان ٢٣ : ١٠ ١١)،
– كسرة حافة الصحن المشطوفة الزاوية (الشكل ٤ : ٢١)، والفخار ذي المقبض بشكل العروة المثلثية والتزيين المحزّز بالمشط على هيئة المياه الضحلة (الشكلان ٢١ : ١٥ ١٦)، من فترة الوركاء وحتى بداية عصر البرونز.

أظهرت حفريات العامين 83–1984 جدران عصر البرونز تحت مستوى بوابة الحديد II، لكن الحفريات اللاحقة لم تتابع بعدُ تحت المنحدر الرابع من البوابة، حيث تمّ التعرف على تسلسل زمني رائع لفخار عصر البرونز الباكر في تلك الحفريات اللاحقة، مبدئياً في حشوات داخل بوابة عصر الحديد، المرتبطة بإنشاء أساسات الجدار والشارع العائدين لتلك الفترة .

يؤرخ النصف الأول من الألف الثالث ق.م بشكل جيد من خلال عدد من الأوعية، التي عثر على عدد منها محفوظ في العمق من المرحلة G وحتى المرحلة I، وهذه

الأوعية متوفرة بكثرة جداً في تل قرقور (الشكل ٢٠). يُظهر العديدُ من أوعية تل قرقور التزيينَ المحزّر في أكتافها، في حين أن التزيين المطبوع لم نتعرف عليه حتى الآن.

ضمن الفترة بين مرحلتي العمق G وH هناك أيضاً واحدة من أهم اللقى في موسم عام 1994، وهي طبعة ختم على جانب السطح الخارجي لحافة إناء بسيط (الشكل ٢٢). تعطي هذه الطبعة، والتي يُحتمل أن تكون قد مُرّرت مرتين على الحافة، تمثيلاً بسيطاً لرباعيات القوائم ولشكل بشري من نمط مشابه لذلك النمط البسيط المخطط الموجود على الأختام الدائرية والأسطوانية في فترة العمق. من الجدير بالذكر أنه قد تمّ العثور على حواف أوان، مشابهة لذوات طبعة الختم التي وُجدت في تل قرقور، في حماه بين J8 وJ3، كما وُجدت طبعات ختم على أوانٍ مشابهة في J8 وJ5 وJ4 وJ3، بالإضافة إلى أن التشابه والتوازي الكبيرين لمقطع أواني قرقور يظهران بين G8 وJ5 في حماه، كما يظهر ذلك بشكل تام في سويات تل مرديخ من عصر البرونز الباكر IVA، وذلك بحسب التقسيم الزمني للمنقبين فيها (ماتسوني، 1992).

هناك مجموعة من الأوعية البسيطة، والتي تُعتبر حكراً على مرحلة H في العمق، كانت قد زُيِّنت بهيئة مياه، عادة ما تكون ذات قاعدة بسيطة ومقطع شبيه بالحلية الرباعية، كما هو الحال في نماذج الكؤوس المزينة (الأشكال ٢١: ٢ ٣ ٧ ٨ ١٤ ١٩–٢١). وقد وُجدت بعض القواعد وحواف الكؤوس في تل قرقور بما يشبه مكتشفات القبور والخنادق في منحدرات قلعة المضيق (بالتي، 1981: الشكل ١٨). كذلك يبدو أن أوانٍ مشابهة عثر عليها في فترة زمنية محدودة في تل حديدي في وادي الفرات (دورنمان، ١٩: الشكل ٣٣: ٦–٣٦) وقد امتد انتشارها حتى شاغار بازار في الخابور.

يميل بريدوود إلى استقلالية نماذج الأوعية الملمّعة بالأحمر والأسود من أجل خلق نماذج «الحلية الرباعية» البسيطة (بريدوود وبريدوود، 1960)، لكن القليل من تلك الأوعية الملمّعة بالأحمر والأسود موجود في قلعة المضيق حيث تتوفر نماذج «الحلية الرباعية» والمواضيع المرتبطة بها. لذلك من المحتمل أن يقدّم تل قرقور دليلاً هاماً لإماطة اللثام عن هذه العلاقة ولدعم التسلسل الزمني في السنوات القادمة.

يتشابه كلّ تل قرقور والعمق في تمثيلهما المميز للأوعية الملمّعة بالأحمر والأسود، أو ما يغلب على تسميته بوعاء «خربة الكرك» (الشكل ١٩). وقد أضاف موسم العام 1994 أغطية، ذات تزيينات بيضاء محزّزة، إلى مخزوننا من النماذج المثالية للأواني والصحون. بالمقابل وُجدت بعض الكسر المميزة التي تمّ تلميعها بالأحمر البرتقالي والأصفر البرتقالي والأصفر المسمر والأسود، حيث طليت بعض تلك الكسر بمساحةً لونية تمتد من البرتقالي المسمر إلى الأسود في الوعاء الواحد.

أنتجت المرحلتان H وI في فترة العمق أمثلة لهذا الوعاء، ويبدو أن في تل قرقور مثل هذا الوعاء بوفرة وتنوع متساويين. ومن المتوقع أن يزودنا التنقيب في سويات عصر البرونز الباكر، مع الأخذ بعين الاعتبار كمية تواجد هذا الوعاء واتضاح التسلسل الزمني لهذه الفترة، بالدليل القوي الذي يمكننا من مراجعة خصوصيات التجمعات في مراحل العمق، كما يتوقع أن يعطينا معلومات إضافية يمكن من خلالها ربط هذا التسلسل الزمني مع مثيله في حماه K وأوغاريت، حيث يتواجد وعاء «خربة الكرك» متوفر بندرة.

يمكن تمثّل نهاية التسلسل الزمني لعصر البرونز الباكر من خلال نماذج متميزة جداً في هذه الفترة، فقد وُجدت أوانٍ بسيطة ممتازة الصنع في تل قرقور، كالتي وُجدت في تل حديدي وفي حماه J3 مروراً J1 وفي العمق I وJ (الشكلان ١٧ و١٨). كذلك تحتوي مجموعةٌ من الكؤوس البسيطة والمموّجة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من أوعية بسيطة الطلاء ومطليّة ومحزّزة (الشكل ١٦)، وتتضمن أمثلةً تم تعريضها للنار كي يميل لونها إلى السواد وإلى البرتقالي البني، وفي التلّ أيضاً يمكن أن نجد مجموعة من قواعد الكؤوس، المتوفرة في العمق.

وقد تمكنّا من إيجاد طلاء ملطخ بالإضافة إلى قواعد الأواني المسطحة النموذجية وكسر مخزن الأواني الممشّطة، والتي – مع كونها أوعيةً محروقةً تماماً– لها لون القشدة من

الفاتح إلى المسمر، وهو لون شائع جداً في الأواني البسيطة، أكثر منه في الأواني البرتقالية والرمادية التي يشيع استعمالها أكثر على الساحل، ويرجح إرجاعها إلى فترة زمنية سابقة.

في النهاية، يمكننا القول أن حواف الطبق النموذجي الملتفة، المُكتشَف في إبلا وحماه والعمق وفي تل حديدي بأفضل صوره (دورنمان، ١٩٨٨: الأشكال ١٥: ٢٧–٢٩ ٣١–٣٣؛ ٢: ١٦؛ و١٩: ١٥ ١٨) في نهاية الألف الثالث ق.م، متوفرة جيداً في تل قرقور (الأشكال ١١: ١٧ ١٢، ١٨: ١٣ ١٨ ٢٠–٢٣). وكذلك توفرت الأواني والأطباق ذات الحواف الثنائية والثلاثية الأضلاع (الأشكال ١٨: ٣–٦ ١١ ١٤ ١٥ ١٩ ٢٥) في تل قرقور كما هي في تل حديدي، حيث تُمكن ملاحظتها بوضوح، وذلك بسبب الندرة الكبيرة للفخار المطلي، بالإضافة إلى ذلك وُجدت أطباق وأوان مشابهة في حماه J1–J3 وإبلا وأوغاريت.

من المفروض التعرف على التسلسل الزمني لعصر البرونز الباكر الذي يقدمه تل قرقور نفسه، لكننا لم ننقب بعدُ في سويات السكن البشرية العائدة لتلك المرحلة، ومن الواضح أنه يتوجب علينا أن نعطيه الأولوية في الحفريات المستقبلية، وذلك للاحتمال القوي في أنه يمكننا من حلّ الكثير من الصعوبات المتعلقة في التسلسل الزمني للفخار. كما لا بد للتحليل الدقيق المماثل للعينات النباتية والحيوانية أن يقودنا إلى مجموعة ممتازة من السمات الحضارية الخاصة بعصر البرونز في سورية.

إن ما لدينا من أدلة حتى الآن تشير إلى أن المراحل الأساسية للسكنى البشرية في تل قرقور ترجع إلى عصري الحديد والبرونز الباكر، بالإضافة إلى أن تلك الأدلة تبدو واعدة جداً لمتابعة التحري في المواسم القادمة.

عبور الفرات من منطقة قلعة نجم
وأفكار حول بعض طرق اجتياز الفرات

جيسبر آيدم

تعريب: هالة مصطفى

مقدمة:

منذ عصور غابرة، عبر المسافرون الفرات سواء كانوا أفراداً من نفس المنطقة أو تجاراً أو مراسلين أو جيوشاً. ودخلوا منطقة حلب من الشرق.

أهم الأسباب الرئيسة التي لعبت دورها في اختيار الطرق الفردية وتم اتباعها في أي وقت من الأوقات هي: أ ـ طبيعة الأرض. ب ـ طبيعة التجارة والمسافرين. جـ ـ طبيعة المحيط السياسي والاجتماعي. تعطي هذه العوامل، نظرياً، خيارات واسعة للطرق المختلفة في المنظورات الصحيحة لتزامن الأحداث وتمادي الزمن. وفي الواقع، إن هذا الوضع أقل تعقيداً طالما أن سبب طبيعة الأرض سوف يُدْعَم ببعض الخيارات المحددة والتعليمات التي تساعد في تقليص عدد الاحتمالات. ومن جهة أخرى، من المهم أن نوضح أن هذا السبب ليس بتلك الأهمية التي أعطيت له سابقاً، وذلك قبل أن يصبح رصف الطرقات والسكك الحديدية وطرق السيارات أكثر مرونة ويرتبط بشدة مع العاملين: ب ـ طبيعة التجارة والمسافرين وجـ ـ طبيعة المحيط السياسي والاجتماعي. ويمكننا أن نجد مثالاً مناسباً لهذا الوضع في نصوص تعود للعصر البرونزي المتوسط (أوائل الألف الثاني ق.م)، التي قدمت مراراً مسيرات رحل واضحة ومفصلة على شكل يوميات رحلات فردية في شمال سورية وبلاد الرافدين، ويبدو أنه كان لهذه الطرق حالة خاصة إذا ما تمت مقارنتها بالطرق الطبيعية العادية، ومن الواضح أن الاختيار وقع عليها لأنها أكثر أمناً وسرعة على سبيل المثال.

أما بالنسبة الى منطقة روافد الفرات العليا السورية تحديداً، فإنه من الواضح أن العوامل التي ذكرت يجب أن تبقى ماثلة في الذهن لدى دراسة حركة السير فيها عبر الزمن. إذ توجد نقاط عبور (الشكل ١) متعددة على الفرات من الحدود التركية حتى مسكنة/باليس باتجاه الجنوب، حيث يوجد حالياً الجسر القديم في جرابلس (موقع المدينة القديمة المشهورة ـ كركميش قرب الحدود التركية)، بينما تعبر الطرق الحديثة الجسر عند تل قارة قوزاق. وأيضاً هناك خدمات العبور العادية كموقع صندلية الذي يقابل تل البنات. في حين ما تزال نقاط العبور هذه تستخدم حتى الآن، فقد اختفت الجسور القديمة. وفي أماكن أخرى، استخدمت المراكب والعبَّارات لقطع النهر في نقاط متعددة تختلف باختلاف الظروف. وقد سجلت الوثائق بعض هذه الطرق وأغفلت بعضها الآخر فلم يبق لها وجود.

لقد كان للتنقيبات الأثرية الحديثة المكثفة على امتداد نهر الفرات ولاسيما قرب بحيرة الأسد، وشمالاً عند مشروع سد تشرين، أثرها الكبير في زيادة المعلومات عن هذا الموضوع. فمعظم المواقع التي تم التنقيب فيها كان لها دورها في تأمين نقاط عبور الفرات، وستساعد النشرات والأبحاث

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

المتواصلة حول مشروعي الانقاذ في توسيع المعارف حول طريقة تشكل الطرق وتغيرها عبر الزمن.

في هذا البحث المختصر، نود أن نقدم بعض المعلومات والصور عن مستوطنات ما قبل الاسلام والطرق في منطقة قلعة نجم.

منطقة قلعة نجم:

تقع آثار قلعة نجم على صخرة ناتئة من مصطبة النهر، تقريباً إلى الشرق من مدينة منبج الحديثة. حظيت هذه الآثار العظيمة ولسنوات عديدة على اهتمام أكثر السواح في سورية، وقد زادت أعمال الترميم الحديثة والطرق الجميلة الحديثة من عدد السواح في هذه المنطقة. والى الأسفل من القلعة القديمة، توجد قرية صغيرة حديثة فيها آخر نقطة توقف لباص محلي يومي بينها وبين منبج. ويعكس الجو الريفي الحديث حالة نقيضة للوضع في العصور الوسطى.

كان « جسر منبج »، حيث جسر القوارب التي تعبر الفرات، والطريق الذي يتجه غرباً إلى Manbij (هيرابولس) في منطقة حلب، ذو أهمية كبيرة خلال العصور الوسطى. وبجانبه حصن كبير للحماية، وإلى الأسفل منه هناك بلدة صغيرة قريبة من ضفة الفرات. يعرف الحصن بقلعة نجم، وأطلق عليها اسم « حصن منبج »لوقوعها فوق هضبة مرتفعة. عندما مر ابن جبير بقلعة نجم، قادماً من حرّان عام ٥٨٠هـ، تحدث عن السوق المجاور لجدرانها. ويذكر أبو الفداء: « أنه تم ترميم الحصن من قبل السلطان نور الدين الزنكي، وقد أنهك جيشه وبحرية القرى المجاورة المحتلة من قبل الصليبيين ».

قدّم القزويني في أواخر من القرن السابع الهجري، القرن الثالث عشر الميلادي، وصفاً مطولاً عن العيّارين والشطار الذين كانوا يحتالون على المسافرين الأغنياء ممن كانوا يمرون بقلعة نجم بواسطة ألعاب المغامرة، بمساعدة من الحلفاء، ويربحون كل أموالهم وممتلكاتهم. فيشتد حماس اللعبة حتى أنه (بالنسبة إلى القزويني) يبقى الغريب غالباً بدون ملابس إلاّ من سرواله أو حتى ممتلكاته. حتى أن هؤلاء المحتالين أحياناً يأسرون الشخص الضحية كرهينة حتى يأتي أصحابه ليدفعوا الفدية ويطلقون سراحه.

تغيرت أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت. على الأقل فإننا كمسافرين أغنياء لا نصادف عيَّارين وشطار عند قلعة نجم، لكننا نلاحظ الكثير من الكسر الفخارية التي تعود الى العصور الوسطى عند منحدرات القلعة والى الأسفل في القرية الجديدة.

وفي الحقيقة، لسنا بحاجة لإثبات أهمية المنطقة في العصور الوسطى، طالما أن القلعة تعطينا دليلاً كافياً كونها كانت مكان ضيافة للجغرافيين العرب والأوربيين والمسافرين.

يختلف الأمر تماماً في عصور ما قبل الإسلام. فنادراً ما ذكرت القلعة في الشروحات الموسعة للطرق في العصور السلوقية والرومانية والبيزنطية، بينما ألقي الضوء باهتمام على الطرق المشهورة مروراً بـ زوغما / أفاميا وبالس. ولم تلقَ قلعة نجم الاهتمام إلاّ في فترات متأخرة. وكان الطريق الرئيسي الذي يعبر روافد الفرات العليا في العصر الحديدي يمر من تل أحمر (تل برسيب)، بينما اقترح أحد المعلقين بشكل تجريبي، بأنه يمكن لقلعة نجم أن تكون موقع حدود الحصن (Dur-sumu-Epuh) لموقع يمحاض (حلب) في القرن ١٨ ق.م تمر من الجزء المقابل للجزيرة بأمر من شمشي آدد الأول. وباختصار فإن منطقة قلعة نجم كانت نقطة عبور بالرغم من أنه لا يوجد أي دليل أثري أو تاريخي يؤيد ذلك. ويمكن تفسير هذا الوضع الآن في ضوء دليل معاصر تم التوصل إليه من خلال الأعمال التي أجريت منذ أواخر عام ١٩٨٠ ضمن خلال مشروع انقاذ الآثار في حوض سد تشرين. ويمكننا أن نربط هذا الدليل مع الملاحظات الكثيرة التي تم استنتاجها من خلال أعمال المسوحات المستمرة التي أجريت قبل بداية التنقيبات الفعلية في منطقة سد تشرين.

منذ عام ١٩٩٣، عملت بعثة التنقيب الدنمركية في مشروع انقاذ آثار سد تشرين في موقعين قريبين من قلعة نجم، وبالتحديد في تل جرن كبير على بعد ٢,٥كم الى الجنوب من القلعة نفسها. ولدى اجتيازنا لهذه المنطقة الصغيرة تمكننا من جمع معلومات وافرة عن آثار النشاط القديم هنا.

أما فيما يخص امتداد النهر حوالي ١٥كم من الجسر الجديد عند قره قوزاق إلى قرية صندلية، فإن أول ما يمكن

ملاحظته، هو أن هناك استيطان يعود للعصر البرونزي على ضفتي النهر. وتم تسجيل موقعين فقط بين قره قوزاق وعدد من المواقع حول تل البنات، وذلك إلى الشرق من الجزيرة، أولها تل قوزاق شمالي الذي يقابل القلعة نفسها. وقامت البعثة اليابانية بالتنقيب في موقع صغير يعود لما قبل التاريخ يتميز بسويات من عصر عبيد وأوروك. أما التخمين المعقول فهو أنه تم استيطان هذا الموقع لفترة طويلة من الزمن لدى ملاحظة عبور النهر. يقع الموقع الثاني «تل أفندي» على بعد عدة كيلومترات إلى الجنوب من تل البنات. وهو موقع مغطى بالبقايا الحديثة، وفخاريات وآثار أخرى تعود للاستيطان البرونزي المبكر والروماني والإسلامي. وبين هذين الموقعين، هناك موقع ثالث منسي لم تشمله التنقيبات الحديثة، إلا أن زاخاو sachau جاء على ذكره:

«إن الموقع الذي يواجه قلعة نجم على ضفة نهر الفرات اليسرى هو ذو أهمية تاريخية، باعتباره منطلق أحد أهم طرق القوافل المطروقة في القديم على امتداد نهر الفرات نزولاً باتجاه بابل. ذهبت مغتبطاً الى هناك لأرى فيما إذا قد تبقى شيء من الآثار القديمة، فلم أعثر على عَبَّارة ولا قارب أو مجرى. كما لو كانت الضفة الأخرى من النهر جزء معزول عن العالم. فلا يعرف بدو الضفة اليمنى إلا القليل عن الضفة اليسرى.

يستطيع الإنسان عبور الفرات بحسب ما علمت من مسكنة، الرقة، دير الزور، والميادين فقط، بينما يكون وادي الفرات عند قلعة نجم عريضاً، بحيث لايستطيع الإنسان أن يرى الجهة الثانية حتى بأفضل منظار. هذا النظام هو عبارة عن مجموعة من التلال الأثرية يسمى جبل صرين. في أسفل الجبل، يوجد بناء مقبب وصحن كنيسة، والى اليمين من ذلك وعلى ارتفاع متوسط توجد آثار، وعلى القمة يرتفع برج متهدم. وفي فج ضيق بين الصخور، يتعرج الطريق عبر الجبال من النهر صعوداً باتجاه الهضبة. إلى الجنوب، ليس بعيداً عن جبل صرين تقع على مرتفعات ضفاف الفرات آثار أخرى تسمى بوجاك أو قلعة بوجاك مقابل تل جرن كبير، حيث تمكنا من مشاهدتها لدى عبور النهر. الموقع ـ بلاشك ـ هو قلعة مقامة على أساس متين فوق مصطبة كلسية لها ممرات مفتوحة فوق الصخر. على قمة هذا الأساس توجد كسر فخارية متآكلة، لكنه لم يعثر على آثار فعلية. تعود الكسر إلى العصر الروماني والبيزنطي المبكر والإسلامي.

لدى توجهنا إلى الجهة الغربية للنهر أو إلى الشامية، حيث تكون المصطبة أقل انحداراً وتوصلنا إلى النهر بسهولة، تعرفنا على عدة مواقع، لكنها خالية من آثار استيطان العصر البرونزي. أول المواقع المسجلة إلى الجنوب من الجسر عند قرة قوزاق هو تل خدجية، حيث كشفت التنقيبات السابقة عن مواد عائدة لحَلَف والعصر الحديدي والروماني والإسلامي (الشكل ٢). أجرت بعثتنا سبراً هنا في عامي ١٩٩٦ـ١٩٩٧ واكتشفت ضمن ردميات المصطبة كسر فخارية وصوانية من فترة حَلَف، مما يظهر أن الاستيطان الحَلَفي شمل الموقع أو محيطه. يعود الموقع بشكل رئيسي الى العصر الحديدي، وتم الكشف جزئياً عن طبقات ومواد تعود للعصرين الروماني والبيزنطي المتأخر إلى الجنوب من الموقع على طول النهر. وجد الفخار الروماني والبيزنطي في أماكن متفرقة وبكثافة متفاوتة في أو قرب كل القرى الجديدة الواقعة إلى الأسفل من موقع صندلية أو بالقرب منها، وهي شاهد واضح على الاستيطان الواسع الانتشار في ذلك الوقت. لكنه لم يتم الكشف عن أي مواد تعود للعصر البرونزي.

ويبدو أن البقايا القليلة من عصور ما قبل التاريخ الممتدة على طول النهر، حظيت باهتمام أقل حتى بداية العصر الحديدي، حيث وجدنا على الأقل سلسلة من ثلاثة مواقع على الضفة الغربية أشهرها تل جرن كبير.

تل جرن كبير:

تل جرن كبير موقع صغير ومنخفض، لكنه متآكل كثيراً هذه الأيام، لم تبلغ مساحة المستوطنة القديمة أكثر من هكتارين أو ثلاثة. منذ عام ١٩٩٣، قامت البعثة الدانمركية الأثرية وبتمويل من مؤسسة كارلسبيرغ (كوبنهاغن) وبإدارة المؤلف، بإجراء التنقيبات في جرن كبير، كجزء من العمل في مشروع انقاذ آثار سد تشرين. قبل عام ١٩٩٣، جرت أعمال تنقيب في الموقع كجزء من عمليتي التنقيب المذكورتين، وكلاهما أظهرا الفخار السطحي الذي يعود للعصر الحديدي. وأظهرت البعثات

أن هذا التل الذي يحمل اسم القرية الجديدة المجاورة، يحوي على أربع سويات متعاقبة تعود للعصر الحديدي حوالي (١٠٠٠ ـ ٦٠٠) ق.م. وجدت أقدم السويات (IV) في الجزء الشرقي من الموقع، وهي طبقة متآكلة ومهشمة. وقد تضمنت البقايا التي اكتشفت في الحفر العميقة التي وصلت إلى التربة البكر، عدة أساسات حجرية ضعيفة، وفخاريات قليلة أو مواد أخرى، يبدو أنها تمثل استيطاناً عابراً.

تحتفظ الطبقة الثالثة III، والتي تغطي كامل الموقع، ببقايا معمارية متينة، وبشكل رئيسي بقايا حصن بيضوي بمساحة ٥٠×٤٠م (الشكل ٣). يبلغ عرض الجدار الخارجي لهذا الحصن ٤,٢م، وهو مبني من الآجر والفخار فوق أساسات حجرية عميقة. وإلى القرب من هذا الحصن هناك غرف محصنة. وقد شملت التنقيبات الأجزاء الداخلية لهذا الحصن متضمنة الغرف الصغيرة أو البيوت التي تحيط بالساحة الرئيسية المفتوحة. وقد تم التنقيب خارج بقايا الحصن داخل إحدى البيوت الكبيرة.

تتميز السوية الثانية II بتخطيط معماري مختلف تماماً عن الحصن (الشكل ٤). فيها جدار جديد أكبر من السابق وبوابة ذات ستة تجاويف (البناء II). في الجهة الجنوبية الغربية والى الشرق هناك بناء ضخم (البناء I)، مخطط هذا البناء يشترك بمظاهر عامة مع نمط قصور بيت حيلاني المعروفة، ومساكن من سورية وتركيا، وتوجد عناصر مشتركة أولها غرفة الاستقبال الرئيسة (الغرفة ٥)، والتي تحتوي على مصطبة آجرية كبيرة تشمل تقريباً نصف الغرفة مع عمودين أو آثار للنار. ومن الواضح أن الغرفة /٥/ كانت مخصصة للأعمال الشعائرية الهامة، وبما أن الأرضيات داخل المبنى كانت فارغة، فإننا لم نستطع تحديد طبيعة هذه الممارسات بدقة. لم يتم الانتهاء من التعرف على مخطط نمط المبنى في هذه السوية التي أهملت ثم أعيد استخدامها جزئياً بأسلوب رديء (السوية II.A) ونجد بقايا هذا الاستيطان على أغلب أرض الموقع.

أحدث السويات هي السوية I المتآكلة. وميزتها الأكثر بروزاً هي الحصن الآجري الضخم ٢٠×٢٠م، الذي يقع قرب قمة التلة (الشكل ٥)، وتعاصر هذا المبنى، لكن توجد خارجه عدة أخاديد كبيرة فيها فخاريات وأشياء تعود لأواخر العصر الآشوري الحديث.

انتهاء بمواد العصر الآشوري الحديث للقرن السابع ق.م. فإن تنقيبات تل جرن كبير أظهرت تتابعاً فريداً لفخار العصر الحديدي في أواسط شمالي سورية. لكن نقص النظائر المنشورة بالنسبة إلى المواد الأولى يجعل من تواريخ السويات الأخفض ذات صفة مؤقتة، مع بعض الاستثناءات، فاللقى الصغيرة من هذه السويات الأربعة والتي هي أوان منزلية معروفة من نماذج العصر الحديدي، تساعدنا قليلاً في تحديد التأريخ الدقيق. كما تم توثيق الإطار التاريخي للمنطقة بشكل رديء.

كانت المنطقة في بداية القرن التاسع ق.م جزءاً من المملكتين الآراميتين بيت عديني وبيت آغوشي، اللتان لم تعرف حدودهما بدقة. ومؤخراً أصبحت المنطقة حتى نهاية القرن السابع ق.م جزءاً من الامبراطورية الآشورية الحديثة. ضمن هذا المنظور، تتبع السويات الأولى في تل جرن كبير لتاريخ الممالك السورية الشمالية المحلية، بينما تتوافق أحدث المواد مع سياق سيطرة الامبراطورية الآشورية في القرن السابع ق.م، وإذا ماأخذت مساحة الموقع الصغيرة بعين الاعتبار، فإن بقاياه المعمارية تشير إلى أنه مكان عام أكثر مما هو مخصص لوظائف خاصة. وإلى الشمال بـ٧كم، جنوب تل جرن كبير يوجد موقعان آخران تل خدجية وصندلية، تتشابه موادها الفخارية مع تلك المنتشرة على امتداد تل جرن كبير.

يرجح أن هذه المواقع الثلاثة، والمواقع التي يحتمل اكتشافها تشكل جزءاً من خط الدفاع، وتتحكم بالضفة الغربية لنهر الفرات. لم تكتشف أية بقايا تعود لاستيطان العصر البرونزي في هذه المنطقة الصغيرة، ويبدو أن تأسيس عدة مستوطنات صغيرة هنا، كانت استجابة للاحتياجات في بداية العصر الحديدي، لكنها استمرت حتى نهاية العصر الآشوري الحديث.

المنظور التاريخي:

يؤدي نقص الوثائق التاريخية إلى عدم ايجاد تفسير دقيق للاستيطان في العصر الحديدي في قلعة نجم. يمكننا أن ندرس هذه الظاهرة من منظور تاريخي أشمل. ولدى مقارنتنا الشواهد من مشروع سد الطبقة ومشروع تشرين،

نجد بأن الفترة التي سبقت العصر الحديدي ظهرت آثارها واضحة على امتداد النهر. وبصرف النظر عن المركز الهام، ايمار، فقد تم اكتشاف مدينة تجارية هامة تعود للألف الثالث ق.م وعدة مواقع هامة من العصر البرونزي المتأخر. ومنها مواقع منطقة سد الطبقة مثل الحديدي، منباقة، تل الحاج وتل فري. أما أهم الاكتشافات، فقد استمرت من منطقة سد تشرين: القطار وتل بازي مقابل موقع صندلية.

عثرنا مقابل هذا الموقع على دليل لاستيطان يعود إلى العصر الحديدي. وبصرف النظر عن المواقع المشهورة مثل كركميش وتل أحمر حيث أظهرت التنقيبات الجديدة نتائج هامة، فإن الاستيطان العائد للعصر الحديدي على الفرات يبدو نادراً بشكل لافت للنظر بحسب الشواهد المتوفرة حالياً، بعد أن جرى مسح كلي لمنطقة الفرات السوري. يوجد ضمن منطقة سد تشرين موقعان آخران فقط هما: تل العمارنة وتل شيوخ فوقاني، فيهما سويات من العصر الحديدي في منطقة المنعطف الكبير الى الجنوب من موقع العمل المكثف، وقد بدأ العمل فيهما قبل الانتهاء من سد الطبقة، وظهرت مواد من هذه الفترة فقط في تل الشيخ حسن. أظهرت عمليات المسح السطحي في منطقة الفرات من مسكنة الى دير الزور مواقع تعود للعصر الحديدي. وفي النهاية، قدمت تقارير المسح الفرنسي للنهر حتى الحدود العراقية (خمسة وربما ٧) مواقع تعود لهذا العصر.

يرتبط اختفاء مراكز العصر البرونزي المتأخر، في هذه المنطقة وفي أماكن أخرى من العالم القديم، تقليدياً بانهيار الأنظمة في نهاية العصر البرونزي الذي انتهى بـ «عصر مبهم»، شهد في سورية تشكل الممالك الآرامية التي تم التعرف عليها عندما أصبحت الوثائق التاريخية متوفرة مرة أخرى في الألف الأول ق.م. لا يمكن أن نفسر في هذا النص الإطار العام لهذه المشاكل المعقدة، لكن يمكن أن نلفت الانتباه، بالاقتران مع اختفاء معظم مواقع العصر البرونزي المتأخر على روافد الفرات العليا، إلى أنه لدينا الآن دليل على ظهور سلسلة مواقع العصر الحديدي في منطقة لم يتم استيطانها من قبل على ما يبدو. وتبقى الأهمية العامة لهذه الظاهرة مشكوك بأمرها. يمكن عبور روافد الفرات العليا من عدة نقاط إذا كان ذلك ضرورياً.

لكن معظمها يعود إلى المراكز الحضارية الهامة على النهر مثل كركميش وإيمار، إذا وجدت، لكنها ـ من جهة أخرى ـ تتبع أكثر الطرق ملاءمة وسرعة. تمر إحدى هذه الطرق بمنطقة قلعة نجم. وكما لاحظ ف. ثورو ـ دانجن منذ عدة سنوات أنه يمكن أن تكون طريق مباشرة للوصول الى منبج وحلب من الشرق.

صنفت المواقع الثلاثة المجاورة لقلعة نجم ضمن العصر الحديدي ورغم عدم وجود كسر فخارية من هذا العصر، فمن الممكن أن تكون كل هذه الآثار قد نقلت من مكانها الأصلي أو طمست بالنشاطات اللاحقة.

ويؤكد موقع القلعة نفسها أنه كان صلة وصل بين قدحية في الشمال وجرن كبير في الجنوب، حيث الاتصال ممكن مع صندلية، يسمح بالسيطرة على مسافة ٢٥كم من النهر. وترتبط الحاجة الى خط التحكم والدفاع باختفاء المواقع الحضارية الكبيرة العائدة للعصر البرونزي المتأخر الى الجنوب من نهر الفرات. بالنظر إلى حركة الطرق الزائلة هذه يمكننا أن نبحث عن طرق أخرى تحتاج الى نوع من الحماية.

حتى الآن لا نعرف إلا القليل عن البنى السياسية للممالك الآرامية التي تشكلت في هذه المنطقة في بداية العصر الحديدي. وقد غير الفتح الآشوري في القرن التاسع ق.م التنظيم المحلي قليلاً. لكنه طالما أنه لا يوجد مركز كبير من العصر الحديدي على ضفاف الفرات السورية إلى الجنوب من تل برسيب، فإنه يبدو أن وادي النهر نفسه فقد الكثير من أهميته. وما حصل هو أن المناطق والمواقع المحصنة خلف النهر، والتي يمكن الوصول إليها عبرعدد من المواقع المناسبة، الأمر الذي تشهد عليه أقوال الكثيرين من الحكام الآشوريين الذين عبروا النهر على الأغلب بدون أية مقاومة تُذكر من قبل الأعداء الحقيقيين على الطريق. في هذا المحيط الاستراتيجي قامت خطوط التحكم ونقاط المراقبة في نقاط مختارة على النهر لخدمة أهداف مراكز القوة في أماكن أخرى. ومما يستأثر بالاهتمام هو مشروع إنقاذ أثري آخر في العراق في منطقة سد الحديثة. فمنذ عدة سنوات تم الكشف عن سلسلة أخرى من المستوطنات المحصنة العائدة للعصر الحديدي على نهر الفرات، ومع تحسن معرفتنا عن فخار العصر

الحديدي المتوفر الآن من المرجح اكتشاف مواقع أخرى على طول امتداد النهر.

وبالعودة الى قلعة نجم، يمكننا أن نلاحظ أن تاريخ العبور الذي تم ذكره في بداية الفترات الاسلامية والقلعة التابعة للعصور الوسطى المتأخرة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير منبج، المركز الكبير حوالي ٣٠ كم الى الغرب. فبعد انهيار هذه المدينة بعد الغزوات المنغولية وإعادة تنظيم الطرق الرئيسة في الفترة العثمانية، فقد العبور أهميته وأهملت القلعة، كما لاحظ ذلك الرحالة الألماني راو ڤولف الذي عبرها في رحلة نهرية إلى الفرات الأدنى في عام ١٥٧٤.

الأحوال المشابهة لتلك التي تميز تاريخ قلعة نجم الاسلامية، تعيد إلى الذهن فترة حوالي ٤٠٠ سنة في العصر الحديدي، الزمن الذي يبدو أن المنطقة لعبت فيه ـ لأول مرة ـ دوراً في الاتصالات الاقليمية والدولية.

تل جنديرس ووادي عفرين الغربي

ديترش زورنهاجن

تعريب: هالة مصطفى

مقدمة:

لعب سهل أنطاكية دائماً دوراً هاماً في ربط الطرق التجارية بين حلب والعالم الإيجي الشرقي. ومع ذلك، بقيت العلاقات التجارية والثقافية في الجزء الشرقي والغربي من حلب القديمة غامضة، لعدم كفاية الدلائل الأثرية والكتابية في هذه المنطقة.

وإذا أخذنا هذه الناحية بعين الاعتبار، فإنه يبدو أن وادي عفرين الغربي وموقعه الهام وتل جنديرس (المدينة القديمة المسماة جنداروس)، مناطق مناسبة جداً لايجاد تفسير بعض هذه الأمور على الأقل. يغطي هذا التل مساحة ٤٠٠×٥٠٠م٢ وارتفاعه ٢٠م. وحتى الآن تشير الفخاريات واللقى الأخرى إلى استيطان للمنطقة منذ العصر الحلفي وحتى القرن السادس بعد الميلاد.

تولت البعثة الألمانية ـ السورية هنا التنقيب بين عامي ١٩٩٣ ـ ١٩٩٦، فكشفت مساحة ٢٦٥٠م٢، وتعاقبت سويات بناء تتدرج من أوائل الألف الثانية إلى بداية الفترة البيزنطية (القرن السادس بعد الميلاد). تعود مراحل استيطان المنطقة السابقة للعصر البيزنطي الأول، إلى العصر الروماني المتأخر، والعصر الهلينستي المتأخر والعصور الآشورية، والعصور الحتية والآرامية المتأخرة. تحتوي أولى السويات التي اكتشفت حتى الآن على بقايا معبدين متراكبين وقصر من العصر البرونزي الأوسط I/ II.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

بالإضافة إلى العلاقات التجارية والروابط الثقافية المتعددة الأوجه بين حلب وآسية الغربية القديمة كانت الصلات المتبادلة مع شرقي العالم الإيجي ذات أهمية خاصة. حيث لعب سهل أنطاكية، العمق حالياً، دوراً هاماً في الطرق التجارية عبر جبال الأمانوس التي تنحدر إلى المرافئ الكيليكية.

ومن جهة أخرى، فإن السهل كان معبراً لطرق التجارة الداخلية القديمة وراء الجبال المؤدية إلى الطريق الساحلية التي كانت تصل مصر وفلسطين مع الأناضول منذ أواخر الألف الرابع ق.م.

في حين أن التبادل الحضاري والتجاري لمسافات بعيدة بين الشمال والجنوب، بخاصة خلال الألف الثالث والثاني ق.م، أصبح مفهوماً أكثر خلال العشرين سنة الأخيرة بالاعتماد على الدلائل الأثرية والمكتوبة المستمدة من إبلا، فإن العلاقات الثقافية والتجارية بين الشرق والغرب لازالت غامضة. وتلقي النصوص المسمارية من تل عطشانة ـ آلالاخ الضوء فقط على مملكة موكيش في سهل أنطاكية في الألف الثاني ق.م فقط، وكذلك حال الأرشيفات الملكية لعاصمة الحثيين خاتوشا في الأناضول وتلك المستمدة من أوغاريت.

في أوائل الألف الأولى ق.م، قبل ظهور العصر الهلينستي بوقت طويل، لاشيء يلقي الضوء على الوضع السياسي داخل سهل العمق والمناطق المجاورة التي كان

يحكمها أنئذٍ ملوك دولة تدعى (أونكي أو باتن)، سوى حوليات الملوك الآشوريين.

إن أكثف التحريات الآثارية، حتى هذا التاريخ، هي تلك التي قام بها معهد شيكاغو الشرقي في ثلاثينيات هذا القرن. ولسوء الحظ فقد وثقت الفخاريات واللقى الصغيرة التي تعود إلى سويات ماقبل الألف الثاني ق.م في ثلاثة تلال فقط، بينما بقيت الحضارة المادية للمنطقة منذ بداية الألف الثاني ق.م وحتى العصرين البيزنطي والروماني المتأخر مجهولة عملياً. من جهة أخرى، فإن النتائج المسجلة من تل عطشانة ـ آلالاخ والتي من المحتمل أنها تغطي الألف الثاني ق.م على الأقل، تبدو ذات قيمة محدودة تبعاً للآراء العلمية السائدة حديثاً.

خلال العصور الرومانية والهلينستية، كانت مدينة أنطاكية ذات أهمية سياسية واقتصادية بارزة. وبقدر مايتعلق الأمر بحضارتها المادية، علينا ألا نجزم أن تصنيف ك. كيتون، المقبول على نطاق واسع، لواحدة من أهم المجموعات الفخارية من هذا الموقع ـ تيراسيجيلان الشرقي ـ قد توصل إليه من خلال المواد التي تم التنقيب عنها في ساماريا. نورد ذلك فقط من أجل إيضاح أنه حتى فيما يخص الفترات الكلاسيكية، فإن المعلومات الأساسية عن تطور الحضارة المادية في المنطقة بين حلب وساحل المتوسط لاتزال قليلة جداً.

عندما نأخذ كافة هذه الثغرات بعين الاعتبار، فإن وادي عفرين الغربي وموقعه الهام، تل جنديرس، يبدو مناسباً جداً لحل بعض الاشكالات التي ذكرت على الأقل.

يقع الوادي إلى شمال جبل سمعان مباشرة، على بعد ٥٠كم تقريباً شمالي غرب حلب (الشكل١). وبعد اجتيازه الممر الضيق قرب باسوطة إلى الجنوب من عين دارا يجري نهر عفرين قريباً جداً من المرتفعات الكلسية الضخمة باتجاه جنوبي غربي، بينما يرتفع الجانب الغربي عن واديه تدريجياً حتى ينتهي عند سفوح جبال الأكراد، مشكلاً أرضاً زراعية كافية لإعالة مجموعات استوطنت ثمانية تلال متوسطة الحجم، منتشرة في الوادي صعوداً حتى قرية عفرين الحديثة، ولإعالة الموقع الأكبر في المنطقة، تل جنديرس. على امتداد الضفة الشرقية من النهر، هناك سلسلة أخرى مؤلفة من ستة تلال، ثلاثة منها، برج عبد الله، جلمة، وبالوطة (تل جيجي) ذات حجم كبير إلى حد ما.

يقع تل جنديرس على بعد ٥كم من الضفة الغربية للنهر، إلى الجنوب من القرية الجديدة جنديرس. ويغطي التل منطقة مساحتها حوالي ٤٠٠×٥٠٠م، أي ٢٠ هكتاراً، وبارتفاع حوالي ٢٠م، (الشكل٢). تشير الفخاريات واللقى الأخرى المكتشفة حتى الآن إلى استيطان المنطقة منذ العصر الحلفي وحتى القرن السادس بعد الميلاد. فالموقع مركز لسهلٍ خصب متوسط الحجم ترويه ينابيع كافية تتدفق من المناطق المجاورة. وإذا أخذنا الوضع الجغرافي للموقع ضمن شبكة طرق التجارة البعيدة يتضح لنا أنه كان يتحكم بالقسم الواقع أقصى الغرب من طريق تجاري قديم، والذي كان ينطلق من أقصى شرق الفرات، ويعبر النهر كركميش، ويصل إلى وادي عفرين جنوبي موقع النبي هوري، سيروس القديمة. وهو من جهة أخرى يتيح الاتصال المباشر لطريق التجارة الهام الآنف الذكر، عبر سهل أنطاكية مع طريق التجارة الساحلي بين فلسطين والأناضول. من هنا، لابد أن تل جنديرس قد أفاد أيضاً كعقدة اتصال هامة بين حلب وطرق التجارة الدولية.

كان اسم الموقع خلال العصر الروماني ـ الهلينستي جينداروس. وتم وصفه بشكل مختصر من قبل الجغرافي القديم سترابون. ولابد أن نضع بحسباننا مطابقة الموقع مع كينالوا، عاصمة مملكة أونكي / باتن الحثية المحدثة، في الألف الأول ق.م، بهذا الخصوص تقدم حوليات آشور ناصر بعل الثاني لمحة هامة حوله. ففي عام ٨٧٦ ق.م سار الجيش الآشوري من كركميش إلى عزازوم، قرية إعزاز الحالية، حيث وصل الجيش وعبر نهر عفرين خلال يوم واحد وقضى الليل على الضفة الغربية، وبعد مسير يوم آخر وصل إلى كينالوا.

وبما أن اعزاز على بعد ٢٥كم من النهر، فإن المسافة بين معسكر الجيش الآشوري وعاصمة باتينا (كينالوا) مماثلة تقريباً، وأنه لايوجد أي موقع آخر في منطقة عفرين تنطبق عليه هذه المواصفات الجغرافية والتاريخية باستثناء تل جنديرس، فلا شك أنه مدينة كينالوا القديمة.

ومن المحتمل أن هذا الموقع كان في الألف الثاني ق.م تابعاً لمملكة موكيش التي بقي اسمها منذ ذلك التاريخ غير معروف.

بين عامي ١٩٩٣ـ١٩٩٦، بدأت تنقيبات البعثة السورية الألمانية باشتراك الأستاذ محمد قدور (المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ دمشق)، د. أ. سليمان (المتحف

الوطني ـ حلب) وكاتب المقال (جامعة كونستانس) وذلك في ثلاثة مواضع من التل . وتم كشف مساحة ٢١٥٠م[٢] من المنطقة I التي تقع على القمة الشمالية الشرقية . بالمقارنة مع كمية ونوعية اللقى الصغيرة القليلة الشأن تبدو الشواهد المعمارية والستراتغرافية هامة جداً . فلأول مرة، بعد تنقيبات البعثة الأمريكية في سهل أنطاكية منذ ٦٠سنة خلت، تم اكتشاف سويات بناء متعاقبة تمتد من منتصف الألف الثاني ق.م إلى أوائل العصر البيزنطي (القرن السادس بعد الميلاد) . وأصبح التأريخ ممكناً بالاعتماد على اللقى الفخارية وأيضاً النقود من العصر الروماني المتأخر والعصر البيزنطي المبكر . وربما تشير بعض اللقى المتفرقة من فخار العصر الإسلامي الأوسط إلى استيطان هذه المنطقة خلال هذه الفترة . على كل حال لاتوجد بقايا معمارية من هذه الفترة، وآخر النشاطات المعمارية في هذا الموقع تعود إلى عشرينات وثلاثينيات هذا القرن، أثناء تواجد المراكز العسكرية أو الجيش الفرنسي على القمة الشمالية الشرقية للتل . وكل ماتبقى من هذه الفترة هو الأساسات الحجرية لإحدى الغرف، والساحة الصغيرة التي تحتوي على حطام الأسلاك المحيطة، وصفائح قصدير قاسية وزر من بزة عسكرية فرنسية .

كما بقيت خمس سويات عمرانية أساسية، من أوائل الفترة البيزنطية .

تتألف السويتان (١و٢) من بيوت خاصة صغيرة . وتحتوي السويتان ٣و٤ على أساسات جدران مجمع معماري ضخم تآكل جزؤه الشمالي الآن، ويبدو أنه كان مشيداً حول فناء واسع لايقل عن ٤٥٠م٢ . ولم يتم التوصل إلى الحدود الجنوبية لهذا المجمع حتى الآن . وتقدم اللقى الفخارية وسرج الزيت والنقود (الشكل٤) تأريخاً للطبقات البيزنطية خلال القرن السادس بعد الميلاد .

تتألف الأرض تحت سويات البناء الأربعة هذه من ردميات جلبت من منطقة بعيدة عن التل . وتحتوي على كسر فخارية كبيرة، وكسر زجاجية وسرج زيت (الشكل ٥ـ٦) تعود بتاريخها إلى أواخر العصر الهلينستي (حوالي ١٠٠ ق.م) . وتم اثبات هذا التاريخ بواسطة القليل من النقود (الشكل ٧) والصور الفخارية الناتئة التي تُمثل اله الخمر (ديونيروس) (الشكل ٨) . تغطي الردميات منحدراً قديماً يمتد بالاتجاه الجنوبي . وقد ظهرت فيه أقدم سويات البناء البيزنطي المعروفة حتى الآن مع حفر عميقة لطرح الفضلات تعود لنفس الفترة، وبقايا قليلة من الجدران التي تعود إلى أواخر العصر الروماني المتأخر، تم تحديد تاريخها بالاستناد إلى نقود الامبراطورية الرومانية (٢٦٠ ـ ٣٣٠ ب.م) المستمدة من نفس المكان (الشكل ٩) .

يعود تاريخ مراحل الاستيطان السابقة إلى العصر الآشوري الحديث والحثي / الآرامي المتأخر . وتتألف كلاهما من مبانٍ سكنية محفوظة بحالة سيئة، وحفر لطرح الفضلات أقيمت على التوالي في موقع داخل السفح القديم . بينما أسفرت المرحلة الأبكر عن وفرة عن الفخاريات المزخرفة من ضمنها الهيلادي المتأخر IIIC والمواد المحلية التي قلدتها (الشكل١٠) . أما مرحلة التطور الأخيرة فقد تميزت بزيادة القصعات المصقولة الحمراء، وكسر قليلة من مستوردات العصر الهندسي المتأخر (الشكل١١) . وتبدو كافة المواد متشابهة من عام ١١٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م حيث تم رصد نشاطات قليلة فقط .

تكشف هذه الحالة عن تباينٍ شاسع لدى مقارنتها بالشاهد المعماري تحت سطح المنحدر، حيث اكتشفت بقايا آبدتين بارزتين متراكبتين يعود تاريخهما للعصر البرونزي الوسيط (الشكل ١٢ و١٣)، وحتى الآن تم كشف بقعة متجانسة مساحتها ٨٥٠م٢ تحت بقايا المبنى المنخفض . وعلى بعد ٢٠ متراً باتجاه الغرب تم اقتفاء أثر الزاوية الشمالية الغربية للمبنى المنخفض الذي تمتد واجهته الشمالية باتجاه الشرق إلى ماوراء الحدود الفعلية للمنطقة المنقبة . وبذلك لايبقى مجال للشك بأن طول محوره الشرقي ـالغربي يزيد على ٤٢م، وبما أننا لم نتوصل بعد إلى طرفي محوره الجنوبي، الذي تفصله عن المحور السابق مسافة ٣٠ متراً، فلا بد أن المبنى المنخفض كان ذات يوم يغطي مساحة تزيد على ١٢٦٠م[٢] ، وقد أعيد استخدام جدرانه وأرضياته من جديد أثناء تشييد المبنى الذي توضع فوقه .

شيّد جدارا المبنى العلوي الخارجيان، الشمالي والشرقي، فوق الآجر المحطم جزئياً من جدران المبنى السابق الذي يبلغ عرضها ٣ر٥م .

بالإضافة إلى ذلك، فقد تم اتمام الجدار الشمالي للمبنى الأعلى بمحراب بارز يذكرنا بالمعابد الفلسطينية في العصر

البرونزي المتوسط والمتأخر (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) . كالموجودة في حاصور على سبيل المثال (الشكل ١٤) .

وعلى امتداد الواجهة الشمالية توجد مصطبة آجرية شبيهة بالميدان تمتد ٤٠م باتجاه الغرب، والتي ربما تعود إلى هذا المجمع أيضاً، والجدار الخارجي الغربي للمبنى الأعلى لم يعد موجوداً، بينما تتكون حدوده الجنوبية من جدار قديم أعيد بناؤه باستخدام آجر إضافي كان متداعياً في جهة الجنوب، والذي كان مشيداً جزئياً فوق أرضية البناء المنخفض، المطلية بالكلس الأبيض. كانت هذه الجدران تحيط بغرفة واحدة ذات أرضية جصصت بالكلس تعود في الأصل إلى المبنى المنخفض وأعيد استخدامها إلى حدما مؤخراً. وفوق هذه الأرضية، تم اكتشاف كسر من الفخار تعود للعصر البرونزي المتوسط والمتأخر، جعلت إعادة تاريخ المبنى إلى منتصف الألف الثانية مرجحاً. وبأخذ كل الشواهد مجتمعة، نجد أن المبنى العلوي يغطي مساحة ٢٠٠م٢ فقط، بدون الجدران. وهذا أقل من ٢٠٪ من مساحة المبنى المنخفض. وإذا وضعنا في الحسبان النوعية الرديئة لتقنيات بنائه ومواده (آجر محطم أعيد استخدامه)، لبدا ممكناً أن فترة استثماره كانت فترة انحطاط حضاري وربما اقتصادي.

وبما أن الأنشطة الاستيطانية في فترة أواخر عصر البرونز تكاد تنعدم تقريباً في تل جنديرس، والفخاريات واللقى الصغيرة الأخرى نادرة، فمن المرجح أن التل كانت له أهمية قليلة، أو حتى أنه كان مهجوراً من نهاية العصر البرونزي المتوسط حتى بدايات العصر الحديدي المبكر.

يعود تاريخ المبنى المنخفض إلى العصر البرونزي الأوسط. ويحتوي غرفتين كبيرتين ذات أرضيات كلسية لم يعاد بناؤها أو استخدامهما.

تتألف جهته الشمالية من جدار آجري طيني يحتوي على واجهة خارجية ذات دعائم تم انشاؤها فوق أساسات حجرية ضخمة. وفي الجزء الجنوبي الغربي من البناء، تم اكتشاف أساس لعمود على أرضية كلسية صلبة ملساء (الشكل١٥) . وهذا العمود مصنوع من حجر البازلت، يبلغ ارتفاعه ٧٫٠ متر، بينما قطره ١٫٦ متر. ومن المحتمل أن يكون جزءاً من بوابة أو مدخلٍ. وأهم ماتم اكتشافه أنبوبين من البازلت للمجاري متقني الصنعة، طول كل منهما ٢٫٥ متر، يمران ضمن الجدار الخارجي الشمالي، وألغي استخدامهما عندما شيّد المبنى الأعلى (الشكل١٦) . تدل اتقان صنعتهما على أنهما كانا من تجهيزات معبد (أحواض للخمر) معاد استخدامهما.

وبالرغم من هذه الملاحظات، فإن وظيفة المبنى المنخفض والأعلى، أهي معبد أو قصر؟ - لازالت مجهولة. ومازال الموقع بحاجة لمزيد من التنقيب في المنطقة II على بعد ١٠٠ متراً من المنطقة I، قام الدكتور أ. سليمان باقتفاء أثر بقايا المبنى الثالث الضخم الذي ترجح كافة الاحتمالات أنه قصر وذلك تحت سوية من الحفر العميقة الكبيرة والعديدة من العصر الهيلينستي مروراً بالعصر البيزنطي التي قوضت معظم السويات التي توضعت فوقها. تم تنقيب حوالي ٥٠٠م٢ . وتم إرجاع الفخاريات التي ظهرت في هذا البناء الذي يتألف من السور الخارجي الكبير في الشرق، وفناء كبير وغرف مستطيلة طويلة ذات أرضيات كلسية، إلى أوائل العصر البرونزي الوسيط.

وعلى طول المنحدر الغربي الشديد الانحدار وقمته الشمالية الغربية لاتزال تشاهد أساسات سورٍ دفاعي منيع يمتد ٣٢٥ متراً إلى الشمال و١٠٠ متراً إلى الشرق على سوية أخفض بسبعة أمتار من سوية أساسات المبنيين الضخمين في المنطقة I. ومن خلال السبرين المدرجين في المنطقة III، اللذين قدما فكرة عن تعاقب التوضعات من السويات البيزنطية في الأعلى إلى جدران العصر الحديدي المتينة في الأسفل، وأصبح واضحاً أن السور الأساسي للحصن الذي يبلغ عرضه على الأقل ثمانية أمتار، يعود إلى الألف الثاني ق.م. لذلك يبدو أن مستوطنة تل جنديرس كانت، خلال الألف الثاني على الأقل، مدينة حصينة ضخمة يتوجها، في جانبها الشمالي الشرقي جزء محصن (أكروبوليس)، فقدت في أواخر عصر البرونز الأخير أهميتها السابقة. إن استمرار التنقيب يمكن أن يبين ما إذا كان مركز إداري / أو ديني قد أنشئ في القطاع الشمالي الشرقي للتل، خلال الألف الأولى، أو قبل ذلك بقليل، الأمر الذي لابد من توقعه، في حال كانت مطابقة تل جنديرس بكينالوا العصر الحديدي صحيحة.

إله الطقس السوري والعلاقات التجارية

هورست وإيفلين كلينغل

تعريب: علي خليل

من بين آلهة الشرق الأدنى القديم الكثيرة العدد، التي نعرف أسماءها وأفعالها من خلال الدلائل الكتابية والتي تحدرت أشكالها المُتخيلة عن طريق المدونات التصويرية، هنالك واحد مألوف لدينا حتى اليوم: إنه إله الطقس، أي إله العواصف والغيوم الممطرة. وقد اعتدنا الاشارة إليه في مناسبات عديدة.

ومن المعقول أكثر أن إله الطقس قد لعب، عندما كانت البشرية تعتمدإلى حد كبير على الهطولات في الوقت المناسب وبالكمية الكافية، دوراً هاماً في بقاء السكان القاطنين. لذلك نجد تبجيله بشكل خاص في بقاع العالم القديم الذي ترتوي حقوله بصورة رئيسية أو شاملة بمياه المطر. وسهول شمال سورية المحيطة بحلب هي واحدة من هذه المناطق. إنها منطقة زراعة بعلية ذات استيطان كثيف نسبياً، وهذه الحقيقة تشهد عليها النصوص المسمارية من محفوظات إبلا في منتصف الألف الثالث ق.م. إن كمية التهطال التي كانت كافية لقيام زراعة دائمة وخصوبة الترب الضاربة إلى الحمرة أيضاً جعلا من شمال سورية أحد أهم المناطق الزراعية في الشرق الأدنى. لذا لم يكن من قبيل الصدفة أن أصبحت سورية الشمالية أيضاً إحدى المناطق المركزية لتبجيل إله الطقس.

ولسوف نحاول في إطار هذه الندوة وبرنامجها أن نتقصى تبجيل إله الطقس والعاصفة السوري القديم أثناء العصور القديمة في الشرق، وأن نشير إلى بعض الدلائل التي تدعم الإنطباع بوجود صلة بين هذه العبادة والتواصل الاقليمي القائم بصورة أساسية على التجارة. وبمحاولتنا هذه علينا أن نرجع إلى التقاليد الإيغونكرافية والكتابات النقشية بقدر ما يتعلق الأمر بموضوعنا. والبحث لا يهدف لتقديم استقصاء شامل لكل الإشارات الممكنة إلى إله الطقس السوري بل لتقديم آراءٍ عن الدور الذي لعبته الصلات التجارية بتوسيع دائرة تبجيل هذا الإله في الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض المتوسط.

تمدنا المادة المنقبة في إبلا / تل مرديخ بالمعلومات الأولى عن المعتقدات الدينية في سورية الشمالية في تلك الفترة. فهي تذكر إلهاً يدعى أدا / حدًا، الذي يتساوى بكل تأكيد مع الإله المسمى عدّ، / أداد / حداد في أوقات لاحقة. وهو بكل وضوح ينتمي إلى تلك الآلهة التي اكتسبت أهمية متزايدة خلال هذا العصر الذي تميز بالتمدن وظهور الكينونات السياسية التي لعبت دورها في اقامة شبكة العلاقات التجارية. ويمكننا الآن أن نعتبر أن خلب / حلب يقيناً كانت مكاناً مركزياً لتبجيل إله الطقس. فإسم المدينة الذي يكتب خلام / خلب Halam/Halab، يذكر في النصوص المسمارية لإيبلا ويرتبط بشكل واضح بعبادة الإله عدا / حدًا.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

ويمكن الإشارة إلى استمرارية تبجيل إله شمالي سورية هذا خلال الفترة التي أعقبت عصر أرشيف إبلا من خلال كِسر مسلة اكتشفت في قرية تل مرديخ، كانت ذات يوم للأبدة الملكية التي تعود بتاريخها إلى ١٨٥٠ـ١٧٥٠ق.م تقريباً (العصر السوري القديم). وتعود إلى نفس الفترة مواد النصوص الثرية والتي لم تستنفذ كلياً من محفوظات ماري (القرنين التاسع عشر/الثامن عشر ق.م). وتشير النصوص المسمارية المكتشفة في قصر أحد السلالات الأمورية الحاكمة إلى الدور العظيم الذي لعبه إله الطقس عدو/حدو الحلبي، ليس على صعيد المعتقدات الدينية فحسب، بل وفي السياسة أيضاً. كانت ماري وحلب مرتبطتين ببعضهما بعضاً بالطرق التجارية التي تسير باتجاه أعالي الفرات وتغادر وادي النهر في إيمار/مسكنه منطلقة في سهول سورية الشمالية وحوض المتوسط. كانت حلب في تلك الأثناء مقراً لسلالة سامية ـ غربية تحكم مملكة تدعى يمحاض، امتدت من منطقة الفرات إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط. أما زمري ليم، الذي حكم ماري حوالي عام ١٧٨٠ق.م، فقد تلقى الدعم الحلبي أثناء استرجاعه عرش أبيه، وقدم تمثاله شاكراً لإله طقس هذه المدينة العزيز. ولإله طقس حلب «أنبياء»، حرفياً «المستجيبون/الملبون/»، الذي ينقلون رسالته أيضاً إلى ملوك ماري، ويذكر «كلمات الله». إن /عدو/ حلب هو نفسه الذي أعطى مملكة ماري ليهدوم ليم، ثم لشمشي ـ عدو، كان قراره أيضاً أخذ الحكم من شمشي عدو وتسليمه إلى زمري ليم. من بين أسلحة عدو الحلبي المقدسة البرق والهراوة اللذان كان يضرب بهما البحر المتوسط وكانا يعتبرا حاسمين في الصراعات السياسية أيضاً، والتي أرسلت من حلب إلى ماري ثم حفظت في معبد ترقا/تل عشارة، أي أدنى طريق الفرات. يحث الإله زمري ليم على تحقيق العدالة لأولئك الذين يلتمسون العدل، وعلى أن لا ينطلق في حملة عسكرية دون أن يطلب استخارة كاهن (إله الطقس). ومن ناحية أخرى يتلقى إله طقس حلب تبرعات من حاكم ماري والتي كانت تؤخذ إلى معبده في حلب، وهو حرم يبدو أنه منح نوعاً من الملاذ للائذين. والقول بأن إله الطقس كان مايزال مبجلاً كإله لمدينة حلب تشير إليه رسالة يدعو فيها الحاكم المحلي، يا ريم ليم، نفسه عابداً «لسن» إله القمر، وهو إله شائع جداً بين القبائل الأمورية، لكنه يسمى عدو باعتباره إله مدينته، ولسوء الحظ لا نعرف أين يقع معبد إله الطقس ضمن قطاع مدينة حلب القديمة أو في جوارها. والأمر نفسه ينطبق على قصر سلالة يمحاض الحاكمة الذي لابد أنه احتوى على محفوظات بالكتابة المسمارية حسب واقعة إرسال الرقم من وإلى حلب، المذكورة أو المكتشفة في ماري ومراكز بابلية أخرى من نفس الفترة.

ويعود الفضل إلى الحالة السياسية التي سادت في حلب ـ بخلاف ماري ـ خلال الربع الثاني من الألف الثاني، بأن هنالك أدلة كتابية للعصر الذي يلي مرحلة نصوص ماري. فمملكة حلب ظلت تبجل إله الطقس باعتباره الإله الرئيسي لمدينة اقامتهم. وعندما حاول ملوك الامبراطورية الحثية في الأناضول أن يشاركوا في الصلات السياسية والتبادل الاقتصادي للبلدان الواقعة وراء جبال طوروس أي من جهة الجنوب، أصبحت سورية واحدة من أكثر البقاع إغراءً للتوسع العسكري الحثي. لقد عبر الملك خاتوشيلي الأول (حوالي منتصف القرن السابع عشر ق.م) جبال طوروس غازياً سورية. وكانت حلب أحد النقاط المركزية لهذه الفعاليات. وعلى الرغم من أن خاتوشيلي لم يكن قادراً على فتح حلب ذاتها، فقد سقط تمثال لإله طقس هذه المدينة بين أيدي الحثيين عندما أخذوا حشوم Hashum، وهي مدينة يمكن تحديد موقعها في مكان ما شمال غربي حلب. نقل تمثال الإله إلى العاصمة الحثية، حيث حظي هذا الإله باهتمام خاص وظل مبجلاً ما بقيت الامبراطورية الحثية على قيد الوجود. أما المكان الدقيق الذي عبد فيه التمثال في خاتوشا فمايزال مجهولاً، لكن من الممكن أن هذه الديانة ارتبطت بديانة إله الطقس الحثي التي كانت طقوسها تقام في المعبد الكبير (المعبد I) في المدينة الأقدم بجوار السكن الملكي.

تغيرت المشاهد السياسية في سورية الشمالية عندما وسعت ميتاني سلطانها من أعالي الرافدين إلى سهول حلب. كانت منطقة ميتاني المركزية في منطقة الزراعة البعلية في أعالي الخابور، وهذه الحقيقة هي بالتأكيد التي لعبت دورها في تبجيل إله الطقس في ميتاني أيضاً. وقعت حلب تحت سيطرة ملوك ميتاني، الذين أحكموا بذلك سيطرتهم على طرق التجارة الهامة التي تعبر شمال سورية. وللمرة الثانية لا تأتي الشواهد الكتابية من حلب نفسها

بل من خارجها، وهذه المرة من آلالاخ / تل عطشانة. وقد استقر فرع من السلالة الحلبية الحاكمة في بلاد موكيش بعد نهاية أرشيفات ماري البابلية القديمة بوقت قصير. كانت موكيش ومدينتها المركزية آلالاخ واقعة عند مصب نهر العاصي أي في بقعة تجل إله الطقس السوري إجلالاً خاصاً، وأول ملك حكم في آلالاخ هو إدريمي، ابن ملك حلب. كما تنبئ القصة في نقوش تمثاله الملكي، حصل تمرد في حلب أرغم العائلة المالكة على مغادرة المدينة واللجوء إلى إيمار على الفرات، حيث يعيش أقارب لهم. أما إدريمي نفسه فلم يمكث هنالك لوقت طويل، بل غادر إيمار واجتاز الصحراء وعاش سبع سنين في بلاد كنعان، أي المنطقة الساحلية في جنوبي سورية. بعدئذ، وبعد أن أقسم يمين الولاء لملك ميتاني، سمح له باتخاذ مقامٍ في آلالاخ. ويذكر في «سيرته الذاتية، تيشوب»، أي إله الطقس في التقاليد الحورية، باعتباره الإله الأعلى مقاماً عنده. وهذا بالتأكيد لم يكن استمراراً لديانة حلب فحسب، بل للتقاليد الدينية الاقليمية في شمال غربي سورية.

هذا ما تعززه النصوص المسمارية من أرشيف أوغاريت / رأس شمرا التي تعود بتاريخها إلى ما بين القرن الرابع عشر وأوائل القرن الثاني عشر ق.م. لقد كشفت التنقيبات في هذا الموقع الهام مسلة تصور إله الطقس في وضعية مبارزة وفي يديه هراوة وبرق. وشكل الرجل الصغير إلى جواره يمكن أن يعبر عن دور إله الطقس المسمى بعل («السيد») في المادة النقشية بصفته حارساً للملك وأسرته ـ كما هو معروف أيضاً بالنسبة لإدريمي الموكيشي وأسلافه. يقف الإله على جبال أعتقد أنها تقع على ساحل البحر، الأمر الذي أصبح واضحاً أيضاً من خلال النصوص الدينية والأدبية المكتشفة في أرشيف أوغاريت. وبحسب تقليد أسطوري، يمكن إرجاعه إلى عصر أرشيف ماري، خاض إله الطقس (بعل) معركة ناجحة ضد إله البحر، يم. والنصر الذي أحرزه بمساعدة عاصفة تسوط موج البحر جعله إلهاً مهماً لكل أولئك الذين يغامرون بالتجارة عبر البحر، وهذه المأثرة الإلهية هي بالتأكيد التي لعبت دوراً في تميزه كإله للتجارة البحرية لاحقاً. وحسب المواد النقشية من أوغاريت، فإن معركة بعل الأسطورية ضد يم، ربما وقعت في الخليج شمال رأس البسيط على سفح جبل كان يعتبر مقراً للإله بعل، جبل الأقرع. وتخبرنا النصوص الأدبية من أوغاريت قصة بناء قصر لبعل على قمة جبل صفون / زفون، الذي يسمى هازي في الوثائق الحثية وسابونا / سابون في التقاليد المصرية والتوراتية وقاسيون في الإغريقية وكاسيوس في اللاتينية. وهذا الجبل، الذي يشاهد بوضوح من أوغاريت، في حال كان الطقس جميلاً، والذي كان أيضاً عوناً لتجار البحر في تحديد مواقعهم، كان مبجلاً بصفته مكان سكنى بعل، «راكب الغيوم» وجالب البرق والمطر. وتذكر النصوص البعلية من أوغاريت إله كوشار وخاسيس Koshar wa-Hasis، موطنه كريت، وهو سيد خبير في كل أنواع المهن اليدوية، باعتباره مهندس قصر بعل في جبل صفون. قد يعبر ذلك عن الصلات الثقافية والتجارية بين سورية الشمالية وكريت ومناطق الثقافة الإيجية الأخرى الأمر الذي تشير إليه بوضوح أيضاً المواد الأثرية المكتشفة في مواقع مختلفة من سورية. وقد تجرأ بعل، الذي أحرز النصر على يم، حتى على السخرية من إله الموت «موت»، وقد دفع حياته ثمناً لذلك وأصبح صفون مدفناً له، لكن الإله عاد إلى الحياة بعد ذلك. وعندما عاد بعل إلى عالم الأحياء بدأت الطبيعة تنتعش مرة أخرى، وهذا ما أضاف إلى مقدرات بعل سمة موسمية. وعلاوة على ذلك، اكتسب بعل مظهراً عاماً كربٍ ذي تجليات محلية من بينها بعل الحلبي «بعل حلب». وقد استطاع بعل، الشاب، الإله الجلد المحارب، أن يبارز إيل، أبا الآلهة، الذي كان عادة ما يصور كشيخ جالسٍ، وكان قادراً على نيل المقام الأول في مجمع الآلهة. ولعل بعل وإيل كليهما يمثلان وجهي الحياة: فقد ساد الإعتقاد بأن إيل محافظ وحافظ في حين يظهر بعل كإله متحول ومتحرك.

للتقاليد الأسطورية والأيكونغرافية (الأتقية) الأوغاريتية نقاط احتكاك وتداخل عديدة مع الموروث الثقافي لبلدان شرق المتوسط الأخرى، وبخاصة مصر وقبرص وكريت والحضارة الميسينية. وهذا ما تشير إليه أيضاً المواد الأثرية ذات الصلة ـ ليس فقط بسبب انتشارها بل أيضاً بسبب أيقونياتها. إن الاحتكاك ما بين المناطق المختلفة «لثقافة شرق البحر المتوسط» في أواخر العصر البرونزي كانت قائمة بصورة أساسية على التجارة وهذه الأرضية (الخلفية) بالذات التي يمكن أن توضح وجود بعل الذي يصور بأسلوب سوري على أختام من قبرص والمنطقة الإيجية. ويظهر بعل، السيث المصري، أيضاً على طبعة

ختم اكتشف في تل الدبع، أفاريز القديمة، في دلتا النيل الشرقية، حيث يمكن أن معبداً خصص له. بالرغم من الأسلوب والتركيب الشديدي الخصوصية، فإن الحافز الأساسي يناظر الإيكونغرافية المعروفة جيداً في سورية: فإله الطقس يقف على جبلين، يحمل في إحدى يديه هراوة وفي الأخرى فأساً ذات حد متقطع (محزوز). يقف خلفه رمزه الحيواني، الثور، موضوعاً فوق زخرفة سورية. إن صلة الإله المحارب هذا مع «تجارة» البحر تشير إليها سفينة مبحرة بالفلزات. وهذا الإله على الختم المصري يمكن مطابقته لهذه الأسباب بصفته إله صفون، أو في المصرية سبت صابونا، وهو اسم يظهر في النصوص الهيروغليفية المصرية ـ ومن بينها مسلة من أوغاريت ـ خلال حكم السلالة التاسعة عشرة لمصر.

ومادمنا قد وصلنا في تقصينا هذا إلى نهاية العصر البرونزي، أي حوالي ١٢٠٠ق.م، لابد من ذكر نصوص إيمار/مسكنه، التي تعطينا معلومات إضافية حول إله الطقس السوري. ففي موقع هذا الميناء على الفرات الذي لعب دوراً وسيطاً في التجارة بين الرافدين وشمالي سورية، حظي بعل بمعبد جيد التجهيز خاص به. ويمكن اعتبار طقس كان يؤدى عند تقديم كاهنة بعل، باعتباره توليفة لها أصول في حلب. وكما يبدو، فقد أصبح بعل الآن، الإله المستوطن أصلاً في البقاع الساحلية للمشرق، أحد أسياد هذه المدينة، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الإله داغان وله معبد مشترك مع ديانة عشتروت. وهذا ما يمكن توضيحه من خلال حقيقة أن بعل حظي بمنافسة أوسع، لأنه لم يكن مجرد إله نمطي للطقس. وهذا الجانب الأكثر شيوعاً لبعل كان أيضاً الشرط المسبق للأهمية التي اكتسبها خلال القرون التي تلت ذلك، حينما انتشر الآراميون من البوادي السورية إلى تلك المناطق السورية التي شاركت سابقاً في حضارة شرق المتوسط في أواخر عصر البرونز، وأفلح الفينيقيون بإحياء وتوسيع الصلات التجارية مع حضارات مراكز المتوسط.

وفي الفترة الفاصلة بين عصر البرونز وعصر الحديد، الفترة التي اتسمت بالتغيرات العميقة في اللوحة العرقية والسياسية والتي يسميها المؤرخون أحياناً بصورة غير صحيحة بوصفها «عصر ظلام»، لم يستمر تبجيل إله الطقس السوري القديم ـ الذي أصبح الآن الرب «بعل» ـ بل اكتسب بعداً جديداً، وكإله شائع نوعاً ما ذي كفاءة عالية استطاع أن يجذب المتعبدين في منطقة أوسع من تلك التي كان الناس يعبدون الجانب الخاص بإله طقس. من جهة أخرى، أدى هذا التطور إلى ضرورة خلق مزيد من التجليات المحلية ـ ولربما في هذا السياق استطاع بعل صفون أيضاً أن ينال اهتماماً خاصاً. لقد خلفت مواطن الآراميين واللوفيين («الحثيين») في سورية شواهد كتابية ونحتية غنية على استمرار تبجيل بعل ـ أو حدد، كما كان يدعى في ذلك الحين في النقوش الآرامية بصفة خاصة، وقد توضعت مراكز ديانته بصورة رئيسية ضمن المناطق التي كانت تهيمن عليها الزراعة البعلية، ويمكن للأوابد من غوزانا/تل حلف ومن عين دار أن تخدم كمجموعات عمرانية مؤثرة، تذكرنا بالإله بعل. وقد اكتشفت المسلات التي تصور الإله بعل/حدد في عدة مواقع في سورية وشمالي بلاد الرافدين، وهي تنحو بصورة رئيسية منحى الايكونغرافيا المعروفة سابقاً من عصر البرونز. واكتشاف المسلة التي تُظهر إله الطقس في أيقنتة (نحته) السورية النمطية بين خرائب قصر نبوخذ نصر الثاني في بابل تشير إلى العادة الشهيرة ليس في ترحيل أقسام من سكان البلدان المخضعة بل في إزاحة آلهتهم أيضاً ـ على شكل تماثيل وعروش أو أية رموز أخرى. تعود النقوش اللوفية (الحثية) الهيروغليفية للمسلة بتاريخها إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وتأتي على ذكر إله الطقس الحلبي. وفي نقشٍ آشوري من عهد الملك تغلات بلاسر الثالث (القرن الثامن) يصور عملية نقل للآلهة، ومن بينها إله الطقس، بعد حملة عسكرية ناجحة على سورية. وتشير الحوليات الآشورية أيضاً إلى بعل صفون/بعلي ـ صابونا باعتباره اسماً جغرافياً، ويأتي من نفس الفترة تقريباً دليل على تبجيل بعل وتجليه بوصفه بعل صفون من العهد القديم، مشيراً أيضاً إلى الدور العظيم الذي لعبه هذا الإله في فلسطين خلال عهد ملوك اسرائيل ويهوذا. وقد جلب التوسع التجاري الفينيقي المنطلق من مدن الساحل السوري، ثم من قرطاجنة أيضاً ديانة بعل صفون إلى أقسام المتوسط المركزية والغربية.

لم ينته تبجيل إله الطقس والعواصف بعد فتح الاسكندر الكبير للشرق الأدنى، الذي عمق على نحو حاسم التأثير اليوناني أيضاً في منطقة كان بعل/حدد مايزال

إلهاً رفيع المقام فيها . ويبدو هنالك نوع من إحياء بعض التقاليد المرتبطة بجبل الأقرع / صفون، ولربما كان للمدن المزدهرة كأنطاكية وسلوقية الواقعتين قرب الجبل دوراً بهذا التطور . وعاد اسم الحزي Hazzi إلى الظهور بوصفه قاسيون بالإغريقية وكاسيوس باللاتينية وزيوس أوجوبيتر وكلاهما يحملان بعض صفات إله الطقس، ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالأماكن المرتفعة أو الجبال، وقد أصبحا الآلهة الجدد لجبل الأقرع . إن صراع بعل مع سلطان البحر، تقليد هام آخر لكل تجار البحر، استمر بشكل جلي في الأسطورة الاغريقية في المعركة ضد تيفون Typhon، بل واقْترح ربط اسم تيفون باسم جبل صفون . وحتى لو لم يكن لهذا الربط أي مغزى بالنسبة لتقاليد إله الطقس والعواصف السوري الشمالي، فهو يشير إلى تقليد دام طويلاً في ذاكرة الشعب السوري . إذ حتى يومنا هذا تدعى المناطق التي يرويها ماء المطر بـ « الأرض البعل » ـ أرض الإله بعل ـ فهل هي ذكرى طال بها العهد لإله طقس سورية القديمة؟

حلب والطرق التجارية المشرقية في العهود الهلنستية والرومانية

جان شارل بالتي

تعريب: غادة الحسين

جرى تبني وتطوير نظرية هنري سيريغ [٢] التي طرحها في إحدى مقالاته خلال ندوة **دلف** التي انعقدت عام ١٩٦٨ حول «المراكز السلوقية في سورية الشمالية[١]». لقد كشف هنري سيريغ عن الدور الاقتصادي الحقيقي لهذه المدن، كونها نقاط عبور على امتداد آسيا. لقد جنى سلوقس الأول وبعد انتصاره على ايبسوس عام (٣٠١ ق.م) فوائد جمَّة من هذه التجارة المتجهة نحو البوابات السورية ـ الفينيقية منذ تلك الأزمنة السحيقة.

كانت حلب منطلقاً لتجارة عبور بين المشرق والمغرب في منتصف الطريق بين منعطف نهر الفرات والبحر الأبيض المتوسط منذ الألف الثاني، واستمرت أهميتها عبر القرون.[٣] إذاً لن يدهشنا وجود معمرة سلوقية في هذا المكان[٤]، ولسنا أول المؤرخين الذين يتناولون هذه المسألة[٥]. إن المعمرة بناء عسكري حصراً، ومكان حصين يشكل جزءاً من نظام دفاعي منظم بدقة. لقد أمن سلوقس بفضل موقع حلب في نقطة التقاء طريقين كبيرين بين آسيا الوسطى ووادي دجلة والفرات، السيطرة على نقاط مرور إجبارية لهذه التجارة المربحة. فحلت مباشرة المدن الهلنستية والرومانية الكبرى في شمالي سورية محل عواصم الممالك والمراكز الاقتصادية القديمة في الألفين الثاني والثالث ق.م، وتابعت القوافل التجارية المرور عبر المناطق الحساسة انطلاقاً من بلد مفتوح على العالم. فقد أُسست مدينة اللاذقية بالقرب من أوغاريت ومدينة السويدية بالقرب من مدينة المينا وآفاميا على نفس موقع مدينة نيجا، وبيره على موقع حلب وعلى الطرف الآخر من سهل العمق، ولعبت أنطاكية الدور الذي كان يلعبه تل عطشانة (آلالاخ سابقاً) [٦]. ولاتخفى على أحد القدرة الاقتصادية الخارقة لهذه المدن. ويبدو لي أن المشكلة تكمن في ديمومة هذه المحطات على الطرق والمسافات عبر المشرق أكثر مما تكمن في تغيرها. أما فيما يتعلق بمنهجية سلوقس، فهي بالرغم من ندرة الشواهد والدلائل الأثرية التي وجدت عقب أعمال المسح والتنقيب القليلة، فإنها لم تكن منهجية عسكرية صرفة[٧]، لأنها لاتتفق وظروف المنطقة الصحراوية. لقد بالغ سيريغ في إيلاء الثقة بشاهد واحد، قدمه نقلاً عن الكاتب اليوناني كسينوفون، فقد اعتبر أنه من الفترة التي كتب فيها كسينوفون حكاية «**الأنباس**»، أن منطقة نفوذ الفرس شملت جزءاً كبيراً من المنطقة الواقعة بين حوض المتوسط ومنعطف نهر الفرات مع أن هذه المنطقة على مايبدو أيضاً كانت عبارة عن مجموعة من القرى، مما سهل ـ بحسب رأيه ـ إقامة المستوطنات من العدم تقريباً ضمن هذه المنطقة الواسعة التي حافظت بفضل سلوقس على وضعها كأرض ملكية[١٠] وكما أوضحت لما عُرض خلال ندوة دلف[١١] فإنه من الممكن تفسير كون حلب لم تكن مزدهرة في القرن الأول شأنها في القرن الثاني ق.م، وذلك لأنها كانت عبارة

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

عن أطلال خلال فترة تأسيس بيروا (وقد بيَّن جورج سيردينوس أن سلوقس قد وسّع حلب [١٢]، فأصبح التل الذي يقع عليه معبد حدد / تيشوب هو مركز المدينة اليونانية ـ الرومانية [١٣] في فترة لاحقة بطبيعة الحال. وهذا مابينه مخطط لنفس المرحلة تم العثور عليه لاحقاً[١٤]. وذلك قبل أن يصبح المعبد هو قلعة المدينة . وقد قام الامبراطور جوليان ٣٦٣م[١٥] بزيارتها ليقدم الأضاحي للإله زيوس مما يدل على أن العبادات استمرت لعدة قرون، وكذلك فإن المكونات الأساسية الطبوغرافية للمدينة القديمة لم تتغير. وإن التداخل الكبير بين الحضارات في هذا الموقع يصعّب من عملية إعادة بناء المخطط الأصلي للمدينة القديمة، بالرغم من أن بعض محاوره ظهرت بوضوح في النسيج المدني الحالي[١٦].

لقد بدت بيروا في الرسالة التي أعلم جوليان فيها ليبانيوس بالمراحل الأولى لحملته ضد الفرس[١٧] أو على لوحة بوتنجر[١٨] الجغرافية بوصفها محطة إجبارية على الطريق الذي يصل أنطاكية بمنبج[١٩] وبالفرات الذي تغيرت نقاط عبوره حسب العصور، فإما من كايسيلينا أو من **زوجما** / سلوقية التي كانت نقطة انطلاق للقوافل التي كانت تصل حتى باكتيريان، بحسب ماذكر في المقدمة التي كتبها إيزدور دو شاراكس في بداية القرن الأول[٢١]. ومما يدل على الأهمية الجغرافية الاستثنائية لمدينة زوجما هو وجود مكتب لتحصيل الرسوم الجمركية[٢٢] يشبه المكاتب التي تصدرت مداخل الأراضي الرومانية على كافة الطرق التجارية للإمبراطورية من جهة، ومن جهة أخرى وجود معسكر لواحدة من الفرق الأربعة التي خصصت لحماية المنطقة (و على الأرجح كانت في البداية الفرقة العاشرة المسماة **فريتنسيس**، ثم الفرقة الرابعة المسماة **الستينية** خلال عهد الامبراطور فيسبازيان[٢٣]) . وقد أكدت وثائق مختلفة والتي من العبث إعادة دراستها، على أهمية هذا الجزء من الطريق الذي يصل حلب وزوجما بإديسا[٢٤] وبنصيبين[٢٥] وهي مدن « فريدة » وكانت « تضج بالنشاط » خلال منتصف القرن الرابع ولديها « أفضل الرجال » وكانوا « ماهرين في أعمالهم » « أغنياء ولديهم من كل الممتلكات » يستوفون من الفرس مايبيعونه في بلاد الرومان ومايشترونه منها، يبيعونه لهم بدورهم[٢٦]. وكان آميان مارسيلان قد أوضح بنفس الوقت أن بتنه (سروج)،

الواقعة على منابع نهر البليخ على نفس الطريق التجاري الرئيسي كانت تكتظ بالتجار الأغنياء خلال العيد السنوي في بداية أيلول، حيث تجتمع مجموعة كبيرة من الناس من طبقات مختلفة ليتبادلوا المنتجات من الهند والصين ولتبادل سلع أخرى تجلب بكميات كبيرة وبشكل منتظم براً وبحراً [٢٧] تأتيهم على ظهور القوافل. وتظهر ذلك رسالة من ورود دو بيث فورايا إلى ابنه نيسريور،يشار فيها إلى استئجار الجِمَال من حلب إلى زوجما قبل منتصف القرن الثالث بقليل[٢٨] وبغض النظر عن سير الرحلة المختارة بالنظر إلى الأحداث السياسية. وعلى كل حال، ففي حلب، نجد الطريق المرصوف جزئياً، والذي وصفه جوليا خلال مروره بمستنقعات وادي العمق وتلال الكتلة الكلسية[٢٩] وبقي هذا الطريق على نفس الحال بالقرب من هضبة **أكبرين**[٣٠]، و تتلاقى معه شبكة الطرق الرومانية المرصوفة في أنطاكية[٣١]. وتذكر لائحة بوتنجر الجغرافية، أن مدن نصيبين وإديسا وزوجما وحلب بقيت مرتبطة دائماً ببعضها في نقل السلع الغذائية التي تعبر أقاصي الامبراطورية الرومانية، علاوة على أن هذه التجارة تجاوزت التعامل مع القبائل البربرية المجاورة بحسب ماذُكر في لائحة بوتنجر. ومن هنا تتأتى أهمية هذه المدن الواقعة على هذه الطرق. لقد غابت نصبين عن المسرح بعد ذلك بقليل ، واتبعت للفرس خلال عهد الحاكم الفارسي جوفيان عام ٣٦٣م مقابل مقايضتها بالسلام معهم[٣٢]. وإن خسرت إديسا الكثير من نفوذها الاقتصادي فلأنها تعرضت للغزاة. أما زوجما فقد صغرت مساحتها منذ منتصف القرن الثالث على أثر غزو الامبراطور شابور حوالي منتصف القرن السادس وتنازلت لبرسيك عن دورها العسكري على نقطة عبور النهر[٣٤]، الذي أنيط بها حصراً منذ وقت طويل. لكن حلب، بالرغم من الحملات الساسانية (الفارسية). التي لم تبلغ أهدافها على الأرجح إلا بشكل سطحي، فقد حافظت على قوتها الاقتصادية حتى غزو عام ٥٤٠م، واستفاقت بسرعة من دمارها في هذا الوقت. ودلالة على غناها في القرن السادس، فقد فرض عليها خسرو جزية قيمتها ٤٠٠٠ ليرة فضية (وأحرقها الفرس كلياً[٣٥] لأنها لم تدفع سوى نصف قيمة هذه الجزية، بينما تحتم على آفاميا دفع ١٠٠٠ ليرة[٣٦]. فانتقلت مع كامل شمالي سورية

ليحكمها حكام جدد للمنطقة بعد معركة اليرموك والفتح. وهي بالنسبة لمنافساتها كانت الأبعد عن الحدود، فكانت تقع في قلب المقاطعة الرومانية ثم البيزنطية ضمن ولاية سورية الأولى. ولكونها كانت تقع في منطقة مزدهرة فإن التغيرات السياسية الكبيرة لم تؤثر على مستوى التبادل، فكانت إحدى الممالك الأُولى التي صكت العملة في عهد الخلفاء الأمويين منذ إصلاح الخليفة عبد الملك (٦٩٣ / ٦٩٤م = ٧٤هـجري، وهو زمن الاصدارات المأثورة في عهد الخليفة الحاكم[٣٧]. وهذا مايشير للتطور الاقتصادي الكبير للمدينة القديمة.

إضافات المترجم:

زوجما: تعني النير الذي يربط بين الحيوانات، ويقصد بهذا التشبيه أن مدينة زوجما كانت تربط بين المدن.

دلف: ندوة عقدت في اليونان عام ١٩٦٨.

فريتنسيس: اسم لأحدى فرق الجيش الروماني

الستينية: لقب لأحدى فرق الجيش الروماني، نسبة لشعب موطنه أواسط روسيا.

هضبة اكبرين: تقع بالقرب من قلعة سمعان.

الأنباس: حكاية كتبها الكاتب اليوناني كسينوفون.

الفسيفساء والمنسوجات في سورية الشمالية

جانين بالتي

تعريب: أحمد طرقجي وإبراهيم توكلنا

إن الهدف من هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على العلاقات بين التقاليد الزخرفية للفسيفساء وبين التقاليد الزخرفية للمنسوجات، ومحاولة بيان الفترة التي ظهرت فيها هذه الروابط، وبأي طريقة ظهرت، ولأي سبب ظهرت. وتعكس هذه الدراسة مشكلتين رئيستين في آن معاً: الشك، سواءً في تواريخ الفسيفساء أو في تواريخ المنسوجات والتباين الكبير في حفظ الوثائق بحسب الأماكن، فبينما كان عمل الفسيفساء معروفاً في الشرق، ولاسيما في الولايات القديمة لسورية وفينيقيا وفلسطين، فإن المنسوجات قد جاءت «بالنسبة للفترة التي تهمنا» ـ بشكل عام ـ من مصر.

رغم هذه الصعوبات، فإننا نلاحظ بأن المقارنات التي تقدمها لنا الوثائق المختلفة تكشف عن تجانس مدهش بين المجموعتين (الفسيفساء والمنسوجات)، وتشهد على تطورات متوازية وتأثيرات مشتركة أو متبادلة بينهما.

سأبدأ من المجال الأكثر بساطة وسأتكلم أولاً، من خلال الخطوط العريضة، عن تطور الفسيفساء في سورية. إن تقنية الرصف بالفسيفساء، والمتحدرة مباشرة من فن الفسيفساء الهلينستي الذي يرمز له «بلوحة صغيرة مطّعمة»، قد بقيت مرتبطة بجذورها طوال العهد الروماني. فنجد مثلاً تشكيلاً متسلسلاً من الفسيفساء، فوق خلفية هندسية محايدة، يمثل لوحة مصورة معالجة بخداع بصري، ذات موضوع أسطوري أو ملحمي عموماً. إن هذا الاختيار الجمالي الذي استخدم حجارة الفسيفساء لعمل رسوم فنية قد استطاع البقاء حتى أواخر القرن الرابع الميلادي على الأقل. وهذا ثابت أيضاً في مجال تزيين المنسوجات، حيث يظهر واضحاً في الرسومات المشهورة على المفروشات الصوفية الموجودة في متحف بوشكين (مصدرها بانوبوليس، مصر) التي تمثل رب النيل (الشكل ١) والتي تشبه، في أسلوب إدخالها لرسم تصويري داخل مواد مختلفة، صورة جي (الشكل ٢) مكتشفة في أفامية. وبدأت أصول الفسيفساء الرمزية في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي تميل نحو الزوال لحساب التصور الموحد للمعاني المجردة في رصف الفسيفساء، بينما بقيت المواضيع الغنية بالثقافة الكلاسيكية سائدة، ولكنها نظمت وفق تشكيلات متناظرة خالية من التدرج. ونستشهد على ذلك بعدة أمثلة مثل: «ڤيلا كونستانتينيين» في أنطاكية، ولوحة الآلهة والحكماء أو لوحة الفصول الأربعة في أفامية. ونجد أن إمكانيات المقاربة مع تشكيلات المنسوجات كانت متعددة. وبعد ذلك بفترة قصيرة ومع استمرارية الزخرفة الهندسية المألوفة على طراز «قوس قزح» بدأ الرصف بالفسيفساء يكتسب تدريجياً صفة السجادة الحقيقية.

لكن منذ نهاية القرن الرابع والعقود الأولى من القرن الخامس الميلادي أخذت المجموعات الزخرفية تشهد اتساعاً

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

كبيراً، فإلى جانب الموضوعات التي أصبحت مبتذلة ظهرت ابتكارات جديدة لتشابكات زهرية وتربيعات من كل نوع وأنصاف أزاهير صغيرة، مملوءة بتربيعات منسقة وشارات بأشكال قوس قزح، ومترافقة، أو غير مترافقة مع موضوعات نباتية وحيوانية، كل هذا على خلفية ذات تربيعات أو معينات أو مثمنات ومصلبات أو تعرجات متعامدة أو مائلة أو حتى كرات متقاطعة. في غضون عشرين سنة أو أقل من ذلك، ولأسباب اجتماعية واضحة، حدث تحول جوهري في مجموعات وصف الفسيفساء، ولكن تنقصنا الأدلة ذات التاريخ المثبت. وسنسلط الضوء الآن على مصادر هذا التجديد العميق.

منذ اكتشاف فسيفساء أنطاكية في الثلاثينات من هذا القرن لفت الأستاذان س.ر.موريه وجان لاسو الانتباه إلى النجاح المفاجىء والمفرح في آن معاً، حيث لاحظا أن التشكيلات الوردية ذات التربيعات أو التزيينات الصغيرة قد كانت موجودة بدءاً من القرن الخامس الميلادي وبقوة، لاسيما في طريقة الإدخال المباشر لصورة حيوان في الخلفية، ويظهر هذا جلياً بشكل خاص في الطريقة المستخدمة على فسيفساء لوحة «الأسد المنطلق» أو في لوحة «العنقاء». وعلى قاعدة المقارنات المتبعة فإن كلا الكاتبين قد أعادا أصل هذه الابداعات الجديدة إلى التأثر بمجموعات الزخرفة النسيجية. وقد اعترض «دورو ليڤي» في كتابه «فرضيات حول فسيفساء أنطاكية» على القول بأن تاريخ المنسوجات، التي هي مجال بحثنا هنا، أحدث من تاريخ رصف الفسيفساء، وأن التزيينات الصغيرة ما هي إلا نتائج التطور الداخلي لموضوعات زخرفية قد استخدمت سابقاً في الفسيفساء. لن أدخل في تفاصيل الفرضيات، ولكن سأقف فقط عند فرضية العالم الإيطالي «ايرڤينغ لاڤان» بأنه لم يكن للمنسوجات تأثير كبير. ولقد أخذ على عاتقه إثبات هذه النظرية عند دراسته لفسيفساء الصيد في أنطاكية. لكن «سيسيل دولبير» قد أعادت، خلال دراستها لفسيفساء أروقة أفامية عام ١٩٧٤، فحص هذا الملف، حيث عادت إلى الفكرة القائلة بالدور الكبير للنسيج في انتشار بعض الموضوعات الزخرفية. وهذه النظرية هي التي بدت لي مقنعة منذ بداية بحوثي حول فسيفساء سورية. أما ما أريده الآن فهو أن أدعم هذه النظرية بوثائق غير منشورة وأوضحها بمقارنات جديدة.

إن المكتشفات والمنشورات الحديثة قد حملت لهذه المناقشة عدداً من العناصر الجديدة التي لم تستثمر بشكل كاف حتى الآن. ففسيفساء لوحة «موسيقيي حماه» والتي كثيراً ما يستشهد بها لأهميتها الفنية والأيقونية الكبيرة، تقدم، فضلاً عن أهميتها تلك، مثالاً نادراً لرسمة نسيج، وكذلك السجادة الحريرية ذات اللون الزيتي والتي تغطي دعامة الأرغن (الشكل ٣)، والمزخرفة بتربيعات نجمية، تمثل أفضل مقارن لفسيفساء سجادة أنطاكية الخضراء (الشكل ٤). ومن المقارنات المدهشة الأخرى في القرن الخامس الميلادي، تلك القائمة بين التزيينات الصغيرة للورود والأزرار، التي تشكل إطاراً للوحة أنطاكية المشهورة «الأسد المزين بالشريط» من جهة، وبين المنسوجات الكتانية الكثيرة القادمة من مصر من جهة أخرى. لكن التربيعات والتزيينات الصغيرة تشكل زخارف نموذجية للستائر وللبسط ويمكننا أن نزيد في لائحة الأمثلة دون عناء يذكر. ومما لا شك فيه أن إظهار الروابط بين المنسوجات والفسيفساء هو الأمر الأكثر أهمية، ولكن يمكننا أن نذهب أبعد من ذلك فنقول أنهما تشتركان بمجموعة الأزاهير الصغيرة نفسها. وبطريقة أكثر شمولية فإن تكوينات ومواضيع الملء الزخرفية تشكل بلا شك مجالاً خصباً للمقارنة. ومن الضروري أن نشير هنا إلى التشابه في المخطط التكويني بين فسيفساء سجادة قاعة الاستقبال (قاعة A) في بيت الوعل في أفامية (مستطيل مركزي محاط بعدة أطر) وبين سجادة النقط المعقودة المصنوعة في مصر والمحفوظة في متحف الميتروبوليتان في نيويورك. والمدهش أكثر هو ذلك الشغف بتكوينات التشبيك الزهري الذي نراه مشتركاً بين مجموعات النسيج ومجموعات الفسيفساء وفي الفترة نفسها تحديداً. فكل رسومات المنسوجات القطنية النافرة، الحاملة لهذا الطراز من الزخرفة والتي تزين، إضافة لذلك، الألبسة والبسط والأغطية، يعود تاريخها، بحسب رأي كثير من الباحثين الذين درسوها، إلى القرنين الرابع والخامس. وحوالي نهاية القرن الرابع ظهر عمل التشبيك الزهري في مجموعات الفسيفساء، ووصلت المهارة في تصنيعه ذروتها خلال العقد

الثاني من القرن الخامس، ويشهد على ذلك سجاد كاتدرائية حماة الذي تؤرخه النقوش في سنة ٤١٦م، ولا يمكن أن يكون هذا التطابق في التواريخ مصادفة أبداً.

نجد كثيراً من الموضوعات الزخرفية المشتركة بين المجموعتين (النسيج والفسيفساء) ذات أصول إيرانية. ويجب التذكير هنا بأطر رؤوس الأكباش في لوحة فسيفساء «العنقاء» التي مر معنا ذكرها، من أنطاكية. ونجد أيضاً منسوجات من أنطاكية تزودنا بأمثلة دقيقة الشبه. ونلاحظ أن المقطع الجانبي للحيوان هو نفسه من حيث الانخفاض الحاصل في قرونه المتباعدة. إن الوشاح الكبير الذي يمتد خلف العنق يمثل مرجعاً مباشراً لصورة العاهل الساساني المنتشرة بشكل واسع في أيقنة الصحون الفضية. إن هذا الوشاح الساساني والذي هو في الحقيقة رمز ملكي، قد عرف غنى كبيراً في زخرفة الفسيفساء الشرقية المتأخرة. وإن لوحة «الأسد الموشح» من أنطاكية هي بالتأكيد المثال الأكثر شهرة في هذا المجال. ولكن كيف لا نستشهد أيضاً، بمناسبة انعقاد هذه الندوة في حلب، بصورة الدب الواثب الجميلة، المنفذة بعناية متقنة على خلفية ذات زخارف حرشفية متناسقة، والمحفوظة في هذه المدينة نفسها، في المتحف الوطني.

إن الميل للتصاوير الحيوانية ولمشاهد الصيد التي اجتاحت الفسيفساء الشرقية بأعداد كبيرة خلال القرن الخامس، قد كونت برأيي، ليس أقل من مظهر آخر من مظاهر تأثير المنتجات الساسانية على فن الامبراطورية البيزنطية. إذا كانت المواضيع الزخرفية نفسها قد ظهرت بشكل أكيد منذ فترة طويلة في المجموعة الكلاسيكية، فإن الأخذ المطلق لها إضافة إلى طريقة معالجتها، قد أدتا إلى ظهورها، واضحة في ظاهرة التحول نحو «الذوق الفارسي» الذي سطع كامل هذه الفترة. وفي هذا الصدد لدينا قطعتان معبرتان من فسيفساء أفامية (الشكل ٥ و٦) تحوي كلتاهما موضوعاً أسطورياً (الأمازونيات، نساء من عرق خرافي من المحاربات، والفارسة ملياقر، أطلنت، بطلة إغريقية أسطورية مشهورة برشاقتها وسرعتها)، وهما من حيث خلفيتهما ترتبطان بالتقاليد الإغريقية، ومع ذلك فهما تنضويان تحت أسلوب الصيد الملكي الفارسي.

وهناك عدة تفاصيل لايمكن لنا أن نغفلها: صورة الحصان «المجنح في عدوه السريع»، بقائمتيه الخلفيتين المرتفعتين عن الأرض، الحركة الدورانية للفارس (الذي هو هنا أطلانت) الملتفت لمهاجمة الوحش الذي يطارده، بسهم، المكان المتروك للحيوان المجروح في القسم الأسفل من الصورة، تحت بطن الحصان، التاج المزخرف بالأحجار الكريمة الذي يزين رأس الفارسة ميامتر وأخيراً التشكيل، رتيب ومكرر وكثيراً ما نصادفه في الفن الساساني. وللمصادفة السعيدة نجد أن لكل واحدة من قطع الفسيفساء المرصوفة في أفامية، شبيهاً دقيقاً في مجال المنسوجات (الشكل ٧ و٨). ونستطيع أن نشبه قطعة فسيفساء أمازونيات بقطعة نسيج من أصل مصري محفوظة في متحف كلوقولاند. ورغم الاختلاف في أبعاد وقياسات القطعتين إلا أن المقارنة بين الأعمال المنفذة فيها مقنعة. وهناك موضوع سائد بشكل كبير في زخرفة الفسيفساء يمثل أمازونيتين، متشابهتين فيما بينهما (مع خطأ في المكان، حيث نجد أن الصورة التي على اليمين ليست مزودة بقلنسوة) تمتطيان جوادين باتجاه يمين المشاهد. كما هو الحال في فسيفساء أفامية، وترفعان حجراً كبيراً. والمشهد محصور ضمن إطار مزخرف بزهرات الأقنثيا ومملوء برسوم حيوانية. إن صور الفسيفساء هذه مكسوة كلها بالرداء القصير نفسه، وتضع القلنسوة نفسها، وترتدي الجزمة ذات الثنيات نفسها، إضافة إلى ذلك يظهر جانبياً ثلاثة أرباع طولها وهي جالسة بخفة على دابة. ويبدو فهد وأسد تحت حوافر الخيل. إن هذه القطعة من القماش لم تقارن إلى الآن مع فسيفساء أفامية، وكذلك فإن فكرة الأمازونيات لم تكن معروفة هناك. إن فسيفساء الفارسة مياقر وأطلانت لها شبيه في قطعة قماش أخرى من أصل مصري، مباعة في لوسير (مدينة سويسرية) عام ١٩٦٢، ومكان حفظها مجهول لدي. إن المشهد المركزي المحاط بزخارف زهرة الأقنثيا والمعبأ بموضوع واحد، كان سائداً فيما سبق، أرنب هارب، هذا المشهد يذكر بقطعة قماش الأمازونيات مع وجود بعض الاختلافات الهامة بينهما، ففي حين أن الأحصنة تسير كلها في اتجاه واحد، فإن الشخصيات، المحاطة هنا بهالة، يلتفت الواحد منها نحو الآخر، مذكرة في النهاية أكثر بتشكيل فسيفساء الفارسة مياقر وأطلانت المقترب نحو المركز.

رغم أن الاهتراء الذي أصاب السطح لا يسمح بتمييز تفاصيل الألبسة بوضوح لكن تفحص الشخصيات لا يؤدي إلا إلى الحيرة في قطعة القماش وفي الفسيفساء المرصوفة: فأطلانت معروفة بتاجها وبوشاحها الذي ينفخ فيه الهواء من الخلف نتيجة الجري، والفارسة مياقر التي تزين رأسها بتاج على الطريقة الفارسية، كما هو على قطعة الفسيفساء، وترتدي بدلاً من القلنسوة، جلد حيوان، إشارة ربما إلى انتصارها على خنزير كاليدون البري. أما في القسم الأسفل من اللوحة فنجد الوحوش التي تعدو. ويجب أن نشير بشكل خاص إلى موضوع الفهد الملتفت حيث نجده أيضاً على فسيفساء الأمازونيات.

إن قطعتي القماش المؤرختين بـالقرنين الرابع والخامس الميلاديين مرتبطتان، على مستوى الزخرفة الأيقونية، بالانتاج الكبير للمرصعات المسماه «الفارس القبطي» صورة الفارس هذه المرسومة على القماش والتي غالباً ما اعتبرت رمزاً لوادي النيل، كانت مرتبطة بشكل عام بأفكار الصيد. أما أنا، فلا أستطيع، من جهتي، أن أعتمد هذه الفكرة، لأننا قد نسينا بسرعة بأنه إذا كانت مصر هي وحدها التي احتفظت بمنسوجات من تلك الحقبة، وذلك يعود إلى طقسها الجاف، إلا أن المناطق الأخرى، لاسيما سورية، قد أنتجت أيضاً أقمشة بكميات كبيرة لكنها بليت بعد ذلك. إن ارتباط الزخرفة الأيقونية الدقيق الذي اكتشفناه بين قطعتي فسيفساء أفامية وقطعتي النسيج المصري قد أكد على وجود قطع نسيج سورية، من الطراز نفسه، عملت على نقل التأثيرات القادمة من فارس إلى مصر.

والآن حان الوقت لتقديم الخلاصة. إن التجديد الذي حصل خلال القرنين الرابع والخامس في مجموعة الفسيفساء، والذي أصبح ضرورياً كما رأينا، قد كان ثمرة التحول في طرق التفكير، وقد حدث في جزئه الأكبر عبر مجموعة المنسوجات. إن السيدان س.ر. موراي وج.لاسو قد قدما كثيراً من الأمثلة على مواضيع التزيينات الصغيرة، ولكن كان يجب أن تكون نتائجهما أكثر اتساعاً، وذلك بأن تشمل أشكالاً أكثر من ذلك. وخصوصاً أن كثيراً من المقارنات الجديدة المفترضة قد ظهرت حديثاً. ولكون المنسوجات بضائع سهلة النقل فهي تنقل النماذج الفنية والأذواق معها. إذا كان الحال هكذا، فإن النماذج الفنية والأذواق قد وصلت إلى سورية الشمالية من بلاد فارس، والحادثة تشرح نفسها كمايلي: لوحظ منذ وصول شابور الثالث تقارب بين الامبراطورتين المتعاديتين تقليدياً. إن تاريخ سقراط الكهنوتي احتفظ حتى بتذكار الهدايا الرائعة (حرير، أحجار كريمة، فيلة) التي أحضرتها سفارة ملك فارس سنة ٣٨٤م لتقديمها إلى تيودوس. وقد أدى السلام الذي نتج بعد ذلك بمدة وجيزة إلى استقرار لا مثيل له، مما ساعد على تنشيط التبادلات بين الدولتين خلال الجزء الأكبر من القرن الخامس. إضافة إلى ذلك فإن المنسوجات والفضيات التي كانت تحمل على طول طرق القوافل مروراً بحلب، كانت خميرة إبداع أصيل، طبع مجموعة الفسيفساء القديمة بطابعه لفترة امتدت قرنين من الزمن، بما فيها فترة العصر الأموي.

التأثيرات الشرقية على الزخرفة المعمارية

في شمالي سورية

أليس نقاش

تعريب غادة الحسين

تركت الزخرفة المعمارية في قرى شمالي سورية، وبخاصة في منطقة المرتفعات الكلسية، آثارها كشاهد على المباني الجنائزية على وجه التحديد، منذ القرن الأول ق.م وحتى نهاية القرن الثاني الميلادي، وابتداءاً من هذا التاريخ ازدانت المباني ولاسيما المعابد، بزخارف بسيطة، ذات أسلوب كلاسيكي من الطراز اليوناني– الروماني.

وتظهر الدلائل الأولى للتأثير الشرقي (الرافدي) على فن الزخرفة في شمالي سورية على الآبدتيين الجنائزيتين اللتين تم اكتشافهما في قريتين متجاورتين في جبل الزاوية، هما مغارا وفريكا، ويرجع تاريخ إحدهما لمنتصف القرن الثالث الميلادي (٢٤٦م). ويعتبر هذان الشاهدان متواضعان بسبب عدم انتشار هذا الفن، إلا أنهما عكسا لوحدهما اتجاهاً فنياً وذوق سكان الريف في تبني نماذج مستوردة من الخارج، بعيدة جداً عنهم، فاستثمرت هذه القرى منذ القرن الرابع وحتى القرن السادس بعد الميلاد الازدهار الذي عرفته لتحسين المحيط من حولها، وعلى الأخص في تزيين المساكن والكنائس. ومن ثم اتسمت هذه الزخارف بطابع كلاسيكي: أوراق وأغصان الأقنثيا وشجيرات نخيل وأطر مزخرفة بأشكال ذيول السنونو وزخارف بأشكال اللؤلؤ والزوابع، ثم تنصرت جزئياً، إذ أدخلت عليه زخارف ذات دلالة على السيد المسيح وتعاليمه مثل: صلبان وزخارف متشابكة تمثل اسم السيد المسيح وأيقونات، وقد تعرّض هذا الفن الزخرفي خلال الثلاثمئة سنة لتحولات وبخاصة تدخل عليه عناصر غريبة ذات طابع «رافدي».

العناصر «الشرقية»:

تتمثل العناصر الشرقية التي نجدها في الزخارف المعمارية في شمالي سورية بما يلي:

في المقام الأول **اللآلىء**، وقد ظهرت منذ القرن الرابع كعنصر أساسي في جميع أنواع الزخارف (الأفاريز والحلي الدائرية والأكاليل..)، وليس كمجرد عنصر في الإطار الكلاسيكي المؤلف من اللآلىء والزوابع.

المربعان المتقاطعان، وهما رمز الكون الإيراني، اللذان عرفا عبر المنسوجات التدمرية. وقد ظهر هذا الرمز في الزخارف المنحوتة ابتداءاً من النصف الثاني للقرن الخامس الميلادي، وشاع استخدامه بشكل كبير في زخارف البيوت والكنائس إلاّ أن يبدو بأنه فقد دلالته الأصلية.

- لقد أثارت مسألة أصل **الأفاريز** الأكليلية التي تعلوها اللآلئ أحياناً مشكلة، فالنظرية القائلة بأنها استلهمت من العالم الإيراني حيث الأشكال منحدرة من إفريز اللوتس الذي فقد عنصره الوردي، ليست مقنعة بالضرورة، ولكن يبدو حالياً أنها المصدر الوحيد المعقول. ولم يتم العثور على أي مثال آخر.

- تذكّر كثافة **الزهيرات والنجيمات والوريدات** بثياب الأموات على النقوش التدمرية.
- يدل تغير الأشكال الهندسية الزاويّة الشكل إلى أشكال هندسية مدورة وظهور بعض الرسوم الهندسية على تغير في الذوق، في الوقت الذي تم التعرف فيه على تأثيرات خارجية على فن الزخرفة، وربما جرى هذا التحول نتيجة الاتصالات مع الحضارات الأخرى.
- لقد استلهمت الزخارف المنحوتة على **الواجهات** (الزخارف النافرة المستمرة)، بدون شك من النماذج الرافدية.
- هيئة كبير الكهنة Abdès Barathè في قريتي مغارا وفريكا (تسريحة الشعر، الحذاء، الثياب...) ووضعيته ووضعية الشخص المرافق له وكذلك الزخارف النافرة المنحوتة على الجبهات المثلثية.
- أخيراً نلاحظ في الآبدة الرائعة: قلعة سمعان، كما لاحظ تشالينكو Tchalenko، أن عمالاً من شمالي بلاد الرافدين ساهموا في انجاز هذا المشروع لمعماري. وهنا ظهر عدد كبير من العناصر المعمارية الجديدة، التي لم نتمكن بعد من إرجاعها إلى مصدر أكيد بسبب نقص الوثائق الخاصة بالمدن المجاورة التي لم يكتشف فيها شيء مماثل حتى يومنا هذا. أما المباني المعروفة في شمال منطقة الرافدين، فإنها تسمح بافتراض أن بعض هذه العناصر الجديدة تم استيرادها من قبل فرق «شرقية».

لتأكيد هذه النظريات، يجب إما إجراء مقارنات انطلاقاً من الأمثلة الموجودة في المراجع لإثبات، وبشكل ملموس، وجود تبادل بين هذه المناطق. أو الافتراض أن هؤلاء المهرة الذين سكنوا منطقة المرتفعات الكلسية هم من ابتكر هذه الأشكال التزيينية الجديدة والمستمدة من ثقافتهم المحلية، وهذا ما لسنا متأكدين منه أبداً.

كيف ومتى وصلت هذه التأثيرات إلى شمالي سورية؟

منذ القرن الثالث الميلادي وحين تحوّل الطريق التجاري نحو الشمال، احتلت أنطاكية وسلوقيا وبيريه وحلب مركزاً هاماً، لأنها كانت تشكل نهاية هذا الطريق القادم من الجزء الشرقي للامبراطورية. كما تم التبادل على المستويين الثقافي والفني بفضل التبادل التجاري فيما بينها، ولقربها من منطقة المرتفعات الكلسية. ويجب الأخذ بعين الاعتبار عدة ظواهر، منها أن الاتصال والتبادل فيما بين المدن المتجاورة عبر طرق تجارية ساهم في نشر بعض النماذج والعادات وقدرة الفنانيين المحليين في تقديم هذه النماذج «الأجنبية»، ودمجها مع العناصر المحلية وطرحها للزبون المحلي، وفي نشر هذه النماذج داخل القرى أيضاً، التي تملأ مميزات خاصة بها وسمات اقليمية راسخة المعالم منذ فترة طويلة.

يعكس التزيين المعماري في شمالي سورية تعايش تقاليد فنية محلية مستمدة من نماذج كلاسيكية أدخلت عليها عناصر خارجية رافدية على وجه التحديد (بمعنى أوسع)، مع صيغ أثرت على العقليات السائدة خلال سياق التغيرات التي حدثت منذ القرن الأول. ويعد هذا التعايش هو شكل من أشكال التأقلم والتعبير. لقد ارتقى هذا الفن الزخرفي منذ القرن الخامس الميلادي، حين كان التبادل بين القرى والمدن المتجاورة كبيراً. وتعبر آثار القرنين الخامس والسادس الميلاديين عن فن مزدهر ذي صبغة محلية فيه بعض العناصر «الغريبة» التي لايمكن إرجاعها إلى العالم الكلاسيكي، لأنه لم يتم التعرف على نظير لها أبداً.

طريق الحرير في سورية في القرن السادس

جورج تات

تعريب: غادة الحسين

إن غايتي هي محاولة لتقديم مانعرفه عن طريق الحرير، أهميته ومسافته في سورية، خلال القرن السادس وذلك بتقدير مكانته ضمن سياق عصره، وهذا لعدم إنجاز أبحاث ذات طابع شخصي عن تجارة الحرير.

لماذا القرن السادس؟

لأنه يتوفر لدينا عدد لايستهان به من المصادر والتي مصدرها الامبراطورية البيزنطية والصين أيضاً.

وأيضاً لأنه لأول مرة في القرن السادس كانت مسألة تجارة الحرير وبطريقة واضحة وأكيدة، عنصراً هاماً في السياسة الدولية في آسية الداخلية كلها. وبحثي هو التفكير تباعاً بنقطتين:

I ـ تنظيم وطرق تجارة الحرير

II ـ تجارة الحرير، السياسة الدولية والاقتصاد السوري

١. الشروط الجديدة لتجارة الحرير في بيزنطة:

منذ حكم ديوقليسان حددت ظروف جديدة تجارة الحرير. ونستطيع إرجاعها إلى ثلاثة:

آ. الأهمية المتزايدة للحرير وتزايد الحاجات:

لنذكر أن الرومان عرفوا الحرير منذ القرن الأول، وذلك بفضل البارثيين، ولكنهم كانوا يجهلون كل شيء عن مصدره. فكانوا يعتقدون أنه يستورد من بلاد سيريس Seres على مقربة من عالم معروف، مغاير للصين والتي موقعها معروف جداً. وتنامت أهمية الحرير بشكل كبير. واستخدم كزينة وفي صناعة الملابس فيما بعد أيضاً. وتزايد الطلب على الحرير مع تنامي حس الرفاهية وحياة الرغد.

بدءاً من حكم أورليان (٢٧٠-٢٧٥م) تم انجاز خطوة جديدة وخاصة إبان حكم كل من ديوقليسيان وقسطنطين، فمنذ ذلك الوقت لعب الحرير دوراً ثلاثياً:

١ـ فقد أصبح الحرير عندما يصبغ بالأرجوان، قماشاً إمبراطورياً بامتياز، وقماش البلاط أيضاً. واتضح تطوره بخاصة في ظل حكم جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

٢ـ كان أداة سياسية، فهو سواء أكان حرير خام أو ملابس حريرية، فإن الإمبراطور يقدمها إلى موظفيه ذوي المراتب العالية.

٣ـ والحرير أيضاً كان أداة دبلوماسية، فالإمبراطور في علاقته التي يقيمها مع الملوك البرابرة يعرض لتفوقه بروعة هداياه التي تشكل المواد المصنوعة من الحرير، والمنتجات النادرة جزء منها. وكان الحرير سمة شهيرة دولية للإمبراطورية.

الإمبراطورية لاتستطيع أن تستغني عن الحرير وذلك للأسباب المذكورة، وبهذا الخصوص فإن أول المستهلكين هو الإمبراطور نفسه.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

ب ـ تنامي سيطرة الدولة

تنامت سيطرة الإمبراطور على تجارة الحرير ضمن الإمبراطورية، وذلك بطريقة مستمرة منذ حكم ديوقليسيان . وشملت هذه السيطرة التنظيم المكاني لهذه التجارة و المبيعات .

١ـ منذ صلح نصبين في عام ٢٩٨ قسمت المراكز الجمركية إلى ثلاثة، بحيث كان يمكن للبضائع المستوردة من الفرس الدخول عبرها إلى الإمبراطورية : وهي كاليكوم على نهر الفرات، نصيب (نصيبين) في المنطقة الفراتية، أرناكسات في أرمينية .

٢ـ ومن جهة أخرى ، إن ممثلي الدولة هم وحدهم القادرون على شراء الحرير الخام من التجار الأجانب، فبعد أن يسلموا الكميات التي تحتاجها معامل الدولة يباع المتبقي منها مرة ثانية بنفس السعر لتجار الحرير الخام، وهم الذين يزودون الصناعة الخاصة، أو أنها تباع مباشرة للصناعة الخاصة، حيث توجد مراكزها الرئيسية في بيروت وفي صور . ولاشك أن الهدف من ذلك هو التحكم بالأسعار وتأمين انتظام الإمدادات لمعامل الدولة .

ج. أفول نجم التجار الأصليين للامبراطورية في التجارة الدولية، ودور التجار السوريين داخل الامبراطورية.

لدينا البرهان حتى سقوط تدمر على أن تجار الإمبراطورية، والتدمريون وتجار من مدن أخرى أو من مناطق أخرى زاروا الهند، وتشهد بعض الوقائع الصينية أحياناً على ذلك، ولكن نادراً ماوصلت إلى الصين . على كل حال لقد استقر تدمريون في مملكة ميسينه Mésène، فكانوا يمولون البواخر التي تذهب حتى الهند، إلى مصب نهر الهندوس .

ولكن الحال لم يكن كذلك في القرنين الرابع والسادس . فقد احتل الفرس منذئذٍ مكانة أساسية في التجارة، فتوسطوا بين الهند وبيزنطة، بحيث لم يعد تجار الإمبراطورية يجازفون خارج الحدود الشرقية للإمبراطورية . وأصبحت منذئذٍ سيكسلان المركز الرئيسي للتبادلات .من هنا يجلب التجار الصينيين منتجاتهم وبالتحديد الحرير . وسيطر التجار الإيرانيين على سوق سيليلان كلياً .

كيف يمكن تفسير هذه الوفرة في الأسواق البعيدة عن روما؟

نستطيع التفكير بسببين :

الأول : يبدو أن تجار تدمر بعد سقوطها بعد عام ٢٧٣ ، لم يلعبوا أي دور في التجارة الكبرى، فاختفوا ولم تعد تدمر سوى مدينة حراسة .

نستطيع على كل حال الإكتفاء بهذا التفسير، فلا شيء يمنع التجار التدمريين من الاستقرار في مكان آخر . يبدو من الصعب التصور بأنهم فقدوا كل ممتلكاتهم . لانستطيع استبعاد ذلك، ولكن ليس لدينا أي دليل بأنهم أقاموا في واحدة أو عدة مدن أخرى مع تجربتهم ومع رؤوس أموالهم، بهدف متابعة نشاطاتهم فيها .

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن تفسير العمل /أن التجار لم يعد بمقدورهم أن يجازفوا خارج حدود الامبراطورية لسببين :

١ـ الأول : أنه لم يتم الإشارة إلى ميسينه بعد عام ٢٢٦م، فقد وضع أرداشير، مؤسس الحكم الساساني، حداً لاستقلالها النسبي، وذلك بإلحاقها به . فأصبح الفرس هم أسياد اللعبة .

ـ والآخر هو أن الحكومة الإمبراطورية نفسها منعتهم، وذلك بتحديدها ثلاثة نقاط دخول التجار إلى أراضي الإمبراطورية بالاتفاق مع الفرس .

٢ـ وبالمقابل، فقد اتضح دور التجار السوريين في الغرب بشكل كبير منذ القرن الرابع . دون أن نستطيع معرفة إذا كان لهذا الدور أهمية متزايدة فعلاً أو إذا ماكان هذا النمو ناجماً عن مصادر أكثر غنى .

أقام سوريون في غول في الجنوب وفي ناربونه وفي بوردو في الوسط وفي أورليان وفي تور وحتى في باريس . حيث وجد أيضاً في غول خمرة من غزة، ونقود فينيقية محفوظة في الجلد . لقد أظهر الميزوفنجيين وبلاطهم في القرن السادس حباً كبيراً للملابس الحريرية الخالصة . بينما انتشرت في الكنائس طريقة تغطية المذبح بالحرير، وتغليف رفات القديسين وصنع تزيينات للكهنة فيه .

بالاجمال، أصبحت تجارة الحرير على أعتاب القرن السادس ذات أهمية لم تعرفها من قبل . ولكن في بعض المعاني، فقد فرضت الدول نفسها على التجار . وقُسمت

التجارة ذات المسافة الطويلة لثلاث مناطق تابعة لسلطات مختلفة وهي: الصين وفارس وبيزنطة. ولانعلم تماماً ماذا كان دور التجار الهنود، بينما كان واضحاً أن كويلان coylan هي أساس نظام التجارة.

التغيرات في القرن السادس

آ. تلاقي جديد:

لقد اتسم القرن السادس ومنذ حكم جوستنيان فيما يخص تجارة الحرير بقرينتين، لم تتناقص حاجات بيزنطة للحرير الخام وذلك بسبب تطور البلاط الإمبراطوري وبالنتيجة تطور احتياجات الرفاهية وبسبب تمجيد السلطة الإمبراطورية داخلها وخارجها. ونرجح أنه كان لديهم نزعة لبرهنة ذلك، وبالنتيجة أصبح الحرير سلعة للاكتناز أو التبادل. فمقدار من الحرير الخام غير المصبوغ تعادل ربع ليرة ذهبية.

ولكن من جهة أخرى. كان تزويد بيزنطة من الحرير مهدداً، من جهة بسبب الارتفاع الشديد في الأسعار الناجم عن الاستقلال الكامل لمشتريي الحرير والذين أصبحوا تابعين للفرس كلياً.

من جهة ثانية، فيما يتعلق بالامدادات بسبب الحروب، فمنذ عام ٥٢٧م دخلت كل من بيزنطة والفرس في دوامة حروب طويلة: نحصي منها أربعة من عام ٥٢٧م إلى عام ٥٣١م، ومن عام ٥٤٠م إلى عام ٥٦١م، ومن عام ٥٧٢م إلى عام ٥٩١م ومن عام ٦٠٢م إلى ٦٢٧م. فخلال هذه الحروب لم يستطع التجار الشراء بسبب المعارك، لأنهم لم يستطيعوا الوصول إلى المواقع الحدودية .

ب. سياسة جوقستنيان وخلفائه:

لقد انصبت سياسة جوستيان على أربعة مجالات هي: الطرق والأسعار وصناعة النسيج وإنتاج الحرير الخام.

١. *الطرق:*

جرت محاولات في عهد جوستنيان والأخرى في عهد خليفته جوستان الثاني (٥٦٧ـ٥٧٨) للتخلص من سيطرة الفرس على طريق الحرير الخام.

آـ لقد حاول جوستنيان اللجوء إلى طريق آخر هام للتجارة مع الشرق الأقصى وهو طريق سيلان والذي يصل إلى الحبشة. في الواقع لقد أقامت بيزنطة علاقات دبلوماسية وتجارية مع الملك أكسوم Aksoum.

ولنذكر أنه منذ القرن الخامس. كانت أثيوبية تدين بالمسيحية أو على الأقل في طريقها إلى النصرانية. وأقام تجار الحبشة علاقة تجارية قوية مع سيلان، فقد صدروا منتجات أفريقية من (بخور، زمرد، عاج) وجلبوا منها البهارات واللالئ ومنتجات أخرى منشؤها الشرق ـ الأقصى.

وبالمقابل فقد كان تجار الإمبراطورية هم من يضمنه التجارة بين مرفأ أودليس ومرفأي كليسما وإيلات على البحر الأحمر. بالإضافة إلى أن الامبراطورية طردت العرب الذين استولوا على جزيرة Jotabe على مدخل خليج إيلات، حيث أقامت الإمبراطورية تحت إمرة جوستنيان مكتب جمارك فيها.

وكانت فكرة جوستنيان هي اللجوء إلى الحبشة للحصول على الحرير الخام وللتخلص أيضاً من احتكار الفرس لهذه التجارة. وعندما انتهت حرب الفرس الأولى نحو ٥٣٠م، أرسل جوستنيان كلاً من أجنس إن رليوس وجوليان إلى أكسوم في الحبشة وذلك للتوصل إلى معاهدة تجارية مع ملكهم. لقد استورد الأحباش كامل الحرير الخام من سيلان وباعوه إلى بيزنطة محققين بذلك أرباحاً كبيرة. لقد تم التوصل إلى اتفاق ولم يتمكن من تطبيقه لأنه منذ أن وصل تجار الحبشة إلى سيلان. كان التجار الفرس قد اشتروا كامل كمية الحرير الخام المتوفرة. لذا لم يكن من الممكن كسر احتكار الفرس في سيلان.

ب ـ كانت توجد طريق ثالثة أيضاً للحرير من الصين. إنه الطريق البري من الشمال. في الواقع، فإنه كان يجمع ثلاثة خطوط سير مرتبطة فيما بينها بطرق ثانوية والتي من الممكن المرور من واحدة للأخرى بسهولة، فخط السير الرئيسي يمر من سمرقند وبسوجيانه. وهذه الخطوط كانت تصل في النهاية إلى الإمبراطورية الفارسية، وفي أقل تقدير إلى بيزنطة من تشيرسون وموانئ البحر الأسود. ولكن عبر هذه الطريق، لم يكن ينقل الحرير إلى بيزنطة.

وبهذا الخصوص فقد بدأ تغير في نهاية حكم جوستنيان. حيث احتلت قبيلة تركية أطلق عليها الصينيون اسم Tomkiou أراضي من ضمنها بحيرة Balkach والحدود الغربية والشمالية من الصين، وغدت امبراطورية شاسعة شملت تركستان وبخارى ووصلت حتى بحر قزوين. وكانت تشمل سوجيانه وعاصمتها سمرقند، حيث عاشت منذ زمن طويل طبقة من التجار. إن إنشاء هذه الإمبراطورية خلق أفضل الشروط الأمنية للتجارة الدولية. لكنها بنفس الوقت وضعت التجارة تحت سيطرة قوة واحدة. حتى إن القوافل كانت تجلب الحرير إلى سمرقند وأبعد من ذلك حتى تصل إلى فارس. وكان الفرس يخافون أن لاتتبع الجيوش التركية طريق القوافل وأن لاتدخل إيران، ولهذا وقع الخطر الموجه للفرس بعدم شراء الحرير من تجار سوجيانه. فقد أرسل نائب ملك سوجيانه سفراء تباعاً إلى بلاد فارس للحصول على إلغاء لهذا المنع، ولكن لم ينجح أبداً في ذلك. ولهذا فقد بدأ السوجيانيون البحث عن منفذ جديد. فأرسلوا سفراء إلى بيزنطة للامبراطور جوستين الثاني في الأعوام ٥٦٨ ـ ٥٦٩م. وتلى ذلك تبادل لسفراء عدة. فقد ترأس سفراء بيزنطيون قوافل تركية و عدة مئات من الأتراك، أو على الأقل فقد أقام في الامبراطورية التركية في قسطنطينية. ولكن هذا التفاهم لم يستمر، فقد استقبل السفير فالنتين Valentin والمبعوث من قبل تيبيره في عام ـ٥٧٩م في الخان بعبارات لوم عن غدر اليونانيين ـ وبدلاً من متابعة العلاقات الودية فقد أخذ الأتراك مدينة البوسفور Basphoros أي كريتش Kertch عنوة. وأصاب الإمبراطورية الإنحطاط منذ بداية القرن السابع وأصبحت الخانات تابعة للصينيين واستعادت قبائل سوجيانه حريتها. وبنفس الضربة، سمح الملك الفارسي من جديد باستيراد الحرير من الحدود الشمالية.

٢. الأسعار وصناعة النسيج:

لقد قررت السلطة الإمبراطورية منذ وقت طويل ولتجنب ارتفاع أسعار شراء الحرير الخام والتي كانت تؤدي إلى إعلاء المزايدة في حال كان المشترون البيزنطيون كثر، أن الموظفين هم المؤهلون للتفاوض بالجملة حول أسعار شراء الحرير الخام مع التجار القادمين في المواقع الحدودية المنصوص عليها في المعاهدات. وقد دعي هؤلاء الموظفون في عهد جوستنيان الوسطاء. وهم ذو منزلة عالية يقيمون على الحدود الشرقية للامبراطورية. وإن كانوا قلائل، فقد شكلوا أحياناً جمعيات، ويبدو أنهم أداروا مكاتبهم بشكل حازم، ومارسوا التجارة لحساب الدولة. لقد تم العثور على أختام رصاصية بأسمائهم تتميز بأنها تحمل صورة الإمبراطور، كالنقود الذهبية ونفترض أن هذه الأختام المستخدمة لختم الرزم كانت لضمان كمية الحرير المرسلة.

وللحصول على تخفيض لأسعار النسيج الحريري ولمكافحة التهريب وصل جوستنيان بعد عام ٥٣١م، وتاريخ نهاية الحرب ضد الفرس، للتدخل بقوة في الأسعار. لكن خلال قرنين لم تتغير أسعار الحرير.

ومنذ عام ٥٣١م، طلب الفرس رفع الأسعار الذي بقي مستمراً بالتزايد بعد إنشاء مكاتب جمارك جديدة داخل الامبراطورية في أبيدوس على الدردنيل وفي هيرون على البوسفور: فقد ازدادت الضرائب فيها بمعدلات كبيرة.

منع جوستنيان بيع الحرير الخام بأعلى من سعر ثمانية فلوس ذهبية، وهي مايعادل (٩ / ١ ليرة ذهبية) تحت طائلة الغرامة وحتى مصادرة الممتلكات، ولكن أمام تمسك التجار الفرس بموقفهم وديونهم، اضطر جوستنيان للسماح بدفع خمسة عشر فلساً ذهبية لهم تعادل (١ / ٥ من الليرة) بمقدار من الحرير، ولم يُلغ جوستنيان وبطريقةٍ مفاجئة الحظر الأول، مما حرم التجار والمصنعين، فاضطروا للبيع بخسارة. ولم يتوقفوا عن تجديد البضائع المخزنة لديهم وبدؤوا ببيع البضائع التي كانت بحوزتهم سراً. ولكن تيودورا أعلمه، وعُوقب المذنبون بمصادرة بضائعهم وبغرامة تقدر بـ ١٠٠ليرة ذهبية، مما يدل على أن المحافظة على القانون لم تكن ناجمة عن تقصير، ولكن كانت مقصودة وشاملة.

وكانت النتيجة أنه في عام ٥٤٠م في الفترة التي بدأت فيها الحرب الفارسية الثانية دمرت مصانع النسيج الحريري، وأصبح سكان بيروت و صور في عداد العاطلين عن العمل. في حين كانت الدولة تملك بضائع مخزنة مهمة.

ولحل هذه المشكلة اتخذ بيير بارسيمه Pierre Barsymès، وهو الكونت الجديد لـ(لارجيس ساكريس)،

إجراءاتٍ حاسمةً ويمكن أن يقال أنها منشيطة، فقد أعطى للمشاغل اليدوية العائدة للدولة حق بيع بعض الأنسجة لبعض الناس مع المحافظة على القيود الداخلية على التجار المصنعين الخاصين. وهكذا تأسس احتكار الدولة لصناعة الحرير. ومع ذلك فإن مشاغل الامبراطورية لم تكن مجهزة بحيث ترضي الزبائن الكثيرين. فقد فتح بيير باسيميه عدة مشاغل قديمة خاصة وذلك لاستثمارها لحساب الدولة. بعد هدنة عام ٥٤٥م من الممكن أن تكون البطالة في قطاع صناعة الحرير قد توقفت. ولكن بروكوب أكد أن عمالاً في ملابس الحرير أصبحوا لاجئين في بلاد فارس، ليبحثوا فيها عن وضع جديد. بينما رحل كورس Chorès الثاني وآخرون إلى فارس، في بداية القرن السابع. وكان هيوين تسانغ Hioen Thsang وهو رحالة صيني قد عبر في القرن السابع الحدود الشرقية لبلاد فارس، فمدح مهارة الحرفيين في هذا البلد في نسج الأنسجة الحريرية والقطنية والسجادات، وأشار إلى التقدير العالي للدول المجاورة لذلك. عندما احتل هيراكليوس في عام ٦٢٧ القصر الملكي لـDastagerd وجد الجيش البزنطي بضائع مخزنة من الحرير وسجادات مطرزة وأغراض رفاهية أخرى والتي من المرجح أنها صنعت في فارس.

٣. إنتاج الحرير:

إنه المجال الثالث الذي ولجه جوستنيان، وهذا التدخل نجم عن ظاهرة عارضة فقد استقبل الإمبراطور في عام ٥٥٢م الرهبان الذين اقترحوا التعرف على طريقة إنتاج الحرير في الإمبراطورية دون أن يشتروه من الفرس، فعادوا بعد موافقة الإمبراطور إلى بلد Serinda (Procope Bell Coth IV 67/11/1).

أين توجد بلد Serinda؟ هي على الأرجح في سوجيانه، حيث كانت توجد مجموعة ثقافات منذ نصف قرن، حيث استطاع البيزنطيون الدخول من شمال بحر قزوين دون المرور بالإمبراطورية الفارسية، ومهما يكن فقد استورد هؤلاء الرهبان دود القز التي قاموا بتربيتها في الإمبراطورية وخاصة في مناطق صور وبيروت.

بذلك تمكنت الامبراطورية اجتياز الاضطرار لإستيراد الحرير الخام، ولكن منذ عام ٥٦٨م، استطاع جوستنيان الثاني إظهار مشاتل التوت للسفراء الأتراك في سورية. ومع ذلك. كان يلزم الكثير من الوقت لتستفيد الامبراطورية من ذلك. والخلفاء هم الذين حصدوا ثمار ذلك.

ملاحظات عن حلب وقنّسرين في المرحلة الإسلامية المبكرة

دونالد وايتكومب
ترجمة: جمال بريمو

إن حلب وقنسرين هما مدينتان عريقتان من القدم، كانت الأولى منهما تدعى حلب أو بيرويا، بينما الثانية دعيت خالقيس أو بيلوم.

تقدر المسافة الفاصلة بين هاتين المدينتين بـ/ ٢٥ / كم، إن الكشف عن أنماط الاستيطان في هاتين المدينتين، ربما يوضح طبيعة المدينة الإسلامية المبكرة في بلاد الشام.

مباني ما قبل الفترة الإسلامية في المدينتين:

زمن الفتح الإسلامي كانت مدينة حلب لاتزال تحتفظ بمظاهر أبنية كلاسيكية خاصة بها.

إن الجزيرة ذات الأبعاد / ١٠٠×٤٥م/ وذات الأساس السيلوسيدي كان لاتزال قائمة، لكن نموذج الشارع كان قد بدأ بالتغيير بشكل ظاهر بحسب رأي سوفاجيه.

إن مخطط مدينة قنسرين أو تخطيطها لم يتم البت فيه بعد.

إن الشكل العام لكلا المدينتين كان عبارة عن تجاور بين القلعة والبلدة. وكان هذا نموذجاً شائعاً، من السيليوسيد لمستوطنة، كما بينّه جرينجر.

إقترح هذا العالِمْ سيطرة مبكرة من قبل القبائل العربية على قنسرين الواقعة على طرف الجزء الشرقي من إقليم سورية (٨٠-١٧٧-١٩٩٠) وهذا يتعارض مع مقارنة سوبرنهايم مابين المدينتين، والتي صرح فيها أن حلب كانت بلدة سورية على الأغلب، مع مزيج ظاهر من المهاجرين العرب، وهذا نقيض لقنسرين (٢٢٩ ، ١٩٢٧).

وهناك دراسة موجزة عن حلب خلال تلك الفترة، والحاضر التي تقع إلى الجنوب الشرقي من حلب (سوفاجيه ١٩٤١). لقد كانت حلب وقنسرين موقعاً لمستوطنات عربية قبل الفترة الإسلامية، ومنها قبائل بني تنّوخ وبني طيّ. وقد وصف أحد الشهود تلك المستوطنات بأنها تجمعات عسكرية ذات صبغة عمرانية دائمة.

وهو يعود بلفظ الحاضر إلى لفظ الحيرة والأقدم منها باريمبوليس (٤٠١, ٤٠٧, ١٩٨٤).

إن التعبير الأول استعمل عند الغساسنة الحضر (هيرثا) والثاني تم الإفتراض بأنه أصل لكلمة الرملة.

إن الحاضر التي كانت بجوار حلب دعيت لاحقاً بحاضر السليماني، وذلك بعد أن أشاد فيها سليمان أخ الخليفة الأموي عبد الملك (١٩٢٧,٢٢٩ سوبرنهايم).

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

إن التعاون مابين تلك المعسكرات والمدن المجاورة لها، لايزال أمراً مثيراً للجدل، وكذلك امكانية مقارنته بالعلاقة التي كانت مابين أحد الأمصار ومدينته المجاورة له بشكل تقليدي.

كالفسطاط مع بابيلون، والبصرة مع خريبة، والكوفة مع الحيرة.

ولحسن الحظ فإن فهم تلك المعسكرات قد تجاوز وصف كريسويل للفسطاط

«إن الفوضى الغريبة لمدينة قيد التطور مرده تنوع سكانها المؤلف بشكل رئيسي من البدو»، «وبالمتاهة المحيّرة من الممرات والأزقة المسدودة من الخيم والأكواخ المتناوبة مع أراضٍ مهملة، والمقابر وروابي أو اكمات من المهملات».

إن الأماكن المتعددة المعروفة بالحاضر لها أهمية كبيرة وعميقة، من حيث أن مبانيها تحمل نموذجاً بدائياً لمدن عربية، وهو نموذج مدني يختلف عن النموذج التقليدي المميز الشائع آنذاك.

يمكن القول إن نمو هذه النماذج المدنية يمكن أن يكون قد تم في وقت كان الإعمار البيزنطي فيه قليلاً ومترافقاً بركود مدني شامل.

المنشآت الإسلامية المبكرة:

هناك غموض في المعلومات المتعلقة بالمدى الذي تعرضت له حلب وخالكيس من دمار على يد كسرى في العام /٥٤٠م/، ومن ناحية أخرى، فإن مدى إعادة الإعمار الذي تمَّ برعاية جوستنيان، لهو أمر مشكوك فيه، ويمكن أن يكون من نتائج الإحتلال الساساني في العام /٦١٤م/. لذلك يمكن التسليم من خلال هذه الدراسة أن قنسرين أصبحت مركزاً إدارياً ساسانياً لشمال سورية بأكمله، وهذا الدور هو ما نتج عنه اختيارها كعاصمة مبكرة للجند، واستمرار ذلك بشكل واضح حتى القرن العاشر الميلادي (على النقيض من حلب).

إن شرح هذه الفرضية يحتاج لفحص ومسح للنظام الإقليمي التقليدي، ولطبيعة الأفكار البيزنطية في سورية، ولخصائص أنظمة الجند الإسلامية المبكرة.

أصول أنظمة الجند:

كان نظام الجند تحولاً ثورياً من أنظمة الأقاليم الرومانية والبيزنطية. ففي بداية القرن السادس للميلاد كانت بلاد الشام مقسمة إلى ثمانية أقاليم، كل تتبع لكل واحد منها مدينة رئيسية تقليدية (انظر الشكل رقم ١).

اعتمد الانتقال من أنظمة الأقاليم إلى نظام الجند على فهم للأفكار البيزنطية، والتي تنسب بشكل عام للإمبراطور هرقل، وذلك خلال الفترة القصيرة من الاحتلال المتكرر لبلاد الشام من /٦٢٩ إلى ٦٣٤م/.

يرى كاجي أن الأفكار التي طبقت كالأوامر العسكرية الطارئة وتمركز السلطة داخل المدن بدون اصلاحات اجتماعية أو اقتصادية هي أفكار أو مبادىء إنشاء سلطة إدارية طارئة بذلك الشكل، جعلها جد ضعيفة إلى حد تم اكتساحها في أعقاب الفتح الإسلامي مباشرة (٨٥-٢٧٩، ١٩٩٢). ومن المثير أن كلا التعبيرين «الفكرة والجند» يشيران إلى مجموعات عسكرية ومقاطعتهم العسكرية (شهيد ١٩٨٦). استناداً لليعقوبي، كانت الموصل عاصمة جند (جناح من الجيش، استعملت في العربية للمستوطنة العسكرية) في أيام الخليفة عمر بن الخطاب (٤٨، N، ١٣٥, ١٩٨٤ موروني) وفي خطاب زياد بن ابيه في عام /٦٦٥م/ دعا تلك القوات العسكرية بجند الله.

ناقش دان بوتس أصل كلمة جند يشابور، حيث لاحظ منها الشق جند، والذي ظهر بزمن مبكر كما في الفترة الفارسية، كذلك في العربية فإن كلمة الجند تعني كلمة جيش، قوات، مجموعة، أو تجمع (٣٣٠, ١٩٨٩). وكان يميل إلى وجهة نظر أنها مقاطعة عسكرية أو مستوطنة عسكرية تحت تأثير الاستخدام الأموي للغة (٣٣, ٣٣٢, ١٩٨٩). كانت القوات والجيوش الضخمة للساسانيين تدعى الجند وكان لها جند سالارز للقادة (٢١٠, ١٩٤٤ كريستنس).

إن اضفاء خلفية فارسية على هذا التعبير، يمكننا من اقتراح أو تخمين النتائج التاريخية التالية.

إن الساسانيين قد ألغوا المقاطعات التقليدية وأعادوا إنشاء الإدارة في بلاد الشام بالاستناد إلى النظام العسكري التقليدي الفارسي.

وعندما عاد هرقل لاحتلال بلاد الشام، كان عليه القبول بهذا النظام، واعتماد المتغيرات الجديدة، تلك العملية التي لم تكتمل، حينما بدأ المسلمون بمهاجمة الامبراطورية.

أعاد المسلمون العمل بالنظام الفارسي، والذي كان مألوفاً بالنسبة لهم منذ /١٥/ عاماً سابقة.

إن الفكرة القائلة بأن إنشاء نظام الجند في سورية تم بقرار من الخليفة أبو بكر الصديق قبل اتمام الفتح الإسلامي، يمكن العمل بها كاعتراف بالنظام الإداري المشهور الذي تركه الساسانيين (٦٠١, ١٩٦٣ سورديل). لاحظ شهيد أمراً مثيراً للغاية في خصائص نظام الجند الجديد في بلاد الشام، وهو أنها كانت مجتمعة في مقاطعة واحدة عبر كل المناطق الجغرافية المتنوعة (من البحار حتى الصحراء) (٤٧, ١٩٨٦ شهيد).

وبطريقة مشابهة فإن الأقاليم الفارسية (كورا) يغلب عليها أن تكون مناطق جغرافية متعددة، وهذا الأمر لا يكون ظاهراً في أي مكان أكثر من إقليم فارس، وهو الوطن الأم للسلالة الساسانية.

إن كلاً من الأقاليم السبعةتشكل الساحل، غارماشير (الأراضي المنخفضة الدافئة)، زاردشير (الأراضي العالية الباردة)، بالإضافة للهضبة الصحراوية.

إن عاصمة كل إقليم (كورا) تقع على محور بين تلك المناطق، وهذا النظام موضح بالنسبة للفترة الساسانية في (وايتكومب ١٩٧٩).

جند قنسرين:

تقترح الفرضية الواردة أعلاه أن اختيار قنسرين كعاصمة جند لمعظم شمالي بلاد الشام كان بناءً على دورها المحتمل كعقدة بيزنطية وأكثر منه بالتأكيد، لكونها مركز إداري عسكري فارسي لشمال سورية. وكما تم الايضاح أعلاه فإن هيكل نظام الأقاليم الساسانية (الكورا) ربما يكون قد تحدد باتجاه خالكيس القديمة أو بيلوم.

وبالنظر لخصائص قنسرين، من سهل خصب وبيئة متحولة، تم الحاق قنسرين إلى مدينة حلب بعد فتحهما عام ٦٣٨م، ووضعهما تحت إدارة مدينة حمص.

يعزى فصل قنسرين وجعلها عاصمة الجند إلى الخليفة معاوية في العام (٦٤٣م) (وتم استيطانها من قبل مواطنين من البصرة والكوفة، ١٢٥, ١٩٧٩، اليسيف). والتاريخ الأكثر قبولاً ورد في البالادهوري (١٣٢)، وفيه أن إنشاء هذه العاصمة الجديدة كان بفضل يزيد ابن معاوية في عام /٦٨٠م، وهذا التاريخ الأخير يبدو أنه الأكثر قبولاً.

إن نظام الجند المعاصر آنذاك في قنسرين كان يتحكم ويدير أراضٍ واسعة تمتد من أنطاكية إلى الجزيرة.

لكن الجزيرة تم فصلها لاحقاً في العام /٦٩٣م/، وسيطرت على حدود مدنها الخاصة أو ما يدعى بالثغور (غالباً ما تدعى اليوم بالشمال الأموي).

قام هارون الرشيد بانشاء اقليم العواصم، والذي يبدو أنه يشير الى نظام الجند القديم في قنسرين، عدا الجزيرة (٢٢-٢٣, ١٩٩٤ بونر).

كانت المهمة الأساسية لقنسرين تنظيم حملات عسكرية سنوية إلى داخل الحدود البيزنطية.

وكما يبدو فإن الدور الذي لعبته قنسرين قد تغير، وذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد ومحاولاته التنظيمية الجديدة، ومنذ ذلك الوقت، فإن الكثير من القوة الإدارية لهذه المدينة قد تبدد. إن توقف نظام الجند في قنسرين كوجود سياسي قد لا يكون قد عكس رخاءها، ومع ذلك فإن انحدارها يمكن ملاحظته في القرن العاشر ميلادي، وذلك عندما شهدت المعركة الحاسمة بين الإخشيديين والحمدانيين بقيادة سيف الدولة.

ويمكن أن يعزى تدميرها كنتيجة للهجمات المدمرة لنيسيغوروس فوكاس في العام /٩٦١م/ و/٩٦٣م/.

ويتفق الجغرافيون بالاجماع في توصيفاتهم على أن هناك أمجاداً زائلة. وربما يقول معظمهم أن المقدسي ذكر أن حلب سميت العاصمة بدلاً من البلدة التي أخذ منها الأقليم اسمه (قنسرين)، (١٥٦، مقدسي)

الشواهد الآثارية:

إن الآثار الخاصة بهاتين المدينتين في عصر نظام الجند في قنسرين تبرز مشاكل جد مختلفة.

فبالنسبة لحلب فإن سوفاجيه ناقش تلك الفترة من تطور المدينة، محدداً المسجد الأول فيها، ومستفيداً من قوس تذكاري في بداية شارع فيه صف من الأعمدة (٨٥, ١٩٦٥) ومن الجامع الكبير (بني بواسطة الوليد أو سليمان، ٧١٥م) .

إن تلك الملاحظات تزودنا بانطباع عن تواجد إسلامي محدود أو اهتمام بسيط بتلك المدينة .

إن الأهمية الآثارية الكامنة في قنسرين (لاحقاً عرفت إسكي حلب) لهي أمر واعد بشكل أكبر، بالرغم من تعقيداتها .

إن موقع قنسرين / خالكيس قد تم تحديده بالرابية التي تحت مقام النبي إس (حيث وجد فان بيرشيم في القرن الثاني عشر نقشاً ٥ـ٣٥ـ١٩١٣) إن أول خريطة أنجزت هي بواسطة بروسي في عام ١٩١٩ ميلادي (مونسيو وبروسي شكل ١ـ١٩٢٥)، ثم تبعتها أخرى بواسطة ج . لوفري في عام ١٩٤٢ــ١٩٤٣ (نشرت في موتردي وبويديبارد عام ١٩٤٥، مخطط ٢١ انظر الشكل ٢) .

يتألف الموقع من رابية عالية محصنة ومدينة مسورة منخفضة على منحدر أعلى من مستنقعات المطخ . بينما هناك قليل من الشك حول نجاح الدراسة الفرنسية : في تحديد الموقع التقليدي لخالكيس أو بيلوم، فإن استمرارية هذا الموقع في الفترة الاسلامية المبكرة كعاصمة الجند في قنسرين نال قدراً أقل من الدراسة والتأكيد المطلوب .

هذا الشك له جذوره في التقارير المدهشة عن نشاطات يزيد الأول، الذي هدم الجدران التابعة للمدينة وبنى عاصمة الجند . وكتفسير لهذه التوصيفات قام يزيد في عام / ٦٨٠ / ميلادي بتفكيك الدفاعات والتحصينات البيزنطية لخالكيس وبنى مقرات قيادة عسكرية وعاصمة، وهذا هو في الحقيقة ماجعله يزيح جزءاً من البلدة التقليدية الأقدم لينشىء مدينة إسلامية جديدة أو مصراً في جوارها .

وفي الشرح الأخير للإدريسي، فإن الجدران المحصنة قد دمرت من قبل يزيد، ولكن بعض الأجزاء لاتزال مرئية وظاهرة (في القرن الثاني عشر ميلادي) .

من الخصائص البارزة التي كانت تميزها هي موقعها على نهر قويق، كحصن منيع، بالإضافة لأسواقها وحرفييها (Le strange ٤٨٧)، المظهر الثاني الذي يزيد الشك في استمرارية الموقع .

إن الشروحات عن حلب ما قبل الاسلام قد أوردت الحاضر، وهي مستوطنة دائمة ملحقة بالمدينة التقليدية والتي أصبحت فيما بعد مكاناً لمجمع بلاط سليمان .

ماذا عن الحاضر المتعلق بطي في خالكيس؟ هل انهارت تلك المستوطنة العربيةً أو هل كان ذلك مكاناً للمستوطنة الاسلامية الجديدة، مصر قنسرين؟

إحدى العناصر المقترحة هو نقصان البقايا الاسلامية المبكرة على التل أو الحصن العالي لقنسرين، كما صنفها المراقبون الأوائل .

في جميع المدن السورية التي استمرت كمستوطنات سياسية هامة، فإن هناك دليل ضئيل بشكل واضح على الانتفاع من الحصن العالي في الفترة الاسلامية المبكرة .

إن الحصن العالي النموذجي كما في حماه أو حلب لم يكن ذو أهمية كبيرة بالنسبة للتنظيم المدني، بالرغم من أنه من الممكن أن يكون قد استمر لاستعمالات الاقامة .

إن النقص العام الواضح للقى الاسلامية على تلك الرابية يرجح الافتراض بإمكانية وجود قنسرين في موقع آخر . إن البحث والمسح المكثف من قبل ماترز (نحواً من / ٢٥ / كم على طول نهر قويق ١٩٨١) هي المعلومات الأكثر صحة والتي نشرت عن إقليم قنسرين .

ولسوء الحظ فإن منطقة قنسرين التي كانت تدعى تل es-iss قلما ذكرت في المسح (شكل٣)، بينما تم وصف موقعين يقعان مباشرة إلى الشمال : تل أرس (١٥) وتل جسر (٤٢) وباهتمام أكبر .

وقد تم وصف هذين الموقعين كونهما يحتويان على سكنى إسلامية مبكرة، ولسوء الحظ مع وجود مواد مساعدة مفصلة قليلة (١٩٨١ نورثدج، تايلور ١٩٨١) .

وهناك موقعان آخران في نفس الجوار، تل زارفان (٧٩) وتل حوران (٣٦)، وفيهما سكنى محددة من العصر الروماني المتأخر امتدت خلال القرن السابع ميلادي .

وهكذا فإن هناك عدد من المعمرات من تلك الفترة يجب بحثها، عندما كانت قنسرين مركزاً رئيسياً.

ومن وجهة النظر الطبيعية الظاهرة لمسح ماترز في هذه المنطقة، نفترض بأن مزيداً من المسح المكثف لمنطقة قنسرين خالكيس ربما يقدم إيضاحاً مناسباً أكثر لعاصمة الجند

تعزيز السياحة وحماية أوابد الكتلة الكلسية

مارك بارانسكي

تعريب: هالة مصطفى

تعتبر الأوابد المعمارية العائدة للعصر الروماني المتأخر، الواقعة في الكتلة الكلسية غربي حلب، مجمعات أثرية فريدة في منطقة البحر المتوسط، ويثبت العدد الكبير للمواقع هناك أهمية هذه المنطقة وعلاقاتها التجارية مع حلب والمدن الساحلية. أما الكنائس والقرى والحقول التي هجرت في أواخر العصور القديمة فهي مدهشة وذات قيمة علمية للدراسات التاريخية، ذلك لأنها بقيت محفوظة بحالة جيدة وبسبب تعقد الأوجه المتعددة التي تتجلى من خلالها الحياة الأسرية والبلدية. وفي سياق عملية تمدن محيطها، ومد شبكة الطرق التي تحمل شارات للدلالة عليها ازدادت أهميتها، تماماً مثلما كان لبعدها النسبي وقلة استيطان محيطها أثرهما في حفظها دون تشويه.

أدى التطور الديناميكي لسورية في نهاية القرن العشرين إلى خلق وضع جديد كلياً، قد يؤثر على حالة الأوابد تأثيراً بيناً. فالأمثلة عن تلف الصروح الأثرية في كثير من البلدان والتي تؤكد صحة افتراضنا هذا، كثيرة. ولابد أيضاً من أخذ التوسع الزراعي وتنامي السياحة على محمل الجد، إذ أن معظم المواقع يمكن وصول السيارات إليها حالياً، ويستطيع آلاف السياح أن يدخلوها، علماً أن حرية الدخول غير المقنن تشكل خطراً جسيماً. وبشكل عام، تنال الأوابد المثيرة للإعجاب حق قدرها، في حين تبقى المواقع الأقل شأناً التي لا حماية مناسبة لها، ولا إدارة، عرضة للسلب والتلف التدريجي. ومصر، حيث معظم المواقع التي لا يمكن حمايتها بالصورة الصحيحة خير مثال على ما نقول.

ويتبين من الممارسة العامة أن تمويل البنى التحتية للسياحة أسهل من تمويل عمليات حفظ الأوابد، التي تعطي الأولوية لابراز المواقع المدهشة، علماً أن ذلك غير كاف لحفظها بصورة صحيحة. وقد كانت النتائج، في معظم الحالات، مغايرة لما كان متوقعاً، حيث أدت أعمال الحفظ إلى إبطاء (تأخير) التدهور أكثر مما أدت إلى إيقافه.

تنصح معاهد ومراكز الحفظ الدولية بصيانة البقايا الأثرية في مواقعها. وإعادة تشييد جديدة لنماذج الصروح وإنشاء المتنزهات الأثرية هي اتجاهات أخرى شائعة جداً هذه الأيام بسبب جاذبيتها السياحية. لكن تحقيق مفاهيم الصيانة الآنفة الذكر هو غاية في الصعوبة بسبب المدخرات المالية الهائلة التي لابد منها لتنفيذ هذه الأعمال. والحالة الخاصة بمنطقة الكتلة الكلسية، التي يلزمها الكثير من أعمال الصيانة، فهي تحول إلى حد ما دون تنفيذ الطرق التقليدية. يمكن القيام بهذا العمل الجبار فقط في حال وضع برنامج لأعمال الصيانة يرتكز على تفعيل دور الجماعات المحلية ويكون فيه الدور الموجه والمحفز للسلطات الحكومية والمحلية جوهرياً لضمان النجاح في المستقبل. ويمكن للتعاون مع العلماء السوريين والمشاركة الدولية أن يضمن الحصول على النتيجة الأمثل من وراء هذا المشروع.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

تختلف فكرة المشروع هذا تماماً عما هو معروف من متنزهات أثرية مثل سانتس في ألمانيا أو القرية المصرية الجذابة سياحياً في القاهرة. لأنه يهدف إلى تنظيم إدارة للمواقع ذات طريقة إيجابية في فهم الأوابد. وهذا ما يمكن تحقيقه على مستويين: بجعل المواطنين المحليين ينخرطون في أعمال الصيانة وبتكييف المباني المرممة كمشاغل تنجز فيها الحرف والمهن القديمة. وينبغي أن يفيد استكمال المشروع في حفظ الأوابد المهددة وبزيادة الوعي الاجتماعي بمفهوم حماية الصروح، وأن يكون أيضاً لخلق فرص عمل جديدة وإنشاء مراكز علمية للأركيولوجيا التجريبية.

ينبغي أن تقام سلسلة متنزهات أثرية في قلعة سمعان (دير السمعان) داحس وقلب لوزة وسرمدا وفي مواقع أخرى، حيث يجب أن يكون لكل متنزه سماته الفردية الخاصة، وأن تكيف بعض الصروح التي أعيد تشييدها كنماذج مطابقة جزئياً للأصل وبعيداً عن البقايا الأثرية كمشاغل لاحياء منتجات النسيج والجلد والحدادة التي تستخدم الطرق والتقنيات القديمة، يمكن أيضاً إحياء إنتاج زيت الزيتون باستخدام المعاصر القديمة. ويمكن لهذه المشاغل أن تؤدي دور مراكز تدريب يستطيع فيها الآثاريون بالتعاون مع الحرفيين المحليين أن يجربوا إنتاج نسخ مطابقة عن السجاجيد القديمة والمجوهرات والأحذية والملابس. وتطوير مراكز ثقافية ـ علمية تُمكن الدارسين من سورية والبلدان الأخرى من أن يتعاونوا مع حرفيين مختلفين يبدو مثيراً للاهتمام. فالمراكز التي تفتح للطلبة ذوي الاختصاصات المختلفة، الآثاريون، المعماريون، الفنون الجميلة، ستكون فرصة لهم لممارسة مهاراتهم وتعلم الحرف والتقنيات القديمة بأفضل الطرق. وقد تكون مشاهدة الرجال منكبين على عملهم مسألة جذب سياحي كبيرة مع إمكانية المشاركة الشخصية بهذه الفعاليات. أما القطع اليدوية الصنع فتباع كهدايا تذكارية. وتشكيل فرق البنائين المحليين والنجارين وقاطعي الحجارة الذين يستخدمون الأدوات والتقنيات القديمة سيكون له الدور الحاسم في تنفيذ أعمال ترميم المباني. وسيعمل هؤلاء بمساعدة وتحت إشراف مرمم معماري مختص. وفي الفترة الأولى من ٢ ـ ٣ سنوات سيكرس نشاطهم للتدرب على أعمال الصيانة ولتشرب أسسها وذلك بممارسة عملهم في صروح ليست بذات شأن. وتستثمر معرفتهم فيما بعد استثماراً شاملاً في أعمال صيانة أصعب وأكثر أهمية وسوف تفيد خبرتهم المكتسبة في تدريب فرق أخرى من أجل مواقع أخرى. إن أعمال الترميم المنفذة باستخدام التقنيات والأدوات والروافع القديمة ستكون أكثر جاذبية للزوار وسوف تُمكن من دراسة عمليات البناء ذاتها.

لفكرة علم الآثار التجريبي تاريخها في أوروبة فهنالك مواقع أثرية يجري تحويلها إلى مزارع أو قرى تجريبية. ففي بولونية ـ بيسكوبن، في ألمانية ـ موزومسدورف دوبل قرب برلين، في الدنمارك ـ ليجر قرب كوبنهاغن، في انكلترة مشروع مزرعة بتسر القديمة، وفي فرنسة جوفينكورت ـ داماري. ويمكن اكتساب الخبرة أيضاً في ويليامسبورغ الكولونيالية في الولايات المتحدة أو في مركز التدريب على الصيانة في فورت بروكهورست قرب غاسبورت في هامبشاير (انكلترة).

هنالك تشكيلة واسعة من خيارات الصيانة، بدءاً بإعادة تشييد نماذج مطابقة للأصل وانتهاء بإعادة بناء ما تهدم جزئياً أو كلياً، وكلها ممكنة التطبيق في مواقع الروابي الكلسية. لكن طريقة مزاولة الصيانة يجب أن تنتقى بشكل مناسب وفهمنا لأسس الصيانة مرن ويتوقف على الحالة التي آلت إليها الأبدة. ومفهومنا العام يقضي بالحد من استخدام المواد الجديدة مفضلاً عليها المواد التقليدية ولا يجيز للشبكات الحديثة، كتمديدات المياه والكهرباء أن تشوش أو تفسد البنية الأصلية للمبنى التاريخي والأرصفة القديمة، وهنالك الكثير من المعدات التكنولوجية الحديثة التي يمكن استخدامها في هذا المجال.

وبشكل عام، يمكن تكييف البيوت المهجورة لتؤدي وظائف وغايات عصرية. وسوف يكون لعمليات الترميم المتوازنة للبقايا الأثرية دوره الحاسم في نهاية المطاف. يمكننا التنوع الكبير للأبنية القديمة أن نختار المواضع حسب مقتضيات خاصة. إذ يمكن أن ترتب نُزل ومقاصف بسيطة، حيث يستطيع الزوار أن يستمتعوا بالأطعمة والمشروبات التقليدية في الظلال الباردة. ومن الجلي أنه لا ينبغي أن يكون هنالك مكان للإعلانات المشوقة أو النشاطات الاقتصادية الحديثة.

طرق القوافل في آسيا الوسطى

بوشارد برنتجس

تعريب: هالة مصطفى

انتشرت تجارة حلب انتشاراً كبيراً عبر آسيا الوسطى. كانت هناك طرق عديدة للقوافل أكثر من طريق الحرير إلى الصين، وتصل سورية بمنطقة الڤولغا وآسيا الشمالية والسهول الآسيوية والهند. سارت طرق التجارة حسب الأوضاع المحلية التي شكلتها الصحاري وواحات الأنهار على امتداد مناطق السلاسل الجبلية في الجنوب والشرق. هناك يتم المرور بأربعة أنواع من الأراضي تملي مراحل المسير اليومي، وفرص إيجاد المياه، والطعام، وأماكن الراحة، وهذه الأراضي هي الصحاري والمنحدرات وضفاف الأنهار والجبال.

لعبور السلاسل العالية في الجنوب فإنه كان يلجأ إلى أودية الأنهار وبعض الممرات الجبلية. وكانت الطرق المتجهة إلى الشرق تتبع خط سير الأودية لأن الجبال تنحدر هناك من الشرق إلى الغرب. وأسهل طرق المرور كانت الجبال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين. لكن المشكلة الرئيسة في الجبال والمنحدرات تمثلت في القبائل المحلية التي كانت ترغم القوافل على دفع أتاوات لقاء مرورها فيها. وقد حتمت الصحارى، قره قوم، وقيزيل قوم، واوستيورت ومنطقة شمال سيرداريا، البحث عن المياه للإنتقال من واحة إلى أخرى.

حددت الأنهار والواحات بشكل رئيسي الطرق التي توفر محطات الاستراحة أو التجارة، وهذا ما أدى إلى إقامة القرى على جنباتها.

وتم بناء خانات للمسافرين من أجل تأمين حماية التنقل، وذلك في الأماكن غير المأهولة. ويتوقف البعد بينها على الأحوال الطبيعية، ففي الجبال حوالي ١٠ كم، وفي السهول ٣٠ كم، وذلك بحسب المسير اليومي للقوافل. وتم الاستفادة من الأنهار الرئيسة أموداريا وسيرداريا في جزء منهما للتنقل، لكنهما لم يتعديا الإتجاه الجنوبي ـ الغربي، لذلك اضطر التجار القادمون من سورية إلى المرور عبر الجبال والمنحدرات والصحارى.

نشأت المشاكل منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر بسبب الجفاف الذي أدى إلى نضوب الآبار وحتى الأنهار، لذلك فإن معظم طرق القوافل القديمة طمرت بالرمال، ومن الصعب تحديدها الآن. وحالياً يتوضع عدد لابأس به من خانات المسافرين القديمة في الصحارى عديمة المياه، وأحياناً إلى جانب البحيرات التي جفت.

كانت فترة السلاجقة، ثم فترة التيموريين من أكثر الفترات المعروفة في نشاط الطرق التجارية في آسيا الوسطى، بينما لم يعرف إلا القليل عنها في فترة سيطرة المغول. وتدنت أهمية التجارة الشرقية ـ الغربية منذ القرن السادس عشر الميلادي، بسبب ظهور التجارة البحرية الأوربية، بينما استمرت التجارة الهندية مع آسيا الوسطى حتى القرن الثامن عشر الميلادي. ولانعلم كثيراً عن تأريخ شبكة هذه الطرق التي من الممكن أن تكون قد استخدمت منذ العصر الأخميني في القرنين السادس وحتى الرابع ق.م.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

وصفت تقارير الرحالة العرب والفرس النظام السلجوقي بشكل جيد، لذلك اعتمدت الدراسات الأثرية على هذه النصوص. وقد اهتمت الدراسات بشكل رئيسي بالطرق التي تعبر ميرڤ، والطريق عبر اوستيورت، والمحطات في سهب الجوع، إضافة إلى كثير من المباني المتفرقة لقوافل المسافرين. وتسمح النتائج بإعادة بناء طرق التجارة، بأنظمتها المعدة للدفاع والسياسة التي وضعها السلاجقة والكاراخانديين. وأمكن تحديد عدد لابأس به من الخانات والرباطات التي تم التنقيب في بعضها، ولايزال هناك الكثير من الأعمال التي يجب القيام بها مستقبلاً. وخانات المسافرين والرباطات على طول الطرق بالقرب من المدن معروفة أكثر من السرايا في المستوطنات. تم تشييد مبان عديدة على حساب الحكام مثل مبنى رباط الملك أو مثل الأوقاف كالمجمعات الكبيرة الحجم مثل آكخا ـ قالا، والصروح الأثرية مثل الخانات الشهيرة للسلاجقة ـ الروم، بالاضافة إلى الخانات التي استخدمت كمحطات تابعة لنقاط المراقبة التي يتم تجاوزها. وكان هناك أماكن حراسة للبريد وأبراج إشارة خاصة في الحدود المتاخمة لمناطق البدو. وقد تم إنشاء خانات المسافرين في آسيا الوسطى بأحجار الآجر أو الباخسا والفخار الموسوم، ومن أجل مهمة الدفاع والمواجهة تم استخدام الآجر المشوي، مما أدى إلى تخريب الحياة النباتية القليلة في بعض المناطق، من أجل إنشاء العمارات. وقد لحق بخان « الرباطي ـ مالك » الجميل خراباً كلياً تقريباً من جراء سرقة الآجر. وتم استخلاص المعلومات التالية بشكل رئيسي من المصادر الروسية القليلة الانتشار في الخارج.

آ. الطرق من ميرڤ إلى آموداريا

لعبت ميرڤ دوراً هاماً كنقطة تقاطع لعدد من الطرق التجارية، فمن الجنوب ترتبط بطريق يتبع نهر مرغاب (الشكل١). ومن الجنوب الغربي تأتي القوافل القادمة من بغداد وحلب مروراً بنيسابور وسيراخس تتبع كوبث داغ في الجنوب. شمال هذه الجبال هناك طريق يمر بنيسا وأبيڤيرو. في ميرڤ نفسها لم يتم اكتشاف أي خان للمسافرين. وهناك طريقان من ميرڤ باتجاه الشمال، أحدهما يمر عبر شاڤال وباشان إلى الشمال الغربي والثاني إلى كوشميخان.

في هذه المنطقة تفرعت الطرق، فيلتقي أحدها بالطريق الغربي، ويتجه الثاني إلى سيراب وينتهي اليوم في رمال لانهاية لها. ويؤدي الثالث إلى الشرق باتجاه ديڤاب. وهناك يتجه إلى الشمال ويصل إلى آموداريا في آمول. تقع فاراب على الضفة الشمالية للنهر وهي نقطة بداية السفر باتجاه بخارى. يحاذي أحد طرق القوافل النهر إلى الأسفل باتجاه خوارزم ويلتقي في سينج ـ راباط بالطريق الشمالي الغربي القادم من ميرڤ. في هذا الطريق، يوجد آثار شاڤال ـ٧كم إلى الشمال من ميرڤ ـ، وتم اكتشاف آثار مجاورة لها تمثل خاناً مستطيلاً (٦٢×٣٠م)، لم يبق منه سوى الجدار الخارجي والبوابة مع برجين. ولم يتم التنقيب في داخله.

باشان هي المحطة التالية، وتسمى الآن كورتلي ـ ديب ٢٣كم إلى الشمال من ميرڤ (الشكل٢)، اكتشف فيها خان ومبنى ضخم غير مكتمل ومسجدان وبعض الأبنية الخاصة. وقد تم بناء هذه المحطة في القرن الحادي عشر، وتتألف من جزئين، الشمالي ١١,٥×١١,٥ متر والجنوبي ١٦×١٢متر. والمحطة التي تليها مدينة هرمز فارا، وهي الآن عبارة عن أطلال ممتدة إلى جانب سرير نهر جاف (الشكل٣). ويعتقد بأن ثلاثة أبنية كانت خانات للمسافرين، لكن الغربي منها يظن أنه مسجد. وتم اكتشاف خانين في الحدود الشمالية، الشمالي منها ٨٠×٦٥ متراً والجنوبي ٧٠×٥٠ متراً. يقع مركز الحراسة ديخي ساجاري ويدعى الآن أبدانغ ياندز (١٠٠×١٠٠م٢) إلى الشمال ١٤كم من هرمز فارا، مؤلفاً برجاً دائرياً من القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر، على بعد ١٠كم منه توجد نقطة مراقبة (١٠٠×١٠٠م)، يليه إلى الشمال بـ٣٢كم الرباط سوران بمساحة ١٩×٢٩متراً يحمي البئر « ياكبير »، وقد تم بناؤه من آجر مشوي تم صنعه في المكان نفسه. وإلى الشمال من رباط سوران يقع خان للمسافرين رود ـ ميرجين (٤١,٤×٤١م) وفيه مخطط لأربع ايوانات، وبوابتين وبرج كبير (الشكل٤). وعلى بُعْد ١٠كم منها كان هناك واحة مع البئر « يانديكلي ».

كان الطريق من رباط سوران إلى نوشاغيرد بمسافته البالغة ٤٤كم من الصحراء هو الأخطر بحسب رأي القزويني، حيث لايوجد سوى ثلاث آبار إلى الشمال حتى نوشاغيرد، ويوجد إلى جوارها بناء حجري « ساغاباد » أو

« سينجينباند » وربما كان نقطة المراقبة الحجرية سانغراباد، حيث تصل القوافل إلى آموداريا بعد مسيرة ثمانية أيام، أما في حال المرور بمنطقة آمول فإنها تحتاج إلى عشرة أيام لكن في طريق أكثر جمالاً.

كانت كوشمي خان أول محطة كبيرة على الطريق من ميرڤ إلى آمول، وتبعد حوالي ٢٨كم. وكانت قد استوطنت منذ الأخمينيين ،وهي الآن أطلال، فيها آثار أربعة خانات على الزاوية الجنوبية الغربية لدار البلدة (٧٥×٥٥م). ويبدو أنه تم استخدام المبنى منذ القرن السابع الميلادي وحتى القرن الثاني عشر الميلادي. وإلى الشرق من بوابة ميرڤ هناك خانان آخران (٦٠×٤٠م ٦٠×٥٠م) يعود تاريخهما للقرنين التاسع والعاشر الميلادي.

كانت بئر « تويدجي » المحطة التالية إلى الشمال، وتبعد حوالي ٩كم، وبعدها بـ ١٦كم بئر بايغوشلي، ثم بئر كومورشي المبنى من الآجر على بعد ٩كم منذ حوالي ٢٠٠٠سنة.

وباتجاه هذه المنطقة، حالياً يمكننا أن نتتبع سرير نهر كليف ـ أوسبوي الجاف حتى هذه المنطقة، حيث تقع سيراب على بعد ٣٠كم إلى الشمال الشرقي ،وبعدها بـ ٥كم ينتهي الطريق في رمال الصحراء. ويتجه طريق آخر إلى الشرق، حيث تقع نقطة مراقبة على بعد ٢كم إلى الشرق من كوشمي خان، ومستوطنة قديمة تبعد ١٤كم عن المدينة قرب بئر بايغوشلي، وقد سكنت في العصر البرونزي، وفي الفترة بين القرنين السادس والثاني عشر، وهناك آثار لمبنيين كبيرين، ويوجد على بعد ٣كم منها خان آخر (٤٢×٣٧م) قرب نهر سابق جاف. وقرب ديڤاب بـ ١٤كم هناك خانان: الشمالي منهما ٦٠×٥٥م تم بناءه في القرن الثامن إلى التاسع، وبني الجنوبي (٦٥×٦٠م) في القرن العاشر الميلادي.

وتم اكتشاف آثار خانين بمساحة ٢٠٠م٢، على بعد ٤كم إلى الشمال الشرقي من كيزيل كالا. وبالقرب منهما هناك تاكير كبير التي كانت بحيرة سابقة. الشمالي منهما أكشا ـ كالا (٨٠×١٤٧م) كان بناؤه مزدوجاً، فيه باحتان مقامتان على قاعدة عالية (٢,٥م) (الشكل٥) وعلى جوانب كل باحة هناك عمود، ومخطط كل باحة شبيه للرباتي شريف قرب نيسابور. يعود تاريخ الباحتين إلى القرنين الحادي عشر وأوائل الثالث عشر الميلادي. يوجد إلى الشرق من المبنى الكبير ساحة كنقطة مراقبة (٤٠×٤٠م)، وهذا ماآل إليه المبنى الثاني. تاخمالادرزه مع البئر شايم I يقع إلى الشمال الشرقي. وهناك خان بباحتين، وعلى بعد ٣,٥كم تقع نقطتان للمراقبة، إحداها ترجع للقرن التاسع أو العاشر والأخرى إلى القرن الحادي عشر أؤ الثاني عشر الميلادي.

كانت المحطة التالية ايرتام ـ كالا مع برج سداسي وخان (٥٨×٥٠م)، وهي محطة سكة الحديد الجديدة (ريبيتيك) المحطة القديمة ألخسا دون وجود أي آثار واضحة. ويوجد إلى الشمال منها بـ١٨كم محطة أخرى « بئر عثمان » وإلى الشمال منها هناك قالا إيشان ربات ونقطة مراقبة صغيرة مع برج إشارة قديم.

تم استيطان هذه المنطقة في القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر الميلادي. كانت الموقع الأكير للمحطة الأخيرة على الطريق إلى آموداريا (الشكل٦) على بعد ٣٢كم من النهر، حيث يوجد خان كبير (٩٦×٩٠م) تم بناؤه في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، وخان آخر من القرن العاشر أيضاً (٧٥×٧٥م). والأكبر كان مؤلفاً من أربعة ايوانات و ثلاثة غرف على كل جانب.

تم بناء المحطة الأخيرة (٣٢×٣٨م) على الطريق إلى آموداريا في القرن الثامن عشر الميلادي، وهناك إلى جوارها آثار تعود للقرنين العاشر والثالث عشر الميلادي، حيث يوجد أقدم خان للمسافرين، وأجزاء باقية من برج إشارة، لقبت هذه الآثار باسمها « كيلتي مينار ».

كانت آمول هي نهاية هذا الطريق، أما الآن فينتهي عند المدينة السلجوقية المحصنة « شارد زهو »، حيث لم يتم اكتشاف أي خان في هذا الموقع.

ب. الطريق المجاور لـ آموداريا من آمول إلى خازاراسب

كان الطريق المجاور لـآموداريا طريق تجاري رئيسي باتجاه بحيرة آرال، وإلى شمالها اوستيورت إلى ڤولفا، استخدمتها القوافل القادمة من سورية أو العراق ابتعاداً عن مناطق

البيزنطيين. يمر الطريق الرئيسي محاذياً للأراضي الزراعية. وكان الأمن المشكلة الرئيسية هنا، لدخول قبائل البدو الرحل والعدو السلجوقي كاراخانيد إلى شمال النهر. لذلك فإن المنطقة قرب آمول كانت محصنة، وغالباً ماكان طريق القوافل من آمول إلى بخارى يستخدم للأغراض العسكرية.

تغادر القوافل آمول إلى خوارزم وتعبر من ثمانية إلى عشرة حصون في أول عشرة كيلومترات في طريقها. يصلون بعد ٢٠كم إلى موقع غرب آمول «أوديو ديب» المحاط بالجدران والحصون التي يبعد أحدها عن الآخر من خمسة إلى ١٠كم، مثل باراكيز ـ كينت، ديناو وأوليا ـ ديب، وعلى بعد ١١كم من اوديو ـ ديب يصلون إلى قلعة قالاي ـ مور، وبعد ٣,٥كم إلى رابات سينجر ـ قالا. على بعد ٧,٥كم هناك مدينة ايسباس ـ قالا فيها ساحة (٢٠×٢٠م) رابات تاش ـ آخير تعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي.

تعبر القوافل الطريق قادمة من ميرڤ عبر الصحراء عند حصن سينغ رابات (٢٧ ـ ٢٧م) الذي تم بناءه في القرن الرابع عشر الميلادي، على بعد ١٠كم منها تقع سيفانا مع آثار لحصون، وفي موقع قريب من النهر هناك قلعة قديمة وتورباك ـ قالا (٥١×٤٩م) لم يتم تأريخها حتى الآن. وبعد مسيرة يوم واحد نجد الفاخورية، وبعدها بـ٣كم هناك بقيت رابات دايا ـ خاتين بحالة شبه جيدة (٥٣×٥٣م) وتحيط الأعمدة بالساحة، مع أربعة غرف على شكل إيوان ويعود تأريخ المبنى إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي. وبجواره يقع خان أقدم فيه أبراج دائرية، وتبعد عنها بـ٧كم قلعة كيتمينش في مدينة جيجر دشلي المترامية الأطراف التي تغطي مساحة من ١١ إلى ١٤كم. وفيها خان كوي ـ قالا الذي يعود للفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ويجاوره برج ١٠×١٠م.

يقع بيرق ـ تيب برج الاشارة الآخر ١٧كم إلى الشمال الغربي داخل مبنى عرضه ٤٥م، تم بناؤه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي. وبعدها مباشرة مدينة دارجان. أما بالنسبة لموكاداسي التي تعود للقرن العاشر فقد كانت أكبر المدن في خوارزم بعد كورجان، وقد دمرها المغول. على بعد ١٥كم منها يوجد آك ـ رابات وهي أطلال مساحتها ٤٠×٣٦م تعود للقرنين الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. المحطة السادسة لهذه الطريق تم ذكرها من قبل الاصطخري، وهي دزهيجيربيند على بعد ٣٨كم من دارجان. هنا ينتهي الطريق القادم من بخارى. على الطريق إلى سادڤار، كان الخان رابات ـ ديكاني شير على بعد ٣٨كم. وقد تم توسيعه من قبل خيفا ـ خانز في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر الميلادي. كانت مدينة سادڤار على بعد ٥٠كم من دزهيجيربيند، حيث تم اكتشاف خانين فيها: كاشا ـ قالا من القرن العاشر الميلادي، يذكرنا بـ خان ـ كورتلي، حيث تم البناء بحجرين مستطيلين مع بعضهما البعض. يحتوي الجزء الجنوبي (٤٨×٤٤م) على الباحة، والشمالي منه على ساحة مساحتها (٣٢×٣٢م). واستخدم هناك الآجر من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر الميلادي ومن القرن الرابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي أيضاً. وقد وصلت القوافل إلى خوارزم من منطقة خازاراسب.

ج. خوارزم وغرب توركمانيا.

تغادر القوافل خازاراسب مروراً بـ كاردار نخاس إلى خيوا، حيث يوجد خان المدينة الجيد الانشاء والموصول بـ(تيم)، وهو مركز التسوق. وقد تم تشييد هذه المباني على نمط تقليدي من قبل آلاء قولي خان في ١٨٣١-١٨٣٢م (الشكل٨). وتقع قرب البوابة الغربية. تمت تغطية التيم (٧٤×٢٦,٥م) بقبة رئيسية وأربع قبب ثانوية فوق الشارع المزدوج. مساحة الخان ٦٩×٥٠م والباحة ٤٦,٣×٤٢,٤٢م. ينطلق أحد الطرق من خيوا إلى اورغينش مروراً بـ ارداخوشنوسان، انديرستان، ونوزڤار. وفي اورغينش لازالت البوابة الواضحة لخان التيموريين قائمة. وهنا ينتهي الطريق القادم من وادي اوسبوي في الغرب. وعلى طول هذه الطريق هناك أربع نقاط مراقبة دائرية محصنة أو خانات تدعى ديڤ ـ قالا. كاراڤان ـ غاج، رابات تامغاج أو تالاخان ـ آتا وآك ـ يايلا، استخدمت خلال الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي. تالاخان ـ آتا قطره ٦٠م وباحته هي ساحة (٢٤×٢٤م)، وفيها حوض لجمع الماء تحت الأرض يتسع لـ ١٣٨,٥م٣ من المياه. يعود تاريخ البوابة الضخمة إلى عام ١٠٧٩م. وكان يتم تزويد آك ـ يايلا بالمياه عن طريق نظام جمع مياه المطر.

على الطريق إلى مراكز «المجمع الذهبي» Golden Harde عند القولغا مجموعة من الخانات يصل امتدادها إلى ١٧٠ كم، عبر اوستيورت الصحراوية (الشكل ١٠). وتم تأريخها نسبة إلى النقود التي بدأت مع خان اوزبك (١٣١٢ ـ ١٣٤٠م). يبدأ الخط في الجنوب الغربي بمبنى اوشديودوك (الشكل ١١) وهو يمثل نموذج الأبنية ذات التصميم المستطيل الشكل خير تمثيل (٣١,٧×٢٨,٤٥م) والتي تحتوي على غرف للمسافرين في المقدمة وعلى الجانبين واسطبل في الجهة الخلفية الشمالية للحيوانات. يشبه خانات كوستودوك، ازهيلجيلدي، كوسبولاك، وشورك. آثار الخان التالي بيليولي يختلف بغرفتين متطاولتين في الجهة الشمالية وبمادة البناء المنشأ منها وهي من الحجر. لذلك فقد أرَّخَها ج. س. جارالوف في القرن العاشر الميلادي، وهذا مايمكن أن يكون مبكراً جداً.

ويمضي الطريق إلى اوشاكان إلى الجنوب من أورال قرب نهر إمبا. إلى جانب محطة سكة الحديد دزها مزهور، يقع خان تاش ـ كيشو (٤٢×٤٥م). وينتهي طريق النقل عند نهر أورال في المعمرة الخوارزمية سارايشيك، هي مدينة قائمة منذ القرن العاشر الميلادي.

تم اكتشاف خانين في داهستان إلى الجنوب الغربي من تركمانيا. الأصغر يمكن أن يكون نقطة مراقبة ويقع خلف سور المدينة أمام باحة كبيرة (٥٢×٣٦م). ويحوي المبنى الآخر (٣٧×٣٦م) باحة داخلية مساحتها (١١,٤×١١,٤م) (الشكل١٢). تم تأريخ الخان الشرقي (٤٦×٥٣م) بالاعتماد على الفخار في القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي والخان الثاني في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي.

سجلت النصوص الاسلامية حوالي تسع مدن و٦٠ مركز مراقبة في جنوب تركمانيا. لكنه لم يتم اكتشاف موقع ثلاث من المعمرات حتى الآن. وربما حوت كل مدينة منها خانين على الأقل، كما في دانديناكان.

د. الطرق شمال آموداريا

هناك خط رئيسي واحد من بلخ مروراً بـ تيرميز إلى الشمال. وفي تيرميز تم اكتشاف خان خارج سور المدينة، بني في القرن الثاني عشر الميلادي وتبلغ مساحة المجمع المستطيل ٥٠×٧٠م.

يتجه الطريق من تيرميز إلى هاشم جيرد في الشمال الغربي ثم يتحول إلى بخارى، ويلتقي بطريق آخر من تيرميز إلى شاغانيان ـ رود، ويتجه إلى الشرق مروراً بـ شوفان، وآنديان، وفاشجيرد، وراشت ثم يتجه إلى الشرق.

كانت القوافل تأتي من كابول وتتجه إلى كاربينك، ومن هناك مروراً بآندزهاراك وكولبوك إلى مونك ثم إلى الغرب باتجاه تامليات. وهناك عثر على طريق على طول باخشاه إلى هيلاڤيرد وليڤاكيند. ويمكن الذهاب من تامليات إلى ڤاشجيرد أيضاً. يعبر الطريق الشمالي الغربي سوباخ وخوزار ليصل إلى نيسيف. أما الخان المتأخر من القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلادي فكان خاتين رابات في وادي سورخان داريا.

على الطريق من نيسيف إلى بخارى، ذكرت مدينة ڤاركا فقط، تحوي على ستة إلى سبعة خانات فيما بينها، لأن خط النظر يصل لحدود ١٣٠ كم. يتجه طريق واحد من بخارى مروراً بـ ڤاراخشا وخان إلى خوارزم. يأتي الطريق التجاري الرئيسي إلى بخارى من ڤاراب المواجهة لـ آمول على الضفة الجنوبية من آموداريا. تبعد آثار فاراب حوالي ١٠ كم من مدينة فيربر الجديدة، وتشكل حقلاً كبيراً من الآثار. وأقدم أثر معروف هناك هو برج كزيل ـ أرسلان وهو خان دائري، وكان في المدينة خان كبير فيه باحتان وهو مشابه لآكخا ـ قالا.

بعد داراب، يعبر الطريق أمديزا وبايكينت، وهذه الضاحية تحوي على الأقل /١١/ خاناً (الشكل ١٤)، أحدها الخان I (٧٧×٧٧م) يحتوي على بوابتين و٦٠ غرفة لكل منها بابان (الشكل١٥). ويعود الخزف المكتشف في الموقع إلى الفترة مابين القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلادي. وقد أعيد استخدام موقع الآثار في النهاية كمقبرة.

وفي بخارى، لاتزال بعض الأجزاء من بازار سابق قائمة ـ وبشكل رئيسي البوابات ـ مع الغرف والتيم خانات عبد الله. ويعتقد أنها بنيت في القرن السادس عشر الميلادي.

وأبسط خان هو تاكي ـ سارافون وهو ثماني الشكل ذو قبة رئيسية وقبتان ثانويتان، وأعقد خان هو تيلباك فيورشون، فيه ستة أعمدة تحمل القبة المركزية المحاطة باثنتي عشرة قبة أخرى فوق ممر دائري يحيط بالقاعة المركزية. وتم إضافة أربعة مداخل وممر ضيق جداً لسوق مغطى. أما خان تاكي ـ زاغارون فيقع عند مفترق طرق، وهو مربع ذو قاعة مركزية وقبة وممر مؤلف من ١٦ قبة، وقبة فوق كل بوابة من البوابات الأربع.

أما الخان الأروع نظراً لبنائه، فهو تيم عبد الله ـ خان (الشكل١٦). فيه أربعة أعمدة تحمل القبة المركزية. ويحيط بها ممر مسقوف بـ ٢٨قبة. لم تكن الخانات آنذاك مصانة، ويمكن أن تكون عشرة منها فقط صالحة للخدمة.

يتجه الطريق من بخارى إلى كيرمين مروراً بمدينة تاڤاڤيس. يرى المسافرون على بعد ٢٠كم رابات ـ ماليك، أحد أفضل الخانات في آسيا الوسطى، وقد دمره سارقو الآجر منذ عدة سنوات (الشكل ١٧). تم بناء هذا الخان بتوصية من شمس الملك في ١٠٧٨ ـ ١٠٧٩م. وأتاح التنقيب إعادة ترميمه. مساحته من الداخل ٨٦×٨٦م ومن الخارج ٩١×٩٦م. يحيط بالمجمع فناء واسع ذو سور ضخم (١٥٠×٢١م). وكانت واجهة البناء الجنوبية مزينة بأنصاف أعمدة بزينة قديمة. وكانت هناك مبانٍ تعود لزمنين. يمر الطريق من كرمين إلى الشرق بدبوسية. كوشانيا، وسمرقند حيث يتفرع الطريق. يتجه فرع منه إلى كيش ثم إلى الشمال الشرقي مروراً ببركة وقطفان إلى دزهيزاك. ومن هناك يتجه الطريق إلى الشمال الغربي حتى يصل تاشكينت (الشكل١٨) وعلى امتداد هذا الطريق تم اكتشاف خمسة خانات وعدة نقاط مراقبة.

تم بناء قلعة دون ـ تيب في الفترة بين القرنين الخامس والسادس الميلادي. يقع إلى الغرب من دزهيزاك بـ ٢٠كم خان غير معروف الاسم يرجع إلى القرنين التاسع والقرن العاشر الميلاديين. وعلى بعد ٢٠كم إلى الشمال الغربي توجد قلعة كوسيوك ـ تيب من القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وعلى بعد ٢٥كم أخرى هناك خان كال ـ تيب من الفترة نفسها مساحته ٨٦×٨٢م. ويقع إلى الجنوب منه برج إشارة. وإلى الجنوب من هذا الموقع بـ ٢٠كم توجد ثلاثة نقاط مراقبة. ويوجد إلى الغرب منها بـ٢٠كم خان اوزوم كودوك (٦٢×٦١م) يرجع للقرنين التاسع والحادي عشر الميلاديين، وإلى الشمال منهما محطة نوڤويلي (٣٠×٣٠م) من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الميلادي. يقع إلى الشمال من اوزم ـ دوك بـ٢٠كم خان كارا ـ تيب1 من القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، وهو بناء مساحته (٥٠×٤٠م). وكانت هناك نقاط مراقبة عديدة تحرس هذا الطريق.

طرق القوافل في سيرداريا وشمال النهر

تعبر شبكة من طرق القوافل مناطق شاش وإليك. تلتقي ثلاثة طرق رئيسة سيرداريا في منطقة كودزهينت، وبيناكيت، وشينانشاكت. يمر الطريق من منطقة كودزهينت بمنطقة كاند في وادي فيرغانا. يتجه الطريق الشمالي مروراً بـ بيش كينت إلى نوكيت، ويتجه الطريق من بيناكيت مروراً بـ كاراشكيت ليصل إلى اوشتوركيت. ثم تغادر مروراً بدانتا كانكيت وزاليكيت إلى بينكات تاشكينت، يتفرع من هذه المنطقة طريقان أحدهما إلى الشمال والثاني إلى نوكيت مروراً بباندزخاش، وشافكيت، وتونكيت إلى كوهي ـ سيم. ويتجه الطريق هناك من أسفيد زهاب على طول سيرداريا باتجاه بحر آرال. وكانت المحطات الرئيسة هي: آرسو بانكات، اوترار أو كيدر ـ شافجار، ساوران، تورار وسيجناك.

يتفرع طريقان من دزهيزاك باتجاه الشرق، الجنوبي منها يمر عبر زامين وسابات إلى شاهرستان أو بوندزهيكيت. يمر الطريق الشمالي عبر اورا ـ تيوب، فاجكيت وجازاك إلى خودزهيند. ويمتد الطريق الثاني على طول خفاس إلى خودزهيند أيضاً.

يعبر طريقان آخران وادي فيرغانا باتجاه الشرق. يمر الطريق على طول الحدود الجنوبية من خودزهينت عبر كاند، سوكه، ريشتان، كوڤا واوش إلى اوزغيند الخ... وتتجهان على طول سيرداريا إلى أخسيكات، حيث يلتقيان بالطريق القادم من كوڤا إلى الشمال مروراً بـ كاسان إلى آرد لانكيت. والطريق القادم من أخسيكات إلى الشرق مرورا بـ بيكان وسيلات.

تم اكتشاف نقطة المراقبة غير المعروفة قرب نهر ماناكيلدي (الشكل١٩). تقع على الطريق من وادي فيرغانا إلى داخل تيان شان. مساحة الجدران الخارجية ٦٤×٦٥م. وتحوي ثلاث غرف إلى جانب الباحة (٢٥×٢٥م).

إلى الشمال من وادي فيرغانا، يتجه طريق التجارة من الغرب إلى الشرق من تاراز إلى ألما آتا وإلى الشمال مروراً بكويليك، بينما يمتد الطريق إلى أبعد من ذلك وبشكل غير معروف، ويتجه الطريق من تاراز باتجاه بارسخان. يوجد على الطريق بين وادي شو ووادي تالاس ثلاثة خانات كاسريباس، آخير-توب-كول-شوب ومولدي باي-دزهول-شوب (الشكل٢٠) سرت إلى هذه الخانات عبوراً لـ ١٠٠كم بين بارسخان وكولان. من هناك يعبر الطريق ميركا، اسبارا، ناوزكات، وخاران، ودزوڤان، ودزهول، وساريغ، وبالاساغان، وأو اك-بيشيم، نيڤا إلى سيياب ومن ساريغ إلى ألما آتا وإلى المناطق البعيدة باتجاه منغولية.

يتجه طريق واحد على طول إلي بحر بالخاش، ويتجه الطريق الثاني إلى الشمال الشرقي مروراً بـبيزهي إلى بحيرة آلاكول. وقد تم اكتشاف نظام من الحماية على طول المنحدر من اوستيورت إلى سهول خوارزميا (خوارزم).

تستطيع القوافل وأعداؤها من عصابات الرعاة أن تتسلق أو تنزل فقط من بعض الأماكن. في الوادي، يتجه طريق تجاري من شيماخا إلى الحافة الجنوبية الغربية من بحيرة آرال.

في الأعلى يقع ٢٤ برجاً للاشارة في ساحات رئيسة مقامة على أساسات كبيرة. وتم بناء ١٦من هذه الأبراج خلال الفترة من القرن التاسع إلى الحادي عشر الميلادي، أما البقية فترجع إلى من القرن الثاني عشر أو بداية القرن الثالث عشر الميلادي. كانت مثل هذه الأبراج معروفة في إيران، وأرمينية، ومنطقة الجبال في سولتا نيوزداغ. وفي سرير النهر توجد نقاط مراقبة للتحكم، ذات تحصينات مختلفة للساحات الرئيسة. (الشكل١٢).

إقامة تجار الجملة الأجانب في خانات حلب

جان كلود داڤيد

تعريب: غادة الحسين

ينصب هدفي على تبيان قدرة هذا النمط من المباني على التحول الجذري عبر تطوير وظائفه المرتبطة بوجود أجنبي. لقد كانت الخانات في حلب منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى العقود الأولى من القرن العشرين مكاناً للسكن الدائم (والذي كان ضرورياً حتى القرن التاسع عشر) للتجار الأوربيين الذين كانوا يشكلون مجتمعاً صغيراً يلتف حول القناصل وأبرشيات البعثات الدينية.

في الواقع، لقد تلاءم هذا النموذج المعماري، لكونه مرتبطاً بالنشاطات والمحطات التجارية، مع سياق جديد وهو الخانات. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أصبح هذا النموذج بسبب شبهه بها مرجعاً للعمارة المحلية الجديدة، وانتقلت تأثيرات ثقافية ونماذج أخرى عن طريق التجارة، أثرت على نمط الحياة والسلوك والأفكار أيضاً التي تركت آثاراً تتجلى حالياً بالحداثة التي تميز عصرنا الراهن[١].

تتأتى أهمية هذا التطور المعماري في حلب بشكل خاص، من دورها التجاري الاستثنائي من جهة، ولكثرة عدد التجار نسبياً الذين مارسوا نشاطات فيها خلال عدة قرون من جهة أخرى، فبينما دمشق لم تعرف هذا النوع من التطور كونها محافظة أكثر ولا يوجد فيها تمثيل لقنصليات أجنبية، وقد بقيت خاناتها متواضعة بشكل عام ولم تطرأ عليها التحولات التي أصابت نظيراتها في حلب.

وحسبما ذكر المؤرخ سوڤاجيه فإن حلب الواقعة على طريق الحرير، كانت إحدى أهم المراكز التجارية في الامبراطورية العثمانية حتى القرن السابع عشر ثم نافستها كل من مدينتي اصطنبول وسميرن. لقد كانت حلب وحتى القرن الثامن عشر تصدّر أكثر مما تستورد ولهذا كانت تجارتها متوازنة لا بل تفيض عن حاجتها. حيث كانت تصدر للغرب بشكل خاص القطن والصوف وصوف الشيفوت / شعر الماعز والعفصة والبهارات، والجلد الناعم (المغربي)، وأيضاً صدرت منتجات مصنعة منها على وجه الخصوص النسيج. لقد كانت حلب إحدى المراكز الرئيسية في الامبراطورية العثمانية التي تعمل في الحرير، ولكنها خصصت منتجاتها البسيطة والفاخرة للزبائن المحليين والاقليميين في كل أنحاء الامبراطورية، وبالتحديد العاصمة وهذا بالرغم من تنافسها مع بورصة.

ومما يفسر أهميتها من جهة هو بناء أماكن تجارية واسعة ذات طابع معماري وظيفي وفاره في آن واحد، كالأسواق والخانات منذ أواخر العصر المملوكي وحتى القرن الأول من العصر العثماني، ومن جهة أخرى التواجد الأجنبي وعلى وجه الخصوص الفرنسيين والانكليز والهولنديين والايطاليين.

■ راجع التعليقات والمراجع والصور في البحث الأصلي بالقسم الأجنبي

منذ أن وقَّع كل من الفرنسيين في عام ١٥٣٥م والانكليز في عام ١٥٨٠م والهولنديين عام ١٦١٢م الاتفاقيات التجارية مع الباب العالي (السلطان)، وحصلوا على الامتيازات، أقام التجار الأوروبيون في معظم مرافىء الشرق، في خاناتها كونها أمكنة تجمع للنشاطات التجارية، ومغلقة بحيث تؤمن الحماية والانعزال. وطابع عمارتها خليوي ومتكرر معد لتجاور أكبر عدد من الوحدات الصغيرة المتشابهة الشكل. لقد حوَّل التجار الأجانب هذه الأمكنة المفيدة الى سكن له طابع الآبدة، مظاهره مميزة ومختلفة عن المنزل المدني التقليدي ذو الساحة الداخلية. لقد أظهر الوصف القديم وبالتحديد وصف الطبيب الانكليزي روسل في منتصف القرن الثامن عشر، أن هذا السكن اكتسب معظم ملامحه في ذلك العصر، ففي أواخر القرن التاسع عشر تحولت عشرات الخانات الكبيرة في مدينة حلب بشكل كلي أو جزئي، وشغلت فيها عشرات الوحدات السكنية الواسعة والمعقدة.

وارتبط أصل هذا النموذج المعماري وصيرورة تحولاته وتغيره، وأخيراً أسباب تبني هذا النمط من السكن من قبل نخبة من السكان المحليين الذين أخذوا بتبني المفاهيم الغربية في أواخر القرن التاسع عشر، بخصائص « أرستقراطية الخانات »، وهي مجتمع القناصل والتجار الأجانب وتستند مقاربتنا هذه على خطوتين متوازيتين:

أولاً: تحليل معماري للأبنية التي ماتزال موجودة في حلب، يستند على كشوف معمارية وأبحاث كنت قد أجريتها ميدانياً منذ عدة سنوات مع المعماري تيري كراندان.
ثانياً: دراسة تاريخية لهذا التحول وللمجتمع الذي أنجزه.

والمصادر المستخدمة هي كتاب « التاريخ الطبيعي لحلب » للكاتب أليكساندر روسل وهو طبيب انكليزي أقام في حلب في منتصف القرن الثامن عشر، ووثائق مذكورة قدمها كل من المؤرخ جان سوڤاجيه[٣] وفرانسوا شارل رو[٤].

الخانات التي شاهدها أ. روسل في عام ١٧٥٠:

لقد وصف روسل بشكل دقيق صيرورة تحول الخانات الى شقق، وقد ذكر عدداً من السمات الأساسية لهذه العمارة. بدأ بوصف الشكل الأصلي للخان « فقد خُصص الطابق الأول لاستقبال المسافرين الذين يستأجرون الغرف بسعر زهيد » (جزء ١, ١٨). « يوجد في الطابق الأول ممشى مفتوح يوصل الى صف من الغرف » (جزء ١٠, ١٨) « الإضاءة في معظم هذه الشقق أقل منها من الطابق الأرضي الذي تندر فيه النوافذ في الخلف أما السجاد فكان هو الأثاث الأساسي في الخانات » (جزء ١, ١٨-١٩).

وقد وصف روسل أيضاً الإقامة المحدودة لبعض التجار الحلبيين: « يستأجر التجار الحلبيون هذه الدور والتي يفضلونها لأنها آمنة وموقعها ملائم للتجارة فهي مجاورة للمواقع التجارية. لذلك فهم يؤمونها منذ الصباح حتى صلاة بعد الظهر قبل أن يعودوا الى منازلهم، ويأخذون فيها غرفة صغيرة ذات أثاث بسيط » (جزء ١, ١٩)

كما وصف منازل الأوروبيين بأنها وحدات مستقلة « منازلهم واسعة وعملية حيث يشغل المنزل نصف وأحياناً كامل جانب مربع المساحة. الرواق مسقوف، ونوافذه كبيرة على النمط الأوروبي تفتح على الساحة. أما الأرضيات فهي مبلطة بالحجر والمرمر. الشقق واسعة ومفروشة أيضاً المكاتب التجارية في الطابق الأرضي » (جزء ١, ١٩-٢٠).

وأصبح الممشى هو العنصر الأساسي في تنظيم الحيز السكني لأنه لم يعد مساحة دائرية جامعة، مساحة شبه عامة، مستمرة ومحيطية، مفتوحة بشكل واسع على الساحة بأقواس، بل أصبح مساحة داخلية للتوزيع ضمن شقة، ولم يعد فسحة جانبية بالنسبة للساحة وبالنسبة لمجموعة الحجرات التي تفضي إليه، بل أصبح مساحة محورية بفضل القيام بعدة حيل تنظيمية وخاصة في التوزيع وشكل الفتحات المتناظرة على طرفي الممشى بحيث تكون أبواب ونوافذ الغرف مواجهة للنوافذ المفتوحة على الساحة حتى الجانب الآخر.

وأما التغير الثاني والمميز الذي وصفه روسل هو معالجة الأرضيات، حيث استعيض عن البلاط الخشن والبسيط المتواتر التكرار، ببلاط آخر أملس ومرمر أكثر نقاوةً وجمالاً. وكانت الرسومات على المرمر عبارة عن مربعات ورسومات وأشكال هندسية تدل على المركزية وانغلاق الغرفة وعلى تنظيمها الذاتي. وتم إلحاق قسم من الممشى الذي كان معزولاً بشكل كامل عن باقي النمط التكراري والمتصل للخان.

والسمة الثالثة التي لاحظها روسل هي أهمية الديكور والأثاث فقد كانت المفروشات في الأماكن الحلبية «بسيطة»، بينما كانت المفروشات في منازل الأوروبيين «أنيقة».

المنزل القنصلي هو مكان للحياة «خارج الوطن»:

أولاً يجب إدراك الضعف النسبي للوجود الأوروبي في مرافىء الشرق، وفهم الطابع المنغلق لنمط حياتهم. فقد ذكر أن عدد الانكليز في حلب في القرن الثامن عشر كان خمسة عشر وعدد الفرنسيين ضعفي أو ثلاثة أضعاف هذا العدد(٥). وكان تحت حماية الفرنسيين عدد من أعضاء الطوائف الدينية: لقد أقام بعض اليسوعيين في خان الفرنسيين وبخاصة أربعة عشر فرنسيسكانياً، كان لديهم دير وكنيسة في خان شيبانة والذي اختاروه منذ وصولهم(٦)، أما الهولنديون فقد مثلهم شخص واحد هو قنصل وتاجر في آن معاً. وكان معظم القادمين من ڤينيسيا وتوسكانا من اليهود ولديهم بيوت تجارية في الخانات، ولكنهم يسكنون في الحي اليهودي وتأقلموا مع العادات ونمط الحياة المحلي.

وبالإجمال فإن مجموع التجار الأجانب كان لا يتجاوز عدة أشخاص في القرن الثامن عشر. أما السكن القنصلي الفرنسي منذ عام ١٥٦٢ فكان في خان الجمرك (الشكل ١)، وفيما بعد انتقل الى خان الحبال، حيث كان السكن عبارة عن عالم صغير يمثل مجتمعه بشكل رسمي في إطار منظم، بالاضافة الى أنه مكان تجري فيه أحداث الحياة اليومية المهنية والخاصة لكل من أعضائه. لقد وصف «شوفاليه دارفيو» في مذكراته، وقنصل آخر في عام ١٦٩٣م، بشكل دقيق المنازل القنصلية الفرنسية في القرن السابع عشر، بأنها عبارة عن مجموعة متنافرة ومنغلقة على نفسها تشمل الشقة الخاصة للقنصل ومساكن للتجار ورجال الدين وأماكن للعروض الرسمية والاجتماعية، مثل الصالة القنصلية، وهي غرفة واسعة تتسع لاستقبال تجار مرافىء الشرق وذات طراز فاخر وتضم صالةً مفروشة على الطريقة الأوروبية وأخرى على النمط الشرقي، وأخيراً الكنيسة القنصلية. أما العنصر المعماري الذي يربطها ببعضها فهو رواق أي ممر داخلي ضمن جناح مدخل الخان، ويعتبر هذا الممر مساحة مشتركة بين مجموع السكان والمنزل القنصلي. ومما يسهل وصول الزائرين إليها أن نظامه شبه عام. ولقد اتبعت المنازل التقليدية الأخرى نفس الأسس وربما تكون أقل أو أكثر اتساعاً وفقاً لأهمية وغنى العائلة التي تقطنها(٧).

تحول المنزل القنصلي لسكن عائلي في القرن التاسع عشر:

تناقص عدد التجار الأوروبيين في مرافىء الشرق خلال القرن التاسع عشر، وأصبحت القناصل هيئات ذات طابع إداري. وقناصل الدول الكبرى مثل (فرنسة، المملكة المتحدة) كانوا من البلدان التي يمثلونها(٨)، بينما بالنسبة للآخرين، فقد تزايدوا شيئاً فشيئاً وكانوا تجاراً من أصول مختلفة، فقد شكلوا مع أحفادهم مجتمعاً جديداً في الخانات(٩).

وتبنت العائلات الكبيرة من التجار نمط السكن الذي تطور سابقاً في المنزل القنصلي، ولعبت دوراً هاماً في إنجاز وتكريس ونقل نموذج معماري خاص. ومن هذه العائلات عائلة ماركوبولي في حلب، أصلها من جزيرة كيو اليونانية، وعائلة بوش وأصلها من مقاطعة بوشير في تشكوسلوفاكية. وقدمت عدة عائلات على الأغلب من إيطالية، فينيسية ومن ليفرون ـ إيطالية. وعائلة بيكيوتو وعائلة سيلفيرا، وعائلة كابايا... الخ.. وبالاضافة الى الخانات التي تحولت منذ قرون إلى فقر طائفة أو الى نظام ديني. وظهرت خانات «عائلية». ففي نهاية القرن التاسع عشر سكنت عائلة ماركوبولي في ثلاث شقق وشغلت نصف طابق في خان علابية، بينما شغلت عائلة أخرى ربع الخان، وثم مدرسة كاثوليكية. وكذلك الأمر في خان النحاسين وخان البرغل حيث شغلت نصف الشقق فيهما عائلة بوش وبقيت فيه منذ عام ١٨١٩ حتى أيامنا. أما عائلة كابيه فقد شغلت النصف الثاني من خان النحاسين، أما خان الحرير فقد شغلته عائلة تعمل في الصرافة (ربما هي عائلة كابيه أيضاً). فيما تقاسمت عائلة بيكيوتو وآخرين جزءاً كبيراً من خان الجمرك مع عائلة ماركوبولي. وشغلت عائلة ڤيلكروز (أخ وشقيقان) خاناً أطلق عليه اسم عائلتهم، ويقع هذا الخان الى الشمال من خان الحرير الذي أعيد بناء جزء كبير منه في عام ١٨٦٧م(١٠) (الشكل ٢).

إن هؤلاء الأجانب ليسوا غرباء تماماً، وقد صنفوا تحت اسم عام وهو« افرنجي »[١١]، والفرنجة نفسهم لا يمكن تعريفهم حسب انتماءاتهم الوطنية الخارجية المشتركة [١٢] فهم لا يشكلون مجتمع غربي (أجنبي) ضمن مدينة كما الأمر في مدينتي القاهرة أو الاسكندرية، ولكنه مجتمع ضمن وسط مستقل نسبياً والذي وصف بـ « اورستقراطية الخانات »، لقد شكلوا جزءاً من النظام العثماني السياسي والاقتصادي والاجتماعي مع أنهم لم يكونوا رعايا عثمانيين.

منزل ڤينسينزو ماركوبولي في خان العلابية هو نموذج مكتمل عن سكن الخانات : لقد سكن منذ القرن الثامن عشر أجانب في خان العلابية، كما يشهد على ذلك تاريخان، فقد سكنوا في عام ١٧٤٠م قرب الزاوية الجنوبية ـ الغربية منه وفي عام ١٧٧٠م في الزاوية الشمالية الشرقية منه. لقد قدم أندرياس ماركوبولي من مدينة كيو ـ إيطالية، واستقر في حلب في بداية القرن التاسع عشر. أما ولده ڤينسينزو فقد ولد في عام ١٨١٠م والتقى بخاله ليوناردو جوزتيسيناني (من مدينة كيو أيضاً) في مقر التجارة الذي أسس في حلب عام ١٨٣٦م. وكما ذكر الرحالة ف.أ. نيال الذي سكن في حلب بين الأعوام ١٨٤٢ و١٨٥٠م[١٣] فإن ڤينسينزو أصبح غنياً لدرجة أنه أعاد ترتيب خان العلابية (الشكل٣) على طريقته. وفي عام ١٨٤٦م كانت قاعدة الشرفة المخصصة لاعتماد الدبلوماسيين تحمل علامة النقد العثماني A.V. وربما أصابت بعض التفاصيل تغيرات فيما بعد، ولكن المنزل بمجمله حافظ على تنظيمه، وقد سكنته حتى عام ١٩٥٠م آلما ماركوبولي وهي حفيدة ڤينسيزو. لقد تم إتمام الكشف على المبنى الحالي بفضل عدة تحقيقات قام بها نزلاء سابقون في المنزل وبفضل تحليل الصور القديمة للمبنى[١٤].

لقد تمركزت غرف الإقامة جميعها في الطابق ما عدا بعض المنافع. يتم الدخول الى الخان في البداية عبر باب كبير محروس يغلق ليلاً، ونهاراً عند الضرورة. تقع الأدراج المؤدية الى الرواق على طرفي المدخل الواصل الى باحة الخان. في خان العلابية يوجد درج واحد يصل الى قرص درج حيث باب المنزل المصنوع من الخشب النافر.

ينفتح الباب على محور الرواق الكبير وهو مساحة مركزية مبلطة بمربعات من المرمر الأسود والأبيض. وتوجد قرب الباب عدة مقاعد مخصصة للحارس (قواص) وللزوار. أما وظيفة الأثاث إظهار الأبهة حيث توجد مفروشات ثمينة ومجموعة من التحف الفنية والأثرية والخزائن. وعلى الطرف المقابل قطرياً، فإن الرواق يفضي إلى ثلاث فتحات هي باب بين نافذتين، حيث يصل الى الصالة الكبيرة والتي يتعامد محورها مع محور الرواق. وحسب الصور المأخوذة عام ١٩٠٠م فإن أثاث هذه الغرفة المثلثة يجمع بين الأنماط الغربية والشرقية مثل الأرائك المصفوفة على طول هذه الغرفة.

كان للغرف الجانبية على طرفي الممشى وظائف خدمية، فالمكاتب التجارية معزولة في الطابق الأرضي. وتغيرت هذه الوظائف مع الوقت تبعاً لأنماط العائلة وتركيبها. حيث نجد في هذه الحالة صالة بلياردو ومكتبة وغرف نوم. وتقع غرفة الطعام بالقرب من المطبخ والمنافع المشتركة والتي تفضي بواسطة ممشى ثانوي، والذي يؤدي بدوره الى مطابخ وشرفات وحدائق خارجية. وإحدى هذه الغرف الواقعة بجانب الساحة مزينة بمظلة مهمتها المحافظة على الترتيبات النموذجية للسكن التقليدية، فهو مفتوح على الخارج من ثلاثة جوانب، حيث يمكن الجلوس على منصته التي تشبه الايوان في المنازل القديمة،وهو رمز للمحافظة على نمط من العلاقات « التقليدية ».

ومن وسائل الترفيه وجود شرفة مفتوحة على السماء وهي في فراغ الباحة، ومحاطة بدرابزون على النمط الايطالي مع حجر منقوش حول البئر. وأحواض من الحجر لزراعة الزهور. وقد جُهزت بعض الغرف بمدافىء من المرمر والكلس الناعم على النمط الكلاسيكي أو من عصر النهضة مصنوعة محلياً أو مستوردة من إيطالية.

أما التجهيزات الصحية فهي بشكل عام أكثر بساطة منها في المنازل التقليدية من نفس المستوى. حيث توجد دورة مياه واحدة، ولا يوجد حمام شرقي. ولم تُعرف غرفة الحمام الحديثة إلا متأخراً في هذا السكن. أما المطبخ فهو مجهز بمدخنتين وبئر وخزان مياه.. الخ، مما يذكرنا بالمنازل المحلية. كما يمكن الوصول إلى الشرفات العليا بدرج مستقل، فلكل منزل شرفة مغلقة بجدران عالية للمحافظة على

الحميمية (حيث يمكن النوم فيها صيفاً) . ويوجد باب أو عدة أبواب تسمح بالاتصال مع الشرفات المجاورة والشرفات المشتركة مع السوق والوصول من خان إلى خان دون النزول الى الأسواق والشوارع وفي منزل ماركوبولي برج مطل (مقصورة) ذات مستويين، بُنيا فوق أعلى طرف الرواق، أمام مدخل الصالة . المستوى الأول هو نوع من المنور له اثنتا عشرة نافذة مما ينشر الضوء الجميل في الرواق . وأضاف في عام ١٩٠٠م غرف مربعة مضاءة باثنتي عشرة نافذة عالية، مغطاة بشرفة بانورامية يمكن الوصول اليها بدرج خارجي .

وقد كانت منازل ماركوبولي في خان العلابية وفي خان الجمرك مسكونة حتى الحرب العالمية الثانية، وما بعدها . وكذلك منزل عائلة بوش في خان النحاسين وتم الحفاظ عليه . وأحياناً كان المنزل الثاني لعائلة بوش في خان البرغل . وتحولت كل منازل الخانات الأخرى خلال وقت قصير أو طويل في نهاية القرن التاسع عشر الى مدارس دينية أو الى مطاعم أو فنادق منذ الحرب العالمية الأولى وخلال الانتداب الفرنسي بالنسبة لمعظمها . وتم ترميم الممرات وفُتحت للسير وقسمت الى أماكن مستقلة واستعادت الخانات بنيتها الخليوية ونشاطاتها التجارية . إن نمط السكن في الخانات لم يختف فقد تم تقليده من قبل جزء من البرجوازية التجارية المحلية .

اختيار نموذج محلي لسكن جديد:

لقد تم بفضل عدة تجار كبار، كانت لديهم رغبة بإقامة حي جديد بالاتفاق مع البلدية، إدخال المدنيَّة الحديثة إلى حلب للمرة الأولى . فقد حصلوا على أرض واسعة بجانب الأحياء المسيحية القديمة التي قُسمت وأنشئت فيها الطرق منذ عام ١٨٦٩م، واتسمت العملية باختيار شبكة متعامدة ومنتظمة بلغ عرض الشوارع من ١٣ الى ١٦ متر في الطرق الرئيسية، في حين أنها نادراً ما تجاوزت ٥ أمتار في المدينة القديمة[١٦] . لقد كان اختيار نمط السكن هو العنصر الأساسي في العملية، وبني منزل حمصي حالياً (منزل عائلة توجر سابقاً) في نحو عام ١٨٩٠، ويعتبر أحد أبرز النماذج لهذا النمط الجديد من السكن[١٧] . فقد أقيم ضمن مَقسَم مستطيل مساحته أكثر من ١٠٠٠م^{2} . ويشغل البناء أكثر من نصف المساحة بقليل (٥٦٠م^{2}) ويقع على الجانب الجنوبي حيث تركت في الشمال فسحة واسعة لباحة وفي الغرب فناء أضيق يصلح لحديقة . وهناك اختلافات جوهرية بينه وبين المسكن التقليدي، يقع البناء والباحة وخاصة الشقق في الطابق الأرضي كما في الخانات، فهي ليست مرتبطة بالباحة وغير موصلة إليها .

مدخل المنزل باب ثقيل، بشكل ممر للمشاة يفضي الى رواق صغير في محور درج أثري على اليمين، تعلوه قنطرة نصف اسطوانية .ويوجد على اليمين وعلى اليسار ممرات توصل الى الباحة والى غرف الطابق الأرضي . كما يفضي الدرج الى الشقق الموجودة في الطابق، في حين أن الطابق الأرضي مقبب بأكمله ومزين قليلاً ويشتمل على منافع . يوجد مستودعات واسطبلات ومخازن وأماكن خاصة للقناصل في الممشى الجنوبي المفضي الى الشارع الرئيسي . أما الجزء الشمالي فيطل على الباحة ويمكن المرور إليه من المدخل الرئيسي عبر رواق ومن الطابق عبر درج . وهذا الجزء يشمل المطابخ ومخازن الطعام والأقبية وأمكنة للخدم وإيوان، هو عبارة عن غرفة صغيرة مقببة مفتوحة على الباحة من جهة الشمال، وهي الأثر الوحيد المعبر المتبقي من المنزل التقليدي[١٨] . وقد زُينت الباحة بحوض وبـ (سبيل) من جهة الإيوان، وبمزروعات مثل (شجر الخبب، والورود) في محوره المتعامد .كما في المنازل القديمة فإن الباحة تصلح للإقامة في الصيف وللمتعة أيضاً .

لقد نُظم الطابق حول رواق – عرضه ٤٫٩٠ متر وطوله ٥٫٧٠م (٧٧م^{2}) ، يفضي مباشرة الى صالة الطعام والى صالة صغيرة وعشر غرف من الطرفين وصالة كبيرة في المحور مثل منزل ماركوبولي في خان العلابية . إن الرواق هو مساحة رئيسية داخلية ومحور المبنى وسطحه أعلى من الغرف الجانبية التي يفضي اليها، وهو مضاء بنوافذ عالية . وتطل واجهات الغرف على الرواق وهي مشابهة للواجهات الخارجية ولكل واحدة منها باب محوري ونوافذ (تغيرت فيما بعد) . وهو مساحة مفروشة وظيفتها غير واضحة؛ أهي للانتظار أم لعرض القطع الفنية أم هي ـ أساساً ـ مكان للعرض ولإظهار الأبهة، وقد تكون مساحة للتوزيع على وجه التحديد . لقد استبُدلت باحة المنزل التقليدي في جزء من وظائفها، ولكن بمساحة ذات شكل مختلف تماماً .

فضاءات الحداثة: سياق التشكيل المحلي والاقتباس الخارجي:

لايوجد أية استمرارية ظاهرة بين هذا النمط الجديد للسكن وبين المنزل التقليدي الذي توقف عن التطور وغاب الجانب الابداعي المدني جزئياً فيه. إن هذا المسكن الحديث غريب جذرياً حتى وإن كان يحمل سمات محلية أو مقتبسة كالنموذج الذي ابتكره مؤسسو الحي الحديث في العزيزية. إن نجاحه وأشكاله العديدة المختلفة قبل التبني الحديث للنماذج الخارجية المنشأ، لم يكن من قبيل الصدفة، بل هو مسكن ذو منزلة متوسطة مقبولة محلياً.

وقد اختفت «القبة» وهي العنصر الأساسي في معالجة الفراغ التقليدي والفروق في مستوى مناسيب الأرض. فقد أصبحت الأرضيات في منزل الحمصي وفي كافة الخانات في نفس المستوى وأُلغيت القباب. أما الارتفاعات في الأرض فلم تستمر عموماً إلا في المظلات الزجاجية للواجهات (والتي رُممت فقط في أقدم مباني العزيزية)، والمطبخ والحمام. إن هذا التوحيد لموقع مستويات الأرض هو شكل معماري غربي، مما فرض استخدام الأثاث الغربي، وبالتالي تغيير في السلوك والمواقف ونمط الاتصال. لقد اختفت أو بُسّطت المبادئ الأساسية في المنزل التقليدي بالنسبة للجهات الأصلية (فغدا اتجاه الإيوان نحو الشمال).

إن إحدى السمات النادرة لهذه العمارة والتي قد تكون لها تطبيقات محلية هو الرواق في الخان لأنه نظام توزيع لمساحة رئيسية، فقد نُقل الرواق الى منازل العزيزية والجمَّالية والإسماعيلية، فهو مساحة قابلة للاستخدام. وتتغير وظيفته تبعاً لعهد البناء والشريحة الاجتماعية التي تشغله ودرجة تأثره وبنية وتركيب العائلة والمساحة المتوفرة. ومع محافظته على وظيفة التوزيع، يعتبر مكاناً للإعلام والتعريف ومساحة للتنقل بين العام والخاص. ويمكن أن يلعب وظيفة خاصة كصالة مثلاً، فسحة للاستقبال صالة جلوس أو طعام وبخاصة في المنازل المبنية حديثاً المتوسطة المساحة[٢٠]. ويرمز هذا الغموض في تعريف الرواق إلى نوع من عدم الرضى وإلى الصراع بين الأسلوب الموسوم بالتقليدية وبين المساحة المبنية، المعبرة عن مساحة اجتماعية ـ ثقافية، وهي إشارة للتطور والحداثة. وتقل أهمية هذا التباين في الأماكن الأكثر خصوصية في المنزل مثل الحمام ودورة المياه والمطبخ حيث تطورت أساليب وأشكال المساحات بشكل بطيء.

تظهر نقاط مشتركة بين المنازل ذات الصالة أو الرواق في سورية ومنازل ـ الصالات أو الفسحات في القاهرة، ومنازل ذات الصالة في اصطنبول والأناضول، ومنازل ـ الدار في لبنان، مما يدفعنا للتساؤل فيما إذا كانت إحداها تطورت في البداية وأثرت بشكل مباشر على الأنماط الأخرى. اذا كان هناك نموذج واحد هو أصل تشابهها.

لقد سمح لنا الوصف الذي قدمه روسل بالعودة الى القرن الثامن عشر لتاريخ هذا المسكن والأوساط القنصلية في حلب، وقد مكَّن التشابه بين هذا النمط وبالتحديد مع مخططات أول سفارة فرنسية في اصطنبول (والتي نفذت في نحو عام ١٦٣٢م) من وضع نظرية عن الأصل العثماني أو الاستنابولي لهذا النموذج. إن «المنزل العثماني الكبير» يشبه المنزل الذي أسست فيه السفارة الفرنسية في القرن السابع عشر، وهو على الأرجح من أصل بيزنطي وجد في اصطنبول قبل انتشاره في الشرق الأوسط عن طريق قنوات متنوعة واتصالات مباشرة بين القاهرة واصطنبول، وربما الى دمشق (كتنقلات التجار والموظفين بين القاهرة واصطنبول والعلاقات عن طريق الزواج، وفيما بعد تأصيل معماريين في مدرسة العمارة في اصطنبول) أو بواسطة الأوساط القنصلية الغربية الى حلب.. الخ[٢١]. لقد أوضحت مقارنة دقيقة للأعمال المحلية المختلفة تكرر تأثير عدة عهود مختلفة،الذي مرده وجود تنوعات اقليمية. فقد أدخلت على منزل البيروتي مثلاً في القرن التاسع عشر المبني على النمط العثماني تأثيرات إيطالية وبدورها أثرت على الشكل السوري للمنزل العثماني في حمص وحماة وحلب. لقد شكل مسكن الخانات في حلب وبالرغم من تطور نمطه المحلي جزءاً من النتاج المتوسطي بشكل عام والذي اتسم بالغزارة لفترة طويلة، وبخاصة في عهد الامبراطورية العثمانية.